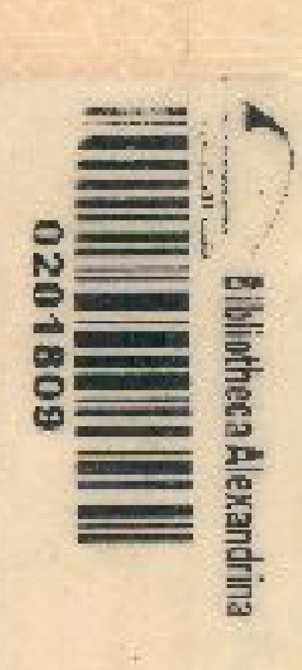
# العدوان الصليبي على العالم الإسلامي

(٤٩٠ - ٥١٥هـ / ١٠٩٧ - ١١٢١م)

## (أضواء جديدة على الحروب الصليبية)

تأليف
الدكتور
صلاح الدين محمد نوار
كلية الدراسات العربية والإسلامية
جامعة القاهرة - فرع الفيوم



# العدوان الصليبي على العالم الإسلامي

(٤٩٠ - ٥٥٥هـ / ١٠٩٧ - ١١٦٠م)

الطبعة الأولى

رقم الايداع ٣٢١٥ / ٩٢

الترقيم الدولي ISBN 977-253-037-6

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

[illegible]

ت : ٤٩٠١٩٩٤

# العدوان الصليبي على العالم الإسلامي

( ٤٩٠ - ٥١٥ هـ / ١٠٩٧ - ١١٢١ م )

( أضواء جديدة على الحروب الصليبية )


تأليف

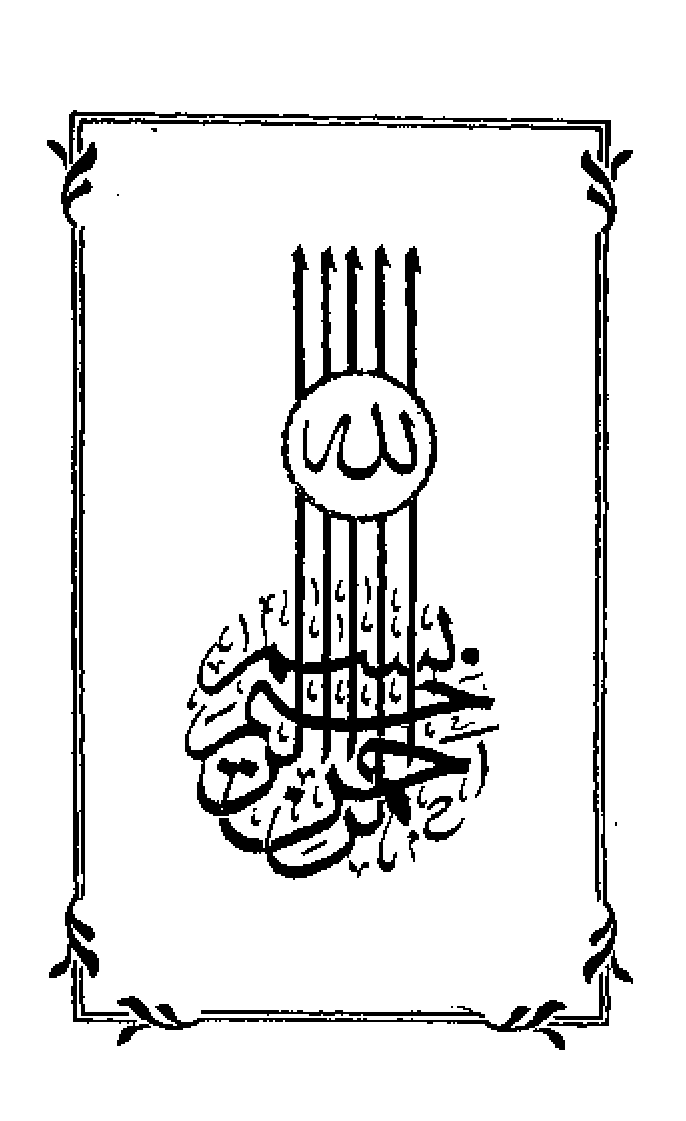
الدكتور

صلاح الدين محمد نوار

كلية الدراسات العربية والإسلامية

جامعة القاهرة - فرع الفيوم



# إهـــداء

إلى أبـى وأمـى ...

رمـزاً للتضحيـة والعطـاء .

وإلى زوجتى ...

وإلى أبنـائى محمـد وسـلمى

رمزاً للوفاء والإخلاص ، وأملاً فى مسـتقبل مشـرق .

## المقدمـــة

﴿ ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا ﴾
( المزمل : ١٩ )

موضوع هذا الكتاب هو : العدوان الصليبي على العالم الإسلامي في الفترة من عام ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م الى عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م[1] . ويقصد الباحث بالعدوان الصليبي الحروب الصليبية التى شنها الغرب الأوربي المسيحي ضد الشرق الإسلامي والشمال الافريقي استجابة لنداء البابوية في روما وتحت اشرافها وبتوجيه منها أواخر القرن الخامس الهجرى ( الحادي عشر الميلادي ) بقصد الاستيلاء على الأراضى المقدسة الاسلامية والمسيحية معا ، وفى محاولة لكثلكة العالم الاسلامى ، وتحويله الى أرض لاتينية ، والقضاء على الاسلام فى الشرق والغرب الاسلاميين وتأسيس مملكة صليبية هناك ، والعمل على تعزيز هذه المملكة وتوسيع حدودها ، والحفاظ عليها من المد الاسلامى الزاحف ، ولتكون نقطة ارتكاز أو بمثابة تكأة لهم هناك يتوسعون منها على حساب العالم الاسلامي المعاصر وقتذاك .

وتعتبر الحروب الصليبيه من الحركات العالمية الخطيرة التى وجدت اهتماما كبيراً من جانب الكتاب والمؤرخين فى الشرق والغرب على نحو لم تحظ به أية حروب أخرى حتى العصر الحديث ولعل ذلك يرجع الى ما لهذه الحروب من طابع خاص وأهمية بالغة فى تطور سير الاحداث ، وفى تاريخ العلاقات بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحي فى العصور الوسطى الاسلامية ، بجانب ارتباطها الوثيق بحركة التوسع والاستعمار فى العصر الحديث

وقد تصدى للحروب الصليبية بالبحث والتحليل كثير من الكتاب الحديثين الذين تتبعوا حملاتها ، وسردوا وقائعها وأحداثها ، وتعرضوا لأسبابها ومسبباتها ، والتعرف على آثارها ونتائجها ، وذلك فى مؤلفاتهم العديدة التى تحمل وجهات نظر متغايرة ، فمنها ما يحتوى على أحداث الحروب الصليبية كلها فى قرنين أو ثلاثة من الزمان ، وهى الفترة التى استغرقتها تلك الحروب ، ومنها ما تناول جانبا من جوانبها أو حملة من حملاتها أمثال بريبه « Bréhier » وباركر

---

(١) هذه الدراسة فى حقيقتها تمثل الباب الثانى من رسالة الماجستير فى التاريخ الاسلامى التى حصل عليها الباحث من كلية الآداب ــ جامعة الاسكندرية ــ بإشراف الأستاذ الدكتور : السيد عبد العزيز سالم ــ أستاذ التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ومدير معهد دراسات البحر المتوسط ، وأجيزت بتقدير ممتاز عام ١٩٨٤ ، وأرتأينا نشر هذا الجزء فى الظروف الحالية التى يمر بها العالم الاسلامى مع ادخال بعض التعديلات والتنقيحات التى تلافينا بها بعض الهنات لتقديمها للقارىء أو الباحث العربى .

« Parker » ، ومیشو « Michaud » ، جروسیه « Grousset » ، رهرشت « Rohrichte » ، وغيرهم . ولكن معظم مؤلفات هؤلاء من الغربيين كانت تعبر عن وجهة نظر غربية محضة ، وتميزت آراؤهم بالتحيز الصريح لبنى جنسهم ودينهم والتعصب والتشطط المبالغ فيه ، ولذلك يجب على الباحث فى هذا المجال أن يلتزم جانب الحرص والحذر من مثل هذه المؤلفات ، وأن يحاول تحرى الحقيقة الكاملة والكشف عنها من خلال هذه الأعمال . ولحسن الحظ بدأت المكتبة العربية التاريخية فى النصف الثانى من القرن العشرين تحظى بعشرات المؤلفات من جانب الباحثين العرب والمسلمين أو الأوربيين المنصفين الذى اتخذوا الحيدة والموضوعية فى تناولهم لهذه الحروب واتسمت أعمالهم بالعمق والنقد والدراسة والتحليل .

وهذا الكتاب الذى نضعه بين أيدى القارىء والباحث العربى والذى يتناول جانبا من جوانب الحروب الصليبية أو العدوان الصليبي على العالم الاسلامى خلال فترة من أهم فترات تلك الحروب على الاطلاق ( من عام ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م الى عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م ) وهى التى شهدت أول نجاح حققته الحركة الصليبية لتنفيذ مآربها الاستعمارية فى الشرق الأدنى الاسلامى . هذا الكتاب ليس الا محاولة متواضعة من جانبنا لاظهار حقيقة تلك الحركة والأهداف البعيدة التى تكمن وراءها والأغراض التوسعية اللاتينية تجاه العالم الاسلامى بأكمله ، والتطور الذى بدأ يطرأ فى استراتيجية الفكر العسكرى الأوربى الصليبى تجاه العالم الاسلامى ، وتسليط الأضواء على الدور الرائد والقيادى الذى قامت به مصر الاسلامية فى تلك الفترة تحت الحكم الفاطمي فى حمل لواء الجهاد المقدس ضد المد الصليبي الجارف والزاحف من الغرب الاوربى لأبتلاع العالم الاسلامى وقتذاك فى وقت كانت مصر تمثل فيه ميزان القوى ومركز الثقل والأفعال وردود الأفعال فى العالم الاسلامى كله ، ودورها فى دفع العدوان الصليبى عن العالم الاسلامى فى العصر الوسيط بأكمله وحتى مطلع العصر الحديث وكانت تنكسر عند حدودها جميع الموجات المعادية التى هدفت إلى القضاء على الاسلام والمسلمين فى عالم العصور الوسطى وذلك على النحو الذى أكدناه فى مواضع عديدة من هذه الدراسة .

وغير خاف أننا نعرض لموضوع قديم وجديد فى آن واحد. فهو قديم لأنه يذكرنا بعصر التوسع الصليبي الغربي الذى حاول اجتياح العالم الاسلامى من المحيط إلى الخليج منذ قرون مضت وهو موضوع جديد لأن الوقت الآن أكثر تطلبا تطلبا والحاحا لمثل هذه الدرس فالمأساه البشرية التى مارسها الاستعمار الغربى فى العالم الاسلامى باقامة الكيان الصهيونى فى فلسطين فى القرن العشرين ، بجانب العدوان الصليبى الحديث على مسلمى شرق أوربا وما يتعرضون له من مذابح وابادة فى كل من البوسنة والهرسك وغيرها على أيدى الصليبيين الجدد ، انما يمثل امتداد طبيعيا للعدوان الصليبى القديم ولا يختلف عنه كثيرا الا فى الأسلوب الذى يتفق والأوضاع العالمية

الجديدة والتيارات المتصارعة فيها خاصة وأن الوقائع والتاريخ والأحداث المتتالية التى شهدها العالم الاسلامى منذ العصور القديمة حتى يومنا هذا قد أثبتت أن الحركة الصليبية فى العصور الوسطى والحركة الصهيونية فى فلسطين حركتان متلازمتان ، وتمثل حلقة من حلقات الاستعمار التى تعرض لها العالم الاسلامى على مر العصور . ويضاف إلى تلك الحركات العدوان الصليبى الحديث على المسلمين وبالتحديد فى كل من البوسنة والهرسك ( وفيما بعد فى كوسوفو وبقية بلاد شرق أوروبا ) ثم ضد الكيانات الاسلامية الأخرى فى بقية أنحاء أوربا شرقيها وغربيها الذين يواجهون نفس العدوان الصليبى الذى يأخذ فى عصرنا هذا شكلا عسكريا سافرا أيضا ومتسربلا ايضا بمسوح الدين ومتمسحا بالصليب كما نجد التشجيع والتأييد المستتر أو الخفى فى هذه المرة من جانب بابوية روما الحديثة ومن قبل كنائس الغرب والشرق الاوربى[٢] . وما أشبه اليوم بالبارحة ، ففى هذه المرة — أى فى أيامنا هذه — فان الخطر الصليبى الجديد قادم من الشرق الأوربى — عكس الحال فى العصر الوسيط عندما أتى العدوان الصليبى من الغرب الأوربى — مدعما بتأييد سافر أو ضمنى من الغرب الاوربى والولايات المتحدة الأمريكية ومن الكيان الصهيونى بفلسطين .

وحقيقة الأمر أن ما يحدث فى البوسنة والهرسك وغيرها من بلدان الشرق الأوروبى انما هو فى رأى — ارهاصات أو مقدمات للعدوان الصليبى القادم على مسلمى غرب أوروبا والذى يهدف فى المقام الأول الى تفريغ غرب أوروبا أيضا من الوجود الاسلامى هناك ، ثم بعد ذلك يزحف الى الشرق الاسلامى وغربية من محيطه الى خليجه ، وهذا يدحض ما قيل من أن التيار الصليبى قد خمدت نيرانه فى العصر الذى نشهد احداثه اليوم .

والمثير للدهشة أن العالم الاسلامى المعاصر وعلى رأسه مصر يقف مكتوف الأيدى ولا يحرك ساكنا ازاء الزحف الصليبى القادم من أوروبا ومن أمريكا واسرائيل غير مدرك للخطر الذى سيلتهم — يوما ما — العالم الاسلامى ان لم يعد العدة ويتحد فى مواجهة العدوان الصليبى

---

(٢) يؤكد ذلك موقف بابوية روما فى عصرنا الحديث من العدوان الصليبى على مسلمى شرق أوروبا الذى يشير كما أوضحنا بالمتن الى تأييدها ومساندتها للعدوان الصليبى على مسلمى شرق أوروبا ومباركتها للذبح وابادة الشعوب الاسلامية هناك ، ثم فى غرب أوروبا فيما بعد فالأحداث شبيهة بنفس الأحداث والتاريخ هنا يعيد نفسه عندما قامت الحركة الصليبية فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى بتأييد من بابوية روما وتحت اشرافها بل هى التى اعلنت قيامها وبشرت بها وكانت تمثل ركنا اساسياً من سياسة البابا الخارجية وكنائسه مما يؤكد ان بابوية الغرب الحديثة تمارس نفس دورها القديم ، ويؤكد ذلك موقف الكنائس الشرقية ورجالاتها فى شرق أوروبا وفى غربها وحتى تلك الموجودة فى العالم الاسلامى الذين لم يظهروا حتى مجرد الاحتجاج أو المعارضة للعدوان الصليبى على مسلمى شرق أوروبا مما يؤكد دورهم المشبوه والخفى فى تشجيع وتأييد التيار الصليبى الحديث الذى يهدف أولا واخيرا للقضاء على آخر موضع قدم للمسلمين فى أوروبا وهو مخطط مدروس بدقة من قبل هؤلاء البابوات وكنائسهم لانهاء الوجود الاسلامى فى كل مكان فى روسيا ثم فى بقية الهلال الاسلامى الممتد عبر تركيا وايران وباكستان وبنجلاديش ثم العالم العربى ثم دول شمال افريقيا وهذا الموقف من قبل البابا وكنائسه فى الغرب أو الشرق الاوروبى وحتى فى الشرق الاسلامى من الخطورة بمكان بالنسبة للمسلمين فى العالم الاسلامى المعاصر .

القادم الذى لا ريب فيه ولا غرو فى ذلك فالعالم الاسلامى عالم ممزق تنتشر فى ربوعه الخلافات والعداوات والتآمر والفتن والأحقاد بين القائمين على أمره .

ولو حاولنا عقد مقارنة بين موقف العالم الاسلامى وعلى رأسه مصر الاسلامية فى مواجهة التيار الصليبي فى العصور الوسطى وحتى نهاية القرن السابع الهجرى ( الثالث عشر الميلادى ) وبين موقفه اليوم فى مواجهة العدوان الصليبي الحديث بشكله الاقتصادى والعسكرى السافر والدينى المستتر ، فاننا لا نجد مجالا للمقارنة على الاطلاق . ففى العصور الوسطى الاسلامية اتحد المسلمون شرقا وغربا ـــ حكاما وقادة فى المقام الأول قبل قوى الشعب نفسه ـــ وبصفة خاصة فى العصرين الأيوبى والمملوكى ومن قبل فى عصر الفاطميين وكانت مصر هى التى تقود حركة الجهاد الاسلامى المقدس ليس فقط ضد الصليبيين بل ايضا ضد زحف التتار ، بل يرجع الفضل اليها فى انقاذ الغرب الأوروبى والشرق الأوروبى الصليبيين من هذا الخطر الذى كاد يلتهم العالم المعاصر وقتذاك بأكمله فكانت مصر تمثل ميزان القوى ومركز الثقل فى العالم الاسلامى ، وأظهرت الاحداث دورها الفعال والمؤثر فى دفع العدوان عن العالم الاسلامى خلال تلك الفترة وحتى مراحل مبكرة من التاريخ الحديث والمعاصر باعتبارها ايضا كالقلب النابض بالحركة والحياة ومركز امداد القوى الاسلامية بالمال والرجال والسلاح والتى كانت تخرج منها دائما صيحة الجهاد المقدس ضد أعداء الاسلام منذ قيام الحملة الصليبية الأولى وانتهاء بالحملة الصليبية الثامنة مما أدى الى فشل جميع الحملات الصليبية التى وفدت على الشرق الاسلامى والشمال الافريقى وتؤكد الأدلة والأحداث التاريخيه صدق هذه المقولة

ولكن فى عصرنا هذا نقول بكل أسى انه لم يعد لمصر ذلك الدور القيادى كما كانت فى العصور الوسطى الاسلامية ولم تعد تخرج منها صيحة الجهاد المقدس بقيادة حكامها مثلما كان يفعل من قبل صلاح الدين وسيف الدين قطز والظاهر بيبرس والأشرف خليل بن قلاوون وغيرهم ، بل أصبحت ومعها العالم الاسلامى يقفون مكتوفى الأيدى أمام الزحف الصليبي القادم الينا قريبا ، وذلك منذ أن تخلينا عن فكرة « **الجهاد المقدس ضد أعداء الاسلام** » وأمسكنا بأذناب البقر ـــ اذا صح هذا التعبير ـــ أى أذيال أعدائها من صليبي العصر الحديث ، وهذه حقائق تؤكدها الأحداث والشواهد التى نعايشها الآن .

فهذه الدراسة محاولة متواضعة ومخلصة من جانبنا لتنبيه الأذهان فى عالمنا الاسلامى المعاصر للاخطار التى تحيط به ، وبمصر الاسلامية بوجه خاص من قبل القوى الصليبية الحديثة والأهداف شبيهة بنفس الأهداف .

على أية حال فليس الهدف من هذه الدراسة تكرار أو استعراض ما ذكر فى مؤلفات الآخرين أو الدخول فى تفصيلات المعارك والوقائع التى افاض الكثيرون فى ذكرها وانما مهمتنا الحقيقية هى الوقوف أمام الأحداث والقضايا والمشاكل التى تتعلق بالحروب الصليبية وبمعنى أدق الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام ، وبالفكرة الصليبية نفسها وصلتها بتاريخنا الاسلامى والغوص فى

أعماق هذه القضايا ونقدها وتحليلها واستنباط الحقائق التاريخية منها والتى هى فوق أى اعتبار وأسمى من كل شىء .

والواقع أن قضايا الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام وأسبابها متعددة ومتشابكة ومتداخلة فى بعضها فمنها الدافع الشخصى فى قيامها ، ومنها أيضا العامل الدينى وأثره الخطير فى تهيئة الجو والأذهان لها ، ثم إتجاهاتها التوسعية الاستعمارية بجانب الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية الخاصة بالغرب الاوروبى .

وعلى الرغم من أن الكثيرين اعتبروا أن الباعث الدينى لم يكن هو الحافز الرئيسى الذى دفع جموع الصليبيين الى الانخراط فى الجيش الذاهب الى الشرق الاسلامى واعتبروه ستارا يخفى الأطماع الحقيقية للصليبيين الا أننا لا نستطيع أن نجرد الحروب الصليبيه من أهم أسبابها ألا وهو السبب الدينى اذ العصر وقتذاك عصر ايمان وحرب أو هكذا يبدو للعيان . ونزاع حول أماكن ينزلها الفريقان منزل القداسة أو ما يقاربها وكل يدعى صحة الحجة فيما يدعى فى وقت كان للدين والكنيسة قوة عظيمة فى تلك القرون الغابرة وتسلطت فيه الكنيسة ورجالها على قلوب الناس وهيمنت على مصائر الحياة فى غرب أوروبا حتى أن كل من يخالف تعاليمها كان يعرض نفسه لأشد أنواع العقاب والحرمان وما أكثر أسلحتها التى كانت تستخدمها ضد معارضيها خاصة فى ميدان السياسة ، هذا فضلا عن أن الكنيسة الغربية وعلى رأسها البابا هى التى دعت للحروب الصليبية فى مجمع كليرمونت الكنسى عام ١٠٩٥ م وأدى ذلك الى خروج الناس أفواجا فى حملات صليبية ضخمة الى الشرق الاسلامى استجابة لنداء أو دعوة البابا أوربان الثانى وهى الجماعات التى تسمى فى التاريخ الغربى وفى حوليات اللاتين بالحجاج « piligrims » رغم أنها نهضت للقتال واسترداد بيت المقدس خاصة وأن أهل العصور الوسطى تآلفوا على تسمية الجماعات المسيحية باسم الأحرام المقدسة التى تحج اليها .

يضاف الى ذلك أن للحملة الصليبية الأولى ، وهى المحور الرئيسى لدراستنا هذه ، أهمية كبيرة لأسباب منها أنها تلقى الضوء على تاريخ العلاقات القائمة بين اللاتين والمسلمين والروم والبيزنطيين ، كما أنها تعتبر فصلا من الفصول الهامة فى تاريخ الحركة الصليبية وفى تاريخ الصراع المرير بين الشرق والغرب منذ أقدم العصور .

وعلى الرغم مما درج عليه العديد من المؤرخين فى تحديد المدى الزمنى للعدوان الصليبى على العالم الاسلامى منذ عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م عندما أعلن بابا روما قيامها فى مؤتمره الكنسى فى كليرمنت بفرنسا الى عام ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م وهى السنة التى تم فيها طرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام فى عهد السلطان المملوكى الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون[٣] الألفى ( ٦٨٩ ـــ

---

(٣) يلاحظ أن معظم اسماء السلاطين المماليك وأسماء كل أمراء دولتهم تقريبا عبارة عن أسماء أشياء أو حيوانات فى اللغات التركية والفارسية والشركسية مثل قلاوون ومعناه البطة ، وبيبرس ومعناه الأمير الفهد ، وطوغان ومعناه الصقر ، ويكتمر ومعناه الأمير =

٦٩٣ هـ / ١٢٩٠ ــ ١٢٩٣ م ) فان الواقع يؤكد ان للحروب الصليبية جذورا سبقت سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م زمنيا وهو الذى أكدناه فى مواضع عديدة من دراستنا هذه وان ثمة تيار صليبى استمر بعد سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ أى طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر وشطر كبير من القرن الخامس عشر الميلادى فيما يعرف بالحروب الصليبية المتأخرة[1] .

كما جرى العرف أيضا فى تحديد الحملات الصليبية التى خرجت من الغرب الى الشرق فى تلك الفترة بثمان حملات وهذا التحديد غير مقبول لدينا إذ لم يمر عام واحد بعد وصول الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام عام ٤٩٠ هـ / ١٠٩٨ م دون وفود جموع صليبية جديدة بعضها فاق فى عدده وفى اهميته ما حققته الحملات الصليبية التى فازت بأرقام فى التاريخ وهى الحملات التى اتجهت أربع منها نحو بلاد الشام وهى : الأولى والثانية والثالثة والسادسة والثنتان ضد مصر هما : الخامسة والسابعة وواحدة نحو القسطنطينية وهى الرابعة وأخرى نزلت بشمال أفريقيا وهى الثامنة . ويلاحظ أن هذه الحملات كلها تمثل حلقة من العلاقات النشطة بين الشرق والغرب والتى أدت لوجود امتزاج واتصال بين حضارة الشرق الاسلامى وتراث الغرب ، وكان الفضل الأكبر للحضارة الاسلامية فى التأثير فى الغرب الأوروبى فى جميع مناحى الحياة حضاريا وسياسيا وثقافيا واجتماعيا .

وكما ذكرنا آنفا فان هذه الدراسة تعالج الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام وموقف القوى الاسلامية منها وهذه الحملة لها أهمية كبيرة لدينا اذ شهدت أول نجاح حققته الحركة الصليبية فى استعمار الشرق الأدنى الاسلامى وشهدت صداما عسكريا قويا بين المسلمين فى بلاد الشام الذين تصدوا للدفاع عن بلاد الشام من خطر السيطرة الصليبية وبين القوى المتضافرة للحركة الصليبية الممثلة فى الحملة الأولى فى وقت رجحت فيه كفة الصليبيين ، كما حققت هذه الحملة نتائج لم تحققها أية حملة أخرى لاحقة عليها وترتبت عليها من الآثار الخطيرة مالا تزال حقيقة ماثلة حتى عصرنا هذا .

ويجدر بنا الاعتراف بأن منابع هذه الدراسة الاسلامية منها ، والمسيحية بشقيها الشرقى والصليبى سواء كانت لمعاصرين من شهود العيان أو ممن شارك فى احداثها خلال تلك الفترة أو متأخرين نقلوا عن أصول مفقودة أو موجودة تتوافر بكثرة فى كتب الحوليات والوثائق الرسمية العربية واللاتينية ، بجانب الآثار والنقوش والعملة . وهذه المصادر التى رجعنا اليها كانت متنوعة وكثيرة ، بسبب المساحة الزمنية لفترة الدراسة وتعدد القوى التى أدت دورها على مسرح الأحداث أو تشابكها وتداخلها فى بعضها . وقد استلزم الأمر اجراء فحص شامل وتحليل دقيق لنصوص الروايات المختلفة ،

---

= الجديد . ومن أسمائهم أيضا ما يدل على صفات فى احدى اللغات المختلفة ومنها سلار ومعناه مهاجم وأزبك ومعناه النبيل راجع : Lane-poole (S.), Saracenic Art, p. 4 note وهناك أيضا اسم أيبك وهو مركب من لفظين تركيين وهما آى بك ومعنى آى القمر ومرادف ثانيهما فى العربية لفظ أمير . راجع Quatremere, Sultans Mamelouks. to. 1, p. n.2.

(1) Atiya (A.S.). The crusades in the later middle ages, London, 1938; also the crusade of Nicopolis, London 1934.

كما حاولت فى هذه الدراسة اقامة المقابلة والموازنات التاريخية بين المصادر الاسلامية والفرنجية التى تناولت الموضوع ومناقشة مختلف الأسانيد والنصوص المتضاربة على حد سواء وتحليلها وأخذنا منها ما يتفق مع الوقائع أملا فى استنباط الحقيقة التاريخية المطلقة من بين خطوطها المتداخلة ومن الكثير من الثغرات التى استلزمت من الباحث أيضا وضع الحلول المناسبة للعديد من التساؤلات التى فرضت نفسها خلال المعالجة الفعلية لموضوع البحث واستخلاص أسلم النتائج وأصحها ما أمكن على ضوء ما قدمته تلك الأصول لنا والتى لا يزال بعضها موجودا حتى اليوم والبعض الآخر فقد ولم يصلنا(٥) .

وعلى الرغم من أن موضوع الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام قد يبدو مطروقاً اذ تردد التعرض له فى كثير من الأبحاث العلمية عن الحركة الصليبية الا أن معظم هذه الأبحاث لم تحاول أن تستشف حقيقة رد الفعل الاسلامى عامة والمصرى الفاطمى خاصة من تلك الحملة أو تنوه بالمواقف المشرفة التى وقفتها القوى الاسلامية سلجوقية سنية أو فاطمية شيعية من الحملة المذكورة ، بل على الضد من ذلك نلاحظ أن هذه الأبحاث تتحامل كثيرا على السلاجقة والفاطميين على النحو الذى انتهجه بعض مؤرخى الغرب وتتهمهم بالسلبية والتقاعس عن الجهاد أو التصدى للقوى الصليبية مستندين فى ذلك ما أشيع عن قيام اتصالات فاطمية صليبية على وجه الخصوص أو تبادل سفارات بين الجانبين خلال تلك الفترة هدفها تقسيم الشام الى مناطق نفوذ بين الجانبين على حساب القوى الأخرى كالسلاجقة ، وهذا هو الموضوع الأساسى للفصل الأول من هذه الدراسة وعنوانه « موقف الخلافة الفاطمية من الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام منذ عام ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ ــ ١٠٩٨ م الى عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ ــ ١٠٩٩ م أى حتى سقوط مدينة بيت المقدس الفاطمية بأيدى الفرنج الصليبيين .

وقد حاولت فى هذا الفصل أن أوضح على نحو مفصل موقف الفاطميين والسلاجقة من الحملة الصليبية حتى نهاية العقد الأخير من القرن الخامس الهجرى ( الحادى عشر الميلادى ) وبالتحديد حتى عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٩ م مناقشا أيضا ما أشيع من قيام اتصالات فاطمية بالفرنج سواء أمام نيقية أو عرقه أو انطاكية بالنقد والتحليل ومحللا النصوص التاريخية الواردة فى المصادر الصليبية حول تلك القالة سواء بتأكيد صحة هذه السفارات أو المفاوضات بين الجانبين أو بنفيها . وتحدثت فى هذا الفصل أيضا عن موقف سلاجقة الشام المعادى من الحملة الصليبية الأولى خاصة موقف أمراء حلب ودمشق حتى سقوط أنطاكية وأشرنا إلى جهود الأمير قوام الدولة كربوغا أتابك الموصل لأنقاذ أنطاكية وفشل محاولته وأسباب ذلك ، وأهم ما ترتب عليها من نتائج وقمنا بتحليل الروايات الواردة فى بعض المصادر ولها علاقة بهذا الموضوع . كما تحدثنا عن موقف بعض مدن الساحل الشامى وأمرائها المحليين ، الذين استقل بعضهم بتلك المدن استقلالا يكاد يكون تاما عن الخلافة

---

(٥) يضيق المقام هنا عن ذكر تحليل ونقد المصادر والمراجع الخاصة بموضوع الدراسة ولكننا نعد بنشر دراسة تحليلية ونقدية مقارنة لمصادر ومراجع هذه الفترة فى طبعات قادمة من هذا الكتاب ان شاء الله .

الفاطمية ، من الفرنج على وجه خاص ، وأخص بالذكر موقف مدينة طرابلس المشرف وتصدى أميرها فخر الملك ابن عمار للفرنج .

أما الفصل الثاني وعنوانه « موقف الوزير الفاطمي الأفضل بن أمير الجيوش من الصليبيين في الشام من عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٩ م الى عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، فيتعرض لذكر العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين بعد وصول الحملة الصليبية الأولى ، الى شمال الشام ويبدأ بعرض عام للنصوص التي ورد فيها ما يشير الى قيام علاقات بين الخلافة الفاطمية والامبراطورية البيزنطيه ، قبل وصول الحملة الأولى إلى بيت المقدس ، وتحليلها مستندا في ذلك على أداة تاريخية توصلت من خلالها الى التشكك في صحة قيام أية علاقات أو اتصالات بين القاهرة وبيزنطة في الفترة موضوع الدراسة . كما أن معظم مصادر هذه الفترة اسلامية كانت أو صليبية لم تشر على الاطلاق الى قيام علاقات سياسية أو غير سياسية مع البيزنطيين في هذه الفترة باستثناء تردد تجار الروم والمسلمين على كل من القاهرة والقسطنطينية .

كذلك عالجت في هذا الفصل اقدام الفرنج على حصار مدينة بيت المقدس التي كانت خاضعة للفاطميين واستيلائهم عليها في عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، مشيرا الى الصعاب العديدة التي واجهها الفرنج أثناء حصارهم لها ، والاجراءات التي اتخذها أفتخار الدولة واليها الفاطمي للذب عنها ، واستبسال حاميتها الفاطمية في الدفاع عنها طوال أربعين يوما ، ودور الجنوية في اسقاط المدينة باعتراف مؤرخهم كافارو الجنوى والمصادر اللاتينية الأخرى كما أشرنا الى رد الفعل الفاطمي من الحصار الصليبي للمدينة المقدسة ، وقد وقفنا على نصوص جديدة تثبت جدية الفاطميين ووزيرهم الأفضل لاستنقاذ مدينة بيت المقدس من الحصار الفرنجي ، وهذه النصوص ترد على الاتهامات التي كالتها بعض المصادر الاسلامية والصليبية للفاطميين بالتراخي والتقاعس عن نجدة المدينة ونصرتها أمثال كتابات ابن القلانسي وابن الأثير وأبو المحاسن وفوشيه شارتر ، وريموند أجيل ، وألبرت أوف اكس ووليم الصورى وغيرهم . هذا وسجلنا في هذا الفصل صورة للمذبحة البشعة التي ارتكبها الفرنج عقب اقتحامهم لبيت المقدس في شعبان عام ٤٩٢ هـ / يوليو ١٠٩٩ م والتي لم ينج منها المسلمون ولا اليهود باستثناء مسيحي المدينة المقدسة ، وقمنا بتحليل النصوص التي روت أخبار هذه المذبحة لأثبات حقيقة الحركة الصليبية وأطماعها التوسعية في الشرق الاسلامي . وأنهيت هذا الفصل بعرض النتائج الهامة التي ترتبت على سقوط مدينة بيت المقدس بالنسبة لبلاد الشام من جهة وللعالم الاسلامي من جهة أخرى ، بجانب أثرها على أوضاع المسيحيين العاقبة بالشام ، وعلى أوضاع أقباط مصر .

أما الفصل الثالث وتناول « جهود الأفضل شاهنشاه ضد الصليبيين بالشام منذ عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م إلى عام ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م » فقد استعرضت فيه أيضا محاولات الفاطميين المتواصلة للتصدى للفرنج ، ورد الفعل الفاطمي من استيلاء الفرنج على مدينة بيت المقدس باعتباره نذيرا يهدد بقايا نفوذهم في فلسطين وخطرا ماثلا على دولتهم في مصر ، وقد

أطلقت على هذه الفترة « مرحلة الهجوم الفاطمى المضاد » ، ففيها قام الفاطميون بشن عدة حملات على الفرنج فى جنوبى فلسطين بهدف ازاحتهم عن مواقعهم ، وكانت موقعة عسقلان الكبرى فى عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م من المواقع الحاسمة فى تاريخ الصراع الفاطمى الصليبى فى الشام . وقد اهتممنا بوصف هذه الوقعة وابراز أهميتها ، وأشرنا إلى أهم الآراء التى قيلت بصددها ، ولم نتردد فى تحليل تلك الآراء وتحدثنا عن أهم آثارها أو نتائجها الهامة بالنسبة للفرنج فى بلاد الشام من جهة ، وبالنسبة للخلافة الفاطمية فى مصر من جهة أخرى على الصعيدين الداخلى والخارجى ، ومنها رجوح كفة الفرنج دون المسلمين وسقوط عدد من الثغور الفاطمية فى جنوبى الشام مثل قيسارية وأرسوف وأثر ذلك على النشاط التجارى لبقية مدن الساحل الكبرى مثل عسقلان وعكا وصيدا وصور وأشرنا فى هذا المقام إلى الدور البارز لأساطيل جنوه وبيزا فى احكام الحصار البحرى على ثغور الشام الجنوبية ، وتمكنها من الفاطميين ومدفوعة فى ذلك وراء مصالحها التجارية .

أما الفصل الرابع فقد أفردته لدراسة الحملات الفاطمية الكبرى على بلاد الشام وجهود الفاطميين لاجلاء الفرنج عنها فى الفترة من عام ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م الى عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م ، وهى حملات توضح دور مصر الفاطمية القيادى آنذاك فى حمل لواء الجهاد ضد القوى الصليبية وقد ألجأ هذا الهدف النبيل الفاطميين إلى عقد تحالف مع البوريين حكام دمشق السلاجقة مستهدفين من ورائه احكام حلقة الحصار على الصليبيين فى بيت المقدس وذلك على الرغم من الخلاف السياسى والمذهبى بين الفاطميين الشيعة والبوريين السنة ، وقد نجحت تلك المساعى الفاطمية وتكللت بالحملة الفاطمية — السلجوقية المشتركة فى عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م — ١١٠٥ م التى أوضحنا أهميتها وبينا كيف أنها هزت كيان مملكة بيت المقدس الصليبية الناشئة وهددها تهديداً مباشراً ، وربما كانت نذيراً بالقضاء على حلم الصليبيين بالشرق الاسلامى وآمالهم قبل أن تتحقق .

وفى الفصل الخامس تتبعت الصراع القائم بين الفاطميين والصليبيين فى الشام منذ عام ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م الى عام ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م ، وتعرضنا لمراحل الدفاع الفاطمى عن مدن الساحل الشامى إزاء الحصار الصليبى موضحا العوامل التى أدت إلى انتقال مسرح الصراع الفاطمى الصليبى إلى سواحل الشام المطلة على حوض البحر المتوسط الشرقى فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس الهجرى وخلال العقود الأولى من القرن السادس الهجرى ( الثانى عشر الميلادى ) ومهدت لهذه الدراسة بعرض عام لعلاقة مدن ايطاليا التجارية بالدولة الفاطمية فى مصر والشام قبل قيام الحركة الصليبية وبعدها وأهمية مدن الساحل الشامى التجارية بالنسبة لهذه المدن الايطالية اذ أن اساطيل هذه المدن كالبيشانية ( البيزانية ) والبنادقة والجنوية وغيرها قد لعبت دوراً هاماً وبارزاً فى هذه المرحلة من مراحل الصراع الاسلامى الصليبى فى بلاد الشام وهو دور مزدوج وضح فيه انشارهم لتأمين مكاسبهم الاقتصادية وتحقيق مصالحهم بمساندة الفرنج بدلا من

المقامرة على الجواد الخاسر . وقد اعتمدنا فى هذه الدراسة على حوليات مؤرخيهم ومنهم كافارو الجنوى مؤرخ حوليات جنوه ، بالاضافة الى وثيقة دار المخطوطات الفاطمية بلندن وتتعلق بوفود جماعة من التجار الايطاليين يحملون شحنات من الخشب والحديد الى القاهرة أثناء خلافة الآمر بأحكام الله ووزارة الأفضل بن أمير الجيوش . وقد حاولنا أن تسلط مزيدا من الضوء على صمود كل من طرابلس وصور أمام الحصار الصليبى المحكم والجهود الضخمة التى بذلها بنو عمار قضاة طرابلس والبحريون المصريون للحيلولة دون سقوط هاتين المدينتين بأعتبارهما من أهم مدن الساحل الشامى اقتصادياً وعسكرياً وعمرانياً . ويعتبر هذا الفصل من أهم فصول البحث اذ عالج العديد من الموضوعات الهامة التى توضح دور الوزير الأفضل فى تأخير السيطرة الصليبية على الساحل الشامى . ومما لاشك فيه أن هذه السواحل شهدت صراعاً مريراً تشابكت فيه الوقائع والمصالح الاقتصادية والنزعات السياسية المتعارضة حيث تداخلت قوى عديدة وهى قوى الفاطميين والصليبيين والبيزنطيين وأساطيل المدن الايطالية كالجنوية والبنادقة وأساطيل ممالك شمال أوروبا كالأسطول النرويجى بالاضافة إلى قوى السلاجقة السنه فى دمشق وزعيمهم القوى الأتابك ظهير الدين طغتكين الذى دفعته غيرته على الاسلام إلى مساندة الفاطميين فبذل جهودا هائلة بالتعاون مع الوزير الأفضل شاهنشاه للحيلولة دون سيطرة الصليبيين على هذه المدن . وقد أوضحت بهذه المناسبة الدوافع الحقيقية التى حركت امارة دمشق السلجوقية لمساندة الفاطميين فى صراعهم مع الصليبيين بالساحل واختتمت هذا الفصل بتحليل لأسباب ضياع مدن الساحل الشامى من أيدى الفاطميين ، وموقف الوزير الأفضل من ذلك والنتائج الهامة المترتبة على ضياع تلك المدن .

أما الفصل السادس والأخير وعنوانه « دور مدينة عسقلان الفاطمية فى الصراع الفاطمى الصليبى وأطماع الصليبيين لغزو مصر ، وموقف الفاطميين من ذلك من عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، الى عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م » ، فقد قسمناه إلى قسمين خصصت الأول وهو القسم الأكبر لابراز دور مدينة عسقلان الفاطمية فى الصراع الدائر بين الفاطميين والصليبيين فى منطقة جنوبى الشام مسجلاً آراء المؤرخين والجغرافيين العرب حول أهمية تلك المدينة من الوجهتين الجغرافية والاستراتيجية وكيف كانت بمثابة قاعدة انطلاق الجيوش والأساطيل الفاطمية لجهاد الفرنج فى الأراضى المقدسة باعتبارها مركزاً عسكرياً متقدماً للفاطميين فى الشام ، وقد وضحنا أهمية الدور الذى لعبته عسقلان فى الصراع المرير القائم بين الفاطميين والفرنج حولها ، ومحاولات الصليبيين الدائبة والمستميتة للاستيلاء عليها والجهود التى بذلها الفاطميون للاحتفاظ بها كأهم وآخر المعاقل الفاطمية الباقية بجنوبى الشام والقاعدة العسكرية الهامة للوثوب على مملكة بيت المقدس اللاتينية الناشئة وتوابعها ولهذا ظلت المدينة قذى فى أعين الصليبيين وعقبة كؤود أمامهم خلال الفترة التى وزر فيها الأفضل شاهنشاه وحتى بعد مصرعه فى أحد شوارع القاهرة عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م . ونعترف أننا لم نوفق فى بيان دور هذه المدينة بشكل كامل فى تلك المرحلة من مراحل الصراع الاسلامى الصليبى خاصة وأن المصادر التى توفرت لدينا اسلامية

كانت أم صليبية كانت تفتقر تماماً الى المادة التاريخية الكافية لتحقيق الهدف ، فهذه المصادر المتاحة لم تتضمن اشارات مفصلة عن هذه المدينة بنفس القدر الذى أورده ابن القلانسى وابن عساكر لتاريخ مدينة دمشق وابن العديم لتاريخ مدينة حلب ، ولهذا فقد اعتمدنا على نتف وشذرات قليلة مبعثرة فى ثنايا المصادر الاسلامية والصليبية وكتب الجغرافيين عن تلك المدينة وأخبارها وأهميتها الاقتصادية والجغرافية لتفسير العوامل الحقيقية للصراع المتواصل بين الفاطميين للاحتفاظ بها والفرنج لانتزاعها من أيديهم ولقد بذلت جهداً كبيراً لجمع هذه المادة المتناثرة من بطون هذه المصادر لأصوغ منها دراسة علمية عن دور هذه المدينة كمدخل جنوبى الى بلاد الشام .

أما الشق الثانى من هذا الفصل فقد خصصته لعرض أطماع الفرنج لغزو مصر والقضاء على الخلافة الفاطمية وتتويج تلك الأطماع بغارة بلدوين الأول على حدود مصر الشرقية عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م . وقد أشرنا فى هذه المناسبة الى العوامل التى دفعت الصليبيين منذ وصولهم الى الشام إلى التفكير فى غزو مصر وهى محاولات بدأت قبل سقوط بيت المقدس نفسها ، وعرضت بالتحليل لأهم الآراء التى دارت حول الظروف والملابسات التى أحاطت بمحاولة اللاتين بقيادة بلدوين الأول ملك بيت المقدس لغزو مصر ، وأعماله التخريبية على حدود مصر الشرقية وذكرت كيف أن المصادر الاسلامية قد بالغت فى رواياتها عن تلك المحاولة الصليبية فأعطتها أكثر مما تستحق وأحاطتها بهالات ضخمة ولم تكن فى الحقيقة ــ طبقا لنصوص المصادر وآراء بعض المؤرخين الحديثين ــ سوى غارة استهدفت النهب والتخريب وترويع الآمنين بقرى ومدن مصر وارتكاب المذابح ــ كما هى عادة الصليبيين ــ بالمدن والقرى الاسلامية ، وأكدنا هنا أن هذه الغارة توضح مدى الخطر الذى بدأ يزحف على مصر الاسلامية منذ النصف الأول من القرن السادس الهجرى ( الثانى عشر الميلادى ) واعتمدنا فى هذا الرأى على أدلة وشواهد قوية مستقاه من مصادر شهود العيان والمعاصرين من القبط أو المسلمين أو حتى من الصليبيين انفسهم . واختتمت هذا الفصل بذكر أهم النتائج التى ترتبت على غارة بلدوين على مصر ، وموقف الفاطميين منها وأكدت على أنها تمثل فى حقيقة الأمر المقدمات الأولى والمبكرة للعدوان الصليبى الشامل على مصر فيما بعد فى العصر الأيوبى وبالتحديد خلال القرن السابع الهجرى ( الثالث عشر الميلادى ) وتظهر أيضا مدى عمق الاستراتيجية التوسعية اللاتينية تجاه الشرق الاسلامى فى وقت لم تكن اقدامهم قد توطدت بعد فى بلاد الشام وتؤكد الخطر الذى تمثله مصر على الكيان الصليبى الوليد فى بلاد الشام باعتبارها معقل الاسلام والقوى الاسلامية والحصن المنيع والقلب النابض بالحركة والحياة ومركز امداد القوى الاسلامية بالمال والرجال والمؤن والسلاح ، والتى كانت تخرج منها دائما صيحة الجهاد المقدس ضد اعداء الاسلام وباعتبارها أيضا تمثل ميزان القوى ومركز الثقل والافعال وردود الافعال فى العالم الاسلامى .

وأتينا هنا بنصوص جديدة تيسرت لنا لأول مرة تثبت جدية الوزير الأفضل ورد فعله السريع ازاء تلك المحاولة وجهوده الموفقة لطرد الفرنج من حدود مصر الشرقية وتعد ردا حاسما على

صمت غالبية المصادر الاسلامية والصليبية وغيرها من الاشارة الى حقيقة موقف الفاطميين ووزيرهم الأفضل من تلك الغارة ، وقد ذكرت فى هذه المناسبة اثر تلك الغارة على التقارب والتكاتف بين مصر وسوريا متمثلا فى التحالف المصرى الفاطمى ــ السلجوقى الدمشقى المشترك وتتويج ذلك بتلك الحملة الفاطمية السلجوقية المشتركة عام ٥١٢ هـ / ١١١٨ م كرد فعل سريع وقوى على غارة بلدوين الأول على مصر .

وقد ذيلت هذه الدراسة بعدة ملاحق تنشر لأول مرة بجانب بعض اللوحات والأشكال والخرائط التوضيحية.وفى النهاية لا يسعنى الا أن أقدم الشكر والامتنان والعرفان بالجميل لكل من قدم لى يد العون لاخراج هذه الدراسة وأخص بالذكر أساتذتى الأجلاء على رأسهم الأستاذ الدكتور / السيد عبد العزيز سالم ، الذين قدموا لى العون بلا حدود وفتحوا أمامى آفاق البحث بلا قيود واننى لأدين لهم بكل ما أنجزت .

وأخيراً فاننى بهذا الجهد المتواضع ، انما اشارك أساتذة كبار وزملاء أفاضل لى يعملون فى هذا الميدان الهام ، ويثرون المكتبة الاسلامية والعربية ببحوثهم ودراساتهم الجادة والهادفة ، واذا كنت قد وفقت فمن الله ، وان أخطأت فمن نفسى .

والله ولى التوفيق

الاسكندرية ( جليم ) فى ربيع أول ١٤١٣ هـ
سبتمبر ١٩٩٢ م

صلاح الدين محمد نوار
كلية الدراسات العربية والاسلامية
جامعة القاهرة ــ فرع الفيوم

# الفصـــل الأول

## الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام
## وموقف القوى الاسلامية منها

( ٤٩٠ ـــ ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ ـــ ١٠٩٨ م )

﴿ لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون ﴾ ( الأنعام : ٦٧ )

# الفصل الأول

شهد الشرق الأدنى الاسلامى فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى حركة استعمارية من قبل الغرب ، اتخذت من الدين ستارا لإخفاء مطامعها وأغراضها ، وعرفت باسم الحركة الصليبية[1] ، وهى من الحركات العالمية الخطيرة التى أولاها المؤرخون فى الشرق والغرب أهتماما كبيراً أكثر من أية حركة أخرى ، وسبب ذلك يرجع إلى ما لهذه الحركة من طابع خاص وأهمية كبرى فى تطور سير الأحداث وفى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، وارتباطها الوثيق بحركة التوسع والاستعمار فى العصر الحديث ، بل أن الحروب الصليبية كانت أول مثل للتوسع الاستعمارى الأوروبى فى العصور الوسطى[2] وهى مرحلة رئيسية من مراحل الصراع الطويل بين الشرق والغرب ، الذى امتد من عهد اليونان والرومان حتى العصر الحديث[3] .

وقبل التعرض باسباب لتلك الحركة وموقف القوى الاسلامية منها بوجه عام وموقف الخلافة الفاطمية ووزيرها الأفضل بن بدر الجمالى بوجه خاص وما دار فيها من صراع صليبى فى الشام نرى أن دراستنا هذه لا تستقيم الا بمعالجة سريعة لأوضاع القوى السياسية فى الشرق الاسلامى وأحوال الغرب الأوروبى قبل قيام تلك الحركة والأسباب التى فتحت الأبواب أمام تلك الأمواج البشرية التى اجتاحت المنطقة العربية خلال فترة ازدحمت بالحوادث والتغيرات الحافلة بالحروب .

---

(١) راجع ارنست باركر - الحروب الصليبية ، تعريب د . السيد الباز العرينى ، ط . القاهرة ١٩٦٠ ، المقدمة ؛ و رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة د . العرينى ، ط ١٠ ، بيروت ١٩٦٧ ، ج ١ ص ١٥ . وترجع بوادر تلك الحركة إلى القرن العاشر الميلادى على يد الحركة الكلونية نسبة لدير كلونى فى برجنديا . راجع نفس المراجع السابقة .

(٢) Prawer, j., The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1973, p. 1.

(٣) د . جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين فى الحروب الصليبية الأولى ، ط . إسكندرية ١٩٦٧ ، ص ٣٥ . ويذكر أستاذنا الدكتور جوزيف نسيم أنها حروب جامعة شنها الغرب الأوروبى ضد الشرق الأدنى الإسلامى ، إستجابة لنداء البابوية وتحت إشرافها وبتوجيه منها بغرض الإستيلاء على الأراضى المقدسة وتأسيس مملكة لهم هناك . للإستزادة راجع : د . جوزيف نسيم : المرجع السابق ص ٤٣ ؛ الوحدة وحركات اليقظة العربية ص ٨ . وعن الدور الهام الذى لعبته البابوية فى قيام تلك الحركة راجع د . جوزيف نسيم : العرب والروم ص ٥٦ ــ ٥٧ ؛ باركر : الحروب الصليبية ص ٢٠ ، وكذلك :

Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 8, Cambridge Medieval History, vol. V, p. 269
Duggan A. The story of the crudsade, London 1963, p. 2.

ويرى المؤرخ اليهودى يوشع براور أن الحركة الصليبية ليست إلا مؤامرة بابوية وذريعة واضحة لتحقيق أغراض مادية ونشر للاستعمار الأوروبى . راجع : Prawer, op. cit, p. 4 .

وعن أسباب تسمية الحروب الصليبية بهذا الإسم راجع د . جوزيف نسيم : العرب والروم ص ٤٧ ح (١) ، وكذلك :

Alephandrey & Dupont: La Chretiéne et L'idée de croisades (le premiers croisades), Paris 1945, p. 10.

وقد اختلفت الآراء في تفسير طبيعة الحركة الصليبية والدوافع الكامنة وراءها فمنها ما هو مادي(٤) . والبعض يرى أنها وليدة الحماس أو التعصب الديني التي عرفت بها أوروبا في العصور الوسطى(٥) ، وأن الباعث الحقيقي لتلك الحروب كان في الواقع هو الهوس الديني الممزوج بأغراض أخرى كالميل الى تأسيس ممالك جديدة ، والحصول على الثروات الطائلة(٦) ، وقد اعتبر غالبية المؤرخين القدامى والحديثين تلك الحروب أنها حروب دينية ، وأن العامل الديني كان الدافع الأساسي وراءها من أجل استعادة قبر المسيح والأراضي المقدسة من أيدي المسلمين(٧) والآخرون يعتبرونها أحد مظاهر التوسع الاقتصادي الاستعماري في العصور الوسطى(٨) .

وحقيقة الأمر ، أن الحروب الصليبية كانت نتيجة لتفاعل هذه العوامل مجتمعة(٩) ، لأنها قامت لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية هي التي وضحتها وتحكمت فيها(١٠) ، واتخذت الدين ستاراً أو وسيلة لاخفاء أغراضها المذكورة آنفاً(١١) . ونحن نرى أن السبب المباشر والرئيسي لتلك

---

(٤) Prawer, The Latin Kingdim of Jerusalem, London, p. 4.

(٥) Cambridge medieval history, vol. V p. 265.

(٦) يرى الأستاذ ستيفنسون ، أن تلك الحروب ليست في حقيقتها إلا حملات عسكرية هدفها إقامة كيان لاتيني بالشام والدفاع عنه ، راجع :

Stevenson, W.B., The Crusaders in the East; Cambridge 1907, p. 2.

(٧) يذكر روبرت الراهب أن الحروب الصليبية من عمل الله وليست من عمل الإنسان . راجع ذلك في د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٦٢ ، وأساق وراءه الكثيرون مثل الكونت بول ريان . راجع :

Riant, P. Inventaire critique des lettres historiques des croisades, in A.O.L.

ويرى الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية أن الحروب الصليبية واحدة من المصائب الكبرى التي سقطت على رأس الجماعات المسيحية الشرقية ، وكان الأقباط هم الضحية الأولى لها ، إذ أظهرت بوضوح عداوة اللاتين لمسيحيي الشرق .

(٨) Atiya, A.S., A history of the Eastern christianity, London 1969, p. 923.

(٩) Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, London, p. 1.
Thompsom, F.W, The middle Ages (300-1500) London 1931, vol. 1, p. 561.

(١٠) راجع د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٧ — ٤٢ .

(١١) راجع مناقشة ذلك في العرب والروم اللاتين ، ص ٦٢ — ٦٣ . ويذكر الأستاذ شارل أومان في « فن الحرب والقتال في العصور الوسطى » أن الدافع الأول للحركة الصليبية كان دينيا وليس عسكريا ، إذ أن هدف الصليبيين كان استرداد بيت المقدس ، وليس إقامة أساس عسكري راسخ في غزوهم النهائي للشام بأكمله . راجع :

Oman, Ch., Art of war in the middle ages, London 1924, vol. I, p. p. 231, 252.

ويرى الأستاذ تومبسون أن الحروب الصليبية فترة من فترات الصراع الطويل بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، وهي في نفس الوقت صراع عنصري سياسي ديني إقتصادي . راجع :

Thompson, middle ages, vol. I, p. 561.

وعن الحركة الصليبية كحركة إستعمارية توسعية راجع :

Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, London, p. p. 469-472, Groussel R., L' epopee des croisades, paris 1939, p. p. 1-2, les origines et les caracters de la premiere croisade, New chatel 1945, p. p. 3-4. Cox, S.Y., The crusades, London 1881, p. p. 16-15.

انظر آراء أخرى حول الحركة الصليبية في :

Brundage, J., The crusades, motives and Achievements, Boston 1962, p. p. XII - XIII.

الحروب هو اختلال ميزان القوى بين الشرق والغرب ، وميله فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى لصالح الغرب الأوروبى ، وضعف المسلمين نتيجة الهزائم المتتالية التى لاقوها فى الأندلس ، وسقوط طليطلة «Toledo» فى يد ألفونسو السادس ، ملك قشتالة عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٥ م ، منهيا بذلك السيادة الاسلامية فى الأجزاء الوسطى لشبه جزيرة أيبريا ، بالاضافة إلى ضياع سيطرة المسلمين فى حوض البحر المتوسط ، وكانت الخطوة التالية لذلك هى حرب الفرنجة ضد المسلمين ، والتى كانت فى حقيقتها مظهرا من مظاهر الصراع البشرى ، ومقدمة لما عرف فى التاريخ باسم المسألة الشرقية «Orient Question» ، وامتداد لحروب الفرنجة ضد مسلمى الأندلس وجزر البحر المتوسط[١٢] ، وأرتبطت تلك الحروب بالأحوال السائدة فى الغرب الأوروبى ، فمنذ ظهور المسلمين على مسرح حوض البحر المتوسط كقوة سياسية وحربية كبيرة غزت أوروبا المسيحية ، وأستولت على غالبية جزر البحر المتوسط وحولته الى بحيرة اسلامية ، وأجتاحت اسبانيا وصقلية والساحل الجنوبى لفرنسا ، وسواحل غرب أيطاليا ، وجزيرتى كورسيكا وسردينيا ، التى وقعت تحت رحمة الأساطيل الاسلامية ، وأوقعت الرعب بقلوب الأوروبيين[١٣] ، خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، وكان ميزان القوى حينئذ لصالح القوى الاسلامية ، ووقفت أوروبا موقف الدفاع[١٤] .

ولم يأل مسيحيى الغرب جهدهم فى صد المسلمين ، ولا ننسى ما قام به الامبراطور البيزنطى ليو الثالث الأيسورى ، فى الشرق ، وشارل مارتل فى الغرب للدفاع عن العالم المسيحى بشقيه ضد الخطر الاسلامى ، وما قام به شارلمان من حروب ضد مسلمى الأندلس[١٥] ، وبابوات الغرب الأوروبى وأمراؤه فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، من الغارات الاسلامية على شواطىء أوروبا[١٦] وقد اتسمت هذه الجهود لصد الخطر الاسلامى بطابع دينى ، بل وأعتبرت أحد مظاهر التقوى ، وتعهدها رجال الدين والبابوات ، مما جعل الفكرة الصليبية تنشأ فى البداية

---

(١٢) Cox, S.O.M, The crusades, London, p. p. 4-5.

(١٣) Cambridge Med. Hist., vol. V, p. 266.

(١٤) Romilley Jenkins: Byzantium, The imperial centuries, (610-107), Great Britain 1966, p. p. 155-145, Kruger, H., The Italian Cities and the Arab before 1095, in setton (ed.), vol. I, p. p. 40-44.

(١٥) وهى الحروب التى حلتها أنشودة رولان «Le Chanson de Roland» الشهيرة ، وأظهرتها فى طابع صليبى واضح . لمزيد من التفاصيل راجع هـ . و . ديفز : أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة د . عبد الحميد حمدى ، ط . إسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٥٦ . عن أنشودة رولان والآراء التى دارت حولها راجع د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٥١ — ٥٢ ج ١ .

(١٦) مثل البابا جريجورى الرابع ( ٨٢٧ — ٨٤٤ م ) ، ليو الرابع ( ٨٤٧ — ٨٥٥ م ) ، يوحنا الثامن ( ٨٧٢ — ٨٨٢ م ) ، بندكت الثامن ( ١٠١٢ — ١٠٢٤ م ) ، أنظر :

Cambridge med. Hist. vol. V p. 268, Runciman, st. Story of the crusades, London 1964, vol. I, p. 88.

مرتبطة بمبدأ محاربة المسلمين أينما وجدوا[١٧] .

وقد صادفت فكرة محاربة المسلمين تشجيع البابوية فى الغرب الأوروبى فى الربع الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى ، وظهرت النزعة الصليبية تلك فى أسبانيا قبل مجمع كليرمونت ودعوة البابا أوربان الثانى للحروب الصليبية بنصف قرن ، وعرفت هذه النزعة بحركة الاسترداد الاسبانية «Spanish Reconquista» ، التى شارك فيها نبلاء أوروبا وبارونات فرنسا المعاصرون[١٨] . فبعد الفتح الاسلامى لاسبانيا فى القرن الأول هـ / القرن الثامن م ، واقامة دولة اسلامية قوية بها ، تراجعت النصرانية الاسبانية نحو الشمال ، وألجئت إلى هضاب البرانس والاستورياس ( أشتوريش ) ، وأستعرت حماستها إلى استرداد أوطانها الجنوبية من قبضة الاسلام ، وكانت الامارات الشمالية ( ليون — قشتالة — نافارا — أراجون ، برشلونه ) ، تنسى فى الحال خلافاتها السياسية والقومية ، وتحتشد حول كلمة الدين اذا هددها مسلموا الجنوب ، واتضح ذلك فى عهد أعظم خلفاء قرطبة عبد الرحمن الثالث ( الناصر الدين الثالث ) ( ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م — ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ) ، والحاجب المنصور بن أبى عامر المعافرى ( ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م — ٣٣٩ هـ / ١٠١٠ م ) حينما نشطا فى مطاردة القشتاليين والقوى المسيحية الأخرى إلى الجبال الشمالية ، وأغارا على المناطق الداخلية فى الأراضى المسيحية وغزو أقصى وأمنع المعاقل الشمالية[١٩] ، وأعقب ذلك عبور جموع البربر إلى الاندلس تحت قيادة المرابطين ثم الموحدين لانتزاع أملاك الخلافة الأموية المتداعية ، وانقاذ الأندلس من خطر نصارى الشمال ولترث فى نفس الوقت ملك الدولة الأموية مما أثار خوف الامارات المسيحية وبعث فيهم نزعة قوية هى التعصب الدينى ، فطلبوا العون من جيرانهم الشماليين باسم الدين ، فهرعت جيوش المتطوعين من نورمنديا ، أكيتانيا ، وبرجنديا عبر جبال البرانس متحمسين لنصرة الصليب ، وأخذ نصيبهم من المغانم والاسلاب ، وشملت البابوية حركة الاسترداد الاسبانية برعايتها وتشجيعها ، فنجد جريجورى السابع ( هيلد براند ) Gregory VII يباركها ، ويعلن غفران خطايا وذنوب المشتركين فيها ، وأذن للمتطوعين فيها أن يحكموا الأراضى المفتوحة باسم البابوية ، التى أسبغت الصبغة الدينية على كل حرب تشهدها النصرانية ضد الاسلام[٢٠] .

---

(١٧) Orton, p. Outlines of Medieval history, cambridge 1910, p. 282, Cambridge Med. hist., vol. V, p. p. 267-268, Setton & Baldwin (ed.,) the story of the crusades, pennsylvania 1958, vol. I. p. XIX.

(١٨) Groussets R., The sum of history, trans. from french, Oxford 1951. p. 172.
Grousset (R.), L'épopee des croisades, Paris 1939. p. 116.

وعن تطور فكرة الحرب المقدسة فى الغرب الأوروبى أنظر مناقشتها فى .

Krey, A.C., Urban's crusade, success or Failure, in A.H.R., vol. II 1974, p. p. 235-250.

(١٩) للإستزادة راجع د . أحمد مختار العبادى دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ط . إسكندرية ١٩٧٤ ، ص ٢٠٩ — ٢١٨ ، ص ٢٤٧ — ١٩٥٠ هـ و ديفز : أوروبا العصور الوسطى ، ص ١٨٧ — ١٨٨

(٢٠) ديفز : أوروبا العصور الوسطى ، ص ١٨٧ — ١٨٨

وتوجت حركة الاسترداد الاسبانى بالنجاح فى عهد الملك الفونس السادس ( الأذفونش ) ملك ليون وقشتالة ( ١٠٦٥ — ١١٠٩ م ) ، الذى أوغل فى وادى نهر تاجة «Rio de Tajo» ، واستولى على مدريد مثل طليطلة عام ١٠٨٥ م[٢١] ، وحرم المسلمون من أهم معاقلهم بالأندلس .

ولم تقتصر حركة الاسترداد تلك على شبه جزيرة أيبريا ، بل انتقلت إلى جزر البحر المتوسط ، فى صقلية وجنوب ايطاليا بسبب الصراع بين النورمنديين ومسلمى الجزر ، وانتزعوا صقلية من أيديهم عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، فى حين دأبت أساطيل جنوه وبيزه على مهاجمة المسلمين فى كورسيكا وسردينيا فضلا عن موانىء شمال افريقية ، بل واحتل النورمنديون المهدية نفسها ، حيث انتقلت السيادة على غرب البحر المتوسط إلى الجمهوريات الايطالية البحرية[٢٢] . وهذا الحدث فى حد ذاته يمثل نقطة تحول فى تاريخ الصراع بين الاسلام والمسيحية فى العصور الوسطى ، كما أنه وحد بين النورمنديين والايطاليين ، وجنوب فرنسا لمواجهة المسلمين ، العدو المشترك ، وحملت الحروب الصليبية هذا الصراع من الغرب إلى حوض البحر المتوسط الشرقى ، وان استمر النزاع بنفس الشكل بين القوى المتحاربة[٢٣] .

وقد ارتبط قيام الحركة الصليبية بما يحدث من تطورات الأمور والأحوال فى الشرق الاسلامى وارتبط ذلك بما يعرف بالحج المسيحى إلى الأراضى المقدسة وبخاصة مدينة بيت المقدس بفلسطين أو بيت الطهارة على حد قول ياقوت الحموى[٢٤] . فرغم أنه لم يوجد فى الكتاب المقدس نص صريح على الحج إلى الأراضى المقدسة ، أو أنه فرضا دينيا كما فى الاسلام ، الا أن فكرة الحج تلك بدأت منذ عهد الامبراطورية البيزنطية ، وبالتحديد فى عهد الامبراطور قسطنطين الكبير فى القرن الرابع الميلادى[٢٥] ، بعد أن اكتشفت أمه هيلينا صليب الصلبوت فى موضع الجلجثة بالقدس ، والتى بنيت فوقها كنيسة عرفت بكنيسة القيامة أو الضريح المقدس[٢٦] «Holy sepulchre» ،

---

(٢١) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٧٣ .

(٢٢) Cambridge Med. Hist., vol. V, p. 267, Kruger, A. The Italian cities, p. p. 40-53.

(٢٣) Grousset, R.L' epopee des croisades, p. p. 8-9.

فى رواية ابن الأثير عن الحروب الصليبية وسقوط أنطاكية بأيدى الفرنج عام ٤٩١ هـ ، انفرد بذكر الحروب بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس وصقلية وشمال أفريقيا والشام ، ورأى أن جميع تلك الهجمات على الإسلام فى المشرق والمغرب أطراف لحركة ضخمة شاملة ، كما أنه اتخذ من الحروب الصليبية فى الأندلس مدخلا للحركة الصليبية على الشام . راجع نص ابن الأثير فى الكامل فى التاريخ ، ط . ليدن ١٨٦٤ ، ج ١٠ ص ٢٥٠ .

(٢٤) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ط . الأزهر ، ج ١ ص ٢٦٢ ، ٣٦٤ ، ج ٨ ص ١١٠ ومابعدها ، كذلك : Encyclopedie de L'Islam, vol. II, p. 1158.

(٢٥) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٥ .

(٢٦) انظر وصف شاهد عيان لكنيسة القيامة عام ١٠٤٦ م / ٤٣٧ هـ — ناصر خسرو : سفرنامة ، ترجمة د . يحيى الخشاب ، ط . القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٣٧ . ويذكر وليم الصورى أنها بنيت بأمر من الامبراطور قسطنطين ، ثم أعيد تجديدها فى عهد الامبراطور هرقل .

William of Tyre, A history of the deeds done beyond the sea, trans. by Krey Babock, New York 1943, vol. I, p. 66.

ومنذ ذلك ظهرت فكرة الحج إلى الأراضي المقدسة على أساس أنه مظهر من مظاهر التوبة وغفران الذنوب والسعادة الأبدية[٢٧] .

ولكن رحلات الحج كانت قليلة في مجموعها نتيجة لطول الطريق ومصاعبه ، وجهل الحجاج بجغرافية تلك المناطق المؤدية إلى فلسطين وبسبب بعض التطورات والأحداث السياسية في أوروبا[٢٨] ، كما أن الحجاج كانوا يفضلون الذهاب إلى آثار القديسين القريبة منهم في روما ، أو مدينة القديس يعقوب[٢٩] ( شانت ياقب ) «Santiago de compostella» في جليقية بأسبانيا[٣٠] . فبعد خمسة عشر عاما من الهجرة النبوية فتح العرب فلسطين ، وسلم البطريرك اليوناني صفرونيوس ، بطريرك القدس ، مفاتيحها للخليفة العادل عمر بن الخطاب عام ١٧ هـ / ٦٣٨ م ، فمنح أهلها النصارى الأمان على دمائهم وأموالهم وكنائسهم وصالحهم وحدهم دون اليهود ، كما رفض الصلاة في كنيسة القيامة حتى لا يحولها المسلمون بعده الى مصلى[٣١] . وبدخول فلسطين تحت السيادة الاسلامية بدأ عصر جديد في حركة الحج المسيحي إلى فلسطين ونشطت تلك الحركة لقرون عديدة[٣٢] ، بسبب تسامح الاسلام والخلفاء المسلمين الذين عملوا على توطيد الأمن ومنع نشوب الصراعات بين مختلف الطوائف المسيحية المتنافرة كما خصص في بيت المقدس حي كامل لسكنى البطريرك والكهنة[٣٣] وساعد على ذلك العلاقات الطيبة التي

---

(٢٧) Alephandrey & Dupont.
ويجب ألا نغفل هنا دور ذير كاولي في تشجيع حركة الحج إلى الأراضي المقدسة عند مسيحي الأندلس . راجع د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٥٧ ــ ٥٨ ؛ ج . ج . كولتون : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ترجمة وتعليق د . جوزيف نسيم ، ط . إسكندرية ١٩٦٧ ، ص ١٧٣ ــ ١٧٤ ج (١) ، أيضا :
Thompson, The middle Ages, vol. I, p. 564.

(٢٨) يذكر الأستاذ جيمس وستفال ترمبسون أنه بعد الاعتراف بالمسيحية كديانة رسمية في بيزنطة كتب القديس جيروم يقول : « أن كل شخص ذي منصب ونفوذ في الغال ( فرنسا ) كان يهرع إلى فلسطين . وحتى سكان البريتون ( انجلترا ) رغم بعدهم عن عالمنا كانوا يهرعون إلى فلسطين أيضا من طريق البحر . ويضيف ترمبسون أنه ظهرت في القرن الخامس الميلادي كتب جغرافية ترشد إلى طريق الحج إلى فلسطين ، ولكن إنهيار الامبراطورية الرومانية وقيام الممالك الجرمانية ، أدى لتوقف حركة الحج .
Thompson, The middle Ages, vol. I, p. 562.

(٢٩) هو القديس يعقوب أوسان جاك ، أحد الحواريين الاثنى عشر كان من أخص الناس بالسيد المسيح عيسى بن مريم ( عليه السلام ) حتى أخبره المسيحيون أخاه لملازمته إياه . وزعم النصارى أن هذا القديس كان أسقفا للقدس ثم ساح حتى وصل الى هذه البقعة ومات ودفن فيها . وأقاموا فوقه كنيسة عظيمة يحج إليها المسيحيون من جميع أرجاء الغرب الأوروبي . ولا تزال مدينة القديس يعقوب هي القاعدة الدينية لأسبانيا . راجع د . أحمد مختار العبادي : المرجع السابق ، ص ٢١٨ ــ ٢١٩ .

(٣٠) د . أحمد مختار العبادي : المرجع السابق ، ص ٢١٨ ، كذلك :
Thompson, The middle Ages, vol. I, p. 562.

(٣١) سعيد بن البطريق : التاريخ المجموع ، ج ٢ ص ١٧ ؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ ؛ كذلك :
Archer & Kingsford: The history of the Latin Kingdom of Jerusalem, London 1894, p. 5.

(٣٢) أن أول رحلة حج إلى الأراضي المقدسة في عهد الفتح الإسلامي لفلسطين قام بها الأسقف الفرنسي أركولف ، وأشار إليها المؤرخ الانجليزي بيده «Bede» ، وقضى أركولف بالقدس تسعة شهور . راجع :
Archer & Kings ford, The history of the latin, P. 17.

(٣٣) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ، ترجمة رياض رأفت ، ط . القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٢٧٦

أشارت إليها المصادر والمراجع الأوروبية[٣٤] ، بين الخليفة العباسي هارون الرشيد ( ١٧٠ هـ / ٧٨٦ هـ — ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م ) ، والامبراطور شارلمان ، حيث أهدى الرشيد لامبراطور الفرنجة مفاتيح كنيسة القيامة عام ١٩٠ هـ / ٨٠٧ م ، وبذلك جعل لشارلمان حق الاشراف المعنوى على بيت المقدس ، وأقره حاميا للمدينة المقدسة وكنيستها كما شيد شارلمان بها مستشفى ومكتبة[٣٥] .

وعندما قامت الخلافة الفاطمية فى مصر عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ ، نشطت حركة الحج الى الأراضى المقدسة ، فالخليفة الفاطمى العزيز بالله ( ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م — ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م ) يصاهر بطريرك بيت المقدس[٣٦] ، ويتسامح مع النصارى واليهود[٣٧] ، مما جعل النصارى يتمادون فى اظهار شعائرهم داخل مصر وخارجها فى فلسطين .

ولكن هذا التسامح الرائع لم يستمر فى خلافة الحاكم بأمر الله ( ٣٧٦ هـ / ٩٩٦ — ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م ) اذ اضطهد النصارى ، وأمر بهدم كنيسة القيامة ، ولدينا نص الأمر بذلك ممثلا فى سجل مرسل إلى واليه بالقدس كتبه أحد الأقباط المصريين ، جاء فيه « خرج اليك أمر الامامة بهدم قمامة فاجعل سماءها أرضا وطولها عرضا[٣٨] » ، وغيرها من الأماكن الدينية بها

---

(٣٤) إن هذه الاتصالات بين الرشيد وشارلمان لم يرد ذكرها على الاطلاق فى الأصول الإسلامية .

(٣٥) Thompson, J.W., The middle Ages, vol. I, p. 562,

ويقال أن بطريرك القدس هو الذى أرسل مفاتيح المدينة لشارلمان عام ٨٠٠ م ، ثم اعترف هارون الرشيد بذلك عام ٨٠٧ م ، راجع باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٢ . ويذكرنا ذلك بإرسال مفاتيح كنيسة القديس بطرس فى روما إلى شارل مارتل وشارلمان من بعده ، راجع هـ . و . ديفز : شارلمان ، ترجمة د . العريني ، القاهرة ، ص ٢٠٢ — ٢٠٤ . وتذكر المراجع الغربية أن ألفرد ملك إنجلترا ولويس ملك ألمانيا كانا يرسلان المساعدات إلى بيت المقدس وخصصوا لكنيستها العديد من الضياع . باركر : نفس المرجع ، ص ١٢ ، أيضا راجع :

Runciman, S., the piligrimage to palestine, in setton (ed.) vol. I, p. p. 68-81, Michaud, History of the crusades, trans. from the french by Robson, W.B., London 1852, vol. III, appendix VI, p. p. 358-359,

(٣٦) ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، نشر د . عزيز سوريال عطية وآخرون ، ط . القاهرة ١٩٥٨ م ، ج ٢ مجلد ٢ ص ١١٣ ؛ يحيى الأنطاكي : تاريخ يحيى الأنطاكي ، ص ٢٠٧ .

(٣٧) ناصر خسرو : سفر نامة ، ص ٣٠ .

(٣٨) ابن المقفع : سير البيعة المقدسة ، ج ٢ مجلد ٢ ص ١٢٨ . ويذكر صاحب سير البيعة المقدسة ، أن إصدار الحاكم لهذا الأمر ، يرجع إلى مكيدة راهب يسمى يونس حاول استمالة البطريرك المصرى زخاريا لتنصيبه أسقفا ، ولكن زخاريا رفض ، فوشى يونس بالبطريرك لدى الحاكم الذى أمر بالقاء بإطلاق وعدم كنائس الخلافة ، وزج بالبطريرك فى السجن وكتب السجل المذكور . راجع ابن المقفع : المصدر السابق ، ج ٢ مجلد ٢ ، ص ١٢٧ — ١٢٨ . ولكن آرشر ، وكنجز فورد يرون أن اليهود هم السبب وراء تلك الإجراءات التى اتخذت الحاكم ، راجع :

Archer & Kingsford, The history of the latin p. 17.

ويذكر ابن القلانسي أن الخليفة الحاكم كتب الى والى الرملة وأحمد بن يعقوب الداعى الإسماعيلى بقصد القدس واستصحاب الاشراف والقضاه والشهود ووجوه البلاد وقصد بيعة القمامة وفتحها ونهبا وأخذ كل ما فيها ونقضها وتعفيه أثرها . راجع ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٦٧ . ويذكر المؤرخ الصليبى وليم الصورى رواية شبيهة برواية ابن القلانسي وربما نقلها عنه . راجع : William of Tyre, A history of the deeds done beyond the sea, vol. I, p. 66.

فيها أديرة النساء وفرض عليهم وعلى اليهود لبس علامات مميزة ( الغيار[٣٩] ) ، لاظهار مجد الاسلام ، مما حدى بنصارى القدس من العرب أو غيرهم بالرحيل إلى بلاد الروم أو الحبشة أو بلاد النوبة[٤٠] . وأدى هذا بالتالى لتوقف حركة الحج المسيحى للاراضى المقدسة ، وأثار سخط وغضب المسيحيين عامة ، وبخاصة فى أوروبا ، مما حدى بالبابا بنوا الثامن «Benoe VIII» للدعوة لحرب صليبية ضد العرب عام ٤٠٧ هـ / ١٠٢٦ م .

كما أن تصرفات وسياسة الحاكم بأمر الله جعلت المؤرخين الصليبيين[٤١] يصبون جام غضبهم عليه دون أن يحاولوا فهم السبب الحقيقى الذى كان يكمن وراء تصرفاته وسياسته ازاء المسيحيين واليهود ، كما انساق وراءهم المؤرخون الحديثين[٤٢] . وأختلفت آراء المؤرخين حول هذا القرار الخطير بهدم كنيسة القيامة الذى كان له تأثير على زيادة حدة العداء بين الاسلام والمسيحية ، فيرى البعض أن سبب ذلك يرجع للعداء بين الروم والفاطميين والصراع الدائر بينهما ، وأن الروم حاولوا استعادة الاراضى المقدسة تحركهم بذلك دوافع صليبية[٤٣] ، وقيل أن السبب جاء من قيام النصارى القدس بفتنة المسلمين عن دينهم باتباعهم تقليدا معينا فى صلاتهم بكنيسة القيامة[٤٤] ، كما قيل أن سبب هدمها ، هو هدم الامراطور البيزنطى لجامع القسطنطينية ، فأنتقم الحاكم بهدم كنيسة القيامة . وهناك من يرى أنه أراد أن يثبت للعالم الاسلامى أنه مازال مخلصا للعقيدة الاسلامية ، فسر المسلمون بذلك وأحترموه[٤٥] .

ويبدو لنا أن الخليفة الحاكم بأمر الله لم يهدم كنيسة القيامة بقصد الحج المسيحى أو عرقلته ولكننا نؤيد الرأى القائل بأن سبب هدمها ، رغبة البيزنطيين فى الاستيلاء على بيت المقدس ، فى الوقت الذى أرغم فيه الخليفة الحاكم جالية الروم فى مصر على الخروج منها ، وكانت لهم حارة

---

(٣٩) ابن المقفع : سير البيعة المقدسة ، مجلد ٢ ج ٢ ص ١٨ ، البكرى : عيون الأخبار ، مخطوط دار ، ورقة ١٤٩ ( ج ) . وفى كتب الدروز المقدسة ما يفهم منه مدى كراهية الحاكم لليهود ومحاولته إبادتهم من بلاده . راجع د . محمد كامل حسين : طائفة الدروز ، تاريخها وعقائدها ، ط ٢ . القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٤٨ .

(٤٠) ابن المقفع : المصدر السابق ، ج ٢ مجلد ٢ ص ١٢٩ .

(٤١) William of tyre, A history of the deeds done beyond the sea, vol. I. p. p. 65-66.

(٤٢) Michaud, History of the crusades, vol. I, p. p. 16-18, Dury, V. The History of the middle ages, trans by whitney, New York 1891, p. 265.

ورواية هؤلاء عن الخليفة الحاكم فيها الكثير من المبالغة والنظرة الضيقة والمتعصبة للأمور ، ويذكر ميشو أن مسيحى الغرب صبوا سخطهم على الحاكم بانزال العقوبات القاسية والاضطهادات باليهود «Michaud, History, vol. I, p. 17. . ويبدو أن الحاكم لم يختص بسياسته تلك فئة معينة بل عانى منها المسلمون أيضا . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٧٨ . وقد تصدت الأبحاث الحديثة للدفاع عن سياسة الحاكم إزاء أهل الذمة د . محمد كامل حسين : طائفة الدروز ، ص ٣١ ـــ ٤٩

(٤٣) ابن خلدون : العبر ، المقدمة ، ص ٣٠ ، أيضا راجع : Michaud, History,vol.I,p.19.

(٤٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٧

(٤٥) ابن القلانسى : نفسه ، ص ٦٨ ح (١) . وأيده فى ذلك وليم الصورى . راجع :

Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 19.

خاصة بهم بالقاهرة كما كانوا يعملون بقصره ، بعد تكرار هجماتهم على الشام[٤٦] ، ويؤكد ذلك لنا أن الخليفة الحاكم عاد إلى تحسين معاملة المسيحيين وأمر باعادة الكنائس ومنها كنيسة القيامة وأصدر بذلك سجلا[٤٧] ، بفتح الكنائس كلها فى مملكته وعمارتها ، وأن تعاد إليها الأخشاب والعمد المأخوذة منها والأراضى والبساتين المخصصة لها فى كورة مصر ، وأستمرت سياسة التسامح هذه فى خلافة الظاهر لاعزاز دين الله ، الذى سمح باعادة بناء بقية الكنائس ووافق على طلب الامبراطور قسطنطين مونوماخوس باعادة اصلاح بعض الأجزاء المهدمة بكنيسة القيامة ، وتقديم تسهيلات للحجاج إلى الأراضى المقدسة[٤٨] .

وزادت حركة الحج نشاطا فى عهد الخليفة المستنصر بالله فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، بسبب ظهور أسطورة أوروبية تقول بنهاية العالم سنة ١٠٠٠ م[٤٩] ، ولتسامح الخليفة المستنصر الفاطمى الذى قدم للحجاج الكثير من الامتيازات والتسهيلات[٥٠] فسمح لهم

---

(٤٦) د . ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، ط . بيروت ١٩٩٦ ، ص ١٣٥ ؛ ظهور خلافة الفاطميين ، ص ٤٤٩ .

(٤٧) أنبا ميخائيل : سير البيعة المقدسة ، ج ٢ مجلد ٢ ص ١٢٧ . وراجع ما كتبناه حول هذه الأمور بالشرح والتحليل فى رسالتنا للدكتوراه . صلاح نزار : تاريخ الشام السياسى خلال القرن الخامس الهجرى ــ رسالة دكتوراه لم تنشر ــ آداب إسكندرية ١٩٨٩ ، ص ١٢٩ ــ ١٣٧ ، معتمدا على مصادر .

(٤٨) وصف وليم الصورى إعادة بناء الكنيسة بشكل مبهر «William of tyre, history of the deeds done beyond the see, p.p69 -70» ويذكر المؤرخ بوس أن مسيحى الأراضى المقدسة نعموا بقدر كبير من التسامح بعد عصر الحاكم بأمر الله مع مطلع خلافة الظاهر لإعزاز دين الله .

CF, Boaso, T.S.R., Kingdoms and strong holds of the crusadors in the holy land, London 1971, p. 41.

(٤٩) المؤرخ وليم الصورى يذكر أن اضطهادات الحجاج المسيحيين استمرت خلال الحكم الفاطمى للقدس ، وأن الحجاج تعرضوا لكل أنواع العذاب والاضطهادات المستمرة ، ولم ينج منها أهل البلاد أنفسهم . وهذه نظرة ضيقة من جانب المؤرخ سببها الاشاعات المبالغ فيها التى روجها الحجاج الآتين من الأراضى المقدسة اللذين امتلأت قلوبهم حقداً لسيطرة الفاطميين على المدينة المقدسة . William of tyre, deeds, vol. I, p. 70 ، ولكن وليم الصورى اعترف فى موضع آخر أن المسلمين والمسيحيين عاشوا بالقدس فى وئام وتعاطف كاملين ، وأن المسيحيين كان لهم حيا خاصا وأديرة بالقدس ، تمتعت برعاية وحماية المواطنين فى خلافة المستنصر بالله . راجع :

William of tyre, history of the deeds done beyond the see, vol. I. p. p. 407-408.

وراجع المقال الهام الذى كتبه السيدة روز التدهيل حول هذه الأمور :

Hill (R.) The christian View at the time of the cursades in Holt (ed. lnchief): The eastern Mediterranean lands, England 1977, p. p.

(٥٠) ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ٢٦ . وهو المصدر العربى الوحيد الذى أنفرد بذكر رواية بناء هذه المستشفى للحجاج القادمين لزيارة الأراضى المقدسة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى . وكانت غالبية الآراء حول بناء تلك المستشفى تعتمد على المصادر والمراجع الغربية فقط . راجع :

William of tyro, history of the deeds done beyond the see, vol. I. p. p. 80, 408, Archer & Kings ford, the crusades, p. 15.

ويذكر الأستاذ كونسر أن هذه المستشفى هى فى الأصل المستشفى التى بناها شارلمان فى خلافة هارون الرشيد العباسى ثم جددت عام ٤٠٨ هـ على يد تجار أمالفى ، وكانت تقع جنوب شرق كنيسة الضريح المقدس ، وخصصت فقط للمرضى =

ببناء أديرة وكنائس بالقدس ، كما منح بعض تجار أمالفي امتياز بناء مستشفى كبير لهم بالقدس للعناية بالحجاج القادمين لزيارة الأراضي المقدسة وتقديم العلاج والدواء وتذليل العقبات لهم . وهذه المستشفى سوف تكون الأصل أو الأساس التي قامت عليه جماعة فرسان الاسبتارية «Kinghts of Hospitallers» ، خلال القرنين الثاني عشر ، والثالث عشر الميلاديين[51] .

وثمة عامل آخر كان ضمن العوامل العامة التي أثارت الغرب الأوروبي وساعدت على قيام الحركة الصليبية ويتمثل في ظهور قوة اسلامية جديدة هددت حركة الحج إلى الأراضي المقدسة ، بل وهددت باسقاط الامبراطورية البيزنطية نفسها ، ونعني بها قوة الأتراك السلاجقة ، الذين يرجع اليهم الفضل في تجديد قوة الاسلام ، واعادة تكوين وحدته السياسية وأفتتح ظهورهم عهدا جديدا ليس في تاريخ العالم المسيحي الشرقي ، بل في تاريخ العالم الاسلامي أيضا[52] .

ففي أواخر القرن العاشر الميلادي ، الرابع الهجري خرجت من سهوب تركستان فئة من الغزاة الاتراك يحملون أقواسا قصيرة وسيوفا مقوسة يطلبون الرزق من وراء الحروب والمغانم وعلى رأسهم زعيم يدعى سلجوق بن تقاق ، واليه ينسب الأتراك السلاجقة ، وأعتنقوا الدين الاسلامي وتحمسوا له ، وخطوا خطوات بالغة في السرعة والقوة ، فأقاموا سلطنة لهم على حساب سلطنة الغزنويين ، وأستولوا على خراسان وفارس[53] .

وما كادت الخلافة العباسية تتخلص من سيطرة البويهيون الفرس حتى أصبحوا ألعوبة في أيدى الأتراك السلاجقة فتمكن طغرلبك[54] من اسقاط بغداد ونادى بنفسه سلطانا عام ٤٥٠ هـ /

---

= ، وانوق . راجع :

Conder, C.R., The latin kingdom of Jerusaleum, London 1897, p. 5.

وهناك آراء ترى أن هذه المستشفى بنيت في عهد الخليفة الظاهر الفاطمي عام ١٠٢٠ م . راجع :

La Croix, La chevaleril et les croisads, Paris 1887, p. p. 199-200.

ويذكر وليم الصوري أن الأمالفيين ، أول تجار إيطاليا الوافدين على الشرق لتبادل السلع التجارية معه ، وأول من حصلوا على امتياز بناء هذه المستشفى ، بجانب بناء ديرا لهم بالقدس . راجع :

William of tyre, deeds, vol. I, p. p. 241-3.

(٥١) وجماعة الاسبتارية تلك هي أحدى الجماعات الدينية العسكرية التي ظهرت أواخر القرن ٥ هـ / ١١ م مع قيام الحروب الصليبية ، ولعبوا دورا كبيرا في الحفاظ على الكيان اللاتيني بالشام . للإستزادة راجع :

Le Roulx, A. Les hospitallers en terre sainte et a chypre (1100, 1370), Paris 1904, King. The kinghts of hospitallers in the Holly land, London 1931, wood house, the military religious orders of the middle ages, London 1879.

أيضاً د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٦٩ والحواشي .

(٥٢) Cahen, C. The Turkish Invasion in history of the crusades, Setton (ed.) vol. I, p. 135.

(٥٣) لمزيد من التفاصيل عن توسعات السلاجقة خارج حدودهم الجغرافية . راجع الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ط القاهرة ، ١٩٠٠ ص ٢٦ ــ ٢٨ ؛ ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ط . ليدن ١٦٢٥ ، ص ٢٦٧ ؛ ابن خلكان وفيات الأعيان ، ط . بيروت ، ج ١ ص ١٥٥ ؛ ابن خلدون : العبر ، ط . بولاق ١٢٨٤ هـ / ج ٤ ص ٦٥

(٥٤) هو ركن الدين طغرلبك أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق . الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٦ ــ ٢٧ ؛ زامباور : معجم الأسرات والأنساب الحاكمة ، ط . القاهرة ١٩٤٨ ، ج ٢ ص ٢٣٣ .

١٠٥٥ م ، وأغدقت عليه الخلافة العباسية ألقاب التفخيم والعظمة التي دلت على صدارته وزعامته في العالم الاسلامي .

وفي عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، خلف السلطان ألب أرسلان ( كلمة تعني الأسد الشجاع ) ، عمه طغرلبك ، الذي عمل على توسيع أملاك السلاجقة في آسيا الصغرى ، واجتاح أرمينيا وعاصمتها القديمة آني «Ani» ، وكانت بمثابة الحصن الذي يقي الامبراطورية البيزنطية شر الغزوات الشرقية[٥٥] ولكنه اصطدم بالامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ( ديوجينيس ) «Diogenes» ١٠٦٧ — ١٠٧١ م ) ، حين حاول الأخير استرداد أرمينيا ومهاجمة مؤخرة الجيش السلجوقي هناك ، فتقابل السلطان ألب أرسلان مع رومانوس في موقعة ملاذكرت ( مانزكرت ) الكبرى قرب بحيرة وان ( فان ) عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ، فأنزل به ألب أرسلان هزيمة ساحقة وحصد زهرة فرسان البيزنطيين ، وأسر الامبراطور البيزنطي ، ولأول مرة في التاريخ يسقط امبراطور بيزنطي أسيراً في يد سلطان مسلم[٥٦] . ولدينا رواية معاصرة عن تفاصيل تلك الموقعة الهامة وما دار فيها بين الفريقين[٥٧] . ويرى البعض أن موقعة ملاذكرت من أشد ما وقع في التاريخ البيزنطي من كوارث[٥٨] ، باعتبارها نقطة تحول هام في مجرى التاريخ

---

(٥٥) الأصفهاني : نفس المصدر ، ص ٢٧ — ٢٨ ؛ شارل أومان : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة د . مصطفى طه بدر ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ١٩٦ ، وكذلك :

Cahen, C., The Turkish invasion.In history of the crusades. setton p. 160.

(٥٦) لمزيد من التفاصيل عن موقعة ملاذكرت ، راجع ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٩ والحواشي ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٢٠ ؛ العظيمي : تاريخ العظيمي ، نشر كاهن ، باريس ١٩٣٨ ، ص ٣٥٩ ، ويذكر أومان أن تهور واندفاع رومانوس كان سبب هزيمته . أومان : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة د . مصطفى طه بدر ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١٩٦ — ١٩٨ ، راجع رواية وليم الصوري عنها :

William of tyre, A history of the deeds done beyond the sea, vol. I, p. 77-79.

وقد أحيطت تلك الموقعة بالأساطير والمبالغات من بعض المؤرخين ، راجع مثلاً :

Cahen, The Turkish invasion in setton (ed.) vol. I, p. 184, La campagne du Manzikcet d'apres les scurces musulmanes, Byzantion 1934. vol. IX.

(٥٧) ابن مفرج الاسكندراني . سير البيعة المقدسة ، نشر د . عزيز سوريال عطية وآخرون ، ط . القاهرة ١٩٥٩ ، ج ٢ ص ٢٠٠ — ٢٠١ . وراجع الروايات والآراء الجديدة التي أتينا بها حول معركة ملاذكرت في رسالتنا للدكتوراه . صلاح نوار : تاريخ الشام السياسي خلال القرن الخامس الهجري من ٤١٩ — ٤٢١ والحواشي .

(٥٨) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ١٠٠ . ويعارض الدكتور عمر كمال رأي رنسيمان في مبالغته في تقدير نتائج تلك المعركة . د . عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ، ط . إسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٢٤ ح (١) . ويرى جروسيه أنها أكبر كارثة في تاريخ أوروبا ، Grousset, R.L'epopee, p. 4, Boase, The Kingdoms, p. 9, Oman, Art of war, vol. I, p. 233.

البيزنطي كله[٥٩] ، اذ فقدت بيزنطة بعدها لقب حامية العالم المسيحي ضد مسلمي الشرق[٦٠] أو في حراسة الباب الشرقي لأوروبا من غزوات السلاجقة ، كما أنها تبرر في نظر غالبية المؤرخين قيام الحركة الصليبية كرد فعل لها[٦١] .

كما تمكن الأتراك بعدها من اقامة سلطنة جديدة تسمى سلطنة الروم السلاجقة ( عاصمتها قونية ) التي هددت القسطنطينية نفسها ، مما أوقع الرعب بالامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع الذي استنجد بالبابا جريجوري السابع ( هيلد براند ) بابا روما بوصفه رئيس العالم المسيحي الغربي عام ١٠٧٣ م ، والذي حاول أن يبشر بحملة كبيرة لاسترداد آسيا الصغرى من أيدي السلاجقة واعادتها للامبراطورية البيزنطية مقابل اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية[٦٢] ، بل وأعلن هيلد براند عن استعداده للذهاب بنفسه مع تلك الحملة[٦٣] ، ولكن تلك المحاولة باءت بالفشل نتيجة لانشغاله بالنزاع مع النورمان ، وما نشب من حرب التقليد ، بجانب ظهور الشك حول نيته في توجيه تلك الحملة لمحاربة النورمان بجنوب ايطاليا وان وضع بذلك أساس مشروع خليفته أوربان الثاني ( ١٠٨٧ — ١٠٩٩ م )[٦٤] .

وزاد من تأجج حماس الغرب الأوروبي ، قيام الأتراك السلاجقة بانتزاع الشام وفلسطين من أيدي الفاطميين ، فساءت بذلك أحوال النصارى في بيت المقدس ، وتوقفت الزيارات اليه ، وذلك حين قام القائد السلجوقي أتسز ( الأقسيس ) بالاستيلاء على القدس في عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م ، وقتل الكثير من أهله حتى انتقل حكم فلسطين ليد أسرة أرتق التركمانية[٦٥] .

ويبدو أن الأتراك كانوا يجهلون الحماس الذي كان يتأجج في قلوب الحجاج القادمين من

---

(٥٩) يذكر وليم الصوري أن كارثة ملاذكرت كانت بمثابة الحد الفاصل في تاريخ الامبراطورية البيزنطية ونهاية عصر الأباطرة الأقوياء الذين حكموا بيزنطة بيد من حديد . راجع :

William of tyre, A History of the deeds done beyond the sea, p. 179.

والحقيقة أن انتصار ألب أرسلان لم يكن حاسما بمعنى الكلمة كما توهم الكثير من المؤرخين ، ولكنه ضمن حياد بيزنطة في صراع السلاجقة مع الفواطم بالشام . راجع أومان : المرجع السابق ، ص ١٩٨ .

Oman, Art of war, vol. 1, p. 233, Cahen, the Turkish invasion in setton (ed.) vol. 1, p. 149.

(٦٠) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ١٠٠ .

(٦١) أشار المؤرخ فوشيه شارتر لاجتياح السلاجقة شبه جزيرة الأناضول بعد تلك الموقعة :

Fulcher of chartres, op. cit., p. 62, Grousset, R., L'épopee, p. 4, Mayer, The crusades, London 1971, S.F. Archerx Kingsford, the latinh. ingdom

(٦٢) باركر : الحروب الصليبية ، ترجمة د . العريني ، ص ١٨ ح (١) ؛ هـ . ج ويلز : موجز تاريخ العالم ، ترجمة توفيق جاويد ، ط . السعادة ١٩٥٨ م ، ص ٢١٩ . ويعتبر البعض دعوته أنها دعوة لقيام حملة صليبية بمعنى الكلمة . راجع :

Conder, C.R., The latin Kingdom of Jerusalem, London 1897, p. 5, Cahen, La Syrie de Nord, Paris 1940, p. 199.

(٦٣) Dury, V., The history of the middle Ages, New York, 189, p. 265.

(٦٤) باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٨ — ١٩ ؛ هـ . و . ديفز : أوروبا العصور الوسطى ، ص ١٩١ — ١٩٢

(٦٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٩ — ١١١ .

الغرب ، فلم يعاملوهم بنفس تسامح الفاطميين من قبل ، ولذلك كان هؤلاء الحجاج المتعصبون اذا عادوا لأوطانهم يشوهوا الحقيقة ويشنعون على المسلمين وعن المعاملة السيئة والاضطهادات التى لاقوها وأخوانهم من بنى جنسهم بالشرق مما أثار حفيظة اخوانهم ودفع غالبية مؤرخى الحروب الصليبية للمبالغة فى رواياتهم عن الاضطهادات التى لاقاها الحجاج المسيحيون بالأراضى المقدسة ووصف قسوة ووحشية الأتراك[٦٦] ، وأنساق وراءهم المؤرخون المحدثين[٦٧] .

والوقع أن الباحث لا يستطيع أن يقطع برأى حول اضطهادات الأتراك السلاجقة للمسيحيين فى الشرق ، أو للحجاج اللاتين القادمين من الغرب ، كما روته المصادر الغربية ، ومن بينها الخطبة المنسوبة لأوربان الثانى نفسه فى مجمع كلير مونت الكنسى . ذلك أن المسيحيين الوطنيين قد عوملوا فى الأقاليم التى فتحها السلاجقة مثلما كانوا يعاملون من قبل ، كأقلية يدفعون الجزية ويتمتعون بحماية ورعاية الشريعة الاسلامية ، وحرية العبادة . أما ما حدث لهم أثناء الغزو السلجوقى للشام ، وما دار فيها من صراع مرير بينهم وبين الفاطميين ، فهو أمر طبيعى ونتيجة حتمية عانى منها أقسام كثيرة من السكان ومنهم المسلمون أنفسهم[٦٨] .

بل أن اتسز التركمانى عند محاولته استعادة بيت المقدس بعد عصيانها عليه اثر هزيمته أمام القاهرة عام ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م ، اقتحم المدينة المقدسة ، وأنزل بها مذبحة مروعة كان الضحية فيها المسلمون فقط ، ولم ينج منها سوى المسيحيين من سكان المدينة ، أو الحجاج اللاتين القادمين

---

(٦٦) عن روايات هؤلاء المؤرخين عن تلك الاضطهادات راجع :

William of Tyre, deeds, vol. I, p. p. 71-81, Fulcher of Chartres, Expedition, p. p. 58, 62.

ويذكر وليم الصورى أن حراس المدينة المقدسة من الأتراك كانوا لا يسمحون للحجاج اللاتين بدخول المدينة إلا بعد دفع قطعة من الذهب كضريبة دخول المدينة .

William of tyre, deeds, vol. I, p. 80.

ويصف المؤرخ ريموند أجيل نزول الصليبيين فيما بعد إلى الساحل عبر أقاليم مليئة بالكنائس حيث وجدوا الأيقونات ، وصور المسيح نفسه وقد شوهها الأتراك وفقئوا عيونها ، وظلت باقية حتى الآن . راجع نص ريموند أجيل فى :

Bosse, Kingdoms and strong holds of the crusaders, London 1971, p. 41.

(٦٧) أنظر مثلا :

prawer, J., The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1973, p.264,
Michaud, History of the crusades, London 1852, vol. I, p. p. 32-33,
Conder, C.R., The Latin Kingdom, London 1897, p. 17.

ورواية كوندر هنا بها مبالغة شديدة وتدل على نظرة ضيقة متعصبة من جانبه ، أيضا :

Runciman, S., The Pilgrimage to Jerusalem before 1095, vol. I, p. p. 77-78.
Butcher, the story of the church of Egypt, London 1897, p. 70, vol. II.

وتذكر مجموعة كمبردج للعصور الوسطى أنه من غير المعقول أن يكون سقوط القدس فى أيدى السلاجقة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م واضطهادات الحجاج المسيحيين ، سببا فى إثارة مشاعر الغرب الأوروبى بقدر ما أثارهم سقوط أنطاكية البيزنطية فى أيدى السلاجقة ، لأن سكانها الذين هاجر أغلبهم الى أوروبا ، هم الذين أثاروا مشاعر الأوروبيين ضد الأتراك . راجع :

Cambridge Med. Hist, vol. V, p. 269.

Mayer, H.E., The crusades, Oxford 1972, p. 6.

لزيارة المقدس ، باعتراف المؤرخ الصليبي ستيفن رنسيمان نفسه[٦٩] .

ومن الصعب تصديق هذه الشائعات عن الأعمال الوحشية التي قام بها السلاجقة ازاء المسيحيين وكنائسهم أو منعهم للحجاج اللاتين لزيارة بيت المقدس من دخولها[٧٠] فالغزو التركي لفلسطين تم في وقت كانت الخلافة الفاطمية فيه ضعيفة ومشغولة تماما عن الدفاع عن أملاكها في الخارج ، مما حدا ببعض مدن الساحل الشامي على طول طريق الحجاج الممتد من الشمال إلى الجنوب أن تستقل عن السيادة الفاطمية ، وتقوم بها امارات مستقلة ، وعمل كل أمير من ناحيته على أن يفرض رسوم على الحجاج العابرين لمدينته ، ويؤكد هذا الرأى ما ذهب إليه كل من العظيمى[٧١] والعينى[٧٢] من أنه في عام « ٤٨٦ هـ منع أهل السواحل حجاج الفرنج والروم من العبور الى بيت المقدس ، وأنتشر الخبر مما سلم منهم إلى بلادهم بذلك فتأهبوا للغزو ، واتصلت الأخبار بذلك إلى السواحل وبلاد المسلمين كلها » .

ومن الصعب تقبل مثل هذه الرواية الاسلامية من جانب العظيمى والعينى ، فلدينا رواية أخرى لمؤرخ مسيحى معاصر وشاهد عيان[٧٣] لتلك الأحداث ، تدحض كل ما ذهب اليه المؤرخون المسلمون والمؤرخون الغربيون الحديثون عن سوء معاملة الأتراك الوحشية للحجاج المسيحيين الغربيين أو الشرقيين ، وهى تثبت وتؤكد حسن معاملة الأتراك لمسيحى المدينة المقدسة أو الحجاج الوافدين وتقول هذه الرواية : « كان الغز ( الأتراك ) قد ملكوا مدينة القدس المحروسة وقد كذبوا نزول النور في كنيسة القيامة المقدسة على المقبرة الشريفة فلما علموا صحة نزوله في كل سنة راعوا النصارى المقيمين فيها ، وأستخدموا على عماله البلد رجلا نصرانيا يعقوبيا محبا للمسيح يعرف بمنصور البلبانى وله زوجة مثله . وهو معونة كل من يصل إلى القدس من النصارى من مصر ، وغيرها من الآفاق » .

---

(٦٩) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ١١٧ .

(٧٠) Butcher, L. Church of Egypt, vol. II, p. 70, Runciman, S., The Pilgrimage to v. Palestine before 1095, p. 78.

وفي وثائق هذا العصر تثبت أن الحجاج القادمون إلى الأراضي المقدسة كانوا يقومون بحجهم دون مضايقات ، وقت السيادة العربية على القدس ، لتسامح الدين الإسلامى ، وإذا كانوا قد لاقوا بعض مضايقات من السلاجقة ، فيرجع ذلك لحداثة السلاجقة بالإسلام ، ونحن نعرف شعور المتحمس للدين الجديد ، بل أن ما لاقاه الحجاج على أيدى البيزنطيين فاق ما لاقوه على أيدى السلاجقة . راجع :

Atiya, A.S., Crusades, Commerce and Culture, New York 1958. p. p. 39-40. Grousset, Histoire des croisades, Paris 1983. vol. I, p. p. 5-6.

(٧١) العظيمى : تاريخ العظيمى ، نشر كاهن في المجلة الأسيوية «J.A.» باريس ١٩٣٨ ص ٣٦٩ .

(٧٢) أورد العينى نفس رواية العظيمى مع إختلاف طفيف في بعض الألفاظ مما يرجح أنه نقلها منه . العينى : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، مخطوط دار الكتب رقم ١٥٨٤ ، تاريخ ، ج ١ قسم ٣ لوحات ١٦٤ ، ٤٦١ .

(٧٣) ابن مفرج الاسكندرانى : سير البيعة المقدسة ، ج ٢ مجلد ٢ ص ٢٢٩ . وأنكر بعض المؤرخون الحديثون الشائعات التى روجت عن اضطهاد السلاجقة للمسيحيين الشرقيين أو الوافدين على المدينة المقدسة . مثلا .

Thompson, The Middle Ages, vol. I, p. 365, Mayer, H.E. The crusades, Oxford 1972, p. 6.

وكيفما كان الأمر ، فان فرنج الغرب اتخذت من شكوى حجاج بيت المقدس ذريعة لحرب مسلمي الشرق ، في الوقت الذي وصلت فيه استغاثة الامبراطور البيزنطي اليكسيس كومنين ( ١٠٨٥ — ١١١٨ م ) الى البابا أوربان الثاني ( ١٠٨٨ — ١٠٩٩ م ) «Urban» بسبب تفاقم خطر الأتراك السلاجقة الذين توغلوا في شبه جزيرة الاناضول وأصبحوا على بعد مائة ميل من القسطنطينية[٧٤] واستغلت البابوية هذه الاستغاثات لتحقيق كل ما تصبوا اليه من أغراض واهداف[٧٥] ، فرحل أوربان الثاني إلى فرنسا في نوفمبر ١٠٩٥ م / ذو القعدة ٤٨٨ هـ ، وعقد مجمعا كبيرا في كليرمونت Clermont ( احدى أعمال فرنسا الجنوبية ) حضره كثير من رجال الدين والبارونات ونبلاء فرنسا ، كما حضره أيضا الكثير من الفرسان[٧٦] ، حيث أعلن البابا قيام الحركة الصليبية رسميا في خطبته الشهيرة في ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ م / ٤٩٠ هـ ، ودعا مسيحيي الغرب لحمل السلاح والذهاب إلى القدس[٧٧] ، وانتزاعها من أيدي العرب ، وأعلن غفران الذنوب للمشاركين في الجهاد الديني المقدس ضد المسلمين المسيطرين على الأراضي المقدسة[٧٨] . وعندما قرأ البابا أوربان الثاني ، خطبته الشهيرة التي تحث الفرنجة للحرب

---

(٧٤) لمزيد من التفاصيل عن تلك الاستغاثة وما دار حولها من آراء ، راجع :

Duggan, A. The story of the crusades (1095-1291), London, 1963, p.p. 20-21; The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1973, p. 8.

ويرى جروسيه أن أوربان الثاني دعا لقيام الحركة الصليبية بناء على طلب اليكسيس . وهذا الرأى ثبت خطأه . راجع :

Grouset, R.L'épopes des croisade, Paris 1939, p. 5.

انظر ارنست باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٩ — ٢٠ ؛ وتحليل د . جوزيف نسيم حول ذلك : العرب والروم ، ص ٥٢ — ٥٤ . ويذكر الأستاذ هانز ماير أن أوربان استغل اليكسيس لتحسين العلاقات مع بيزنطة ، بل وأرسل عام ١٠٨٩ سفارة لإنهاء الخلافات مع الباتيين واعفائه من قرار الحرمان . راجع :

Mayer, H.E., The crusades, Oxford 1971, p. 7;Deansley., The medieval church, London 1981, p. 107.

(٧٥) عن أغراض البابوية الحقيقية راجع باركر : نفس المرجع ، ص ٢٠ — ٢١ ؛ د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٧١ — ٧٣ ، وكذلك :

Prawer, The Latin Kingdom, p.p. 8-9, Deansley, Medieval ; p. 107.

(٧٦) عن تحركات البابا أوربان الثاني قبل مجمع كلير مونت . راجع :

Chalandon, F., Histoire de la premiere croisades, Paris 1922, p.p. 19-22, Duggan, The story of the crusades London 1963, p. 20.

ولم يحضر هذا المجمع أي ملك أو امبراطور غربي . ويذكر فوشيه شارتر أن عدد الأساقفة الذين حضروا المجمع بلغ ثلثمائة وعشر أسقفا . Fulcher of chartres, op. cit., p. 62.

(٧٧) يلاحظ أن البابا أوربان أغفل في خطبته إستغاثة الأمبراطور البيزنطي تماما . راجع :

Stevenson, The crusaders in the East, cambridge 1907, p. 7.

أيضا هارتمان ، باراكلاف : الدولة والامبراطورية ، ترجمة د . جوزيف نسيم ، إسكندرية ١٩٧٠ ، ص ٥٠ — ٥١ .

(٧٨) انظر النص الانجليزي لخطبة البابا أوربان الثاني كما أوردها فوشيه شارتر بالكامل في كتابه :

Fulcher of chartres, A history of the expedition to Jerusalem , knoxville 1969 p.p. 62-67.

ويذكر الأستاذ د . ث مونرو أنه من المحتمل أن فوشيه شارتر كان ضمن الحاضرين في مجمع كلير مونت :

F. Munro, D. Urban and the crusaders from the original European History, London 1902, vol. I.

هذه الخطبة التاريخية التي بدأت عهدا جديدا في التاريخ لم تحفظ لنا ، ولهذا اعتمدنا على الخطبة التي أوردتها الروايات المعاصرة =

المقدسة ، صاحوا صيحتهم المشهورة « هذه هي ارادة الله » «Deus le volt» وركع المتشددون على أقدامهم ، وأقسموا اليمين على استرداد الاماكن المقدسة[٧٩] ، وحمل الجميع شارة الصليب شعارا على صدورهم وأكتافهم ، ومن هنا عرفت هذه الحركة في التاريخ باسم الحروب الصليبية[٨٠] ، واكتسبت تلك الحروب الصبغة الدينية ، كما يبدو من تسميتها وشعارها . ولم يقصر البابا دعوته لقيام تلك الحركة على الأمراء والسادة النبلاء ، بل وجه دعوته إلى الدهماء والعامة والغوغاء من شعب أوروبا لحرب مسلمي الشرق[٨١] وبذلك نظر البابا الى الغرض من الحروب الصليبية نظرة اختلفت عما أرادته الامبراطورية البيزنطية . وقد بث البابا دعاته في طول فرنسا وعرضها ، لاثارة الحماس الديني ضد الشرق الاسلامي ، وكان ترجمانه الى العامة راهبا يدعى بطرس الناسك[٨٢] «Peter the Hermit» الذى كان يطوف أوروبا يخطب في العامة ويثيرهم لاسترداد القبر المقدس[٨٣] ووجدت دعوة هؤلاء تجاوبا عجيبا من مسيحيي الغرب على

---

= عنها ، وبعضها كتب أثناء الحروب الصليبية راجع :

Prawer, J. The vicissitude, p.p. 8-9, Deansley, M. op. cit., p. 107.

وأورد خطبة البابا أوربان الثانى أربعة من المؤرخين الصليبيين منهم فوشيه ، وروبرت الراهب ، وبودري دى بورجى ، وجيبرت النوجنتى ، ومؤرخ متأخر آخر هو وليم مالمسبوري ، الذى أثبت الخطبة بعد ثلاثين سنة من كتابة تاريخه . راجع :

Robert le Moine, Historia Hieroso lymitana, R.H.C., Hist. occ., vol. III, p.p. 727-730; Baldric of Doll, Historie de pregrimantum Jerusalym itana. R.H.C. Hist. occ., vol. IV, Paris 1870, p.p. 12-15, Guibert of Nogent, Gesta dei per Francos, R.H.C. Hist. occ., vol. II, p.p. 137-140; William Malemesbury, De Regumoes Stofius, Rolls Series, London 1887-1889. vol. II, p.p. 293-398.

ويلاحظ أن نصوص الخطابات التى أوردها المؤرخون السابقون اختلفت عن بعضها البعض إختلافا تاما . ويميل الترجيح نص الخطبة التى أوردها فوشيه شارتر لمعاصرته الحملة منذ بدايتها حتى وصولها إلى الشرق . راجع تحليل د . جوزيف لهذه الآراء فى العرب والروم ، ص ٢١١ ح (٣) ؛ أيضا راجع :

Munro, D.C., The speech of Urban II at clermont (1095), A.H.R. vol. XII, p.p. 231-242.

(٧٩) مكسيموس مونروند : تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق ، ط . أورشليم ١٨٦٥ ، ج ١ ص ١٠ وما بعدها . أيضاً .

Cox, Sir, The Crusades, p. 1; Grousset, R., L'épopee, p. 6.

(٨٠) د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٦١ .

(٨١) Fulcher of chartres, The expedition, p. 67, Riant, Inventaire, to . I. p. 116, no. XIV.

(٨٢) لقد حيكت الأساطير الكثيرة حول دور هذا الرجل ، واعتبره بعض مؤرخى الحروب الصليبية ، المسئول الأول عن قيام الحركة الصليبية . راجع :

Anna comnena, The Alexiad, Trans by Dawes, E., London 1929, p.p. 248-249.

وأدحضت الأبحاث الحديثة هذا الرأى . راجع د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٥٥ ح (١) ؛ الدافع الشخصى لقيام الحركة الصليبية ، مجلة كلية آداب الإسكندرية ، مجلد ١٦ ص ١٨٣ ـ ٢١١ ، كذلك :

Stevenson, The crusaders in the East, p. 7; Conder, The latin kingdom of Jerusalems, London 1897, p. 16.

(٨٣) لقد أدحض المؤرخ الألمانى فون سيبل فى كتابه « تاريخ آداب الحروب الصليبية » الأسطورة القائلة بأن بطرس الناسك هو الذى بدأ الدعوة لقيام الحملة الصليبية الأولى . راجع :

Von Sybel, H., Geschicht des ersten kreuzzgs, Dusseldorff, 1841, p.p. 51-56; and edition, Leipzig 1881, p.p. 48-50.

أيضاً راجع د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ١٥٥ ؛ د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ١٢٦ ؛ عبد الله =

اختلاف طبقاتهم وهيئاتهم لأسباب عديدة بعضها دينى ، اجتماعى ، سياسى ، وعوامل أخرى ، وأصطبغت بصبغة الدين والحرب[٨٤] ، وكانت ألصق بحياة الناس وقتذاك مما جعل الحركة الصليبية تفتح آمالاً عريضة أمام البابوية لبسط سيطرتها على الشرق وكنيسته[٨٥] ، ولهذا كانت الحركة الصليبية ركناً أساسياً من أركان سياسة البابوات الخارجية[٨٦] .

وقد لعب العامل الاقتصادى دوراً رئيسياً فى قيام الحركة واتجاهها فى البداية ، ويبين لنا الأغراض والاتجاهات الحقيقية والخفية الكامنة وراءها ممثلاً فى الدور الهام الذى قامت به مدن ايطاليا التجارية ، جنوه ، بيزه ، والبندقية وغيرها[٨٧] ، وكان هدف هؤلاء الثلاث الكبار هدفاً استغلالياً بحتاً ، وفرصة طيبة لتحقيق أكبر المكاسب المادية والذاتية التى ستعود عليهم من السيطرة على طرق التجارة الشرقية ، وأعتبار الحركة الصليبية مهنة مقبولة لتحقيق أغراضها التجارية[٨٨] على حساب الطرفين المسلم والفرنجى[٨٩] ، ولم يكن يهمها الباعث الدينى الا بالقدر الذى

---

= عنان : مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام ، ط . القاهرة ١٩٢٩ ، ص ٥٢ . كذلك :

Grousset, R., Histoire des croisades, to. I, p. 5; Lane poole, History, vol. VI, p. 164; Saladin, London, p.p. 24-25; Thompson, The middle Ages, vol. II, p.p. 566-567.
Atiya, A.S., Crusades, commerce and culture, p. 20.

(٨٤) أيضاً راجع هارفان ، باراكلاف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ، ترجمة وتعليق د . جوزيف نسيم ، إسكندرية ١٩٦٩ ، ص ٥٧ ـ ٥٨ ؛ كولتون : أوربا العصور الوسطى ، النظم والحضارة ، ترجمة وتعليق د . جوزيف نسيم ، ص ٢٦٥ ؛ د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٤٢ . كذلك :

Thompson, C, The middle Ages, vol. II, p. 563.

(٨٥) ستيفن رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٦ ، وكذلك :

Grousset, R., L'épopee des croisades, p. 2.

ولمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر ارنست باركر : تاريخ الحروب الصليبية ، المقدمة ص ٧ ـ ٩ ؛ د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٧١ ـ ٧٢ ؛ د . سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ص ٤٠٥ ، ٤٤١ ؛ رنسيمان : نفس المرجع ج ١ ص ٦ ـ ٧ ، وكذلك :

Grousset, R. L'épopee des croisades, p. 2.

(٨٦) د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٧٢ ، أيضاً :

Prawer, J., The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1973, p. 4; Grousset, The sum of history, Oxford 1951, p.p. 172-173; Brundage, J, The crusades, Motives and Achievements, Boston 1964, p.p. XII - XIV.

(٨٧) لمزيد من التفاصيل عن الدور الهام التى قامت به هذه المدن التجارية راجع د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٨٧ ـ ٨٩ ، والحواشى ، علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية فى ضوء وثائق صبح الأعشى ، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٤٥ ـ ٢٠٠ والحواشى ؛ د . أحمد دراج : الوثائق العربية المحفوظة فى دور الأرشيف الأوروبية ( مصر الإسلامية ) ، مقال بمجلة أبحاث الندوة الدولية للتاريخ ، القاهرة ج ١ مارس ـ أبريل ١٩٦٩ ، ص ١١٧ ـ ١٢٧ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ٥٠٣ ـ ٥٠٥ ؛ د . عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٥ ـ ٣٧ ، كذلك :

Prawer, J., The Latin Kingdomp. p. 482-488; Kruger, The Italian cities and the Arabs before 1095, in setton (ed.,) vol. I, p.p. 40-53.

أيضاً د . مصطفى الكنانى : العلاقات بين جنوه والدولة الفاطمية ، ط . إسكندرية ١٩٨٣ م .

(٨٨) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٧ .

(٨٩) Heyd, Histoire du commerce du levant au Moyen age, leipzig 1885; vol. I, p.p. 131-133.

بعنيها[٩٠] ، فكان شعار البنادقة هو : « لنكن أولا بنادقة ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين[٩١] «Siamo Veneziani pui Christiani» . ويمكن القول أنه بدون هذه الأساطيل الايطالية ، لم يكن من الممكن بل من المستحيل غزو الاراضى المقدسة أو الاحتفاظ بها ولو لسنة واحدة[٩٢] ، وتقديم العون البحرى للدفاع عن تلك الأراضى ضد الأساطيل الفاطمية[٩٣] ، ومقابل ذلك حصلوا على امتيازات اقتصادية ، واقليمية ومالية وقضائية هامة تضمنتها تلك المعاهدات التى عقدت بين الجانبين الايطالى والفرنجى[٩٤] .

وبذلك يتضح لنا الباعث الحقيقى لتلك الحركة التى كانت فى الواقع تشمل مطامع المغامرين ، بجانب الهوس الدينى الممزوج بأغراض أخرى ، كالميل الى تأسيس ممالك جديدة والحصول على

---

(٩٠) باركر : الحروب الصليبية ، ترجمة د . العرينى ، القاهرة ١٩٦٠ ، المقدمة ، وكذلك .

Tolkowsky, S., The gateway to palestine, London (1924, p. 83).

(٩١) د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٩٠ والحواشى ، علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية ، ص ١٦٢ والحواشى .
وكذلك : Thompson; the middle ages, vol. II, p. 574.

وكان لمدن إيطاليا التجارية علاقات وثيقة مع دول الشرق الإسلامى قبل الحروب الصليبية فى مصر والشام ، فحصلت من الخلفاء الفاطميين على امتيازات تجارية واسعة حققت منها أرباح طائلة ، وساعد على توطيد تلك العلاقات التجارية سياسة التسامح الدينى التى انتهجها الفاطميون إزاء تجار الفرنج ، والذين تنقلوا بحرية داخل البلاد ، فأقاموا لأنفسهم الفنادق والوكالات التجارية بالقاهرة والإسكندرية ، كما أقام تجار أمالفى مستشفى وكنيسة لهم بالقدس قبل فترة وجيزة من الحروب الصليبية .
راجع : ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ٦٤ ، أحمد دراج : الوثائق العربية ص ١٦٦ ، د . جمال الدين سرور ، Wiet, C., L'Egypte Arabe, vol. VI, p. 306-386. ، ويعتبر كتاب هايد هذا المرجع الرئيسى لدراسة تجارة الشرق والعلاقات مع مدن إيطاليا التجارية فى العصور الوسطى . Heyd, commerce, I.II. وتذكر مجموعة تاريخ للعصور الوسطى أن مدينة البندقية كانت مترددة فى المشاركة فى تلك الحركة ، وفضلت الوقوف موقفا محايدا نظرا لعلاقاتها الوطيدة بالشرق الإسلامى ، ولكن منافسات زميلاتها مثل جنوه وبيزه أجبرها على التخلى عن موقفها . راجع :

Cambridge Medievol history, vol. IV, p.p. 409 410.

شارل ديل : البندقية ، جمهورية أرستقراطية ، تعريب د . أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢١ وما بعدها .

(٩٢) Stevenson, The crusaders in the East, Cambridge 1907, p. 5-6.

(٩٣) Brundage, J., The crusades, Motives and Achievements, Boston 1964, p. IX.

ويذكر الأستاذ شارل أومان أن أساطيل مدن إيطاليا البحرية هم الغزاة الحقيقيون لمدن الساحل الفاطمى وليس أمراء اللاتين وتؤيد هذا الرأى . راجع :

Oman, Art of war, vol. I, p. 254; Mayer, Thecrusades, p. 65.

(٩٤) إن مصادر الحركة الصليبية زاخرة بمثل هذه المعاهدات بين الإيطاليين والفرنجة التى ترضح طبيعة هذه الامتيازات والتى لا تخرج عن كونها صفقات تجارية يتقاسم فيها الشريكان الأسلاب والمغانم . راجع الوثيقة التى أوردها وليم الصورى عن ذلك بين البنادقة وأمراء القدس لحصار صور . William of Tyre, deeds, vol. II, PP. 552-556

وهى وثيقة على درجة كبيرة من الأهمية لدراسة العلاقات بين الفرنج ومدن إيطاليا التجارية ، أيضا أنظر حوليات جنوه :

Coffaro., De liberatione civitatum orientis R.H.C., Hist. occ., vol. V, PE. I, p. 49-50.

ويذكر الكاتب اليهودى يوشع براور أن الجاليات التجارية الايطالية قد بلغ من عظم امتيازاتها ونفوذها داخل مملكة بيت المقدس أنها كونت دولة داخل الدولة اللاتينية . راجع :

Prawer, The Latin Kingdom; Oman, Art of war, p. 232.

أيضا د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٥ ــ ٢٧ ، سيد أمير على مختصر تاريخ العرب ص ٢٢٨ .

وعلى الرغم من أن البابا أوربان الثانى ، قد دعى إلى قيام حملة صليبية منظمة بقيادة الأمراء القادرين على تسليح أتباعهم ، الا أن ذلك لم يحدث ، فاثر اعلان قيام الحركة اجتمعت أعدادا غفيرة من الفلاحين والأقنان والمعدمين وقطاع الطرق واللصوص والقتلة وعناصر اخرى مشتتة متباينة جرفها تيار الدعوة الصليبية ليلقى بها جميعا فى صعيد واحد[٩٥] ، وشكلوا خمس مجموعات كبيرة عرفها المؤرخون باسم حملة العامة أو صليبية الفلاحين[٩٦] وقد انتهت حملتهم بكارثة مروعة ، فوقعوا فريسة سهلة فى أيدى الاتراك السلاجقة الذين أنزلوا بهم هزيمة قاسية ، وذبحوا أغلبهم فى موقعة نيقية ، وحولوهم الى كوم من العظام والأشلاء عام ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م[٩٧] ، ولم ينج منهم سوى بطرس الناسك وشرذمة قليلة أمر الامبراطور بنقلهم الى العاصمة[٩٨] .

وبينما كانت حملة العامة تلاقى نهايتها المخيفة على أيدى السلاجقة ، كانت الاستعدادات فى الغرب الأوروبى قائمة على قدم وساق لاعداد الجيوش الصليبية النظامية ، المعروفة بحملة الأمراء أو صليبية الأمراء «Princeses' crusade» ، وكانت الروح الاقطاعية هى الغالبة على هذا الشطر المنظم من تلك الحملة ، اذ تولى زعامتها أمراء لكل منهم اتجاهاته وأطماعه وسياسته الخاصة لامتلاك الأراضى والثروات . وزحفت هذه الحملة فى أربعة مجموعات كبيرة نحو القسطنطينية

---

(٩٥) Richard, I., Le Royame Latin de Jerusalem, Paris, p.p. 28-29; Prawer, I., The Latin Kingdom; p. 472; Lamb, M., The crusaders, London 1930; p. 11; Thompson, The middle Ages, vol. II, p. 569.

(٩٦) أعتاد الكتاب تقسيم الحملات الصليبية إلى ثمان حملات كبيرة ، ولكن الدراسات الحديثة أثبتت أنها تسع حملات على اعتبار فترة إقامة لويس التاسع فى الشام ( ١٢٥٠ ـ ١٢٥٤ م ) حملة قائمة بذاتها . راجع د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٤٢ ـ ٤٤ ج (٢) ؛ لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٣٤٠ ـ ٣٤٤ ؛ العدوان الصليبى على بلاد الشام ، ط . إسكندرية ، ١٩٧١ ، المقدمة ؛ د . سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٣٧ . وقامت حملة العامة تحت زعامة أشخاص عاديين مثل جوتيه المعدم ، وبطرس الناسك ووليم المفلس وفولكمار وجوتشالك ، وكونت أمبج والفيكونت دى ميلون . راجع فى ذلك نشر : أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة د . العريني : زيادة ، ص ١٨٢ .
Anna comnena, The Alexiad, London 1924, p. 24; Grousset. R., Histoire des croisades, to I, p. 6.

يذكر المؤرخ فوشيه شارتر قادة هذه الحملة ضمن حملة الأمراء دون تمييز .

(٩٧) لمزيد من التفاصيل عن مذبحة نيقية وآراء المؤرخين حولها راجع :
Anna comnena, The Alexiad, p.p. 249-251; Schlumberger, G., Récits de Byzance, Paris 1971, p. 84; Prawer, I., The Latin Kingdom p.p. 11-12 Franzius, E., History of the byzantine Empire, New York 1967, p. 304; Oman, Art of war, vol. I, p. 225-235, Boase, The Kingdoms, p. 17; Dugga, The crusades, P,P.24-27.

(٩٨) أشار المؤرخ ابن الجوزى لمذبحة نيقية ، وهو المؤرخ الإسلامى الوحيد الذى أنفرد بذكرها . ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ ص ١٠٤

عاصمة الروم[٩٩] . وكانت المجموعة الأولى[١٠٠] من اللوثارنجيون ( رجال شمال فرنسا وغرب ألمانيا ) من الألمان والفلمنك بقيادة جودفرى بويون دوق اللورين السفلى[١٠١] «Gaudfroy of bouillon» وتسمية المصادر الاسلامية كند هرى أو كند فرى وأخوانه بلدوين البولونى ، ويسميه العرب بغدوين أو بردويل ، أستاش الثالث «Eustace III» كونت بولونيا .

أما المجموعة الثانية فكانت من النورمان والفرنسيين بقيادة هيودى فرماندوا[١٠٢] «Hugh de Vermandoi» ، أصغر أبناء هنرى الأول ، وشقيق فليب ملك فرنسا ، وروبرت كونت هيوز «Robert of Heuse» دوق نورمنديا ، ستيفن كونت بلوا وشارتر[١٠٣] «Stephen of Blois & Chartres» ، وروبرت أوف فلاندرز[١٠٤] «Robert of Flandres» ، وكانت المجموعة الثالثة تتكون من البروفنسيين بقيادة ريمون دى سان جيل «Raymond de St. Gills» ، كونت تولوز ، ويعرفه العرب باسم صنجيل أو صنجل نسبة لمقاطعة سان جيل بجنوب فرنسا[١٠٥] ، ومعهم المندوب البابوى أدهيمار دى مونتيه أسقف بوى «Adhemr of le puy» . أما المجموعة الرابعة فقد اشتملت على النرمنديين الايطاليين تحت قيادة بوهيمند النورمندى[١٠٦] «Bohemond of Normandy» ، ويسميه العرب بيمنت أو أوميمون[١٠٧] أمير تارانتو ، وابن أخته تانكرد المعروف فى المصادر الاسلامية باسم طنكرى[١٠٨] ، وقد بلغ عدد الجيوش النظامية

---

(٩٩) Prawer, I. The Latin Kingdom, p. 472; Franzuis, E. History of the Byzantine Empire, New York 1967, p.p. 304-305; Cambridge Med. Mist. vol. V, p.p. 279-280.

ويلاحظ أن فوشيه شارتر المعاصر للحملة الصليبية الأولى ، بدأ كتابه بذكر الحملات النظامية ولا يشير إطلاقا للحملة الشعبية . Fulcher of chartrs, op. cit, p. 71.

(١٠٠) إن روايات المصادر الإسلامية والصليبية المعاصرة للحملة الصليبية الخاصة بإعداد المقاتلين الذين شاركوا فيها كانت متناقضة ومتضاربة ، مما يؤكد أنها ليست إلا مجرد تخيل أو تصور ليس إلا . راجع مثلا المطيمى : تاريخ المطيمى ، نشر كاهن ، ص ٣٧١ .

Michand, History of the crusades, London 1852, vol. III, app. IX, p. 362.

أيضا إبراهيم بك الأسود : ذخائر لبنان ، ط . بعبدا لبنان ، ١٨٩٦ م ، ص ١٤٦ .

(١٠١) د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ١٧٨ ـ ١٨٠ .

(١٠٢) Bréhier (ed.,) Histoire Anonyme de la prèmiere croisades, p. 141, F 3.

(١٠٣) Fulcher of chartres, op. cit, p. 71; F. 2, p. 73 F 12.

(١٠٤) عن دوره فى تلك الحروب راجع :

Paetow, L; (ed.,) The crusades and the other historical essays, presnted to Dana munro, New York 1928, p.p. 79-100.

(١٠٥) Stevenson, The crusades in East, p. 8. Lamb, the crusaders, p. 181.

ويذكر لامب أن ريموند كان يتوقع أن يعينه البابا قائدا للحملة الأولى .

(١٠٦) Ralph Bady, Y., Bahemond, I, Prince of Antoiocho, Princeton 1924.

(١٠٧) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط دار الكتب رقم ١٧٤٦ تاريخ ، مجلد ٢ ورقة ٢١٧ ( ظ ) .

(١٠٨) Fulcher of chartre, op. cit, p. 72-73; Franzius, E, A history of the Byzantine Empire, p. 305.

راجع ما كتبه أستاذنا الدكتور جوزيف نسيم عن جيوش هذه الحملة وقادتها فى العرب والروم ، ص ١٧٨ ـ ٢١٨ والحواشى ، وعن خط سير تلك الحملة عبر أوروبا ، راجع :

Flucher of,chartres,Expedition, p. 73.

هذه ما يقرب من ثلاثين ألف مقاتل[١٠٩] . وقام البابا الثاني نفسه بالاشراف على تنظيم هذه الحملة منذ سيرها إلى القسطنطينية في رمضان ٤٨٩ هـ / أغسطس ١٠٩٥ م .

وعلى الرغم من أنه لم يكن لهذه الجيوش قائدا عاما يوحد كلمتهم ويفردهم ، فقد عهدت تلك الحملات المنظمة لخيرة أشراف وقادة الغرب الأوروبي ، لهذا لم تكن لهم خطة مشتركة ، بل اندفع كل منهم يعمل وفق هواه[١١٠] . ورغم ذلك فان الفضل الكبير يرجع لهذه الحملات المنظمة فيما أحرزته من نتائج كبيرة في الشرق الأدنى الاسلامي[١١١] .

وقد سلك قادة الحملات الآتية من شمال أوروبا نفس طريق الحملات الشعبية عبر وسط أوروبا ، أما بقية الجيوش الآتية من جنوب أوروبا فذهبوا عبر اللوريا والبحر الادرياتيكي والبلقان ، أو سهول أنطاكية الشمالية ، والتقوا جميعا بالقسطنطينية في ربيع ٤٩٠ هـ / أبريل — مايو ١٠٩٧ م[١١٢] .

وقد أثار وصول هذه الأعداد الضخمة من الفرنج إلى بيزنطة مخاوف وقلق الامبراطور اليكسيس الأول كومنين ، وظهرت ذكريات العداء القديم بين الفريقين وبخاصة مع النورمان ومرافقيهم من فرسان أبوليا ، فلم ينس اليكسيس الدرس القاسي الذي تعلمه من الحملات الشعبية وما أرتكبوه من فظائع . ولما لم يكن من شأننا أن نروي ما حدث بالتفصيل بين اليكسيس والقادة الفرنج ، فيمكن القول انه عمل على اكتسابهم جانبه واخضاعهم له بالدبلوماسية والمال تارة ، أو استخدام القوة والتهديد بقطع المؤن والذخائر عنهم تارة أخرى حفاظا على امبراطوريته وعاصمته من أطماع اللاتين[١١٣] ، فلم يفتح لهم أبواب عاصمته الا بعد أن أخذ عليهم يمين

---

(١٠٩) وليم لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ج ٢ ص ٦٦٩ ؛ باركر : الحروب الصليبية ، ص ٢٩ . وقد بالغ المؤرخون كثيرا في تقدير إعداد تلك الحملات النظامية عند نزولها القسطنطينية في صيف ١٠٩٦ — ١٠٩٧ م . راجع رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، ملحق ٢ ؛ د . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٤ ص ٢٤٦ .

(١١٠) يذكر المؤرخ اليهودي يوشع براور أن أسقف لبوى كان بمثابة القائد العام لتلك الحملة .

Prawer, J, The Latin kingdom of jerusalem, London 1973, p. 12; Stevenson, The crusaders in the East, p. 9; Thompson, The middle Ages, vol. II, p. 568j.

(١١١) يذكر ستيفنسون إنه إذا كانت هذه الحملة تتكون من عنصر أو جنس واحد تحت قيادة واحدة فإنها كانت ستحرز إنجازات هائلة وتأسست مملكة فريدة من نوعها بالشرق الإسلامي .

Stevenson, The crusaders in the East, p. 10.

(١١٢) Schlumberger, Recits de Byzance, p. 85; prawer, Latin, p. 12.

وإسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ط . بولاق ١٣١٤ هـ ، ج ٢ ص ١٤٤ ، وعن خط سيرهم بالتفصيل راجع : Fulcher of chartrs, op. cit. p.p. 74-75.

(١١٣) لمزيد من التفاصيل عن ذلك راجع : ما كتبته المؤرخة البيزنطية المعاصرة آن كومنين .

Anna Comnena, The Alexiad, London 1928, p.p. 253-267; Thompson, The middle Ages, p. 568.

د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ١٧٨ — ٢١٨ ؛ د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٤٥ — ١٦٠ .

Chalandon, F. Alexis comméne, p. 188.

الولاء والطاعة بتسليمه أراضى الدولة البيزنطية وأملاكها المفقودة بآسيا الصغرى ، ومنها أنطاكية باستثناء الأراضى المقدسة ووقعت اتفاقية بذلك بين الجانبين(١١٤) ، وتعهد فيها الامبراطور بامدادهم بالمؤن والسفن اللازمة وتأمين عبورهم أراضى دولته ، وأن يضع فرقة بيزنطية تحت أمرهم عند عبورهم للشاطىء الأسيوى(١١٥) .

وقد أسدى الامبراطور الكسيس كومنين للفرنج نصيحة مؤداها أن يسعوا للتحالف وتوطيد علاقاتهم بالخلافة الفاطمية فى مصر ، ووزيرها الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى وأن يصلوا لنوع من الاتفاق معهم ، اذ كان الفاطميون من أشد الناس خصومة وعداء للاتراك ، بينما اشتهروا بالتسامح مع رعاياهم المسيحيين داخل الامبراطورية الفاطمية من اليعاقبة والأرمن ، والذين حظوا بالرعاية الكافية ، بالاضافة لاستعدادهم للتفاهم مع أية دولة مسيحية ، وذلك عند وصولهم إلى الشرق الاسلامى(١١٦) .

وعلى الرغم مما يبدو لأول وهلة ، من هذا الرأى ، بأن هناك علاقات أو مراسلات بين القسطنطينية والقاهرة أيام الكسيس كومنين ، والوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، الا أننا نشك فى الرأى القائل بنصيحة الكسيس تلك ، وخاصة وأن مصادر الفترة سواء كانت عربية أو فرنجية أو بيزنطية ، لم تورد مثل هذه الرواية على وجه الاطلاق . وكيفما كان الأمر ، فقد عبر الصليبيون البوسفور إلى الشاطىء الآسيوى فى ربيع ٤٩٠ هـ / ١٩ يناير ١٠٩٧ م ، لبداية تنفيذ مشروعهم الضخم لاسترداد الأراضى المقدسة(١١٧) .

---

(١١٤) Anna comnena, The Alexiad, London 1928, p. 262.

أشار المؤرخون اللاتين لمثل هذه الاتفاقية William of Tyre, Deeds, vol. p. 327.

وذكر أمراء الغرب فى رسالة إلى مسيحيى غرب أوروبا بأن الامبراطور سلم لهم ابنه وصهره كرهائن لضمان إتفاقيته معهم ، راجع : Michaud, history of the crusades vol. III, appendix XVIII, p. 302.

وأظهر المؤرخ ستيفنسون دهشته من براعة الكسيس فى الحصول على ولاء وطاعة نبلاء الصليبيين له بدرجة ليست صعبة ولكنها مدهشة راجع Stevenson, Crusaders, p. 11

ويذكر بوس أن بوهيمند أظهر فى تلك الاتفاقية مرونة وتفهما أكثر مما كان متوقعا

Boase, Kingdoms and strongholds of the crusaders, p. 17.

راجع أيضا د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ١٣٣ ـــ ٢٣٥ . وأجمعت المراجع على أن قادة الفرنج قد أنكروا ماجاء بهذه الاتفاقية فيما بعد . لشر . تاريخ أوروبا العصور الوسطى ط . ٦ القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٨٥ ، وكذلك :

Archer & Kingsfor, The Crusades, p. 84; Stevenson, The crusaders in the East, p. 11.

(١١٥) Duruy, V., The history of the middle Ages, p. 268; vasiliev, Byzance et les Arabes, T. II, p.p. 43-44; Chalandon, Essai sur le règne d'Alexis comnene, Paris 1900, p. 188; Grousset, Histoire des croisades, To. I, p. 27; Franzius, Byzantine, p. 305.

(١١٦) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٢٢٥ .

Runciman, S., The first crusade (Antioch and Ascalon) in Setton (ed.) vol. I, p.p. 315-316.

وسوف نتعرض لهذا الموضوع عند الحديث عن العلاقات الفاطمية البيزنطية أثناء الحملة الصليبية الأولى

(١١٧) Schlumberger, G. Recits de Byzance et des croisades, Paris 1917, p. 25.

وسرعان ما عبرت جموع اللاتين الضخمة ، المتعطشة للغزو وسفك الدماء البوسفور ، وذلك في ربيع ٤٩٠ هـ / يناير ١٠٩٧ م ، متجهين صوب مدينة نيقية أو أنيقية[118] . وهي بلدة من أعمال استانبول ، وكانت عاصمة سلطنة سلاجقة الروم ، تمييزا لها عن دولة سلاجقة ايران في فارس وأميرها يعرف بسليمان بن قتلمش ، وهناك أقام الفرنج خيامهم ، استعدادا لقتال السلاجقة ، وحاصروا المدينة ما يقرب من شهر ( من ١٥ مايو ١٠٩٧ م الى ١٩ يونيو ١٠٩٧ ) رجب ٤٩٠ هـ[119] ، ودارت حولها معركة بين قوات سليمان بن قتلمش والفرنج ، انتهت بهزيمة قوات ابن قتلمش هزيمة ساحقة ، انسحب على اثرها بحطام جيشه إلى قونية ، التي اتخذها عاصمة لسلطنته ، في حين سقطت مدينة نيقية في أيدي الفرنج[120] ، وتسلمها الامبراطور البيزنطي اليكسيس كومنين منهم تنفيذا لوعدهم معه وذلك في يونيو ١٠٩٧ م[121] .

وهناك رأى يقول[122] أن تسليم نيقية قد تم بعد اتصالات سرية بين السلاجقة والبيزنطيين كي لا تتعرض لنهب وسلب الصليبيين ، ورفع اليكسيوس علمه عليها وفوت على الصليبيين بذلك فرصة للانتقام من سكانها أو نهبها .

ويذكر صاحب كتاب « تاريخ الحروب المقدسة[123] » «Historia belli Sacri» أنه أثناء

---

(١١٨) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤ .

(١١٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ط . دار الكتب ١٩٣٥ ، ج ٥ ص ١٤٦ .

(١٢٠) أنظر تفاصيل الموقعة في ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٦ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ط . حيدر آباد الدكن ١٣٦٥ هـ ، ج ٢ ص ١٤ ؛ العظيمي : تاريخ العظيمي ، نشر كلود كاهن ص ٣٧٣ . ويذكر ميشو أن عدد قتلى المسيحيين كانوا ألفين ، وأن قتلى المسلمين كانوا أربعة آلاف . راجع :
Michaud, History of the crusades, vol. I, p.p. 100-101, 107.
ويذكر أمراء الفرنج في رسائلهم إلى الغرب الأوروبي أن قتلى الأتراك كانوا ثلاثين ألفا . راجع :
Michaud, History of the crusades, vol. III. p. 361.
أنظر شكل يوضح حصار وسقوط نيقية في :
La croix, La chevalerie et les croisades, Paris 1887. p. 165 Fig 110; Mayer, The crusades Oxford 1972. p. 50.

(١٢١) يذكر المؤرخ رنسيمان أن الامبراطور اليكسيس قد وعد الفرنجة وأمراءهم بأعطائهم كل ما في نيقية من غنائم وأسلاب ، وأن يبنى بالمدينة ديرا للاتين على مذهبهم الكاثوليكي وملجأ لفقراء الفرنج ، وأغدق المال على رجالهم ليحاربوا في صفوف جيشه . راجع د . جوزيف نسيم : العرب والروم ص ٢٢٩ ج (٢) ، أيضا :
Archer & Kingsford, Crusades., p.p. 54-55; Archives de L'orient Latin, Tome I., p. 164; Michaud, History of the crusades, p.p. 100-107.

(١٢٢) Rice, T.T., Byzantium, London 1969, p. 96.
ويذكر جروسيه أن اليكسيس أوفى بوعوده مع الفرنج بعد سقوط نيقية ، طبقا لمعاهدة القسطنطينية . راجع :
Grousset, R. Hist. des croisades, vol. I. p.p. 30-31.

(١٢٣) يشك المؤرخ الكونت بول رايان في صحة نسب هذا الكتاب إلى بطرس تديوده ، ويرى أن تأليفه محصور بين بطرس تديوده نفسه ، ومؤلف آخر يسمى بطرس داباكر

حصار الصليبيين لمدينة نيقية قاموا بإرسال سفارة صليبية من معسكرهم الذى أقاموه أمام مدينة نيقية ، الى القاهرة ، عارضين تحالفهم على الوزير الفاطمي ، الأفضل بن بدر الجمالى ، والخليفة المستعلي بالله ، وذلك بناء على نصيحة اليكسيس كومنين أثناء وجودهم بالقسطنطينية ، وأرخت هذه السفارة بتاريخ ٢٩ جمادى الثانية ٤٩٠ هـ / ١٢ يونيو ١٠٩٧ ، وكانت تتكون من فارسين يدعيان هيو دى بيلافاير «Hugh de ballafayer» ، برتراند سكابريكا Bertrand de scabrica» ، وأحد رجال الدين المدعو بطرس دى بيكا[١٢٤] «Pierre de Picaa» والواقع أن الشك يحيط بسفارة الفرنج إلى الفاطميين بالقاهرة أثناء حصارهم لمدينة نيقية فانه لم يوجد لدينا دليل قوى يثبت استجابة الصليبيين لنصيحة اليكسيس كومنين وقتذاك ، وهي النصيحة التى تفتقر ، فى رأينا الى دليل قوى يسندها ، فبعض المراجع الصليبية أيدت هذا الرأى وأشارت الى ارسال سفارة من نيقية إلى القاهرة[١٢٥] ، الا أن المؤرخ ستيفن رنسيمان[١٢٦] نفسه يشك فى وجود مثل هذه السفارة ويرى أن قائمة السفراء التى أوردها المؤرخ المجهول لكتاب « تاريخ الحرب المقدسة » ، موضع شك . ونحن نضيف أيضا أن معظم المؤرخين الصليبيين المعاصرين والمتأخرين ، لم يشيروا من قريب أو بعيد لمثل هذه السفارة مثل المؤرخ المجهول ، وفوشيه شارتر ، وريموند أجيل وغيرهم ، ولو حدثت تلك السفارة لكان المؤرخون السابقون أول من سارعوا بتسجيلها أو الاشارة اليها فى حولياتهم . كما أن الرواية البيزنطية للمؤرخة آن كومنين[١٢٧] لم تشر لقيام أبيها اليكسيس بنصيحة الصليبيين بالتحالف مع مصر ، ولم تشر لارسال سفارة نيقية ، يضاف لذلك أن المصادر الاسلامية المعاصرة صمتت تماما عن الاشارة لمثل هذه السفارة .

ولو علمنا أن مؤرخ كتاب « تاريخ الحرب المقدسة » هو الوحيد الذى انفرد بذكر سفارة نيقية الصليبية إلى فاطمي القاهرة ، وهو الذى نقل معظم تاريخه من كتاب المؤرخ المجهول « أعمال الفرنجة » «Anonymous Gesta» ، ومقتطفات من كتاب ريموند أجيل ، وهؤلاء لم يشيروا على الاطلاق لسفارة نيقية الصليبية ، ولهذا نشك فى أرسال مثل تلك السفارة .

وما أن سقطت نيقية[١٢٨] فى أيدى الصليبيين حتى اتفق الرأى على الاتجاه إلى انطاكية شمال الشام ، فتوغلوا فى آسيا الصغرى ، واصطدموا بجيش تركي ضخم تحت قيادة قلج أرسلان ،

---

(١٢٤) أنظر تفصيل ذلك أيضا فى -
Riant, P., Archives de L'orient Latins, tom. I., p. 147, FF.
Paul Riant, Inventaires, A.O.L., T. I, p.p. 146-147.

(١٢٥) Archer & Kingsford, The Crusades, London 1894, p. 85.

(١٢٦) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٢٢٥ ح (١) .

(١٢٧) Anna comnona, The Alexiad, p.p. 262-263.

(١٢٨) Wise, The crusades, London 1978, p. 18.

ويذكر وايس أنها سقطت بعد حصار صليبي استمر شهر كامل .

الذى كان متجها لانقاذ نيقية من الحصار الصليبي . وسرعان ما تم الاشتباك الثانى فى موقعة دوريليوم ( اسكى شهر ) ، ولقى السلاجقة هزيمة قاسية فى ١٧ رجب ٤٩٠ هـ / أول يوليو ١٠٩٧ م[١٢٩] .

وقد أعتبر بعض المؤرخين[١٣٠] أن موقعة دوريليوم من المواقع الهامة فى التاريخ ، ولا تقل أهمية عن موقعة مانزكرت التى سبقتها بعشرين عاما . ونحن نرى أنها من المواقع الحاسمة فى تاريخ الحملة الأولى إلى الشرق ، فحددت مصير تلك الحملة ، فلو قدر للأتراك السلاجقة الانتصار فيها لفشلت تلك الحملة قبل أن تصل إلى غرضها الرئيسى ، ولاقت نفس مصير حملات العامة التى سبقتها بفترة وجيزة ، وعاد الفرنج لديارهم دون أن يقيموا لبنة واحدة فى صرحهم المقبل بالشرق الاسلامى .

وبعد أسبوع من موقعة دوريليوم أستولى الفرنج على قونية فى منتصف أغسطس بعد أن فر الأتراك منها إلى الجبال[١٣١] كما أستولوا أيضا على هرقلية ( هرقله ) ، وكان عليهم أن يشقوا طريقهم عبر جبال طوروس نحو أنطاكية حيث عانى الجيش الصليبى الأمرين من شدة الحر ، ووعورة الطريق وهجمات الأتراك الدانشمنديين أصحاب سيواس ، وأمير كبادوكيا[١٣٢] . ولكن مساعدة ملك أرمينيا المسيحى ، وآلاف الأرمن المسيحيين سهلت الطريق أمام الفرنج ، فأستولوا على مدينة قليقية وقيصرية حتى وصلوا إلى كيلكيا ، حيث دب الخلاف بين بلدوين

---

(١٢٩) لمزيد من التفاصيل عن موقعة دوريليوم راجع :

Mayer, H.E., The crusades, Oxford, 1972, p. 51; Oman, ch., The Art of war, vol. I. p. 71; Schlumberger, G., Récits; p. 85, Thompson, The middle Ages, vol. II, p. 571.

ويرى الأستاذ رايس أن موقعة دوريليوم أثبتت عدم نضج السلاجقة من الناحية الحربية وجهلهم التام بالتكتيكات العسكرية وفن الحرب أو القتال فى العصور الوسطى ، معارضا بذلك رأى مايز ، راجع :

Rice, Byzantium, p. 96; also Franzius, E. Byzantine, p. 305.

وعن تنظيم الجيوش الفرنجية والسلجوقية فى دوريليوم راجع :

Archives; de L'orient, Latin, T. I, p.p. 164-165; Oman, ch., Art of war, vol. I, p. 273.

ويرى البعض أنها من أشهر معارك الفرسان فى العصور الوسطى ، أنظر :

Stevenson, The crusaders in the East, p. 12, La croix, La chevalerie et crobades,Paris 1887,p. 165.

(١٣٠) Cambridge Medieval history, vol. 5, p. 172; Rice, Byzantinm, p. 96. Prawer, J., The Latin Kingdom, p. 109; Mayer, the crusades, p. 51; Wise, wars, p. 18; Grousset, hist. des croisades, To. I., p. 35; Boase, The Kingdoms, p. 19.

(١٣١) Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 125; Cambridge Med. hist., vol. V. p. 285.

(١٣٢) Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 126.

ويذكر ميشو ، نقلا عن مؤرخ فرنجى شاهد عيان ، أن الجند الفرنج الذين يئسوا ، رفضوا مواصلة السير ، بسبب ثقل الأسلحة التى حملوها ; راجع :

Michaud, History of the crusades. p. 13, Mayer, The crusades, p.p. 151-152; Thompson, The middle Ages, vol. II, p. 570; cantu, c; Histoire Universalle: I éme époque, Paris 1846, p. 57.

البولونى ، وتانكريد النورمندى على ملكية طرطوس فى كيليكيا[١٣٣] ، فانفصل بلدوين عن الجيش الصليبى الرئيسى واتجه شرقا ليحقق أطماعه فى منطقة أخرى ، فاستولى على مدينة الرها[١٣٤] ، ( أديسا Edessa أو أورفا[١٣٥] بالأرمينية ) ، بعد اغتيال أميرها ثوروس الارمنى ، وأسس بها امارة مستقلة عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م[١٣٦] فكانت أولى الامارات الصليبية بالشام ، ومعقلا حصينا للمنطقة الممتدة من شمال الفرات الى أرمينيا ضد هجمات السلاجقة لعدة قرون[١٣٧] .

وبينما أقام بلدوين امارته الجديدة فى منطقة الجزيرة شمال العراق ، زحف بقية الجيش الصليبى إلى شمال الشام ، قاصدا أنطاكية ، وسبب وصول الفرنج شمال الشام ذعرا كبيرا فى قلوب المسلمين بالمنطقة ، وعبر عن ذلك ابن القلانسى بقوله : « أن الصليبيين وصلوا فى عالم لا يحصى عدده كثرة ، وتتابعت الأنباء بذلك ، وقلق الناس بسماعها وأنزعجوا لاشتهارها[١٣٨] » . وفى منتصف أكتوبر عام ١٠٩٨ م / ذو القعدة عام ٤٩١ وصل الفرنج الى مرعش حيث استقبلهم سكانها الأرمن بترحاب ، وزودهم بالماء والطعام ، مما مكن الفرنج من اسقاط قلعتى بغراس وأرتاح فى طريقهم[١٣٩] . وفى ٢١ ذى القعدة ٤٩١ هـ / ٢٠ أكتوبر ١٠٩٨ م ، واصلوا الزحف عبر القنطرة الحديدية المقامة على نهر العاصى ( الأورنت ) . وفى ٢٢ ذى القعدة

---

(١٣٣) Le croix, La chevalerie et les croisades, p. 165.
ويشير ماير لوقوع صدام مسلح بين تانكريد وبلدوين البولونى ، فاتجه تانكريد نحو الشمال حيث تمكن بمساعدة أحد قراصنة البحار ويدعى جنايمر البولونى «Gynmer of Bologne» ، من إسقاط ميناء الإسكندرونه ، ثم انضم بعد ذلك إلى الجيش الصليبى الرئيسى فى حصار أنطاكية . راجع :
Mayer, The crusades, p.p. 52, Dury, V. The middle Ages, p. 268.

(١٣٤) الرها : تقع شرق الفرات ، وبها ما يزيد عن ثلاثة كنيسة ، ويقال أن بكنيستها العظمى منديل المسيح ( عليه السلام ) الذى مسح به وجهه فطبعت صورته عليه . راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ط . أوروبا ، ج ١ جلد ١ ص ١١٧٦ ، القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول ، ط . بغداد ١٢٨٢ هـ ، ص ١٤١٥ .

(١٣٥) Michel le syrien, chronique de michel le syrien, ed. chabot, Paris 1905, T. III, p. 184.

(١٣٦) مؤرخ مجهول : البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ، نشر كاهن فى مجلة الدراسات الشرقية بدمشق ، ١٩٣٨ ، ج ٧ ــ ٨ ص ١٢٧ .

(١٣٧) راجع تفاصيل سقوطها فى د . جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم ، ص ٢٢٦ والحواشى ؛ د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ١٢٤ ــ ١٨٦ ، كذلك : Mayer The crusades, p. 52-53. كانت إمارة الرها أول إمارة أقامها اللاتين فى الشرق الإسلامى ، وأول إمارة يستردها الأتابك عماد الدين زنكى عام ٥٣٩ هـ / ١٠٤٤ م من يد جوسلين الثانى كورتناى ، وكان سقوطها سببا رئيسيا فى القيام بالحملة الصليبية الثانية . راجع ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ ؛ مؤرخ مجهول : البستان الجامع ، ج ٧ ــ ٨ ص ١٢٧ ؛ أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ، ط . دار الجيل ، بيروت ، ج ١ ص ٣٦ ــ ٣٧ ؛ ابن الأثير : التاريخ الباهر ، تحقيق عبد القادر طليمات ، ص ١١٨ ــ ١٢٥ . وعن ثوروس الأرمنى وقيام إمارة الرها . راجع :
Mathieu d'Edessa, R.H.C., Doc. Arm. vol. I, p.p. 30-38.

(١٣٨) ابن القلانسى - نفس المصدر ، ص ١٣٤

(١٣٩) العظيمى تاريخ العظيمى ، ص ٣٧٢

٤٩١ هـ / ٢١ أكتوبر ١٠٩٨ م ، وصلت طلائع الجيش الصليبي أمام أسوار مدينة انطاكية ، مدخل الشام الشمالي ، كما سماها الأوروبيون[١٤٠] ، فضربوا الحصار حولها تمهيدا لاسقاطها[١٤١] .

وقبل أن نعرض لاستيلاء الفرنج على الشام شماله وجنوبه ، يحسن أن نلقى نظرة على أحوال الشرق الأدنى الاسلامي السياسية وقت وفود الحملات الصليبية الى شمال الشام ، بعد نجاحها فى اجتياح آسيا الصغرى ، لمعرفة سر تلك الانتصارات المتتالية التى حققتها ، والنتائج الكبرى التى أنجزها الفرنج ، وموقف كل من الخلافة العباسية ، والخلافة الفاطمية وعلى رأسها الوزير القوى الأفضل ابن بدر الجمالي والخليفة المستعلي بالله ، من الحملة الصليبية الأولى ، وتحليل للآراء التى دارت حول تلك الأمور .

كانت ظروف الشرق الأدنى الاسلامي موائية أمام الجيوش الصليبية لتحقيق أغراضها ، فلم يكن سهلا أمام القوات الصليبية انجاز أى نصر عسكرى فى الشرق الاسلامي فى سهولة ، خاصة وأنها كانت تتميز بضعف وقلة الكفاءة العسكرية ، فلم تكن هناك قيادة عسكرية بارزة ، وموحدة ذات قوة كافية يدين لها الجميع بالطاعة ، بل كانت عبارة عن عدة جيوش اقطاعية مشتتة ، وفدت من كافة أنحاء الغرب الأوروبي ، تفتقر للنظام والترتيب وحسن الاعداد ، والالمام الكافى بالتكتيكات العسكرية الصحيحة . ورغم ذلك نجحوا فى الاستيلاء على عدد من البلدان الاسلامية ويرجع ذلك لانقسام العالم الاسلامي على نفسه والصراع بين القوى المختلفة ، ولولا وجود هذا الصراع لما تمكن الصليبيون من انجاز أى نصر عسكرى على قوات تفوقهم عددا وتنظيما[١٤٢] .

---

(١٤٠) كانت أنطاكية مدينة حصينة تحصينا قويا وأشار المؤرخون والرحالة الجغرافيون العرب بقوة تحصيناتها ومناعتها ، فيذكر القرماني أنه كان لها سور عظيم يحيط بسهلها وجبلها وبها ثلاثمائة وستون برجا ، وكل برج ثلاثة طبقات كانت مشحونة بالحرس ويطوف على سورها أربعة آلاف فارس فى كل ليلة حتى أن كانت خاضعة للبيزنطيين ويسميها الروم مدينة الله تعظيما لها . راجع القرماني : أخبار الدول ، ص ٤٢٤ — ٤٢٥ ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ١ مجلد ١ ص ٣٨٢ — ٣٨٥ ؛ المسعودى . مروج الذهب ، ط . أوروبا ، ج ٢ ص ٤٠٦ — ٤٠٧ ، ج ٤ ص ٥٥ ، ٩١ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٦٩

(١٤١) ابن العديم : زبدة الحلب ، نشر د . سامى الدهان ، دمشق ، ١٩٥٩ ، ج ٢ ص ١٣١ ، ويذكر ميشو أن روعة موقع أنطاكية وقوة موقعها ومناعتها جعلها تنال لقب ملكة الشرق . راجع :
Michaud, History of the crusades, vol. p.p. 126-128.
وعن موقع أنطاكية وأهميتها من وجهة النظر الصليبية ، راجع :
Michaud, History of the crusades, vol. p.p. 126-128.
وكذلك حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها السياسية بالدولة الإسلامية المجاورة ( ١٠٩٨ — ١١٧٦ م / ٤٩٢ — ٥٦٧ ) رسالة ماجستير لم تنشر ، ص ٨٢ ومابعدها .

(١٤٢) Oman, ch., Art of war, vol. I, p. 232.
راجع ما كتبه كلود كاهن عن حالة الشرق الإسلامي وقتذاك :
Cahen, C., La Syrie du Nord, Paris 1940, p. 180 et sqq.

والواقع أن الأسباب الحقيقية التي تكمن وراء نجاح الفرنج ، فيما أحرزوه من انتصارات على حساب السلاجقة لا يرجع إلى صفات ومميزات تميزوا بها عن أعدائهم المسلمين ، بقدر ما يرجع في المقام الأول إلى تصدع وحدة العالم الاسلامي ، وانقسام السلاجقة على أنفسهم وقتذاك[١٤٣] والصراع المرير الذى دب بين بعضهم البعض من جهة ، ومع الفاطميين الشيعة من جهة أخرى . ففي الوقت الذى ظهر فيه الصليبيين على مسرح السياسة في منطقة الشرق الاسلامي ، وبالتحديد في آسيا الصغرى وشمال الشام ، كانت المنطقة تموج بالاضطرابات والفوضى السياسية[١٤٤] ، بعد أن ظهر السلاجقة وسيطروا على الخلافة العباسية ، وأقاموا لهم امبراطورية في آسيا الصغرى . ولذلك لم يكن من الممكن للصليبيين أن يغتنموا ـــ عمدا أم مصادفة ـــ فرصة أكثر ملائمة من تلك التي أغاروا أثناءها على آسيا الصغرى وشمال الشام ، حيث كانت الاقطاعيات قد قوضت دعائم الامبراطورية السلجوقية القوية مما أدى إلى تفكك أواصرها[١٤٥] ، وذلك عندما أقطع السلطان العظيم ملكشاه ابن عمه سليمان بن قتلمش آسيا الصغرى ، وأقطع أخاه تاج الدولة تتش الكبير بن ألب أرسلان الشام[١٤٦] ولكن هذين الأميرين سرعان ما أستقلا باقطاعاتها استقلالا كاملا ، ولم يعد يربطهما بالسلطان غير السيادة الاسمية ، ويلاحظ أن هذا الانفصال ، لم يكن وحده الذى دعم السلطنة السلجوقية بل كانت الجزيرة والشام موزعة بين عدد من الرؤساء الاقطاعيين من أبناء البيت السلجوقي نفسه ، الذين لم تربطهم بالسلطان غير رابطة تقديم العون العسكري له عند الضرورة .

ويتضح من معظم المصادر الاسلامية أنه طالما كان نظام الملك الطوسي ، ذو العبقرية الفذة وملكشاه ذو الشخصية القوية ، اللذان سطرا صفحات مشرقة في تاريخ الدولة السلجوقية في ذلك العهد ، كانا مسيطرين تماما على الامبراطورية الاسلامية ، كما أن الرؤساء الاقطاعيون والأمراء السلاجقة والتركمان ، يدينون للسلطان بالولاء والطاعة ، كانت الدولة السلجوقية دولة موحدة وقوية وما أن قضى الأثنان نحبهما عام ٤٨٥هـ / ١٠٩٢ م[١٤٧] حتى أخذت الدولة السلجوقية في التداعي والانهيار ، اذ تلى وفاتهما نشوب الحروب الأهلية بين أبناء ألب ارسلان[١٤٨] وتمزقت أوصال الدولة وحلت الاضطرابات والحروب محل الاستقرار والسلام .

---

(١٤٣) لمزيد من التفاصيل عن الصراع بين الأتراك السلاجقة ، راجع الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ط . القاهرة ـ ١٩٠٠ ، ص ٧٦ ؛ صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ط . بيروت ١٩٢٧ ، ص ١٨ وما يليها ؛ ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ١٢٠ .

(١٤٤) Cahen, C. la syrie, p.p. 180-181.

(١٤٥) Cambridge Medieval history, vol. V, p.p. 264-266, Cahén, C., p. 181.

(١٤٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٢ ؛ العظيمي : تاريخ العظيمي ، ص ٣٦٢ وكذلك :
Grousset, R. Histoire des croisades. to. I, p. XLIV.

(١٤٧) ابن القلانسي : نفس المصدر ، ص ١٢١ ؛ العظيمي : نفس المصدر ، ص ٣٦٨

(١٤٨) الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٧٦ . وأبناؤهم بركيا روق ، محمود ، محمد ، سنجر ، راجع عن هذا الصراع . صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ١٨ ـــ ١٩ ؛ أيضا رنسيمان : نفس المرجع ، ج ١ ص ١٢٠ ، كذلك :
Cahen, Le Syrie, p. 179, Grousset, R., Histoire, to. I, p. XLIV; Gibbon, E., The capture of Jerusalem, in International library of the famous literature, London, vol. IV, p. 1469.

وخير ما يوضح هذا التفكك الذى أصاب الامبراطورية السلجوقية عند نهاية القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، انقسام تلك الامبراطورية لأجزاء متناثرة ممزقة يتنازع أفرادها السلطة ، وأنقسمت إلى ثلاثة دويلات : سلاجقة العراق بزعامة السلطان بركيا روق ( ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ـــ ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م ) ، سلاجقة آسيا الصغرى أو سلطنة سلاجقة الروم بزعامة قليج أرسلان ، سلطان قونية وسلاجقة الشام بزعامة بيت تتش بن ألب ارسلان . وسرعان ما دب النزاع بين تركان خاتون الوصية على ابنها محمود بن بركيا روق ، وابن زوجها ، وأنضم إليها تتش الا أن محمود ما لبث أن توفى ، فنادى بركيا روق بنفسه سلطانا على السلاجقة(١٤٩) مما أدى الى غضب تتش ، الذى دخل فى صراع على العرش السلجوقى مع ابن أخيه بركيا روق ، وهكذا نجد الامبراطورية السلجوقية كانت فى طريقها إلى الانهيار قبل وفود الحملات الصليبية بفترة وجيزة ، فبعد أن كانت الدولة السلجوقية هى الدرع الذى دافع عن الشام وفلسطين وآسيا الصغرى ضد هجمات البيزنطيين وغيرهم ، أصبحت أحد عوامل ضعف وأنقسام العالم الاسلامى .

وقد استمر الصراع بين بركيا روق وعمه تتش ، ونشبت بين الأثنين حروبا طاحنة ، انتهت بهزيمة تتش ومصرعه قرب أصفهان عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م(١٥٠) ، وأعقب ذلك تفكك وحدة بلاد الشام التى أنقسمت بين أبناء تتش ، فخر الملوك رضوان بحلب ، وشمس الملوك دقاق بدمشق ، وقام بالتالى صراع مرير بين الأثنين ، لزعامة بلاد الشام ، بحيث يمكن القول أن شمال الشام أصبح نهبا مشاعا بين الأخوين(١٥١). ولو كان رضوان صاحب حلب ، ودقاق صاحب دمشق قد اتحدا لألحقا بالصليبيين هزيمة قاسية ، وحالا بين الفرنج وبين اقتحامهم آسيا الصغرى ؛ ولكنهما لم يحاولا ايقاف التقدم الصليبى فى الشرق الاسلامى ، وزاد من حدة الانقسام ، أن سلاطين السلاجقة كانوا يكفلون تربية أبنائهم إلى أوصياء عرفوا بالأتابكة(١٥٢) ، فأستحوذا على

---

(١٤٩) ابن القلانسى : نفس المصدر ، ص ١٩١ ، ولمزيد من التفاصيل عن الصراع بين بركيا روق وتتش راجع ابن القلانسى : نفس المصدر ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، وكذلك :

Cambridge Medieval. History, vol. IV, p.p. 314-315.

وقد تعرضنا لهذه الأمور بالتفصيل وقمنا بتحليل مختلف الروايات والآراء الجديدة حولها فى رسالتنا للدكتوراه . راجع صلاح نوار : تاريخ الشام السياسى ، ص ٥١٥ ـــ ٥٤٠ والحواشى .

(١٥٠) المطيمى : تاريخ المطيمى ، ص ٣٧٠ ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٩ ـــ ١٣٠ ؛ ونسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ص ١٢٠ ؛ فيليب حتى تاريخ العرب ( مطول ) ، ج ٢ ط . بيروت ١٩٥٦ ، ص ٧٤٩ . راجع ما كتبناه عن ذلك الصراع بين السلاجقة فى رسالة الدكتوراه.صلاح نوار : تاريخ الشام السياسى ، ص ٥٢٥ ـــ ٥٢٧ والحواشى .

(١٥١) Cahen, C., La Syrie du Nord, p. 80; Cahen, C., The Turkish invasion in setton (eds.), vol. I, p. 164; Boase, T.R., Kingdoms and strong holds of the crusaders, London, 1971; p. 18; Funk, H., The Foundation of the latin states in setton (ed.,) vol. I, p. 370.

(١٥٢) راجع ما كتب عن الأتابكة د . حسن الباشا : الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، ص ١٢٤ وما يليها ، كذلك :

Cahen, C. La syrie, p. 182, F. 2.

السلطة دون هؤلاء الأمراء الصغار ، وتنافسوا أيضا فيما بينهم[١٥٣] .

ولم يقتصر الأمر على الصراع بين السلاجقة أنفسهم ، ولكن امتد ليشمل الخلافة أيضا ، بسبب الخلاف المذهبي والسياسي بين الفاطميين والسلاجقة ، الذي ازداد حدة بعد ظهور الأتراك السلاجقة وسيطرتهم على الخلافة العباسية[١٥٤] ، واعتناقهم المذهب السني ، ليكملوا بذلك الخلاف الصراع السياسي والمذهبي مع الخلافة الفاطمية ، فناهضوا الفاطميين وتحاملوا على كل من يعتنق مذهبهم ، كما عملوا على القضاء على المذهب الشيعي أيضا[١٥٥] .

وكانت بلاد الشام وفلسطين مسرحا للصراع بين الفاطميين والسلاجقة ، خاصة وأن الخلافة الفاطمية في الفترة السابقة للحركة الصليبية ، كانت تعاني من الضعف السياسي والانقسامات المذهبية في الداخل . كما أخذت تفقد أملاكها بالشام تدريجيا في خلافة المستنصر بالله ، وبالتحديد منذ ظهور السلاجقة هناك[١٥٦] ، فلم يستطع الخليفة المستنصر الاحتفاظ بالسواحل الشامية أمام المد السلجوقي ، رغم الجهود الضخمة التي بذلها الوزير بدر الجمالي لاستعادة تلك السواحل[١٥٧] اذ تمكن تاج الدولة تتش من الاستيلاء على حمص وعرقه وأفامية وغيرها من مدن الساحل[١٥٨] . حقيقة أن الافضل بن بدر الجمالي نجح فيما أخفق فيه والده ، الا أن الصراع بين الفاطميين والسلاجقة في وزارته ، وما تلاه من نزاع سياسي ومذهبي ، أدى لعدم تماسك الجبهة الاسلامية أمام الصليبيين ، خاصة وأن الشام ، قبل مجيء الفرنج ، كانت مرتعا للصراعات بين الفريقين ، وتوالت عليها الحروب والفتن ، وأضطربت سياسيا واقتصاديا ، فتنازع عليها القواد وأغتصبتها الأمراء وليس للخلفاء فيها سوى السكة والطراز ، وأصحاب الاقاليم والبلاد هم السلاطين والملوك يحكمون ويجبون الأموال ويعلنون الحروب ، بتأييد من الخليفة العباسي ،

---

(١٥٣) مثل جناح الدولة أتابك فخر الملوك رضوان وظهير الدين طغتكين أتابك دقاق . ابن القلانسي : نفس المصدر ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ؛ كذلك :
Calthrope, M.M.C., the crusades, p. 20.

(١٥٤) Grousset. R., Histoire, to. I, p. XLIV; The sum of history p.p. 173-174; Lane. poole, S., op. cit, vol. VI, p. 163; Gibb, H, The capture in I.F.L.H, oinsetton (ed.) vol. I, p.p. 96-97.

(١٥٥) المؤرخ وليم الصوري هو المؤرخ الصليبي الوحيد الذي انفرد بذكر الخلاف أو الصراع المذهبي القائم بين العباسيين والسلاجقة من جهة والفاطميين من جهة أخرى ، وذكر أسبابه . ونرجح أن وليم قد نقل رواياته تلك من مصدر عربي . راجع :
William of tyre, deeds, vol. I. p. 65.

(١٥٦) Grousset, R, The sum of history, p.p. 173-174; Lane poole, S., A history, vol. VI, p. 163; Funk, H. The foundation of latin states, p. 370.

(١٥٧) راجع ذلك بالتفصيل في الفصل الثاني من الباب الأول في رسالتنا للماجستير د . صلاح نوار : سياسة الخلافة الفاطمية في بلاد الشام في عهد الوزير بدر الجمالي وإبنه الأفضل ، رسالة ماجستير لم تنشر ، آداب الإسكندرية ١٩٨١ ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧ .

(١٥٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٤٥٠ ؛ القرماني : أخبار الدول ، ص ١٩٢ .

والواقع أنه اذا قدر للفاطميين الاتحاد مع السلاجقة على دفع الخطر المشترك ربما فشلت الحملة الصليبية الأولى ، وما تمكنوا من اقتحام جبال طوروس إلى الشام[١٥٩] .

وقد زاد من حدة انقسام العالم الاسلامي ، اختلاف عناصر السكان في منطقة الشام ، فكان الأتراك بمثابة الطبقة الراقية الاقطاعية ، أما سائر الأمراء الصغار ، فكانوا من العرب ، مما أتاح الفرصة لظهور العديد من الامارات الصغيرة بالشام التي استقل بها أمراؤها عن السلاجقة أو الفاطميين أنفسهم ، مثل بنو عمار في طرابلس ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، وبنو منقذ في شيزر ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م ، والأراتقة في القدس وفلسطين ، وبنو صليحة في جبلة ، وبنو محرز في قلاع المرقب والقدموس وغيرهم[١٦٠] .

ولعل أروع تصوير لأحوال الشرق الاسلامي وقت مجيء الحملة الصليبية الأولى ، ما وصفه الفيومي[١٦١] في هذه العبارة الشاملة : « وكان الخلفاء والملوك في ذلك الوقت ما منهم الا مشغول بنفسه ، مكب على مجالس أنسه ، يصطبح في لهوه ويغتبق ، ويجرى في مضمار لعبه ويستبق ، ويرى السلامة غنيمة ، واذا عن له وصف الحروب يوما ، لم يسل عنها الا عن طريق الهزيمة ، وقد بلغ أمله في الرفاهية وقنع من ملكه كما يقال بالسكة والخطبة ، أموال تنهب ، وممالك تذهب ، ونفوس قد تجاوزت الحد في اسرافها ، وبلاد تأتيها الاعداء فتنقصها من أطراف لا يبالون بما سلبوا . وهذا الضعف والانقسام في العالم الاسلامي ، يفسر لنا كيف ان العرب لم يفهموا في أول الأمر طبيعة الحركة الصليبية ، ولم يتبينوا غرضها ، فاعتقدوا أنها مثل الحملات السابقة التي كان يشنها البيزنطيون بين الحين والآخر[١٦٢] .

والواقع أن الصليبيين عملوا على تأكيد هذا الشعور لدى العرب ، فكانوا يطلقون اشاعات تسبق قدومهم بأن غرضهم هو استعادة الأراضي البيزنطية المفقودة في آسيا الصغرى ، مما جعل العرب لا يهتمون بالتكتل أمام ذلك الخطر ، بل أن كل فريق كان يجد الفرصة المواتية لهضم خصمه ، كما أن الخلافات والانقسامات الداخلية شغلت أقوى دولتين بالشرق وهي الدولة السلجوقية والخلافة الفاطمية عن اتخاذ أي إجراء لمقاومة هذا الخطر فوجد الفرنج الطريق ممهدا

---

(١٥٩) د . السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ، الإسكندرية ١٩٦٧ ، ص ١٢٢ .

(١٦٠) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، نشر زترشتين ، ط . ليدن ١٩١٩ ، ص ٢٣٦ .

Cahen, C., La syrie du Nord, Paris 1940, p. 180; The Turkish invasion in setton (ed.,) vol. I, p. 165.

أيضا رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٢٠ — ٢٨ ؛ فيليب حتى تاريخ العرب ( مطول ) ، ط . بيروت ١٩٥١ ، ج ٢ ص ٧٤٩ .

(١٦١) الفيومي : نثر الجمان ، مخطوط دار الكتب المصرية تحت رقم ١٧٤٦ ، ج ٢ ورقة ٣٢٤ .

(١٦٢) Mayer, H.E., The crusades, p. 53.

أمامهم لاحتلال معظم الشام والأراضي المقدسة ، وعندما أفاق المسلمون وجدوا أن الوقت فات وقد وطد الصليبيون أقدامهم بالشام وأقاموا امارات قوية لهم هناك[١٦٣] .

ذكرنا فيما سبق أن أحوال الشرق الاسلامي كانت مواتية لنجاح الحملة الصليبية الأولى في تحقيق اهدافها ، ونقصد بذلك الضعف الذي أصاب أوصال الدولة السلجوقية ، التي كانت بمثابة الدرع الذي حمى الشام وفلسطين من هجمات البيزنطيين ، ولكن بعد وفاة ملكشاه ، آخر سلاطين العظام ، تتش آخر الأمراء السلاجقة العظام في الشام ، انهارت القوى السلجوقية وفقدت لقب « درع العالم الاسلامي » ، لما نشب من صراع بين أفراد البيت السلجوقي نفسه ، وصراعهم مع الفاطميين ، وزاد من تلك الانتصارات المتتالية والمذهلة للفرنج على السلاجقة في آسيا الصغرى وشمال الشام حتى وصولهم أنطاكية وحصارهم لها في ذي القعدة ٤٩١ هـ / أكتوبر ١٠٩٨ م[١٦٤] ، وعجزت القوة السلجوقية تماما عن مقاومة الصليبيين ، ويكفي للتدليل على ذلك أن سلاجقة فارس وسلطانهم بركيا روق لم يظهروا بوضوح رغبة حقيقية للقيام بهجمات مضادة ضد الحملة الصليبية بعد انتصارها في نيقية ودوربليوم ، بل اكتفوا بالانسحاب تاركين جبهة آسيا الصغرى مفتوحة أمام الفرنج[١٦٥] .

ويمكن القول أن القوة الاسلامية الوحيدة التي بقيت فيها رمق في منطقة الشرق الاسلامي لتدافع عن شرف الاسلام ، وترفع راية الجهاد المقدس ضد الفرنج ، هي قوة الخلافة الفاطمية وخليفتها المستعلي ووزيرها القوي الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي ، المسيطر على مقدرات أمورها ، فظلت هذه الخلافة تبعث بالجيوش الاسلامية الى الشام — كما سنوضح — لمناوشة الصليبيين بعد اندثار القوة السلجوقية .

والحقيقة أن الخلافة الفاطمية كانت تعاني في الفترة السابقة لاعلان الحركة الصليبية ، من ضعف سياسي وانقسام مذهبي في الداخل ، وأخذت منذ ظهور السلاجقة تفقد أملاكها تدريجيا في الشام . وكانت قد وصلت ، قبيل مجيء بدر الجمالي نفسه إلى حالة من الفوضى صورها غالبية المؤرخين بطريقة مؤلمة من النواحي الاقتصادية والسياسية ، والعسكرية[١٦٦] ، حتى مجيء بدر الجمالي ، الذي تمكن ومن بعده ابنه الأفضل من القضاء على عوامل الفوضى والفساد ، وانتشال مصر من الهوة التي ترددت فيها ، والخروج بها من أزمتها الاقتصادية وبنائها على أسس

---

(١٦٣) تناول الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم فكرة إتحاد العرب لمواجهة الفرنج في كتابه العدوان الصليبي على مصر ( هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور ، إسكندرية ١٩٦٩ ، ص ٢٣ — ٢٤ ) ؛ لويس التاسع في الشرق الأوسط ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٦٧ وما بعدها ص ١١٦ — ٢٠٣ .

(١٦٤) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة د . حسن حبشي ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٥٦ .

(١٦٥) Zoé Oldenburg, The crusades, Trans. by Anne carter, New York, 1965, p. 144.

(١٦٦) راجع ذلك بالتفصيل في مقدمة رسالتنا للماجستير

اقتصادية راسخة ، وتكوين جيش وأسطول جديدين يعملان به على استرداد أملاك الفاطميين بالخارج وبالذات فى الشام ، التى انتزعها السلاجقة من أيدى الفاطميين مستغلين فى ذلك ضعف الخلافة وقت ظهورهم .

والواقع أن بدر الجمالى عجز عن استرداد ما ضاع من مصر فى الشام ، ويرجع السبب فى ذلك لاصطدامه بالقوى السلجوقية وهى فى أوج قوتها ، وأن الأفضل بن بدر الجمالى فى أول وزارته ( ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ) ، أحدث انقساما خطيرا فى صفوف المذهب الشيعى الاسماعيلى ، وترتب على ذلك ظهور فرقتين متعاديتين ، هما : النزارية والمستعلية ، وأعقب ذلك إنشغال الأفضل بالقضاء على ثورة نزار وأنصار النزارية داخل مصر وخارجها قبيل وفود الحملات الصليبية الى الشرق ، وتمكن من أن يصبح الرجل القوى والحاكم المطلق القابض على دفة الأمور ، وجعل الخليفة المستعلى ومن بعده الآمر مجردين من كل سلطة .

وقد نجح الأفضل فيما فشل فيه أبوه فى استعادة جنوب الشام وكل فلسطين ، بما فيها مدن الساحل ، وأن يمد حدود الفاطميين حتى نهر الكلب[١٦٧] شمالا ، ومجرى نهر الأردن شرقا[١٦٨] رغم مشاغله الداخلية ولم يكن يستطيع ذلك الا بعد أن وقفت الخلافة الفاطمية على قدميها من الناحية الاقتصادية والعسكرية ، وقد أشارت المصادر اللاتينية[١٦٩] نفسها للدولة الفاطمية وخليفتها باعتبارهما من أقوى الحكام المسلمين نظرا لما يتمتعان به من ثراء وجيش قوى .

وقد وقفت غالبية المصادر الاسلامية والصليبية[١٧٠] ، وتبعتها فى ذلك المراجع الحديثة[١٧١]

---

(١٦٧) نهر الكلب : سماه الإغريق نهر ليقوس ومعناه الذئب وهو نهر كبير بينه وبين نهر إبراهيم ثمانية أميال ، ومياهه خارجة من مغاورتين فى سفح الجبل جارية إلى ملتحل الوادى هناك ، حيث تختلط بها مياه نبع العسل ونبع الجليد ، آتية من نحو عشرة أميال من الجبل ، ثم يمر هذا النهر تحت صخر مقور من أسفل فيحسبه الرائى قنطرة من صناعة الأيدى للعبور ، وهو يسمى جسر الحجر . ويقال أن انطونيوس قيصر حاكم روما ١٤٠ م أصلح الموج هناك ، ومهد الطريق وسماه الطريق الأنطونيانى ونقر ذلك فى صخرة حنوبى الجسر ، ونصب فيه القدماء تمثالا من حجر كبير بهيئة كلب وربطوه بسلسلة من حديد إلى صخرة أخرى ، وجعلوا له فيها نقرا للطعام زعما منهم أنهم إذا طرقهم الأعداء نبح فحذرهم منهم فسمى لذلك نهر الكلب . راجع إبراهيم بك الأسود : كتاب ذخائر لبنان ، ط ٢ . بعبدا لبنان ١٨٩٦ م ص ٢٩ — ٣٠ .

(١٦٨) History of the crusades by setton (ed.,) vol. I, p. 310.

(١٦٩) William of tyre, Deeds, vol. I, p. 223.

(١٧٠) الأزدى : أخبار الدول المنقطعة ، مخطوط دار الكتب المصرية ، رقم ٨٩٠ تاريخ ، ورقة ٧٤ . ويذكر الأزدى أن الأفضل أحب بروطهم إلى الساحل ليكونوا مانعين من نفوذ الأتراك إلى ديار مصر . راجع ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط . بولاق ١٢٨٤ هـ ، ج ٥ ص ٢٠ ، ١٨٣ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط دار الكتب ، مجلد ٢٦ لوحة ١٧٤ ؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، ط . الميرية ١٣٩١ هـ ، ص ٢٨٣ ؛ المرعى الحنبلى : نزهة الناظرين فيمن ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، مخطوط بمكتبة بلدية الإسكندرية رقم ١٤٦٦ ، لوحة ٣٨ ؛ البكرى الصديقى : عيون الأخبار ونزهة الأبصار ، مخطوط دار الكتب ، رقم ٧٢ م تاريخ ، لوحة ١٥ ( ج ) ؛ القلماوى : صفوة الزمان فيمن ولى مصر من أمير أو سلطان ، مخطوط بمكتبة جامعة الإسكندرية رقم ٦٦٣ ، لوحة ١٦ ( ط )

(١٧١) Smail, The crusades, London 1973, p. 13, Stevenson, The crusaders in the east, p. 20.

موقفا غريبا فى تحليلهم لموقف الدولة الفاطمية ووزيرها الأفضل بن أمير الجيوش من الحملة الصليبية الأولى عند وفودها ذلك أن غالبية المصادر الاسلامية ، وبخاصة السنية[١٧٢] منها ، لم تتردد فى أتهام الفاطميين بأنهم كاتبوا الفرنج ودعوهم الى بلاد الشام ليملكوه وساعدوهم ضد الأتراك السلاجقة ، ومنعوا السلاجقة من محاولة التوسع جنوبا إلى مصر .

وقد عبر ابن الأثير[١٧٣] عن ذلك بقوله : وقيل أن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام الى غزة ، ولم يبق بينها وبين مصر ولاية اخرى تمنعهم ودخول الأقسيس ( أتسز ) إلى مصر ، وحصرها ، فخافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج الى الشام ليملكوه ويكونوا بينهم وبين المسلمين » .

كما أن المؤرخ أبو المحاسن[١٧٤] ، المعروف بتعصبه ضد الفاطميين ، قد دهش من موقف الفاطميين عندما كان الفرنج يحاصرون أنطاكية وقتذاك وعدم مشاركتهم للقوى الاسلامية التى هبت للدفاع عن أنطاكية بقوله « لم ينهض الأفضل باخراج عساكر مصر ، وما أدرى ما كان السبب فى عدم اخراجه مع قدرته على المال والرجال » .

وقد انساقت غالبية المراجع العربية والأوروبية الحديثة[١٧٥] وراء هذا الرأى ، فأتهموا الأفضل ابن أمير الجيوش أنه كان يجهل تماما طبيعة وحقيقة الحركة الصليبية ، واعتقد أن مهمة الصليبيين تنتهى عند بيت المقدس فقط ، وأنهم أتوا فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ليفعلوا فى بلاد الشام ، مثلما فعل الامبراطور نقفور فوكاس ويوحنا زيمسكيس فى نهاية القرن العاشر الميلادى[١٧٦] .

كما أتهمت تلك المراجع[١٧٧] الأفضل أنه كان يظن أن فرسان الحملة الأولى كان من الممكن أن يعينوه ضد السلاجقة ـــ العدو المشترك ـــ والذين استقروا فى بلاد الشام بعد أن أنتزعوها من الفاطميين ورأى فيهم حلفاء طبيعيين ساقهم القدر للتنكيل بالسلاجقة ولذلك رحب الأفضل شاهنشاه بمقدم هؤلاء الفرنج ، بل انه والخليفة المستعلى بالله قد أغتبطوا كثيرا عند سماعهم بأنباء الانتصارات الصليبية وهزائم الأتراك ، ولم يعتبروا انتصارات الفرنج فى نيقية ودوريليوم وأنطاكية ضد السلاجقة كوارث حلت بالمسلمين ، بقدر ما وجدوا فيها أمنية عزيزة لتخليص

---

(١٧٢) مثل الأزدى : نفس المصدر ، ورقة ٧٤ ؛ النويرى : نفس المصدر ، مجلد ٢٦ لوحة ٧٤ .

(١٧٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٨٦ ؛ النويرى : نفس المصدر ، مجلد ٢٦ لوحة ٧٤ .

(١٧٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٧ .

(١٧٥) Smail, The crusades, London 1975, p. 13; Stevenson, The crusaders In The East, p. 20.

(١٧٦) د . عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ط . إسكندرية ١٩٦٧ ، ص ١٢٠ ، وكذلك :

Cahen, C. Turkish, in setton (ed.,) vol. I, p. 166; Groussets R., Histoire, to. I, p. 93.

(١٧٧) Wise, T. The crusades, London 1979, p. 19.

المشرق الاسلامي من سيطرة الأتراك[١٧٨] ، وأيدت ذلك المصادر اللاتينية .

وقد تمادى هؤلاء المؤرخون في القول أن الفاطميين رأوا بأن ساعة الانتقام من السلاجقة الاتراك قد أزفت ، لتخليص الشرق من سيطرتهم ، وانقاذ العالم الشيعي منهم[١٧٩] ، بل أن احد المؤرخين الحديثين وهو سموها ملتون جب[١٨٠] «Sir Hamilton Gibb» يذكر أن الأفضل بن بدر الجمالي رأى في مجيء الصليبيين واستقرارهم في شمال الشام قوة لها ثقلها الهام في صراعه مع الأتراك السلاجقة هناك .

والواقع أننا لا نصدق كل ماذكرته المصادر والمراجع السابقة من اتهامات للفاطميين والأفضل وزيرهم من أنهم قاموا باستدعاء الفرنج إلى الشام ليساندوهم ضد الأتراك السلاجقة ، فهذا الرأى من جانب المصادر السنية على وجه الخصوص ، ليس له ما يبرره ، سوى العداء التقليدى بين السنة والشيعة ، كما أن هذه الآراء لا تستند على أدلة أو وثائق أو أسانيد منطقية ، فهى اتهامات مبالغ فيها لا أساس لها من الصحة .

ذلك أن الفاطميين كانوا حماة للاسلام منذ قيام دولتهم في مصر[١٨١] كما عرفنا ، بل أن ابن الأثير[١٨٢] ، صاحب هذه الرواية ، والتى نقلها عنه الكثيرون ، يشك في صحتها بقوله : « والله اعلم » . كما أنه توجد لدينا سجلات عديدة[١٨٣] بتقليد أو تولية امراء مصر الجهاد ضد الصليبيين سواء كانوا فاطميين أم مماليك . بل أن الأفضل شاهنشاه نفسه ، والذى اتهمه المؤرخون بموقفه السلبى من الحملة الأولى لن يألُ جهدا ، فيما بعد ، في جهاد الفرنجة ، فقام

---

(١٧٨) Wise, The wars, p. 19.

(١٧٩) يشير المؤرخ الصليبى وليم الصورى لفرحة الملك المصرى ( الخليفة المستعلى بالله ) عند سماعه أخبار هزائم الأتراك كثيرا وأنه رأى فيها مكسبا له . وبذلك دلل وليم الصورى على إدراكه الكامل بالأوضاع القائمة في الشرق الإسلامى ، ولم توجد أيا من السجلات اللاتينية المعاصرة قد أوردت رواية كاملة مثلما أورد وليم عن الصراع بين السنة والشيعة بالشرق ، والخلاف بين أفراد البيت السلجوقى ، وصراع السلاجقة مع الفاطميين .

William of Tyre, deeds, vol. I, p. 223, Smail, Crusades, p. 13. Zoé oldenburg, the crusades, New York 1965, p. 131; Stevenson, The crusaders in the East, p. 20; Watson, C.M., The story of Jerusalem, London 1912, p. 17; Gibbon, E., The capture of Jerusalem in the International library of the famous literature, vol. IV., p. 1464; Wiet, G. Précise de L'histoire d'Egypte, le Caire, to II. p. 187.

(١٨٠) Gibb. H. The caliphate and the Arab states, in setton (ed.,) vol. I, p. 95; Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 138.

(١٨١) أكد المؤرخ الصليبى وليم الصورى هذه الحقيقة ، فاعترف بقوة الدولة الفاطمية ووزيرها الأفضل شاهنشاه ، باعتبارها أكبر القوى الإسلامية في الشرق الإسلامى ، بعد إنهيار قوة السلاجقة . راجع :

William of Tyre, deeds, vol. I, p. 326.

(١٨٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٨٦ .

(١٨٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ١٨٦ .

بحل الجيش الفاطمي ، كما أوضحنا في مقدمة البحث ، وبنائه على أسس جديدة أدخل فيه دماء جديدة ، وذلك لجهاد الفرنج بالأراضي المقدسة . ولم يقف الأفضل شاهنشاه كما أدعت بعض المصادر السنية[١٨٤] ، موقف الحياد أو موقف المتفرج للحروب الصليبية مع السلاجقة رغم عداء السلاجقة للفاطميين ومحاولتهم غزو مصر أيام بدر الجمالي ، كما أن الخطر السلجوقي الذي أدعت بعض الأبحاث الحديثة[١٨٥] أنه جعل الأفضل يعيش في خوف دائم منه ، كان قد تلاشى أو خفت وطأته في عهده وذلك بعد موت ملكشاه وتفسخ امبراطوريته ، وقيام الصراع بين أفراد اسرته ، مما شغلهم عن أملاكهم بالشام وفلسطين ومن القيام بأية فتوحات خارجية أو محاولة غزو مصر ثانية بعد محاولة اتسز الفاشلة أيام بدر الجمالي عام ٤٦٩ هـ / ١٠٧٧ م ، مما مكن الافضل — كما ستوضح في حينه — من استرداد القدس وكل فلسطين ، ومدن الساحل الشامي ذات الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية واعادة السيادة الفاطمية حتى أرباض اللاذقية شمالا دون أن يحرك السلاجقة ساكنا .

وحتى لو سلمنا بما أوردته المصادر والمراجع من آراء ، فنحن نرى أن الأفضل شاهنشاه لم ير مانعا في التفاهم أو الاتصال بالصليبيين ، خصوصا وأنه كان ينظر اليهم انهم مجرد مرتزقة مأجورين تابعين للامبراطورية البيزنطية ، كما أدعت بعض المراجع[١٨٦] ، ونرى أيضا أن الأفضل الذي كان مشغولا ببعض المشاكل الداخلية وقتذاك ، أراد وقف الزحف الصليبي على أملاك الفاطميين بالشام ، بعد أن رأى عجز السلاجقة عن صدهم ، وذلك بالدخول معهم في مفاوضات أو القيام بما يمكن تسميته « مبادرة سلمية » ، حقنا للدماء ولكن يجد وقتا كافيا يستعد فيه لمواجهة ذلك الخطر الزاحف من الغرب الأوروبي .

وفي الوقت الذي كانت فيه فكرة المفاوضات مع الفرنج والقيام بمبادرة سلام معهم تدور بذهن الأفضل شاهنشاه ، كان الصليبيون يواجهون موقفا حرجا للغاية أمام أنطاكية التي حاصروها في عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م[١٨٧] ، اذ أن حصارها اثبت أنه عملية شاقة وطويلة ،

---

(١٨٤) مثلا أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٧ . ويرى أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم أن موقف الأفضل من الحملة الأولى كان عدائيا وسلبيا . د . عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ط . إسكندرية ١٩٦٧ ، ص ٨٤ . ولكن الأحداث وتطوراتها سوف تثبت عكس ذلك .

(١٨٥) مثلا : Michaud, History of the crusades, London 1852, vol. I, p. 138.

(١٨٦) Cahen, Turkish, in setton, vol. I, p. 166; Cf. also; Wise, t., the crusades, London 1978, p. 19.

(١٨٧) لمزيد من التفاصيل راجع ابن خلدون : العبر ، ط . بولاق ١٣٨٤ هـ ، ج ٤ ص ٦٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٦ ، العظيمي : تاريخ العظيمي ، ص ٣٧٢ — ٣٧٣ وكذلك

Fulcher of chartres, A history of the Expedition to Jerusalem, Knoxville 1969, p. 92; Paul Riant, In vent aire crit que deslettres historique des croisades, in A.O.L., Paris 1881, T.I, p. 165; Lamb, H., The crusaders, Iron men and Saints, London 1930, p. 133.

ويذكر وليم الصوري أن الصليبيين المحاصرين للمدينة قاموا ببناء قلعة أو حصنا على تل مرتفع مواجه للمدينة ليتمكنوا من =

باعتبارها أقوى المدن المعاصرة تحصينا وأثبت أن اقتحامها كان أكثر صعوبة نظرا لما تتمتع به من مناعة طبيعية[(١٨٨)] . وكان يدافع عنها الأمير باغي سيان التركماني[(١٨٩)] ، وكان رجلا عرف بكفاءته وشجاعته ، فما أن علم باقتراب الفرنج حتى أعد نفسه لحصار طويل ،فشحن القلاع بالجند والمقاتلين وزود المدينة بالمؤن الكافية ، كما قام بطرد المسيحيين والبيزنطيين والأرمن خشية تحالفهم مع الفرنج ، وأنفذ يطلب العون من السلاطين والأمراء السلاجقة ، والخليفة العباسي[(١٩٠)] . وفي وقت طال فيه حصار الصليبيين للمدينة ، فاستمر ما يقرب من تسعة أشهر[(١٩١)] من ١١ ذو القعدة ٤٩١ هـ / ٢١ أكتوبر ١٠٩٨ م إلى أول رجب ٤٩١ هـ / ٣

---

= مهاجمة أنطاكية ، وتأمين الجيش الصليبي المحاصر للمدينة وإعاقة أية محاولة إسلامية لنجدة المدينة أو مهاجمة الصليبيين . راجع

William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 228-229.

(١٨٨) Fulcher of chartres, The Expedition, p. 92, Grousset, R., Histoire to. I, p. 72.

ويذكر ياقوت الحموي أن أنطاكية كانت قصبة العواصم من الثغور الشامية . ويتضح لنا من وصف ياقوت الحموي ما أن أنطاكية كانت مدينة مستديرة الشكل يحيطها سوران بينهما مساحة تعرف في عمارة الاستحكامات والتحصينات الحربية باسم « الفصيل » ، كما يتخلل السور مجموعة من الأبراج ، فهي تشبه بذلك أسوار مدينة بغداد . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ط . أوروبا ، ج ٣ ص ٣٨٢ ـ ٣٨٥ .

وكانت أنطاكية مدينة قديمة لها تاريخها البارز منذ عصورها القديمة ، ولها أهمية كبرى عند المسيحيين ، إذ أنها المدينة التي أطلق فيها على أنصار المسيح لأول مرة اسم المسيحيين « ودعي التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولا » ( سفر أعمال الرسل ٢٦:١١ ) ، وكانت أول مركز لتأسيس أسقفية على يد القديس بطرس . وتمتعت بعد الفتح الإسلامي في القرن ٧ م بشهرة كبيرة ، فكانت ملتقى الحضارتين اليونانية والإسلامية ، والمركز الرئيسي للتبادل التجاري بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية . راجع .

Fulcher of chartres, The expedition, p.p. 92-93; Mayer, The crusades, Oxford, 1972, p. 54; Lamb, H. The crusaders. p. 131.

ويذكر بعض المؤرخين أنها مدخل سوريا الشمالية . راجع :

Bouchier, A shor history of Antioch, London, 1893, p.p. 121-131.

(١٨٩) تذكره بعض المصادر الإسلامية باسم يغي سيان : الذهبي : دول الإسلام ، ط . حيدر آباد الدكن ، ج ٢ ص ١٤ أو باغيسيان . ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٧ ، ويسميه أبو المحاسن الأمير شعبان أو شغيان . النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٦ . وذكرته بعض المراجع باسم باغي بسان . ويرى د . زكي محمد حسن أن هذا هو النطق الصحيح للإسم أنظر زامباور : معجم الأنساب ج ٢ ص ٢٢١ . وتسمية المصادر اللاتينية أوكسيانوس ;Aoxianus Fulcher of chartres, the Expedition, p. 204; Michel Le Syrien, Chronique, To. III, p. 148.

(١٩٠) راجع ابن القلانسي : ذيل ، ص ١٣٤ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ص ١٤ ؛ ابن الأثير الكامل ، ج ١٠ ص ١٨٧ وأيدت المصادر الصليبية نفس الروايات العربية حول الإجراءات التي اتخذها باغي سيان للدفاع عن المدينة . راجع :

Fulcher of chartres, A history of the Expedition to jerusalem, p.p. 93-94; William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 205-207.

(١٩١) Rice, I.T., Byzantium, London 1969, p. 96; Mayer, The crusades, p. 56, Stevenson, Crusaders, p. 25.

ويذكر وليم الصوري أن عدد المدافعين عن أنطاكية وصل إلى سبعة آلاف فارس وعشرين ألفا من المشاة . راجع :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 205; Michaud, History of the crusades. vol. I, p.p. 205-207.

يونية ١٠٩٨ م[١٩٢] .

ورغم قيام الأسطول الجنوى الذى كان متمركزا فى ميناء السويدية ( سان سيمون أو القديس سمعان ) ميناء أنطاكية على البحر المتوسط — بتقديم المؤن والامدادات والجند للفرنج أمام أنطاكية[١٩٣] ، الا أن هذه الامدادات كانت متقطعة ، فكانت تجلب من القسطنطينية ومن جزيرة قبرص[١٩٤] ، كما أن حلول الشتاء وما صاحبه من انتشار الحمى والمجاعة التى اجتاحت المعسكر الصليبى زاد من صعوبة موقفهم أمام المدينة ، ويذكر أحد المؤرخين[١٩٥] أن الحملة

---

(١٩٢) أيد ابن الأثير ذلك . راجع الكامل ، ج ١٠ حوادث ٤٩١ هـ . Fulcher of chartres Expedition, p. 97 ، وترى مصادر أخرى أن الحصار استمر حوالى سبعة أشهر . ابن الشحنة : روضة المناظر فى أخبار البحر الزاخر ، على هامش كتاب الكامل لابن الأثير ، ط . القاهرة ، ج ٢ ص ٣٥ . ويذكر وليم أن الحصار استمر خمسة أشهر William of Tyre, deeds, vol. I, p. 2229 واعترف الأمراء الفرنج أن فترة الحصار كان تسعة أشهر فى خطابهم المرسل إلى الغرب الأوروبى . Michaud, History of the crusades, vol. III, appendix IX. p. 262.

(١٩٣) Caffaro, de Liberatione civitatium orientis, R.H.C., Hist, occ. vol. V, p. 50; Raymond of Aguilers, Historia francorum qui ceperunt iherusalem, R.H.C., Hist. occ., vol. III, p. 242; William of tyre, deeds. p. 229

واختلفت الآراء حول جنسية هذا الأسطول الذى استولى على ميناء اللاذقية ثم السويدية وقدم العون البحرى للفرنج . ففى حين ذكرت المصادر السابقة أنه أسطول جنوى ، لم تحدد الروايات الإسلامية كنه هذا الأسطول ، فذكرت أن مدينة اللاذقية هوجمت من اثنين وعشرين سفينة أتت من قبرص فى ٨ رمضان ٤٩٠ هـ / ١٩ أغسطس ١٠٩٨ م . ابن العديم : زبدة الحلب ، مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ، المؤرخين الشرقيين . «Hist. oc.» ج ٣ ص ٥٧٨ . وتذكر آراء أخرى أنه كان أسطولا إنجليزيا ، وأنه سلم اللاذقية بعد سقوط أنطاكية وهزيمة كربوغا إلى روبرت النورمندى . راجع :

Heyd, commerced du Levant, to. I, p. 99 et sqq; Mayer, The Crusades. p. 54; Stevenson, The crusaders in the East, p.p. 25-26.

(١٩٤) Conder, The Latin Kingdom, p.p. 43-46; Thompson, The Middle Ages, vol. II, p. 517.

(١٩٥) للإستزادة راجع :

Fulcher of chartres,expedition, p. 94, William of tyre, deeds, p. 234.

ويذكر فوشيه أنه فر من حصار أنطاكية شخصيات صليبية بارزة مثل ستيفن كونت بلوا وشارتر ، كما أن الصليبيين طردوا النساء من معسكرهم باعتبارهم سبب للكيات وكوارث الحملة أمام أنطاكية . راجع أيضا :

Bartolf of Nangis, Gesta fracorum Iherusalem expugnantium, R.H.C., Hist, occ., vol. III, p. 498; Raymond of Aguilers, Historia francorum qui ceperunt hierosalum, R.H.C., Hist. occ., vol. III, p. 243.

أيضا سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ، ترجمة رياض رأفت ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٢٨٠ ؛ جورج يني : تاريخ سوريا ، ط . بيروت ١٨٨١ م ، ص ٣٣٠ ، كذلك :

Mayer, The crusades p. 54. Stevenson, The Crusaders in the East, p. 26.

وقد تنبأ أحد القادة الفرنج بهذه المصاعب للفرنج أمام أنطاكية فى رسالته إلى زوجته ، راجع ستيفن رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٣٣٥ . ويذكر إدوارد جيبون فى مقالته « سقوط القدس » أن المجاعة والأمراض فى المعسكر الصليبى قد اكتسحت خمسين ألفا من الجند والحجاج الفرنج .

Gibbon, E. The capture of Jerusalem, in I.L.L. vol. IV. p. 1465.

وقد اعترف بوهيمند النورمندى بتلك المصاعب والأهوال التى لاقاها الفرنج أثناء حصار أنطاكية فى أحد خطاباته للامبراطور البيزنطى . راجع : Anna commena, The Alexiad, p. 290.

ويذكر لويس بريه أن الصليبيين ألقوا تبعة هذه المجاعة والكوارث على كاهل الامبراطور البيزنطى لعدم مساعدته لهم

Brehier, J', L'église et l'orient au Moyen Ages (Les Croisades) paris 1928, p. 312; Prawer, The Latin Kingdom p. 13, condor, The Latin Kingdom p.p. 44-46.

الصليبية الأولى كان من الممكن أن تجد مقبرتها أو نهايتها أمام مدينة أنطاكية .

وفي ذلك الوقت ، كان الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي ، وزير الخليفة المستعلي بالله ، يراقب عن كثب تطورات الأمور بشمال الشام ، فأراد أن يستغل فرصة متاعب الصليبيين أمام أنطاكية ليعمل على موادعتهم ، ويأمن شرهم وشر اقتحامهم أملاك الفاطميين بالشام ، كي يتفرغ للقضاء على الجماعات المذهبية المعادية له هناك ، وليعمل على حقن المزيد من الدماء بينه وبين الفرنج ، أملا في الحصول على أية مكاسب منهم فبادر بإرسال سفارة فاطمية وصلت بحرا إلى المعسكر الصليبي المقام أمام انطاكية وذلك في أوائل الربيع ، وبالتحديد في صفر عام ٤٩١ هـ / يناير ــ فبراير عام ١٠٩٨ م[١٩٦] . وتشير بعض المصادر اللاتينية أن هذه السفارة الفاطمية جاءت ردا على السفارة التي أرسلها الصليبيون من نيقية إلى مصر[١٩٧] . والواقع أن هذا الرأي ليس له ما يؤيده في غالبية المصادر اللاتينية الأخرى .

وعند وصول السفارة الفاطمية بما تحمله من عروض للقادة الصليبيين ، تذكر القادة نصيحة الامبراطور اليكسيس كومنين لهم بأن يحرصوا على محالفة وخطب ود الفاطميين ، نظرا لعدائهم الشديد للأتراك والعباسيين[١٩٨] ، ولهذا استقبل الفرنج السفراء الفاطميين بالكرم والحفاوة المناسبين[١٩٩] . وتذكر بعض المراجع الغربية مدى حرص الصليبيين عند وصول المبعوثين المصريين على اخفاء آثار ومخلفات الكوارث والمجاعات التي كانوا يعانون منها ، وحرصوا الا يكتشف المبعوثون الفاطميون أحوال معسكرهم المعوزة ، وأن يظهروا أمامهم بسيمات الفخر والعظمة ، فزينوا خيولهم ، ولبسوا أفضل ما لديهم من ثياب وأسلحة براقة وقاموا أمامهم

---

(١٩٦) حددت وثائق الشرق اللاتيني وصول السفراء بتاريخ ديسمبر ١٠٩٧ م ، واتفقت معها غالبية المصادر الفرنجية . راجع :
Riant, Inventaire, A.O.L., T. I, p. 197. Raymond of Aguilers, francorum,in R.H.C. hist. occ., vol. III, p. 247-277.

أيضا راجع المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ص ٥٩ ، أيضا :

Brèhier (ed.,) histoire Anonyme, p. 87, F. 3.
ولكن الكونت بول رايان في تحليله لآراء المصادر الفرنجية ، يعارض وصول السفارة في شهر ديسمبر ، فيذكر أن الرحلة من القاهرة إلى أنطاكية تتطلب ستة أو سبعة أسابيع ، ولهذا فهو يميل لتحديد تاريخ ٩ فبراير ١٠٩٨ م لوصول السفراء إلى المعسكر الصليبي ، راجع :

Runciman, S. The First crusade, in setton p. 315.
ويذكر رنسيمان أن السفارة وصلت في مارس ١٠٩٨ م ، راجع :

(١٩٧) Riant, Inventaire, A.O.L.,(To.I, p. 162.
(١٩٨) Duggan, A., The story, p. 272.
(١٩٩) William of tyre, deeds, vol. I, p. 224.

بممارسة رياضات الخيل والمبارزات بين الفرسان[٢٠٠] ، وقد فعلوا ذلك على حد قول روبرت الراهب «Robert Le Moine» ليوضحوا للسفراء الفاطميين أن الناس هذه حالهم وهذا اهتمامهم ، وأنه لا يوجد عندهم أدنى خوف من أحد أصلا[٢٠١] » .

ويذكر عدة مؤرخى الحروب الصليبية ، وليم الصورى ، أن ما قام به الصليبيون عند وصول السفراء الفاطميين قد أثار لديهم الرهبة والدهشة من مدى تحمل الفرنج ومن أسلحتهم ، واعدادهم ، وكانوا يتوقعون أن يروا الفرنج فى حالة أسوء مما هم عليه من البؤس والشقاء[٢٠٢] . على أية حال ، استقبل الصليبيون السفراء المصريين فى خيمتهم الرائعة المقامة أمام المدينة ، وسمح لهم بعقد عدة اجتماعات مع الأمراء والقادة والبارونات الفرنج ، وذلك لعرض الشروط أو المطالب الخاصة بتوقيع اتفاقية أو اقامة حلف فاطمى صليبى مشترك ضد الأتراك السلاجقة ـــ العدو المشترك ـــ وعرضت السفارة مطالب الأفضل بن بدر الجمالى وتتلخص فى النقاط الآتية :

أولاً : أن يعترف الأفضل بكل فتوحات الصليبيين الحالية فى شمال الشام ، بمعنى آخر تقسيم الشام بين الطرفين ، فيكون للفرنج شمال الشام وقاعدته أنطاكية ، ويكون للفاطميين جنوب الشام وفلسطين وقاعدته بيت المقدس[٢٠٣] .

ثانياً : أن يحتفظ الفرنج بالأراضى والأقاليم التى استحوذوا عليها .

ثالثاً : أن الأفضل يسمح للصليبيين بزيادة الأماكن المقدسة بفلسطين ، وترحيبه بزيارة الحجاج المسيحيين إلى القبر المقدس ، وأن تكون لهم الحرية الدينية بممارسة شعائرهم الدينية ، والا يتعدى عدد الحجاج ثلاثمائة حاج ، والا تزيد مدة أقامتهم بالمدينة عن شهر واحد والا يدخلوا المدينة بسيوفهم وأسلحتهم ، أى أن يكونوا حجاجا مسالمين .

وشرح لهم السفراء الفاطميون المعاملة الطيبة التى يلاقيها الحجاج المسيحيون منذ سيطرة الفاطميين على الأماكن المقدسة بفلسطين وعرضت السفارة الفاطمية ضمن عروضها تقديم كافة

---

(٢٠٠) Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 138; Cox, G. the crusade,p. 60; Conder, The Latin Kingdom, p. 41,138.

(٢٠١) راجع ذلك فى مكسيموس مونروند : تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق ، ج ١ ص ١٠٣ ، أيضا :
Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 138.

(٢٠٢) William of tyre, deeds, vol. I, p. 224.

(٢٠٣) يذكر الأستاذان رنسيمان وبوس أن الأفضل عرض فكرة التقسيم هذه باعتبار الصليبيين عساكر مأجورة للامبراطور البيزنطى ، فافترض بأن هذا التقسيم قام على أساس ما كان قائما من الأمور والأوضاع قبل الغزوات التركية فى الشام . وأعتقد أن هذا الأمر سوف يلقى القبول والموافقة . راجع رنسيمان : الحروب الصليبية ، ترجمة د . العرينى ، ج ١ ص ٣٢٦ ، أيضا :
Boase, T.S.R., Kingdoms and strongholds of the crusades, London 1971, p. 28; Watson, C.M., The story of Jerusalem, New York 1912, p. 172; Church, A.J., The crusades: The story of the war for the Holy sepulchere, London 1912, p. 8.

الامتيازات للمسيحيين فى الأراضى المقدسة ، وذلك باعادة بناء الكنائس المسيحية ، وحماية دياناتهم وخدامهم تحت سيطرتهم ، وذهبت المصادر اللاتينية لأبعد من ذلك فتذكر أن الأفضل ابن بدر الجمالى توسل ، على لسان سفرائه ، للفرنج بأن يواصلوا حصار أنطاكية ، وأنه يتعهد للفرنج بتقديم العون العسكري لمساعدتهم فى اسقاط مدينة انطاكية وغيرها من مدن شمال الشام ، وذلك فى مقابل اعتراف صليبي بسيادة الخليفة الفاطمى داخل حدود امبراطوريته الشامية[٢٠٤] وأنه فى حالة رفض هذه الشروط فان الخليفة الفاطمي ووزيره سوف يثيرون كل العالم الاسلامى بآسيا الصغرى وأفريقية ضدهم باعتباره خليفة المسلمين لمقاتلة اللاتين[٢٠٥] . وتذكر احدى الحوليات اللاتينية أن الأفضل ذهب لأبعد من ذلك ، بأن دعا لعقد تحالف وصلح مع الفرنج ، فعرض عليهم أن يرتد عن اسلامه ويعتنق المسيحية ديانته الأولى من أجل توطيد هذا التحالف[٢٠٦] .

وعند سماع الصليبيين هذه الشروط التى طرحها الوزير الأفضل على مائدة المفاوضات تذكر الفرنج فى الحال نصيحة اليكسيس كومنين عند وجودهم بالقسطنطينية ، بمحالفة الفاطميين فى القاهرة الا أن الفرنج يبدو أنهم أغفلوا نصيحة الامبراطور وضربوا عنها صفحا ، بل أن هذه الشروط ، كما تذكر غالبية المراجع الحديثة[٢٠٧] ، قد أثارت سخط وتذمر المجتمعين بالسفراء ، اذ أن الصليبيين كانوا يرون أن التحالف مع قوة اسلامية سوف يحرمهم من تحقيق غرضهم فى اسقاط مدينة القدس الفاطمية بعد كل ما عانوه من مصاعب وكوارث فى طريقهم إلى الأراضى

---

(٢٠٤) أجمعت غالبية المصادر الفرنجية والمراجع الحديثة على تلك الشروط التى عرضتها السفارة الفاطمية ، راجع :

Raymond of Aguilers, francorum, in R.H.C., Hist. occ., vol. III, p.p. 276-277; Robert le Moine, op. cit., R.H.C., Hist. occ. vol. III. p.p. 784-791; William of tyre, deeds, p.p. 223-224.

ويذكر المؤرخ وليم الصورى أن السفراء الفاطميين حاولوا اجتذاب عطف وقلوب القادة اللاتين واكتساب ودهم ، وذلك بعقد اجتماعات عديدة معهم لشرح وجهة نظرهم . راجع :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 223.

أنظر أيضا تحليل بول رايان لهذه الشروط من خلال المصادر اللاتينية مثل ألبرت داكس، وروبرت الراهب وريموند آجيل وجيوبرت النوجنتى . ويشك رايان فى رواية ألبرت داكس عن الشروط التى حملتها السفارة الفاطمية فى حين يرجح غالبية الروايات الأخرى وبالذات رواية جيوبرت النوجنتى .

Riant, p. op. cit., A.O.L., J. I, p.p. 182-183.

وتذكر بعض الآراء أن الشرط الخاص بدخول الحجاج إلى القدس عزل من السلاح يدل على غرور الأفضل وأنه نظر بسخرية وازدراء إلى جيوش الفرنج ، ويذكرها رولد لامب أن السفراء الفاطميين كان غرضهم معرفة أهداف الصليبيين ، وما يدور من أحداث سياسية شمال الشام . راجع :

Gibbon, E., The capture of Jerusalem, in I.L.F.L., vol. VI, p. 1465; Lamb, Crusaders, p. 143; Boase, T.S.R. The Kingdoms, p. 26; Duggan, A., The story p. 72; conder, The latin kingdom, p. 85; Runciman, S. The first crusades, 157; Zoéoldeneburg, Crusades, p. 131.

(٢٠٥) Raymond of Aguilers, francorum, in R.H.C., hist. occ., vol. III, p. 277; William of tyre, deeds, p. 224.

(٢٠٦) Albert of Aix, R.H.C., Hist. occ. vol. IV, p.p. 48,78.

(٢٠٧) Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 139.

المقدسة ، ونسوق هنا رد أحد الأمراء الفرنج كما أورده المؤرخ ميشو «Michaud» نقل عن أحد المصادر اللاتينية المعاصرة ، والتى لم يذكر اسمها وهو رأى عبر فيه القائد الفرنجى عن شعور كل القادة والجند الفرنج أجمعهم وذلك للتعرف على حقيقة الرد الصليبى على سفارة الأفضل الفاطمية . فوجه القائد الى سفراء الأفضل بن بدر الجمالى قائلاً : ان الدين الذى ندين به ، يحثنا على أن نسير فى طريق اعادة توطيد وتوحيد امبراطورية المسيح ، فى الأماكن التى ظهر فيها . ونحن لسنا بحاجة لمعونة أو مساعدة أى قوة من قوى العالم لانجاز أهدافنا .

« اننا لم نأت الى آسيا كى نتلقى نصائح من المسلمين ، وبجانب ذلك ، فما زلنا نذكر الاضطهادات التى ارتكبها المصريون ضد الحجاج الأوروبيين والمسيحيين الذين ، تحت سيطرة الخليفة الحاكم بأمر الله عندما سيقوا الى الجلادين ، كما أن الكنائس ، وبخاصة كنيسة القبر المقدس ، قد هدمت وسويت بالارض ، وبلا أدنى شك ، فنحن لدينا النية الصادقة لزيارة بيت المقدس ولكننا أخذنا على أنفسنا عهدا لتخليصها من سيطرة المسلمين[٢٠٨] » .

« ان يسوع المسيح الذى شرف المدينة المقدسة بآلامه وارادته ، سوف يكون معبودا ومخدوما فى كنيسة الضريح المقدس من شعبه ، لقد وطدنا نحن المسيحيين أنفسنا على أن نكون حماة المدينة المقدسة وسادتها فى آن واحد . اذهبوا وقولوا للذى أرسلكن وكتب الينا أن نختار بين السلم والحرب ، موضحين له أن المسيحيين الناصبين معسكرهم أمام مدينة أنطاكية ، لا يخافون أو يرهبون الشعوب المصرية ، ولا أمم آسيا ، ولا أولئك الذين هم من الحبشة ولا شعوب بغداد ( يقصد الخليفة العباسى ) ، وأنهم لا يقدرون على الاتحاد والتحالف مع أحد الا مع الممالك التى تحترم الشرائع المقسطة ، ومراسيم العدالة ويبجلون آثار وسناجق يسوع المسيح[٢٠٩] » .

وفى رأينا ، أن هذا الرد يوضح أن مشروع الاتفاق الذى عرضه الأفضل لم يكن ليرضى الفرنج ويلائمهم فى حقيقة الأمر ، هذا الرد تضمن فى حقيقته رفضا صريحا لمطالب الفاطميين وشروطهم فى عقد الصلح مع الفرنج ، بل ان هذا الرد كان حازما وقاطعا ، ويوضح أن الصليبيين سخروا من الدخول فى نقاش الادعاءات الخاصة بأملاك الفاطميين فى فلسطين مهما كانت اعتقاداتهم وجنسياتهم اذ أوضحوا بصراحة للسفراء ان مغتصب القدس يصبح عدوهم[٢١٠] ، وهذا الرد كان أيضا اعلانا صريحا بالرفض بل بالحرب مع الفاطميين .

---

(٢٠٨) Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 139.

وربما نقلها ميشو عن المؤرخ ريمون داجيل فى كتابه « أعمال الفرنجة الذين أسقطوا بيت المقدس » .

Raymond d'Aguilers, Historia francorum qui ceperunt Iherusalem, vol. III, in R.H.C. hist. occ.

(٢٠٩) أورد مكسيموس مونروند ، لشرش مقتطفات من هذا الرد . راجع مونروند : تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق ، ج ١ ص ١٠٤ .

Church, A.I., The crusades, London, 1912, p. 81.

(٢١٠) Zoé oldenburg, Crusades, p. 131.

وترى بعض المراجع الحديثة[٢١١] ، أن ما عرضه الفاطميون من شروط ، ورد الصليبيين عليها ، انما يدل على جهل الفاطميين ووزيرهم الأفضل بحقيقة الحركة الصليبية ، وبأن الصليبيين لم يتركوا بلادهم في غرب أوروبا ويتحملوا تلك المصاعب في الشرق الا لاستخلاص الأراضي المقدسة بفلسطين التي كانت الهدف الأول والرئيسي للفرنج ولهذا فلم يعطوهم رداً قاطعاً وحاسماً سواء بالنفي أو الايجاب كي يضمنوا حيدتهم .

وعلى الرغم من ذلك فان الصليبيين أظهروا مهارة سياسية كبيرة تجاه السفارة الفاطمية ، فلم يعطوهم ردا حاسماً أو قاطعاً ، ولم يعارضوا التحالف مع الفاطميين فقد كانوا يدركون أن الخلافة الفاطمية هي القوة الوحيدة التي ستواجههم للدفاع عن أملاكها في فلسطين ، نظراً لما تتمتع به من قوة اقتصادية وعسكرية كبيرة . ولهذا فكانت هي العدو الأول الذي يجب أن يوضع في الاعتبار ، وأدرك الفرنج هذه الحقيقة حتى أنهم فكروا في احدى المرات الذهاب إلى القاهرة ، وغزو الخلافة الفاطمية بعد الاستيلاء على المدينة المقدسة[٢١٢] .

ولهذا فقد وجدت تلك السفارة من الناحية النظرية ترحيباً كبيراً من جانب الفرنج الذين أدركوا ما تنطوى عليه من الانقسام السياسي والمذهبي السائد في العالم الاسلامي[٢١٣] ، فأختاروا أن يتركوا الفاطميين على جهلهم بحقيقة نواياهم في فلسطين فلم يلتزموا معهم بتدبير ، وبدلاً من ذلك أرسلوا سفارة صليبية صغيرة ترافق سفارة الفاطميين إلى القاهرة كرد على السفارة الفاطمية ، لكي تؤكد التعاون بين الطرفين للقضاء على العدو المشترك وتحمل أقتراحات محددة تمثل وجهة نظر الفرنج بالنسبة لاقامة تحالف أو اتفاقية مع الطرفين[٢١٤] .

وبينما كان سفراء الوزير الأفضل على وشك الرحيل من المعسكر الصليبي ومعهم السفارة الفرنجية عائدين الى القاهرة بحرا عن طريق ميناء السويدية ميناء أنطاكية على البحر المتوسط ، بعد أن مكثوا في المعسكر الصليبي ما يقرب من شهرين[٢١٥] ، تصادف أن تجمعت نجدة اسلامية من حارم لانقاذ أنطاكية وتقديم العون العسكري والامدادات لها ، بزعامة رضوان صاحب حلب وسكمان بن أرتق أمير ديار بكر وأمير حماه وقوات من حمص والأراتقة من اقليم الجزيرة حيث

---

(٢١١) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٣٧ .

Cox, S., The crusades, p.p. 60,61, Watson, The story of the crusades, p. 172.

(٢١٢) Michaud, History of the crusades., vol. I, p. 200; Cox, The crusades p. 60; Duggan, The story, p. 72; lamb, The crusaders, p. 189.

(٢١٣) Wiet, G. Précis de L'histoire d'Egypte, T. II., p. 186.

(٢١٤) يذكر المؤرخ وليم الصوري ، أن الأفضل حاول التفاوض سرا مع الفرنج على عقد معاهدة هجومية دفاعية مشتركة لاستئصال شأفة الخطر السلجوقي بالشام وأن يحل الفاطميون محل السلاجقة فيما بعد .

William of Tyre, deeds, vol. I, p. 224; Michaud, History of the crusades, p. 139; Duggan, The story, p. 72.

(٢١٥) د . حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ، ط . أولى ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٥٣ ؛ رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ص ١٢٦ .

وضعوا خطة مهاجمة انطاكية فى الوقت الذى تخرج فيه قوات ياغى سيان لمهاجمة الفرنج من الاتجاه المقابل فيقع الفرنج بين نارين[٢١٦] .

وتقابل الفرنج مع القوات الاسلامية المتحالفة فى موقع بين بحيرة العمق ومجرى نهر العاصى[٢١٧] وتمكنت قوات بوهيمند النورمندى ، وريمون دى سان جيل الصليبية ، أن تنزل هزيمة ساحقة بالقوات الاسلامية فى شهر ربيع الآخر ٤٩١ هـ / ٦ مارس ١٠٩٨ م ، فارتدت نحو حارم وفى أعقابهم الفرنج الذين استولوا على المدينة بمساعدة أهلها السريان والأرمن[٢١٨] .

وفى ذلك الوقت خرجت قوات ياغى سيان للقيام بهجوم مفاجىء على المعسكر الصليبى ، وقام قتال مرير ، ولكنها انسحبت فى الوقت الذى عاد فيه الفرسان الصليبيون ظافرين من موقعة العمق ، وقاموا بالقاء رؤوس القتلى داخل أسوار أنطاكية ليعلم ياغى سيان بما حل بحلفائه[٢١٩] ، كما قام الفرنج أيضا بارسال ما يقرب من مائتى رأس من رؤوس القتلى على ظهور أربعة من الجياد إلى الوفد الفاطمى ، الذى كان على وشك الرحيل من ميناء السويدية فى طريق عودته الى القاهرة[٢٢٠] ، ويذكر المؤرخ وليم الصورى[٢٢١] مدى فرحة سفراء الأفضل عند رؤيتهم رؤوس القتلى المسلمين حين بعثها الفرنج ، فيشير إلى فرحة سفراء الأفضل مما شاهدوا ، ويصف حسن استقبال الصليبيين وترحيبهم بهم .

---

(٢١٦) ابن العديم : زبدة الحلب ، ط . دمشق ، أحداث ٤٩١ هـ ، ج ٢ ، وكذلك

Grousset, R., Histoire des croisades, To. I. p. 86.

(٢١٧) Chalandon, F., Histoire de la premiére croisade, Pairs 1925, p. 195.

(٢١٨) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ أحداث ٤٩١ هـ ، أيضا :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 226.

وتذكر المراجع الحديثة أن عدد الجيش الإسلامى يقدر بعشرين ألف رجل ، وقتل منهم ألف راجل وألف فارس . انظر :

Michaud, History of the crusades. p. 140; Conder, The Latin Kingdom, p. 165; Cox, The crusades, p. 61.

أيضا جورجى بنى : تاريخ سوريا ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

(٢١٩) يذكر ريمون أجيل ، وألبرت اكس أن الأتراك بعد دفن موتاهم ، قام الفرنج بنبش القبور وطرح الجثث بعيدا ورموها فى خندق معد لها ، راجع :

Albert of Aix, R.H.C. Hist. occ., vol. III, p.p. 384-386; Raymond d'Aguilers, R.H.C., Hist. occ.; vol. III, p. 249.

أيضا مؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة د . حسن حبشى ، ٦٧ . ويلاحظ أن هذه كانت المحاولة الثانية الفاشلة التى قام بها نواب السلاجقة بالشام لإنقاذ أنطاكية . أنظر ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٣٢ ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤ .

(٢٢٠) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ٥٩ ، ٦٣ .

(٢٢١) يذكر المؤرخ وليم الصورى أنه تم اختيار بوهيمند النورمندى ، وريمون دى سان جيل كونت تولوز ، والأمير افرار دى بويست «Everar de Pulsiee» ، كونت جارنيه دى جراى «Garnier de Gray» ، لمرافقة الرسل الفاطميين وحراستهم نحو ميناء السويدية لحمايتهم من كمائن الأتراك السلاجقة . راجع :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 229.

وان ما فعله الفرنج كان رداً صريحاً على عرض سفراء الفاطميين وأظهر بأنهم لا يريدون صلحاً بل مزيد من سفك الدماء واستعراض القوة ، وأن الفاطميين سوف يلقون نفس مصير أعدائهم السلاجقة[٢٢٢] .

وقد هاجم بعض المؤرخين الحديثين[٢٢٣] موقف الأفضل من الحملة الأولى وذلك بارساله هذه السفارة الفاطمية إلى المعسكر الصليبي أمام أنطاكية وأعتبروه موقفا مخزيا من جانبه ، وأن الأفضل بذلك ارتكب خطأً سياسياً اذ أن هذه السفارة اكسبت الصليبيين وضعاً سياسياً معترفاً به فى ركن هام من أركان العالم الاسلامى جعلتهم أحد القوى السياسية المتحكمة فى مصائر الشرق الاسلامى[٢٢٤] .

ويرى البعض أنه لم تترتب نتيجة من النتائج على بعث سفارة الأفضل إلى المعسكر الصليبى بأنطاكية فلم تؤد هذه السفارة إلى عدول الفرنج عن تحقيق أغراضهم فى اسقاط القدس[٢٢٥] ، بل وأستخلصوا منها ما يعود من المزايا عليهم ، اذ وقف الفرنج على مدى الخلاف والأنقسام السائد فى العالم الاسلامى ، والصراع القائم بين الخلافتين العباسية والفاطمية[٢٢٦] .

كما أن السفارة الفاطمية قدمت البرهان الملموس على صحة هذه النظرية وأن التفسير الوحيد لها أظهار الكراهية بين سلاطين وخلفاء الاسلام وقتذاك[٢٢٧] . ويذكر كل من المؤرخ ابن الأثير[٢٢٨] والعينى[٢٢٩] ، ومجموعة وثائق الشرق اللاتينى[٢٣٠] ، كيف أن الفرنج أظهروا مهارة سياسية ملحوظة ونهضوا بدورهم فى مهارة كبيرة حينذاك ، فلم يكتفوا ببث شعور الأطمئنان فى اسدال غشاوة على أعين السلاجقة فى حلب ودمشق فأرسلوا لأميرى المدينتين يطمئنوهما على مصيرهما ويؤكدون لهما أنهم لا يطمعون الا فى استرداد البلاد التى كانت تابعة للبيزنطيين أى الرها وأنطاكية واللاذقية وذلك مكرا منهم وخديعة كى لا يساعدوا صاحب أنطاكية ويضمنوا حيادهم التام أثناء مسيرهم إلى الشام وليتمكنوا من مواجهة القوى الاسلامية منفردة ، والتهام المدينة تلو الأخرى من مدن الشام .

---

(٢٢٢) يرى الأستاذ جورج كوكس أن مافعله الفرنج كان يثير الاشمئزاز ولكن الفرنج لهم العذر فى ذلك وهذه هى روح الحروب وقتذاك . Cox, The crusades, p. 61.

(٢٢٣) د . عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ٨٤ ، ١٢٢ .

(٢٢٤) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ١٩٩ .

(٢٢٥) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٢٧٥ .

(٢٢٦) William of tyre, deeds, vol. 1, p. 223 in R.H.C., Hist. occ., vol. I, p. 191 et sqq.

د . حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ٥٥ .

(٢٢٧) د . حسن حبشى : المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٢٢٨) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٨٦ .

(٢٢٩) العينى : عقد الجمان ، مخطوط دار الكتب المصرية ، تصوير شمس ، رقم ١٥٨٤ ، ج ١ ، قسم ٢ ، لوحة ٥٠٦ ــ ٤٠٣ .

(٢٣٠) Archives de L'orient Latin, vol. I, p. 171.

وعلى الرغم من أن رضوان صاحب حلب أدرك رغبة الفرنج الحقيقية فى اثارة النزاع والشقاق بين القوى الاسلامية لتحقيق أغراضهم مما دفعه لاعداد حملة لنجدة أنطاكية وأنضم اليهم سكمان بن ارتق وفوات من شيزر وحماه وحمص الا أن هذه المحاولة باءت بالفشل الذريع[٢٣١] ، مما اسقط فى يد المدافعين عن مدينة أنطاكية ومكن الفرنج بمساعدة الأساطيل الانجليزية والجنوية[٢٣٢] وبسبب خيانة أحد حراس أبراج المدينة من اسقاطها أول رجب ٤٩١ هـ / ٣ يونيو ١٠٩٨ م[٢٣٣] وأرتكبوا بها مذبحة مروعة اثر دخولهم[٢٣٤] وعرضوا رؤوس القتلى كأنصاب لذكرى انتصارهم[٢٣٥] وقد أثار سقوط أنطاكية موجة من الذعر فى البلدان الاسلامية المجاورة فهرب سكانها المسلمون منها كما كان لسقوطها أيضا دوى هائل لا يعادله الا سقوط مدينة بيت المقدس الفاطمية فيما بعد بأيدى الفرنج[٢٣٦] .

---

(٢٣١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ أحداث ٤٩١ هـ ؛ أبى الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ص ٢١٠ .

(٢٣٢) يذكر المؤرخ رايم السورى أن هذه السفن كانت سفن جنوية فقط . راجع :

William of tyre, deeds, vol. 1, p. 140; Calthrope, The crusades, London 1923, p. 23.

ويؤيد رأى وليم المؤرخ ابن عبد الظاهر . راجع ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر ، ط . الرياض ١٩٧٦ ، ص ٣٠٩ . وتذكر بعض الآراء الحديثة أنها كانت أساطيل جنوية وبيزية فقط . راجع :

Michaud, history of the crusades, vol. I, p. 140, Calthrope, The crusades, p. 23.

أنظر مناقشة هذه الآراء فى ستيفنسون : Stevenson, Crusaders, p. 25, F. 4.

(٢٣٣) أجمعت غالبية المصادر الإسلامية واللاتينية على وجه التقريب على أن سقوط أنطاكية كان بسبب الخيانة . راجع مثلا العظيمى : تاريخ العظيمى ، ص ٣٧٣ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٨٨ ، أيضا :

William of tyre, deeds, vol. 1, p. 231.

ويذكر ابن الأزرق الفارقى أن سقوط أنطاكية كان فى عام ٤٩٧ هـ . وهذا خطأ واضح . راجع الفارقى : تاريخ الفارقى ، تحقيق د . بدوى عبد اللطيف ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٧٦ . وعن الدور الهام الذى لعبه بوهيمند النورمندى فى إسقاط أنطاكية راجع د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ ؛ د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٢٣٨ ـ ٢٤٠ ، كذلك :

Haskins, G.H., The normans in European history, New York 1959 p.p. 213-215; Conder, the lating kingdom, p.p. 46-47. Michaud, History, vol. I, p.p. 180-185, Dury, op. cit., 269.

(٢٣٤) لمزيد من التفاصيل عن سقوط أنطاكية ودور الأرمن والسريان فى مساعدة الفرنج راجع : ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٨٨ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٣٣ ـ ١٣٥ ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٧ ؛ الذهبى : دول الإسلام ج ٢ ص ٢٤ ؛ من المصادر الفرنجية راجع المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ص ٦٣ ـ ٦٤ .

Fulcher of chartres, Expedition., p.p. 96-98; William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 231-320; Cahen, C. La Syrie du Nord, p. 213.

(٢٣٥) وتذكر إحدى الوثائق اللاتينية وهى رسالة وجهها القادة الفرنج إلى الغرب الأوروبى ، أن عدد قتلى مسلمى أنطاكيا بلغ تسعة وستين ألفا ولم ينج من سكانها سوى عشرة آلاف . راجع تلك فى :

Michaud, History of the crusades, vol. III, appendix vol. II, p. 261.

(٢٣٦) يذكر الكاتب اليهودى يوشع براور أن سقوط أنطاكية كان بمثابة معجزة كبيرة بالنسبة للصليبيين . راجع :

Prawer, The latin kingdom, p. 12, Cf. also Franzius, E. History of the byzantine empire, New York 1967, p. 306.

وقد حاولت قوات الحلفاء السلجوقية الضخمة بقيادة كربوغا أتابك الموصل انقاذ مدينة أنطاكية بعد فترة من سقوطها[٢٣٧] ، الا أن الصراع والشقاق بين صفوف الحلف الاسلامي أمام انطاكية والخلاف بين أتراك كربوغا من ناحية ، والعرب بزعامة وثاب بن محمود من ناحية أخرى[٢٣٨] ، أدى لفشل تلك الحملة السلجوقية لانقاذها فتذكر المصادر الاسلامية أن سوء معاملة كربوغا وتكبره على زعماء الحلف الاسلامي أدى لنفورهم منه وانفضاضهم من حوله[٢٣٩] ، مما مكن الفرنج رغم ضعفهم من انزال هزيمة قاسية بقوات الحلف الاسلامي ولاذ كربوغا وجماعته بالفرار في رجب ٤٩١ هـ / يونيو ١٠٩٨ م تاركين وراءهم أمتعتهم وأثقالهم[٢٤٠] .

والمعروف أن المؤرخ أبو المحاسن[٢٤١] حاول أن يلقي تبعة سقوط أنطاكية وهزيمة الحلف الاسلامي السلجوقي على عاتق الخلافة الفاطمية ووزيرها الأفضل بن بدر الجمالي فيقول : « ولم ينهض الأفضل باخراج عساكر مصر ، وما أدري ما كان السبب في عدم اخراجه مع قدرته على المال والرجال » . وبعد هزيمة كربوغا أتابك الموصل يقول :« كل ذلك وعساكر مصر لم تتهيأ

---

(٢٣٧) يذكر ابن خلدون أنهم وصلوا بعد ثلاثة عشر يوما من سقوطها . راجع ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٧ ؛ الذهبي : دول الإسلام ج ٢ ص ١٥ . ويعارض بعض المراجع الحديثة هذا الرأي فترى أنهم وصلوا بعد ثلاثة أيام فقط من سقوطها وذلك في ٩ يونيو ١٠٩٨ . راجع :

**Franzius, E. History of the byzantine empire, p. 306; Thopmson, The middle Ages, vol. II, p. 571; Stevensons op. cit., p. 27 Runciman, Runciman, the first crusade, in setton (ed.), Vol. I, p 318.**

(٢٣٨) ابن العديم الحنفي : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٣٦ . وكانت قوات الحلف الإسلامي تتكون من دقاق بن تتش صاحب دمشق وطغتكين أتابك ، أرسلان تاش ( شاه ) صاحب سنجار ، وسكمان بن أرتق والأمير جناح الدولة حسين بن ملاعب أمير حمص . راجع أيضا ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٨٩ حوادث ٤٩١ هـ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٧ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ص ١٤ . وتذكر هذه المصادر أن الأمير رضوان صاحب حلب رفض الانضمام لهذا الحلف نظرا للعداء القائم بينه وبين أخيه دقاق مما يعارض ويدحض الرأي الذي ذهب إليه أبو المحاسن من انضمام رضوان للحلف الإسلامي . راجع النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٧ ، أيضا راجع آراء المصادر الفرنجية حول عدد قوات الحلف الإسلامي .

**Albert of Aix, op. cit, R.H.C., Hist. occ. vol. IV, p. 15; Michael Le Syrien, Chronique, vol. III, p. 184; Dury, V., The middle Ages, p. 269 Cf. also Thompson, The middle Ages, vol. II, p. 571.**

(٢٣٩) أبي الفداء : المختصر ، ج ٢ حوادث ٤٩١ هـ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ص ١٤ ــ ١٥ ؛ العظيمي : تاريخ العظيمي ، ص ٣٧٢ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢٤٠) تعجب أبو المحاسن من هزيمة الأتراك رغم كثرتهم وضعف الفرنج . راجع أبو المحاسن : أعمال المرغبة ص ٦٧ . وكذلك :

**Raymond of Aguilers, Francorum in R.H.C., Hist. occ. p.p. 253-257; Archives de L'orient Latin, T. I, p. 175; Cf. also.**

وراجع المقال الهام الذي كتبه الأستاذ فرانس عن ذلك في :

**France (J.), The crisis of the first crusade form the defeat of kerbogha to the departure from 'Arqa, in Byz., Bruxelles 1970, To. XL, p.p. 276-306.**

أيضا راجع الرواية البيزنطية عن هزيمة الحلف السلجوقي :

**Anna comnena, The Alexiad, p. 285.**

(٢٤١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٧ .

للخروج[٢٤٢] » .

ونحن لا نتفق مع ما ذهب إليه أبو المحاسن اذ أن سقوط مدينة أنطاكية يلقى على عاتق الأتراك السلاجقة انفسهم فى المقام الأول أى على عاتق بركيا روق سلطان سلاجقة فارس وفصله كربوغا وعلى عاتق دقاق ملك دمشق ورضوان صاحب حلب رغم عدم مشاركته فى ذلك الحلف اذ أن البطء والرعونة التى ميزت حملة كربوغا إلى أنطاكية واضاعة أسابيع عديدة لحصار لا طائل منه للرها ، فى الوقت الذى كان الحلف الاسلامى قائما على دعائم وأسس مهزوزة نظراً للخلاف الذى دب بين قادة كربوغا وبقية أمرائه باعتراف غالبية المصادر الاسلامية التى أقرت بأن الحلف الاسلامى كان يعانى خللا وتصدعا بين صفوفه ، وذلك لرفض رضوان صاحب حلب المشاركة فى الحلف رغم أن طبيعة الموقف كانت تحتم عليه أن يتخذ موقفا أكثر اعتدالا وجدية خاصة بعد أن أصبحت حلب نفسها محصورة بين منطقتى النفوذ الصليبى : الرها فى الشرق وأنطاكية فى الغرب[٢٤٣] وذلك بسبب عدائه لأخيه دقاق صاحب دمشق المشارك بالحلف .

كما أن كربوغا أساء معاملة أفصاله من الأمراء اذ تعالى عليهم وأستهان بهم فخبثت نياتهم عليه مما خلق جوا من الاستياء بين أمرائه فأنفضوا من حوله وتركوه وحيدا فى الميدان يلاق مصيره بنفسه فى قلة من انصاره[٢٤٤] . بل أن دقاقا نفسه ، الذى كان يعتبر الرجل الثانى فى الحلف بعد كربوغا فكر ـــ والجيش الاسلامى لا يزال أمام أنطاكية ـــ فى الانسحاب من الحلف والعودة إلى دمشق لمراقبة توسع الفاطميين بجنوب الشام وفلسطين ، وهو التوسع الذى سبب له قلقا كبيرا .

كل هذه العوامل مجتمعة أدت إلى هزيمة الحلف الاسلامى السلجوقى وضياع أنطاكية منهم ورغم أن أبو المحاسن يعجب من هزيمة الفرنج على ضعفهم للأتراك على قوتهم[٢٤٥] ، فلو تحرى الدقة لزالت دهشته .

ويمكن القول أن معركة انطاكية وهزيمة كربوغا ، وطد أقدام الفرنج فى أنطاكية وقلعتها وأظهرت عجز سلاجقة فارس والشام فى وقف تيار الغزو الصليبى ، فثبطت همة الأتراك السلاجقة ، بحيث لم يقوموا بأية محاولة لمواجهة الصليبيين بالشام ، وقبعت تلك القوى

---

(٢٤٢) أبو المحاسن : نفس المصدر ج ٥ ص ١٤٨ .

(٢٤٣) Grousset, R., Histoire des croisades, Tom. I, p. 98.

(٢٤٤) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٣٦ ؛ العظيمى : تاريخ العظيمى ، ص ٣٧٣ .

(٢٤٥) أشار المؤرخ وليم الصورى لشيء من هذا ، فيذكر أن قوة الأتراك السلاجقة قد شلت ثم أنهارت تماما بعد سقوط أنطاكية ، والهزائم المتتالية التى لحقت بشمال الشام وآسيا الصغرى . ويعترف المؤرخ اللاتينى بقوة الخلافة الفاطمية وخليفتها وكذلك وزيرها أميروس «Emirius» أى الأفضل بن بدر الجمالى أمير الجيوش وأنها كانت من أكبر وأخطر القوى الإسلامية بالشرق . راجع :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 336.

السلجوقية فى أماكنها دون أن تحرك ساكنا[٢٤٦] . وغير خاف أنه بعد الهزائم المتتالية للسلاجقة بآسيا الصغرى ، وشمال الشام ، جاء الدور على الدولة الفاطمية ووزيرها الأفضل بن بدر الجمالى كي تضطلع بدور الزعامة والقيادة فى تلك المرحلة لمواجهة التيار الصليبي الزاحف من الغرب ، فحملت عبىء الدفاع عن الشرق الاسلامي والجهاد المقدس ضد الفرنج خلال فترة وزارة الافضل منذ عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م حتى عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م ، وهى من أهم فترات موضوع الدراسة .

وتجمع المصادر[٢٤٧] على أن السفارة الفرنجية التى أرسلها الفرنج لمرافقة السفارة الفاطمية قد حملت اقتراحات محددة لعرضها على الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى ، الا أن الوزير الفاطمى قام باحتجاز السفارة الصليبية وألقى اعضاءها فى غياهب السجون . ويرى المؤرخ ميشو[٢٤٨] «Michaud» ، أن الأفضل احتجز البعثة الفرنجية فى القاهرة مستغلا فى ذلك الموقف الحرج الذى عاناه الفرنج أمام أنطاكية وداخلها أثناء حملة كربوغا أتابك الموصل .

وعلى الرغم من أن المصادر الفرنجية لم تحدد طبيعة هذه الأقتراحات الا أن المؤرخ الألمانى ألفريد دوجان[٢٤٩] «Alfred Duggan» ، يذكر أن الصليبيين اقترحوا على الفاطميين ووزيرهم اقتراحا مؤداه ، أن ينسحب الفاطميون من الأماكن المسيحية المقدسة بفلسطين أو جنوب الشام ، وأن تقتصر حدود الفاطميين على سيناء من ناحية الشرق ، وذلك كمطلب أساسى مقبول للتفاوض وعقد التحالف ، واقامة السلام الذى سوف يجنب الفريقين المزيد من سفك الدماء ، ولكن الوزير الأفضل ، الذى لم يكن ليستطيع استمرار المفاوضات بشكل طيب بدون الأماكن المقدسة ، قد استشاط غضبا من هذا المطلب وحبس السفراء الفرنج . ورغم صعوبة تقبل هذا الرأى من جانب المصادر أو المراجع الفرنجية الا أننا نرجح أن الأفضل قام باحتجاز السفارة الفرنجية بالقاهرة لكسب مزيد من الوقت ولانتظار ما سيترتب عليه الموقف من نتائج وأمور بالنسبة لأوضاع الصليبيين فى شمال الشام وبالتحديد فى أنطاكية .

وحقيقة الأمر أن الأفضل شاهنشاه كان يراقب عن كثب تطورات الأمور والأحداث فى شمال الشام باهتمام كبير ، وخاصة بعد وصول تلك البعثة الفرنجية التى يبدو أنها ، كما أشرنا آنفاً ، لم تحمل ردا حاسما من قبل الفرنج على مطالب الأفضل ، الذى اتضح له أن السفارة الفرنجية ، لم

---

(٢٤٦) هناك رأى يقول أنه بانتصار الفرنج فى معركة أنطاكية أصبح الطريق الى المقدس مفتوحا أمامهم ولم تعد هناك قوة تعرقل طريقهم الى هناك .

Sauley, Numismatique des croisades, Paris 1890, p. 57.

(٢٤٧) Raymond of Agullers, R.H.C., Hist. occ., vol. III, p. 277; Caffaro, de Liberatione civitatum orientis, R.H.C., Hist. occ. vol. I, p. William of tyre, deeds, vol. I, p. 325.

(٢٤٨) Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 195.

(٢٤٩) Duggan, A., The Story of the crusades, p.p. 72-73; Runciman, The first crusade, in setton (ed.,) vol. I, p. 316.

يكن لديها السلطة الكاملة للتفاوض فى عقد التحالف بين الفريقين وأن الصليبيين لم تكن لديهم النية فى مساعدة الفاطميين فى استرداد أملاكهم بالشام ، وانما أتضح له عزمهم على استرداد مدينة بيت المقدس[٢٥٠] .

ونحن نرجح أن هذا الأمر أثار نوعا من القلق لدى الأفضل ، الذى كان يخشى فى قرارة نفسه من أن الفرنج يريدون هم أيضا كسب مزيد من الوقت لصالحهم ، ومحاولة تعمية أو خداع الأفضل عن غرضهم الحقيقى ، وهذا يفسر لنا أن الأفضل لم ينتظر عقد اتفاق أو تحالف من نوع ما مع الفرنج ، ولم يشأ حتى أن ينتظر وصول الفرنج إلى فلسطين ، واختار أن يعمل فى سرعة .

وكان الأفضل قد أستولى على مدينة صور ، التى خرجت على طاعته فى ربيع ٤٩٠ هـ / فبراير ١٠٩٧ م[٢٥١] ولم يشأ الاستيلاء على بيت المقدس وباقى فلسطين من أيدى الأراتقة وترك ذلك فى حينه . ولكن بمقدم صيف عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م استغل الأفضل فرصة انشغال السلاجقة بالحروب الناشبة فى شمال الشام ، والشلل المؤقت الذى أصابهم نتيجة للهزائم المتتالية التى منوا بها أمام الفرنج ، فخرج على رأس حملة ضخمة استطاع أن يجتاح بها فلسطين وأن ينتزع بيت المقدس من أيدى ولدى أرتق سكمان وايلغازى وذلك فى ٢٥ رمضان ٤٩١ هـ / ٢٦ أغسطس ١٠٩٨ م ، بعد حصارها ما يقرب من شهر[٢٥٢] ، وتذكر المصادر الاسلامية أن الأفضل أحسن إلى سقمان وايلغازى ومن معهما ، وأجزل لهما العطاء ، كما سمح لهما بالخروج من القدس ، فاتجه الأخوان أرتق إلى دمشق ومنها إلى الجزيرة وديار بكر بأعلى العراق حيث أسسا لأنفسهما امارة هناك سميت امارة بنى أرتق[٢٥٣] . وعين الأفضل على القدس واليا يدعى افتخار الدولة ، الذى قام بتحصين المدينة المقدسة وترميم أسوارها التى هدمتها مجانيق الأفضل أثناء حصارها[٢٥٤] وذلك انتظارا لمواجهة أى خطر قادم من الشام سواء من جانب السلاجقة أو الفرنج ضد المدينة المقدسة .

---

(٢٥٠) Runciman, The first crusade, in setton (ed.), vol. I, p. 316.

(٢٥١) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٣٨ .

(٢٥٢) لمزيد من التفاصيل راجع ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ط . بيروت ١٨٩٠ م ص ٢٦٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩٠ ؛ ابن ميسر : المصدر السابق ص ٣٨ .

Defremery's discussion; Memoirs sur la prise de Jerusalem, Journal Asiatique paris 1872, vol. VI, p. 9.

القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٧٦ . ولم يورد المؤرخ المعاصر ابن الصيرفى التاريخ الحقيقى لفتح الأفضل مدينة القدس . راجع : الإشارة إلى من نال الوزارة ، ص ٦٠ . أنظر : مناقشة دفرميرى لمختلف هذه الآراء حول سقوط القدس فى أيدى الأفضل .

Defremery's discussion; Memoirs sur la prise de Jerusalem,Journal Asiatique,paris 1872, vol. VI, p. 9.

(٢٥٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ — ١٣٨ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٧ .

(٢٥٤) ابن العبرى : مختصر الدول ، ص ٢٦٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩٠ .

وبذلك أحتل الفاطميون كل فلسطين ، بحيث لم يحل خريف عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م ، الا وكانت حدود الدولة الفاطمية قد امتدت إلى نهر الكلب على الساحل شمال بيروت ومجرى نهر الأردن شرقا حتى عسقلان جنوبا[٢٥٥] . وأستفاد الأفضل فى ذكاء سياسى من حالة الفوضى التى كان فيها الأتراك السلاجقة نتيجة هزائمهم المتتالية لاستعادة املاك الفاطميين المفقودة ، وباستيلاء الدولة الفاطمية على بيت المقدس وفلسطين وكل جنوب الشام ، وباسقاط الفرنج لانطاكية ، غدا الغريمان وجها لوجه ، وكان لا مناص من حدوث الصدام بينهما .

ويلاحظ أن الفاطميين بعد أن بسطوا سيادتهم على فلسطين وساحل الشام جنوبى نهر الكلب ، لم يتركوا فيما يبدو قوات كافية لتوطيد أقدامهم بتلك الجهات أو الدفاع عنها ضد الأخطار المقبلة باستثناء تحصينهم لبيت المقدس ، ووضع حامية قوية للدفاع عنها وعن بعض الموانىء الساحلية ، والتى كان الاسطول الفاطمى يتردد عليها باستمرار ويقوم بامدادها بالمؤن والرجال[٢٥٦] ، وسوف تكون هذه الموانىء الساحلية أول ما يتعرض لهجوم الفرنج أثناء مرورهم بها ، زاحفين إلى مدينة بيت المقدس . وكيفما كان الأمر ، فبعد سقوط انطاكية ، عقد القادة الفرنج اجتماعا فى كاتدرائية القديس بطرس فى أنطاكية فى ٢٥ ذو الحجة ٤٩١ هـ / نوفمبر ١٠٩٨ م ، لتحديد خط سير الحملة وتقرير مصير المدينة[٢٥٧] ، وظهر الخلاف واضحا بين بوهيمند النورمندى وريمون سان جيل ( الصنجيلى ) حول أحقية كل منهما فى ملكية المدينة ، دون النظر لاعتبار أحقية بيزنطة فى ملكيتها[٢٥٨] ، مما أثار السخط والتذمر بين الجند وبقية الفرسان الفرنج ، وخاصة بعد أن وصلتهم الأنباء بسقوط مدينة بيت المقدس بأيدى الفاطميين مما ضاعف من غضبهم واتهموا بوهيمند وقادتهم بخيانة القضية الصليبية ، وهددوا قادتهم بالتخلى عنهم ، وتدمير أنطاكية وأسوارها[٢٥٩] . وأثار هذا التذمر والتهديد مخاوف بوهيمند وريمون

---

(٢٥٥) Encyclopedia of Islam, New ed., London 1961, vol. I. op. Encyclo pedia Britannica, London 1969, vol. VI, p. 829; Wise, The wars of the crusades, London 1978, p. 19.

(٢٥٦) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٢٠٩ ، كذلك :
Wiet, G., L'Egypte Musulmane, p. 260, FF.

وهذا يدل على أهمية العامل البحرى الفاطمى فى تلك المرحلة من مراحل الصراع الفاطمى الصليبى .

(٢٥٧) Grousset, R., Sum of history, p. 14; Cambridge Med. Hist., vol. V, p.p. 294; Grousset, Histoire, to. I, p. 108; Chalandon, F., Alexis comnéne, p.p. 203-205.

أيضا : د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٢٤٥ .

(٢٥٨) للاستزادة راجع د . جوزيف نسيم : العرب والروم ص ٢٤٣ ـــ ٢٤٦ ؛ د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢١٢ ـــ ٢٢٣ ، كذلك :
Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 185; Grousset, Histoire, to I, p. 109; Mayer Crusades, p.p. 57-58; Rice, Byzantium, p. 96; p. Cahen, Turkish, p.p. 199-200.

(٢٥٩) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٦٨ ، راجع الرواية البيزنطية عن هذا الصراع :
Anna Comnena, The Alexiad, p. 258, Cf. also Michaud, History of the crusades, vol. I, p.p. 185-186; Mayer, The crusades, p. 58; Grousset, R. Histoire, p.p. 180-0109.

ويذكر عابد أن بوهيمند حرص على أن يعلو فى صورة أمير انطاكية الفعلى وذلك بأن منح الجنوية امتيازات عديدة داخل =

وبقية القادة الذين قرروا فى النهاية الاستيلاء على معرة النعمان(٢٦٠) ، وكانت بمثابة الحد الشمالى الشرقى لأنطاكية(٢٦١) . وبعد حصار يقرب من أسبوعين أستسلمت المدينة لهم فى ١٢ محرم ٤٩١ هـ / ١١ ديسمبر ١٠٩٨ ، ولم يحترم الفرنج الأمان الذى منحوه لسكان المدينة ، فارتكبوا بها مذبحة مروعة راح ضحيتها الكثير من سكان المدينة(٢٦٢) وأعترفت المصادر اللاتينية بهول تلك المذبحة(٢٦٣) ، وأضافت أن الصليبيين أحرقوا المعرة بأكملها(٢٦٤) .

وفى المعرة نشب صراع جديد بين بوهيمند وريمون حول هذه البلدة(٢٦٥) . وعقد القادة اجتماعا بها لحل هذا النزاع فى صفر ٤٩٢ هـ / أوائل يناير ١٠٩٩ م(٢٦٦) مما أدى لاثارة السخط ثانية بين الجند على قادتهم بسبب الصراع بينهم عند كل مدينة يستولون عليها وهدد الجند البروفنساليون بالتخلى عن سيدهم ريموند(٢٦٧) . وأنتهى الأمر بخروج ريموند بقواته من المعرة فى ١٢ صفر ٤٩٢ هـ / ١٣ يناير ١٠٩٨ م متجها إلى بيت المقدس وأنضم إليه أغلبية الجند الصليبيين بعد أن ارتضوا به قائد عاما للجيوش الزاحفة إلى المدينة المقدسة تاركين وراءهم بوهيمند الذى فضل البقاء فى انطاكية(٢٦٨) لتحقيق حلمه الكبير فى تكوين امارة له ولاعقابه من

---

= أنطاكية فى شعبان عام ٤٩١ هـ / يوليو ١٠٩٨ م . أنظر :

Heyd, Commerce du levant, to. II, p. 134.

(٢٦٠) سميت بذلك نسبة للنعمان بن بشير أحد صحابة رسول الله ﷺ ، الذى مات ودفن هناك جنوب أسوار المدينة . راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٤ ص ٥٧٤ ، كذلك :

Le strange, palestine p. 95.

(٢٦١) كان الفرنج قد فشلوا فى إسقاطها فى شعبان ٤٩١ هـ / يوليو ١٠٩٨ . راجع :

Stevenson, The crusaders in the East, p. 30.

(٢٦٢) للاستزادة راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ ؛ العظيمى : تاريخ العظيمى ص ٣٧٣ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢ ، كذلك :

Cambridge Med. Hist. vol. V, p.p. 294-295; Grousset, The sum of history, p. 14; Hist. des croisades to I, p. 108; Chalandon, F., op. cit, p.p. 203-205.

راجع وجهة نظر د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ١٤٥ .

(٢٦٣) لمزيد من التفاصيل راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ١٣٦ ، ١٤٢ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٦٧ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر فى أخبار البحر الزاخر على هامش كتاب الكامل فى التاريخ ط . القاهرة ج ١٢ ص ١٣٥ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٦ . أيضا : سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٢٨١ — ٢٨٢ كذلك :

Fulcher of chartres ,Expedition, p.p. 112-113; Albert of Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 268.

(٢٦٤) العظيمى : تاريخ العظيمى : ص ٢٧٣ ، كذلك :

Fulcher of chartres, Expedition 112-113; Albert of Aix, R.H.C. Hist. occ. vol. IV, p. 268.

(٢٦٥) كان ريموند يرى فى المعرة مركز ثقل سياسى لمواجهة بوهيمند والنورمان فى أنطاكية.راجع :

Michaud, History of the crusades. Vol No. 1, p. 186.

(٢٦٦) قام بوهيمند بحملة منظمة لتكذيب مزاعم البروفنساليين وسيدهم ريموند فى أنطاكية .

(٢٦٧) Roger of wend over, Flowers of history, trans by Giles, A.G, London 1848, vol. I. p. 424, Cf. also, Mayer, the crusades, p. 58.

(٢٦٨) Roger of Wendover, Flowers, vol. I, p. p. 422-425; Cf. Also Michaud, History of the crusades, = vol. II, p. 186; Mayer, the crusades, p. 58.

بعده منها بذلك الصراع البروفنسالي النورمندي[٢٦٩] .

تحركت الحملة الصليبية متجهة نحو القدس بعد أن قضت ما يقرب من سنة ونصف في آسيا الصغرى وشمال الشام من أكتوبر ١٠٩٧ م الى ديسمبر ١٠٩٨ م ، وساروا من معرة النعمان إلى كفر طاب نحو الجنوب ومكثوا حتى ربيع أول ٤٩٢ هـ / يناير ١٠٩٩ م ولحق بهم هناك روبرت النورماندي ، وكان تقدم الصليبيين خاليا من أية مقاومة على وجه التقريب[٢٧٠] ، في حين بدأت رسل بعض الامارات الاسلامية الصغيرة تفد على الفرنج تخطب ودهم وتعرض عليهم الهدايا والمؤن والامدادات وتعلن خضوعها وولاءها[٢٧١] وذلك حفاظا على اماراتهم وسكانها من أعمال العنف والتخريب التي يقوم بها الفرنج ولعدم وجود قوة اسلامية كبرى تحميهم من الخطر الفرنجي[٢٧٢] .

وكان أول من قدم هذه العروض عز الدين أبو العساكر سلطان بن منقذ صاحب شيزر[٢٧٣] ( ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م ـــ ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م ) ، فوعد الفرنج بعدم اعتراض طريقهم عند اختراق اقليم شيزر ، وقدم لهم المساعدات والامدادات وأرسل اليهم بعض الأدلاء في ٢١ صفر عام ٤٩٢ هـ / ١٦ يناير ١٠٩٩ م لارشاد الجيش الصليبي في عبوره اقليم نهر العاصي ( الأورنت )[٢٧٤] .

---

= أيضا باركر : الحروب الصليبية ص ٤١ ، ويذكر ماير أن ريموند بذل مع الفرنج محاولات ضخمة لإقناعهم بتوليه قائدا عاما للحملة الصليبية حتى يواجه بوهيمند . راجع :

Mayer. The crusades, p. 85; Cf. also Cahen, Turkish, p. 113.

(٢٦٩) Cambridge Med. His. vol. V, p. 295, Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 186; Stevenson, The crusaders, p.p. 10-11.

وسوف تصبح مسألة أنطاكية هذه في إحداث تصدع خطير في العلاقات البيزنطية اللاتينية . راجع : نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة د . حسين مؤنس،محمود يوسف ص ٧١ ـــ ٧٢ .

(٢٧٠) Fulcher of chartres, op. cit, p. 122, note 5.

(٢٧١) Michaud, History of the crusades, vol. III, p. 362 appendix.

ويذكر القادة الفرنج في خطابهم الذي أرسلوه للغرب أن سكان هذه المدن عرضوا عليهم رهائن لضمان سير الصليبيين في المناطق المجاورة لمدنهم وأنهم تسابقوا ليخطبوا ودهم . راجع :

Michaud, History of crusades, p. 362.

(٢٧٢) راجع د . حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ص ٧٤ ؛ د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٢٨ ، وكذلك :

Mayer, The crusades. p. 58; Cahen, La Syrie du nord, p. 220.

(٢٧٣) شيزر : تسميها المصادر الصليبية لاريسا . وشيزر مدينة من أعمال حلب وتقع على ساحل نهر العاصي وهي ذات بساتين وبها قلعة حصينة . راجع القرماني : أخبار الدول ص ٤٥٧ . ويذكر ياقوت الحموي أنها مدينة قديمة فتحت على يد أبو عبيدة بن الجراح ، بعد سقوط حماه مباشرة عام ١٧ هـ / ٦٣٨ م . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ط . أوروبا ج ٣ ص ٣٥٣ . ويذكر ابن عساكر الدمشقي أن لشيزر قلعة تسمى عرف الديك يحميها العاصي من ثلاث جوانب ويمكن رؤيتها من بعد . راجع أقوال الجغرافيين والرحالة العرب في كتاب جي لسترنج : Le strange, Palestine, p.p. 533-534.

(٢٧٤) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ص ١٠٧ . ويلاحظ أن المصادر الإسلامية لم تورد هذه التفاصيل . ولكن ابن الأثير تذكر : « تراسلهم ابن منقذ صاحب شيزر فصالحهم عليها » ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٩٠ حوادث ٤٩٢ هـ . ويعارض ذلك ما ذهبت إليه مجموعة وثائق الشرق اللاتيني أن حاكم شيزر على نهر الأورنت أمر قومه باحراق الطرق التي سيمر بها =

وبذلك ضمن الفرنج تأييد واحدة من أشهر الأسر العربية فى شمال الشام أو على الأقل حيادها أثناء زحفهم نحو الجنوب خاصة وأن أسرة بنى منقذ فى شيزر كانت تسيطر على البلاد الواقعة مباشرة فى طريق الفرنج والتى تمتد من نهر العاصى إلى الساحل ولم يتبق أمامهم الا صداقة وحياد أسرة بنى عمار فى طرابلس[٢٧٥] .

وقد رأى ريموند الصنجيلى أن طبيعة البلاد الجغرافية ، والظروف السياسية المحيطة بهم تحتم عليهم اتخاذ طريق الساحل وذلك للحصول على مؤن وامدادات كافية من البحر عن طريق الأساطيل الايطالية التى أتخذت من موانىء اللاذقية والسويدية قواعد لها[٢٧٦] . ولكن هذا الرأى لم يرق فى عينى تانكريد بسبب تناقص عدد الجيش والمؤون كما أن اتخاذ هذا الطريق يستلزم منهم حصار عديد من الموانى مثل : جبلة ، أنطرطوس ، طرابلس ، بيروت ، صيدا ، صور ، وأخيرا عكا ، مما يتطلب بالتالى تضحيات كبيرة هم فى غنى عنها ، ولهذا اقترح تانكريد اتخاذ الطريق الداخلى ، توفير للوقت وتجنبا للمشاكل[٢٧٧] ، خاصة وأن الفرنج كانوا فى أشد الحاجة للبقية الباقية من جنودهم[٢٧٨] .

وتغلب رأى تانكريد فمروا بقلعة مصياف ( مصياف )[٢٧٩] فى ٢٥ صفر ٤٩٢ هـ / ٢٢ يناير ١٠٩٩ م فخرج اليهم أميرها العربى وعقد اتفاقية مع ريموند الصنجيلى زحفوا بعدها حتى وصلوا البقاع[٢٨٠] ( البقيعة ) «Coele Syria» وفزع سكان تلك المنطقة للاحتماء بحصن الأكراد[٢٨٢] أوقلعة الحصن الذى أسقطه الفرنج فى ٣ ربيع الأول عام ٤٩٢ هـ / يناير ١٠٩٩ م . وهناك أحتفل الفرنج بعيد ذكرى دخول المسيح الهيكل «Burification» ، ووفدت عليهم رسل جناح الدولة أمير حمص تحمل الهدايا والأموال لانقاذ امارته ، وأقل ما يوصف به هذا

---

= الفرنج وتحركها

A.O.L., to I, p. 191; Conder, Jerusalem, p. 48, Runciman, The first crusade, vol. I, p. 327.

(٢٧٥) ستيفن رانسيمان : نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٧٧ .

(٢٧٦) Heyd, Commerce, T. I, p. 134; Runciman, The first crusade, p. 327.

(٢٧٧) Rüncaiman, The First crusade, in setion p. p. 327-328.

(٢٧٨) Anna Commana, TheAlexiad , p. 285.

(٢٧٩) مصياف : أعظم قلاع الدعوة الإسماعيلية النزارية المعروفة بالحشيشية فى بلاد الشام ، ومركز دعوتهم الرئيسية هناك ، ويقع قرب طرابلس فى خلف جبل اللكام الشرقى على مسافة ثلاثة وثلاثين ميلا غرب حماه وتسعة أميال إلى الجنوب الشرقى من القدموس . راجع القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٦٣ ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٥٦ . أنظر مناقشة د . جوزيف نسيم حول تسميتها العديدة فى : العدوان الصليبى على بلاد الشام ، ط . ٢ إسكندرية ١٩٧١ ص ٢٤ ، ٢٢٢ ، ٢٣٩ ــ ٢٤١ ، ٢١٥ ــ ٢٤٨ ، ٣٢٣ والحواشى .

(٢٨٠) راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ١ ص ٦٩٩ ؛ ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٣ .

(٢٨١) Stevenson, Crusaders, p. 31; Runciman, First, p. 328.

(٢٨٢) معروف عند الفرنج باسم Krak des Chevaliers وكانت قلعة الأكراد تابعة لفرسان الاسبتارية ( فرسان القديس يوحنا ) وتميز بمناعتها وقوة أبراجها وخنادقها . استولى عليها الاسبتارية عام ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م واستعادها منهم الظاهر بيبرس عام ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م . راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٢٧٦ ؛ لويس شيخو . جولة فى الدولة العلوية ص ٤٩ .

الموقف من قبل أحد نواب السلاجقة ، أنه موقفا عزيا يدل على السلبية أمام الزحف الصليبي على الشام[٢٨٣] .

وسرعان ما نزل الفرنج على مدينة عرقة[٢٨٤] ، يوم الاثنين ٢٠ ربيع الأول ٤٩٢ هـ / ١٤ فبراير ١٠٩٩ م ، وهي مدينة صغيرة شمال غرب طرابلس وكانت تابعة لأمير طرابلس ، كما كانت في غاية الحصانة والمنعة . وأدرك الأمير فخر الملك أبو علي بن عمار أمير طرابلس[٢٨٥] ، الخطر الذي يهدد امارته وتوابعها ، ورأى سلامة امارته في مصانعة الفرنج ومداراتهم[٢٨٦] ، فأرسل بعوثه إلى ريموند يسأله الموادعة والارتباط معه برباط المودة وعقد اتفاقية مع الفرنج ، وأرسل اليهم العديد من الهدايا والأموال[٢٨٧] .

وما اشتهرت به طرابلس والجهات المجاورة لها من الرخاء والثراء كان له أثر كبير لدى السفراء الفرنج الذاهبين الى طرابلس[٢٨٨] ، مما أطمع هؤلاء السفراء بزيادة الجزية التي طلبوها من أمير طرابلس فصرحوا له بأن ريموند لا يقبل مسالمته الا إذا أعتنق النصرانية[٢٨٩] ، كما أنهم نصحوا سيدهم ريمند بممارسة نوع من الضغط على أمير طرابلس ، وذلك بالقيام بمظاهرة عسكرية أمام أحد حصون الامارة مما سيجبر أمير طرابلس على دفع أموال كثيرة اليهم ليشتري سلامته وسلامة مدينته وتوابعها[٢٩٠] . ولما كان ريموند في أشد الحاجة للأموال فقد صادفت هذه الفكرة القبول

---

(٢٨٣) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٠٩ . وأورد خبر جناح الدولة ابن الأثير بشكل مختصر ، الكامل ج ١٠ ص ١٩٠ .

(٢٨٤) عرقة : بلدة في شرقي طرابلس بينهما أثنى عشر ميلا وهي آخر عمل دمشق وتقع على سفح جبل بينها وبين البحر نحو ميل ، وكانت قد دمرت ونهبت على يد سيف الدولة الحمداني . راجع ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ص ١٥٣ ؛ ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ٦ ؛ أيضا راجع عنها :

Fulcher of chartres, Expedition, p. 112; Roger of wendover, Flowers of history., vol. I, p. 425.

(٢٨٥) هو سليل أسرة بني عمار في طرابلس وآخر أمرائها وهي أسرة تألقت في شهرتها ، مما كان لها من صلات حربية . وأول أمرائهم أبو طالب بن عمار قاضي طرابلس التي استبد بها ، وأستقل عن السيادة الفاطمية عام ٤٦٢ هـ . راجع ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٧٠ ؛ أبو الفدا : المختصر ، ط . القسطنطينية ١٢٨٦ هـ ، ج ٢ ص ١٩٨ ، أيضا أنظر ما كتبه أستاذنا الجليل الدكتور السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ، إسكندرية ١٩٦٧ ؛ مقال طرابلس الشام : تاريخها وآثارها في العصر الإسلامي ، فصله مستخرجه من مجلة كلية آداب الإسكندرية عدد ١٦ عام ١٩٦٣ ، ص ٥٢ .

(٢٨٦) Raymond of Aguilers, francorum, in R.H.C., Hist. occ. vol. II. p. 275.

(٢٨٧) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ص ١٠٩ . ويذكر المؤرخ أن ريموند رفض مسالمة ابن عمار إلا إذا اعتنق المسيحية . راجع :

Archives de L'orient datin, vol. 1, p. 194; Raymond of Aguilers, francorum in R.H.C., Hist, vol. III. p. 275.

(٢٨٨) تذكر المراجع أن رسل ريموند من الفرنج شاهدوا قصب السكر لأول مرة في طرابلس وذا قوة ، وأعجبهم . راجع : جورجي بني : تاريخ سوريا ، ص ٣٨٠ ، كذلك :

Runciman, The first crusade, in setton (ed.,) p. 328.

(٢٨٩) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ص ١٠٩ .

(٢٩٠) Runciman, The first crusade in setton (ed.,) vol. I, p. 328.

والترحيب من جانبه ، فقرر مهاجمة مدينة عرقه ، الواقعة على بعد خمسة عشر ميلا من طرابلس ، ولها أهمية كبرى نظرا لوقوعها وسط اقليم غنى بمياهه وثروته الطبيعية[٢٩١] .

وسرعان ما حاصر غالبية الجيش الصليبي مدينة عرقه فى ربيع أول ٤٩٢ هـ / فبراير ١٠٩٩ م[٢٩٢] كما اتجه بقية الجيش بقيادة ريموند بيليه «Pilat» فيكونت توربن نحو انطرطوس[٢٩٣] ، ( طرطوس الحالية ) ، وهى ميناء صغير على البحر تابع لامارة طرابلس وأسقطوها عن طريق خدعة فى ٢٢ ربيع أول ٤٩٢ هـ / ١٦ فبراير ١٠٩٩ م[٢٩٤] ومما سهل سقوط أنطرطوس اتصالها بالبحر وسهولة حصولها على المدد من الأساطيل الايطالية وبخاصه الجنوية التى ساعدت الفرنج على حصار بعض المدن الطرابلسية[٢٩٥] كما ساعد أيضا على سهولة اسقاط مدينة مرقية الواقعة على بعد أميال منها[٢٩٦] .

وسرعان ما اتجه جودفرى وروبرت أوف فلاندرز لحصار مدينة جبلة وكانت تابعة لبنى عمار فى طرابلس وكان قد استقل بها القاضى أبو محمود عبد الله بن منصور عن بنى عمار[٢٩٧] وبدأوا فى حصارها فى جمادى الأولى ٤٩٢ هـ / مارس ١٠٩٩ م وحاول قاضيها ابن منصور اغراء الفرنج بالهدايا والأموال لترك حصارها ولكنه أخفق .

وفى ذلك الوقت كان ريموند الصنجيلى يواجه موقفا حرجا أمام عرقه بعد مرور شهران على حصار المدينة دون اسقاطها[٢٩٨] ، نظرا لقوة استحكاماتها وقوة دفاع حاميتها بالاضافة إلى

---

(٢٩١) Grousset, R., Hist. des croisades, To. I, p. p. 132-133.

(٢٩٢) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٠ ، أيضا :
Raymond of Aguilers, R.H.C. Hist. occ., vol. III, Chap XIV-XV, p. 275, Fulcher of chartres, Expedition, p. 113. Roger of wendover, Flowers, vol. I, p. 425.

(٢٩٣) طرطوس : بلدة على سواحل الشام وهى من أعمال طرابلس ، تطل على البحر شرق عرقه ، ولها برجان حصينان كالقلعتين فتحها المسلمون على يد عبادة بن الصامت عام ١٧ هـ / ٦٣٨ م بعد فتح اللاذقية وجبلة ، وكانت حصنا هجره أهله وأصابه الخراب فظل مهجورا لسنوات حتى بنى معاوية بن أبى سفيان أنطرطوس وحصنها وأقطع المقاتلة بها القطائع وكذلك فعل بمرقية وبلنياس . راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ١ ص ٣٨٨ ؛ القرمانى : أخبار الدول ص ٤٢٥ ، كذلك :
Le strange, Palestine, p. 394.

(٢٩٤) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٠

(٢٩٥) Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ. vol. III, p. 270.

(٢٩٦) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ص ١١٠ — ١١١ . ويذكر ألبرت دآكس أن بوهيمند ترك القادة الفرنج عند اللاذقية وكر راجعا إلى أنطاكية خشية حدوث مؤامرة ضده هناك . راجع :
Albert of Aix, R.H.C., Hist. occ. vol. VI, p. 453; Fulcher of charter, Expedition, p. 13.
وتذكر بعض المراجع الفرنجية أن انتصارات الفرنج أثارت غيرة الأمراء القابعين فى أنطاكية وأغرتهم باللحاق بريموند لمشاركته فى الغنائم والأسلاب . راجع :
Mayer, H., The crusades, p. 59, stevenson, Crusad. p. 32; Runciman, first., in setton (ed.) vol. I, p. 328.

(٢٩٧) William of tyre, deeds, vol. I, p. 321.

(٢٩٨) يذكر فوشيه شارتر أن مدة الحصار كانت خمسة أسابيع Fulcher of chartres, Expedition, p. 113.

حاجة ريموند لجيش كاف لتطويقها من جميع الجهات ، ونقص آلات الحصار ، رغم تحذير تانكرد وغيره ، الا أن ريموند لم يكن مستعد للتخلي عن حصار عرقة حتى لا يظهر ضعفه أمام أمير طرابلس[٢٩٩] .

واستنجد ريموند بجودفرى وروبرت لمساعدته خاصة بعد أن ظهر الارجاف بشائعات كاذبة كان هدفها انزال الرعب بالفرنج لترك حصار عرقة ، ومؤداها أن خليفة بغداد والسلطان بركياروق أعلنا الجهاد المقدس ضد الفرنج وأنهم غادروا ديارهم على رأس جيش لجب قاصدين طرابلس ثم عرقه لهزيمة الفرنج[٣٠٠] .

ولم تذكر المصادر الاسلامية المعاصرة أو المتأخرة شيئا عن هذه الشائعات . كما أن المصادر اللاتينية المعاصرة كالمجهول وفوشيه شارتر لم يحددا في صراحة هذه الشائعات ولكن المصادر الأخرى كوليم الصورى وروجر أوف ويندوفر اتهموا في صراحة ريموند الصنجيلي بأنه المروج الحقيقي لتلك الشائعات[٣٠١] .

وما ذكره وليم الصورى وروجر أوف ويندوفر — في رأيي — ينتقص كثيرا من حق ريموند الصنجيلي ، ويتميز بقسوة حكم المؤرخين عليه ، خاصة بعد أن رفض الفرنج مطالبه التي سبق عرضها عليهم ، وأرجح أن المصدر الأساسي لهذه الشائعات هم المسلمين أنفسهم ، ربما يكون أمير جبلة ابن منصور لالقاء الرعب في قلوب القادة المحاصرين لمدينته كي يرجعوا عنها أو يحصل معهم لشروط أفضل من شروطه السابقة ، أو أن الذي أطلقها أمير طرابلس ابن عمار حماية لنفسه ومدينته وأعمالها من الخطر الصليبي ، بعد رفضهم شروطه التي سبق عرضها عليهم ولاجبارهم على فض حصار عرقه .

وصدق ريموند هذه الشائعات ، فأرسل وفدا على رأسه اسقف البارة ومعه رسالة يتوسل فيها إلى جودفرى وروبرت بترك حصار جبلة ، وأن يسرعوا لمعاونته في اسقاط عرقه[٣٠٢] . ووافق القادة الفرنج على انهاء حصار جبلة ، وعقد اتفاق مع أميرها أبي محمود بن منصور تعهد فيه بدفع جزية من المال والخيل ، ساروا بعدها نحو عرقة تلبية لنداء ريموند ، ولحقوا بجيشه في جمادى الأولى ٤٩٢ هـ / مارس ١٠٩٩ م[٣٠٣] . ورغم أدراك القادة الفرنج بكذب هذه الشائعات[٣٠٤] ، جمعوا كل قواتهم

---

(٢٩٩) Lamb, H., The crusaders, Iron men and saints, London 1931, p. 181; Runciman, The First crusade, vol. I, p. 328.

ويذكر رنسيمان أن جنود ريموند لم يبذلوا جهدا كبيرا لحصار المدينة بسبب حياة الترف ، والرغد التي كانت سائدة في المعسكر الصليبي. Runciman, Ibid, p. 328, lamb, Crusaders, p. 182.

(٣٠٠) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١١ ، كذلك : Fulcher of chartres, Expedition, p. 182.

(٣٠١) William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 323-323; Roger of Wendover, Flower, vol. I, p. 426.

(٣٠٢) Fulcher of chartres, Expedition p. 113; William of tyre, deeds, vol. I, p. 322.

(٣٠٣) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١١ .

(٣٠٤) Raymond of Aguilers, francorum, in R.H.C., Hist. occ., vol. III, p. 323.

أمام عرقه في ١٩ ربيع ثان ٤٩٢ هـ / ١٤ مارس ١٠٩٩ م ، وشنوا موجات متتالية من الهجمات ، انتهت بالفشل ومصرع الكثير منهم[٣٠٥] ، ورغم ذلك استمروا يحاصرونها أربعة أشهر بلا جدوى ، وعبر عن ذلك ابن الأثير بقوله :

« وحصروها ( عرقة ) أربعة اشهر ونقبوا سورها عدة نقوب فلم يقدروا عليها[٣٠٦] » .

وسرعان ما دب الخلاف التقليدى بين القادة الفرنج حول استمرار حصار عرقة ففى حين عارض جودفرى استمرار الحصار ، ومواصلة السير نحو القدس[٣٠٧] رفض ريموند ورأى جودفرى ومعه تانكريد . فمجريات الأحداث تثبت أن ريموند كان يحاول انجاز شيء لنفسه اذ كان يتطلع لتأسيس امارة على شواطيء شمال الشام مثلما فعل بوهيمند فى أنطاكية[٣٠٨] ، وأن يجعل من نفسه سيدا لا ينازع على مدينة طرابلس وتوابعها كعرقة خاصة وقد مر به العمر ويأمل فى احتلال مدينة قوية يأوى فيها زوجته الشابة وأتباعه ، ورأى أن طرابلس وتوابعها تذكره بمنطقة آرل فى مقاطعة بروفانس[٣٠٩] . هذا فى الوقت الذى توالت فيه رسل ابن عمار أمير طرابلس تعرض الهدايا والأموال مقابل فض حصار عرقه ، وهو الأمر الذى أدهش ريموند ، وجعله يصمم على تحقيق آماله[٣١٠] .

والثابت أن ريموند أحس بندم كبير لاستعانته بهذين الضيفين الثقيلين جودفرى وروبرت ، اللذان نافساه على زعامة الحملة الأولى ، والتى أعترف بها تانكريد نفسه مقابل مبلغ كبير من المال وكأن حضور جودفرى وروبرت أضر كثيرا بمركز وأحلام ريموند[٣١١] . ويذكر المؤرخ اللاتينى وليم الصورى[٣١٢] أن أمير طرابلس عندما علم بهذا الخلاف بين قادة الجيش الفرنجى ، عمل على

---

(٣٠٥) مثل أنسلم أسقف ريمونت ، وتيس أسقفة رير ، لسيس وريموند الصنجيل جولودى بالأزون . راجع المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ص ١١٢ . ولمزيد من التفاصيل راجع :

Fulcher of chartres, Expedition, p. 113; William of tyre, deeds, vol. I, p. 322.

ويذكر الأستاذ ان بوكوك وكرى أن بونز أوف بلازون هذا قد اشترك مع المؤرخ ريموند أوف أجيل فى كتابه مؤلفه عن « تاريخ الحملة الصليبية الأولى » . راجع :

Babcock & Krey (ed.) deeds, p.323, F.23.

(٣٠٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٩٠ . ويذكر مؤرخ أعمال الفرنجة أن الحصار استمر ثلاثة شهور فقط . راجع المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٢ .

(٣٠٧) Fulcher of chartres, Expedit., p. 114; Raymond of Aguilers, francorum, in R.H.C. Hist. occ. vol. III, p. 78.

(٣٠٨) Duggan, A., The story of the crusades. London 1963. p. 73; Mayer, The crusades. p. 59; Lamb, H., The crusaders, p. 181; Stevenson, Crusaders, p. 32.

(٣٠٩) Lamb, H. The crusaders, p. 181.

(٣١٠) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٢ ، كذلك :

William of Tyre, deeds, vol. I, p. 328; Roger of wendover, Flowers, vol. I, p. 426.

(٣١١) Runciman, The first crusade, in setton (ed.,) vol. I, p. 329.

(٣١٢) لمزيد من التفاصيل عن ذلك راجع :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 324.

أنظر آراء بعض المؤرخين الحديثين عن ذلك :

Duggan, The story, I p. 73; César Cantu, Histoire universalle, To. X, p. 38.

استغلال هذا الموقف لصالحه فبعد أن كان يغرى القادة بالهدايا والأموال تراجع عن موقفه وبدأ يعد العدة لمواجهة الصليبيين ومحاربتهم[٣١٣] . وبينما كان الفرنج على خلافهم هذا أمام عرقه فوجئوا بعودة البعثة الصليبية التى كانوا أرسلوها ردا على سفارة الوزير الأفضل بن بدر الجمالى اليهم وهم أمام أنطاكية فى ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م ، حيث رافقت السفارة الفاطمية عائدة الى القاهرة للتباحث مع الأفضل حول عقد التحالف بين الطرفين ، وتذكر المصادر الفرنجية[٣١٤] — دون ان تذكر السبب الحقيقى — عن قيام الأفضل باحتجاز السفارة الفرنجية[٣١٥] لمدة عام كامل ، وأنه بعد سماعه بانتصارات الفرنج بالشام وبداية زحفهم على أملاكه هناك ، أطلق سراح البعثة الفرنجية ، وأرسل معها سفارة فاطمية تحمل بعض مطالب وشروط معينة لعرضها على الفرنج . وتروى تلك المصادر فرحة الصليبيين لعودة اخوانهم ، واستنكارهم لموقف الوزير الفاطمى عند سماعهم لقصة أسرهم واحتجازهم بالقاهرة . وقد وصلت كلتا السفارتان فى ٢٠ جمادى الأولى ٤٩٢ هـ / ١٠ أبريل ١٠٩٩ م ، للمعسكر الصليبى المقام أمام عرقه[٣١٦] ، وتذكر نفس المصادر أن السفارة الفاطمية الثانية التى أرسلها الوزير الأفضل ابن بدر الجمالى ، كانت تحمل الهدايا والأموال الكثيرة لتقديمها لكبار قادة الجيش الصليبى ، كل حسب مكانته ، فى محاولة لاسترضاء هؤلاء القادة ليضمن الأفضل تحالفه معهم .

وطلب السفراء الفاطميون عقد اجتماع مع القادة اللاتين لتقديم ما يحملون من شروط وعروض لاتمام التسوية وعقد السلام بين الطرفين . وفى الاجتماع الذى عقد بعد ذلك ، أعلن المبعوثون الفاطميون أن سيدهم الوزير الأفضل استطاع استرداد بيت المقدس وكل فلسطين من أيدى الأتراك السلاجقة أعدائه التقليديين ، وأعلنوا أن وزيرهم على استعداد للاعتراف بكل فتوحاتهم الحالية شمال الشام ان لم يتقدموا أبعد من ذلك ، وأن يعدلوا عن فكرة الزحف إلى بيت المقدس وفلسطين ، وأنهى السفراء كلامهم باستعداد وزيرهم لفتح طريق الحج إلى الأماكن المقدسة ، وأن أبواب بيت المقدس ستفتح فقط للحجاج العزل من السلاح ، وألا يتعدى مجموع الحجاج الداخلين ثلاثمائة حاج[٣١٧] .

---

(٣١٣) William of tyre, deeds, vol. I, p. 328.

(٣١٤) Historia belli sacri, R.H.C., Hist. occ. Vol. III, p. 212, Raymond of Agulers, R.H.C., Hist. occ. p. 277; William of tyre, deeds, vol. I, p. 325; in R.H.C., Hist. occ. vol, I, p. 305.
ويذكر الأستاذ ميشو أن الأفضل أظهر قلقا وتخوفا كبيرين بعد سماعه الانتصارات المتتالية السريعة التى أحرزها الفرنج بشمال الشام ، فأرسل هذه السفارة الثانية لمحاولة إسترضاء الفرنج . راجع :
Michaud, History of the crusades. vol. I, p. 193.

(٣١٥) Archives de L'orient latins, to I, p. 193.

(٣١٦) Archives de L'orient latin, to. I, p. 193.
أنظر ما أورده ميشو عن هدايا السفراء الفواطم . Michaud, History, vol. I, p. 195.
أيضا مكسيموس مورولد : تاريخ الحروب المقدسة ، ص ١٤٧ .

(٣١٧) Historia belli sacri, in R.H.C., His. occ. vol. III, p. 212.
= Raymond of Agulers, R.H.C., Hist. occ. vol. III, p. 277.

ولكن هذه العروض رفضت فى الحال ، اذ أدرك القادة اللاتين أن هذه العروض تبعدهم عن هدفهم الأسمى ، وتنسيهم كل ما عانوه من أهوال وكوارث رهيبة أثناء حصارهم أنطاكية ، وحتى بعد استيلائهم عليها ، وأثارت هذه الشروط سخط وغضب الفرنج ، بل وأعتبروها اهانة لهم[٣١٨]، وكانت اجابتهم هذه المرة قاطعة وواضحة ، اذ أعلنوا للسفراء الفاطميين أنهم مصممون على الذهاب إلى الأراضى المقدسة بكل عساكرهم وليس فى مجموعات صغيرة ، وهددوا بأنهم سوف يسيرون بعساكرهم ضد الخليفة الفاطمى ، حتى يبلغوا شاطىء نهر النيل نفسه[٣١٩].

وبذلك كان رد الصليبيين صريحا وقاطعا فى هذه المرة بعد أن تمكنوا من التغلب على العديد من المصاعب والعقبات التى واجهتهم بعد سقوط أنطاكية التى كانت بمثابة عقبة كؤود ، وقيام الامارات والمدن الشامية على طول الساحل الشامى وفى الداخل فى خطب ودهم بالتحالف معهم فهم ليسوا بحاجة للتحالف مع أية قوى أخرى ولهذا كان الرد الصليبى بوجه عام ، يتميز بغطرسة وغرور وضيق كبيرين .

وعلى الرغم من أن المصادر الاسلامية ، لم تخبرنا عن الأسباب التى حدت بالأفضل بن بدر الجمالى لارسال سفارة ثانية للفرنج أمام عرقه الا أن المؤرخ وليم الصورى أشار إلى أن سبب تغير هذا الموقف من جانب الوزير الأفضل يرجع الى رد الفعل من جانب الفاطميين ، نتيجة للتطورات التى ترتبت على انتصار الصليبيين فى معركة انطاكية ، واخضاعهم المدن الساحلية والداخلية التى مروا بها أثناء تقدمهم نحو الشمال وذلك بعد الهزائم المتتالية التى منى بها الأتراك السلاجقة مما أدى لانهيار مقاومتهم ، سواء فى آسيا الصغرى أو الشام ، وبالتالى أضعف الأتراك السلاجقة مما أفسح المجال ليصبح اللاتين القوة الجديدة على مسرح الأحداث السياسية فى الشرق الاسلامى ، وكان عليهم بعد ذلك مواجهة القوة الوحيدة التى بقيت فى المنطقة لتدافع عنها ، وهى قوة الفاطميين المتمركزة فى الجنوب خاصة بعد استرجاعهم بيت المقدس وفلسطين[٣٢٠] .

وقد أدرك الفاطميون هذه الحقيقة ، وظهر لهم مدى قوة الفرنج بعد تحطيم قوة أعدائهم التقليديين ( الأتراك ) ، والتى كان الفاطميون يخشون منها ، ولهذا هرع الفاطميون ووزيرهم الأفضل لمحالفة الصليبيين بعد أن رأوا ميزان القوى يميل لصالحهم[٣٢١] .

وعلى الرغم مما يبدو فى هذا الرأى ، لأول وهلة ، بعض الحقيقة ، الا أننا سوف نتوقف قليلا لالقاء نظرة سريعة وتحليل لأهم الآراء والروايات التى تعرضت لهذه المفاوضات الفاطمية الصليبية

---

تـ ا ويلاحظ أن هذه الشروط هى نفسها التى سبق أن عرضها الفاطميون على الفرنج فى سفارتهم الأولى أمام أنطاكية راجع
Archives de L'orient latin, To. I, p. 194; William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 305-306.

(٣١٨) Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 195; Sauley, nismatique des croisades, Paris 1890, p. 57.

(٣١٩) William of tyre, deeds, vol. I, p. 326; in R.H.C., Hist. occ. vol. I, p. 306.

(٣٢٠) William of tyre, deeds, vol. I, p. 326.

(٣٢١) William of tyre, deeds, vol. I, p. 326.

والسفارات التى تبودلت بين الأثنين منذ وصول الصليبيين إلى الشام عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م حتى وقوفهم أمام عرقه عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م .

ان موضوع المفاوضات التى دارت بين الصليبيين والوزير الأفضل بن بدر الجمالى والسفارات التى تم تبادلها بينهما منذ وفود الفرنج إلى الشام بما يقرب من عام بأكمله ( ٤٩١ هـ ـــ ١٠٩٨ م / ٤٩٢ هـ ـــ ١٠٩٩ م ) ، وذلك لعقد تحالف أو اتفاق ثنائى بين الطرفين ، لم تتعرض له الأصول أو المصادر العربية والاسلامية ، حتى المصادر السنية نفسها ، بكلمة واحدة على الاطلاق ، وربما يرجع هذا للسرية التى أحاطت بتلك المفاوضات ، كما أشار بذلك صراحة وليم الصورى[٣٢٢] ، فلم تذكر المفاوضات سوى المصادر والوثائق اللاتينية المعاصرة ، وشهود العيان من المؤرخين اللاتين المرافقين للحملة[٣٢٣] ، أو المتأخرين عنها[٣٢٤] . فمؤرخ مثل فوشيه أوف شارتر فى كتابه « تاريخ الحملة الذاهبة إلى بيت المقدس » ، وهو مصدرنا اللاتينى الرئيسى لتلك الفترة وهذه الأحداث ، وهو المؤرخ المعاصر الوحيد الذى كان مرافقا للحملة الأولى وشاهد عيان لأحداثها ، لم يشر اطلاقا لحضور هؤلاء السفراء الفاطميين ، أو للمفاوضات التى داوت بين الفاطميين والصليبيين سواء أمام أنطاكية أو أمام عرقة . والواقع أن فوشيه شارتر لم يكن حاضرا لرؤية أحداث الحملة الصليبية الأولى حتى سقوط بيت المقدس فى أيدى الفرنج ( شعبان ٤٩٢ هـ / يوليو ١٠٩٩ م ) ، اذ كان يرافق سيده بلدوين دى بويون فى الرها بعد أن أسس الأخير امارة لنفسه هناك ، الا أن فوشيه سجل مشاهداته منذ سقوط أنطاكية حتى وصل الفرنج إلى القدس ، نقلا عن بعض المؤرخين وشهود العيان مثل المؤرخ المجهول لأعمال الفرنجة وريمون أجيل . ونحن لا نعرف ما اذا كان أغفل عن عمد أو بدون قصد روايات هؤلاء المؤرخين عن السفارات أو المفاوضات بين الصليبيين والفاطميين .

ولهذا يجب أن نتناول هذه المفاوضات بشيء كبير من الحذر والحيطة وخاصة وأنه لا توجد اشارة اسلامية صريحة لمثل هذه المفاوضات . وسوف نسبق الأحداث قليلا ، ونذكر أن المصادر الاسلامية ، أشارت اشارة ذات مغزى لهذا الأمر قبل حدوث موقعة عسقلان الكبرى عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م عن ارسال الأفضل شاهنشاه سفارة إلى الفرنج تنكر عليهم اسقاط مدينة بيت المقدس ، وأرتكابهم تلك المذبحة المروعة داخلها ويتهددهم بالقتال[٣٢٥] ، وقد يشير ذلك لحدوث تبادل السفراء قبل ذلك بين الجانبين ولكن هذه النصوص ليست دليلا قويا على انه دارت

---

(٣٢٢) William of Tyre, deeds, vol. I, p. 326.

(٣٢٣) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٥٩ ، ٦٣ ، أيضا :
Raymond of Agullers, R.H.C., Hist. occ. vol. III, p.p. 247; Archives de L'orient latin to. I, p.p. 162-163.

(٣٢٤) William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 223-224, 325-326.

(٣٢٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ط . ليدن ١٨٦٤ ، ج ١٠ ص ١٩٢ ؛ الأزدي : أخبار الدول المنقطعة ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٥٧٣ تاريخ ، ورقة ٧٠ .

مفاوضات بين الفريقين خاصة وأن هذه المصادر لم تتحدث أصلا ، قبل سقوط بيت المقدس ووقوع معركة عسقلان عن هذه المفاوضات وانما انفردت الروايات الفرنجية اللاتينية فقط بذكر هذه السفارات وتلك المفاوضات .

وعلى الرغم من ان غالبية المراجع الحديثة ، أتهمت الأفضل بن بدر الجمالى بجهله وعدم ادراكه حقيقة الحركة الصليبية ، وطبيعتها وأغراضها الحقيقية ، وأنه استغل هزائم الاتراك السلاجقة وإنشغالهم فى شمال الشام ، نتيجة هزائمهم على يد الصليبيين لتحقيق أغراضه فى التحالف مع الصليبيين وتقسيم الشام بينهما(٣٢٦) ، الا أن هذه الآراء تتحامل كثيرا على الأفضل والفاطميين ، فعندما عرض الأفضل على الفرنج الاعتراف بفتوحاتهم شمال الشام وآسيا الصغرى(٣٢٧) ، وكان يأمل من وراء استقرار الصليبيين فى هذه المناطق ، أن يكونوا قوة ذات ثقل سياسى متوازن مع السلاجقة أو يكونوا بمثابة قوة حاجزة أو مانعة «Buffer Power» بينه وبين السلاجقة خاصة وأن الفاطميين لم تكن لديهم أملاك أو أدعاءات أو أطماع هناك .

أما الادعاء أو الزعم بأن الأفضل حاول التفاوض مع الفرنج على تقسيم الشمال مناصفة بينهما فقد كُذب بحقيقة مؤداها قيام الأفضل بسجن المبعوثين الفرنج الذين رافقوا السفارة الفاطمية الأولى فى العودة إلى القاهرة(٣٢٨) ، كما أن الأقتراح الذى حملته السفارة الفرنجية للقاهرة الخاص بانسحاب المصريين من الأماكن المقدسة ، وتحديد حدودهم بشبه جزيرة سيناء كمطلب معقول وأساسى لعقد السلام بين الطرفين(٣٢٩) ، فقد قوبل بالرفض الشديد من جانب الأفضل ، الذى لم يكن ليستطيع أن يواصل المفاوضات مع الفرنج بشكل طيب بدون وجود الأماكن المقدسة تحت سيطرته. كما أن الأفضل سرعان ما أتضح له من عروض الصليبيين أنهم لا يريدون اتفاقا مع الخلافة الفاطمية ، كما أن الوفد الصليبى الصغير كان لا يملك شيئا ، وليست لديه سلطات كاملة أو مطلقة للتفاوض نهائيا أو مؤقتا وأن الظروف السياسية الحالية تحتم عليه جنى ثمار انهيار المقاومة السلجوقية ضد الصليبيين قبل فوات الأوان ولهذا وجدنا الأفضل يزحف بجيوشه على فلسطين ويقوم بانتزاع بيت المقدس من أيدى حاميتها السلجوقية فى شوال عام ٤٩١ هـ / أغسطس ١٠٩٨ م ، وسرعان ما أستولى على فلسطين كلها بحيث صار الخط الممتد من شمال بيروت على طول مجرى نهر العاصى هو الحد الفاصل بين الفاطميين والفرنج .

ويذكر المؤرخ الألمانى الفريد دوجان «Duggan, A.» أن أحدا من الجانبين الفاطمى والصليبى لم يفسح بذلك الطريق للتفاوض وتمسك كل منهما بموقفه الأمر الذى أدى فى النهاية

---

(٣٢٦) د . عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ط . إسكندرية ١٩٦٧ ، ص ٨٤ ـ ٨٥ ؛ د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٣٦ ، أيضا : Mayer, The Crusades, p. 59.

(٣٢٧) Raymond of Aguilers, R.M.E., Hist, occ. vol. III, p.p. 247-277.

(٣٢٨) Gibb, Sir H., The caliphate and the Arab states, in setton, (ed.) vol. I, p. 95.

(٣٢٩) Duggan, A., The story, p. 72.

إلى فشل المفاوضات وانهيارها[٣٣٠] .

أما قول المؤرخين الحديثين بأن الأفضل بن بدر الجمالى كان يجهل طبيعة الحركة الصليبية ولم يدرك أن كل ما عاناه الفرنج من مصاعب وكوارث من أجل الاستيلاء على بيت المقدس فقد أدحض بذلك العرض الذى أكده فى سفارتيه للفرنج أمام انطاكية وأمام عرقه ، فكان الأفضل يعلم تماما الغرض الحقيقى للحملة الصليبية ، وهو الاستيلاء على القدس ، والا فبماذا يفسر لنا عرضه بالسماح لمجموعات معينة من الحجاج المسيحيين بدخول القدس ، وأن يكونوا عزل من السلاح ، وتقديم كافة التسهيلات لهم . وبماذا يفسر لنا قيام الأفضل بتحصين مدينة بيت المقدس وتقويتها ووضع حامية قوية بها ، بعد استرجاعها من أيدى الأراتقة عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م ، والتى سوف تدافع عنها حاميتها ببسالة منقطعة النظير باعتراف المصادر اللاتينية نفسها[٣٣١] . ويجب أن نعترف أن كلا من السفارتين الفاطميتين لم تأت بالنتيجة المرجوة التى أرادها الأفضل[٣٣٢] ذلك أن الصليبيين كانت وجهتهم القدس وأمتلاكها ، فاستغلوا فرصة ارسال الأفضل لهذه السفارات أحسن استغلال وذلك فى مهارة سياسية واضحة وتبينوا فيها مدى التفكك السائد بين حكام المسلمين ، فأرسلوا إلى دقاق صاحب دمشق ورضوان صاحب حلب ، يطلبون منهما عدم التدخل ، وأنه لا مطامع للفرنج فى أملاكهما[٣٣٣]، بحيث سار الفرنج عن طريق الساحل وقد آمنوا تدخل أمراء المسلمين أو اعاقة تقدمهم نحو الأراضى المقدسة أو حيادهم كما أن هذه السفارات أكسبتهم وضعا سياسيا معترفا به فى الشرق الأدنى الاسلامى وكان على الأفضل أن يدرك ذلك بعد أن وصلته هذه المرة الاجابة القاطعة والحاسمة على آخر سفارة فاطمية أرسلها للصليبيين أمام مدينة عرقه .

---

(٣٣٠) Duggan, The story, p. 72.

(٣٣١) يذكر المؤرخ الفرنسى ميشو أن الأفضل كان يمهج نفس سياسة الامبراطور البيزنطى اليكسيس كومنين ، فكان يتفاوض مع الأتراك السلاجقة واللاتين فى آن واحد ، وان كان يكن لهما كراهية شديدة ، مكرها الفرنج لأنهم أعداء الإسلام وكان يكره الأتراك لأنهم طردوا الفاطميين من غالبية أملاكهم فى الشام وللخلاف المذهبى بينهما . راجع :
Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 194.

(٣٣٢) ويذكر هارولد لامب أن النتيجة الوحيدة التى أحرزها سفارة الأفضل الفاطمية إلى الفرنج أمام أنطاكية أنها مكنت الخليفة الفاطمى ووزيره من إرسال جيش قوى إلى فلسطين استعاد به مدينة بيت المقدس من أيدى الأراتقة . راجع :
Lamb, The crusaders, p. 143.

(٣٣٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٨٦ ؛ العينى : عقد الجمان ، مخطوط دار ، ج ١٠ قسم ٢ لوحات ٥٠٢ — ٥٠٣ .

# الفصل الثانى

## موقف الفاطميين من الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام

### ( ٤٩١ ــ ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ ــ ١٠٩٩ م )

﴿ لتبلوُنَّ فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعنَّ من الذين أُوتوا الكتابَ من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك مِن عزم الأمور ﴾ [ آل عمران : ١٨٦ ]

# الفصل الثانى

على أثر مغادرة السفارة الفاطمية الثانية لمعسكر الفرنج أمام مدينة عرقة[1] ، فوجىء الفرنج بوصول سفارة موفدة من الامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين فى ربيع ثان ٤٩٢ هـ / ١٠ أبريل ١٠٩٩ م حاملة رسالة إلى قادة الحملة يذكرهم فيها باتفاقية القسطنطينية عام ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م ، بين الطرفين ويعبر لهم عن غضبه وسخطه من نكث الفرنج لعهودهم له وعلى رأسهم بوهيمند الذى استأثر بانطاكية ، ورفض إعادتها للامبراطور البيزنطى ، وقد أفصح الكسيس عن استعداده لمشاركة الفرنج فى الحملة الصليبية شريطة ارجاع انطاكية لحوزة البيزنطيين ويتحمل عنهم كل أعباء الحرب ونفقاتها وانتظاره حتى يلحق بهم فى أوائل شهر يوليو ( فى عيد القديس يوحنا )[2] من نفس عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م .

ويبدو لأول وهلة أن عرض الامبراطور البيزنطى كان سيؤدى لإنشاء جبهة مسيحية قوية فى الشرق والغرب تحت رايته ، وتكوين قيادة عليا يتزعمها الامبراطور أيضا[3] ، ولكن عرض الامبراطور البيزنطى الكسيس أثار خلافا شديدا بين القادة الفرنج[4] ، فبينما رحب كونت تولوز بفكرة انتظار الامبراطور ورأى فى ذلك فرصة ذهبية لتوطيد زعامته على الحملة الصليبية بمساعدة الامبراطور الكسيس من ناحية[5] ، فضلا عن استغلال الحملة فى فترة مجىء الامبراطور البيزنطى لفتح مدينة عرقة واتخاذها نواة — بجانب انطرطوس — لإمارة يقيمها بطرابلس[6] .

ولكن غالبية القادة الفرنج الذين لم يثقوا على الإطلاق فى دعوة الامبراطور البيزنطى وعلى رأسهم جودفرى أوف بوايون ، فقد سخروا من هذه الاقتراحات[7] ، وعارضوا فكرة انتظار

---

(١) هناك آراء ترى أن رسل الامبراطور البيزنطى كومنين وصلوا قبل سفارة الفواطم الثانية للفرنج أمام عرقة ، راجع :
Michaud, History of the crusades, London 1852, Vol. 1, p. 195; Runci man, S., The first crusade, in setton (ed.), Vol. 1, p. 329.

(٢) Anna comnena, Alexiad, London 1929, p.p. 326-327, in R.H.C., hist occ. Vol. I, p. 307

(٣) Runciman, S., The first crusade, in setton (ed.), Vol. I, p. 329.

ورغم أن مؤرخ حملة كونت سان جيل ، كان معروفا بتعصبه الشديد ضد اللاتين وكراهيته للبيزنطيين ، إلا أنه رأى فى مجىء الامبراطور فرصة طيبة لتوحيد القادة المتنازعين ، أنظر :
Raymond of Aguilers, francorum, in R.H.C., hist. occ., Vol. III, p. 267

(٤) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 327.

(٥) Chalandon, F: Alexis comnène, p.p. 214-215.

(٦) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 329; CF. also Cahen, C., La Syrie du Nord, Paris 1940, p. 221; Stevenson, crusaders, p. 33; Lamb, H., H.
The crusaders, London 1931, p. 143.

Lamb, H. The crusaders, p. 183.

الامبراطور ونادوا بالزحف مباشرة نحو بيت المقدس ، خاصة وأن عروض الامبراطور كومنين وصلت بعد فوات الأوان ، فقد عزز بوهيمند النورمندى موقفه ، ورفض ارجاع أنطاكية للبيزنطيين[٨] ، كما أن كومنين كثيرا ما نكث بعهوده وخدع الفرنج ورأى من الأفضل تجنب الانسياق وراء حيله الماكرة[٩] ، ويكفى أن الامبراطور كان وعدهم من قبل بالحضور لنجدتهم أثناء حصارهم مدينة انطاكية وأنتظروه شهورا عديدة ، ولكنه لم يحضر[١٠] .

ويذكر المؤرخ شالندون[١١] «Chalandon» ، وجروسيه[١٢] «Grousset» أنه رغم صعوبة إدراك السر الذى كان يمكن وراء امتناع الامبراطور البيزنطى من الحضور لمرافقة الفرنج فإن التفسير الوحيد هو أن الامبراطور فضل السير إلى النهاية فى إتفاقيته السرية مع الخلافة الفاطمية ووزيرها الأفضل شاهنشاه بالقاهرة .

ويمكن القول أن هذا الأمر لم يكن السبب الوحيد لعدم توغل الامبراطور فى الشام ، بل هناك أسباب أخرى ، أهمها مراعاته لمصالح دولته ، خاصة وقد علم من ستيفن كونت بلوا وشارتر رئيس البعثة التى أوفدها الفرنج إلى الكسيس يدعونه فيها للحضور لمساعدتهم علم منه أن حال الفرنج سيئة للغاية تحت حصار كربوغا اتابك الموصل وأن جيشا سلجوقيا قادما لمهاجمة دولته فآثر العودة إلى عاصمته من الذهاب لنجدة الفرنج[١٣] .

وبينما كانت تلك المراسلات دائرة بين الامبراطور البيزنطى والقادة الفرنج حول انطاكية ، تفاجئنا الروايات الفرنجية[١٤] ، بإتهامها للامبراطور البيزنطى بالخيانة ، فيذكر المؤرخ البروفنسالى ريموند أوف أجيل فى « تاريخ أعمال الفرنجة الذين أسقطوا بيت المقدس »[١٥] ، أنه بينما تعهد الكسيس كومنين بالاشتراك مع القادة الصليبيين فى مسيرتهم إلى الأراضى المقدسة ، فإنه كان على اتصال بأعدائهم الفاطميين ووزيرهم أمير يوس ( الأفضل بن بدر الجمالى ) فى القاهرة وأنه عقد معهم إتفاقا سريا فى محاولة لتكوين جبهة مشتركة ضد بوهيمند النورمندى وزملاؤه ، وأتضح

---

(٨) Ann comnena, Alexidad, p.p. 291-306.

واجع أيضاً التحليل الممتع الذى أورده الدكتور جوزيف نسيم عن الصراع البيزنطى الصليبى حول مشكلة أنطاكية فى : العرب والروم ، ص ٢٤٤ — ٢٥٨ ؛ فيشر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة د . زيادة ، د . العرينى ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٩) William of tyre, deeds, Vol. I, p.p. 327-328.

ويجب أن نذكر أن غالبية مؤرخى الحروب الصليبية ، ومنهم وليم الصورى تحيزوا للاتين ضد البيزنطيين حول مشكلة أنطاكية ويستثنى من ذلك الترث ذاكس مؤرخ حملة جودفرى دى بوايون راجع د . جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ١٣ .

(١٠) Michaud, History of the crusades, Vol. I, p. 194.

(١١) Chalandon, F., Essai sur la régne d'Alexis comnéne, p. 206.

(١٢) Grousset, R., Histoire des croisade, Tom, I, p.p. 137-140.

(١٣) Raymond of Aguilers, R.H.C., hist. occ., Vol. III, p. 277.

(١٤) Raymond of Aguilers, R.H.C., hist. occ., Vol. III, p. 277.

(١٥) Raymond of Aguilers, R.H.C., hist. occ., Vol. III, p. 277.

ذلك فى إحدى الخطابات التى عثر عليها الصليبيون فى متاع معسكر الأفضل بن بدر الجمالى فى اليوم التالى لموقعة عسقلان الكبرى عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م[١٦] .

وقد تعرض الكونت بول رايان «C. Paul Riant» بالتحليل والنقد لنص ريموند أوف أجيل ، وأثبت أن هناك بالفعل خطابا مرسلا من الأفضل بن بدر الجمالى إلى اليكسيس يحدثه فيه عن مفاوضاته مع الفرنج ، ولكنه أثبت أن هذه المراسلات سبقت حدوث موقعة عسقلان الكبرى ، والخطاب يؤرخه الكونت بول رايان بتاريخ ١٥ يونيو ١٠٩٩ / ٢٢ رجب ٤٩٢ هـ مرسل من القاهرة إلى فيلوميليوم[١٧] .

وقد انساقت غالبية المراجع الأوروبية الحديثة وراء الرأى القائل بخيانة الامبراطور البيزنطى للقضية الصليبية وتفاوضه مع الفاطميين والصليبيين فى آن واحد ، فى محاولة منه للإفادة من الجانبين وتكوين جبهة إسلامية بيزنطية مشتركة ضد اللاتين[١٨] . ويذكر الدكتور محمد مصطفى زيادة أن الدليل الوحيد الذى يثبت وجود مراسلات بين القاهرة والقسطنطينية أثناء الحملة الصليبية الأولى هو قيام اليكسيس كومنين بإرسال تفاصيل ما أشار به على القادة اللاتين إلى الفواطم ووصول السفارة الفاطمية الأولى إلى المعسكر الصليبى المقام أمام أنطاكية فى ربيع عام ٤٩١ هـ / فبراير ١٠٩٨ م ، والتى تقدمت بمقترحاتها إلى الفرنج ، ومن بين هذه المقترحات مشروع تقسيم بلاد الشام[١٩] .

ويرى الأستاذ ستيفن رنسيمان «Runciman, S.» ، أن هناك دلائل قوية على وجود مراسلات بين الوزير الفاطمى الأفضل بن بدر الجمالى والامبراطور اليكسيس كومنين ، فيذكر أن اليكسيس كان على إتصال بالبلاط الفاطمى ووزيره الأفضل ، والذى كتب إليه يسأله إذا كانت الحملة الصليبية تعمل لصالحه ، فكان رد اليكسيس بإنكاره التام لأية صلة بالحركة الصليبية ، أو تقدم الفرنج فى أملاك الفاطميين[٢٠] . ويذكر رنسيمان الأسباب التى حدت اليكسيس للقيام بذلك وهى :

أولاً : أن تصرفات بوهيمند جعلته لا يستطيع أن يركن إلى إخلاص الفرنج أو ولائهم[٢١] .

---

(١٦) يقول ريموند أوف أجيل :

«Soielat Afdhal quod imperator Alexiuses Usque admortenobus inicabatur, und nos litteras eimperatorea Alexilde nobud factas invenimu confecialo bello cam rege babylonorum apud ascolonam in tentorus jusadam regus buls de ausis ditommit legates per annum captesa». C.F. Raymond of agullers, R.H.C., Hist. occ Vol. III, p. 277.

(١٧) Paul Riant, Inventaire, A.O.L., T.I, p. 174.

(١٨) Duggan, A., The story of the cursades, London 1963, p. 73; Michaud, History of the crusades, Vol. I, p. 183, Cahen, The Turkish, Vol. I, p. 221.

(١٩) د. مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، ط . القاهرة ١٩٦١ ص ١ — ٢ .

(٢٠) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة د . العرينى ، ج ١ ص ٢٨٤ .

Runciman., S., The first crusade, in setton, Vol. I, p. 320.

(٢١) Runciman., S., The first crusade, in setton, Vol. p. 329.

**ثانياً** : عدم وجود مصالح حيوية للبيزنطيين فى فلسطين ، ولكن الإلتزام الوحيد والمصلحة التى كانت تقيده ، هى الإلتزام الخاص بطائفة المسيحيين الأرثوذكس ، التى كان يعتقد أنه حاميا لها ، ولهذا أدرك أنه خير للمسيحيين الأرثوذكس فى فلسطين أن ينعموا بالتسامح فى ظل الفواطم لا فى ظل الفرنج الذين أظهر سلوكهم فى أنطاكية عداء صريح نحو المسيحيين الوطنيين[٢٢] .

على أن هذه المراسلات بين اليكسيس والأفضل وقعت فى أيدى الصليبيين الذين راعهم خيانة الامبراطور ، وأعتبروه مسئولا عما حدث لسفرائهم الذين بعثوا بهم إلى القاهرة وأحتجزوا لمدة عام تقريبا[٢٣] .

والواقع أن الباحث لا يستطيع أن يقطع برأى تام حول موضوع المراسلات بين القاهرة والقسطنطينية أثناء الحملة الصليبية على الشام إذ أن العلاقات بين الجانبين فى بداية عهد الفواطم بمصر كانت سيئة بسبب النزاع السياسى بين الدولتين من أجل السيادة على البحر المتوسط والشام ، وذلك منذ مطلع القرن الرابع هـ . / العاشر م . ، وكانت هذه العلاقات يغلب عليها الطابع الحربى بالدرجة الأولى ، فكانت الشام ومصر مسرحا للصراع والعمليات العسكرية بين الجانبين منذ قيام الخلافة الفاطمية بمصر ، وسعيها للسيطرة على الشام حتى أواخر القرن الرابع ، ومطلع القرن الخامس هـ . / الحادى عشر الميلادى ، ويذكر المؤرخ الرشيد ابن الزبير فى كتاب « الذخائر والتحف » ، أن البيزنطيين سعوا لإقامة علاقات سلمية مع الفواطم منذ قيام دولتهم فى خلافة المعز لدين الله ، وذلك عن طريق الهدايا التى أهداها الامبراطور للخليفة المعز لدين الله أثر دخوله مصر عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م[٢٤] ، وساد السلام بين الطرفين ، وكان يقطعه أحيانا نكث من الجانب البيزنطى ، وعودة البيزنطيين لمهاجمة جزر الأرخبيل ، والسواحل الإسلامية الأخرى[٢٥] .

وسرعان ما توترت هذه العلاقات فى أواخر عهد الخليفة الحاكم بأمر الله نتيجة لسياسته إزاء أهل الذمة ، وهدمه للكنائس المسيحية بمصر وفلسطين[٢٦] ، إلا أن العلاقات تحسنت فى خلافة الظاهر لإعزاز دين الله ، فوقعت هدنة بين الطرفين عام ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م ، وبمقتضاها خطب للخليفة الظاهر على منابر جامع القسطنطينية ، الذى تم تجديده ، مقابل تجديد الظاهر لكنيسة

---

(٢٢) يذكر المؤرخ الفرنسى شالندون أن إنتزاع بوهيمند أنطاكية وإغتصابها ، أثار غضب الامبراطور على الفرنج مما دفعه للإتفاق ضدهم مع الفواطم . راجع .

Chalandon, F., Alexis, p. 216; Grousset, Histoire To. I, p. 140.

(٢٣) Runciman, S. The first crusade, in setton, Vol. I, p. 339.

(٢٤) الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ، تحقيق د . محمد حميد الله ، ط . الكويت ١٩٥٩ ، ص ٨٢ . ولمزيد من التفاصيل راجع نفس المصدر ، ص ٧٤ ــ ٨١ ؛ أيضا الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف ، ج ١٢ ص ٦٢ . ويورد نص مختصر عن ذلك .

(٢٥) د . عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، ص ١٠٠ ــ ١٠١ .

(٢٦) أشار ناصر خسرو فى سفرنامة مما يفيد عن تحسن العلاقات بين بيزنطة ومصر الفاطمية أيام الخليفة الحاكم ، ووجود نوع من =

القيامة بالقدس[27] .

وقد استمرت العلاقات السياسية والتجارية قائمة بين البيزنطيين والخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، فتم تبادل السفارات بين الجانبين ، كما أن تجار الروم كانوا يتبادلون السلع مع تجار الفواطم بجانب الهدايا المتبادلة بين المستنصر بالله وأباطرتهم ، مثل قسطنطين التاسع ( ١٠٤٢ / ١٠٥٤ م ) ، وميخائيل الخامس ( ١٠٤١ — ١٠٤٢ م )[28] . ولكن هذه العلاقات سرعان ما انهارت في النصف الأول من القرن الخامس هـ . / الحادى عشر م . أثناء وزارة اليازورى ، بسبب رفض الامبراطورة البيزنطية ثيودورا ( ١٠٥٤ — ١٠٥٦ م ) ، تزويد مصر بالغلال والحبوب لمواجهة ما تعانيه من مجاعة وأزمات إقتصادية ، واشترطت لذلك عقد حلف ومعاهدة دفاعية هجومية بين الطرفين ، ولكن رفض الخليفة المستنصر بالله ووزيره اليازورى ، أدى لإيقاف إمدادات الغلال إلى القاهرة ، وسرعان ما أستؤنفت العمليات العسكرية في شمال الشام بين الطرفين عام ٤٤٦ هـ / ١٠٥٥ م[29] .

ورغم قيام المستنصر بالله بمبادرة سلمية لتوطيد علاقاته ببيزنطة ، إلا أن البيزنطيين آثروا جانب السلاجقة والعباسيين ، فأسقطوا خطبة الخليفة الفاطمى ، ودعوا للعباسيين على منابر القسطنطينية ، فقام المستنصر بنهب وسلب ما في كنيسة القيامة من أموال وكنوز النصارى للرد على البيزنطيين ، مما أدى لإنهيار العلاقات السياسية بين الطرفين في عام ٤٤٧ هـ / ١٠٥٦ م[30] . ولكن العلاقات السياسية سرعان ما عادت بين الطرفين ، وتم تبادل السفراء بين المستنصر والامبراطور رومانس الرابع ديوجينيس «Romanus IV Diogenes» وميخائيل السابع[31] ، وزادت هذه العلاقات قوة في وزارة الوزير بدر الجمالى أمير الجيوش ، بخاصة منذ مطلع عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م ، حيث سعى الروم إلى تدعيم علاقاتهم التجارية مع مصر ، إذ كانت بيزنطة بحاجة إلى النسيج الذى كانت تصنعه مدينة تنيس ، مقابل الغلال والفراء . فالرحالة الفارسى ناصر خسرو يذكر أن سلطان الروم أوفد رسولا ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على أن يأخذ تنيس ، فرفض السلطان ، وكان مقصده من هذا القصب والبوقلمون[32] .

وكان للبيزنطيين بالقاهرة حى لتجارهم عرف بحارة الروم ، وهما حارتان ، حارة الروم السفلى وحارة الروم العليا[33] ، وأستمرت العلاقات التجارية بينهما خاصة لو علمنا أن مصر

---

= المدنة بين الطرفين . راجع ناصر خسرو : سفرنامة ، ترجمة د . يحيى الخشاب ، ط . القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٤٣ — ٤٤ .

(٢٧) المقريزى : الخطط ، ط . بولاق ١٢٧٠ هـ ، ج ١ ص ٣٥٤ .

(٢٨) لمزيد من التفاصيل راجع الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ص ٧٤ — ٨١ .

(٢٩) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٧ ؛ المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٣٣٥ .

(٣٠) لدينا نصا معاصرا يشير لتحسن العلاقات مع بيزنطة . راجع الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ، ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(٣١) الرشيد بن الزبير : المصدر السابق ، ص ١٩٨

(٣٢) ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ٤٠

(٣٣) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ٤١٤

كانت بحاجة إلى الفراء المجلوب من بلاد الروس ، كما كانت تتقرب إلى البيزنطيين إمعانا فى الكيد للعباسيين .

ويلاحظ أنه بعد تحسن العلاقات السياسية تلك ، فإن مصادر الفترة بيزنطية كانت أو إسلامية لم تشر على الإطلاق لحدوث تبادل للسفراء أو مراسلات بين القاهرة والقسطنطينية ، أواخر وزارة بدر الجمالى ، أو فى وزارة الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى باستثناء المصادر الصليبية التى أشارت لوجود مراسلات ومحاولات لعقد إتفاقيات سرية بين اليكسيس كومنين والوزير الأفضل[٣٤] ، كما أشرنا آنفا . ويلاحظ أن هذه المراسلات بين الجانبين البيزنطى والفاطمى ، لم ترد إلا فى المصادر الغربية فقط ، فى حين لم تتعرض المصادر الإسلامية المعاصرة أو المتأخرة بكلمة واحدة لهذه المراسلات ، باستثناء المؤرخ العظيمى الذى أورد عبارة رغم غموضها وعدم وضوحها ، إلا أنها على جانب كبير من الأهمية ، تكاد تؤكد ما ورد فى المصادر اللاتينية عن وجود مثل هذه الإتفاقيات الفاطمية البيزنطية ، فيذكر « وكتب ملك الروم الكس إلى المسلمين يعلمهم بظهور الفرنج »[٣٥] . والواقع أن كلمة « المسلمين » ليست واضحة ، ولا تدل على قوة معينة من قوى العالم الإسلامى ، ولكننا نرجح أنه ربما يقصد بها الفاطميين ، فلا يعقل أن يرسل إلى العباسيين أو حتى السلاجقة ، أعداء بيزنطة التقليديين ، الذين أنتزعوا كل أملاكها بآسيا الصغرى ليحذرهم من مجيء الفرنج .

وكما ذكرنا فإن الباحث لا يستطيع أن يقطع برأى حول هذه الأمر ، ولكن رواية العظيمى فى رأينا ، يرق إليها الشك ، إذ أن مجريات الأحداث ، فيما بعد ، ستثبت خطأ هذا الرأى القائل بوجود إتصالات بين القاهرة وبيزنطة ، أثناء تقدم الحملة الصليبية فى الشام ، ويقيننا فى ذلك ما ذكرته الرواية البيزنطية نفسها ، المتمثلة فى رواية آنا كومنينا[٣٦] «Anna Comnena» فى « الألكسياد » ، ولهذا فسوف نستبق الأحداث قليلا ، كى نسوق الأدلة حول الشك الذى يحيط ، أو يحوم بالعلاقات الفاطمية البيزنطية أثناء وزارة الأفضل شاهنشاه والامبراطور اليكسيس كومنين .

فروايات آنا كومنينا تحاول أن تؤكد وجود نوع من العلاقات الطيبة بين الجانبين إلا أن رواياتها تتميز بالتناقض والإضطراب والتضارب بين بعضها البعض ففى حين تذكر فى أحد مواضع كتابها قيام أبيها اليكسيس بالتوسط لدى الأفضل بن أمير الجيوش بإطلاق سراح القادة الصليبيين الأسرى فى موقعة الرملة الثانية[٣٧] ، تذكر أن الامبراطور أرسل أحد الميحوئين ويسمى

---

(٣٤) Raymond of Agullers, R.H.C., Hist. occ., Vol. III, p. 277; Riant, Inventaire critique des lettres historique des croisades, in A.O.L., T. 1, p. 174.

(٣٥) العظيمى : تاريخ العظيمى ، نشر الأستاذ كاهن «Cahen» فى المجلة الآسيوية «J. A.» باريس ١٩٣٨ ، ص ٣٧١

(٣٦) Anna comnena, Alexiad, p. 286.

(٣٧) تعرضنا لهذه الموقعة وأسبابها وأحداثها ونتائجها بالتفصيل فى الفصل الرابع الخاص بالعلاقات الفاطمية الصليبية بعد سقوط مدينة بيت المقدس الفاطمية ووقوع موقعة عسقلان الكبرى

باردالس Bardales ومعه مبلغ كبير من المال كفدية لإطلاق سراح الأسرى ، فما كان من الوزير الأفضل إلا أن أطلق سراح القادة الفرنج طلبا لرغبة الامبراطور ، باستثناء أحد القادة ، ويسمى جودفرى ، الذى أطلقه بدون فدية(٣٨) ، وهذا خطأ وقعت فيه آنا كومنين ، إذ أن جودفرى قد توفى قبل وقوع موقعة الرملة الثانية بعامين .

ويتضح تناقض وتضارب روايات آنا كومنينا ، عندما أشارت فى موضع آخر لرواية مشابهة إلى حد كبير من الرواية الأولى ، وإن أختلفت فى بعض التفاصيل ، وتذكر « أن سلطان القاهرة أسر حوالى ثلثمائة أمير صليبى ، وكان يعاملهم بقسوة تماثل معاملة الأسرى فى العصور القديمة ، وأن أباها عندما علم بذلك حزن للغاية ، وأرسل رجلا يسمى نيكيتاس بانوكوميتيس «Nicetas panucomites» يحمل خطابا وأموالا لدفع فدية إطلاق سراح الأسرى الفرنج ، وأن الأفضل عند قراءته لخطاب الامبراطور البيزنطى سارع بإطلاق سراحهم دون أخذ أموال الامبراطور ، وذلك لإظهار حسن النية ولتوطيد علاقاته الطيبة مع أبيها الأمبراطور »(٣٩) .

ويلاحظ هنا مدى التضارب بين الروايتين ، بل أن آنا أشارت فى موضع آخر ، أنه أثناء حصار الفرنج والبنادقة بزعامة وليم جوردان ( السردانى ) لطرابلس عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م ، إلى الدور الهام الذى لعبته بيزنطة وأسطولها أثناء حصار المدينة ، وتعاطف أبيها اليكسيس مع القائد الصليبى وليم جوردان ابن خالة ريموند كونت تولوز أثناء حصار تلك المدينة التابعة أسميا للفواطم ، وكان الأفضل يحاول جاهدا إستعادتها(٤٠) ، فكتب الامبراطور البيزنطى إلى حاكم قبرص البيزنطى يوماثيوس فيلوكاليس «Eumathus philo cales» يطلب منه إرسال أحد رجاله ويسمى نيكيتاس شالنتز ، ومعه مبلغ كبير من المال لمساعدة وليم السردانى فى حصار مدينة طرابلس وإمداده أيضا بالسفن الحربية اللازمة للحصار(٤١) .

حقيقة أن فخر الملك بن عمار لم يكن راغبا فى عودة السيادة الفاطمية لطرابلس وأستبسل فى الدفاع عنها ضد الفرنج ، بل وتمكن من أسر أحدى السفن البيزنطية المشتركة فى حصار المدينة وأقتادها إلى ميناء طرابلس كما ذكرت بذلك الرواية الإسلامية(٤٢) ، إلا أنه عندما غادر طرابلس إلى دمشق ثم بغداد طلبا للنجدة ، أرسل أهل طرابلس للوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه يلتمسون منه المساعدة ، ولكنها وصلت بعد فوات الأوان ، وسقوط المدينة فى أيدى الفرنج(٤٣) .

---

(٣٨) Anna comnena, Alexiad, p. 286.

(٣٩) Anna comnena, Alexiad, p. 301.

(٤٠) راجع تفاصيل ذلك فى الفصل الخامس الخاص بالصراع الفاطمى الصليبى حول مدن الساحل الشامى .

(٤١) Anna comnena, Alexiad, p. 290, 357.

(٤٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ط . ليدن ١٨٦٤ ، ج ١٠ ص ٢٨٤ .

(٤٣) Anna comnena, Alexiad, p.p. 365-366.

ويلاحظ هنا أيضا أن المؤرخة البيزنطية آنا كومنينا قد اعترفت صراحة باشتراك الأسطول البيزنطى المكون من اثنى عشر سفينة بقيادة السفير بوتومتيس فى حصار مدينة صور الفاطمية عام ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م(٤٤) ، كما أن المؤرخ الصليبى وليم الصورى أشار فى إحدى مواضع كتابه ، للعون الذى قدمته الأساطيل البيزنطية ، بجانب الأساطيل الإنجليزية والإيطالية للصليبيين بعد رفعهم الحصار عن عرقه ، وزحفهم إلى المدينة المقدسة بمحاذاة الساحل الشامى .

ويتضح لنا من هذه الروايات البيزنطية والصليبية والإسلامية ، الدور البيزنطى لمساعدة الفرنج فى إسقاط مدن الساحل الفاطمى وعلى رأسها مدينة طرابلس الفاطمية ومسايرتهم للجيش الصليبى فى تقدمه نحو مدينة بيت المقدس الفاطمية عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م(٤٥) مما يجعلنا نشك فى حدوث مراسلات بين اليكسيس كومنين والوزير الأفضل أثناء وجود الحملة الصليبية فى الشام ، خاصة وأن اليكسيس — بقدر ما كان يكره الصليبيين — كان يخشى عدم إرجاعهم بقية أملاك بيزنطة التى انتزعوها من أيدى السلاجقة بآسيا الصغرى وشمال الشام ، وهذا لم يكن ليقدم على مثل هذه الخطوة الأخيرة لإثارة عداء الفرنج وزيادة هذا العداء أكثر مما هو عليه .

وكيفما كان الأمر ، فقد استمر الإنقسام بين الصليبيين حول إستمرار حصار مدينة عرقة(٤٦) ، إذ تمسك ريموند الصنجيلى بحصارها ، وبضرورة إنتظار الامبراطور البيزنطى ، فى حين رفض بقية القادة الفرنج وعلى رأسهم جود فرى فكرة إنتظار الامبراطور ، أو مواصلة حصار عرقه ، لما سيلحق بهم من أضرار بالغة ، وأن الحكمة تملى عليهم ترك حصار عرقة والزحف إلى المدينة المقدسة ، منتهزين فى ذلك موسم الحصاد وجنى المحاصيل فى المناطق التى سيمرون بها ، فى تزويدهم بالمؤن والإمدادات اللازمة(٤٧) .

ولم يخف شيئا من الفرقة أو الإختلاف فى الرأى بين الزعماء الفرنج على فخر الملك بن عمار أمير طرابلس ، مما قوى مركزه وشجعه على أن يسحب عروضه التى سبق عرضها على الفرنج(٤٨) ، أثناء حصارهم مدينة عرقة ، بل أنه أعد قوة من الطرابلسيين وقام بمهاجمة الفرنج

---

(٤٤) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 330.

(٤٥) Raymond of aguilers, R.H.C., H. occ., Vol. III, p. 290.

(٤٦) أدت الأساطيل الجنوية والانجليزية والبيزنطية دوراً كبيراً فى امداد للفرنج المحاصرين لعرقة بالمؤن والامدادات . راجع المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٦٢ ، وكذلك :

Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ. Vol. III, p. 290.

(٤٧) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ص ١٦٢ .

راجع ما كتبته تلك المصادر السابقة عن الاختبار الناري الذى تعرض له بطرس بارثولوميو أثناء حصار عرقة لتأكيد حقيقة اكتشاف الحربة المقدسة . ايضا راجع :

Duggan, The crusades, p. 73.

Fulcher of chartres, Expedition, p. 114.

(٤٨) ويقال أن فخر الملك بن عمار عرض على الفرنج مبلغا كبيرا من المال والهدايا مقابل فك حصار عرقة وترك اقليم طرابلس . راجع :

William of tyre, deeds, Vol, I, p. 329.

ولكن الجيش الفرنجى إستطاع إنزال هزيمة كبيرة بهم فى جمادى أول ٤٩٢ هـ / أواخر مارس وأوائل إبريل ١٠٩٩ م[٤٩] .

لقد استمر حصار عرقة فى وقت اشتد فيه تذمر وسخط جموع الفرنج ، على حد تعبير مؤرخهم وليم الصورى ، بسبب النزاع بين قادتهم[٥٠] ، وتزعم جودفرى دى بويون الفرنج الساخطين وسانده روبرت أوف فلاندرز وتانكريد النورمندى ، لإجبار ريموند الصنجيلى على إحترام رأى جموع الفرنج والزحف فى سرعة إلى بيت المقدس[٥١] ، مما اضطر ريموند أمام إجماع الأمراء لرفع الحصار عن عرقة يوم ١٩ جمادى الثانية ٤٩٢ هـ / ١٣ مايو ١٠٩٩ م وذلك وسط دموعه وآلامه التى ملأت عيناه على حد تعبير مؤرخه ريمون داجيل[٥٢] ، وذلك بعد حصار بقرب من أربعة شهور[٥٣] . وبذلك ضاعت آمال ريموند سانت جيل ، وأضطر للتخلى مؤقتا عن إمارة كانت قطوفها دانية له[٥٤] .

وسرعان ما أتجه الفرنج مباشرة نحو مدينة طرابلس ، وخيموا أمامها مما اضطر أميرها فخر الملك بن عمارة ، بعد الدرس القاسى الذى تلقاه على أيديهم فى أبريل الماضى ، أن يركن إلى مسالمتهم وخطب ودهم ، وعقد إتفاقية معهم تم بمقتضاها إعطاء الفرنج خمسة آلاف دينار وخمس عشرة هدية قيمة وعددا من الجياد والحمير ، وبعض الأقمشة كما سلمهم ثلاثمائة حاج كانوا فى أسره ، وتعهد بتزويدهم بالميره والمؤن ووعدهم بالتنصر وتسليمهم ما تحت يده من المدن إذا ما ظهروا على خليفة مصر ووزيره الأفضل شاهنشاه فى الحرب التى أعدها لهم إذا ما استولوا على بيت المقدس كما أرسل معهم أدلاء لبرشدوهم إلى أحسن المسالك وأكثرها أمنا إلى مدينة بيروت[٥٥] . وغادر الفرنج المدينة فى ٢٢ جمادى الثانية ٤٩٢ هـ / ١٦ مايو ١٠٩٩ م بعد أن قضوا بإقليمها ثلاثة أيام يصحبهم الأدلاء والمرشدون الطرابلسيون متجهين نحو بيروت[٥٦] .

---

(٤٩) لمزيد من التفاصيل عن ذلك راجع المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١١ ؛
William of tyre, deeds, Vol. I, p. 329; Roger of wendover, Flowers Vol. p. 426.

(٥٠) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 329.

(٥١) Albert of Aix, R.H.C., hist. occ., Vol. IV, p. 455, William of tyre, deeds, Vol. I, p. 329.

(٥٢) Rymond of Aguilers, R.H.C., hist. occ. Vol. III, p. 289.

(٥٣) ابن الأثير : ج ١٠ ص ١٩٠ ، ويذكر المؤرخ المجهول أن الحصار استمر ثلاثة شهور . راجع : أعمال الفرنجة ، ص ١١٢ .
William of Type, deeds, Vol. I, p. 329.

(٥٤) Stevenson, The crusaders in the East, p. 32; Lamb, The Crusaders,p. 185.

(٥٥) مؤرخ مجهول : إعمال الفرنجة ص ١١٢
William of tyre, deeds, Vol. p. 329 - 330; Roger of wendover, Flowers, Vol. I., p. 426.
ويذكر وليم الصورى أن أمير طرابلس زود الصليبيين بهذه الامدادات مقابل عدم نهب الحقول والمزارع المحيطة بطرابلس
William of Tyre, deeds, Vol. I. p. 330; 146.

(٥٦) مؤرخ مجهول : اعمال الفرنجة ص ١٢٣ .

ولكن الجدل ثار بين الفرنج حول الطريق الذى سوف يسيرون فيه متجهين نحو الجنوب ، فاما أن يسلكوا الطريق الداخلى الممتد إلى دمشق ، حيث الطعام والمؤون الكافية والمياه القليلة ، أو الطريق الساحلى عبر جبال لبنان ، ومنطقة البقاع حيث المياه الوفيرة والمؤن القليلة[٥٧] .

وقدم المسيحيين الوطنيين القاطنيين تلك الجهات — ويرجح أنهم المعروفون بالمردة[٥٨] — النصح للفرنج وأخبروهم أن الطريق الساحلى ، هو أفضل الطرق وأكثرها إختصارا رغم وعورته وقلة مؤونته[٥٩] . وفضل الفرنج الطريق الساحلى حيث يواكبهم الأسطول الإنجليزى ، وأساطيل إيطاليا وبيزنطة البحرية ، التى كانت تطوف مياه البحر المتوسط ، لضمان الإتصال بهم وتزويدهم بما يحتاجون من الإمدادات والذخيرة[٦٠] ، رغم أن الأمل فى معونة هذه الأساطيل كان ضعيفا إذ أنها لم تكن لتجرؤ على الإقتراب من الساحل الشامى ، لوجود الأسطول الفاطمى الذى كان يذرع حوض البحر المتوسط الشرقى ، ويقوم بتدعيم وتقوية الدفاع عن المدن والموانى الساحلية الفاطمية وتزويدها بالمؤن مما يستحيل على الفرنج بالتالى الحصول على المواد اللازمة لصناعة آلات حصار أو إسقاط تلك المدن[٦١] .

واستأنف الفرنج سيرهم إلى فلسطين فى أواخر جمادى الثانى ٤٩٢ هـ / منتصف مايو ١٠٩٩ م ، متخذين طريق الساحل ، وقت حصاد المحاصيل الجديدة[٦٢] . وبعد مسيرة يوم كامل مروا بقلعة الباترون «Bathelean Bathrun» ، وتقع على بعد خمسة وعشرين كيلو مترا

---

(٥٧) Runciman, S., The first crusades, in setton (ed.,) Vol. 1, p. 330

(٥٨) يذكر الاستاذ بابكوك وكرى ان المردة هم المسيحيين المارونيين اللذين انضموا فيما بعد إلى كنيسة روما.

Babcock & Krey (ed.,) A history of deeds done byond the sea, Vol. I, p. 330, F 29.

وعرفوا ايضا باسم الجراجمه فى عصر الدولة الاموية ثم عرفوا الآن باسم الموارنة . والمردة هم قوم من نصارى العجم استخدمهم ملوك القسطنطينية للدفاع عن لبنان وتيليقية من غزوات العرب . وأصل تسميتهم المردة من الكلمة الفارسية مرد أى الشجاع . ويذكر صالح ابن يحيى أن المردة استجلبهم معاوية بن أبى سفيان من فارس حيث أسكنهم بيروت وجرت بينهم وبين الأمراء الأرسلانيين والتنوخيين عدة وقائع استمرت حتى قام عبد الملك بن مروان بمسالمة البيزنطيين وأسترجع المردة إلى مواطنهم ولما صار الأمر لبنى العباس آثروا الأمراء المذكورين فى حكمهم على الساحل الشمالى لبيروت-صالح بن يحيى: تاريخ بيروت ، نشر لويس شيخو ، بيروت ١٩٢٦ ص ١٧ ص ح ٥ ، ٨ . أيضا راجع ما كتبه أحد القطابيه الأب بطرس ضو : تاريخ الموارنة الدينى والسياسى والحضارى ، ط . بيروت ١٩٧٦ م .

(٥٩) William of Tyre, deeds, Vol. 1, p. 330.

(٦٠) Michaud, History of the crusades. Vol. I,p. 198.

وكانت غالبية هذه الأساطيل انجليزية بقيادة المغامر ادجار البولونى الذى لعب دوراً فى اسقاط اللاذقية . راجع :

Lamb, The crusaders., p. 186.

(٦١) Duggan, A., The story, p. 73; Runciman, the first crusade, in setton Vol. I,p. 330.

(٦٢) أخذ الفرنج دهشة كبيرة من رؤيتهم ذلك النبات الذى رأوه لأول مرة بالشرق وتذوقوه وأعجبوا به وهو نبات السكر . ويذكر ميشو أن الصليبيين هم الذين نقلوا معهم هذا النبات والذى عرفهم بصناعة السكر إلى أوربا فى نهاية الحروب الصليبية وخاصة إلى ايطاليا وصقلية ثم نقله المسلمون أيضا إلى أسبانيا فى عصر مملكة بنى الأحمر فى غرناطة

Michaud, History of the crusades, Vol., 1, p. 197.

جنوب طرابلس[٦٣] ومروا بمدينة صيدا الساحلية[٦٤] وهم يعانون نقصا شديدا فى المؤن والمياه مما اضطرهم للإعتماد على حصاد محصولات المناطق المارين بها[٦٥] ، وسرعان ما خيم الفرنج أمام نهر الكلب القريب من مدينة بيروت فى جمادى الثانية ٤٩٢ هـ / مايو ١٠٩٩ م[٦٦] ، ويلاحظ أن الفرنج فى سيرهم السابق حتى عبورهم نهر الكلب ودخولهم أملاك الفاطميون ، لم يجدوا مقاومة تذكر من أمراء تلك المدن والموانىء الساحلية ، التى حذت حذو طرابلس فى مسالمة الفرنج وخطب ودهم[٦٧] . |

وفى ٢٥ جمادى الثانية عام ٤٩٢ هـ / مايو ١٠٩٩ م ، عبر الصليبيون نهر الكلب[٦٨] ، شمال بيروت ، ودخلوا بذلك أملاك الفاطميين وكان ذلك يعنى بداية مرحلة جديدة من تاريخ الحملة الصليبية الأولى بالشام إذ أصبح لا مناص من حدوث الصدام بين الفريقين وكان حتما على حليفى الأمس ، كما تذكر المراجع الحديثة[٦٩] ، من الوقوف وجها لوجه . وكان يعنى أيضا أن الفاطميين كان عليهم حمل عبىء الدفاع من أملاكهم وعن المنطقة والشرق الإسلامى ضد الخطر الصليبى الجارف . ونستطيع أن نؤكد أن الدور السلجوقى أو العباسى فى تلك المرحلة من مراحل الصراع الإسلامى الصليبى للدفاع عن الشرق الإسلامى ضد الفرنج ، وبوجه خاص بلاد الشام يكون معدوما تماما ، وحل محله الفاطميون .

ذكرنا آنفا ، أن الوزير الأفضل شاهنشاه قد إنتهز فرصة إنشغال الأتراك بحروبهم مع الفرنج شمال الشام وتمكن من بسط سيادة الفواطم على فلسطين والساحل الشامى من أرباض اللاذقية حتى مدينة عسقلان عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م . ولكن يبدو أن الأفضل لم يترك قوات كافية لتدعيم نفوذ الفواطم فى تلك الجبهة الساحلية العريضة أو الدفاع عنها ، باستثناء مدينة القدس ، التى وضع فيها حامية قوية ، بجانب وضع حاميات أخرى فى بعض المراكز والمدن الساحلية الهامة ، والتى ظل الأسطول الفاطمى قادرا على إمدادها بالرجال والمؤن[٧٠] ، وكما سنوضح فيما

---

(٦٣) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ص ١١٣ وكذلك Bréhier, L., (ded.,) Histoire Anonyme. p. 191, F. 6. ويذكر ياقوت الحموى أن هذه القلعة تقع ما بين جبيل والآنفة على ساحل البحر . ياقوت الحموى : معجم البلدان ط . أوروبا ج ١ ص ٤٩٣ .

(٦٤) جبيل : أسمها القديم بيبلوس وصفها الرحالة الفارسى ناصر خسرو فى سفرنامة . سفرنامة ص ٤٦ .

(٦٥) وطبقا لألبرت داكس فان نبات قصب السكر كان ذو فائدة كبيرة للفرنج عندما دهمتهم المجاعة فى معرة النعمان اثناء حصار عرقة . Albert of Daix, R.H.C., Hist occ. Vol. IV., p. chap 3; Lamb The crusaders. p. 186; Fulcher, Expedition, p. 114.

أيضا المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٣ . William of tyre, deeds, p. 331.

(٦٦) المجهول أعمال الفرنجة ص ١١٣ William of tyre, deeds, Vol. I, p. 331

(٦٧) المجهول : المصدر السابق ص ١١٣ .

(٦٨) سبق التعريف به . انظر أبراهيم بك الأسود : ذخائر لبنان ، ط . بعبدا لبنان ، ص ١٩٣ .

(٦٩) Lamb, H. The crusaders; p. 188; Michaud, F, History of the crusaders. Vol. I, p. 199.

(٧٠) Runciman, S., The first crusade, in setton (ed.) Vol. I, p. 331.

ويذكر المؤرخ كوندر أن كل موانىء الساحل الشامى جنوب نهر الكلب كانت محصنة ومسورة تسويرا قويا بالاضافة لوجود حاميات قوية بها . راجع . Conder, The Latin Kingdom, p. 56.

بعد ، فإن هذه المدن والمراكز الساحلية أول ما تعرض لهجوم الفرنج ، عند مرورهم بها فى طريقهم إلى بيت المقدس .

إن الفرنج الذين كانوا يخشون مشكلة نقص المؤن والإمدادات ، كانوا حريصين كل الحرص على عبور كل مدينة من مدن الساحل الفاطمى بسرعة وسلام ، بقدر الإمكان ، كما أن معظم هذه المدن ـــ كما ذكرنا ـــ حذت حذو مدينة طرابلس ، نفسها فتلقت الفرنج بالعطف والتأييد ، والإعتراف بالتبعية ، وذلك للحصول على مسالمتهم بأحسن الشروط الممكنة ، فى حين أن البعض الآخر قاوم الفرنج وإن جازاهم الآخرين بالعنف .

وتذكر المصادر الصليبية[٧١] أن أهل بيروت عندما شعروا باقتراب الفرنج منهم ، عرضوا عليهم إمدادهم بالأموال والمؤن ، وذلك مقابل تعهد الفرنج بعدم الإعتداء على البساتين ومزارع الكروم والغلال المملوكة للعرب ولسكان المدينة ، بل أن أهل بيروت ، تعهدوا أيضا بالدخول فى طاعة الفرنج ، والإعتراف بسيادتهم إذا هم نجحوا فى إحتلال بيت المقدس[٧٢] .

ويلاحظ أن بعض مسيحى المناطق المجاورة لبيروت ، وهم المردة ، قد لعبوا دورا كبيرا فى تسهيل تقدم الفرنج أمام مدينة بيروت ، فقدموا لهم كل التسهيلات والمساعدات الممكنة[٧٣] . ولكن ما فعله أهل بيروت ، أختلف عما أهل مدينة صيدا ، فعند مرور الفرنج بصيدا فى آواخر جمادى الثانية ٤٩٢ هـ / ٢٠ مايو ١٠٩٩ م ، قاومت حاميتها الفرنج فجازاهم الأخرين بالعنف والشدة ونهبوا المزارع والحقول المجاورة لها ، وأغاروا على الضياع القريبة منها[٧٤] .

ولكن الجيش الصليبى فضل أن يسرع فى طريقه[٧٥] ، فمروا بصرفند[٧٦] وصور ، حيث وصلتهم الإمدادات من الرها وأنطاكية كما أنضم إليهم الكثير من الفرسان من الرها وأنطاكية[٧٧] فى أول رجب ٤٩٢ هـ / ٢٣ مايو ١٠٩٩ م ، فواصلوا طريقهم إلى مدينة عكا[٧٨] .

---

(٧١) William of Tyre, deeds, Vol. I, p. 33.

(٧٢) Albert of Aix, R.H.C. Hist. occ., Vol. p. 458.

(٧٣) Michaud, History of the crusades, p. 198; Lamb, The crusders, p. 187.

(٧٤) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٤ ، Fulcher of chartres, op. cit. 114;
William of tyre, deeds, Vol. I, p. 331.

(٧٥) لاحظت المؤرخة البيزنطية آنا كومنينا ، أن الفرنج لم يحرصوا فى طريقهم نحو الأراضى المقدسة على حصار هذه المدن الساحلية ، لما تتمتع به من قلاع وأسوار قوية حصينة ، مما سيضيع وقتهم فى محاولة اسقاطها ، ولهذا فضلوا المضى فى طريقهم بسرعة نحو بيت المقدس . Anna Comnena, the Alexiad, p. 285.

(٧٦) صرفند : مدينة تابعة لصور على الساحل الشامى . راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٣٨٧ ، أيضا : Le Strange, Palestine under the moslems, Beirut 1965, p. 531.

(٧٧) Runciman, S., The first crusade, in setton (ed.,) Vol. I, p. 331.
Raymond of Agullers, The collection of Borgars: gesta dei per francos, hannover 1612, p. 173, adopted by Michaud; history of the crusades, London 1852, Vol. I, p. 199.

(٧٨) سوف نتحدث عن موقع مدينة عكا وأهميتها من الناحية الجغرافية والتجارية فى الفصل الخامس من هذه الدراسة .

وقد أظهر والى عكا الفاطمى المودة إزاء الفرنج ، وأمدهم بالمؤن والعتاد كما أنه تعهد بالدخول فى طاعتهم إذا أستولوا على بيت المقدس[٧٩] ، وهناك رأى يرى[٨٠] ، أن ما قام به والى عكا الفاطمى قصد به خداع ومناورة الفرنج ، لإبعادهم عن حدود إمارته خوفا من نهبهم لها .

ولكن الفرنج عندما وصلوا إلى ضواحى مدينة قيسارية فى ٤ رجب ٤٩٢ هـ / ٢٦ مايو ١٠٩٩ م ، تجاهلوا حامية المدينة ، التى خيموا أمامها لمدة أربعة أيام ، احتفلوا خلالها بعيد العنصرة ، ( يومى ٢٨ ــ ٢٩ مايو ١٠٩٩ م[٨١] ــ ٧ ، ٨ رجب ٤٩٢ هـ ) . وطبقا لرواية المؤرخ الصليبى ريموند أوف أجيل[٨٢] ، أنه بينما كان الفرنج أمام قيسارية سقطت بمعسكرهم حمامة مخصصة لنقل الرسائل ، كانت تحمل رسالة موجهة من أمير عكا الفاطمى إلى زميله فى قيسارية ، فى ليلة ٨ رجب ٤٩٢ هـ / ٢٨ مايو ١٠٩٩ م ، يخبره بمجيىء الفرنجة ويطلب منه أن يحث مسلمى فلسطين والمدن المجاورة لمقاومة الغزاة الجدد .

ورغم ما يبدو فى تلك الرواية الصليبية من المبالغة والطابع الأسطورى ، فقد دهشوا من موقف أمير عكا وعرفوا مدى مكره ودهائه[٨٣] . وتوضح لنا هذه الرواية أيضا ، مدى جهل حكام مدن الساحل الفاطمية بقدوم الفرنج ، ومرورهم عبر أراضيهم متجهين إلى الأراضى المقدسة[٨٤] . وسرعان ما واصل الفرنج تقدمهم بموازاة الساحل حتى وصلوا إلى أرسوف ، ومن هناك أنحرفوا نحو الداخل عازمين على ترك الطريق الساحلى وإتخاذ الطريق البرى الداخلى للوصول إلى بيت المقدس على وجه السرعة[٨٥] .

وسرعان ما وصل الفرنج إلى مدينة الرملة[٨٦] ، أول مدينة فاطمية داخل الأراضى الموازية

---

(٧٩) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 332 in R.H.C. p. 311.

(٨٠) مكسيموس مونروند : تاريخ الحروب المقدسة ، ط . أورشليم ١٨٦٥ م ص ١٥١ وكذلك :
Michaud, History of the crusades, Vol. I, p. 199.

(٨١) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٤ ، وكذلك : Fulcher of chartres, Expedition p. 115, William of tyre, deeds Vol. I, p. 332; Roger of wendoyer, Flowers, Vol. I, p. 426.

(٨٢) Archives de L'Orient Latin, Vol. I, p. 195.
انظر أيضا الترجمة الانجليزية لرواية ريمون أجيل هذه كما أوردها سرها رولد لامب : Lamb, H., The crusaders, p. 188.

(٨٣) مكسيموس مونروند : تاريخ الحروب المقدسة ، ص ١٥١ ، وكذلك :
Runciman, The first cursade, in setton (ed.) Vol. I, p. 331, Michaud, History of the crusades, p. 200.

(٨٤) فسر الأستاذ لامب سبب موقف القوى الاسلامية السلجوقية والفاطمية السلبى من تقدم الفرنج بقوله أن أمير دمشق السلجوقى لم يكن مستعدا وقتذاك لمواجهة الفرنج بعد هزيمته فى موقعة «Lancea» ، أما الوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه فكان يظن أن الفرنج لا زالوا قابعين شمال طرابلس . راجع : Lamb, H. The crusaders, p. 188.

(٨٥) Michaud, F., History of the crusades, p. 200.

(٨٦) الرملة : مدينة من جند الأردن : وعاصمة اقليم فلسطين . بناها الخليفة الاموى سليمان بن عبد الملك ، عندما كان واليا على فلسطين فى خلافة أخيه الوليد ، ولكنه توفى قبل اكمالها فأكملها الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وسمح للسكان ببناء منازلهم حول قصورها ، وحفر قناة مائية بها تسمى قناة بردى ، كما حفر بها جبوب للمياه العذبة . راجع ياقوت الحموى ، ج ٢ ، ص ٨١٧ ، مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، نشر زترشتين ، ليدن ١٩١٩ ، ص ٣٢٨ . ووصفها ناصر خسرو الرحالة الفارسى =

للساحل الفلسطيني في ١١ رجب ٤٩٢ هـ / ١٤ يونيو ١٠٩٩ م . وكانت مدينة الرملة ، تختلف عن سائر مدن فلسطين ، إذ تعد بمثابة العاصمة الإدارية لفلسطين ، قبل الغزوات السلجوقية للشام ولكنها تداعت وفقدت أهميتها في الفترة السابقة مباشرة لمجيء الفرنج . وكانت الرملة وقتذاك مدينة إسلامية خاضعة لسيطرة الخلفاء الفاطميين ، حيث أوكل الأفضل شاهنشاه حكمها إلى بعض أمراء قبيلة بني ربيعة الذين سكنوا تلك المدينة ، والمناطق المحيطة بها[٨٧] .

وقد ارتاع سكان مدينة الرملة والمناطق المحيطة بها عند إقتراب الفرنج[٨٨] ، إذ أن حامية المدينة الفاطمية كانت قليلة العدد ، كما أن بعد المدينة عن البحر جعل مساعدة الأسطول الفاطمي لهم متعذرا للغاية فهرب سكانها من دورهم بزوجاتهم وأطفالهم ، وكل ما يملكونه واتجهوا نحو الجنوب الغربي ، حيث دمروا بشيء من التحدي كنيسة القديس « جورج الكبيرة » التي أقامها البيزنطيون في اللد ، وكانت لا تبعد عنها سوى ميلا واحدا . وعندما وصلت قوة من الفرنج بقيادة روبرت دى فلاندرز وجاستون بيرن ، أستولوا عليها وعلى اللد ؟ ورمموا كنيسة القديس جورج ، وأقاموا هناك أسقفا نورمنديا كاثوليكيا ، وهو الأسقف روبرت أوف روين «Robert of Roen» ، في رجب ٤٩٢ هـ / يونيو ١٠٩٩ م[٨٩] . وبذلك كانت الرملة أول مدينة إسلامية فاطمية يحتلها الفرنج في جوف الأراضي المقدسة ، وأول منطقة لاتينية يقيموها في سوريا

---

= عام ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، بقوله أنها مدينة كبيرة بها سور حصين من الجص والحجر ، وبين المدينة والبحر ثلاثة فراسخ ويعتمدون في شربهم على مياه الأمطار . وبها مسجد جامع ، مساحته ثلثمائة قدم في مائتين . وبهذه المدينة رخام كثير ، زينت معظم السرايات والبيوت بالرخام المنقوش بالزينة . وبها صنف من التين لا يوجد مثله في أي مكان ويصدر منها الى جميع البلاد . راجع ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٩ .

واختلفت الآراء حول تسمية الرملة ، فيقال أنها سميت الرملة لغلبة الرمال عليها ، ويذكر صاحب الروض المعطار أنها سميت على اسم امرأة . راجع القلقشندي : صبح الأعشى ، ط . الأميرية ١٩١٥ ، ج ٤ ص ٩٩ ـــ ١٠٠ ، راجع أيضا :

Le Strange, Palestine p. 303-309.

(٨٧) Runciman, The first cursade, in setton (ed.) p. 332; Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 58.

ويذكر المؤرخ اليهودي يوشع براور أن أكبر الجاليات اليهودية بالأراضي المقدسة كانت تقطن مدينة الرملة . راجع :

Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 58.

(٨٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ ؛ المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٤ .

(٨٩) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٤ ، كذلك : Fulcher of Chartres, Expedition, p. 115; Raymond of Aguilers., R.H.C., Hist. Occ., Vol. III, p. 292, William of tyre, deeds, p. 332.

وقد اعتمد فوشيه شارتر على روايتي المجهول وريمون الأجيل في روايته عن سقوط الرملة . ويلاحظ أن المصادر اللاتينية السابقة في رواياتها عن سقوط الرملة كانت مختصرة باستثناء رواية وليم الصوري فكانت أكثر تفصيلا . أما الروايات الاسلامية عن سقوط الرملة ، فكانت مختصرة للغاية بالنسبة للمصادر الفرنجية . راجع ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ٣٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥٠ .

٣٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥٠ .

ويذكر وليم الصوري أن مسلمي الرملة هدموا كنيسة القديس جورج بها لأنهم خشوا أن يقوم الفرنج باستخدام عوارض الكنيسة الخشبية في صناعة آلات الحصار اللازمة لهدم أسوار المدن المحصورة «William of tyre, deeds, p. 332.» انظر لوحة كنيسة الرملة التي تحولت إلى مسجد فيما بعد ، بعد استعادة المسلمين لها : Boase, Kingdoms and strongholds of the crusaders, p. 49.

الجنوبية أو فلسطين فى أوائل شعبان ٤٩٢ هـ / أواخر يوليو ١٠٩٩ م[٩٠] .

وخلال الفترة التى قضاها الفرنج فى الرملة عقدوا مجلسا للحرب وتشاوروا فى خطة التحرك ، فى وقت اشتدت فيه حرارة صيف يوليو القاسية . وفى ذلك المجلس ظهر رأى غريب وجرىء نادى به بعض القادة الفرنج قائلين أنه من الحماقة مهاجمة بيت المقدس فى ذلك الوقت من صيف يوليو وإنه من الأفضل أن يتقدموا للزحف على مصر ومهاجمة الخلافة الفاطمية فى عقر دارها باعتبارها هى العدو الحقيقى ، على أساس أن مفاتيح بيت المقدس توجد فى القاهرة كى يؤمنوا جانبهم من أى غزوات أو هجمات تأتى من الجنوب بين الحين والآخر وتكفل لهم حرية التجارة البرية والبحرية وسلامة الشواطىء الشامية من خطر الأسطول المصرى الفاطمى . وإذا أراد الصليبيين أن ينعموا بالإستقرار والأمان فى بيت المقدس فعليهم الإستيلاء على الدلتا[٩١] . ويلاحظ أن هذه الفكرة التى أثارها القادة فى هذا المجلس ظلت مسيطرة على عقول الصليبيين طوال عصر الحروب الصليبية حتى حاولوا تنفيذها أكثر من مرة خلال الحملات الصليبية فى القرنين الثانى عشر ، الثالث عشر الميلاديين .

ولكن هذا الرأى قوبل بالفتور والرفض من بقية زعماء الحملة وعلى رأسهم جودفرى دى بويون إذ كانوا يرون أن الظروف لا تسمح على الإطلاق بتلك المغامرة الجريئة المتهورة وأن مملكة بيت المقدس لم تكن قد قامت بعد ، ولم تثبت أقدام الفرنج فى فلسطين ، وأنه من الجنون محاولة مهاجمة الخلافة الفاطمية فى هذا الوقت من العام ، حيث الحرارة القاسية ، وقلة عدد الجيش الصليبى ، وإفتقاره الشديد إلى آلات حصار كافية ، بالإضافة لجهل الفرنج بالطرق والمناطق المؤدية إلى القاهرة . ورأى هذا الفريق أن الحكمة وسداد الرأى تقتضى وجوب الزحف مباشرة إلى القدس ، والإستقرار والتحصن فيها ، وقد تغلب الرأى الأخير[٩٢] .

وبعد مناقشة قصيرة تقرر مواصلة السير إلى بيت المقدس مباشرة ، فتركوا الرملة فى ( شعبان ٤٩٢ هـ / يوليو ١٠٩٩ م ) ، متخذين الطريق القديم الذى يدور حول تلال فلسطين وعند إجتياز الفرنج قرية عمواس[٩٣] ، وفدت عليهم جماعات كثيرة من مسيحيى بيت[٩٤] لحم ، حيث

---

(٩٠) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، نشر زترشتين ١٩١٩ ، ص ٣٢٨ . ويشير لاسب لوجود طائفة من السامرائيين «Samaritans» ظلت باقية بالرملة ساعدت الفرنج وأرشدتهم لداخل المدينة وشوارعها ومسالكها ومخارجها . Lamb, The crusaders,p. 189; Mayer, The crusades, p. 59; Runciman, The first crusade, in sett setton (ed.,) Vol. I, p. 332.

(٩١) Raymond of Aguilers, R.H.C. Hist. occ. Vol. III, p. 292, in Bongars, Vo. I. p. 172.
وريموند أجيل هو المؤرخ الوحيد الذى أنفرد بذكر هذه الرواية والذى لو لم يكن حاضرا للمجلس لم تكن لتصدق ما أورده .

(٩٢) Michaud, History of the crusades, Vol. I, p. 200, Archer & Kings ford, Crusades, p. 84; Lamb. The crusaders, p. 189; Zoé Oldenburg, The Crusades, New York 1965, p. 131; Runciman, The first crusade, In setton (ed.) p. 332.

(٩٣) عمواس : قرية مشهورة من عصر المكابيين وعرفت باسم نيقوبوليس . راجع :
Fulcher of charters, Expedition, p. 115; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 336.

(٩٤) بيت لحم : قرية على بعد فرسخين من مدينة القدس ، بها ولد المسيح عليه السلام وبها كنيسة عظيمة وزعموا أن بها قطعة من ...

استحثوا جودفرى دى بويون للإسراع إلى بيت المقدس ، ووعده بالمعاونة فى سيره ، إلا أن الفاطميين توعدوا المسيحيين ، وتأهبوا للثأر منهم ، فضلا عن أنهم استحضروا عمالا من مصر لتقوية إستحكامات بيت المقدس ، وتحصين المدينة[٩٥] المقدسة .

وقد دعا سكان المدينة الفرنج لإحتلال مدينتهم ( مسقط رأس المسيح عليه السلام ) ، ولذلك أرسل جودفرى ثلة ضئيلة من الفرسان تقدر بمائة رجل بقيادة تانكريد النورمندى ، بلدوين لى بورج إلى بيت لحم فبلغوها عند الفجر . وخرج مسيحيو المدينة وأستقبلوهم على إختلاف مذاهبهم إستقبالا حافلا ، مهللين بأن ساعة الخلاص قد أتت ، وأنهم جميعا أتباع المسيح ورعاياه ، ولا فرق بين كاثوليكى وسريانى[٩٦] . وأراد سكان المدينة إظهار ما فى نفوسهم من فرح ، فرفعوا راية تانكريد وركزوها عالية على كنيسة أم الاله[٩٧] . وبسقوط مدينة بيت لحم فى أيدى الفرنج اعتقدوا أنهم أوشكوا على الهدف الذى تركوا أوربا من أجله وهو الإستيلاء على مدينة بيت المقدس .

غادر تانكريد بيت لحم لملاقاة بقية الجيش الصليبى بحيث لم يحل يوم الثلاثاء ( رجب ٤٩٢ هـ / ٧ يونيو ١٠٩٩ م ) ، إلا وكان الفرنج جميعا قد خيموا أمام المدينة المقدسة وأحاطوا بها وشرعوا على الفور فى حصارها[٩٨] .

---

= النخلة التى كانت عند ولادته . قرب هذه القرية يوجد قبر راحيل ( راشيل بالعبرية ) والدة يوسف وبنيامين عليهما السلام ، ويقال أن بها قبر النبى داود وسليمان عليهما السلام . راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ١ ص ٧٧٩ ، القرمانى : أخبار الدول ، ص ٤٣٦ ؛ ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ، تحقيق رافيس ، باريس ١٨٩٤ ، ص ٢٤ . ويذكر ناصر خسرو أنه قضى بها ليلة أثناء مروره بفلسطين . راجع ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٦ . انظر أيضا ما كتبه جغرافى يدعى على هروات : بقاع الحج ، مخطوط مكتبة البودليان ، ورقة ٤١ نقلا من : Le Strange, G. Palestine under The Muslems, p.p. 299-200.

(٩٥) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 336.

(٩٦) Flucher of chartres, History of the expedition to Jerusalem,Knoxville 1969, p. 116; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 336.

(٩٧) يذكر المؤرخ فوشيه أوف شارتر ، أن مسيحيى بيت لحم خشوا من فرسان تانكريد لاعتقادهم فى البداية أن هؤلاء الفرسان ليسوا الا طليعة لجيش مصرى ضخم ، ولكن عندما انبلج الفجر ورأوا اشارات الصليبيين ، خرجوا لاستقبالهم فى فرحة غامرة . راجع :

Flucher of Chartres, Expedition, p. 115; Albert d'Aix, R.H.C., Hist. occ. Vol. IV, p. 463; William of tyre, deeds, Vol. I, p.p. 335-336.

(٩٨) المؤرخ المجهول : اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة د . حسن حبشى ، ص ١١٥ . وهو المؤرخ الصليبى الوحيد الذى ذكر بداية حصار المدينة يوم الثلاثاء ٦ يونيو ، ويذكر الأستاذان أرشر ، كنجز فورد أن التاريخ الحقيقى لبداية حصار القدس لا يزال غامضا ، ويرى أنهم بدأوا فى حصارها فى ٦ يوليو مؤيدين بذلك رواية أعمال الفرنجة . راجع :

Archer & Kingsford, The crusades, p. 84.

أنظر أيضا وصف مشاعر وأحاسيس الصليبيين عند رؤيتهم القدس ، وما أثارته لديهم من ذكريات حبيبة الى قلوبهم .

Fulcher of Chartres, Expedition, p. 115. Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ., Vol. III, p. 330; William of tyre, deeds, Vol. Ip. 339.

وتعتبر مدينة بيت المقدس[٩٩] من أضخم المعاقل والقلاع في عالم العصور الوسطى ، فاشتهر موقعها بالقوة والمنعة وتناولته يد الإصلاح عبر عصورها القديمة ، إذ أن الأسوار التي عسكر الفرنج في ظلها ، كان قد بناها الامبراطور هادريان عندما أعاد تشييد المدينة وأدخل عليها إضافات وأجرى بها إصلاحات كل من البيزنطيين والأمويون والفاطميون ، فإلى الشرق كان يحمي أسوار المدينة منحدرات وادي كسيدرون ( وادي السيدة مريم ) ، وهي منحدرات شديدة الهبوط وفي الجنوب الشرقي هبطت الأرض إلى وادي جهنم .

ويحاذي السور الغربي واد أقل عمقا من الواديين الآخرين . ولم تكن الأرض ملائمة للهجوم على تحصينات المدينة إلا من الناحية الجنوبية الغربية . أما القلعة المسماه ببرج داود[١٠٠] ، فتقع في منتصف السور الغربي وتسيطر على الطريق الذي يسير إزاء جانب التل حتى باب يافا ، وهي التي تحصنت بها الحامية الفاطمية المدافعة عن المدينة[١٠١] .

وكانت بيت المقدس قد آلت منذ شهر رمضان عام ٤٩١ هـ / أغسطس ١٠٩٨ م ، إلى سيطرة الفاطميين الذين تمكنوا من إنتزاعها من أيدي الأراتقة التركمان إذ استغل الأفضل شاهنشاه النزاع القائم بين دقاق ورضوان بن تتش ، والأحداث الناشبة في شمال الشام والصراع القائم بين السلاجقة والفرنج ، فقام بحصار المدينة وضرب أسوارها بالمجانيق وتمكن عسكره من دخولها ، وولى عليها أميرا من قبله يدعى إفتخار الدولة ، ومعه حامية قوية من الجند الفاطميين للدفاع عن المدينة ضد الأخطار الخارجية[١٠٢] .

عندما علم إفتخار الدولة بتقدم الفرنج وخطتهم في الإستيلاء على القدس ، كان لديه وقتا كافيا ليتخذ كافة الإحتياطات اللازمة للدفاع عن المدينة المقدسة ، ولمواجهة الهجوم الصليبي . فأمر

---

(٩٩) استفاض غالبية المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب في وصف القدس وموقعها وبخاصة من الناحية الدينية . انظر مثلا ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ط . أوروبا ، ج ٤ ص ٥٩٠ وما بعدها ، المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط ، أوروبا ١٩٠٨ ، ص ١٦٦ وما بعدها ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٠١ ؛ ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ٢١ وما بعدها ، راجع أقوال المؤرخين والرحالة العرب في مصادر لم تنشر بعد في كتاب :

Le Strange, G., Palestine., p.p. 86-223.

(١٠٠) يرى فوشيه أوف شارتر أن برج داود كان أحسن مواقع القدس وأقواها . انظر وصفا دقيقا لهذا البرج في المصادر الغربية والمراجع الحديثة : Fulcher of Chartres, Expedition, p.p. 116-117; of also; Michaud, History of the crusades, Vol. I, p.p. 200-202.

(١٠١) ويذكر فوشيه أنه كان بامكان عدد قليل من الرجال مزودين بالمؤن الكافيه ومحصنين داخل هذه القلعة ، الدفاع عن المدينة ضد أية هجمات . راجع : Fulcher of Chartres, Expedition, p.p. 116-117; William of Tyre, deeds, Vol. I, p.p. 339-340.

وعن مختلف التسميات التي أطلقت على بيت القدس راجع : عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ١٦٧ ، كذلك :
William of Tyre, deeds, Vol. I, p.p. 340-342.

(١٠٢) ابن العبري : مختصر الدول ، ص ٣٦٩ ؛ الأزدي : الدول المنقطعة ، ورقة ٧٤ .

رجاله أن يطمروا ما كان من آبار وصهاريج وعيون مائية الواقعة خارج المدينة[١٠٣] ، ويقال أنهم قاموا بتسميمها باستثناء عين ماء تسمى « عين سلوان »[١٠٤] «Poole of Siloe» ، التي كانت تقع أسفل الأسوار الجنوبية للمدينة ، والتي كانت على مرمى قذائف مجانيق الحامية الفاطمية كما أن مياهها لم تكن صالحة للشرب[١٠٥] ، وقد أعترف المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن طمي هذه الآبار والعيون والصهاريج المائية سوف يشكل عائقا كبيرا للجيش الصليبي أثناء حصار المدينة[١٠٦] .

وما اتخذه إفتخار الدولة من تدابير أخرى كانت ناجحة وقوية الأثر ، فتوافر لديه المؤن والماء ، وفاقت أسلحته أسلحة الفرنج ، كما أنه قام بقطع بقية موارد المياه وقام بجمع الماشية من القرى المجاورة وإخفاؤها ، كما قام بجمع الكثير من المؤن والإمدادات ، إستعداداً لمواجهة حصارا طويلا[١٠٧] ، ولم يكتف بذلك ، بل قام بتقوية وتدعيم أسوار المدينة وأبراجها ، والتأكد من تحصينها وذلك عن طريق أكياس ملئت بالقطن والدريس لتصمد أبراج المدينة أمام مجانيق الفرنج ، وأعتمد في الدفاع عن تلك الأسوار بحامية كبيرة من الجند المصريين والسودان[١٠٨] .

---

(١٠٣) Caffaro, R.H.C. Hist. occ. Vol. p. 56 chap. IX.

(١٠٤) عين أو بركة ماء سلوان . ويذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زار القدس في ٤٣٨ هـ / ١٠٤٧ م أن القدس التي بنيت على قمة جبل ليس بها مصادر مياه غير مياه الأمطار ورساتيقها ذات عيون مائية أما المدينة نفسها فليس بها عين ماء واحدة ولهذا اعتمد سكان القدس في السقي والشرب على صهاريج داخل المدينة ، وعلى مسافة نصف فرسخ منها كانت توجد عين ماء تسمى عين سلوان تنبع من الصخر ويقال ان من يستحم بها يشفي من أمراضه . راجع ناصر خسرو : سفر نامة ، ص ٢١ .

ويذكر ياقوت الحموي أن عين ماء سلوان محله في ربض القدس بها هذه العين ، وكان عثمان ابن عفان قد وقفها على ضعفاء ومساكين بيت القدس تحت بئر أيوب . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ص ١٢٤ ــ ١٢٥ ، أنظر وصفا لهذه العين في Flucher of Charter, Expedition, p. 161; William of tyre, deeds, Vol. I. p. 348.

(١٠٥) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٣٩٦ . أنظر وصفا لعين سلوان لأحد الرحالة الغربيين : Smith, J.A., Jerusalem, the to pography, economic and history, London 1907, p.p. 97-98.

(١٠٦) لمزيد من التفاصيل راجع : William of tyre, deeds, Vol. I, p. 346.

ويلاحظ أن رواية المؤرخ الانجليزي روجر أوف وندوفر عن استعدادات افتخار الدولة للدفاع عن المدينة تشبه إلى حد كبير رواية وليم الصوري ولكنه أخطأ عندما ذكر أن حامية المدينة كانت من الأتراك السلاجقة وليس من الفواطم ، وربما التبس عليه الأمر . راجع : Roger of Wendover, Flowers, Vol. I, pp. 327-328.

(١٠٧) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٦ ، كذلك : Raymond of Aguilers, R.H.C. Hist. occ. vol. III, p.p. 293-294.

وأورد وليم الصوري تفاصيل أكثر من ذلك . أنظر : William of tyre, deeds, vol. I. p.p. 346-348.

(١٠٨) Flucher of chartres, Expedition, p. 118; Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ., vol. III, p. 294.

ولم تشر المصادر الإسلامية إلى هذه الإجراءات التي اتخذها افتخار الدولة للدفاع عن بيت المقدس أو حتى إلى عدد الحامية الفاطمية المدافعة عنها . واختلفت المصادر الفرنجية في تقدير عدد الحامية الفاطمية بالمدينة ، فيذكر ألبرت داكس أن عدد الحامية الفاطمية المدافعة عن أسوار المدينة كانت أربعمائة جندي مصري . راجع :

= Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 470

وقد أقدم افتخار الدولة على خطوة جريئة إذ قام بطرد كل سكان المدينة من المسيحيين الأرثوذكس وذلك لتوفير المؤن والإمدادات للحامية الفاطمية ولخوفه من حدوث أية خيانات متوقعة من جانبهم ، وخشية إنضمام مسيحيي الشرق بالمدينة إلى جانب إخوانهم مسيحيي الغرب ، ويدلوهم على مواضع الضعف في أسوار المدينة(١٠٩) .

وترى بعض المراجع الحديثة(١١٠) ، أن إفتخار الدولة بطرده سكان القدس المسيحيين ارتكب خطأ كبيرا إذ أنه أحدث بذلك ثغرات في أماكن الدفاع عن المدينة في الوقت الذي زاد فيه النقص الشديد في الإمدادات .

ولم يستثن إفتخار الدولة من سكان المدينة سوى الجماعات اليهودية فسمح لهم بالبقاء داخل المدينة وكانت هذه الجماعات اليهودية تتركز في الجزء الشمالي من المدينة إلى الشرق من الحي الذي كان يسكنه المسيحيين قرب كنيسة الضريح المقدس(١١١) .

ويذكر الكاتب اليهودي يوشع براور(١١٢) «Joshua Prawer» أن إفتخار الدولة كان قد كلف تلك الجماعات اليهودية بالدفاع عن أحد نقاط السور القريبة من الحي اليهودي بالقرب من

---

= وترى مصادر أخرى أن عدد الحامية الفاطمية كانت أربعون ألفا يشملون سكان المدينة القادرين على حمل السلاح وسكان المناطق المجاورة الذين فروا أمام الفرنج إلى داخل المدينة تأمينا لأنفسهم وللمشاركة في الدفاع عنها . راجع :

William of Tyre, deeds, vol. I, p. 349; Roger of wendover, Flowers, vol. 1, p. 428.

وترى بعض المراجع الحديثة أن الحامية الفاطمية لم تزد عن ألف رجل من الجند الأقوياء ويستثنى من ذلك سكان المدينة . أنظر مناقشة ذلك في :

Stevenson, The crusaders in the East, p. 33 F. 2; Michaud, History of the crusades. vol. I, p. 204 Cambridge Med. Hist., vol. V, p. 295.

(١٠٩) انظر تفاصيل ذلك في : William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 333-334.

ويذكر وليم الصوري أن حاكم المدينة الفاطمي قام بجمع غالبية السكان من مسيحيي المدينة وتدمير كنيسة القيامة ومصادرة أموالهم وأملاكهم وفرض غرامة باهظة على المسيحيين تصل إلى أربعة آلاف قطعة ذهبية ، كما قبض أيضا على المقدم المسمى جيرارد ( ربما يقصد جيراردي ريملورد ) المشرف على مستشفى بيت المقدس وقام بتعذيبه لشكوكه فيه . راجع :

William of Tyre, deeds, vol. I, p. 334.

ويذكر ميشو أن بطريرك المدينة اليوناني المسمى زيمون فر إلى جزيرة قبرص يلتمس الأمان بها خوفا من إفتخار الدولة . راجع : Michaud, History of the crusades,vol. I, p. 206.

ومن الصعب تصديق هذه الروايات من الحوليات الفرنجية أو المراجع الغربية إذ يتضح منها المبالغة والبعد عن الحقيقة وتؤيد في ذلك بيسانت وبالمر . راجع :

Besant & Palmer, Jerusalem, p. 201.

(١١٠) Zoé oldenburg, Crusades, p. 134; watson, the story of Jerusalem,p. 174.

(١١١) Prawer, The Latin Kingdom, p. 58.

(١١٢) Prawer, J., The vicissitude of the Jewish quarter in Jerusalem in the Arabic period (Hebrew zion quarterly review), vol. XII, p.p. 136-148.

ويذكر براور في نفس المقال السابق أن الجماعات اليهودية في القدس استقرت بعد الفتح العربي قرب منطقة المعبد القديم ثم بعد بجانب الحي المسيحي . راجع :

Prawer, J. The Vicissitude, p.p. 136-137; The latin kingdom, p.p. 58, 235.

القسم الشرقى لأسوار المدينة ، وكانت تعد أضعف نقطة فى دفاعات المدينة .

ويرى المؤرخ الفريد دوجان[١١٣] «Alfred Duggan» أن إبقاء إفتخار الدولة على اليهود داخل المدينة ، أثبت أنهم كانوا متحالفين مع المسلمين منذ الفتح العربى حتى سقوط المدينة المقدسة فى أيدى الفرنج .

ويرى أحد المؤرخين أن ما قام به إفتخار الدولة من إجراءات للدفاع عن القدس وطرده المسيحيين الأرثوذكس خارج المدينة وإبقاء اليهود كان إجراء سديدا ، إذ أن عدد المسيحيين فى داخل المدينة كان يصل إلى بضعة آلاف ، كانوا غير مستعدين للقتال نظرا لمنعهم من حمل السلاح فلا يصح الركون إليهم أو الوثوق فيهم فى حالة قيام الصراع مع أخوانهم المسيحيين الغربيين ، كما أن إخراجهم يوفر المؤن للمدينة المحاصرة ولمن تبقى من السكان[١١٤] .

وكان إفتخار الدولة يثق ثقة كبيرة فى قوة الدفاعات عن المدينة المقدسة ، وأسوارها ومناعتها من الناحية الطبيعية من الجوانب الغربية والجنوبية والشرقية حيث توجد وديان عميقة ضيقة شديدة الإنحدار يتعذر على الفرنج حصارها أو تطويقها من تلك الجهات[١١٥] .

وكان تفاؤل إفتخار الدولة معقولا إذ أن الفرنج كانوا يعملون فى أرض يجهلون طبيعتها تماما ، كما أنهم كانوا يعانون من نقص فى الإمدادات وآلات الحصار وأن خطوط مواصلاتهم بالأسطول الصليبى عن طريق البحر تكاد تكون معدومة لوجود الأسطول الفاطمى ، الذى كان يجوب البحر المتوسط ، ولو قدر لهم حصار المدينة فإن إعدادهم لم تكن كافية لحصارها أو إقتحامها وطبقا لما ذكرته الحوليات اللاتينية[١١٦] ، فإن عدد الجيش الفرنجى المحاصر للمدينة كان يقدر بأربعين ألفا ، منهم عشرون ألفا فقط قادرين على الحرب وحمل السلاح[١١٧] .

---

(١١٣) Duggan, A., The story of the crusades, p. 77.

(١١٤) سيفن رنسيمان : الحروب الصليبية ، ترجمة د . العرينى ، ط . بيروت ١٩٦٧ ، ج ١ ص ٣٩٤ — ٣٩٥ . وعن مناقشة أعداد المسيحيين داخل القدس عند الحصار الفرنجى لها . راجع عارف العارف : تاريخ القدس ، ط . القاهرة ١٩٥٩ م ، ص ٢٩٢ .

(١١٥) Schlumberger, G., Récits du Byzance et des croisades, p. 88; Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 205; Runciman, S., The First crusade, In setton (ed.) vol. I, p. 333.

(١١٦) Annales des terre sainte, «Archives de L'orient Latin», Paris 1884, to. II, p. 429; Raymond of Aguilers, Historia Francourn qui ceperunt hierosalym, R.H.C., Hist occ., vol. III, p. 295.

(١١٧) يذكر ريموند أجيل أن عدد القادرين على حمل السلاح والقتال كان ألف وثلاثمائة من الفرسان وألف ومائتى راجل . ولقد تضاربت وتناقضت روايات الفرنج الأخرى حول عدد الجيش الصليبى المحاصر للقدس . راجع :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 349; Roger of wendover, Flowers, vol. I, p. 428, Stevenson, Crusaders in The East, p. 33 F. 3.

أ - مبالغة هذه الآراء فى .

Camb. Med. history, vol. V. p.p. 297-290, La Croix, La Chevaleril et les croisades, Paris 1887, p. 166.

وكانت الرواية الإسلامية الوحيدة التى انفردت بذكر عدد الجيش الصليبى المحاصر لمدينة القدس هى رواية المؤرخ المجهول لتاريخ سلاطين المماليك فيذكر أن عدد الفرنج الذين نازلوا القدس كانوا ستة آلاف ومائة فارس ، وثمانية وأربعين ألفاً من الرجالة . راجع مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، نشر زترشتين ، ط . ليدن ١٩١٩ ، ص ٢٣٠

وأدرك الفرنج أنه كانت توجد قوة لا يمكن قهرها بسهولة داخل مدينة القدس ، غير أنهم عزموا إسقاطها دون تأخير[١١٨] وعقدوا مجلسا عسكريا لبحث كيفية حصار المدينة واستعانوا فى ذلك المجلس بمسيحيى المدينة المطرودين منها ، والذين كانوا على علم تام بالأماكن والمواضع الملاءمة للحصار لبدأ الهجوم منها[١١٩] .

وعلى أية حال فقد أخفق الفرنج فى مهاجمة المدينة المقدسة من الجهات الجنوبية والغربية والشرقية لوجود بعض الموانع الطبيعية وقرر القادة تركيز الهجوم على السور الشمالى للمدينة[١٢٠] ، وقسم الفرنج أنفسهم أقساما وفرقا إتخذت كل واحدة منها موقعا من السور تأهبا للهجوم وحصار المدينة من جميع منافذها حتى لا يمكنوا المسلمين من الإتصال بالخارج ، والحصول على أية مساعدات أو إمدادات[١٢١] . فتمركز روبرت النورمندى بقواته ناحية السور الشمالى وعلى إمتداد هذا السور تجاه باب الزهور ( باب هيرود أو باب الساحرة ) وبجانبه قوات روبرت فلاندرز وكانت تقف تجاه باب العمود أو الأعمدة ( باب القديس استفان أو باب دمشق ) وكان يرافقهم الأمير الشاب إدجار أثلنج ومعه جنوده الإنجليز فى حين وقفت قوات جودفرى دى بويون ، أمير اللورين تجاه الركن الشمالى الغربى حتى باب يافا ، وتعاونه قوات تانكريد[١٢٢] وأتخذ ريمون دى سان جيل موقعه جنوب موقع جودفرى بإتجاه الغرب ولكنه اكتشف أن طبيعة الأرض لن تمكنه من مهاجمة المدينة بالإضافة إلى وقوع قواته تحت رحمة سهام وقذائف برج المدينة الذى كان يعلوه فتحرك بعد يومين إلى موقع جديد عند جبل صهيون[١٢٣] وبذلك حاصرت الجيوش الفرنجية المدينة المقدسة من جميع جهاتها بإستثناء الجانبين الشرق والجنوب الشرقى الذين خف الحصار حولهما لوجود الموانع الطبيعية[١٢٤]

---

(١١٨) Fulcher of chartres, Expedition, p. 119.

(١١٩) William of tyre, deeds, vol. I, p. 349.

(١٢٠) William of tyre, deeds, vol. I, p. 349.

(١٢١) William of tyre, Ibid.

ويذكر المؤرخ اليهودى يوشع براور فى فصله الخاص « بطرق حصار المدن فى العصور الوسطى » ، أن تنظيم وشكل حصار الفرنج لمدينة القدس كان يسمى « الحصار القريب » وهى أحدى الطريقتين المعروفتين فى أوروبا العصور الوسطى لحصار المدن ، وتعتمد هذه الطريقة على حرمان المدينة أو الحصن من الحصول على أية إمدادات ونجدات خارجية لاهلاك الحامية فى الداخل ثم شن هجوم شامل على الأسوار بواسطة سلالم التسلق والأبراج المتحركة . راجع :

Prawer, The Latin kingdom, p. 345.

(١٢٢) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٤ ــ ١١٥ ، وكذلك :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 349.

ويذكر ميشو أن تانكريد النورمندى قابل فوق جبل الزيتون ناسكا نورمنديا أرشده لبعض مواقع الضعف حول المدينة :

Michaud, Crusades, vol. I, p, 205.

(١٢٣) William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 349-450.

(١٢٤) William of tyre, deeds, vol. I, p. 350.

وقد شبه ميشو الحصار الفرنجى لمدينة بيت المقدس بحصار الرومان لها فى عهد الامبراطور فسباسيان .

Michaud, History of the crusades, vol. I, p.p. 205-206.

وظل الفرنج ما يقرب من خمسة أيام تجاه المدينة دون القيام بهجوم فعلي عليها إذ كانوا يواجهون عدة صعوبات ، تتمثل في نقص الإمدادات والإفتقار إلى المياه في خلال شهر يوليو ، بحيث أصبح الحصول على المياه مشكلة كبيرة فكان عليهم أن يسيروا مسافة خمسة أو ستة أميال للبحث عن المياه في وقت عانوا فيه من غارات رجال الحامية الفاطمية الذين كانوا ينقضون عليهم أثناء العودة ويستولون على ما حصلوا عليه من مياه(١٢٥) .

كما عانى الفرنج أيضاً من نقص المؤن ، فرغم أن مسيحيي القرى المجاورة كانوا يظهرون لهم المودة ويمدونهم بالطعام ، إلا أن ما لديهم لم يكن كافيا وذلك لقيام إفتخار الدولة بمصادرة ما لديهم من مؤن قبل وفود الفرنج(١٢٦) . كما كان الفرنج يفتقرون أيضا للأبراج المتحركة وآلات الحصار الكافية ، وذلك لعدم وجود الأخشاب اللازمة لصناعة تلك الآلات والأبراج باستثناء بعض السلالم التسلق القليلة(١٢٧) .

ولكن الجند الفرنج الذين كانوا شديدي التحمس لإسقاط المدينة المقدسة بدون إبطاء ، ألحوا على قادتهم للقيام بمهاجمة المدينة بدون إنتظار بناء أبراج أو صنع مجانيق أو آلات حصار المدينة(١٢٨) ، وسرعان ما أصدر القادة الفرنج الأمر بالهجوم على المدينة يوم الأثنين ١٩ رجب ٤٩٢ هـ / ١٢ يونيو ١٠٩٩ م(١٢٩) ، وكان من الطبيعي أن تحملهم الحماسة الدينية على الإستبسال وشن هجوم قاسي . وبلغ من قسوة وعنف الهجوم أن إنهارت التحصينات الخارجية لأسوار المدينة الشمالية ، ولكن الحماسة الدينية لم تكن تكفي وحدها لنجاح الهجوم الصليبي إذ أن قلة الذخيرة والمياه وحرارة الجو القاسية واستبسال رجال الحامية الفاطمية في الدفاع عن المدينة(١٣٠) كان السبب الرئيسي وراء فشل هذا الهجوم ، الذي هلك فيه الكثير منهم ، مما حتم

---

(١٢٥) Fulcher of chartres, Expedition, p. 120; Raymond of Aguilers, in R.H.C., Hist. occ. vol. III, p.p. 393-394.

(١٢٦) Runciman, S., The first crusade, p. 334.

(١٢٧) Fulcher of chartres, Expedition, p. 119.

(١٢٨) Fulcher of chartres, op. cit. p. 119; Raymond of Aguilers, R.H.C. occ. vol. III, p. 292.

(١٢٩) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٥ . ويذكر فوشيه شارتر أن الهجوم كان في ٣ يونيو ١٠٩٩ م ، راجع :
Fulcher of chartres, Expedition, p. 119.

وقد أيد رأي فوشيه بعض المراجع الحديثة مثلا :
Stevenson, Crusaders, p. 34. Runciman, The first crusade, p. 334;

وتؤيد بعض المصادر الفرنجية الأخرى رأي المؤرخ المجهول وفوشيه ، مثلا :
William of tyre, deeds, vol. 1, p. 350; Roger of wendover, Flowers, vol. I, p. 428.

(١٣٠) استخدم رجال الحامية الفاطمية أحجار المجانيق والزيت والقار المغلي والنار الاغريقية لافشال الهجوم الفرنجي . ويذكر الفريد دوجان أن النار الاغريقية كانت سلاحا سريا عرفه الصليبيون لأول مرة بالشرق . ويذكر أن البيزنطيين هم أول من أخترعوها لحماية القسطنطينية من الهجوم الإسلامي في خلافة سليمان بن عبد الملك وعهد الامبراطور ليو الثالث الأيسوري وأنها ظلت سلاحا سريا عدة قرون حتى عرفها العرب ، ثم الفرنج، راجع :
Duggan, The story of the crusades, p.p. 75-76.

بالفرنج للإنسحاب بعد ساعات من القتال العنيف حاملين قتلاهم وجرحاهم وبذلك فشلت موجة الهجوم الصليبي الأول على المدينة المقدسة بإعتراف المؤرخين الصليبيين أنفسهم(١٣١) .

وتذكر بعض الحوليات اللاتينية(١٣٢) ، أن فشل الهجوم الصليبي الأول على القدس يعزى ببساطة إلى افتقار الصليبيين لسلالم التسلق الكافية واللازمة لإعتلاء الأسوار والأبراج والآلات اللازمة لدك أسوار المدينة . ونحن نرى أن قوة واستبسال دفاع الحامية الفاطمية عن المدينة هو السبب الحقيقي لفشل هذا الهجوم الفرنجي .

لقد أدرك الفرنج بعد فشل هجومهم الأول على المدينة المقدسة مدى إندفاعهم عندما تصوروا أن المعجزات سوف تساعدهم على إسقاط المدينة كما أخبرهم بذلك أحد الرهبان ، وسرعان ما عقدوا إجتماعا في أواخر رجب ٤٩٢ هـ / ١٥ يونيو ١٠٩٩ م ، قرروا فيه إرجاء الهجوم على المدينة وضرورة الإهتمام بصنع عدد كاف من المجانيق والأبراج وسلالم التسلق ، التي بدونها لن يتمكنوا من شن أي هجوم لإسقاطها(١٣٣) .

غير أن الفرنج واجهتهم في نفس الوقت مشكلة كبيرة تتعلق بصعوبة الحصول على المواد والأخشاب اللازمة لذلك فكان عليهم التوغل في الداخل والسير لأميال بعيدة للحصول على تلك المواد من الغابات المحيطة بمدينة نابلس والتي كانت تقع على مسافة ستة وثلاثين ميلا منهم(١٣٤) .

وقد دل الفرنج بعض مسيحي المنطقة وأرشدوهم لواد منعزل يبعد عن المدينة بستة أميال تنمو فيه الأشجار ، وعلى الفور تم إستدعاء الصناع والنجارون بالجيش ، وفي حماسة كبيرة قاموا بصناعة آلات وأبراج الحصار والمجانيق وآلات الكباش وذلك بإشراف المهندس الصليبي البارع جاستون أوف بيرن(١٣٥) «Gaston of Bearn» . وبذل الفرنج جهودا ضخمة لسرعة إتمام تلك

---

(١٣١) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ص ١١٥ كذلك :

Flucher of charters, Expedition,p. 119.

وتذكر بعض الآراء أن الفرنج تمكنوا من اعتلاء الأسوار العليا للمدينة :

Michaud, History of the crusades, p. 208, Besant & Palmer, Jerusalem, p. 201.

(١٣٢) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٥ ، كذلك :

Fulcher of chartres, op. cit, p. 119; William of tyre, deeds, vol. I, p. 350.

(١٣٣) Fulcher of chartres, op. cit., p. 119; Raymond of Agullers, R.H.C. Hist. occ., vol. III, p.p. 297-298.

ويذكر المؤرخ المجهول أنهم أرجأوا الهجوم لمدة عشرة أيام . راجع : أعمال الفرنجة ص ١١٥ .

(١٣٤) Archer & Kingsord, the crusades, p. 88.

(١٣٥) William of tyre, deeds, vol. I, p. 351; Roger of wendover, Flowers, vol. I, p. 428; Oman, Art of war, vol. I, p.p. 135-137.

وتذكر بعض المراجع الصليبية أن الفرنج لم يتورعوا عن هدم المنازل والكنائس القديمة الصغيرة في المنطقة المحيطة للاستفادة من الألواح والأخشاب الموجودة بها لصناعة آلات الحصار اللازمة .

Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 208, Besant & Palmer, Jerusalem, p. 202.

الآلات . ولكن العمل كان يسير ببطء لإفتقادهم بعض المواد الأولية ونقص أعداد الصناع اللازمين لصناعة الآلات ، فى الوقت الذى استمروا يعانون فيه من مشكلة نقص الذخيرة والمؤن وقلة المياه أثناء شهر يونيو وحرارته القاسية ، خاصة وأن مسلمي المدينة قاموا بردم كل الآبار والعيون حول المدينة وتخريب الصهاريج الموجودة خارجها[١٣٦] ، فى وقت وجدوا فيه صعوبة كبيرة فى إحضار المياه[١٣٧] بسبب الكمائن التى كان ينصبها لهم بعض جنود الحامية الفاطمية وقتلوا الكثير منهم[١٣٨] .

وبلغ من قسوة العطش حداً أوشك معه الصراع أن ينشب بين المسيحيين أنفسهم للحصول على المياه[١٣٩] ، وأعترف القادة الفرنج بذلك فى خطاب وجهوه إلى بابا الغرب الأوروبى[١٤٠] ، فى وقت لم تصلهم فيه الإمدادات من البحر نظرا لنشاط الأسطول الفاطمى الذى كان يجوب مياه البحر المتوسط مانعا وصول أية إمدادات إلى الفرنج[١٤١] . ويذكر المؤرخ ميشو[١٤٢] أنه لو قادر للحامية الفاطمية شن هجوما مفاجئا على الجيش المسيحي المحاصر للمدينة فى ذلك الوقت الحرج الذى واجهوه لتحقق نصرا سهلا وساحقا فى آن واحد على الصليبيين ، وتمكنوا من كسر الحصار الصليبي للمدينة المقدسة . ولكن يبدو أن الحامية الفاطمية كانت واثقة أن الفرنج لن

---

(١٣٦) تذكر المصادر الفرنجية أن الفرنج كانوا يضطرون للسير مسافة ستة أميال لإحضار المياه فى قرب من جلود الحيوانات ، راجع مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٦ ، كذلك :

Flucher of chartres, op. cit. p. 118, Raymond of Aguilers. op. cit. 1.

(١٣٧) إن مصدر المياه الوحيد الذى كان صالحا للشرب هو عين ماء سلوان ، التى تقع على بعد ثلاثة أميال من المدينة . ويقال أن المياه التى كانت تجلب منها كانت بثمن مرتفع وسط المعسكر الصليبى

(١٣٨) راجع :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 353; Roger of wendover, Flowers, vol. I, p. 429.

(١٣٩) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٦ ، كذلك :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 353.

ولقد رسمت المصادر والمراجع الصليبية صورة واضحة لحالة الفرنج والمصاعب التى عانوها أثناء حصار المدينة ورسم ريموند أجيل صورة عليقة لما كان عليه الفرنج والبلى وأما بعضه . راجع :

Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ., vol. III, p. 294.

وتذكر بعض المراجع أن بعض الجند الفرنج الذى كانوا يعثرون على عيون المياه كانوا يخفونها عن رفاقهم وأن قسوة العطش والحرارة القاسية جعلتهم يحسون الجماعة التى انشبت بين صفوفهم وبلغ بهم الأمر أنهم شربوا من دماء حيواناتهم . راجع :

Michaud, History of the crusades, vol. I, p.p. 209-210; Archer & kingsford, The Crusades, p.p. 85-86; Besant & palmer, Jerusalem, p.p. 202-203.

ويذكر لامب أن الفرنج فكروا فى الاستنجاد ببوهيمند أمير أنطاكية وطلب العون منه . راجع .

Lamb, H., The crusaders, p. 194.

(١٤٠) Michaud, History of the crusades, vol. p. 362.

(١٤١) William of tyre, deeds, vol. I, p. 353.

ويذكر ميشو أن الفرنج فى يأسهم فروا إلى موانيء فلسطين وليعانوا بحثا عن سفن تحملهم إلى أوطانهم . راجع :

Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 210.

(١٤٢) Michaud, Ibid.

يصمدوا طويلا أمام تلك الكوارث المتلاحقة وأنهم سينسحبوا من أمام المدينة فى وقت قريب ، ولهذا فلم تكلف الحامية نفسها مشقة مهاجمة الجيش الصليبى ، وهذا الرأى صائب إلى حد كبير .

ويذكر المؤرخ الصليبى وليم الصورى[١٤٣] فى « تاريخ الأعمال فيما وراء البحار » أن حامية المدينة الفاطمية إنتهزت فرصة إنشغال الفرنج عنها ، وقامت بإعادة تقوية وتحصين المدينة وترميم الأسوار التى هدمت فى الهجوم ، كما قامت بصنع بعض الأبراج والمجانيق . فى الوقت الذى كلف فيه بعض جنودها بمراقبة ما يدور فى المعسكر الفرنجى وإتخاذ كافة الإحتياطات لصد أى هجوم مفاجىء[١٤٤] .

ولكن الظروف جرت وفق أهواء الفرنج ، ففى حوالى منتصف رجب ٤٩٢ هـ / ١٧ يونيو ١٠٩٩ م وصلت إلى ميناء يافا[١٤٥] بعض السفن الجنوية بقيادة وليم امبرياتشو ، وأخيه بريموس «William & primus Embriaco» طبقا لحوليات مؤرخ جنوه كافارو الكاسكفلوتى[١٤٦] . ويذكر المؤرخ الألمانى هايد أن هذه السفن كانت قليلة لإنشغال مدينة جنوه إذ ذاك بالحروب الأهلية وإن عدد هذه السفن كان يتراوح ما بين ست أو تسع سفن[١٤٧] .

---

(١٤٣) أورد وليم هنا تفاصيل كثيرة .

William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 354-355.

(١٤٤) إن رواية المؤرخ المجهول عن إعادة الحامية الفاطمية تقوية الأسوار المحيطة بالمدينة كانت مختصرة للغاية . راجع أعمال الفرنجة ، ص ١١٧ .

(١٤٥) يافا : مدينة صغيرة على ساحل فلسطين بين قيسارية وعكا . وتعتبر المنفذ البحرى الطبيعى لمدينتى الرملة وبيت المقدس . وكانت سوقا ومركزا تجاريا لفلسطين . وهى مدينة محصنة تحصينا قويا وبها ميناء صغير بمثابة مرسى للسفن التجارية الذاهبة إلى فلسطين أو المبحرة منها . وبها مسجد جامع بجانب البحر . راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ط . أوروبا ، ج ٢ ص ١٠٠٣ ؛ المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٧٤ ؛ القرمانى : أخبار الدول ص ٤٩٦ ، كذلك :

Tolkowsky, A history of Jaffa, London 1924, Preface; Le strange, Palestine, p.p. 550-551.

(١٤٦) ويذكر كافارو أنهما كانا سفينتان جنويتان فقط . راجع :

Caffaro, De Liberatione civitatum orientis, R.H.C., Hist. occ. vol. V, p. 56; Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ. vol. III, p. 298.

ويؤيده وليم الصورى ومراجع أخرى فى أنها كانت سفن جنوية فقط .

William of tyre, deeds, vol. I, p. Roger of wendover, Flowers, vol. I, p. 429; Zoé oldenburg; The crusades, p. 115; Schlumberger, Récits du Byzance, p. 91.

ولم تشر المصادر الفرنجية الأخرى للعدد الحقيقى لتلك السفن ، كما أنهم لم يذكروا جنسيتها . راجع مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٥ . فى حين أن المؤرخ ريموند أجيل يذكر أن عدد السفن كان يتراوح ما بين ستة أو تسعة سفن منهم سفينتان جنويتان والباقى سفن إنجليزية . راجع :

Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ. vol. III, p. 244; also Mayer, The crusades., p. 61; Runciman, The first crusade, in setton (ed.) VCf, vol. I, p. 334; Archer & Kingsford, Crusades, p. 86.

(١٤٧) Heyd, commerce du levant, to. I, p. 134.

ويتعارض هذا الرأى مع ما ذهب إليه بوس فى كتابه « ممالك وقلاع الصليبيين » بقوله : إن هذه السفن كانت جزءاً من أسطولا جنويا يتكون من اثنى عشرة صارية جنوية . راجع :

Boase, The kingdoms, p. 35.

وتمكنت السفن الجنوية من الإستيلاء على ميناء يافا[١٤٨] الساحل والذى كان بمثابة المنفذ البحرى الطبيعى لمدينة بيت المقدس على البحر المتوسط ، فى سهولة كاملة بعد أن هجرها سكانها المسلمون عندما علموا باقتراب الفرنج من أرسوف[١٤٩] .

ويقال أن الحامية الفاطمية فى يافا قامت بتدمير تحصينات المدينة ودمروا المدينة نفسها ، كما خربوا الميناء لمنع الفرنج وسفن البحرية الإيطالية من إستخدام يافا كقاعدة برية وبحرية لهم ، كما فر سكانها منها ، بحيث وجدت مهجورة تماما عند وصول الأسطول الجنوى هناك[١٥٠] . والمؤكد أن هذه السفن أحضرت للصليبيين الكثير من المؤن والإمدادات والأسلحة والمواد اللازمة لصناعة آلات وأبراج الحصار بجانب بعض الصناع والتجار الجنويين المهرة[١٥١] .

والواقع أن وصول هذه النجدة الجنوية جعل الفرنج يحرصون على تأمين طريقهم إلى يافا ليتمكنوا من الحصول على المساعدات التى تحملها لهم السفن الجنوية[١٥٢] . ويجب أن نعترف أن تلك المعونة البحرية الجنوية كان لها أثر فعال فى تدعيم مركز الصليبيين أمام المدينة المقدسة ، مكنهم بالتالى من مواصلة الحصار ، فى الوقت الذى استمرت فيه الحامية الفاطمية محصورة داخل المدينة المعزولة عن العالم الخارجى[١٥٣] . ويمكن القول أن هذه السفن كانت العامل الهام فى إحراز الصليبيين إنتصارات عديدة على حامية المدينة الفاطمية وإسقاطها ، وأعترف مؤرخهم صراحة بذلك[١٥٤] ، وكأن وصول هذه السفن والإمدادات قد قوى الفرنج وزاد من شجاعتهم ، خاصة بعد أن وفد رسول جنوى يطلب منهم إرسال فرقة من الجيش الصليبى لحماية وتأمين الإمدادات الآتية إليهم من يافا[١٥٥] . وسرعان ما أتجهت فرقة من الفرسان بقيادة الفارسين ريموند بيليت «Roymond Pilet» ، ووليم السبرانى «William of sabran» ، لإحضار المؤن والإمدادات الجنوية . ولكن تلك الفرقة تعرضت عند الرملة إلى كمين نصبه لها بعض قوات الجند

---

(١٤٨) Caffaro, De Liberatione, R.H.C., Hist. occ. vol. V, p. 56.
تسمى يافا بالعبرية ( يافو Yapho ) وهى تسمية ذات أصل فينيقى تعنى الجمال وطبقا لما قاله القديس جريجورى أوف نازيانوس أنها تسمى مرصد السعادة . راجع :
Tolkowsky, The Gateway, preface.

(١٤٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ص ١٩٠ .
William of tyre, deeds, p. 357.

(١٥٠) Tolkowsky, The Gateway, preface, p. 85.

(١٥١) Heyd, Histoire du commerce du levant, to. I, p.p. 134; Cambridge med. Hist. vol. V, p. 295; prawer, The Latin Kingdom, p. 64.

(١٥٢) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ص ١١٥ ، وكذلك :
Caffaro, R.H.C., Hist. occ. vol. V, p. 56.

(١٥٣) Chalandon; F., Histoire de la première croisade, Paris 1924, p.p. 269-270.

(١٥٤) William of tyre, deeds, vol. I, p. 261; Pra wer, The latin kingdom, p. 354.

(١٥٥) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٥

الفاطميين[(١٥٦)] . ويذكر المؤرخ المجهول لأعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس[(١٥٧)] ، أن هذه القوات كانت جزء من قوات إستطلاع خليفة مصر المتجه لإنقاذ مدينة بيت المقدس من الحصار الصليبي . وهذه إشارة على جانب كبير من الأهمية ، وذات مغزى ودلالة هامة بالنسبة لنا[(١٥٨)] .

ولكن الفرقة الصليبية تمكنت من الفرار من الكمين الفاطمي ، وأستطاعت الإستيلاء على بعض الغنائم من الجياد وغيرها ، في ٢٥ رجب ٤٩٢ هـ / ١٨ يونيو ١٠٩٩ م ، ووصلت بسلام إلى يافا التي تنزل بها الأسطول الجنوى[(١٥٩)] .

ولم يكن توصيل الإمدادات التي جلبها الجنوية والإنجليز إلى الفرنج سهلا ، إذ أن الأسطول الفاطمي الذي كان يجوب البحر المتوسط ، ويرابط في قاعدته بعسقلان وصور ، قام بإقتحام ميناء يافا ومداهمة تلك السفن في فجر ٢٦ رجب ٤٩٢ هـ / ١٩ يونيو ١٠٩٩ م ، وبلدون إعطاء أية فرصة لتلك السفن للدفاع عن نفسها ، وأستطاع أن ينزل هزيمة ساحقة بالأسطول الجنوى الإنجليزى المشترك ، ويحرق كل المراكب الفرنجية باستثناء مركبا إنجليزيا واحدا استطاع الفرار إلى اللاذقية[(١٦٠)] .

ولكن البحارة الجنوية وعلى رأسهم وليم امبرياتشو وأخيه بريموس ، كان لديهم الوقت الكافي لإنقاذ ما حملته السفن من إمدادات ومؤن وأدوات لازمة لصناعة آلات وأبراج الحصار . كما قاموا بفك بعض أجزاء السفن التي دمرتها الأساطيل الفاطمية ، وتوجه الملاحون والمهندسون والصناع الجنوية ومعهم أدواتهم وأشرعتهم والأحبال والخطاطيف وغيرها ، في حراسة رجال ريموند بيليه ، عبر فلسطين ، حتى بلغوا المعسكر الصليبي المقام أمام المدينة المقدسة ، حيث أستقبلوا بترحاب وفرح كبيرين من جانب الفرنج الذين كانوا في حاجة ماسة لتلك المعونات

---

(١٥٦) Raymond of Aguilers, Francorum, in R.H.C., Hist. occ., vol. III, p. 295.

(١٥٧) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٦ . ويقدرهم المجهول بحوالي سبعمائة جندي فاطمي ، ويقدرهم وليم الصوري بستمائة جندي مصري .
William of tyre, deeds, vol. 1, p. 356; Roger of wendover, Flowers, vol. I, p. 430.

(١٥٨) إن هذه الإشارة من جانب المصادر الفرنجية لها مغزى كبير بالنسبة لنا إذ أنها كانت دليلا قويا يدحض الآراء التي أتهمت الوزير الأفضل والفواطم بتواطئهم السلبي من الحصار الصليبي للمدينة المقدسة .

(١٥٩) لمزيد من التفاصيل عن ذلك ، راجع :
Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ. vol. III, p. 294-295; William of tyre, deeds, vol. I, p. 356.

(١٦٠) Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ., vol. III, p.p. 295-296; Caffaro, De liberatione, R.H.C., Hist. occ., vol. V, p. 53, p. 56.
ويذكر وليم الصوري أن السفينة الوحيدة التي فرت من المعركة البحرية كانت غائبة عن السفن الأخرى في عملية إغارة للسلب والنهب على المناطق الساحلية المجاورة لمدينة يافا ، وعندما عادت وجدت الأسطول الفاطمي قد استعاد الميناء فسارعت بالفرار .
William of tyre, deeds, vol. 1, p. 357.
والغريب أن المؤرخ لامب يذكر أنه بعد تلك المعركة البحرية تمكنت سفينتان جنويتان أخريان من دخول الميناء والبقاء فيه دون أي خطر من الأسطول الفاطمي . راجع :
Lamb, The crusaders, p. 196.

الجنوبية التى ستسهل لهم سقوط المدينة المقدسة[(١٦١)] .

ورغم ذلك فإن الفرنج كانوا لا يزالون بحاجة للأخشاب الكافية لهذا الغرض ، فلم يحصلوا من تلال القدس الجرداء إلا على كميات قليلة من الخشب ، وكان عليهم أيضا أن يبعثوا بحملات عديدة لإحضار الخشب الكافى[(١٦٢)] ، بحيث لم يبدأوا العمل فى صناعة أدوات الحصار إلا بعد أن توغل تانكريد وروبرت أوف فلاندرز بأتباعهما حتى بلغوا الغابات الواقعة فى الأردن وعادوا بكتل وألواح من الخشب حملها بعض أبل وأسرى المسلمين وبدأوا مباشرة فى صناعة السلالم الكافية لتسلق الأسوار ، فى حين شرع ريموند وجودفرى فى تشييد برج خشبى يسير على عجلات ، وتثبت به المقاليع ، وكان جاستون أوف بيرن مسئولا عن إنشاء برج جودفرى ، بينما أشرف ولیم ريكون على بناء برج ريموند الصنجيلى[(١٦٣)] .

ولكن العمل سار بطيئا فى وقت طال فيه الحصار الصليبى للمدينة ، وعانى الفرنج من الحرارة القاسية وندرة المياه وكثرة غارات وكمائن العسكر الإسلامى سواء من جانب الحامية الفاطمية أو من المناطق المجاورة ، مما أدى لإثارة أعصابهم ، وسرعان ما دب الصراع والتشاحن كالعادة بين القادة الفرنج ورجال الدين ، وريموند الصنجيلى حول ملكية المدينة المقدسة ومصيرها ، وبعض المراكز الأخرى مثل بيت لحم[(١٦٤)] .

والواقع أن هذه المصاعب التى واجهها الفرنج فى الوقت الذى فشل فيه هجومهم الأول على القدس ، والنزاع بين القادة الفرنج ، حمل الكثير على ترك الحصار ، وتوجهوا إلى نهر الأردن ، حيث يجرى تعميدهم مرة ثانية فى النهر المقدس ، وجمع سعف النخيل من هناك ، ثم إتجهوا إلى ميناء يافا على أمل أن يعثروا على أية سفن تحملهم عائدين إلى أوروبا[(١٦٥)] .

وتذكر الروايات الإسلامية[(١٦٦)] ، أنه بينما كان الفرنج يواجهون هذا الموقف الحرج أمام المدينة المقدسة ، حدث منتصف شعبان ٤٩٢ هـ / أوائل يوليو ١٠٩٩ م ، أن وصلت إلى المعسكر الصليبى أنباء مؤكده ( وليس إشاعة ) أن جيشا فاطميا ضخما على رأسه الوزير الفاطمى الأفضل

---

(١٦١) Caffaro, R.H.C, Hist. occ., vol. V, p.p. 56-57; Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ. vol. III, p. 295; William of tyre deeds, vol. I, p. 357; Prawer, The Latin Kingdom, p. 345, Schlumberger, Récits, p. 92.

(١٦٢) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٧ ، كذلك :
Raymond of Aguilers, francorum, in R.H.C., Hist. occ., vol. III, p. 295-296; Caffaro, R.H.C., Hist. occ. vol. V, p. 53; William of tyre, deeds, vol. I. p. 357.

(١٦٣) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٧ .
Caffaro; R.H.C., Hist. occ. vol. V, p. 53.

(١٦٤) William of tyre, deeds, vol. I, p. 356.

(١٦٥) Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ. vol. III, p. 296.

(١٦٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٣٩ سطر ١ — ٢ .

ابن أمير الجيوش بدر الجمالى كان فى طريقه من مصر لإنقاذ مدينة بيت المقدس ، وإنهاء الحصار الفرنجى لها[١٦٧] ، مما حدا بالفرنج للتفكير فى القيام بمحاولة أخرى جدية لإسقاط المدينة ، وأنه ليس ثمة ما يدعو إلى التمهل أو إرجاء مهاجمة المدينة . وعبر ابن القلانسى[١٦٨] عن ذلك بقوله : « وأنتهت إليهم ( الفرنج ) خروج الأفضل من مصر فى العساكر الدثره لجهادهم ، والإيقاع بهم وإنجاد البلد عليهم وحمايته منهم ، فشدوا فى قتاله » .

والواقع أن إعتراف المصادر الإسلامية بخروج الأفضل لإنقاذ المدينة المقدسة ، لم يكن إشاعة كما أدعت بذلك بعض المراجع الحديثة[١٦٩] بل كان دليلا قويا على أن الأفضل كان قلقا للغاية على مصير المدينة المقدسة ، ومراقبته لتطورات الأمور هناك ، وإدراكه لحرج موقف الحامية الفاطمية . فأعد جيشا فاطميا ضخما بإعتراف ابن القلانسى ، لإنقاذ المدينة وفك حصارها . كما أعترفت المصادر الصليبية[١٧٠] أيضا بجدية موقف الفواطم ووزيرهم الأفضل فى ذلك النص الفريد الذى أورده المؤرخ المجهول[١٧١] ، ونقلته عنه بعض المصادر الأخرى[١٧٢] ، ويشير لخروج الجيش الفاطمى الضخم لإنقاذ المدينة بقيادة الأفضل وذلك بطريقة مستترة وغير مباشرة .

وهذه النصوص الإسلامية والصليبية تدحض غالبية الآراء التى ذكرتها بعض المصادر الإسلامية السنية ، وأنساقت وراءها بعض المراجع الحديثة التى تكيل الإتهامات جزافا لمصر والفواطم ، ووزيرهم الأفضل لموقفهم السلبى من حصار القدس ، وأنهم المسئولون تماما عن ضياعها بأيدى الفرنج .

لقد أدرك الفرنج حينذاك ، ضرورة إيجاد الوسائل الضرورية للقيام بمحاولة أكثر جدية للإستيلاء على المدينة المقدسة[١٧٣] ، وكما هى عادة الفرنج دائما عندما يواجهون موقفا ميئوسا منه ، ومثلما حدث فى أنطاكية وغيرها ، ولكى يرفعوا من روحهم المعنوية ، هبت لمساعدتهم رؤيا ومعجزات جديدة ، فأدعى قسا يسمى بطرس دسيدريوس **Peter Desiderius** أن الأسقف أدهيماردى مونتى ظهر له وأخبره أنه على الصليبيين التخلى عن خلافاتهم ، وطلب منهم أن يصوموا ويقوموا بموكب حول المدينة وهم حفاة الأقدام لمدة ثلاثة أيام وإذا ما فعلوا ذلك بقلوب

---

(١٦٧) أيضا المقريزى : اتعاظ الحنفا ، تحقيق د . محمد حلمى أحمد ، القاهرة ١٩٧٣ ج ٣ ص ٢٣ .

(١٦٨) ابن القلانسى : ذيل تاريخ ، دمشق ، ص ١٣٦ .

(١٦٩) Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 211, Besant & Palmer, Jerusalem, p. 204.

(١٧٠) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٦ ، وكذلك :

Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ., vol. III, p. 296; William of tyre, deeds, vol. I, p. 356; Roger of wandover, Flowers, vol. I, p. 430.

(١٧١) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٦ .

(١٧٢) Raymond of Aguilers, Ibid, William of tyre, Ibid.

(١٧٣) Caffaro, R.H.C., Hist. occ., vol. V, p. 56 chap IX.

طاهرة مخلصة ، فسوف تسقط المدينة خلال تسعة أيام[١٧٤] . وكان الفرنج يأملون أن تسقط أسوار المدينة كما سقطت أسوار أريحا من قبل ، فطافوا حولها نافخين في الأبواق في ١٤ شعبان ٤٩٢ هـ / ٨ يوليو ١٠٩٩ م ، ولكن أسوار المدينة لم تسقط[١٧٥] .

وكان لهذا الموكب أثره في حماسة الفرنج ، وتناسى الخلافات بينهم[١٧٦] ، وأخذوا يسرعون ليفرغوا من إنشاء الأبراج المتحركة ، وغيرها من آلات حصار المدينة ، ولعب الصناع والنجارون الجنوية دورا كبيرا لإتمام صنع هذه الآلات بإشراف قائدهم وليم امبرياتشو[١٧٧] ، وفي ١٦ شعبان ٤٩٢ هـ / ١٠ يوليو ١٠٩٩ م ، أصبحت الأبراج الخشبية معدة ومعها آلات دك الأسوار مثل الكباش والمجانيق ، وكان كل برج من الأبراج يتكون من ثلاثة طوابق ، الأول يتركز به الصناع والنجارون الجنوية الذين كانوا يدفعون البرج من أسفل على عجلات متحركة ، والثاني مخصص للفرسان والثالث مخصص لرماة السهام الذين سيغطون هجوم الفرسان[١٧٨] . وكانت مقدمة كل برج مصنوعة من الحديد وجوانبه المعرضة لقذائف العدو غطيت بطبقات من جلود الحيوانات المبتلة والجزء الخلفي كان مصنوع من الخشب ، وأمام مقدمة كل برج جسر متحرك يمكن تحريكه ليصل بين مقدمة البرج العليا وقمة سور المدينة المحاصرة ، وكان هذا الجسر من صنع النجارين الجنوية[١٧٩] .

وكان على الفرنج إختيار أضعف الأماكن دفاعا عن المدينة لمهاجمتها بأبراجهم الجديدة ، وهو الجزء الشرقي المحصور بين جبل صهيون ، إلى القطاع الشرقي من السور الشمالي وكان أكثر

---

(١٧٤) Michaud, History of the crusades, vol. III, p. 363. appendix No. IX. Runciman, S. The first crusade, in setton (ed.) vol. 1, p. 335,

(١٧٥) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٧ ويذكر أن الموكب حدث قبل الهجوم الثالث والأخير على المدينة ويعارض بذلك الآراء القائلة بأن الموكب تم قبل الهجوم الثاني في ١٣ يوليو ١٠٩٩ م . راجع :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 357, Cf. also, Zoé oldenburg, The crusades, p. 134.

(١٧٦) Michaud, History of the crusades, vol. 1, p. 211, Besant & Palmer, Jerusalem, p. 204.

(١٧٧) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٧ ، كذلك :

Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ. vol. III, William of tyre, deeds, vol. 1, p. 356; Roger of wandover, Flowers., vol. 1, p. 430.

(١٧٨) Michaud, History of the crusades, vol. I, p. I, p. 212; Bsant Palmer, Jerusalem, p.204

(١٧٩) Fulcher of chartres, op. cit. p. 120; Caffaro, R.H.C., p. 56.

ويذكر المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن صنع هذا الجسر المتحرك يعبر نوعا من البراعة العسكرية والدهاء الحربي الجنوي إذ أنه سيمكن الفرنج فيما بعد من العبور بسهولة من أبراجهم إلى داخل المدينة ، راجع وصفا دقيقا لهذه الأبراج في :

William of tyre, deeds, vol. 1, p. 361.

أنظر شكل هذا البرج الذي استخدمه الجنوية في :

Potit, les sieges celebrées au moyen ages et des temps modernes, Paris 1882, p. 170; wise, The crusades, London 1978, p. 1.

وراجع شكل رقم (١) من هذا البحث .

إنخفاضا ويسهل إرتقائه[180] ، وسرعان ما حرك الفرنج أبراجهم إلى السور الشمالي ، برجا عند جبل صهيون ، وآخر أقل حجما ، وضعوه عند الجزء الشمالي الغربي من الأسوار . ودهشت الحامية الفاطمية عندما وجدت هذه القلاع المتحركة أمامها ، مما دفع إفتخار الدولة والى القدس لتحصين وتقوية الأجزاء الضعيفة من الأسوار[181] .

وفي المجلس العسكري الذي عقده القادة الفرنج ، قرروا أن يبدأوا الهجوم الثاني أثناء ليلتي ٢١ ـــ ٢٢ شعبان ٤٩٢ هـ / ١٣ ـــ ١٤ يوليو ١٠٩٩ م ، وذلك بشن هجوم رئيسي بواسطة البرجين عند جبل صهيون ، إلى القطاع الشرقي من السور الشمالي ( باب العمود أو باب الأسباط ) ، كما تقرر القيام بهجوم خادع على الزاوية الشمالية الغربية للسور بقيادة تانكريد لتشتيت إنتباه رجال الحامية الفاطمية[182] .

وشرع الفرنج يشنون هجومهم مساء الأربعاء ٢١ شعبان ٤٩٢ هـ / ١٣ يوليو ١٠٩٩ م وقام قتال مرير بين الفريقين ، ووجد الفرنج دفاعا قويا من الحامية الفاطمية . ورغم نجاح رجال ريموند في دفع البرج عبر الخندق ، حتى بلغوا السور الواقع عند باب صهيون إلا أن الدفاع الفاطمي كان قويا ، والمرجح أن إفتخار الدولة تولى القيادة في هذا الجزء من السور ، مما أدى لفشل ريموند في إتخاذ موقع له على السور ونجح إفتخار الدولة في إحراق البرج مما أضطر الصليبيين أمام هذا الدفاع القوى إلى الإنسحاب بعد يوم كامل من صباح ٢٢ ـــ ٢٣ شعبان ٤٩٢ هـ / ١٤ ـــ ١٥ يوليو ١٠٩٩ م من القتال اليائس.وبذلك فشل الهجوم الثاني على المدينة المقدسة وأعترفت المصادر الصليبية[183] والإسلامية[184] بذلك ، ويذكر ابن القلانسي[185]

---

(١٨٠) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٧ ، كذلك :

William of tyre, deeds, vol. I. p. 360.

(١٨١) لمزيد من التفاصيل راجع :

Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ., vol. III, p.p. 298-299; William of tyre, deeds, vol. I, p. 361.

(١٨٢) Runciman, S., The first crusade, in setton (ed.) vol. I, p. 337.

وتذكر المصادر الفرنجية أن الفرنج قاموا قبل هجومهم الثاني بطمى الخندق للذى كان يجرى تحت أقدامهم أسفل السور الشمالي للمدينة . المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٨ . ويذكر أن طمى الخندق وتحريك الأبراج استغرق ثلاثة أيام .

(١٨٣) اعترفت المصادر الفرنجية بقسوة قتال ذلك اليوم واستبسال الحامية الفاطمية ، غير أنها تذكر أن حلول الليل وضع حدا للقتال بين الاثنين راجع المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ص ١١٨ ، كذلك :

Fulcher of Chartres, The Expedition, p.p. 361-362; William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 361-362.

(١٨٤) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ ـــ ١٣٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩١ . ويشير لاحتراق برج ريموند النويري : نهاية الأرب ، مخطوط دار ، مجلد ٢٦ لوحة ٢٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٨ . ويذكر أبو المحاسن أن المسلمين أحرقوا البرج الذي كان عند جبل صهيون وقتلوا من به .

(١٨٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ .

« ونصبوا ( أي الفرنج ) عليه ( على أسوار القدس ) البرج وأسندوه إلى السور ، فشغلوا في قتاله ، ولازموا حربة إلى آخر نهار ذلك اليوم وانصرفوا عنه وواعدهم الزحف عليه من الغد » .

وقد قضى كل من الفريقين ليلة مليئة بالترقب والرعب على حد قول المؤرخ البروفنسالي ريمولد أوف أجيل[186] «Raymond of Auilers» ويذكر « أن مسلمي المدينة المقدسة كانوا يخشون أن يفاجيء الصليبيون المدينة أثناء الليل ، خاصة بعد أن هدمت مجانيق الصليبيين بعض جوانب السور الخارجي وأحدثت به ثغرات كبيرة ، وردمت الخندق المحيط بالمدينة ، أما بالنسبة لنا ، فقد إنتابنا خوف كبير من أن يقوم المسلمون بإحراق الأبراج والآلات التي كانت قريبة من الأسوار ، ولهذا كانت ليلة تتميز بالحرص والعمل الجاد واليقظة من الطرفين » .

ولهذا عمل إفتخار الدولة من ناحيته على ترميم ثغرات الأسوار وتحصينها ، لمواجهة أي هجوم فرنجي مفاجيء ، في حين إنصرف الفرنج لإصلاح البرج الوحيد وكان معظمه سليما وهو برج جودفرى تمهيدا لشن هجوم آخر على المدينة[187] .

وأدرك القادة الفرنج وعلى رأسهم جودفرى دى بويون بعد فشل موجه الهجوم الثاني على المدينة المقدسة ، وأحتراق برجي ريموند وتانكريد ، أن عليهم الإستيلاء على المدينة بأية وسيلة ، وبأسرع وقت ، خاصة بعد أن تأكدت الأنباء عن مجيء جيش الإنقاذ الفاطمي بقيادة الوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي لنجدة المدينة وفض حصارها[188] ، مما سيوقع الفرنج بين شقي الرحى .

وببزوغ فجر يوم الجمعة ( ٢٣ شعبان ٤٩٢ هـ / ١٥ يوليو ١٠٩٩ م ) قام الفرنج بشن هجومهم الثالث والأخير على المدينة المقدسة ، وقام صراع دام بين الفريقين ، ولم يعد أحد يتبين أي الكفتين أرجح ، وأستمر القتال في الوقت الذي تقدم فيه جودفرى وأخيه استاش دى بويون ببرجهما نحو السور الشمالي للمدينة ، بالقرب من باب الزهور من ناحية أغفل المسلمون

---

(١٨٦) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٨ ، كذلك :

Raymond of Aguilers, Franorum, R.H.C., Hist. occ. vol. III, p. 299. William of tyre, deeds, vol. I, p. 364.

(١٨٧) William of tyre, deeds, vol. I, p. 364.

ويذكر لامب أن بعض الأمراء المرافقين لجودفرى نصحوه بالتخلي عن حصار المدينة والانسحاب من أمامها ، ولكن جودفرى صمم على اسقاطها لادراكه أن هذه هي آخر فرصة للحملة الصليبية . راجع :

Lamb, The crusaders, p. 202.

(١٨٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٣٦ . ويذكر الأستاذ ميشو أنه تم إيفاد اثنين من الرسل المصريين من قبل الأفضل بن بدر الجمالي الذي كان في طريقه بقواته إلى عسقلان ، لحث المصريين على إستمرار المقاومة لحين مجيء قوات الانقاذ ، إلا أن الرسولين لقيا حتفهما على أيدي الفرنج عند محاولتهما دخول المدينة بعد اكتشاف أمرهما . راجع :

Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 220.

تحصينها[١٨٩] ، وذلك تحت وابل من السهام النارية وأحجار المجانيق والكباش التي كانت تغطي تقدمهما ، ونزل جودفري وأستاش قيادة البرج الذي صنعه الجنوية » وزحفوا به حتى ألصقوه بالسور ، وأحكموا به على البلد ، وكشفوا من كان عليه من المسلمين ، ثم رموا بالمجانيق رمية رجل واحد ، فانهزم المسلمون[١٩٠] .

وتذكر المصادر الصليبية[١٩١] ، أن جودفري وأخيه أستاش البولوني تمكنا في منتصف نهار ذلك اليوم ، بعد قتال مرير وقيامهم بمناورة خادعة قرب السور ، من إنزال الجسر المتحرك الذي يصل بين قمة البرج وقمة السور الذي حطمت المجانيق الفرنجية جزء منه ، وسرعان ما تقدم فارسان فلمنكيان من تورناى هماليتولد «Lethold» وجيلبرت أوف تورناى «Gilbert of Toruse» بقيادة مجموعة من فرسان لوثر نجيا الألمان ، عبر الجسر المثبت بين البرج والسور ، يتبعهم جودفري ومن معه من الجند ، ثم تانكريد وكونت فلاندرز ودوق نورمنديا وبقية القادة الفرنج الآخرين ، وشقوا طريقهم خلال السور تمهيدا لإقتحام المدينة[١٩٢] وأتت النهاية بسرعة فلم يكد يتم الإستيلاء على جزء من السور الشمالي للمدينة ، حتى أتاحت السلالم لعدد كبير من

---

(١٨٩) Michaud, Ibid; Archer & kingsford, The Crusades, p. 90.

(١٩٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٨ .

(١٩١) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٨ ، كذلك :

Fulcher of chartres, Expedition, p. 121; William of tyre, deeds, vol. I, p. 367.

وتذكر المصادر السابقة أن الفرنج قاموا بتثبيت الجسر المتحرك بعمودين كبيرين من الخشب كانت الحامية الفاطمية قد دفعتهما على السور لاتقاء ضربات مجانيق وكباش الفرنج ، ولكن الصليبيين أستخدموا هذه الأضلاع الخشبية لصالحهم . راجع :

Fulcher of Chartres, Expedition, p.p. 120-121.

أنظر أيضا شكلا لهذا البرج الخشبى الذى استخدمه الفرنج لاسقاط المدينة شكل رقم (١) ، كذلك راجع :

Wise, The Wars, p. 1, Petit, Sièges, p. 150.

(١٩٢) وكما هي عادة الفرنج ، تذكر بعض المصادر الفرنجية ، أن نجاح الصليبيين في اعتلاء سور المدينة من الناحية الشمالية بسبب ظهور القديس جورج مرتديا لبس الفرسان وبيده سيف على جبل الزيتون مما زاد من عزم الفرنج وشد أزرهم لاسقاط المدينة . راجع :

William of tyre, deeds, vol. 1, p. 366; Roger of wenover, Flowers, vol. I, p. 431.

وأيدت ذلك المراجع الحديثة مثل :

Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 221; Archer & Kingsford , p. 91.

ويذكر المؤرخ الألمانى ما رآه في البقعة التى عبر منها فرسان جودفرى إلى المدينة ، المقدسة أقام الفرنج صليبا ضخما من الحجر لمشعر قائما طالما كان القدس في أيدى الصليبيين ، وليرمز لذكرى سقوط المدينة بأيديهم . راجع :

Mayer, The crusades, p. 60.

ويلاحظ أن الكتاب الفرنجة الحديثين أعطوا أهمية كبيرة لمن نال حظوة وشرف وضع قدميه على سور القدس دون المؤرخين الصليبيين المعاصرين وشهود العيان ، ويذكر أحدهم أنه كان صعبا بل من المستحيل تحديد أول من دخل المدينة المقدسة . ونحن نرى أن مؤرخى الغرب الحديثين كانوا يبحثون بالطبع عن بطل صليبى لينال هذا الشرف ، وبالتأكيد فإن كل المؤرخين سيذكرون أن جيش جودفرى أول من اقتحم المدينة ، وأن ريموند وفرسانه آخر من دخلوا . راجع في ذلك :

Babcock & Krey (ed.,) History of the deeds done beyond the sea, New York 1943, vol. I, p.p. 368-369 F. 39; Schlumberger, récits du Byzance, p. 98, Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 222; Archer & Kingsford, Crusades, p. 90.

المهاجمين الصعود والإندفاع داخل المدينة ، وبينما كان جودفرى يحتل موقعه على السور الشمالى(١٩٣) ، ويحث رجاله على إقتحام المدينة ، ويرسل جنده لفتح باب الأعمدة كى تنفذ منه القوات الرئيسية للجيش الصليبى ، أندفع المئات من الفرسان وعلى رأسهم تانكريد النورمندى برجاله ، وفى أثرهم عساكر اللورين المتعطشين للدماء وعندما تبين للفاطميين إنهيار أسباب دفاعهم ، فروا أمام الفرسان الفرنج ، وولوا الأدبار نحو الحرام الشريف وإلى ساحة المعبد ، حيث توجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، وقد رأوا أن يتخذوا من المسجد الأقصى ملاذ لهم من سيوف الفرنج(١٩٤) . وسرعان ما قسم جودفرى العمل بين أمرائه فأرسل بعضهم لفتح باب العمود ( بوابة القديس ستيفن ) ليدخل منه بقية الجيش وفتحت الأبواب وأندفع الجيش الصليبى بأكمله على حد تعبير المؤرخ وليم الصورى(١٩٥) فى : « إندفاع وتهور » دون نظام أو تنسيق فى دخول المدينة المقدسة ، وأندفع الفرنج داخل المدينة وهم يتعقبون المسلمين الذين إلتجأوا إلى الحرم الشريف والمسجد الأقصى معتصمين به(١٩٦) ، وهم يصيحون : « هذه هى إرادة الله »(١٩٧) .

وتعقب رجال تانكريد المسلمين الذين احتشدوا بداخل مسجد قبة الصخرة وفى أعلاه فبادروا بالتسليم مقابل أن يبذلوا له فدية كبيرة ، ورفعوا علمه فوق المسجد(١٩٨) ، ولكن تانكريد لم يقنع بذلك بل عاث فسادا فى قبة الصخرة وقام بتدمير ونهب ماشاء من كنوزها وتحفها التى

---

(١٩٣) أجمعت غالبية المصادر الإسلامية على أن سقوط المدينة المقدسة كان من ناحية الجانب الشمالى . مثلا ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩٦ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط دار ، مجلد ٢٦ لوحة ٧٦ ؛ ابن خلدون : العبر ، ط . بولاق ١٢٨٤ هـ ، ج ٤ ص ٦٧ ، ج ٥ ص ٢٩ . ويذكر المؤرخ اليهودى يوشع براور أن هذا الجزء من السور الشمالى كان قريبا من الحى اليهودى فى المدينة مما يؤكد مشاركة اليهود للفاطميين فى الدفاع عن المدينة ، ولكن هذا الجانب أيضا كان أضعف نقاط الدفاع عن المدينة .

Prawer, The Latin Kingdom, p. 236.

(١٩٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٩ ، كذلك :

Fulcher of chartres, Expedition, p. 121; William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 365-366.

(١٩٥) William of tyre, deeds, vol. I, p. 366.

(١٩٦) يلاحظ أن معظم الروايات الاسلامية عن حصار وسقوط مدينة القدس لم تورد تفاصيل كثيرة إلا رواية ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩٦ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، مجلد ٢٦ ، لوحة ٧٩ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٨ ـ ١٤٩ . ورواياتهم مختصرة فى غالبيتها .

(١٩٧) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٨ ، كذلك :

Flucher of charter, Expedition, p. 121.

(١٩٨) يذكر أبو اليمن العليمى أن الفرنج الذين اقتحموا قبة الصخرة اشترطوا على المسلمين داخلها أنهم متى تأخروا عن الخروج بعد ثلاثة أيام قتلوهم عن آخرهم ، فشرعوا فى المبادرة بالخروج ومن شدة ازدحامهم بأبواب المسجد قتل خلق كثير منهم . راجع : أبو اليمن العليمى : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مخطوط بمكتبة جامعة الاسكندرية ، برقم ٢١٩ ، ورقة ٢٢٧ .

سال لها لعاب الصليبيين[١٩٩] ، وأكدت ذلك المصادر الفرنجية[٢٠٠] .

وبذلك سقطت مدينة بيت المقدس فى أيدى الفرنج بعد حصار يزيد عن أربعين يوماً[٢٠١] ، وذلك فى ٢٢ شعبان ٤٩٢ هـ / ١٥ يوليو ١٠٩٩ م[٢٠٢] .

ولكن نشوة النصر والهوس الدينى ، وذكرى الشدائد التى تحملها الفرنج لمدة ثلاث سنوات فى الشرق الإسلامى ، جعلهم يدخلون المدينة المقدسة ويحدثوا بها مذبحة وحشية مروعة ، وحكموا على كل مسلم بقى بالمدينة بالموت ، وشرعوا من فورهم فى تنفيذ حكمهم . وانطلق الفرنج فى الشوارع والمنازل والمساجد وهم يذبحون ويقتلون كل من صادفهم من الرجال والنساء والأطفال ، دون ما تمييز بين سن أو جنس[٢٠٣] ، واستمرت المذبحة طيلة مساء يوم ٢٣ شعبان ٤٩٢ هـ / ١٥ يوليو ١٠٩٩ م .

ولم تحم راية تانكريد اللاجئين إلى المسجد الأقصى من المذبحة ، ففى صباح اليوم التالى ، إقتحم الفرنج المسجد ، وأحدثوا داخله مذبحة وحشية مروعة وتنكثوا بعهد تانكريد لمسلمى المسجد ، وبلغ من كثرة قتلى المسلمين ، كما يصف شاهد عيان[٢٠٤] لهذا اليوم الرهيب : « أن

---

(١٩٩) « أخذ الفرنج من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة ، وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامى ، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً ، وغنموا ما لا يقع عليه الاحصاء » ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٩٣ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٧ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٣٩ ؛ السيوطى : اتحاف الأخصا فى فضائل المسجد الأقصى ، مخطوط بمكتبة بلدية الاسكندرية رقم ٣٢١٧ ج ، ورقة ٦٢ (خط) .

(٢٠٠) Fulcher of chartres, Expedition.p 122; William of tyre, deeds, vol. I, p. 340.

ويذكر وليم الصورى أن تانكريد حمل من قبة الصخرة كميات ضخمة من الذهب والفضة والجواهر ، ولكن هذه الكنوز أعيدت ثانية لمكانها .

ويلاحظ أن تفاصيل الهجوم الثالث والأخير قد ورد باستفاضة فى روايات المؤرخين الصليبين المعاصرين والمتأخرين للحملة راجع مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٧ — ١١٨ .

Fulcher of chartres, Expedition, p.p. 120-121.; Raymond of Aguilers, R.H.C. Hist. occ. vol. III, p.p. 299-300; William of tyre, deeds, vol. I, pp. 366-370; Roger of wendover, Flowers, vol. I, p.p. 431-432.

والروايات البيزنطية الوحيدة التى تحدثت عن سقوط القدس ، هى رواية آناكومنينا التى لم تورد تفاصيل تذكر عن حصار وسقوط القدس ، ولكنها ذكرت أن المدينة سقطت خلال شهر قمرى .

Anna comnena, Alexiad, p.p. 285-286.

(٢٠١) أجمعت غالبية المصادر الإسلامية والفرنجية المذكورة على أن حصار المدينة المقدسة استمر ما يزيد عن أربعين يوما ، ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩٢ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، مجلد ٢٦ لوحة ٧٩ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٣٩ ، انظر آراء أخرى حول حصار المدينة المقدسة . الذهبى : دول الإسلام ، ط . حيدر آباد الدكن ص ١٥ ؛ القرمانى : أخبار الدول ، ط . بغداد ١٢٨٢ هـ ، ص ١٧٣ ؛ مؤرخ مجهول : تاريخ الخلفاء الراشدين ومن عداهم من الملوك والسلاطين ، بدون تاريخ ، ص ٣٦ .

(٢٠٢) يستثنى من ذلك ابن ساعد الفارسى الذى ذكر أن المدينة سقطت فى شهر رمضان وليس فى شعبان . راجع ابن ساعد : سير البيعة المقدسة ، ج ٣ مجلد ٢ ص ٢٤٩ .

(٢٠٣) William of tyre, deeds, vol. I, p. 340.

(٢٠٤) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٨ ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ .

الدماء سالت أنهارا ، وأن جنودنا وخيولنا كانت تخوض حتى سيقانهم فى دماء المسلمين » . ويذكر المؤرخ فوشيه أوف شارتر[٢٠٥] فى فخر : « أن الفرنج كانوا يخوضون بأقدامهم فى دماء القتلى التى لم يسلم منها حتى النساء والأطفال ، وأن المسلمين كانوا يتساقطون بسيوف الفرنج مثلما يتساقط التفاح الناضج »[٢٠٦] .

وفى تلك اللحظة كان ريموند وجنوده يواجهون موقفا حرجا من ناحية القطاع الجنوبى للمدينة إذ صادف مقاومة شديدة من جانب إفتخار الدولة ، مما يدل على أن إستيلاء الفرنج على المدينة لم يكن سهلا ، فأحتمى إفتخار الدولة مع طائفة من جنده بقلعة داود[٢٠٧] ، حيث اعتصموا بها وقاتلوا فيها ثلاثة أيام ، ولكن إفتخار الدولة أدرك عند حلول اليوم الثالث ( ٢٦ شعبان ٤٩٢ هـ / ١٨ يوليو ١٠٩٩ م ) أنه فقد كل شىء ، ولا أمل فى المقاومة ، فألقى السلاح بعد أن بذل له الفرنج الأمان[٢٠٨] .

وتذكر المصادر الفرنجية[٢٠٩] ، أن إفتخار الدولة عرض الإستسلام على ريموند ، وتسليم برج داود له مع مبلغ كبير من المال ، مقابل الأبقاء على حياته وحياة حرسه الخاص وبقية جند الحامية الفاطمية ، فقبل ريموند الشروط وأحتل البرج الذى خرج منه إفتخار الدولة تحت حراسة جند

---

(٢٠٥) Fulcher of chartres, Expedition, p. 121.

وقد نظم فوشيه شارتر شعرا يشيد فيه بمذبحة القدس ويفاخر بها . ويلاحظ أن المؤرخون الفرنج وعلى رأسهم فوشيه لم يكن لديهم شعورا طيبا تجاه مذابح مسلمى المناطق المفتوحة . فعندما يتحدث عن مذبحة القدس يذكر أنه قتل حوالى عشرة آلاف مسلم بالمعبد . ويذكر فوشيه ببساطة أن هؤلاء الناس كانوا يستحقون ما جرى لهم . ولا شك أن هذه نظرة ضيقة متعصبة من جانب فوشيه تدل على الروح الحقيقية للحركة الصليبية . راجع :

Fulcher of chartres, op. cit. 121, Chap. XXVII, not 8.

(٢٠٦) ويقال أنه بلغ من كثرة القتل ، أن أكواما من الرؤوس والأيدى والأرجل كانت تشاهد فى شوارع المدينة وطرقاتها . راجع :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 372; Cf.also Mayer,The crusades, p.60.

ويذكر ميشو أن المسلمون كانوا يذبحون ذبح الغنم فى الشوارع والمنازل ، وأنهم لم يجدوا مكانا آمنا يلوذون به ، فألقى بعضهم بنفسه من فوق الأسوار ، ولجأ البعض الآخر إلى القصور والمساجد ، ولكنهم أخفقوا فى انقاذ أنفسهم من متعصبيهم ، فحاصر الفرنج جامع عمرو ، وجددوا تلك المناظر الوحشية التى تعد وصمة عار فى جبين الفرسان التيوتون . أنظر .

Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 224.

(٢٠٧) أنظر لوحة لهذه القلعة فى . Boase, The Kingdoms, p.p. 20-21.

ووصف سايولف لها عام ١١٠٢ ـــ ١١٠٣ م فى :

Pilgrimage of Saewulf in p.p. t.s., vol. IV, p. 26; The pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in the Holy land (1106-1107), in p.p. t.s. vol. IV, p. 17.

(٢٠٨) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩١ ـــ ١٩٢ ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٧ ؛ ج ٥ ص ٢١ ؛ مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ص ١٢٠ . وتذكر بعض الآراء أن عدد الجند الذين كانوا مع افتخار الدولة فى قلعة داود ما بين مائة وثلاثمائة رجل وهم الذين نجوا من المذبحة . راجع :

Zoé oldénburg, op. cit. p. 228, Raymond of Agullers, R.H.C., Hist. occ. vol. III, p. 3000.

(٢٠٩) Fulcher of chartres, Expedition, p. 121.

ريموند ، الذين رافقوهم حتى عسقلان[٢١٠] ، فكانت هي الفئة الوحيدة من مسلمي المدينة المقدسة التي نجت من قسوة ووحشية الفرنج .

ولكن نجاة تلك الفئة القليلة من الحامية الفاطمية ، لم يكن كافيا لمحو آثار هذه الجريمة المروعة ولم يختلف المؤرخين المسلمين أو الفرنجة ، في إستهجان تلك الجريمة التي ارتكبها الفرنج[٢١١] .

ومن السخرية أن الفرنج بعد أن ضجروا من القتل وانتهت نوبة الإنتقام المحمومة ، وضعوا سيوفهم الملطخة بالدماء عندما أرخى الليل ستاره وسار جودفرى وزملاءه إلى كنيسة القبر المقدس ، وذلك بملابسهم الملطخة بالدماء حتى بكوا من شدة الفرح «Nay for Exceeding

---

(٢١٠) أشارت المصادر الإسلامية واعترفت بأن ريموند أوفى بوعده مع افخار الدولة والحامية الفاطمية . مثلا : ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩٢ ؛ ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٦٧ ؛ مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك نشر زترشتين «Zetterstein» ط لندن ١٩١٩ ، ص ٢٣٠ . كما أكدت المصادر الصليبية لذلك واعترفت بقوة مقاومة ودفاع افتخار الدولة ، والحامية الفاطمية . راجع .

Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ. vol. III, p. 300; Fulcher of chartres, Expedition,p. 121, Caffaro, p. 57.

ويذكر المؤرخ ريموند أجيل أن الفرنج تمكنوا من اقتحام المدينة المقدسة بعد انهيار مقاومة الحامية المصرية أمام الجند البروفنساليين . وراجع أيضا المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ص ٢٣ . وقد أتهمت بعض المصادر الصليبية موقف ريموند من افتخار الدولة وجنده الفواطم بالخيانة وبأنه ارتشى من افتخار الدولة ، أنظر :

Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 468.

ونعارض هذا الرأى عامة وأن رواية البرت داكس عن سقوط بين المقدس ليست بذات قيمة نظرا لمبالغتها وكونه غير شاهد عيان لما حدث .

Albert of D'Aix, Op.cit ,p.p. 468-470; also Boase, The kingdoms, p. 20.

(٢١١) بلغ عدد قتلى المسلمين حوالى سبعين ألفا منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم ممن فارقوا أوطانهم وجاوروا الموضع الشريف . ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩٢ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب تحقيق سامى الدهان ، دمشق ١٩٥٤ ج ٢ ص ١٤٢ . وروايته هنا مختصرة للغاية . أيضا المقريزى : اتعاظ الحنفا ط . القاهرة ١٩٧٣ ج ٣ ص ٢٣ . ويذكر المؤرخ المسيحى ابن العبرى : أنه ركب الناس السيف ولبث الفرنج فى البلد أسبوعا يقتلون فيه المسلمين وقتلوا بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا وغنموا ما لا يقع عليه الاحصاء . ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٦٩ .

وقد اختلفت آراء المصادر الإسلامية فى عدد ضحايا مذبحة القدس فغالبية المصادر حددتها بسبعين ألفا . فى حين أن بعض المصادر الأخرى لم تحددها بشكل قاطع مثلا . ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٣٩ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٢١ ؛ السيوطى : اتحاف الأخصا ، مخطوط مكتبة البلدية رقم ٢٢١٧ ج ورقة ٦٣ (ب) .

كما اختلفت المصادر اللاتينية أيضا فيما بينها . فيذكر فوشيه أن عدد قتلى مسلمى المدينة كان عشرة آلاف . ويذكر فى موضع آخر من نفس النص أنهم لم يتركوا شخصا على قيد الحياة .

Fulcher of chartres, op. cit. p. 122; William of Tyre, deeds, vol. I, p. 372; Roger of wendover, Flowers, vol. I, p. 433.

ويذكر متى الرهاوى وميخائيل السريانى أن جودفرى ورجاله ذبح خمس وستين ألفا بالمعبد :

Matthiéu of Edessa, R.H.C. Doc. Arm. 45; Michiel le syrien, Historie du michel le syrien, ed. par chabot, Paris 1907, pt. III, p. 185; Michaud, vol. III, p. 227; Zoé oldenburg, Crusades, p. 139.

أنظر مناقشة تلك الآراء فى zoè oldenburg,crusades,p.139;

joy weeping» ، حيث قضوا ليلتهم فى الشكر والتعبد والبكاء والإحتفال بإنتصارهم المختلط برائحة جثث القتلى بالمدينة المقدسة[٢١٢] . ويلاحظ مشاركة الجنوية فى مذبحة مدينة بيت المقدس ، وأعترف بذلك مؤرخهم كافارو الجنوى[٢١٣] .

وقد أرسل الفرنج بعد إنتهائهم من تلك المجزرة البشرية إلى بابا روما يهنئونه فيها بفتح مدينة بيت المقدس قائلين : « إذا ما أردت أن تعلم ما جرى لأعدائنا الذين وجدناهم بالمدينة ، فثق أنه فى إيوان سليمان أو معبده ، كانت خيولنا تخوض فى بحر من دماء الشرقيين المتدفقة إلى ركبتها »[٢١٤] .

ولم يحاول المؤرخون الصليبيون إنكار هذه الحقيقة فذكر مؤرخ صليبي من شهود المذبحة وهو ريموند أوف أجيل[٢١٥] ، عندما توجه لزيارة ساحة المعبد ، غداة تلك المذبحة ، إنه لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء قتلى المسلمين إلا فى صعوبة كبيرة ، وبين دماء جثث القتلى التى بلغت ركبتيه .

أما اليهود الذين فروا إلى المعبد الكبير فى المدينة[٢١٦] ، أو ربما بسبب ماهاج فى نفوسهم تذكار ما ألم بالسيد المسيح ( عليه السلام ) من هؤلاء ، ولأجل أن يشبع الفرنج شهوتهم وإنتقامهم أبقوا على اليهود إلى وقت آخر حتى يعدوا لهم مصيرا أكثر هولا وأشد رعبا ، فساقوهم إلى معبدهم

---

(٢١٢): Willam of Tyre, dees, vol. I.p.372.

(٢١٣) Caffaro, De Liberatione,R.H.C,Hist.occ.,vol.v,p.56

، يقال أن الفرنج ما كادوا ينتهوا من صلاتهم وبكائهم حتى عاودتهم ثورة سفك الدماء فواصلوا المذبحة وأستمروا طيلة الأسبوع يقضون على البقية الباقية من سكان المدينة من النساء والأطفال الذين ذبحوهم ذبح الخراف ومن بقى حيا عومل معاملة الأرقاء . راجع ابن الأثير الكامل ج ١٠ ص ١٩٢ ، وكذلك :

William of Tyrd, deeds, vol. I, p. 372, Michaud, History of the crusades. vol. I, p. 227, Caffaro, R.H.C. Hist. occ. vol. V, p. 56.

ويذكر إبراهيم بن وصيف شاه أن الفرنج أسروا بالمدينة المقدسة حوالى ألف مسلم . ابن وصيف شاه : جوهر البحور فى أخبار الديار المصرية ، مخطوط مكتبة البلدية رقم ٤٠٢٤ ، المصور ، لوحة ٤٩ ؛ المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٩ .

(٢١٤) انظر الترجمة الانجليزية لهذه الرسالة فى :

Michaud, History of the crusades, vol. III, appendix p. 363.

ويشير مؤرخ أعمال الفرنجة كسخط تانكريد على القادة لنكثهم بوعده الذى قطعه على نفسه لتأمين حياة بعض مسلمى قبة الصخرة . مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٩ .

(٢١٥) Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ., vol. III, p. 300.

ويذكر وليم الصورى أن بيت المقدس أصبح مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة وأشمئزازهم وأنه لم يكن من الممكن النظر إلى تلك الأعداد الضخمة من القتلى دون الإحساس بالرعب ، ففى كل مكان كانت ترقد بقايا جثث القتلى مقطوعى الرؤوس والأيدى ، وكانت الأرض مغطاة بدماء القتلى .

ويذكر المؤرخ المجهول أن جثث قتلى المسلمين وضعت فى أكوام حتى حاذت البيوت إرتفاعا المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٩ ــ ١٢٠ . انظر :

Gesta francorum Ihrusalem expugnantim, R.H.C., Hist. occ., vol. III. p. 516.

(٢١٦) Boase, Kingdoms, p. 41; Duggan, The Crusades, p. 71.

وأحرقوه عليهم[٢١٧] .

ويذكر المؤرخان اليهوديان يوشع براور وجواتين[٢١٨] أن يهود المدينة المقدسة لم يحرقوا بأكملهم داخل المعبد اليهودي بالقدس ، ولكن بعضهم نجح في الفرار من مذبحة المدينة إلى بعض المدن مثل يافا وحيفا ، ومدينة عسقلان الفاطمية[٢٢٠] .

ورغم محاولة المؤرخ وليم الصوري[٢٢١] ، تبرير مذبحة يوليو بالقدس ، بأنها كانت ضرورة لإشعار مسلمي الشرق بالخوف من قوة الفرنج الجديدة ، إلا أن غالبية المراجع الغربية الحديثة[٢٢٢] أجمعت على الإعتراف بأن مذبحة يوليو ١٠٩٩ م / شعبان ٤٩٢ هـ كانت وصمة عار في تاريخ الحملة الصليبية الأولى .

---

(٢١٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ ؛ مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، نشر زترشتين ، ط . لندن ١٩١٩ ، ص ٢٣٠ ؛ السلامي : مختصر التواريخ : مخطوط دار الكتب ، رقم ١٤١٥ تاريخ ، لوحة ٥٢ ( ط ) ، العظيمي : تاريخ العظيمي ، ص ٣٧٣ وأعترف كافارو الجنوى باشتراك الجنوية في المذبحة ، راجع .

Caffaro, De liberatione, R.H.C., Hist. occ., vol. V, p. 56.

(٢١٨) Prawer, The vicissitudes of the Jewish quarter in Jerusalem in the Arabic period, in hebrew zion quarterly review, vol. XII, 1974, p.p. 136-148.

ويذكر براور أن بعض اليهود الذين فروا من حريق المعبد وقعوا في يد تانكريد وبيعوا كأرقاء وحملوا إلى إيطاليا . راجع :

Prawer, The latin Kingdom of jerusalem, p. 236.

وأكد بلدريك أوف دول هذه الحقيقة فيذكر أن ثلاثين شخصا بيعوا مقابل قطعة واحدة من الفضة تكفيرا لهم عن خيانتهم للمسيح . أنظر :

Baldric dolensis, R.H.C. Hist. occ. vol. IV, p. 103.

ولكن ابن خلدون يشير بما يفيد أن بعضا من مسلمي القدس وليس اليهود نجحوا في الفرار من المذبحة ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٨ . وأيدت ذلك السيدة زوى اولدنبرج . أنظر :

Zoé oldenburg, The crusades, p. 140.

(٢١٩) Goitein, E., contemporary letters on the capture of jerusalem by the crusaders, Journal of Jewish jerusalem studies, vol. III, 1925, p. 162.

(٢٢٠) ويذكر المؤرخ الألماني هانز أبرهارد ماير أنه نجم من تدمير الفرنج للمدينة المقدسة تلك المكتبة اليهودية الضخمة التي حوت غالية وثائق من التوراة وحوالي ثلاثمائة وثلاثين مخطوطة باعها الفرنج للجالية اليهودية التي كانت تقيم بعسقلان . أنظر :

Mayer, H.E., The Crusades, p. 60.

ويلاحظ أن الفرنج بعد دخولهم القدس فرضوا حظرا كاملا على اليهود من دخول بيت المقدس،راجع د . عبد الحميد زايد : القدس الخالدة ، ط . دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٧٤ ص ٢١٧ .

(٢٢١) William of tyre, deeds, vol. 1, p. 371.

(٢٢٢) Michaud, History of the crusades. vol. I, p. 227; Grousset, R. Hist. des croisades to. I, p. 161; Runciman, S., The first crusade, in setton (ed.,) vol. I, p. 337; Schlumberger, C. Récits du byzance, p.p. 105-106.

وتعلق السيدة زوى اولدنبرج على المذبحة قائلة : أنه ليست هناك أي مبررات أو أسباب نفسية لتفسير هذه المذبحة التي أرتكبها الفرنج ، والتي أعتبرت ضمن أكبر جرائم تاريخ العصور الوسطى ، كما أن غالبية المؤرخين الفرنج والبيزنطيين استنكروا هذا الحادث الذي خلق دهشة كبيرا وأحساسا مخيفا سببته حثالة من الرعاع المتعصبين المهووسين الذين انساقوا وراء التبشير بالحرب المقدسة . راجع :

Zoéoldenburg, The Crusades, p. 137.

ونحن نرى أن مذبحة القدس كانت نقطة سوداء في تاريخ الحركة الصليبية ، ولم تكن جريمة فقط بل كانت خطأ سياسيا لا يغتفر ، وجعلت من الفرنج أعداء ألداء للفواطم ، وإذا كان المسلمون قد تطرفوا فيما بعد ، في معاملة الفرنج ، فقد كان هذا التطرف رد فعل قوى لمذبحة يوليو ، وهي المذبحة التي أثارت الأسى في قلوب مسلمي الشرق جميعا حتى طرد الفرنج نهائيا من الشرق الإسلامي(٢٢٣)

وتجمع غالبية المصادر الإسلامية(٢٢٤) ، على أن الخلافة الفاطمية وعلى رأسها الخليفة المستعلي ووزيره الأفضل بن بدر الجمالي ، هي المسئولة مباشرة عن ضياع القدس بأيدي الصليبيين واجتياحهم الأراضي المقدسة فيما بعد ، وأتهمت تلك المصادر الحامية الفاطمية بعجزها عن الدفاع عن المدينة وأن بيت المقدس لو ظل بأيدي الأراتقة كان أفضل ، ولتمكن الأراتقة من الدفاع عنه ضد الغزو الصليبي

وقد أيدت بعض المراجع الحديثة(٢٢٥) هذه الآراء ، وأتهمت الأفضل بن بدر الجمالي بموقفه السلبي من سقوط بيت المقدس ، وأن الخلافة الفاطمية كانت تتلقى أنباء الزحف الفرنجي على الأراضي المقدسة في برود وظلت تغط في سبات عميق دون أن تحرك ساكنا لإيقاف ذلك الزحف الجارف . ويذكر أحد الكتاب الحديثين(٢٢٦) أن سقوط القدس في أيدي الفرنج وذبحهم آلاف من المسلمين داخل المدينة ، جعلت الأفضل يفطن لخطئه في محاولته عقد التحالف مع النصارى الفرنج ، وعلمته درسا قاسيا عن جهله السياسي ، وسوء تصرفه ، وعدم مساعدته للقوى الإسلامية الأخرى أمام هذا الخطر الأجنبي ، إذ كان الواجب عليه أن يدرك أن العالم الإسلامي بشقيه الغربي والشرقي قد تناسى كل منهما الأحقاد والعداء ، وساهم في الجهاد الديني ، الذي ربط بين جميع الأمم المسيحية بروابط الفداء وعقيدته .

وهذه الإتهامات السابقة الموجهة للخلافة الفاطمية ووزيرها الأفضل شاهنشاه باعتبارهما المسئولان عن سقوط القدس ، إنما هو تحميل للفواطم أكثر مما يحتملون ، فهي إتهامات لا تستند

---

(٢٢٣) راجع :

Lamb, H., The crusaders, iron men and saints, London, 1930, p. 208; Runciman, The first crusade, in setton (ed.) vol. I, p. 337; Collier, The great events of history, London - New York 1903; p. 126; Mayer, H.E., The crusades, p. 61; Besant & Palmer, Jerusalem The city of Herod and saladin, London 1889, p.p. 208-209; Archer & Kingsford, op. cit. p.p. 91-92; Conder, The Latin kingdom of Jerusalem, London 1897, p. 67.

(٢٢٤) ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ، مخطوط دار رقم ٨٩٠ تاريخ ، لوحة ٧٤ ؛ ابن خلكان وفيات الأعيان ، ط . بيروت ١٩٦١ ج ١ ص ١٧٩ ؛ المقدسي ترجمة الناظرين فيمن ولي مصر من الخلفاء والسلاطين ، مخطوط مكتبة البلدية ، رقم ١٤١٦ ج ، لوحة ٣٨

(٢٢٥) د سعيد عاشور الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٤٥ ؛ د حسن حبشي الحرب الصليبية الأولى ص ٩٦ وكذلك

Lane-poole: A history of Egypt in the middle Ages London 1901, vol. IV, p. 163.

(٢٢٦) د حسن محمود الفاطميين وعلاقاتهم بالدول الإسلامية ، رسالة ماجستير ، كلية آداب القاهرة ، ص ١٥٧

على أدلة أو أسانيد منطقية قوية ، إذ أن نصوص بعض المصادر الإسلامية توضح أن الخلافة العباسية وسلطنة السلاجقة كانت تغط أيضا في سبات عميق فبينما كانت الحملة الأولى يتفاقم شرها في الشام وفلسطين نجد أن السلاجقة أو العباسيين لم يبدوا إهتماما بها وكأنها أمرا ليس ذا بال . فبعد فتح الطريق إلى بيت المقدس ، وإرتكاب الفرنج تلك المذبحة المروعة ، تخبرنا المصادر الإسلامية[٢٢٧] أنه : « أقبل وفد من الشام على رأسه قاضي دمشق زين الدين أبو سعد الهروى مستغيثا » بأولى الأمر وخبروا الخليفة العباسي بالكارثة التي حلت بالمسلمين في الشام ، وهناك في بغداد إجتمع الناس من دمشق ، وحضروا في الديوان الخليفي وقطعوا شعورهم ، وأستغاثوا وبكوا فأبكوا ، وذكروا ما دهم الحريم والأولاد ونهب الأموال ، وساروا في الناس ، ولكنهم عادوا من غير ما قضاء حاجة .

ويدل هذا الموقف على ضعف الخلافة العباسية وخليفتها ، الذي لم يحاول إعلان الجهاد المقدس ضد الفرنج أو بمد يد المساعدة للخلافة الفاطمية ووزيرها الأفضل شاهنشاه لمواجهة العدو المشترك ، بل أنه أحال رجال الوفد الشامي الذين أتوا مستغيثين[٢٢٨] به إلى السلطان بركياروق ٤٨٧ — ٤٩٨ هـ ( ١٠٩٤ — ١١٠٤ م ) ، خليفة ملكشاه الثاني ، والذي ضعفت سلطنة السلاجقة في عهده .

ولكن بركياروق كان مشغولا آنذاك بالصراع على السلطنة مع أخوته محمد وسنجر دون أن يحاول أعطاء أية أهمية للخطر الفرنجي ، أو إعتبار لنداء الخليفة العباسي « وأنقضى أمر إستغاثتهم ولم يظفروا بطائل للخلاف الذي كان قائما بين سلاطين السلاجقة بعضهم البعض »[٢٢٩] .

وهكذا بينما كان الخطر الفرنجي يستفحل بالشام وفلسطين ، وتدور المعارك الحامية بين الفرنج والمسلمين ، كان الخليفة العباسي وسلطانه السلجوقي يقفان موقفا سلبيا إزاء هذا الحادث الجلل ولا يبديان شيئا من الإكتراث سوى البكاء والنحيب .

---

(٢٢٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ١٩٢ ؛ العليمي : الأنس الجليل ، مخطوط المكتبة العامة رقم ٢٦٩ ، ورقة ٢٧٧ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٢٦

(٢٢٨) نظم أحد شعراء العصر وهو أبو المظفر الأبيوردي ( ت ٥٥٧ هـ ) قصيدة عصماء عبر فيها عما كان يخالج قلوب المسلمين من الحزن والأسى لسقوط المدينة وعدم إكتراث الخلافة العباسية :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرصة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فأيها بني الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام أضحى مقيلهم ... ظهور المذاكي[أ] أو بطون القشاعم[ب]

راجع أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(أ) المذاكي : الخيل التي تمت وكملت قوتها

(ب) القشاعم : جمع قشعم وهو المسن من النسور

(٢٢٩) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٨ ؛ العليمي : الأنس الجليل ، ورقة ٢٧٨

ويستشف من المصادر القريبة[٢٣٠] من تلك الفترة أن الخلافة الفاطمية ووزيرها الأفضل بن بدر الجمالى ، لم يألُ جهدهما لإنقاذ المدينة المقدسة أثناء الحصار الفرنجى لها ، ودور الحامية الفاطمية بقيادة إفتخار الدولة فى الدفاع عن القدس بطريقة أذهلت المؤرخين الصليبيين ، بل وأعترفت بصراحة باستبسال الحامية الفاطمية أمام الهجوم الفرنجى[٢٣١] . فالروايات الإسلامية نفسها تذكر أنه بينما كان الفرنج يواجهون موقفا حرجا أمام المدينة المقدسة ، حدث فى رجب ٤٩٢ هـ / أوائل يونيو ١٠٩٩ م ، أن وصلت إلى المعسكر الصليبى أنباء مؤكدة (وليس شائعة) أن جيشا فاطميا ضخما على رأسه الوزير الفاطمى الأفضل بن بدر الجمالى كان فى طريقه من مصر إلى فلسطين لإنقاذ المدينة المقدسة وإنهاء الحصار الفرنجى لها ، مما حدا بالفرنج إلى تشديد الحصار والقيام بمحاولات مستميتة لإسقاط المدينة[٢٣٢] ، وعبر عن ذلك ابن القلانسى[٢٣٣] نفسه الذى يذكر أنه أثناء الحصار الفرنجى للمدينة : « إنتهى إليهم خروج الأفضل من مصر فى العساكر الدثرة لجهادهم ، والإيقاع بهم ، وإنجاد البلد عليهم وحمايته منهم ، فشدوا فى قتاله » .

والواقع أن إعتراف المصادر الإسلامية بخروج الأفضل لإنقاذ المدينة ، لم يكن إشاعة كاذبة كما أدعت بذلك المراجع الغربية الحديثة[٢٣٤] ، بل كان دليلا قويا على أن الأفضل بن بدر الجمالى كان قلقا للغاية على مصير مدينة بيت المقدس ، وأنه كان على علم تام بتطورات الأمور فى القدس وفلسطين فهرع لإنقاذ المدينة من الحصار وأكد ذلك المؤرخ المجهول ونقلت عنه بقية المصادر الإفرنجية الأخرى[٢٣٥] .

وهذا الرأى يدحض غالبية الآراء التى ذكرتها المصادر الإسلامية وأنساقت وراءها بعض الآراء الحديثة ، التى تكيل الإتهامات جزافا للفاطميين ووزيرهم بموقفه السلبى من حصار المدينة المقدسة ومسئوليتهم عن سقوطها . كما أن إعتراف المؤرخين المسلمين مثل ابن القلانسى وابن ميسر ، يثبت أن الخلافة الفاطمية لم تقف موقفا سلبيا من الحصار الفرنجى للقدس ، بل أنها كانت القوة الإسلامية الوحيدة القادرة على الدفاع عن العالم الإسلامى ، ورفع راية الجهاد المقدس ضد الخطر الفرنجى الزاحف ، فظلت تبعث بالجيوش الإسلامية إلى الشام وفلسطين للدفاع عنها ، وإيقاف الخطر الصليبى الزاحف من الغرب الأوروبى للإستيلاء على الأراضى المقدسة ، بعد إنهيار

---

(٢٣٠) Fulcher of chartres, op. cit. p. 120; William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 361-362.

(٢٣١) Fulcher of chartres, The Expedition, p. 120.

(٢٣٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ١٣٦ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٣٩ سطر ١ ــ ٢ .

(٢٣٣) ابن القلانسى : نفس المصدر ص ١٣٦ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، نشر د . محمد حلمى ج ٢ ص ٢٣ .

(٢٣٤) Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 211, Lane-poole, A history, vol. VI, p.p. 163.

(٢٣٥) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١١٦ ، أيضا :

Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. o.c. vol. III, p. 296; William of tyre, deeds, vol. I, p. 430.

وأعترفت هذه المصادر الصليبية بحقيقة موقف الأفضل أثناء حصار الفرنج للقدس

القوتين السلجوقية والعباسية تحت الضربات الأولى للفرنج[٢٣٦] .

وقد أقر مصدر مسيحي معاصر[٢٣٧] للفترة موضوع الدراسة ، تلك الحقيقة ، وأكد أن الأفضل بذل أقصى ما في وسعه لجهاد الفرنج ، وأنفق الكثير من الأموال لإعداد الحملات الضخمة وإرسال الأساطيل البحرية لإجلائهم عن فلسطين منذ سقوط مدينة بيت المقدس بأيديهم .

وبذلك أنهى سقوط مدينة بيت المقدس ملحمة من الصراع إستمرت ثلاث سنوات بين المسلمون والفرنج[٢٣٨] ، إذ وصل الجيش الصليبي الغازي إلى هدفه الذى أعلنه البابا أوربان الثانى فى مجمع كلير مونت الكنسى[٢٣٩] ، وتوفر للفرنج عاصمة المملكة التى لم تكن قد ظهرت بعد . إلا أن عاصمة هذه المملكة كانت تقع وسط محيط إسلامى معاد ولهذا فإن مصير تلك المملكة لم يكن قد تقرر بعد . وإذا كان هناك خطر شديد كان يهدد تلك المملكة لم ينشأ بعد فإن السحب التى أنذرت بذلك الخطر لم تتجمع إلا بعد نجاح الفرنج فى توطيد أقدامهم ببلاد الشام .

وغير خاف أنه كان من الممكن أن تنتهز القوى الإسلامية المتصارعة ونعنى بها الفاطميين والعباسيين والسلاجقة هذا الوضع القلق الذى كان يحيط بالفرنج بعد سقوط القدس[٢٤٠] ، فى التكاتف وحشد جيش إسلامى موحد قوى للقضاء عليهم قبل وصولهم للأراضى المقدسة ، ووضعوا نهاية للإستقرار اللاتينى الذى لم يكن قد استقر بعد بالشرق الإسلامى ، ولا حقق اللاتين فى إحراز أى نصر عسكرى أو سياسى فى الشرق الإسلامى ، ولكن القوى الإسلامية كانت غير قادرة على تنسيق جهودها بسبب الخلافات السياسية والمذهبية والشخصية بينها ، بجانب المنافسات الخطيرة بين القاهرة ودمشق ، التى شلت مجرد التفكير للقيام بهجوم مشترك على اللاتين ، كما أن السلطنة السلجوقية كانت من الضعف وقتذاك بحيث لم تكن قادرة على السيطرة على إماراتها وأملاكها بالشام .

وبسقوط مدينة بيت المقدس تحقق للفرنج أحلام كانت تداعب خيالهم ، فراحوا يديرونها كيفما شاءوا فاستولوا على معظم المبانى والممتلكات الخاصة بالمسلمين والمسيحيين المنتمين

---

(٢٣٦) Grousset, R., Histoire des croisades, To. 1, p. XLVI.

(٢٣٧) ابن ساويرس المقفع : سير البيعة المقدسة ، نشر د . عزيز سوريال عطية وآخرون ، ط . القاهرة ١٩٥٩ ، ج ٢ مجلد ٢ ص ٢٤٩ . واعترفت المصادر الإسلامية بذلك أيضا . راجع ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مخطوط دار رقم ٢١٩٧ ، مجلد ٢ ج ٢ لوحة ٥٠ ( ب ) .

(٢٣٨) Lamb, The crusaders, p. 208.

(٢٣٩) توفى البابا أوربان الثانى فى ٢٩ يونيو ١٠٩٩ م أى قبل سقوط بيت المقدس بأسبوعين وقبل أن يسمع النبأ الذى طالما تمناه منذ دعوته للحملة الصليبية . راجع : Lamb, The crusaders, p. 206.

(٢٤٠) يذكر الأستاذ تيرنس وايس أن سقوط مدينة القدس الفاطمية ومذبحة الفرنج داخلها أقنع الأفضل بن بدر الجمالى أن التحالف مع الفرنج أصبح ميئوسا منه تماما . Wise, The Wars, p. 219.

للكنيسة الشرقية[٢٤١] ، وأجتمع القادة الفرنج فى ٢٥ شعبان ٤٩٢ هـ / ١٧ يوليو ١٠٩٩ م لبحث وتنظيم فتحهم الجديد وحل المشاكل التى أعقبت فتح المدينة وأهمها مشكلة التخلص من جثث قتلى مسلمى المدينة التى هددت بانتشار الأوبئة بها ، وتمكنوا من حلها[٢٤٢] . أما المشكلة الثانية فكانت تنصيب أمير على القدس[٢٤٣] والذى اتخذ لقب حامى الضريح المقدس[٢٤٤] «Advocatus Sancti Sepulchri» ، وهذا الإنتخاب يحدد نقطة هامة فى تاريخ الحروب الصليبية إذ أنه كان بمثابة قرار بتكوين مملكة أو مجتمع أوربى لاتينى جديد بالأراضى المقدسة[٢٤٥] .

---

(٢٤١) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٩ . ويذكر المؤرخ الصليبى وليم الصورى أن الجندى الصليبى كان يعلق أمام المنزل الذى يمر به أثناء فتح القدس سلاحه وترسه أو درعه ، علامة استحواذه على ملكية هذا المنزل

William of tyre, deeds, vol. 1, p. 371.

وكشف الفرنج عن تعصبهم الدينى فحولوا قبة الصخرة إلى كنيسة سموها معبد السيد . «Templum dominium» ، واستعملوا المسجد لصالحهم وسموه معبد سليمان «Palatum templum solominum» . وقسموه إلى ثلاثة أقسام . الأول كنيسة ، والثانى مسكنا لفرسان الهيكل ( أو فرسان الداوية أو الديوية ) والأخير استعملوه مستودعا للذخائر واستخدموا سراديب المسجد اسطبلا لخيولهم . راجع عارف العارف : تاريخ القدس ط مصر ١٩٥١ م ، ص ٧٤ . وقد اتبع الفرنج نفس السياسة فى حملتى جان دى بريين الخامسة ، وحملة لويس التاسع السابعة على مصر فحولوا مسجد دمياط إلى كنيسة لاتينية . راجع أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٢٨ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٢٨ .

(٢٤٢) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ص ١١٩ — ١٢٠ ، وكذلك :

Fulcher of charters; Expedition, p. 124; William of tyre, deeds, vol. I, p. 378.

ويذكر المؤرخ ميشو نقلا عن روبرت الراهب أن الفرنج أستخدموا الأسرى المسلمين من سكان المدينة لتنظيفها من جثث القتلى وشاركهم فى هذا العمل جنود ريمون الصنجيلى .

Michaud, History of the crusades., p.p. 124-125; William of tyre, deeds, vol. I, p. 379.

(٢٤٣) لمزيد من التفاصيل عن هذا الأمر راجع المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ص ٢٠ ، كذلك :

Fulcher of charters, op. cit. p.p. 125-126; William of tyre, p. 279.

ويذكر المؤرخ دوجان أن الأضواء كانت مسلطة على الكونت ريمون دى سان جيل ليصبح الأمير الجديد على القدس باعتباره أحد مؤسسى الحركة الصليبية ، وصديق البابا أوربان الراحل وسيد المندوب البابوى أدهيمار لوب بوى .

Duggan, A., The story of the Crusades, p. 78.

وتذكر المراجع الحديثة أنه حدث نوع من الخلاف بين ريموند وجودفرى بعد الإنتخاب كاد يودى بحرب بين الاثنين خاصة عندما رفض ريموند إرجاع قلعة داود إلى جودفرى فهدد الأخير بالتخلى عن منصبه .

Zoé oldenburg, op. cit. p. 152, Mayer, The crusades, p. 61.

(٢٤٤) تذكر المصادر الفرنجية أن جودفرى اتخذ هذا اللقب لأنه رفض أن يرتدى تاجا من الذهب فى المكان الذى أرتدى فيه المسيح تاجا من الشوك . راجع المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، أيضا : راجع أيضا ص ١٢٠ .

Fulcher of chartres, Expedition, p. 79.

ويذكر الفريد دوجان أن لقب « حامى » كان يلقب به المشرف أو المدافع عن الأراضى وأملاك الأديرة والكنائس فى فرنسا .

Duggan, A., The story, p. 79.

وتذكر المراجع الأخرى أن اختيار جودفرى لهذا اللقب جاء إعترافا له بأن الدولة الجديدة ليست لها الصفة السياسية البحتة وأن لها صفتها الدينية التى تخول الكنيسة نوعا من الاشراف عليها . راجع د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٥٠ ، كذلك .

Duggan, A. The story, p. 79.

(٢٤٥) Prawer, The Latin kingdom, p. 472.

وعن الثغرات التى لحقت بالقدس أثناء خضوعها للفرنج راجع عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٧٥ وما بعدها ، د . عبد ...

والواقع أن سقوط مدينة بيت المقدس لم يكن له نتائج مؤثرة فقط على العالم الإسلامى ، بل كان له تأثير أيضاً على أوضاع المسيحيين الشرقيين خاصة المسيحيين اليعاقبة التابعين للكنيسة المصرية إذ أن الصليبيين أعلنوا غداة إستيلائهم على القدس ، أن الكنيسة القبطية الخاضعة للخلافة الفاطمية كنيسة مهرطقة وأتباعها هراطقة وأصدروا قانونا يمنع إتباع الكنيسة المصرية داخل مصر وخارجها من الحج أو زيارة الأراضى المقدسة وعبر عن ذلك المؤرخ القبطى المعاصر ابن صاعد القلزمى بوضوح وصراحة قائلا : « أنه بعد سقوط القدس صرنا معشر النصارى اليعاقبة لا نصل إلى الحج إليها ( القدس ) ولا نتمكن من الدنو من ذلك لأجل ماهو من بغضهم لنا وهو إعتقادهم فينا وتكفيرهم إيانا »[٢٤٦] .

وتذكر بعض الآراء أن الفرنج اتصفوا بالغباء عند إصدارهم هذا القرار إذ أنهم بذلك أبعدوا إخوانا لهم فى الدين ، وفقدوا حلفاء ومؤيدين لهم فى غالبية أملاك الخلافة الفاطمية[٢٤٧] .

وفى رأينا أن الصليبيين بإصدارهم هذا القرار دلوا على الروح الحقيقية للحركة الصليبية ، وأنهم لم يشنوها من أجل غرض دينى سام ، وإنما لتحقيق أغراضهم السياسية والمذهبية ولتحويل الشرق الإسلامى إلى شرق لاتينى يدين بالمذهب الكاثوليكى ، كما دل الفرنج بذلك على روح العداء بين المسيحيين الغربيين الكاثوليك[٢٤٨] والمسيحيين الشرقيين ، وبالتحديد أتباع الكنيسة المصرية . كما أنه يناقض تماما ما جاء فى خطبة البابا أوربان الثانى الشهيرة فى مجمع كلير مونت الكنسى حين وجه الدعوة للصليبيين لإنقاذ مسيحى الشرق من كل المذاهب والتى هددتهم الغزوات الإسلامية والسلجوقية[٢٤٩] .

---

= الحميد زايد : القدس الخالدة ، ط . مصر ١٩٧٤ م ، ص ٢١٦ — ٢١٧ . أنظر وصفا للقدس بعد سقوطها فى مطلع القرن الثانى عشر فى :

The pilgrimage of saewulf to the Holy Land (1102-1103), in p.p. T.s., London 1897, vol. IV, p.p. 8-26; The pilgrimage of the Russion Abbot Daniel (1106-1107), in p.p. t.s., vol. IV, p.p. 10-26.

(٢٤٦) ابن صاعد القلزمى : سير البيعة المقدسة ، ج ٣ مجلد ٢ ط . ١٩٥٨ م ص ٢٤٩ .

(٢٤٧) Butcher, L., The story of the church of Egypt, London 1897, vol. 11, p. 71, Hackoey, L., A Sketch of the Egyptian history, p. 388; Prawer, The Latin kingdom, p. 219.

ويذكر الأستاذ هارولد فنك فى مقال له باسم « تأسيس الإمارات اللاتينية » : أن كل من ريموند دى سان جيل وروبرت النورمندى وروبرت دى فلاندرز قد احتجوا وعارضوا بشدة هذا القرار ضد إخوانهم مسيحى الشرق :

Funk, H., The foundation of the Latin States in setton (ed.,) vol. p. 374; Prawer, The Latin kingdom, p.p. 217-218.

(٢٤٨) يرى الدكتور عزيز سوريال عطية أن « الحروب الصليبية واحدة من المصائب الكبرى التى حلت على رأس جماعات المسيحيين الشرقيين وأن الأقباط كانوا هم الضحية الأولى لتلك الحروب وذلك أن عداوة اللاتين تجاه مسيحى الشرق أتضحت فى حرمان مسيحى الشرق من الحج المبارى إلى القدس . راجع :

Attiya, A.S., A history of the Estern christianity, London 1968, p.p. 92-93.

(٢٤٩) انظر تحليل ذلك فى :

= Prawer, The Latin kingdom, p.p. 214-216, p. 92-93.

وقبل أن نطوى الحديث عن أثر سقوط القدس ومذبحة الفرنج داخلها على أوضاع المسيحيين فى الشرق وفى مصر على وجه الخصوص وموقف الأفضل شاهنشاه والخليفة المستعلى والآمر بأحكام الله فيما بعد من أتباع الكنيسة المصرية فلم يحدث فى مصر رد فعل لما قام به الصليبيون فى الشام والقدس من مذابح رهيبة مما يؤكد تحلى الفاطميين فى مصر بشىء ليس يسير من التسامح الدينى ، فلم يقدموا على أى تصرف إنتقاما لسقوط القدس ومذبحة يوليو على حساب المسيحيين فى مصر ، كما أعترفت بذلك المصادر المسيحية المعاصرة والقريبة لهذه الفترة[٢٥٠] .

= ويذكر المؤرخ المسيحى ميخائيل السريانى أن الفرنج الذين عبروا البر تجمعوا وتعاهدوا أمام الله أنه إذا أمكنهم دخول القدس فإنهم سوف يعيشون فى سلام مع كل إخوانهم المسيحيين بالشرق الإسلامى وأنهم سوف يفتحون ويبنون الكنائس والهبات لكل الأمم والشعوب التى تؤمن بالمسيح .

Michiel le Syrien. Chronique, to. III, p. 183.

(٢٥٠) أبى صالح الأرمنى : أخبار نواحى مصر وأقطاعها المعروف بتاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى نشر وترجمة ايفتس ، ط . اكسفورد ، ١٨٩٥ م ، ص ٧٧ — ٧٨ .

# الفصـــل الثـالث

## الصدام العسكرى بين الفاطميين والصليبيين فى الشام

## ( ٤٩٢ ــ ٤٩٤ هـ / ١٠٩٩ ــ ١١٠١ م )

﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ، وإنهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حاذرون ﴾

( الشعراء ٥٤ ــ ٥٦ )

# الفصل الثالث

بسقوط مدينة بيت المقدس فى أيدى الفرنج فى شعبان ٤٩٢ هـ / يوليو ١٠٩٩ م . تحقق لهم الغرض الرئيسى من حملتهم على الشرق الاسلامى . والواقع أن نجاح الحملة الصليبية الأولى قد أثار أمام الصليبيين العديد من المشاكل الأساسية مثل ، تحديد وضع البلاد التى تم فتحها وطريقة تنظيمها ، وكيفية بناء امارة أو مملكة لاتينية غريبة على أرض شرقية لخلق دولة ثابتة الأقدام فى بيت المقدس ، والتوفيق بين العناصر المتباينة التى شاركت فى الحملة الأولى .

وبرغم نجاح الفرنج فى حل أكبر المشاكل التى واجهتهم بعد الفتح والتى تمثلت فى تنصيبهم أميرا جديدا على المدينة المقدسة ، وذلك بجعل جودفرى دى بويون حاميا للضريح المقدس[1] الا أنهم واجهوا مشاكل أكثر خطورة تمثلت فى كيفية الدفاع عن المدينة المقدسة ضد الأخطار المحيطة بها من جيرانها المسلمين ، وبخاصة من جانب الفواطم من ناحية الجنوب .

ويضاف الى ذلك ظهور الحاجة الماسة للاستيلاء على بقية مدن الساحل الشامى الفاطمية والتى لم يمتلكوا منها شيئا ، سوى بعض المدن الداخلية مثل بيت المقدس وبيت لحم والرملة واللد[2] اذ أن سقوط بيت المقدس ، فى رأينا ، كان مجرد تأمين للجيش الغازى ، الذى تحصن داخل أسوار المدينة المقدسة ، ولذا ترى السيدة زوى اولدنبرج[3] Zoé Oldenburg ان سقوط القدس فى أيدى الصليبيين كان انتصارا رمزيا أكثر منه انتصارا عسكريا ، فلم يحقق النتائج الضخمة المرجوة منه ، بل على العكس زاد من ثقل المهمة الملقاة على عاتقهم » .

وأوضحنا من قبل ، أن سقوط القدس ومذبحة الفرنج داخلها كان له صداه القوى فى العالم الاسلامى ، فى وقت خرج فيه العباسيون من جبهة المواجهة مع الفرنج ، فلم يقدروا على مد يد العون لجيرانهم ونقصد بذلك السلاجقة والفواطم ، نتيجة لضعف الخلافة العباسية نفسها ، والصراع القائم بين أمراء البيت السلجوقى ، بعد مقتل ألب ارسلان ، ووفاة ملكشاه ، والنزاع على السلطنة بين بركيا روق وأخيه محمد ، فى وقت منى فيه السلاجقة بهزائم متتالية أمام الفرنج دوريليوم وأنطاكية . ولهذا كانت القوة الاسلامية الوحيدة القادرة على مجابهة الفرنج هى الخلافة الفاطمية فى مصر والشام ووزيرها الأفضل بن بدر الجمالى وهى التى كانت فى نظر الصليبيين

---

(١) Caffaro, R.H.C., Hist. occ., vol. V, p. 57.

(٢) Grousset, R., L'empire du levant, Paris, p. 197; Zoé Oldenburg, The crusades, New York 1965; p. 143; Thompson, The middle ages, London, vol. I, p. 572.

(٣) Zoé oldenburg, the crusades, p.p. 143-144.

اضخم وأقوى قوة اسلامية فى المنطقة لما تملكه من جيش قوى ، وأسطول ضخم وموارد اقتصادية هائلة[٤] مما جعل العالم الاسلامى يعلق آماله على هذه الخلافة ووزيرها القوى الأفضل شاهنشاه لايقاف الزحف الفرنجى على الأراضى المقدسة .

ويرى البعض أن الأفضل أدرك بعد سقوط القدس ، طبيعة الحركة الصليبية ، ومدى الخطر الجسيم الذى هدد مصر والعالم الاسلامى ، والأغراض الحقيقية للصليبيين ، وهم الذين حاول التحالف معهم بالأمس[٥] ، وأن الأفضل لم يكن يقف ازاء تلك الأحداث مكتوف الأيدى ، فى وقت انهارت فيه مقاومة السلاجقة تحت ضربات الفرنج المتتالية[٦] ولاسيما بعد سقوط القدس وغيرها من المدن فى أيدى الفرنج ، وأنضمام العناصر المسيحية التى تقطن فلسطين إلى جانبهم ، مما يؤدى بالطبع الى تقوية اللاتين معنويا ، ومحاولتهم فيما بعد السيطرة على مدن الساحل الفاطمى بالشام ، وما يترتب على ذلك من وفود الأساطيل الأوروبية من جنوه والبندقية وبيزه وانجلترا واسكندناوه ، مما جعل من شرق حوض البحر المتوسط بحيرة صليبية تنازع الخلافة الفاطمية فيه .

ولكل هذا رأى الأفضل بن بدر الجمالى أن يتحرك فى سرعة لمواجهة هذا الخطر ، الذى بدأ يزحف على منطقة الشرق الأدنى الاسلامى ويهدد الخلافة الفاطمية نفسها . ومنذ أن فكر الأفضل فى ذلك فانه كان يعنى بداية الهجوم الفاطمى المضاد أو الرد الفاطمى على الحملة الصليبية وهجماتها فى الشام واسقاطها للقدس .

وفى هذا الدور من أدوار الصراع الفاطمى الصليبى ، ستوضح جهود الأفضل فى ايقاف التيار الصليبى اللاتينى الزاحف على فلسطين ، ومدى نجاح أو اخفاق الأفضل فى ذلك الصراع ، وكيف أن مصر قد حملت وحدها لواء الجهاد المقدس ضد الفرنج ، فى هذا الدور ، وكيف أنها مدت يدها إلى أمراء الشام السلاجقة ، متناسية ما بينهم من أحقاد ، وخلافات مذهبية لايقاف ذلك التيار الصليبى الجارف ، وسنرد أيضا على بعض الآراء التى اتهمت الافضل شاهنشاه ، بأنه عند أول مواجهة مع الصليبيين وهزيمته فى عسقلان ، ومواقع الرملة الثلاث ، ترك الشام وفلسطين تستسلم لمصيرها وخرج من جبهة المواجهة مع الفرنج بالشام[٧] .

---

(٤) Michaud, History of the crusades, London 1852, vol. I, p. 237; Zoé oldenburg, the crusades, p.p. 143-144.

(٥) Lane-Poole, A history of the Egypt in the middle Ages, London, 1901, vol. VI, p. 164; Bosse, Kingdoms and strong holds of the crusades in the Holy Land, London 1971, p. 26.

(٦) Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 237.

ويرى الدكتور أحمد رمضان أن تهاون الفاطميين ووزيرهم الأفضل بن بدر الجمالى فى الإسراع إلى بيت المقدس لدرأ الخطر عنها قبل سقوطها بيد الفرنج ، يرجع إلى ثقتهم فى قوة أمراء السلاجقة . راجع د. أحمد رمضان . شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٩٤ . وهذا الرأى ليس ما يبرره أو ما يؤيده فى المصادر الإسلامية أو المراجع الحديثة

(٧) وهو الرأى الذى ذكرته السيدة زوى اولدنبرج Zoé oldenburg, The crusade, p. 144.

رغم أن بعض الآراء الحديثة ، تذكر أن الصليبيين لم يضعوا فى اعتبارهم أن الخليفة الفاطمى سوف يقف موقفا سلبيا من سقوط مدينة المقدس ، أو أنه سيقف موقف المراقب عن كثب تطورات الأمور ، بينما يعملون على توطيد أقدامهم بالشام(8) ، الا أن جودفرى بويون أمير بيت المقدس ، أدرك بثاقب بصره أن عليه اتخاذ الاحتياطات والاستعدادات اللازمة لمواجهة أى رد فعل من جانب الفاطميين ووزيرهم الأفضل من سقوط القدس ، بمعنى آخر كان على جودفرى الاستعداد لمواجهة الهجوم الفاطمى القادم على فلسطين(9) .

باعتبار جودفرى أميرا على القدس ، واستقرار الأمور للفرنج على النحو المذكور ، صارت الخطوة التالية لهم الاستيلاء على بقية المدن الصغرى المحيطة بالمدينة المقدسة وذلك لضمان الحصول على مؤن كافية للجيش الصليبى بداخل المدينة المفتوحة(10) . ويبدو أن الفرنج لم يجدوا صعوبة كبيرة فى الاستيلاء على تلك المدن والقرى الصغرى اذ أن سقوط بيت المقدس والأعمال الوحشية التى ارتكبها الفرنج هناك أحدث موجة من الذعر فى نفوس أهالى المدن والقرى المجاورة ففروا منها وخلت بالتالى من وسائل الدفاع ، وكما فعل أهل مدينة بيت لحم فعل أهل نابلس(11) ، وسرعان ما استسلموا وأرسل وفدا الى الفرنج يدعوهم الى تسلم المدينة ، فاتجه تانكريد وأستاش دى بويون على رأس فرقة كبيرة من الفرسان والمشاه ، فتسلموا المدينة بغير صعوبة فى أوائل رمضان ٤٩٢ هـ / أواخر يوليو ١٠٩٩ م(12) .

ورغم سقوط نابلس ، وجهود الفرنج فى تأمين فتحهم الجديد بالأراضى المقدسة ، الا أنهم كانوا فى موقف لا يحسدون عليه ، وأن سقوط المقدس وغيرها لم يحدث النتائج الضخمة المرجوة التى أرادها الفرنج فما زالت مملكتهم التى لم ينشئوا فيها غير العاصمة ، فى وضع محفوف بالمخاطر .

وكان عليهم الاستيلاء على مدن وموانىء الساحلين اللبنانى والفلسطينى الفاطمى ، ليؤمنوا اتصالهم مع أوروبا ، وللحصول على مزيد من المؤن والأمدادات لمواصلة فتوحاتهم بالشرق الاسلامى .

---

(8) Runciman, S., The first crusade, in setton (ed.,) vol. I, p. 337.

(9) Zoé oldenburg, the crusades, p. 1; Runciman, The first crusade in setton (ed.,) vol. I, p. 337; Lane-poole, S. A history of Egypt in the middle Ages, vol. VI, p. 164.

(10) Thompson, The middle Ages, vol. p. 572.

(11) نابلس : مدينة قديمة تقع شمال غرب القدس بها مسجد صغير يقال أن آدم عليه السلام سجد فى ذلك للموضع الموجود به المسجد وبها جبل يعتقد فيه اليهود إعتقادا عظيما ، وهو مذكور عندهم فى التوراة . ويسميها اليهود سيكيم أو شكيم . ويذكر بعض الجغرافيين العرب أن نابلس المكان الذى كان سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء سيذبح فيه إبنه إسماعيل . راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ط . ليبزج ١٨٦٦ ، ج ٤ ص ٧٢٤ ؛ المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ط . أوروبا ١٩٠٦ م ، ص ١٧٤ ؛ القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول ، ط . بغداد ١٢٨٢ هـ ، ص ٤٩٠ ، وكذلك :

Le strange, G., palestine under the moslims, Beirut 1965, p.p. 511-512.

(12) المؤرخ المجهول · أعمال الفرنجة ، ص ١٦٠ ، كذلك :

William of Tyre, deeds, vol. I, p. 395.

ورغم وصول شائعات عن قدوم أساطيل غربية ، تحمل المؤن والجنود للفرنج الا أن وصولها كان غير معلوم.وكيف تستطيع الرسو فى الموانىء التى لا تزال فى أيدى الحاميات الفاطمية ذلك أن أيا من القادة الفرنج لم يتمكن من السيطرة على أية بقعة حصينة على الساحل الشامى . فعلى الرغم من استحواذ بوهيمند النورمندى على ميناء السويدية ( سان سيمون ) فى انطاكية الا أنه كان مجرد قرية تقع عند مصب نهر الأورنت ( العاصى ) ، وغير صالح لرسو سفن الامدادات الفرنجية ، بالاضافة لانشغال بوهيمند بصراعه مع البيزنطيين ، عن مساعدة جودفرى[١٣] .

ورغم نجاح جودفرى فى احتلال ميناء يافا ، وضمن بذلك ميناء يصلح لرسو السفن الفرنجية ، والاتصال بأوروبا ، وطلب النجدات فى حالة تعرض القدس لخطر جديد الا أنها كانت تقع وسط محيط من المدن الساحلية الفاطمية، مثل طرابلس وصيدا وصور ، بجانب المدن الأخرى التى لازالت فى حوزة الفاطميين ، والذين أعاقوا أى نجدات تأتى بحرا إلى الفرنج فى فلسطين ، علاوة على سيطرة الفاطميين على عديد من الحصون والقلاع القوية الواقعة جنوب القدس ، وعلى رأسها عسقلان التى كانت بمثابة رأس جسر وقاعدة عسكرية وبحرية للجيش والأساطيل الفاطمية الذاهبة إلى الشام وفلسطين ، بجانب وجود امارتى حلب ودمشق التابعتين للسلاجقة الواقعتين شمال بيت المقدس[١٤] . وبذلك أدرك جودفرى حرج موقفه وموقف الفرنج معه ، حتى بعد نجاحهم فى اسقاط مدينة بيت المقدس ، والمدن والقرى المحيطة بها[١٥] . تماما كما تذكر المصادر الفرنجية[١٦] .

وسرعان ما تأزمت الأمور بالنسبة للصليبيين عندما وصلتهم أنباء عن قدوم حملة فاطمية برية وبحرية ضخمة بقيادة الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستعلى بالله ، فى طريقها الى فلسطين ، وذلك بعد أن أعلن الوزير الأفضل عزمه على انقاذ القدس من أيدى الغزاة والقضاء عليهم .

ذلك أن الأفضل ، باعتراف المصادر الاسلامية[١٧] واللاتينية[١٨] ، لم يكف عن الاستعداد

---

(١٣) Lamb, The crusaders, p. 210.

(١٤) Lamb, H., The crusaders, p. 210; Besant & palmer, Jerusalem, the city of Herod and Saladin, London 1889, p. 215.

(١٥) Besant & Palmer, Jerusalem, the city of Herod and saladin, p. 216 Fink, H., The foundation of the latin states, in setton (ed.) vol. p. 375.

(١٦) يفهم من نص فوشيه شارتر أن الأفضل أراد أن يفعل مع الفرنج بحصارهم داخل المدينة المقدسة ، مثلما فعل كربوغا أتابك الموصل من قبل فى انطاكية ، راجع :

Fulcher of charter, Expedition, p. 125.

وتذكر أحد الوثائق اللاتينية المعاصرة أن الأفضل كان قد أعلن عزمه القضاء على الفرنج بالقدس ، ثم السير إلى أنطاكية لاستعادتها ، راجع : Michaud, History of the crusades, vol. III., p. 363.

(١٧) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مخطوط دار الكتب المصرية ، ج ٢ مجلد ٢ لوحة ٥ ( ب )

(١٨) William of tyre, deeds, vol. I, p. 393.

لجهاد الفرنج منذ أن سمع بزحفهم وحصارهم مدينة بيت المقدس ، فجمع الأموال وحشد الأجناد وأعد أسطولا ضخما ، وعبر عن ذلك ابن الفرات بقوله : « ولم يبق ( الأفضل ) ممكنا من رجال وسلاح ومال وخيل[١٩] الا وحشده من أجل المعركة المقبلة مع الفرنج فى فلسطين .

وسرعان ما خرج الأفضل على رأس جيش كثيف قدره المؤرخون المسلمون بحوالى عشرين ألفا من الجند الرجالة والخيالة[٢٠] ، متجها نحو فلسطين ، بعد أن ترك فى مصر أخاه المظفر أبا محمد جعفر ابن أمير الجيوش لينوب عنه فى شئون الحكم حتى عودته[٢١] . وسار الأفضل عابرا بقواته شبه جزيرة سيناء إلى فلسطين لانقاذ المدينة المقدسة من حصار الفرنج ، وطردهم نهائيا من فلسطين[٢٢] .

وقد أعترفت المصادر الاسلامية نفسها أن الأفضل خرج لأنقاذ بيت المقدس أثناء الحصار الفرنجى لها[٢٣] ، وليس كما أدعت بعض المصادر الأخرى أنه خرج لانقاذها بعد سقوطها فعلا[٢٤] ، فيذكر ابن القلانسى أن الفرنج أثناء حصار بيت المقدس « انتهى اليهم خروج الأفضل من مصر فى العساكر الدثرة لجهادهم والايقاع بهم وانجاد البلد عليهم ، وحمايته منهم[٢٥] » ، بل أن أبا المحاسن المعروف بتعصبه ضد الفاطميين يعترف بذلك قائلا : « ان الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، بلغه أن الفرنج ضايقوا ( وليس اسقطوا ) بيت المقدس ، خرج اليهم فى عشرين ألف من عساكر مصر وجد فى السير[٢٦] » .

وهناك رأى لبعض المصادر الاسلامية[٢٧] وهو أن الأفضل هدف من حملته تلك تقوية دفاعات وحاميات مدن الساحل الفاطمى لتدافع عن نفسها ضد الخطر الفرنجى ، وانقاذ ما تبقى

---

(١٩) ابن الفرات : المصدر السابق ، لوحة ٥٠ ( ب ) . وهذا النص نقله ابن الفرات عن ابن الطوير فى كتابه نزهة المقلتين فى سيرة الدولتين ، كما نقله المقريزى أيضا فى الخطط ، ط . بولاق ١٢٧٠ هـ ، ج ١ ص ٤٤٣ .

(٢٠) الذهبى : دول الإسلام ، ط . حيدر آباد الدكن ١٣٦٥ هـ ، ج ٢ ط . ٢٠ ، ص ١٥ ؛ أبو المحاسن النجوم الزاهرة ، ط . مصر ١٩٣٥ ، ج ٥ ص ١٤٩ . ويلاحظ أن الروايات الإسلامية والفرنجية المعاصرة أو القريبة المقدرة عن أعداد الجيش الفاطمى أو الصليبى المشارك بالنفس فيما تسوقه من مبالغات بالغة عن أعداد الجيوش الإسلامية والمسيحية ، ولذا صار مستحيلا علينا التحقق من الحجم الحقيقى للجيوش الإسلامية والفرنجية . راجع تحليل ذلك فى رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٤٨٠ .

(٢١) ابن الفرات . المصدر السابق ، ج ٢ مجلد ٢ لوحة ٥٠ ( ب ) ؛ المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٤٤٣ .

(٢٢) Fulcher of chartres, Expedition, p. 125; Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ., vol. III, p. 302; William of tyre, deeds, vol. I, p.393Michaud, History of the crusades, vol. III, appendix, IX, p. 363.

(٢٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٩ .

(٢٤) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٣١ ؛ السيوطى : اتحاف الأخصا فى فضائل المسجد الأقصى مخطوط ، ورقة ٦٣ ( ظ ) .

(٢٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ .

(٢٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٩ . وقد أعترف المؤرخ الصليبى ميشو بأن الأفضل خرج لإنقاذ المدينة قبل سقوطها بالفعل .

Michaud, The History of the cursades, vol. I, p. 220.

(٢٧) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مخطوط دار الكتب ج ٢ مجلد ٢ لوحة ٥٠ ( ب ) .

من تلك المدن ، ويذكر ابن الفرات نقلا عن ابن الطوير أن الأفضل « قصد استنقاذ الساحل من يد الفرنج[٢٨] » . وسرعان ما خرج الأسطول الفاطمي من موانيه بالاسكندرية ودمياط محملا بأنواع المؤن والامدادات اللازمة لانقاذ المدينة ، ولتعزيز الجيش البرى الزاحف على الشام[٢٩] .

ويذكر الأستاذ شارل أومان «Charle Oman» فى كتابه « تاريخ فن الحرب فى العصور الوسطى[٣٠] » أن جيش الأفضل الفاطمي كان يختلف فى تكوينه اختلافا كاملا عن الجيش الصليبي الذى يواجهه فى عسقلان اذ كان الجيش الفاطمي يشبه الى حد كبير الجيوش التى حارب بها الخلفاء الأوائل ، البيزنطيين من قبل ، فكان جيش الأفضل يتكون من عناصر وأجناس متنافرة كالسودان ( العبيد ) والبدو من القبائل العربية القاطنة بمصر أو الشام ، ومن المغاربة وقليل من الأتراك والأرمن[٣١] ، كما خلا الجيش الفاطمي من أبناء الشعب المصرى نفسه . ويتحدث أومان عن تنظيم الجيش الفاطمي الزاحف على فلسطين فيذكر أن السودان أو العبيد كانوا يكونون مشاة الجيش المسلحين بالخطاطيف والقضبان المعدنية المستخدمة فى كسر الدروع «Bows ironnaces» ، بينما كان الفرسان من المغاربة ، والبدو من عرب مصر والشام وهؤلاء لم يكونوا بارعين براعة الأتراك سواء فى الفروسية أو رمى الأقواس ، وكانوا يشكلون القوة الضاربة فى أى جيش اسلامى[٣٢] .

ويفهم من ذلك أن الجيش الفاطمي الذى قاده الأفضل لانقاذ المدينة لم يكن جيشا قوميا يتكون من أبناء الشعب المصرى نفسه وانما كان خليطا من قوات مرتزقة وعناصر متنافرة مما كان له تأثيره الكبير ، على سير المعركة القادمة بينه وبين الجيش الصليبي .

ولكن أنباء خروج الجيش الفاطمي البرى والبحرى بقيادة الأفضل وصلت الى الفرنج ، مما

---

(٢٨) ابن الفرات : المصدر السابق ، لوحة ٥٠ ( ب ) .

(٢٩) Michaud, The History of the crusades, vol. 1, p. 238.

ويذكرها رولد لامب أن الخليفة الفاطمي المستعلى بالله أعلن الجهاد المقدس ضد الفرنج فى جميع أنحاء الخلافة الفاطمية بينما كان الجيش الفاطمي يعبر صحراء سيناء إلى فلسطين .

Lamb, H., The crusaders, p. 212.

(٣٠) Oman, Ch., Art of war, London 1924, vol. 1, p. 289.

(٣١) أشارت المصادر الفرنجية إلى العناصر التى تكون منها الجيش الفاطمي الزاحف على فلسطين . راجع :

Fulcher of chartres, Expedition, p. 125; William of tyre, deeds, vol. I, p. 394.

وأشارت آنا كومنينا لاشتراك الأرمن كعنصر أساسى فى جيش الأفضل

Anna comnena, The Alexiad, p. 286.

ويرى أومان أن قلة العنصر التركى فى الجيش الفاطمي يرجع للعداوة السياسية والمذهبية بين الفواطم والأتراك بالشام ولم يكن من الممكن الحصول على أى عون عسكرى من جانبهم.راجع :

(٣٢) Oman, Art of war, p. 289.

بجعلهم يشتغلون فى حصار المدينة حتى تمكنوا من اسقاطها ، كما أوضحنا من قبل[٣٣] . ورغم أن الأفضل جد فى السير للوصول إلى المدينة قبل سقوطها[٣٤] ، ليحول دون استيلاء الفرنج عليها الا أنه وصل فى ١٤ رمضان ٤٩٢ هـ / ٤ أغسطس ١٠٩٩ م ، وذلك بعد سقوطها بعشرين يوما[٣٥] فعسكر فى عسقلان التى كانت أكبر القواعد الفاطمية العسكرية والبحرية الحصينة فى الشام[٣٦] .

ورغم أن المصادر لم تشر من قريب أو بعيد إلى سبب تأخر الأفضل شاهنشاه فى انقاذ المدينة ، ووصولها بعد سقوطها بفترة كبيرة الا أن المصادر الاسلامية توضح أن الأفضل أصيب بخيبة أمل كبيرة بعد أن أعتقد أن الصليبيين سيكتفون بالاستيلاء على شمال الشام ويحرصون على مخاطبة ود الفاطميين باعتبارهم حلفاء طبيعيين ضد الأتراك السلاجقة أو يكونوا بمثابة قوة حاجزة بينهم وبين الأتراك السلاجقة خشية اجتياحهم الشام ثم غزو مصر فيما بعد[٣٧] ، ولهذا تذكر المصادر أن الأفضل ، عند وصوله عسقلان ، أرسل سفارة الى الفرنج يوبخهم على ما فعلوه ويتهددهم[٣٨] » لأنهم نكثوا بعهدهم ، وطالبت هذه السفارة الفرنج بالرحيل عن فلسطين ، والمرجح أن الأفضل كان يعتقد بامكانية استئناف المفاوضات معهم ، الا أن رد الفرنج كان قاطعا فى هذه المرة ، وهو طرد السفارة الفاطمية كرد وحيد عليها[٣٩] .

وفى عسقلان أضاع الأفضل وقتا طويلا فى انتظار الاسطول الفاطمى ، الذى أبحر من مينائى دمياط والاسكندرية ، والنجدة التى وعده بها عرب فلسطين ، ويرى سبط ابن الجوزى وابن القلانسى أن الأفضل بعد وصوله الى عسقلان أضاع وقتا ثمينا « ينتظر الأسطول فى البحر

---

(٣٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ . William of tyre, deeds, p. 368.

(٣٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٩

(٣٥) ابن القلانسى : ذيل ص ١٣٦ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٩ . ويذكر الذهبى أن الأفضل وصل عسقلان ثانى يوم من فتح القدس.الذهبى دول الإسلام ج ٢ ص ١٥ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٩ . وأتى أبو المحاسن برواية غريبة أنفرد بها عن المصادر الأخرى ويذكر أن الأفضل جد فى السير حتى وصل القدس ثانى يوم فتحه ، فقصده الفرنج وقاتلوه فلم يثبت لهم ، ودخل عسقلان بعد أن قتل من أصحابه الكثير . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٩ . وهذه الرواية لا يوجد ما يؤيدها فى بقية المصادر الإسلامية واللاتينية المعاصرة أو المتأخرة .

(٣٦) سوف نوضح الدور الهام الذى لعبته عسقلان فى الصراع الفاطمى الصليبى أيام الأفضل شاهنشاه فى الفصل السادس .

(٣٧) ابن ظافر الأزدى : أخبار الدول المنقطعة ، مخطوط دار رقم ٨٩٠ تاريخ ، ورقة ٧٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩٢ ، وقد أيدت غالبية المراجع الحديثة وجهة النظر الإسلامية .

(٣٨) ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ص ٣٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩٢ ؛ العينى : عقد الجمان ، مخطوط دار ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٥٠٥ ؛ الذهبى : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٥ — ١٦ . والغريب أن المصادر اللاتينية التزمت هذه المرة الصمت التام إزاء سفارة الأفضل إلى الفرنج بالقدس قبل موقعة عسقلان مباشرة .

(٣٩) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٤١٦ .

Runciman, The first crusade, in setton, (ed.,) p. 340.

ويرى ستانلى لين بول أن الأفضل كان عليه أن يدرك بعد سقوط القدس ودخول الفرنج أملاك الفاطميين ما كان يجب عليه إدراكه وتوقعه من هؤلاء الحلفاء الذى اتسم موقفهم بالغرور . راجع :

Lane-poole, A history, vol. VI, p. 164.

والعرب(٤٠) » .

ولاشك أن الأفضل قد ارتكب خطأ عسكريا كبيرا بهذا الانتظار الطويل ، فكان عليه أن يبادر الفرنج بالهجوم وهم داخل أسوار المدينة المقدسة ، مستغلا فى ذلك الخلاف القائم بين قادتهم ( بين جودفرى وتانكريد وريموند دى سان جيل ) وتفرق الجيش الفرنجى ، وغياب معظم القادة الفرنج عن المدينة لانشغالهم باخضاع المدن والمناطق الريفية المحيطة بالمدينة(٤١) .

ولكن الأفضل رأى أن ينتظر وصول الأسطول والنجدات التى وعدته بها القبائل العربية فى فلسطين(٤٢) ، رغم أن جيشه كان كافيا لسحق الفرنج ، واستعادة المدينة المقدسة ، اذا بادر بالهجوم منذ وصوله الى عسقلان . ولكن هذا الانتظار الطويل سيدفع ثمنه فادحا ، ويترتب عليه نتائج بعيدة المدى فى تاريخ الصراع الفاطمى الصليبى بالمنطقة ، وفى تاريخ الشرق الأدنى الاسلامى فيما بعد .

وسرعان ما وصلت أنباء الجيش الفاطمى ، ونوايا الأفضل فى استعادة المدينة المقدسة ، الى الفرنج القابعين بداخلها ، مما سبب حالة من الرعب والذعر داخل المعسكر الفرنجى(٤٣) ، خاصة وأن غالبية القادة الفرنج بفرقهم كانوا خارج القدس مشغولين باخضاع المناطق المحيطة بها مثل نابلس وأريحا والجليل ، مما حدا بجودفرى أن يرسل إلى تانكريد وأستاش البولونى ، طالبا منهم سرعة المجيء الى القدس ، والتخلى مؤقتا عن فكرة اخضاع تلك المناطق حتى يتم دفع هذا الخطر(٤٤) ، وأن يخطراه بتحركات الجيش الفاطمى ، فعجلا بالمسير الى قيسارية ، ثم استدارا جنوبا نحو الرملة(٤٥) ، وتمكنا أثناء الطريق من القبض على بعض الكشافة الفاطميين الذين أرسلهم الأفضل لاستطلاع ومعرفة أحوال وأعداد الجيش الفرنجى تمهيدا لشن الهجوم المنتظر وتمكن القائدان من انتزاع أخبار هامة عن عدد الجيش الفاطمى وأحواله والمناطق التى ينوى الأفضل

---

(٤٠) ابن القلانسى : نفس المصدر ، ص ١٣٧ . ويذكر ابن القلانسى أنه انضمت الى جيش الأفضل الكثير من جند الساحل ، فى حين تذكر المصادر اللاتينية أن قوات ضخمة من الجزيرة العربية والشام انضمت إلى الجيش الفاطمى هذا الأتراك السلاجقة نظرا لعدائهم للفاطميين . راجع :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 394.

ويرى الفريد دوجان أن الأفضل كان يظن أنه سينزل هزيمة ساحقة بالفرنج نظرا لضخامة قواته بالمقارنة بالقوات الفرنجية . راجع :

Duggan, A., The story of the crusades, p. 80.

(٤١) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٢٠ . مثل نابلس وغيرها .

(٤٢) Archives de L'orient latin, Paris 1881, to. I, p. 199; Duggan, The story of the crusades, p.80; Michaud, History of the crusades, vol, I, p. 238.

(٤٣) Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 238.

(٤٤) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٢٠ . ويذكر وليم الصورى أن تانكريد وأوستاش كانا يجهلان تماما صحة تلك الأنباء عن وجود الجيش الفاطمى أو الاستعدادات الجارية بالقدس لمواجهة الخطر الفاطمى .

William of tyre, deeds, p. 394.

(٤٥) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٢٠ .

مهاجمة الفرنج منها ، وغرض الأفضل من حملته تلك ، وعرفا أن الأفضل ينتظر مجيء الأسطول الفاطمي لمده بنجدات ومؤن اضافية وانه لم يتوقع مهاجمته ، ولهذا سرعان ما بعث القائدان الصليبيان للدوق جودفرى يؤكدان له صحة المعلومات عن الجيش الفاطمي ووزيره ، ويحثانه على مباغتة الجيش الفاطمي وقائده الأفضل(٤٦) ويبادره بالهجوم لأنه خير وسيلة للدفاع(٤٧) .

لقد أدرك جودفرى مدى الخطر المحيق بالقدس والجيش الصليبي ، فبادر إلى حشد جيشه ، ودعا كل فرنجي مقيم بالمدينة المقدسة وقادر على القتال للخروج معه ، ودعا رفاقه للانضمام اليه فاستجاب اليه روبرت دى فلاندرز غير أن روبرت النورمندى وريمون أوف تولوز ، اللذين كانا لا يزالان فى وادى الأردن ، قد رفضا الالتحاق بالجيش الصليبي وأنهما سينتظران حتى يتأكدا من صحة تلك الأنباء عن الجيش الفاطمي ولم ينضما إلى الجيش ، الا بعد أن أرسلا كشافتها للاستطلاع وتحرى الأمور(٤٨) .

وكيفما كان الأمر ، فقد أسرع جودفرى بالخروج من بيت المقدس يوم الثلاثاء ١٦ رمضان ٤٩٢ هـ / ٩ أغسطس ١٠٩٩ م ، بعد أن أنضم اليه روبرت دى فلاندرز ، وكل العساكر الفرنجية ، ورافقهم البطريرك أرنولف أسقف ماريترانو(٤٩) ، قاصدين الرملة(٥٠) ، والتقى هناك بتانكريد وأوستاش وعساكرهما ، حيث أكدا له صحة الأخبار بوفود الجيش الفاطمي إلى عسقلان ، فأمر الأسقف أرنولف بالعودة سريعا إلى بيت المقدس ليعلن خطورة الموقف ، ويحض كل رجل قادر على القتال باللحاق بالجيش الصليبي بالرملة ، وأخطار بطرس الناسك أن يؤدى

---

(٤٦) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٢٠ — ١٢١ . William of tyre, deeds, vol. I, p. 395.

(٤٧) Stevenson, The crusaders in the East, Cambridge 1907, p. 35; Runciman, S., the first crusade, in setton (ed.,) vol. 1, p. 340.

(٤٨) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٢١ .
William of tyre, deeds, vol. I, p. 395; Archives de L'orient Latin to. I, p. 200.
وعن أسباب معارضة روبرت النورمندى وريمون سان جيل للالتحاق بالجيش الصليبي ، راجع :
Besant & Palmer, Jerusalem, London, 1881, p. 217.

(٤٩) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٢١ — ١٢٢ . ويذكر المجهول أن جودفرى أرسل مع أسقف مارتوانو رسائل إلى بطرس الناسك والأمراء الآخرين للانضمام إليه وأن الأسقف وقع فى كمين نصبته بعض قوات الاستطلاع الفاطمية . راجع أيضا : William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 394-395.
وتقع أسقفية مارتوانو تلك فى جنوب ايطاليا فى مقاطعة كالنزار ، راجع :
Bréhier, L., (ed.,) Histoire Anonyme, p. 210 F. 2.

(٥٠) الرملة : عاصمة اقليم فلسطين وهى مدينة من جند الأردن بناها سليمان بن عبد الملك فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، أثناء ولايته على فلسطين ، واتخذها عاصمة ومقرا له وبنى لنفسه بها قصر اسمى دار الصباغين وبنى مسجدا لم يكمله لتولية الخلافة بعد أخيه واستكمل بناؤه فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز . واجع ناصر خسرو : سفرنامة ص ١٩ ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٨١٧ . ويذكر القلقشندى أنها سميت الرملة لغلبة الرمال عليها أو لأنها سميت بامرأة أسمها رملة وجدها سليمان بن عبد الملك حيث نزل مكانها يرتاد بناءها ، فأكرمته وأحسنت نزله فسماها باسمها . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٩٩ .

الصلوات على أن يشترك فيها كل مسيحى المدينة لاحراز النصر على القوات الفاطمية(٥١) .

وأقام جودفرى فى الرملة منتظراً بقية الجيش الصليبى القادم من القدس والأمراء المعارضين بعد أن ترك المدينة تكاد تكون خالية من وسائل الدفاع عنها ، بعد أن ألتحق به كل الجند الخاربين بها ولم يتخلف سوى النساء والأطفال والمرضى وبعض رجال الاكليروس(٥٢) ، كما أنضم إليه أيضا روبرت النورمندى وريمون الصنجيلى ، بعد ادراكهم للخطر المشترك الذى أحاط بهم وبالمدينة المفتوحة(٥٣) .

ولم يكد يجتمع شمل القوات الصليبية فى يبنه(٥٤) «Ibelin» وتسميها المصادر الصليبية ابلين(٥٥) ــ قرب الرملة فى حوالى ١٧ رمضان ٤٩٢ هـ / ١٠ أغسطس ١٠٩٩ م ، حتى عقد القادة اجتماعا قرروا فيه الزحف جنوبا ومباغتة الفاطميين بالهجوم(٥٦) ، فقد أدرك القادة الفرنج خطأ بقائهم فى يبنة ، والتى كان يحيطها من الشمال الرملة التى كانت بمثابة فخ للقوات الصليبية ، نظرا لوقوعها وسط مثلث من المدن الاسلامية من الشمال والشرق والجنوب مما يوقعهم بين شقى رحى ، ولهذا رأى الفرنج ان يبادروا الفاطميين بالهجوم بدلا من انتظارهم فى سهل الرملة(٥٧) .

وبزوغ فجر ١٨ رمضان ٤٩٢ هـ / ١١ أغسطس ١٠٩٩ م احتشد الجيش الصليبى فى يبنة ، على مسافة بضعة أميال من الرملة وزحف ذلك الجيش الذى يبلغ عدده ألفا وثلثمائة من الفرسان ، وتسعة آلاف من المشاه طبقا للمصادر الصليبية(٥٨) ، نحو الجنوب باتجاه عسقلان

---

(٥١) المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٢١ .

(٥٢) المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٢١ .

William of tyre, deeds, p. 394; Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ., vol. III, p. 303; Roger of wendover, Flowers, vol. I, p. 426.

وهذا الرأى يتعارض مع أحد الوثائق اللاتينية التى تتمثل فى الرسالة التى أرسلها أمراء الفرنج إلى الغرب الأوروبى يذكرون فيه أنهم تركوا فى القدس حامية قوية كانت قادرة على الدفاع عن المدينة راجع :

Michaud, History of the crusades, London 1892, vol. III, p. 363.

(٥٣) William of tyre, deeds, vol. I, p. 395.

(٥٤) يبنة : تقع بين يافا وعسقلان ، ويقال أن بها قبر أبى هريرة أو قبر عبد الله بن سعد بن أبى سرح أحد صحابة الرسول ﷺ راجع ياقوت الحموى : نفس المصدر ج ٤ ص ١٠٠٧ .

(٥٥) Oman, Art of war, vol. p. 289.

(٥٦) Flucher of chartres, Expedition, p. 125; Raymond of Aguilers, R.H.C. Hist. occ., vol. III, p. 303; Felix Fabri, the book of wandering in p.p. T.S., vol. IV, p. 312; Cf also stevenson, the crusaders in the East, p. 35.

(٥٧) يتناقض هذا مع ماذكره كافارو الجنوى من أن اللاتين عسكروا فى الرملة واشتبكوا مع الجيش الفاطمى هناك . راجع .

Caffaro, R.H.C., Hist. occ., vol. V, p. 57, Cf; also, Lamb, H., the crusaders, p. 212; Conder, the latin kingdom, p. 69.

(٥٨) Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ., vol. III, p. 303; William of tyre, deeds, vol. I, p. 395.

واختلفت المصادر الفرنجية فى تحديد عدد قوات الجيش الفرنجى الذى شارك فى موقعة عسقلان ، فالوثيقة التى أوردها ميشو فى =

فوصل الى سهل أشدود ( أسدود ) وهناك رأوا ما جلبه الفاطميون من الماشية والأغنام ، لتموين جنودهم ، فاستولوا عليها ، كما أسروا بعض أفراد من الكشافة الفاطميين فأنتزعوا منهم الكثير عن قوة الجيش الفاطمي وخططه وتنظيمه كما عرفوا أن الجيش الفاطمي على مقربة منهم[٥٩] ، وحينئذ تأكد جودفرى ورفاقه ، أن المعركة أصبحت حتمية الوقوع ، ولهذا فبعد وصولهم إلى سهل المجدل[٦٠] ، ويقع شمال مدينة عسقلان التي تحصن بها الأفضل ، خشى جودفرى من مباغته الفاطميين له وتطويقهم للجيش الصليبي أثناء وجودهم بهذا السهل[٦١] ، ولهذا قام جودفرى بتقسيم الجيش الصليبي إلى ثلاث مجموعات تكون كل مجموعة منها ستة أقسام ، وكل منها يشمل قسما من الفرسان والرجالة ورماة السهام ، فكانت المجموعة الأولى تمثل مقدمة الجيش بقيادة روبرت النورمندى والمجموعة الثانية فى الوسط بقيادة ريموند دى سان جيل ، والثالثة فى المؤخرة بقيادة جودفرى نفسه ، وتقدم الجيش على شكل طابور نحو جيش الوزير الفاطمى[٦٢] .

وقد هدف جودفرى من هذا التنظيم مواجهة أى هجوم مباغت يقوم به الجيش الفاطمى ، فاذا هاجم أى جانب من جوانب جيشه فانه سيجد أمامه ثلاثة أقسام من الجند والفرسان ورماة السهام إلتواجه الهجمة الأولى ، فى حين تقوم الأقسام الثلاثة الأخرى بمساعدة المجموعة الأولى لصد هذا الهجوم . أما الأقسام الثلاثة الأخرى بقيادة جودفرى فكانت تمثل مؤخرة الجيش ، وقوات احتياطيه مهمتها مساعدة الأقسام الستة الأولى من الجيش[٦٣] .

بينما كان الجيش الصليبي يخيم فى سهل المجدل[٦٤] ، كان الجيش الفاطمى لا يزال فى معسكره

---

= ملحق كتابه لذكر ان عدد الجيش الصليبي بلغ خمسة آلاف فارس، وهذا يتفق مع ما ذكره أكهارد اوف أورورا . راجع ذلك فى :
Michaud, History of the crusades, vol. III, p. 394; Stevenson, the crusaders in the East, p. 35, F. 3.

(٥٩) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٢٢ ، كذلك
Fulcher of chartres, Expedition, p. 126; William of tyre, deeds, vol. I, p. 395.
ويلاحظ أن هذه المصادر الفرنجية انفردت دون غيرها من المصادر برواية استيلاء الصليبيين على مغانم الجيش الفاطمى . راجع :
Michaud, History of the crusades, vol. III, p. 364.

(٦٠) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٢٢ .

(٦١) Oman, Art of war, vol. I; p. 389.

(٦٢) William of tyre, deeds, vol. I, p. 395.
وتنظيم الجيش الصليبي على هذا النحو يتفق مع ما ورد فى المصادر الفرنجية . فيذكر فوشيه أن الفرنج نظموا جيشهم فى شكل كتائب وأجنحة منظمة فى أبدع تنظيم لمواجهة الجيش الفاطمى راجع :
Fulcher of chartres, op. cit. p. 126.
انظر شكل يوضح تنظيم القوات الفاطمية الصليبية المتحاربة فى موقعة عسقلان ( شكل رقم ٣ ) .

(٦٣) Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ., vol. III, p. 303; William of tyre, deeds, vol. I, p. 395.

(٦٤) يذكر بريهيه أن طريقة تنظيم أو تكوين الجيش الفرنجى فى موقعة عسقلان كان الخط الذى ساروا عليه فى تنظيم جيوشهم فيما بعد من القرن الحادى عشر إلى القرن الخامس عشر الميلادى . راجع :
Bréhier (ed.), Histoire, p. 213.

خارج مدينة عسقلان . ويفهم من نص لابن الأثير[٦٥] ، أن الأفضل كان يجهل تماما أن الفرنج كانوا على مسافة قريبة جدا منه ، كما أنه لم يكن يتوقع أن يبادره الفرنج بالهجوم نظرا لقلة عددهم .

وكان جيش الوزير الأفضل يتخذ موقعا فى الأرض السهلية التى كانت تحاذى ساحل البحر مباشرة وبالتحديد شمال مدينة عسقلان ، وقام الأفضل أيضا بتقسيم جيشه ثلاثة أقسام بحيث ترك الجناح الأيسر لجيشه وكان يتكون من المغاربة من كتامة وزويلة محاذيا لساحل البحر حتى يمكنه تلقى أى عون عسكرى من الأسطول البحرى القابع قرب ميناء عسقلان والمتأهب للتدخل اذا لزم الأمر ، أما الجناح الأيمن لجيشه فكان بمحاذاة المرتفعات والجبال الموجودة بناحية الشرق والجنوب وكانت بمثابة حصنا طبيعيا يحول دون شن أى هجوم فرنجى عليهم من هذا الجانب اذ دفع الأفضل بقوات البدو العربية من الشام وفلسطين فى هذا القسم من الجيش ليقوموا بتطويق الجيش الصليبى من اليمين ، فى حين وضع رماة السهم من السودان فى الخط الأمامى من الجيش أما القلب فقد قاده الأفضل ووضع فيه معظم جيشه ، وكان يتكون من جماعات الفرسان النظاميين وفى مؤخرة الجيش كانت توجد مدينة عسقلان بحقولها ومزارعها حيث كانت تقع بها حامية قوية مهمتها حماية مؤخرة الجيش الفاطمى ، وتقديم العون والامدادات له أثناء المعركة[٦٦] . وسرعان ما عقد القادة اللاتين اجتماعا ناقشوا فيه الموقف وقرروا مبادرة جيش الوزير الأفضل بالهجوم فى فجر اليوم التالى[٦٧] .

وببزوغ فجر يوم ١٩ رمضان ٤٩٢ هـ / ١٢ أغسطس ١٠٩٩ م أصطف الجيش الصليبى فى سرعة واتخذ ريموند مركزه بالجناح الأيمن بمحاذاة البحر بينما تمركز روبرت النورمندى فى القلب ومعه روبرت دى فلاندرز فى حين تمركز جودفرى فى ميسرة الجيش الصليبى[٦٨] . ولم

---

(٦٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩٤ .

(٦٦) Oman, Ch. Art of war, vol. I, p. 290; Michaud, History of the crusades. vol. I, p. , Lamb, H., The crusaders. p. 214.

ويذكر المؤرخ المجهول لأعمال الفرنجة أن كل فارس من فرسان الجيش الفاطمى كان يعلق فى رقبته أو سرج جواده قربة من الماء ليسهل عليه الشرب أثناء المعركة . المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٢٢ راجع شكل تنظيم القوات الفاطمية . شكل رقم (٦) .

(٦٧) المؤرخ البروفنسالى ريموند أجيل يذكر أنه صدرت الأوامر لكل جندى بالجيش الصليبى أن يكون مستعدا لخوض المعركة فى فجر اليوم التالى وكل من يتأخر عن الهجوم سيوقع عليه قرار الحرمان

Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ. vol. III, p. 304.

(٦٨) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ص ١٢٦ .

Fulcher of chartres, Expedition, p. 126, also, Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ. vol. III, p. 304.

ويذكر شارل أومان أن أقسام الجيش الصليبى التسعة لم تركزت فى خط واحد ولم يتركوا وراءهم قوات احتياطية فى الخلف وأن كل قسم من أقسام الجيش كان يتكون من فرقة مشاة فى الأمام ويليها فرقة فرسان من الخلف . ولكن المؤرخ ميشو يذكر أن جودفرى كان مكلف بمهاجمة حامية عسقلان واعاقتها عن تقديم العون والمدد للجيش المصرى من الخلف

Michaud, p. 240. Oman, p. 295.

يكد يتم تنظيم الجيش الفرنجي بهذا الشكل ، حتى قام بشن هجوم مباغت ومفاجيء على الجيش الفاطمي الذى اخذته المفاجأة تماما على حد قول المصادر الاسلامية[٦٩] ، بحيث لم يشعر الجند الفاطميون الا والفرسان الفرنج فوق رؤوسهم[٧٠] . والواقع أن المفاجأة وسرعة الفرنج كانتا كاملتين بحيث وجد الفواطم صعوبة بالغة فى ركوب خيولهم وأسلحتهم[٧١] .

ورغم أن المصادر الصليبية تعترف بأن الجند الفاطميين قاوموا الجيش الصليبي فى بداية المعركة ، التى كانت حامية الوطيس[٧٢] الا أن سرعة انقضاض الجيش الفرنجي واستبسال القادة اللاتين ، ولجاحهم فى اختراق صفوف الجيش الفاطمي من كل جوانبه أدى لانتشار الذعر والاضطراب بين أقسام الجيش الفاطمي التى وقفت عاجزة أمام الفرنج ، فلم تجد الا مقاومة هزيلة ، ولم تمض فترة وجيزة الا وأنهارت مقاومة الجيش الفاطمي وتشتت شمله وحلت به الهزيمة الساحقة[٧٣] كما يذكر المؤرخ الجنوى المعاصر كافارو الكاسكفلوني ، الذى كان مشاركا هو

---

= ويذكر الأستاذ ان بيسانت وبالمر أن مهمة جودفرى اعاقة وصول الامدادات للجيش الفاطمي من البحر . راجع :

Besant & Palmer, Jerusalem, p. 218.

(٦٩) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٩٤ ؛ ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٦٨ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٣٩ ؛ النويرى : نهاية الارب ج ٢٦ لوحة ٧٦ .

(٧٠) يقول ابن خلدون : « فكبسوهم ( أى الفرنج ) على غير أهبة » . راجع ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ٦٨ ؛ النويرى : نهاية الارب ، ج ٢٦ لوحة ٧٦ . والروايات الإسلامية هنا تناقض تماما ما ذهب إليه المؤرخ الفرنجي المجهول لأعمال الفرنجة بأن الفاطميين كانوا مستعدين للقتال ، ولم يؤخذوا على غرة كما ذكرت المصادر الإسلامية . راجع أعمال الفرنجة ص ١٢٢ . كما أن الروايات الإسلامية تناقض أيضا رواية المؤرخ اللاتينى فيلكس فابرى فى كتابه « تجوالات » الذى يذكر أن الأفضل هو الذى قام بمفاجأة الجيش الصليبي بالهجوم . راجع :

Felix Fabri, A book of wandering, in p.p. T.S. vol. 1, p. 312.

(٧١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩٤ .

(٧٢) المؤرخ المجهول: أعمال الفرنجة ص ١٢٢ كذلك :

Fulcher of chartres, op. cit., p. 126.

ويذكر بيسانت بالمر أن رماة السهام بالجيش الفاطمي من المغاربة والعبيد السودان كانوا يقذفون الفرنج بسهامهم ويطلقون صيحات مرعبة لإرهاب الفرنج ، واستخدموا أسلحة كانت غريبة على الجيش الفرنجي مثل المطارق المزودة برؤوس من حديد والتى استخدموها لضرب دروع فرسان الفرنجة .

Besant & Palmer, Jerusalem, p. 218; Michaud, History of the crusades, vol. 1, p. 241.

وتذكر مجموعة كمبردج لتاريخ العصور الوسطى أن محاولة الفاطميين تطويق الجيش اللاتينى من ناحية اليمين قد أحبطت تماما . راجع :

Cambridge med. Hist., vol. V, p. 297.

(٧٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٩٤ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٨ ؛ الأزدى : أخبار الدول المنقطعة مخطوط دار ، رقم ٨٩٠ ، ورقة ٧٤ . ولم يحاول الأزدى ، وابن دقماق إخفاء حقدهما على الفاطميين فيذكران أن الأفضل هزم فى عسقلان هزيمة فاضحة وأنه لقى أقبح هزيمة . راجع الأزدى : نفس المصدر والصفحة ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ، مخطوط دار ، رقم ١٠٢٢ ، تاريخ ، ورقة ٦١ . أيضا :

Fulcher of chartres, Expedition, 126; Raymond of Aguilers, R.H.C., Hist. occ. vol. III, op. cit. 304.

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٢٢ . وقد ذكر الأمراء الفرنج فى رسالتهم إلى الغرب الأوروبى أن الفواطم انهارت مقاومتهم تماما عند أول هجمة شنت عليهم ولم يبدو مقاومة تذكر =

والجنوية فى المعركة وكان شاهد عيان لها[٧٤] . وسرعان ما تمكن روبرت النورمندى وتانكريد من التوغل فى قلب المعسكر الفاطمى ، واستولى جنود روبرت على لواء الوزير الفاطمى ، وعلى الكثير من امتعته الخاصة[٧٥] .

وتشتت فلول الجيش الفاطمى ، حتى أن عدداً كبيراً من الجند الفاطميين فروا من المعركة واحتموا بشجر الجميز ، فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من فيه ، وقتلوا من خرج منه[٧٦] ، فى حين أن البعض الآخر لم يجد ملاذا يحتمى به سوى الفرار نحو البحر ، عسى أن يلحق بالاسطول الفاطمى ، فألقوا بأنفسهم فى اليم ، ولقوا مصيرهم غرقا ، فى حين فر البعض الآخر إلى مدينة عسقلان للاحتماء بها من سيوف الفرنج ، مما أدى إلى هلاك الكثير من الجند الهاربين بسبب تزاحمهم على الدخول الى المدينة ، وتعقب الفرنج بقية الجيش الهارب[٧٧] ، وبلغ من كثرة القتلى فى الجند الفاطميين أن مؤرخ أعمال الفرنجة «Anonymous Gesta» يتفاخر بقوله : « أن الفرنج كانوا يذبحون المسلمين ذبح الأغنام فى السوق[٧٨] » .

أما الوزير الأفضل فلم ينج من المعركة الا باعجوبة كبيرة ففر إلى عسقلان ومعه بقية رجاله ، بعد أن أحرق جميع ما معه من عتاد وخطط عسكرية وأبحروا عائدين الى مصر تاركين عسقلان تواجه مصيرها أمام الفرنج[٧٩] . أما الأسطول الفاطمى الذى كان يراقب تطورات المعركة فعندما رأى هزيمة الجيش الفاطمى وفرار قائده الأفضل ، قام بنشر أشرعته وفر هو الآخر هاربا دون أن

---

= Michaud, vol. III, p. 364.

ويلاحظ أن رواية البرت داكس عن هذه الموقعة تتميز بالغموض ، كونه غير شاهد عيان لها ، ولهذا فلا يعتد بها .

Albert D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV. p. 493-497.

(٧٥) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٢ . راجع رواية المؤرخ الجنوى كافارو عن موقعة عسقلان ، ودور الجنوية بها حيث أكد نهب الفرنج والجنوية للمعسكر الفاطمى

Caffaro, R.H.C., Hist. occ., vol. V., p. 57.

ويرى لامب أن هجوم الجيش الصليبى على الجيش الفاطمى بعسقلان كان يشبه إلى حد كبير ما فعله هانيبعل بن هملكار برقة القائد القرطاجى بجيوش الرومان فى موقعة كاناى .

Lamb, H., The crusaders, p. 217.

أنظر أيضا نصا لاتينيا عن موقعة عسقلان لألبرت الاكيلسى كما ورد فى لامب . Lamb, Ibid, p. 218.

(٧٦) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٩٤ . وتتفق غالبية المصادر الإسلامية والفرنجية فيما يتعلق بهذه الرواية . راجع أيضا ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٩ ؛ المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٢٢ .

Fulcher of chartres, Expedition, p. 126.

ويسمى ابن خلدون الغابة التى فر إليها الجند الفاطميون « شجر الشعرا » وربما يقصد بذلك سهل الشعرا . ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ٦٩ .

(٧٧) Caffaro, R.H.C., Hist. occ., vol. V, p. 57.

(٧٨) المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٢٢

(٧٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩٤ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٣٩ ؛ ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ ؛ الأزدى : الدول المنقطعة ، مخطوط دار ، لوحة ٧١ ؛ العينى : عقد الجمان ، مخطوط دار ، ج ١ قسم ١ لوحة ٥٠٥ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مخطوط دار ، ج ١ مجلد ١ ، لوحة ٥٠ ( ب ) ، كذلك :

Caffaro, R.H.C., Hist. occ., vol. V. p. 57.

يحاول انقاذ الجيش الفاطمي(٨٠) .

وتمكنت سيوف الفرنج من الجند الفارين ، ومن القتلى غير الرجالة والمطوعة وأهل البلد ، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفسه ، ونهب المعسكر(٨١) ، ويذكر ابن القلانسي ، في موضع آخر ، أن عدد قتلى الجيش الفاطمي في موقعة عسقلان كانوا يربو عن [illegible](٨٢) ، ونحن نرجح أن هذا الرقم أقل من العدد الحقيقي لقتلى الجيش الفاطمي ، فهو أكبر بكثير من ذلك بالنظر لضخامة القوات الفاطمية وأهمية تلك المعركة وربما يقصد ابن القلانسي بذلك عدد الذين لقوا حتفهم عند محاولة الالتجاء إلى مدينة عسقلان(٨٣) .

وما حازه الفرنج من غنائم بالمعسكر الفاطمي كانت بالغة الوفرة والفخامة ، وشملت الكثير من سبائك الذهب والأحجار الكريمة ، ومقادير كبيرة من الأسلحة والدواب(٨٤) ، وقد حصل الجنوية الذين شاركوا في المعركة وقائدهم وليام امبرياتشو وأخيه بريموس على نصيبهم من الغنائم نظير مشاركتهم للجيش الفرنجي في تلك المعركة(٨٥) .

وبذلك تمكن الفرنج من هزيمة وسحق الهجوم الفاطمي المضاد الذي قام به الأفضل بن بدر الجمالي في عسقلان في ١٩ رمضان ٤٩٢ هـ / ١٢ أغسطس ١٠٩٩ م(٨٦) ، وأزاح الفرنج

---

(٨٠) مؤرخ مجهول أعمال الفرنجة ، ص ١٢٤ .

(٨١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ ، كذلك

Caffaro, R.H.C., Hist. occ., vol. V. p. 57.

(٨٢) ابن القلانسي . نفس المصدر ، ص ١٣٧ ويذكر كافارو الجنوى أن عدد قتلى الجيش الفاطمي كان كبيرا .

Caffaro, R.H.C., Hist. occ., vol. V, p. 157. Chap. IX.

(٨٣) ان المصادر الإسلامية الأخرى لم تورد العدد الحقيقي لأسرى وقتلى الجيش الفاطمي . فيذكر الأزدي أن الأفضل هزم في عسقلان هزيمة فاضحة حتى لم يبق معه أحد راجع الأزدي نفس المصدر ، مخطوط دار لوحة ٧٤ . ويذكر النويري أن الفرنج « قتلوا من المسلمين مقتلة عظيمة » راجع نهاية الأرب ، مجلد ٢٦ لوحة ٧٦ ويذكر العيني « أنه وقع القتل والنهب في خلق من المسلمين » راجع العيني : نفس المصدر ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٥٠٥

ويذكر القادة الفرنج في خطابهم المرسل إلى الغرب الأوروبي أنه قتل حوالي مائة ألف مسلم في تلك الموقعة ، وغرق الكثير في البحر وأسحق الفين عند محاولتهم الفرار إلى عسقلان راجع ذلك الخطاب في .

Michaud, History of the crusades, vol. III, p. 394, Appendix IX.

ولو صدقنا رواية وليم الصوري ، مجموعة وثائق الشرق اللاتيني لأدركنا أن الفرنج لم يخسروا الكثير في الموقعة . راجع :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 397; Archives de L'orient Latina, to. 1, p. 200.

(٨٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩٤ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٣٩ . ويلاحظ أن الرواية البيزنطية التي أوردتها المؤرخة أنا كومنينا في كتابها الألكسياد عن موقعة عسقلان الكبرى كانت مضطربة وغير صحيحة ، إذ أنها خلطت بينها وبين موقعة الرملة الثانية التي هُزم فيها بلدوين أمام الفواطم .

Anna comnena, Alexiad, p. 266.

(٨٥) Caffaro, R.H.C., Hist. occ., vol. V, p. 57.

وتطلق بعض المصادر الإسلامية على موقعة عسقلان موقعة المجدل نسبة للموضع الذي وقعت فيه قرب عسقلان . راجع ابن الفرات تاريخ الدول والملوك ، مخطوط دار ، ج ٢ مجلد ٢ ، لوحة ٥٠ ( ب ) ؛ المقريزي . الخطط ، ج ١ ص ٤٤٣ .

(٨٦) وتذكر المصادر الصليبية أن ضمن ما حازه الفرنج من غنائم راية الوزير الفاطمي ، والتي اشتراها روبرت النورمندي بمبلغ عشرين علامة فضية ، وقدمه هدية للبطريرك أرنولف ، وأن أميرا صليبيا آخر اشترى سيف الأفضل بستين بيزنط راجع مؤرخ =

بذلك خطرا كبيرا كان يهدد فتوحاتهم الناشئة ، وكفيلا بالقضاء على الفكرة الصليبية وانجازات الصليبيين وهى لا تزال فى المهد[٨٧] .

وتجمع المصادر الاسلامية والصليبية وتؤيدها فى ذلك المراجع الحديثة ، أن السبب الرئيسى والمباشر لهزيمة الفاطميين ووزيرهم فى موقعة عسقلان الكبرى ، سبب عسكرى فى المقام الأول[٨٨] ، وهذه المصادر والمراجع توجه الاتهام إلى الجيش الفاطمى وتكوينه وتنظيمه ، والتكتيك الذى حارب به الفرنج ، وقد نص المؤرخ ابن الفرات على ذلك فى صراحة تامة ، ويقول : « فخذل ( أى الأفضل ) من جهة عسكره ، وعلم أن السبب فى ذلك من جنده[٨٩] » .

وقد أيدت المراجع الحديثة وجهة النظر الاسلامية تلك ، فيذكر كل من المؤرخين شارل أومان وميشو[٩٠] ، أنه بالرغم من ضخامة الجيش الفاطمى وكثرة اسلحته وعتاده الا أنه كان جيشا من المرتزقة ، وهم عناصر متباينة لا تجمع بينهم أية رابطة ، وظهر هذا التنافر بينهم أثناء المعركة ، اذ لم يكن هناك أى تنسيق بين هجوم المشاة والفرسان فى الجيش الفاطمى[٩١] ، كما أن غالبية الجند الفاطميين تم تجنيدهم فى عجلة ، ولهذا فان أغلبيتهم كانوا يحاربون لأول مرة ، ولذلك كانت تنقصهم الكفاءة والمهارة على عكس الجيش الصليبى ، الذى كان قد أظهر قوته ومهارته العسكرية من قبل فى ميادين الحرب الأوروبى ، وفى آسيا الصغرى وشمال الشام أمام

---

= مجهول : أعمال الفرنجة ص ١٢٤ ــ ١٢٥ . أيضا :

Fulcher of chartres, op. cit., p. 127; William of tyre, deeds, vol. I, p. 397; Roger of wendover, Flowers,vol. I, p. 438.

أما رواية فيلكس فابرى عن موقعة عسقلان فكانت تتميز بالخلط والاضطراب والتعرض ، ولهذا فلا يعتد بها ، خاصة أنه لم يكن شاهد عيان لها :

Felix Fabri, Wandering in p.p. T.S., vol. IX, p. 312.

(٨٧) وتحدث الشعراء عن كسرة الأفضل فيذكر ابن الفرات والمقريزى نقلا عن ابن الطوير أنه كان عند الفرنج شاعر مسلم اسمه فقال يخاطب صنجيل ملك الفرنج بقوله :

| | |
|---|---|
| نصـــرت بسيـــفك ديـــن المسيـــح | فللـــــــه درك من صنجيـــــــل |
| ومــــا سمع النـــــاس فيمـــا رووه | بأقبـــــــــح من كسرة الأفضل |

راجع ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٢ مجلد ٢ لوحة ٥٠ ( ب ) ؛ المقريزى ، الخطط ، ط . بولاق ١٢٧٠ هـ ، ج ١ ص ٤٤٣ .

(٨٨) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، لوحة ٥٠ ( ب ) ؛ المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٤٤٣ .

Oman, Art of war, vol. I, p. 291; Michaud, History of the crusades vol. I, p. 242.

(٨٩) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٢ مجلد ٢ لوحة ٥٠ ( ب ) .

(٩٠) Oman, Art of war, vol. I, p. 291; Michaud, p.p. 242-243.

(٩١) ويستشف من المصادر الفرنجية أن السبب الرئيسى لهزيمة الأفضل فى عسقلان يرجع لعدم كفاءة الجيش الفاطمى ، الذى لم يبد أى مقاومة طويلة وانهار بعد أول هجمة للفرنج . راجع المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٢٢ ، كذلك

Michaud, History of crusades, vol. III, Appendix IX, p. 364.

الأتراك السلاجقة ، وبالمتحمسين في دوريليوم وأنطاكية وكان لسرعة تحرك جودفرى والقرار الجرىء الذى اتخذه لمهاجمة الجيش الفاطمى ، رغم أنه ترك بيت المقدس تكاد تكون خالية تماماً من أية قوات تدافع عنها ، أدى الى رفع الروح المعنوية وزاد من ثقة جنده كما كان عنصر المفاجأة للجيش الفاطمى سبباً فى نشر الخوف والاضطراب بين صفوفه ، فلم يبد أية مقاومة تذكر ، ولم يثبت أمام الهجوم الفرنجى المباغت فسحقت قوات المشاة والفرسان الفاطميين ، وفر بقية الجيش[92] .

ونحن نؤيد وجهة النظر السابقة ، حول هزيمة الجيش الفاطمى فى موقعة عسقلان الكبرى ، كما نؤيد ما ذهبت اليه المصادر الاسلامية الأخرى ، اذ أن الأفضل أدرك بثاقب بصره أن هزيمته فى عسقلان ترجع الى جيشه والفرق التى يتكون منها[93] ، ولهذا قرر القيام بعملية تغيير شاملة للجيش الفاطمى ، فقام بتسريح هذا الجيش « وحظر عليهم النعوت ، ولم يسمع لأحد منهم كلمة[94] » .

وقد فكر الأفضل فى تكوين فرق جديدة تكون نواة لجيش فاطمى قوى بعد حل الجيش القديم ، وكان ضمن الفرق التى كونها الأفضل كعماد لجيشه الجديد فرقة الغلمان أو صبيان الحجرية ، فتذكر المصادر الاسلامية أن الأفضل بعد هزيمة عسقلان ، واشتداد الخطر الصليبى ، أنشأ سبع حجر واختار من أولاد الأجناد ثلاثة آلاف رجل وقسمهم فى الحجر[95] (أى المعسكرات ) ولهذا سموا بالحجرية وقام بتربيتهم على فنون الحرب والقتال وجعل لكل مائة فارس منهم قائداً يسمى الزمام الأكبر أو النقيب وجعل على امرتهم جميعاً قائداً يسمى الموفق تتوافر فيه

---

(92) يذكر المؤرخ هارولد لامب أن موقعة عسقلان الكبرى أظهرت إلى حد كبير عجز فرسان الجيش الفاطمى وبخاصة الفرسان العرب والفرسان الآسيويين من الأتراك والغز والديلم ، عن الصمود أمام هجمات الفرسان الفرنج .

Lamb, H., The crusaders, p. 218.

(93) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مخطوط فينا ، ج ٢ مجلد ٢ لوحة ١ ؛ المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٤٣ .

(94) ابن الفرات : نفس المصدر ، ج ٢ مجلد ٢ لوحة ٥١ ( أ ) .

(95) ابن الفرات : نفس المصدر ، مخطوط فينا ، مجلد ٢ ج ٢ لوحة ٥١ ( أ ) ؛ المقريزى الخطط ، ج ١ ص ٤٤٣ . ويلاحظ أن المقريزى كان مضطربا فى روايته عن بداية ظهور الحجرية فى الجيش الفاطمى والمؤسس الحقيقى لها مما يدل على أنه نقل روايته عن أكثر من مصدر ، فيذكر « أن المعز لدين الله أول من اتخذ الحجر وكان يسكنها الحجرية الذين اتخذهم كفرقة من الحرس الخاص التى تتكون من الشبان الأقوياء من أولاد الخاص المعدون والمدربون للقتال فى أية لحظة » . المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٤٤٣ . ويذكر فى موضع آخر « أول من اتخذ الحجرية الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله كمماليك له وعلمهم سائر أنواع العلوم وفنون الحرب » . راجع المقريزى : اتعاظ الحنفا ، نشر د . الشيال ، ط . مصر ١٩٤٨ ، ص ٢٧٦ . ونؤيد الرأى القائل أن الأفضل أول من اتخذ رسمياً فرقة الحجرية فى الجيش الفاطمى فى خلافة المستعلى بالله ، على أساس تضارب وتناقض روايات المقريزى ، فلم نسمع أيام المعز أو الظاهر عن وجود مثل هذه الفرق بالجيش الفاطمى ، وباستثناء ما أورده المقريزى فى الخطط فلم تذكر المصادر المعاصرة للمعز والظاهر شيئاً عن هذه الفرقة ، ولكن غالبية المصادر الإسلامية أشارت لظهور هذه الفرقة أيام الأفضل بن بدر الجمالى فاستخدمها فى حروبه الخارجية سواء مع الفرنج بالشام أو فى حروبه باليمن . راجع ابن خلكان : وفيات الأعيان نشر إحسان عباس ، ط . بيروت ١٩٦٨ ، ج ٢ ص ٤١٤ ؛ عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ، مختصر كاى ، ط . لندن ١٣٠٩ هـ ، ص ٤٢ سطر ٦٦ .

عدة صفات كالعقل والشجاعة والبراعة الحربية[٩٦] . وأطلق لهم الأفضل كل ما أرادوه من خيل وسلاح وبلغ من دقة تنظيمه هذه الفرقة وأعتناؤه بها أن كل حجرى كان لا يأوى الا لحجرته وقريب من فرسه ، وعدته وملابسه ، فاذا جردوا خرج كل منهم لوقته لا يكون له ما يمنعه[٩٧] وقد علق المستشرق الانجليزى كاسلزكاى «Kassels» على التنظيم الأول لفرقة الحجرية ، بأنه أول محاولة لتجنيد المصريين فى مصر الاسلامية[٩٨] .

وكان لهؤلاء الحجرية[٩٩] ، حجر توجد بجوار دار الوزارة وجعل لهم الأفضل اصطبلا خاصا بهم بجوار دار الضيافة بالقاهرة[١٠٠] ، وكان لكل حجرة من هذه الحجر الخاصة بتلك الفرق اسم تعرف به كالمنصورية والفتح والجديدة[١٠١] . ويذكر المؤرخ المقريزى[١٠٢] ، أن الأفضل قسم هذه الفرقة قسمين : الحجرية الكبار ، والحجرية الصغار ، مما يفيد أن نشاطهم ودورهم لم يقتصر فقط على النواحى العسكرية وجهاد العدو ، بل شاركوا أيضا فى النواحى الأجتماعية ، فكانوا يواكبون موكب الخليفة مع الفرق الفاطمية الأخرى ويشاركون فى الأعياد والأحتفالات والمناسبات الاجتماعية والدينية التى عرفت بها الخلافة الفاطمية .

وبلغ من أهتمام الأفضل بتلك الفرق أن جعل عليهم استاذون يبيتون عندهم وتجتمع برسمهم[١٠٣] ، كما عمل أيضا على زيادة عدد هذه الفرق من ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف رجل[١٠٤] .

وقد هدف الأفضل من تكوين هذه الفرق ، أن تكون العماد الرئيسى للجيش الفاطمى

---

(٩٦) تشبه الحجرية القوات الخاصة أو قوات الصاعقة فى الجيوش الحديثة

(٩٧) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٣٦٢ ، ٤٤٣ ، ٤٦٠ ويشير المقريزى لاستمرار هذه الحجر حتى بعد إنهيار الخلافة الفاطمية وقيام الدولة المملوكية

(٩٨) Kay, C., Yaman, its early medieval history, London 1931, p. 264, No. 50.

(٩٩) يرى الأستاذ الفريد دوجان أن الحجرية هم مماليك جلبوا كرقيق من القوقاز وتم تربيتهم فى حماية على فنون الحرب والقتال ، راجع

Duggan, A, the story of the crusades, p.p. 87-88.

(١٠٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٤١٨ ؛ المقريزى . الخطط ، ج ١ ص ٤٤٤ . ويذكر المقريزى أن على ابن السلار وأبيه العادل كانا أشهر قادة الحجرية راجع المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٤٤ ؛ ابن خلكان . نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤١٨ .

(١٠١) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٤٤

(١٠٢) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٣٨٠ ، ٤٤٣ ، ٤٥٠

(١٠٣) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٤٤٤ نقلا عن ابن عبد الظاهر

(١٠٤) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٤٤٤ ؛ القلقشندى صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٤٨١ وأشار الأعشى إشارة عامة لاستمرار وجود هذه الفرق حتى أيام المماليك حيث سميت المماليك السلطانية أو مماليك الطباق السلطانية أو المماليك الكتابية . راجع القلقشندى صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٤٨١ ؛ د . على إبراهيم حسنى الجيش والبحرية فى عصر المماليك ، ضمن رسائل الثقافة الحربية ، ص ٨ ، كذلك

Ayalon, D., Studies on the structure of the mameluk Army, in B.S.O.A.S., London, 1953; p. 204

الجديد ، ويكونوا مستعدين للقتال عند أول اشارة ، فكان اذا دهمه أمر هام جهزهم اليه الزمام الأكبر والموفق[١٠٥] .

ويذكر ابن خلكان فى « وفيات الأعيان[١٠٦] » أن هذه الفرقة بتنظيمها السابق كانت تشبه جماعات الداوية[١٠٧] والاسبتارية[١٠٨] الفرنجيتين فى الأراضى المقدسة . ورغم أن هذا النص الهام لابن خلكان لا يخلو من بعض الصحة ونظرا لوجود تشابه فى بعض الجوانب بين فرق صبيان الحجرية ، وفرقتى الداوية والاسبتارية من النواحى العسكرية والصبغة الدينية وممارسة النشاط الاجتماعى ، الا أن هناك اختلافات أخرى جوهرية بينهما من عدة نواحى ، فكانت فرق الفرنج عبارة عن رهبان محاربين ، اشتركوا فى شتى مراحل الحروب الصليبية ، وكانت أول مبادئهم الفقر والطاعة والحرمان والصلاة والتقشف ، أى أنهم جمعوا بين حياة المتعبد وحياة المحارب ثم تحول غرضهم الدينى لغرض دنيوى ، فامتنعوا داخل قلاعهم وحصونهم بالشام[١٠٩] .

---

(١٠٥) ابن الفرات : الدول والملوك ، مخطوط دار ، ج ٢ مجلد ٢ لوحة ٥٦ ؛ المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٤٤٣

(١٠٦) ابن خلكان . وفيات الأعيان ، ج ٣ ص ٤١٨ ترجمة العادل بن السلار

(١٠٧) فرسان الداوية أو فرسان المعبد ، سميت بذلك لأنها اتخذت من أحد أركان قبة الصخرة مركزا لها سمى معبد السيد «Templum Domini» ، ويعزى تأسيسها إلى فارس يسمى هيودى باينز ويميل الفريد هوجان للقول أنها تأسست عام ١١١٨ م على غرار جماعة فرسان القديس يوحنا ، راجع :

Duggan, A, The story of the crusades, p. 14.

د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٤٨٦ - ٤٨٧ ؛ د . حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٩٥ — ١٠٠ .

(١٠٨) فرسان الاسبتارية أو فرسان القديس يوحنا أو فرسان المستشفى . ويرى البعض أن تسميتها بذلك نسبة الى المستشفى التى قامرا على أساسها والتى أسسها جماعة من تجار أمالفى ببيت المقدس للعناية بالحجاج الوافدين على الأراضى المقدسة فى خلافة المستنصر . راجع ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ٢١ ، وكذلك -

William of tyre, deeds, 406-408.

ويرى الأستاذ براون لول تعليقه على رحلة حج سايولف أن جماعتى الداوية والاسبتارية قد تأسست عام ١٠٩٩ م ، بعد انتخاب جودفرى دى بويون أميرا على القدس وأن جيرارد أوف أفسنز كان أول مقدم للاسبتارية ، التى تحولت فيما بعد إلى جماعات عسكرية عام ١١١٨ م ، راجع :

Low, B., (ed.,) pilgrimage of saewulf in p.p. T.S, vol. IV, p. 14 F. I.

ولمزيد من التفاصيل عن هذه الجماعات راجع :

Le Roulx, D. Les Hospitalliers en terre sainte et a chypre (1100-1310), Paris 1904, King. E.,. The Knights of hospitallers, London 1931; La croix, La chevalerie et des croisades, Paris 1879, p. 24; Rilley-Smith, The knights of st. John in Jerusalem and cyprus, London, 1967.

أيضا د . جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم ، ص ٩ وما بعدها .

(١٠٩) تركزت أهم قلاع الداوية فى صفد ويذكر العنانى أنها كانت أقوى حصون الفرنج وأمنعها ، وأشدها ضررا على المسلمين . ومن قلاعهم أيضا صوبى والشقيف . راجع العنانى : تاريخ صفد نشر برنارد لويس باسم رواية عربية عن إقليم صفد مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلندن ، «B.S.O.S.» لندن ١٩٥٣ ، ج ١٥ ص ٥٣ ، ٣٧٩ ، ٤٨١ . أما قلاع الاسبتارية فكان أهمها قلعتى الكرك والشوبك قرب البحر الأحمر ، راجع :

Pilgrimage of Saewulf in p.p. T.S., London 1892, vol. IV, p. 14.

وكانت لهم جيوشهم ومواردهم المالية وسياستهم الخارجية تتفق ومصالحهم الخاصة . كما قاموا بنشاط اقتصادى ومصرفى فى الأراضى المقدسة وأوروبا ، وقدموا تسهيلات ائتمانية للحجاج الوافدين من الغرب ، وأصبح لهم متاجر وحوانيت كما تصارعوا على المغانم والأسلاب بعد أن كان عملهم الأساسى العناية بالمرضى والجرحى فى ميدان القتال(١١٠)

وكان لجماعة الداوية والاسبتارية دور اجتماعى فكان ملجأ الاسبتارية بالقدس يسع ألف حاج ، فضلا عن المستشفى الكبير المخصص لعلاج المرضى والعناية بهم . كما قاموا أيضا بحراسة طرق الحجاج من يافا وعكا الى بيت المقدس . وأسهموا ايضا فى العمليات العسكرية مع الفرنج بالشام ، بجانب ممارستهم لنشاط سياسى واسع هناك وبذلوا جهدا ضخما لحماية الكيان الصليبى بالشام ضد الهجمات الاسلامية .

وبذلك يتضح الفرق بين فرقتى الداوية والاسبتارية وفرق الحجرية التى كونها الأفضل وعلمهم فنون الحرب والقتال فى العصور الوسطى وكان دورها يقتصر فقط على النواحى العسكرية ، والاجتماعية ، أما فرقتى الداوية والاسبتارية فلم يقتصر دورها على الجانب العسكرى والاجتماعى فحسب بل قامت أيضا بنشاط سياسى ودينى واقتصادى كبير .

ويمكن القول أن فرق الحجرية كانت بمثابة الدماء الفياضة فى عروق الجيش الفاطمى ، اذ أنها سوف تلعب دوراً كبيراً فى سياسة الفاطميين الخارجية فى عهد الوزير الأفضل ومن تلاه من الوزراء سواء فى حروبها مع الفرنج أو حروبها فى اليمن(١١١) . ويذكر الأستاذ كاى أن محاولة الأفضل لادخال المصريين ضمن الجيش الفاطمى كانت أول محاولة جدية منذ الفتح الاسلامى لمصر حتى بداية عهد محمد على(١١٢) .

ويلاحظ أن الأفضل بعد موقعة عسقلان لم يقتصر دوره على تكوين تلك الفرق فقط بل كون فرقا أخرى لاستكمال بناء الجيش الفاطمى كالترابى(١١٣) ، والأفضلية(١١٤) والمطيعية وغيرها .

ولا ننسى أن نضيف لأسباب هزيمة الأفضل بن أمير الجيوش فى عسقلان سبباً آخر ، يتعلق بالأسطول الفاطمى الذى أدى هو الآخر دوراً فى تلك الهزيمة فلم يتحرك أثناء المعركة وفر عائدا الى مصر دون أن يحاول التدخل لنجدة الجيش الفاطمى ، أو حتى البقاء لتقديم العون العسكرى

---

(١١٠) La croix, La chevalerie,p. 226; La vie millitaire, p.p. 198-199.

وقد أشارت نصوص المصادر المعاصرة لاستمرار هذه المستشفى حتى بعد ظهور جماعة الاسبتارية ، فقد شاهدها سايولف وأشار اليها فى رحلته إلى القدس عام (١١٠٢ ـ ١١٠٣) . راجع :

Pilgrimage of saewulf in p.p. T.S., London 189, vol. IV, p. 14.

(١١١) عمارة اليمنى تاريخ اليمن ، مختصر كاى ، ص ٤٢

(١١٢) Kay, H.C., Yaman, its early medieval history, p. 264 note 5.

(١١٣) لمزيد من التفاصيل عنها راجع المقريزى الخطط ، ج ١ ص ٤٨٠

(١١٤) نسبة للأفضل بن أمير الجيوش

عندما حاصر الفرنج مدينة عسقلان بعد هزيمة الجيش البرى مباشرة ، بل انه افرد اشرعته وفر عائداً الى قواعده[١١٥] .

وهناك سبب عام يتمثل فى الأفضل بن أمير الجيوش نفسه ، فيتحمل جزء كبير من تلك الهزيمة نظرا لما ارتكبه من خطأ عسكرى كبير ، عندما خرج على رأس جيشه الكبير الى عسقلان فى رمضان ٤٩٢ هـ ، وأقام هناك منتظرا النجدات التى وعده بها عرب فلسطين ، ومجيء الاسطول الفاطمى وارساله الى الفرنج يتهددهم وينكر عليهم ما فعلوه[١١٦] وأضاع بذلك وقتا ثمينا دفع ثمنه غاليا فى موقعة عسقلان فكان عليه أن ينتهز فرصة تفرق القادة الفرنج وانشغالهم بجيوشهم فى اخضاع المدن والأقاليم المحيطة بالقدس والخلاف القائم بين ريمون وتانكريد من ناحية وجود فرى دى بوايون وبقية القادة الفرنج من ناحية أخرى ويبادر بمهاجمة الفرنج داخل المدينة المقدسة واستعادتها ثانية لخوذته ولكنه بهذا الانتظار الطويل أتاح لقوات الفرنج جمع شتاتها لتباغته بالهجوم فتنزل بها هزيمة ساحقة بعسقلان دالا بذلك ، كما يذكر مؤرخ حديث أنه لم يكن ذا كفاءة أو خبرة سياسية أو حربية ، كما هو شأنه فى الأمور السياسية والادارية[١١٧] .

وتجمع غالبية المراجع الحديثة على أن انتصار الصليبيين فى موقعة عسقلان الكبرى بعد أربعة أسابيع من سقوط المدينة المقدسة ، وطد أقدام اللاتين فى بيت المقدس ، وأكد هذا النصر سيطرتهم الكاملة على فلسطين كما أثبت عجز الفاطميين ووزيرهم الأفضل بن بدر الجمالى الكامل عن استرداد ما فقدوه من أراضى فى الشام ، وتوج أعمال وانتصارات الصليبيين السابقة منذ دخولهم آسيا الصغرى حتى وصولهم فلسطين[١١٨] . كما أن هذا النصر قد أمن فتوحات الفرنج ، وأمن بيت المقدس من أية أخطار تهددها فى المستقبل من جانب الفاطميين[١١٩] .

ويرى البعض الآخر أن انتصار الفرنج فى عسقلان كان انتصارا حاسما له نتائج بعيدة المدى فى تاريخ العلاقات الفاطمية الصليبية فى العصور الوسطى ، اذ أنه أزاح بذلك أعظم تهديد وأكبر خطر كان يهدد الأملاك والفتوحات الفرنجية بالشام وهى لا تزال فى مهدها[١٢٠] .

ولعل أهم تلك الآراء حول أهمية موقعة عسقلان الكبرى ، الرأى القائل بأن الانتصار الأدبى

---

(١١٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٩٣ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ص ٣٩

(١١٦) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٢٤ .

(١١٧) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٥٥ .

(١١٨) فيليب حتى : تاريخ العرب ( مطول ) ج ٢ ص ٧٥٦ ، وكذلك :
Runciman, S., The first crusade, in setton (ed.,) vol. I, p. 341.
أيضا رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٤١٩ ؛ مكسيموس مونروند : تاريخ الحروب المقدسة ، ط . أورشليم ١٨٦٥ ج ١ ص ١٨٦ .

(١١٩) Funk, H., The foundation of the Latin states, in setton (ed.,) vol. I, p. 375; Dury, V., the History of the middle ages, New York 1891, p. 271.

(١٢٠) Cate, I.L., the crusades, in setton (ed.,) I, p. 343.

والمعنوى الذى حققه الصليبيين فى عسقلان فاق بكثير الغنائم المادية التى غنموها ، كما كان أعظم اثرا من انتصارهم فى دوريليوم ( اسكى شهر ) أو أنطاكية[١٢١] ، اذ أن الجيش الفاطمى لم يكن لديه فرصة كافية للدفاع عن نفسه أمام الفرنج أو أن يفر بنفسه بعد الهزيمة القاسية التى فرقت القوات الفاطمية ، وبهزيمة الفواطم ووزيرهم القوى الأفضل شاهنشاه أزاح الفرنج بذلك عدوا كان يخشى منه نظرا لقوته التى كان تعد أقوى وأعظم خطرا من الأتراك السلاجقة أنفسهم[١٢٢] . وكما أن الهزيمة التى حلت بكربوغا أتابك الموصل على أيدى الفرنج بأنطاكية عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م أخرجت الأتراك السلاجقة من جبهة الصراع مع الفرنج بالشام فان انتصار الفرنج بعسقلان قضى على هيبة الفاطميين ووزيرهم بفلسطين ، فلم يجرؤا على مهاجمة الصليبيين فيما بعد بل قبعوا بالقاهرة يشاهدون مدن الشام وموانيها تتساقط كفروع الأشجار بأيدى الفرنج ، الذين أصبحت بدهم تطول جنوب الشام بعد هزيمة عسقلان ، كما كانت فى شمال الشام عقب انتصارهم على كربوغا[١٢٣] .

وعلى الرغم مما يبدو وفى هذه الآراء من تحميل للأفضل والفاطميين والمغالاة فى تحديد نتائج وأهمية موقعة عسقلان الكبرى الا أن أغلبها صائب إلى حد ما اذ أن هذه الموقعة وطدت أقدام الفرنج ببيت المقدس والمناطق المحيطة بها . ونحن نرى أن موقعة عسقلان الكبرى تعتبر نقطة حاسمة بل حدا فاصلا فى تاريخ الصراع الفاطمى الصليبى فى الشام منذ وزارة الأفضل بن بدر الجمالى ، ووفود الحملات الصليبية الى الشرق الاسلامى حتى سقوط الخلافة الفاطمية فى عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م . ذلك أن الأفضل كان يهدف إلى القضاء على جيوش الحملة الصليبية الأولى وتوجيه ضربة قاصمة لفتوحاتهم واستعادة بيت المقدس ثانية لحوذة الفاطميين . والواقع أنه لو وفق فى ذلك فربما كان هذا كفيلا بالقضاء على الفكرة الصليبية ، وانجازات الصليبيين بالشرق وهى لا تزال فى مهدها وربما أدى هذا — فى رأينا — إلى تغيير تاريخ الشرق الاسلامى فى العصور الوسطى وتغيير الخريطة السياسية للعالم الاسلامى وقتذاك .

كما أوضحت موقعة عسقلان الكبرى مدى خطورة قوة الخلافة الفاطمية ووزيرها الأفضل شاهنشاه ، وتهديدها لأملاك الفرنجى الناشئة بالشام ، وبهزيمة الفاطميين فيها ، تخلص الفرنج مؤقتا من أكبر خطر هدد أملاك الصليبيين بالشام ، كما أظهرت تلك الموقعة مدى قوة الفرنج ، وبداية تغير ميزان القوى السياسية فى منطقة الشام لصالحهم .

وبجانب النتائج المذكورة آنفاً ، فان هزيمة الفاطميين فى موقعة عسقلان الكبرى كان له تأثير

---

(١٢١) Cambridge medieval history, vol. V, p. 297.

(١٢٢) Oman, ch., Art of war, vol. I, p. 291.

(١٢٣) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٥٧ ، ح (١) . ويذكر أستاذنا الدكتور سعيد عاشور أن للدولة الفاطمية لم يقدر لها قيما بعد أن تحشد جيشا مثلما كان فى موقعة عسقلان فى جهادها ضد الفرنج . ولكن هذا الرأى ثبت خطؤه فيما بعد ، كما أوضحنا فى النقاط الأخيرة من هذا الفصل

قوى على الأوضاع الداخلية للخلافة الفاطمية ، فأحدثت رد فعل عنيف لنظرة الوزير الأفضل للجيش الفاطمى وامكانية الاعتماد عليه فى حروب قادمة بتنظيمه القديم ، ونبهت الأفضل لمدى ضعف ذلك الجيش وضرورة تغييره وبنائه على أسس جديدة وعناصر جديدة ، وتكتيكات حربية متطورة تواجه تكتيكات الفرنج كما ذكرنا من قبل .

والواقع أن الرأى القائل بأن هزيمة عسقلان قد قضت على هيبة الفاطميين فى فلسطين ، وأنها أخرجتهم من ميدان المواجهة مع الفرنج بالشام ، وأن الأفضل ترك الشام وفلسطين تواجه مصيرهما عند أول لقاء له مع الفرنج(١٢٤) ، قول مردود عليه ، اذ أن الأحداث القادمة ستثبت عكس ذلك تماما فطالما كان الوزير الأفضل بن بدر الجمالى على قيد الحياة كان على الفرنج توقع المزيد من المتاعب والأخطار من جانب الفواطم ، فلا زالت الخلافة الفاطمية أقوى القوى الاسلامية فى المنطقة بما لها من أسطول قوى وضخم مازال يبسط سيطرته وسيادته على شرق البحر المتوسط وموانيه التابعة له ، كما كان للخلافة الفاطمية جيش قوى بناه الأفضل على أسس ودماء جديدة كما ذكرنا من قبل . وعلى العكس فان هزيمة الأفضل فى عسقلان جعلته يبذل قصارى جهده للثأر من تلك الهزيمة ، وكما سنوضح فى مناسبات قادمة ، فان الأفضل قام بشن حملات متتالية أقضت مضاجع الفرنج وذلك منذ موقعة عسقلان الكبرى عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، حتى مصرعه فى عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م . ورغم أنه لم يخرج بنفسه للقتال ضد الفرنج ، إلا أنه لم يأل جهدا فى إرسال الحملة تلو الأخرى ، ولم يبخل حتى بأولاده فى جهاد الصليبيين وزحزحتهم عن أملاك الفاطميين بالشام ، وذلك باعتراف المصادر الاسلامية والمسيحية المعاصرة(١٢٥) .

ولعل من أهم نتائج موقعة عسقلان الكبرى ، هى فشل الفرنج فى اسقاط مدينة عسقلان الفاطمية(١٢٦) وذلك لأسباب وظروف خاصة بالقادة الفرنج وحدهم . فبعد اندحار الجيش الفاطمى فى عسقلان وفرار الأفضل عائداً إلى مصر بحراً ، ترك عسقلان لمصيرها أمام الفرنج بحيث بدا وكأن عسقلان على وشك السقوط أمام الجيش الصليبى وتنتقل إلى السيطرة الفرنجية(١٢٧) ، بعد أن خلت من المدافع عنها وأصبح من اليسير على القوات الصليبية أن تشق طريقها للمدينة دون ما عائق ، وهذا ما كان يأمله جودفرى دى بويون ، ولكن الخلاف بين القادة الفرنج واصطدام جودفرى بروح العداء من جانب الساخطين عليه لتولى أمور بيت المقدس قضى على هذا الأمل .

---

(١٢٤) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٥٧ .

Zoé oldenburg, the crusades, p. 144, Grousset, R., hist. des crois, to. I, p. 175.

(١٢٥) ابن صاعد القلانسى : سير البيعة المقدسة ، نشر د . عزيز سوريال وآخرون ، القاهرة ١٩٥٩ م ، ج ٣ مجلد ٢ ص ٢٤٩ ؛ ابن الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة ، ص ٦١ .

(١٢٦) يذكر المؤرخ اليونانى الزيونى أن جودفرى كان عليه أن يتبع موقعة عسقلان الكبرى بحصار وإسقاط حلب أو دمشق بدلا من عسقلان مستقلا فى ذلك حالة الذعر التى انتشرت بالمنطقة بعد إنكسار الفاطميين بعسقلان . راجع :

Franzuls, E., History of the byzantine empire, New York 1964, p. 317.

(١٢٧) Encyclopedia of Islam, New ed. 1960, vol. I, p. 710.

وذلك أن جودفرى كان يأمل أن يعقب موقعة عسقلان الاستيلاء على مدينة عسقلان نفسها فحاصرها وضايقها حتى أدرك أهلها أنهم ليس بوسعهم الصمود أمام القوات الصليبية المتحدة ، وتذكر المصادر الاسلامية[١٢٨] أنه : « صالحهم أهلها ( أهل عسقلان ) على عشرين ألف دينار تحمل اليهم وشرعوا فى جبايتها من أهل البلد[١٢٩] .

وقد أظهر أهل عسقلان رغبتهم فى التسليم للفرنج دون مقاومة[١٣٠] ، ولكن ما حدث فى بيت المقدس من تلك المذبحة المروعة ، لم ينسى الناس أمرها ، وخشوا أن يحل بهم ما حل بأهل بيت المقدس ويتعرضوا لنفس المصير ولم ينج منهم سوى هؤلاء الذين استسلموا لريموند الصنجيلى مع افتخار الدولة وكانوا يحتمون بقلعة داود فأمنهم ريموند حيث خرجوا سالمين إلى عسقلان[١٣١] ، ولهذا لم يثق أهل عسقلان الا فى ريموند دون غيره من الفرنج وفضلوا الاستسلام له دون سواه معتمدين فى ذلك على محافظته على عهده الذى قطعه لهم بالابقاء على حياتهم وحرياتهم ومقدساتهم وأموالهم ومعتقداتهم[١٣٢] ، ولهذا أعلن سكان المدينة أنهم لن يسلموا المدينة الا لريموند الذى سارع بارسال رايته لأهل المدينة التى رفعوها على أسوار المدينة[١٣٣] .

ولكن جودفرى دى بويون كره من ريموند ميل أهل عسقلان اليه ، وتفضيلهم الاستسلام له دون سواه خاصة وأن شكوكه حول ريموند قد ازدادت بعد حادثة برج داود ، كما كان جودفرى يخشى أن يقوم ريموند بانشاء امارة صليبية لنفسه على شواطىء فلسطين فى مواجهة بيت المقدس ، مما يحرم المملكة الناشئة من منفذ طبيعى لها على ساحل البحر[١٣٤] . ولهذا طلب من ريموند التخلى عن عسقلان باعتبارها تابعة لبيت المقدس ، مما أدى لاستياء ريموند ، وفضل أن تبقى عسقلان بأيدى المسلمين بدلا من جودفرى[١٣٥] ، فانسحب برجاله وبقية الأمراء أمام المدينة نحو الشمال بعد أن أوعز إلى سكان المدينة بمقاومة جيش جودفرى ، فاضطر الأخير للانسحاب بدوره من أمامها بعد أن وجد نفسه وحيدا ، وأشتداد أهلها فى الدفاع عنها بعد أن علموا

---

(١٢٨) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٤ .

(١٢٩) يذكر ابن الأثير أن أهل عسقلان بذلوا للفرنج قطيعة أثنى عشر الف دينار وقيل عشرين ألف . راجع ابن الأثير : الكامل ، ج ١ ص ١٩٤ ، النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط دار ، مجلد ٢٦ لوحة ٧٦ .

(١٣٠) Boase, The kingdoms, p. 28.

(١٣١) Grousset, Histoire, to. I, p. 174.

(١٣٢) Jean Richar, Le comte Tripolis sous la dynastie toulousaine, Paris 1945, p. 10; Duggan, The story of the crusades, p. 80, Boase, the kingdoms, p. 127.

(١٣٣) Zoé oldenburg, the crusades, New York 1965, p. 153.

(١٣٤) Jean Richard, Le comté Tripolis, p. 10, F. 1

ويؤكد الأستاذ جان ريتشارد أن ريموند كان يرغب فعلا فى تكوين إمارة له فى فلسطين بعد أن ضاعت آماله فى إمارة بيت المقدس . راجع :

Richard, (Jean),La comté, p. 10.

(١٣٥) Zoé oldenburg, op. cit., p. 37.

بالخلاف بين القادة اللاتين[١٣٦] . وبذلك أدى الخلاف بين القادة الفرنج لفشلهم في اسقاط مدينة عسقلان[١٣٧] ، ولولا وقوع هذا الخلاف لتمكنوا من فتحها ، كما أقرت بذلك المصادر الاسلامية نفسها[١٣٨] .

وظهر هذا العداء بين القائدين الفرنجيين واضحا ، عندما تراجع ريموند شمالا شطر مدينة أرسوف الفاطمية في محاولة لاسقاطها وتأمين أهلها على أرواحهم وأموالهم الا أن جودفرى لحق بريموند ، ورفض للمرة الثانية اقرار أي اتفاق وأصر على أن ارسوف هي الأخرى تتبع امارة بيت المقدس فانسحب ريموند ثانية غاضبا نحو الشمال وذلك بعد أن حرض حامية أرسوف على مقاومة جودفرى الذى ظهر لهم مدى ضعفه[١٣٩] . وبذلك أدى النزاع والتنافس بين القادة والفرنج إلى فشلهم في اسقاط موانىء فلسطين مثل عسقلان وأرسوف .

ويذكر الأستاذ ت. س. بوس «Boase» أن فشل الفرنج في اسقاط مدينة عسقلان بعد هزيمة الفاطميين مباشرة يعتبر من أكبر الأخطاء القاتلة التي ارتكبتها الحملة الصليبية الأولى[١٤٠] . وهذا الرأى صائب إلى حد كبير ، فان عسقلان ظلت ما يقرب من نصف قرن أي منذ عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م حتى استيلاء الصليبيين عليها عام ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م قذى في أعين الغزاة الفرنج ، فكانت قاعدة برية وبحرية للقوات والأساطيل الفاطمية ، وتخرج منها الحملات للاغارة على البلاد الفرنجية المجاورة ، ومعاونة مدن الساحل الفاطمية أثناء الحصار الفرنجي لها ، كما كانت تمثل خطرا كبيرا على طريق الحج من يافا الى القدس ، وكان بمثابة معبرا للقوات الفاطمية المتجهة الى الشام . ولهذا حرص الأفضل شاهنشاه على الاحتفاظ بتلك المدينة حتى بعد سقوط غالبية مدن وموانىء الشام الساحلية بأيدى الفرنج فكانت عسقلان ورقة رابحة في صراعه مع الفرنج ومركزا عسكريا هاما لقواته وأسطوله ، وأعتبرها البعض مركزا عسكريا واستراتيجيا في

---

(١٣٦) Michaud, op. cit., vol. I, p. 243; Funk, H. op. cit. vol. I, p. 375.

ويرى الأستاذ واطسون أن حصانة ومناعة عسقلان وأسوارها كانت السبب الرئيسى وراء فشل الفرنج في إسقاطها ، راجع :

Watson, C.M., the story of Jerusalem, London 1912, p. 178; Zoé oldenburg, op. cit., p. 153; Besant & Palmer, op. cit., p. 219.

وقد اتهم هارولد لامب القائد ريموند بأنه السبب الرئيسى في فشل الفرنج أمام عسقلان .

(١٣٧) يتهم رنسيمان جودفرى بأنه السبب وراء فشل الفرنج لإسقاط عسقلان . راجع رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ط . بيروت ١٩٦٧ ، ص ٤٢ . وهناك من يرى أن فشل الفرنج أمام عسقلان يرجع للنزاع بين جودفرى وريموند حول غنائم وأسلاب المدينة عند سقوطها . راجع : Lamb, The crusaders, p. 318.

(١٣٨) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٣٩ ؛ ابن القلانسي : ذيل ، ص ١٣٧ . لم يشر ابن الأثير لحدوث مثل هذا الخلاف . راجع ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩٤ . وأشار المؤرخ المجهول لتاريخ سلاطين المماليك أن فشل الفرنج في إسقاط عسقلان يرجع إلى قوة تحصينها ، وقوة نفس من بها ، وتوعر مياهها . مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ط . ليدن ١٩١٩ ، ص ٢٣٢ .

(١٣٩) Paul Riant, Inventaire., in A.O.L.; I, p. 200; Albert of D'Aix in R.H.C., Hist. occ. vol. VI, p.p. 497-498.

(١٤٠) Boase, T.S.R., Kingdoms, of the crusades, p. 28.

الصراع بين الصليبيين وحكام مصر الاسلامية منذ العهد الفاطمى حتى نهاية العهد الأيوبى[١٤١] .

ولعل من النتائج المترتبة على موقعة عسقلان الكبرى أيضا ، هو الرحيل الجماعى للقادة الفرنج وجنودهم من الشرق الاسلامى فى طريق العودة إلى أوروبا معتقدين أنهم أوفوا بقسمهم الصليبى ، وأن مهمتهم انتهت باسقاط القدس وهزيمة الفاطميين فى عسقلان[١٤٢] ، بعد أن تحملوا الكثير من المشاق لتحقيق هدفهم[١٤٣] . وكان على رأس العائدين لأوروبا روبرت النورمندى ، روبرت دى فلاندرز وريموند الصنجيلى وأتباعهما وجنودهما[١٤٤] ، بعد أن تركوا وراءهم بالشرق جودفرى دى بويون وتانكريد النورمندى مع قوات هزيلة للغاية ، كانت غير كافية للدفاع عن المملكة الجديدة التى بدأت تظهر فى الشرق الاسلامى[١٤٥] .

وتجمع بعض المراجع الغربية الحديثة[١٤٦] ، على أن رحيل الفرنج على هذا النحو الجماعى كان له أثره الخطير على الاستقرار اللاتينى بالشام وفلسطين ، فبدلا من استغلال حالة الخوف والذعر الذى سببته هزيمة الفاطميين فى عسقلان بين الامارات الاسلامية هناك ، واحتلال بقية تلك

---

(١٤١) Duggan, A., the story of crusades, p. 80; Levis, B., & Hartman, Encyclopedia of Islam, vol. I, p. 710; Boase, T.S.R., the kingdom, p. 28; Grousset, L'épopée des croisades, to. I, p. 49; Watson, W.B., the story of Jerusalem, p. 178.

(١٤٢) ترى بعض الآراء أن موقعة عسقلان وانتصار الجيش الفرنجى بها كانت نهاية للحملة الصليبية الأولى وآخر أعمالها بالشرق الإسلامى ، وولود الحملات الصليبية المعروفة بعد ذلك،راجع :

Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 245; Grousset, Histoire des croisades, T. I, p. 180.

ويذكر الأستاذ كالثروب أن انتصار الصليبيين فى عسقلان كانت بمثابة علامة للرحيل الجماعى للقادة الفرنج من الشرق الإسلامى . راجع :
Calthrope, M.M.C., The crusades, London 1923, p. 30.

وسوف نتعرض لدور هذه المدينة بالتفصيل فى الفصل الأخير من هذه الدراسة .

(١٤٣) ان الوثيقة اللاتينية التى أوردها ميشو فى كتابه تعترف برحيل القادة الصليبيين على نحو جماعى ولكنها تقدم تاريخ رحيلهم بعد سقوط القدس وليس بعد موقعة عسقلان الكبرى . راجع :

Michaud, History of the crusades, vol. III, Appendix IX, p.p. 263, 364.

وذكر هذه الرواية عن رحيل القادة الفرنج المؤرخ المجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، نشر زترشتين ، ط . ليدن ١٩١٩ ، ص ٢٢٠ . وهى الرواية الإسلامية الوحيدة التى أشارت للذلك فى صراحة ويقول : « ورحل الحجاج الفرنج ، ومن يجرى مجراه من الطارئة نحو بلادهم » . راجع المؤرخ المجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٢٠ ، كذلك :

Caffaro, op. cit. vol. V, p. 57.

(١٤٤) Boase, the kingdoms, p. 28; Zoé oldenburg, Crusades, p. 154; Duggan, the story of the crusades, p.p. 80-81; Jean richard, Le comté de Tripolis , p. 11.

(١٤٥) Dury, V., The middle ages, New York 1891, p. 271; Franzius, E., History of the byzantine empire, New York 1976, p. 307; Zoé oldenburg, crusades, p. 155; Iorga, Histoire des croisades, Paris 1890, p. 67; Archer & Kingsford, The crusades, p. 98; Besant & Palmer, Jerusalem, p. 221.

(١٤٦) Boase, the kingdoms, p. 28, Grousset, R., The sum of history, Oxford 1951, p. 175; p. Stevenson, the crusaders in the East, cambridge 1907, p. 36; Watson, W.B., Story, p. 178.

المدن ، أو محاولة توسيع فتوحاتهم ، نجد فرحتهم الغامرة بانتصار عسقلان ثم تمكنهم فى العودة ، لأوروبا ، جعلهم يغفلون هذه الأمور ، مما ترك مملكتهم الجديدة الناشئة بالشرق فى حاجة ماسة للرجال والمقاتلين ، فى وقت أحاط بها أعداؤها المسلمون من كل جانب[١٤٧] .

وبرحيل معظم قادة الفرنج ، لم يبق إلى جانب جودفرى سوى القائد تانكريد الذى لم يتعجل العودة إلى ايطاليا ، وفضل البقاء فى فلسطين مع جودفرى الذى كان قد كلفه بفتح اقليم الجليل ، على أن يمنحه اياها كمقاطعة له ويجعله عليها أميرا تابعا له[١٤٨] .

وكان اقليم الجليل ، أو اقليم السهول الوسطى لفلسطين موضع صراع وتنافس بين دقاق أمير دمشق والفاطميين قبل وصول الفرنج ، ولكن دقاق الذى انشغل بصراعاته الأسرية مع أخيه فخر الملوك رضوان ، صاحب حلب لم يتسع له الوقت لاحتلال هذا الأقليم منذ هزيمة الفاطميين فى عسقلان[١٤٩] . والواقع أن خلو هذا الاقليم من أية دفاعات أو حاميات اسلامية سهل مهمة

تانكريد ( طنكرى ) ، وتمكن بجيشه الصغير[١٥٠] من اجتياح اقليم السهول الوسطى لفلسطين ، واحتل بسهولة مدينة طبرية عاصمة الأقليم ، بعد فرار أهلها منها إلى دمشق ، ولقى استقبالا حافلا من المسيحيين والسريان الذين كانوا أقلية بها . فى حين أظهر أكثرية أهلها من اليهود غضبا وسخطا على الفرنج لما أصاب اخوانهم فى بيت المقدس ، وقام تانكريد بعد ذلك بتحصين طبرية واتخاذها مركزا لامارته المقبلة بالجليل[١٥١] .

وتوجه تانكريد بعد ذلك الى مدينة الناصرة المسيحية لاستكمال فتوحات اقليم الجليل وذلك باسقاط بيسان[١٥٢م] جنوب شرق الجليل وكانت مدينة حصينة ذات موقع هام اذ تشرف على

---

(١٤٧) ويقدر وليم الصورى عدد من بقى بالشرق الإسلامى بعد الرحيل الجماعى للفرنج بحوالى ثلاثمائة فارس وألفين من المشاة . راجع :
William of tyre, deeds, vol. I, p. 408; Michaud, History of the crusades, vol. III, appendix IX, p. 364.
ولدينا رواية إسلامية تقدر عدد الذين ظلوا مع القائد جودفرى بحوالى ستة آلاف ومائة فارس وثمانية وأربعين ألف راجل - راجع مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٣٠ .

(١٤٨) William of tyre, deeds, vol. I, p. 408.

(١٤٩) سعيد عاشور (؟) : تاريخ الحروب الصليبية ، ط . بيروت ١٩٦٧ ، ج ١ ص ٤٢٩ ، أيضا :
Prawer, the latin kingdom, p. 17.

(١٥٠) يذكر لامب نقلا عن مصدر صليبى لم يذكر اسمه أن عدد الفرسان المرافقين لتانكريد ما بين ستين أو سبعين فارسا .
Lamb, H., The crusaders, p. 219.

(١٥١) Lamb, the crusaders, p.218.

(١٥٢م) بيسان : مدينة فى اقليم غور الأردن وتسمى لسان الأرض وتقع بين حوران والأقاليم الفلسطينية راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ط . أوروبا ١٨٦٦ ، ج ١ ص ٧٨٨ ، وكذلك :
Le strange, palestine, p.p. 4, 11; Mayer, H.E., The crusades, Oxford 1972; p. 64.
Mayer, The Crusades, p. 64.
سعيد عاشور (؟) : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٢٩ ، كذلك .

الضفة الشرقية لنهر الأردن ، وسرعان ما غادر المسلمون بالجليل الاقليم والنواحي المجاورة ، فأعقب تانكريد هجراتهم بشن سلسلة من الغارات السريعة على البلدان الاسلامية المجاورة ، التابعة للفواطم وللسلاجقة ، ولم تمكنه هذه الغارات من الحصول على غنائم كثيرة فحسب ، بل مكنت له من فرض السيطرة الكاملة على اقليم الجليل[١٥٣] .

وبذلك تمكن تانكريد النورمندى من اضافة امارة جديدة لمملكة بيت المقدس ، وهى امارة الجليل أو ما يسمى امارة ما وراء نهر الأردن «Trans Jordan»[١٥٤] ، ومنحه جودفرى لقب أمير الجليل الذى كان يشعر لأول وهلة أنه مستقل تماما عن مملكة بيت المقدس ، وخضوعه للسيادة البابوية بروما ، ولكن فى الحقيقة اعترف بجودفرى كسيده الأعلى[١٥٥] .

وبالرغم من أن فتح اقليم الجليل على يد تانكريد النورمندى أدى لاتساع رقعة مملكة بيت المقدس الصليبية لتصبح كتلة متماسكة من الأراضى ، وتكون دولة حاجزة «Buffer-state» بين مدن الساحل الفاطمى على الساحل الشام ، والمناطق الداخلية لاقليم ما وراء نهر الأردن وحوران ، وتحول دون قيام التعاون الكامل والمستمر بين سلاجقة دمشق وفواطم القاهرة[١٥٦] الا أن تناقص أعداد الفرنج بسبب رحيل غالبية الجند والأمراء الصليبيين ، وبقاء تانكريد وجودفرى مع قوات ضئيلة لم تكن قادرة على القيام بأى هجوم أو رد هجمات مضادة عليهم جعل الفرنج فى موقف لا يحسدون عليه[١٥٧] .

ويمكن القول أن مملكة بيت المقدس اللاتينية قد عاشت تلك الفترة على صدى انتصارات الفرنج السابقة فى أنطاكية والقدس وعسقلان . ولم يتمكن الفرنج خلالها من احتلال فلسطين لفشلهم فى الاستيلاء على عسقلان وبقية موانىء فلسطين ولبنان الساحلية التى ظلت قواعد للقوات الفاطمية تشن منها الغارات والهجمات على الصليبيين جنوب الشام .

---

(١٥٣) Duggan, A., the story of crusades, p. 91.

(١٥٤) Prawer, The Latin, p.p. 16-19; Stevenson, Crusad., p. 41, FF.

(١٥٥) ويذكر المؤرخ اليهودى يوشع براور أن تأسيس إمارة الجليل وراء نهر الأردن كان نتيجة لمشروع قام به تانكريد لتأسيس إمارة له بالشرق . وسوف تلعب هذه الإمارة دورا كبيرا فى تاريخ اقليم ما وراء نهر الأردن لمجاورتها لدمشق وقيام الصراع بين هاتين الإمارتين تخلله فترات من السلام وتوقيع اتفاقيات الهدنة . لمزيد من التفاصيل راجع :

Prawer, Latin ,p.p 16-19. Stevenson, Crusaders, p. 41 FF.

(١٥٦) Boase, The kingdoms, of Jeursalem; Mayer, The crusades., p. 65.

(١٥٧) وعن أعداد الفرنج الذين رحلوا أو ظلوا فى بيت المقدس راجع :

William of tyre, deeds, vol. 1, p. 40; Albert of D'Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. p.p. 503-507, 517.

وعن مناقشة أحوال مملكة بيت المقدس اللاتينية بعد رحيل الفرنج . راجع :

Prawer, The Latin Kingdom, p. 19; The settlement of the latins in Jerusalem, Speculum, XVII 1952, p.p. 491-495; Zoé oldenburg, op. cit., p. 155; Funk, Foundation, in setton (ed.,) vol. 1, p. 375.

وقد اكتفى الصليبيون بوضع حاميات فى المدن الرئيسية مثل بيت المقدس وبيت لحم والخليل والرملة واللد ، وكذلك يافا ونابلس وبيسان وطبرية والناصرة فى حين ظلت الأراضى والقرى المحيطة بتلك المدن فى أيدى أصحابها العرب(١٥٨) .

ورغم الأخطار العديدة التى أحاطت بمملكة بيت المقدس الناشئة(١٥٩) ، وقلة عدد الصليبيين المستقرين بالأراضى المقدسة ، إلا أن هذه المملكة ظلت بمنجى عن تلك الاخطار وقتذاك ، بسبب استمرار الخلاف والصراع بين القوى الاسلامية فى المنطقة والتى لم تحاول استغلال فرصة ذلك الموقف الحرج الذى كان عليه الفرنج بعد رحيل معظم قادتهم وقواتهم عائدين إلى الغرب ، فقد استمر النزاع الأسرى قائما بين دقاق أمير دمشق وأخيه فخر الملوك رضوان صاحب حلب كما أن الخلافة العباسية كانت غارقة فى سبات عميق فلم يكن أمامها عند سماع نبأ سقوط مدينة بيت المقدس سوى البكاء والتحسر ولم ترفع سيفا واحدا فى وجه الغزاة الصليبيين(١٦٠) . ولاشك أن فشل الأفضل فى عسقلان وفى شن هجوم سريع وقوى بعد عسقلان كان له أثره الكبير فى إنقاذ تلك الامارة الصغيرة(١٦١) كما أن الفاطميين ووزيرهم الأفضل كانوا منهمكين وقتذاك بالاستعداد للثأر من هزيمتهم فى موقعة عسقلان الكبرى وكان ذلك فى صالح جودفرى الذى لم يكن قادرا على صد أو رد أى هجوم عنيف من جانب الفواطم لأن ما لديه من قوة كما تذكر المصادر والوثائق اللاتينية(١٦٢) ، لم تزد على ثلاثمائة فارس وألفين من الرجالة .

ولاشك أن ما حدث بين المسلمين من خلافات وعداوات سياسية ومذهبية هو الذى أعطى هذه الامارة الصغيرة الناشئة فرصة مؤقتة لأن تقوى نفسها تدريجياً استعدادا للهجمات المتوقعة من جانب الفاطميين أو السلاجقة ، وبخاصة سلاجقة دمشق وصاحبها ظهير الدين طغتكين ٤٩١ — ٥٢٢ هـ/١٠٩٨ — ١١٢٨ م ) الذى سوف يجعل هو الآخر من الاستقرار اللاتينى شمال فلسطين استقرارا مزعزعاً غير مستقر(١٦٣) .

---

(١٥٨) ولقد شبه مؤرخو الحروب الصليبية مواقع ومراكز الصليبيين بفلسطين ، وإمارة بيت المقدس وتوابعها من المدن والقرى بالجزر الصغيرة المتناثرة وسط محيط واسع من أعدائها المسلمين الذين تحينوا الفرصة للانقضاض عليها واسترداد أراضيهم السليبة . راجع :

William of tyre, deeds, vol. p. 155; Funk, op. cit., in setton (ed.,) vol. I, p. 375.

(١٥٩) ويذكر وليم الصورى أنه بلغ من عظم الأخطار المحيطة بالصليبيين أن الصليبى كان لا يستطيع المرور من مدينة إلى أخرى دون أن يتعرض لخطر عظيم من جانب غارات وكمائن العرب ، فإما أن يُقتل أو يُؤسر . ويرى وليم أن الحالة السيئة لأسوار وتحصينات المدن والمراكز الصليبية المحتلة تركتها معرضة لأخطار جسيمة من جانب العرب مما دفع الكثير من الصليبيين للفرار والعودة إلى أوربا . راجع :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 409.

(١٦٠) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩٩ .

(١٦١) Zoé oldenburg, Crusades, p. 156; Funk, H., Foundation, in setton (ed.) vol. I, p. 375.

(١٦٢) William of tyre, deeds, vol. I, p. 408.

وكيفما كان الامر ، فان الفاطميين ووزيرهم الافضل شاهنشاه لم يظهروا رد فعل سريع لهزيمتهم فى عسقلان عام ٤٩٢ هـ /١٠٩٩ م ، والواقع أن الوزير الأفضل كان يستطيع بسهولة تامة استرجاع بيت المقدس فى ذلك الوقت رغم هزيمته فى عسقلان منتهزا فى ذلك فرصة رحيل غالبية الفرنج وقادتهم عائدين للغرب الأوربى ولكنه لم يكن مدركا لذلك الأمر ولم يدرك أن جودفرى كان قابعا فى بيت المقدس ومعه قلة ضئيلة من الفرسان والمشاة كانت غير قادرة على الدفاع عن المدينة المقدسة نفسها[١٦٤] .

وعلى الجانب الصليبى فان جودفرى دى بويون حامى الضريح المقدس عمل على اتخاذ كافة الاحتياطات اللازمة للدفاع عن أملاك الصليبيين الصغيرة فى فلسطين بعد رحيل غالبية القادة والجند الفرنج[١٦٥] ، اذ أن الدولة التى أقامها جودفرى ورفاقه فى بيت المقدس لم يكن لها سوى منفذ واحد على البحر هو ميناء يافا لهذا كان أول مهام جودفرى هو القيام باخضاع المدن والموانىء الساحلية الشامية الخاضعة للخلافة الفاطمية . وكان يحدو بلدوين من وراء ذلك عدة عوامل أهمها محاولاته توسيع أملاك الدولة الفرنجية الناشئة[١٦٦] ، أما جودفرى فقد أدرك أن المناطق الداخلية كان لا يمكن السيطرة عليها دون أخضاع تلك المدن والموانىء الساحلية التى كانت لا تزال تحت سيادة الوزير الأفضل والتى كانت كفيلة بزعزعة الاستقرار اللاتينى بالداخل .

يضاف إلى ذلك رغبة جودفرى القوية فى تقوية الصلة بين مملكة بيت المقدس والعالم الخارجى عن طريق البحر ، بمعنى آخر تكوين حلقة أتصال مباشر مع الغرب الاوربى لتأمين دخول الحجاج والامدادات التى كان جودفرى فى أشد الحاجة اليها ، وكان جودفرى يدرك تماما أن بقاء دولته فى القدس على قيد الحياة تعتمد على أتصالها بموانىء البحر المتوسط واقامة صلة مباشرة مع أساطيل أوربا الغربية وهى السياسة التى سار عليها خلفاؤه فيما بعد . كما أن جودفرى كان يهدف أيضا من غزو مدن الساحل الشامى الفاطمية أن يحرم الفاطميين من قواعدهم البحرية الهامة التى يستخدمونها فى غاراتهم وشن حملاتهم البرية والبحرية على أملاك الصليبيين بالشام . يضاف الى ذلك غرض بلدوين فى السيطرة على تجارة المناطق الداخلية وعلى التجارة والسلع البحرية لموانىء شرق البحر المتوسط .[١٦٧] .

و منذ أن فكر جودفرى فى غزو مدن الساحل الشامى ، فانه دل بذلك على أن الصراع الحقيقى القادم بين الصليبيين والفاطميين ووزيرهم الأفضل شاهنشاه كان يكمن فى منطقة الساحل الشامى ، والتى ستشهد كما ستوضح صراعاً مريرا بين الجيوش البرية والأساطيل البحرية لكلا

---

(١٦٤) William of tyre, deeds, vol. I, p. 408.

(١٦٥) Funk, The foundation of latin states, in setton (ed.) vol. I. p. 376;

(١٦٦) Zoé oldenburg, Crusades, p. 155.

(١٦٧) William of tyre, deeds, vol. I, p. 409.

الفريقين الفاطمي والصليبي .

وبدأ جودفرى غزوة المدن الساحلية بأن قام مع قوة صغيرة بفرض الحصار على ميناء أرسوف الصغير[١٦٨] ( انتيا تروس فى المصادر اللاتينية ) الواقع شمال يافا ، وذلك فى ذو الحجة ٤٩٢ هـ / أواخر أكتوبر ١٠٩٩ م[١٦٩] . ولكن إمكانيات جودفرى الضعيفة وقلة رجالة بشكل ملحوظ وافتقاره الى الامدادات والعتاد ، وحاجته إلى أسطول بحرى يحكم الحصار على أرسوف من ناحية البحر لمنع أية أمدادات تصلها من الأسطول الفاطمى ، الذى قام بدور كبير فى أمداد المدينة بما تحتاجه من المؤن والعتاد بحرا[١٧٠] ، بالاضافة إلى قوة دفاع حامية أرسوف الفاطمية ، ومهارة المدافعين فى استخدام المجانيق ، وتوافر المؤن لمواجهة حصار طويل ، مما أدى لفشل جودفرى فى الاستيلاء عليها ، فاضطر لفك الحصار بعد فترة تقرب من شهرين ، من ذى الحجة ٤٩٢ هـ / نهاية أكتوبر ١٠٩٩ الى أوائل صفر ٤٩٢ هـ / منتصف ديسمبر ١٠٩٩ م آملاً أن يحاصرها فى المستقبل عند توافر العون البحرى[١٧١] .

(١٦٨) أرسوف أو انتيا تروس : هى مدينة صغيرة على الساحل الشامى بين قيساريه ويافا . وكانت رباطا لكثير من المرابطين مثل أبو يحيى زكريا بن نافع الأرسوفى . وهى كثيرة السكان ولها قلعة منيعة وتبعد اثنى عشر ميلا عن الرملة ، وستة أميال عن يافا وثمانية عشر ميلادى عن قيسارية . وبها سوق كبير محاط بسور ضخم . راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ١ ص ١٠٧ ؛ أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص ٢٣٩ . وأعطت المصادر الفرنجية تسميتها انتيا تروس إذ أنها كانت تسمى فى العصر البيزنطى باسم أبولونيا . راجع :

Le strange, palestine, p. 339.

(١٦٩) Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 507.

(١٧٠) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٤٢٤ ، كذلك :

Michaud, History of the crusades, vol. I. p. 39.

(١٧١) Fulcher of chartres, op. cit., p. 151.

ورغم أن المؤرخ فوشيه شارتر كان معاصرا لحصار للمدينة ولم يكن شاهد عيان لها إلا أنه ساق رواية حية عن حصار الفرنج لأرسوف وفشلهم واعترف بقوة حامية المدينة الفاطمية وإنزالها خسائر جسيمة بالفرنج .

Fulcher of chartres, Ibid; William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 409-410.

ويذكر المؤرخ ألبرت داكس رواية غريبة عن حصار أرسوف فيذكر أن حامية المدينة رأت أنه من الحكمة الإتفاق مع جودفرى بعد رحيل ويكونه لفض حصار المدينة فبعثوا إلى جودفرى بالرهائن مقابل أن يدخل إلى مدينتهم الفارس جيرار الهستر فارس هاينو باعتباره من نزلاء المدينة ، واحد رهائنها إلا أن جودفرى لم يقنع بذلك فزحف عليها بآلات الحريف لإسقاطها فكان أول ضحية لهجومه هو جيرار أفسنر نفسه الذى شدت حامية المدينة وثاقه وعلقوه على أسوار المدينه ، فراح ضحية لسهام الفرنج الذين أضطروا لرفع الحصار فى أوائل صفر ٤٩٣ هـ / ١٥ ديسمبر ١٠٩٩ م . راجع :

Albert of Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p.p. 509-511.

ولكن رواية ألبرت تتميز بالتناقض والتخبط والغموض فيذكر فى موضع آخر بكتابة أن سلطات أرسوف الفاطمية سامت جيرار أفيسنز فيما بعد إلى الفرنج بعد شفائه من جراحه وكافأه جودفرى بمنحه منطقة حبرون ( الخليل ) .

Albert of A D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 516.

وأيدت رواية ألبرت داكس بعض المراجع الحديثة مثل :

Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 268, F.I. Boase, the kingdoms, p. 29.

ويبدو أن جودفرى قد أدرك خطأ تنفيذ مشروعه الكبير بغزو مدن الساحل دون الاستعانة بالأساطيل البحرية ، ولهذا آثرأن أن ينتظر وصول الامدادات والاساطيل من الغرب ، ورأى أن يقصر جهوده فى تلك المرحلة على شن هجمات أو غارات خاطفة على المناطق المحيطة ببيت المقدس فى محاولة لنشر الذعر بين سكان المنطقة ، والعمل على تحصين ميناء يافا الصليبى

واكتفى جودفرى ، بعد فشل حصار أرسوف ، بترك نصف جيشه فى الرملة ، على مقربة من المدينة لتهديدها ، وشن غارات على ضواحيها ، فيستحيل عليهم بذلك أن يفلحوا حقولهم[١٧٢] ، وقد أستطاعت هذه القوة الصليبية أن تظفر فى ربيع الثانى ٤٩٣ هـ / فبراير ١١٠٠ م ، ببعض أهالى أرسوف الذين خرجوا لزراعة حقولهم القريبة ، فانتقم الفرنج منهم أنتقاما مخيفا بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم[١٧٣] ، مما حدا بسكان أرسوف الفاطمية لارسال سفارة تطلب نجدة عاجلة من الوزير الأفضل الذى لم يكن ليترك أية فرصة لبذل العون والتأييد لمدن الساحل الفاطمى وأمدادهم بالميرة والأقوات عندما كان ولاتها يستنجدون به من حصار الفرنج لها برا وبحرا بارسال نجدة تتكون من عدة سفن فاطمية عليها حوالى ثلاثمائة جندى لتعزيز حامية المدينة فى مطلع جمادى الأولى ٤٩٣ هـ / منتصف مارس ١١٠٠ م[١٧٤] واذ تشجع رجال الحامية الفاطمية بوصول تلك النجدة قاموا بشن هجوم مضاد ضد الفرنج غير أنهم وقعوا فى كمين نصبه الفرنج فى جمادى الأولى ٤٩٣ هـ / مارس ١١٠٠ م ، لقى فيه مصرعه الجانب الأكبر من القوات الفاطمية مما أدى إلى اشتداد اليأس بالمدينة فلم يسعها الا أن ترسل سفارة الى جودفرى فى جمادى الاولى ٤٩٣ هـ/ آواخر مارس ١١٠٠ م فى بيت المقدس تحمل إليه مفاتيح أبراج المدينة وقلاعها ، وعرضت عليه الدخول فى تبعيته ودفع جزية سنوية رمزا لخضوعها ، فقبل جودفرى ، وجعل للفارس روبرت ابوليا حق تسلم تلك الجزية[١٧٥] .

وفى جمادى الثانية ٤٩٣ هـ / أبريل ١١٠٠ م ، قام كل من بوهيمند أمير أنطاكية وبلدوين دى بويون أمير الرها بزيارة مدينة بين المقدس ، وكان يرافقهما فى تلك الزيارة الاسطول البيزى المكون من مائة وعشرين سفينة على رأسه دايمبرت البيزى **Daimbert ofpiza** ، رئيس أساقفة

---

(١٧٢) Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 511.

(١٧٣) Grousset, Histroire des croisades, to. I, p. 182.

ويعتمد جروسيه هنا على مصادر لم يذكرها

(١٧٤) Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p.p. 513-514.

(١٧٥) Albert of D'Aix, Ibid p.p. 513-515.

ويلاحظ أن المصادر الإسلامية المعاصرة والمتأخرة لم تذكر شيئا عن حصار مدينة أرسوف أو المعارك التى دارت حولها بين الفرنج والفاطميين ولهذا اعتمدت على المصادر الفرنجية ، راجع

William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 410-411.

أنظر تعليق رونى الدمرج على رواية ألبرت حول أرسوف

Zoé oldenburg, Crusades, p. 157

بيزا ، وكان هذا الأسطول قد رسا في ميناء اللاذقية منذ ثلاثة شهور مضت[١٧٦] ، ورافق القادة الفرنج إلى الأراضي المقدسة[١٧٧] .

وانتهز جودفري فرصة وصول تلك القوات ، والأسطول البيزي بما يحمله من مؤن وعتاد ، ليواصل سياسته على نطاق واسع ، فأنفذ رجاله يشنون الغارات الوحشية على ظهير المدن الفاطمية على الساحل الفلسطيني مثل عسقلان وقيسارية وعكا فضلا عن أرسوف لنشر الذعر في تلك المناطق ، وأجبار المدن على مخاطبة وده وانتزاع الضرائب منها . كما رأى جودفري بثاقب بصره ، استغلال وجود الأسطول البيزي بالشرق لعمارة وتحصين ميناء يافا وتقوية استحكاماته[١٧٨] ، خاصة بعد أن أسلمت أرسوف قيادها اليه ، عندما أيقنت بعدم جدوى الحماية الفاطمية لها .

وكانت مدينة يافا ومينائها ذات أهمية بالغة لمملكة بيت المقدس الناشئة اذ كانت بمثابة المنفذ البحري الطبيعي لها على البحر المتوسط[١٧٩] ، كما كان من الناحية الفعلية الميناء الوحيد الصالح لرسو السفن الآتية من أوربا حاملة الامدادات والتعزيزات العسكرية إلى الصليبيين بالشرق ، كما كان من الممكن اتخاذها قاعدة لغارات الفرنج ومنطلقا لهجماتهم المقبلة على المدن الساحلية الفاطمية الواقعة شمال وجنوب هذه المدينة الساحلية[١٨٠] .

وقد وافق البيازنة على مساعدة جودفري في إعادة تعمير وتحصين يافا ، مقابل موافقة جودفري حصولهم على أمتيازات وحقوق خاصة في يافا وذلك في عام

---

(١٧٦) Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV., p.p. 500-501.

وتذكر بعض المراجع الأوروبية أن بوهيمند الأنطاكي عقد اتفاقا مع دايمبرت وأسطوله البيزي عند وصوله إلى اللاذقية للاستيلاء عليها باعتبارها موقع بحري هام لديه كما أراد استغلال هذه القوة البحرية لبسط سيطرته على الأطراف الشمالية لبلاد الشام التي كانت محطا للصراع بينه وبين عدوه الامبراطور البيزنطي . ويذكرها بد أن هذه الاتفاقية هي الحلقة الأولى من سلسلة الاتفاقيات التي عقدتها بيزا مع الفرنج بالشرق الإسلامي لتحقيق أطماع ومكاسب مادية . راجع :

Heyd, commerce du levant, to. I, p.p. 135-122.

والمعروف أن البيازنة هم أول من قاموا بدور ملحوظ في الحركة الصليبية منذ بدايتها إذ لعبوا دورا فعالا في حروب المسلمين أسبانيا طيلة القرن ١١ م / ٥ هـ

Heyd, commerce du levant, to. I, p.p. 121-122.

(١٧٧) ارنست باركر تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة د. العريني ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٤٤ ، وكذلك :

Stevenson, The crusaders in the East, p. 39; Cahen, C., La syrie du Nord, Paris 1940, p. 223; Duggan, A., The story, p. 81.

(١٧٨) Heyd, commerce, To. I, p. 135, Boase, the kingdoms, p. 35.

(١٧٩) Prawer, The latin kingdom, p. 687.

(١٨٠) Archer& kingsord, the crusades, p. 100.

٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م[١٨١] ، ونصت هذه الامتيازات على أن يحصل البيازنة على ملكية جزء من مدينة يافا والسيطرة التامة على التجارة الخارجية للمدينة ، كما نصت المعاهدة الموقعة بينهم فى جزئها الثانى ، الحصول على أرض ومدن جديدة مثل مدينة القاهرة ، والتى سيتم فتحها بواسطة البيازنة ، وفى حالة وفاة جودفرى دون أن يعقبه ورثة ، فان بقية يافا تصبح ملكا خالصا للبيازنة[١٨٢] .

وأشارت المصادر الاسلامية[١٨٣] إلى جهود جودفرى لتحصين ميناء يافا ، فيذكر ابن الأثير « أنه ( جودفرى ) » عمر مدينة يافا وسلمها إلى قمص من الفرنج اسمه طنكرى »[١٨٤] . وقد سيطرت يافا بعد تحصينها على الشاطىء بأكمله ، وفاقت موانىء مثل عكا وعسقلان التابعين للخلافة الفاطمية[١٨٥] . كما أصبحت يافا مركزا لنشاط تجارى وحربى كبير وصارت الميناء الرئيسى لمملكة بيت المقدس الفرنجية الناشئة فهرعت إليها السفن التجارية لموانىء إيطاليا وبروفانس ، يحدوها الأمل فى التجارة مع المملكة الجديدة ، واللحاق بالبيازنة وأقتسام الغنائم معهم ، واحضار الحجاج إلى الشرق وإمداد المملكة الناشئة بما تحتاجه من الامدادات والمؤن[١٨٦] .

ويجب أن نعترف أنه بفضل جهود تلك الاساطيل البحرية الايطالية ( جنوه — بيزا — البندقية ) تمكن جودفرى من فرض حصار شبه كامل على ساحل فلسطين مما شكل عقبة رئيسية أمام سفن البحرية الفاطمية فى محاولتها اختراق السفن الايطالية لجلب المؤن وتقديم العون البحرى لمدن الساحل الشامى التابعة للفاطميين[١٨٧] .

---

(١٨١) Albert of D,Aix, R.C., Hist. occ., vol. IV, p. 515; Anna comnena, Alexaid, p. 292.
ويلاحظ أن الأسطول البيزى لم يقم كثيرا بفلسطين لمغادرتها بعد عيد الفصح تاركا دايمبرت وراءه كأسقف على القدس. راجع :
Daimbert, Lettres des croisades, ed. par. P. Riant, in A.O.L., to. I, p. 213, FF.

(١٨٢) Rohrich, R., Geschischt des konigereichs Iherusalem, insbruck 1898, p. 6, F.F., Tolkwosky, the gateway to palestine (history of Jaffa), London 1924, p. 87; Funk, The foundation of latin states, in setton (ed.), vol. I, p.p. 378-379.

(١٨٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٦٢ ، النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط دار ، مجلد ٢٦ لوحة ٧٧ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٨ ؛ العينى : عقد الجمان ، مخطوط دار ، القسم الثانى ج ١ ، لوحة ٥٢٩ حوادث ٤٩٤ هـ

(١٨٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٢٢ .

(١٨٥) يذكر الأستاذ رى فى كتابه عن الأسرات الحاكمة فى الأراضى المقدسة وكونتيات يافا وعسقلان ، أن روجر أوف روساى «Roger of Rosay» كان أول أمير على يافا ولس تانكريد وأن اسقفية للمدينة وضعت تحت رعاية أسقف قيسارية راجع :
Daimbert, Lettres des croisades, ed. Par p. Riant, in A.O.L. to. I, p. 213, FF.

(١٨٦) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٤٣٥ ، وكذلك :
Calthrope, M., the crusades, London 1923, p. 320, Funk, Foundation, in setton (ed.) vol. I, p. 370; Boase, Kingdoms p. 35.

(١٨٧) Heyd, Commerce, to. I, p. 135, Boase, Kingdoms, p. 35.

والواقع أن تحصين يافا على هذا النحو ، ووجود الأسطول البيزى قد سبب حالة من الرعب والفزع فى قلوب سكان المناطق والمدن المجاورة وكان بمثابة خطر داهم على الممتلكات الفاطمية فى جنوب الشام خاصة بعد اتخاذ الفرنج من يافا قاعدة رئيسية لشن الغارات على تلك الامارات . وكان بلدوين أكثر توفيقا اذ بدأ اليأس يدب فى قلوب سكان المدن المحيطة بيافا بعد أن تأكد لهم عجز الوزير الأفضل بن بدر الجمالى عن حمايتهم بعد هزيمة عسقلان ، وأدركوا أن الامارة الجديدة أثبتت أنها أقوى من أن تكون امارة ضعيفة سريعة الزوال فهرع ولاة مدن عسقلان وقيسارية وأعلنوا تبعيتهم لجودفرى ، وعرضوا عليه دفع جزية شهرية مشتركة تصل إلى خمسة آلاف دينار وتقديم المواشى والزبيب والغلال وغيرها من الفروض العينية رمزاً لخضوعهم للفرنج[١٨٨] ، وهدف أمراء تلك المدن من ذلك حماية النشاط التجارى والسماح لهم بزراعة أراضيهم وممارسة نشاطهم التجارى فى أمن وسلام[١٨٩] . كما سارع الكثير من مشايخ العرب وزعمائهم فى الجهات الداخلية لعقد مثل هذه الاتفاقيات مع حكومة بيت المقدس الفرنجية لضمان سلامة قوافلهم ومتاجرهم وذلك مقابل عقد هدنة مؤقتة[١٩٠] .

وبالقاء نظرة سريعة على تلك الاتفاقيات والمعاهدات التى عقدت بين المدن الساحلية والفرنج نجد أنها لم تعكر صفو السلام الذى كان بينهما اذ أن تجار هذه المدن وبخاصة مدينة عسقلان كانوا قادرين على الذهاب فى أمان للتجارة فى مدينة بيت المقدس وأن تجار مدينة بيت المقدس كانوا يقصدون عسقلان لممارسة نشاطهم دون خوف[١٩١] .

ورغم الأنتصارات والانجازات السريعة التى حققها جودفرى فى الساحل الشامى وشرق الأردن فى إقامة رأس جسر على الساحل الشامى تمثلت فى ميناء يافا وخضوع بعض موانىء ساحل البحر المتوسط له مثل أرسوف الا أن استكمال غزو الساحل الفاطمى أثبتت أنه عملية شاقة

---

(١٨٨) Prawer, The latin kingdom, p. 87.
Archer & kingsford, the crusades, p. 100.

(١٨٩) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٤٣٦ ، وكذلك

(١٩٠) Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ. vol. IV, p. 516; William of tyre, deeds, vol. I, p. 410.
وقد أورد وليم الصورى رواية غريبة عن عقد هذه الاتفاقية راجع تعليق ونقد الدينبرج ، لهذه الرواية .
Zoé oldenburg, op. cit., p. 157.
ويذكر لامب أن جودفرى كان لديه قوة بسيطة لا يستطيع الدفاع عن إمارته ، وخوفه من قيام شيوخ العرب وأمراء هذه المناطق بمهاجمته ، هو الذى دفعه إلى عقد هذه الاتفاقيات راجع
Lamb, The crusaders,

(١٩١) Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 516.
وتذكر دائرة المعارف البريطانية أن السلام الذى ساد بين أمراء هذه المدن والفرنج بعد عقد هذه الاتفاقيات كان له أثره فى اقتباس الفرنج الكثير من عادات وصفات جيرانهم العرب مثل التسامح الدينى الذى أذهل الحجاج المسيحيين والجند الفرنج . راجع
Encylopedia Britannica, vol. VI, p. 830.

للغاية بالنسبة للفرنج اذ تطلب الكثير من المشاة والفرسان فى وقت عانى فيه الصليبيون من أزمة ونقص فى عدد المحاربين والرجال كما كان من المستحيل على جودفرى حصار أو أسقاط أية مدينة بحرية طالما كانت تتلقى الامدادات والمقاتلين بشكل مستمر من الأساطيل البحرية لمدن ايطاليا التجارية مثل جنوة وبيزة والبندقية وغيرها خاصة وأن الساحل الشامى كان غاصا بالمدن الخاضعة لسيادة الأفضل بن بدر الجمالى والتى هددت الاتصال بين مملكة المقدس الناشئة والغرب الأوربى وتفصل بين الامارات الصليبية بشمال الشام عن مملكة بيت المقدس فى الجنوب .

لقد أدرك جودفرى أن مساعدات الاسطول البيزى كانت غير كافية بعد أن نقل ميدان نشاطه إلى منطقة شرق الاردن حيث شن عليها العديد من الغارات بالاشتراك مع تانكريد ، لتوطيد دعائم إمارة الجليل الصليبية(١٩٢) ، وأنتظار أساطيل جديدة تصل من الغرب الأوربى لتحقيق مشروعاته على الساحل الشامى .

ولكن الظروف خدمت الفرنج عندما عاد جودفرى إلى الجليل فى ٧ شعبان ٤٩٣ هـ / ١٨ يونية ١١٠٠ م ) بعد أحدى غاراته على الجولان فعلم أنه رسا بميناء يافا الصليبى أسطولا بندقيا ضخما يقدر بمائتى سفينة بقيادة الدوج فيتال ميخائيلى دوج البندقية(١٩٣) «vital Michelii» يحدوه الأمل فى الأطماع المادية وتحقيق مكاسب للبنادقة بالشرق وذلك بالاشتراك فى حصار مدن وموانىء الساحل الشامى الفاطمية وفتح أسواق جديدة أمام تجارتهم وبضائعهم أسوة بما فعلته الجمهوريات الايطالية الأخرى فى عصر الحروب الصليبية(١٩٤) .

ونظرا لما يدركه جودفرى من أهمية هذا الاسطول فى فرض السيطرة على البحر المتوسط ، فقد هرع إلى ميناء يافا للتفاوض معه ، الا أن اصابته بالحمى . كما تذكر المصادر والمراجع الفرنجية(١٩٥) ، منعته من تحقيق ذلك فأناب عنه ابن عمه وارنر جراى كونت برجنديا **Warner** « **Gray of Burgundy** ، الذى وافق على ما فرضته البنادقة من شروط لمحاربة المسلمين ، وتقضى باطلاق حرية التجارة لهم فى سائر مملكة اللاتين بالشرق ، وتوفير الأمن والحماية لطاقم بحارة أى سفينة بندقية تتحطم عندأى مدينة ساحلية فرنجية ، وأن يكون لهم كنيسة وسوق بكل مدينة وامتلاك ثلث كل مدينة يسهمون فى اسقاطها ، ويتخذون فيها حيا تجاريا لمباشرة نشاطهم التجارى ، وأن تكون لهم ملكية طرابلس بأكملها فى حالة استيلائهم عليها مع تعهدهم بدفع أتاوة

---

(١٩٢) لمزيد من التفاصيل عن ذلك راجع
Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p.p. 518-519.

(١٩٣) Stevenson, The crusaders in the East, p. 41; Gibb, the Caliphate in action (ed.) p. 98.

(١٩٤) Heyd, commerce, to. I, p.p. 135-136; p.p. 343-344,
وكذلك جوزيف نسيم ، العرب والروم ، ص ٨٧ — ٩٠ والحواشى ؛ لويس التاسع فى الشرق الأوسط ص ٢٨٦ — ٢٨٨

(١٩٥) Albert of D'Aix, Historia, in R.H.C. vol. IV. p. 519, Stevenson, The crusaders in the East, p. 41, F. 6.

سنوية عنها لجودفرى[١٩٦] ، مقابل تقديم المساعدة للفرنج حتى ٦ شوال ٤٩٣ هـ / ١٥ أغسطس ١١٠٠ م[١٩٧] .

على أن المفاوضات توقفت بين الجانبين لتقرير أى المدن الساحلية ينبغى مهاجمتها فى صيف ٤٩٤ هـ / ١١٠٠م ، وتم الاتفاق على أن تكون عكا هى الهدف الاساسى ، رغم المعاهدة الموقعة بين أميرها وجودفرى ، نظرا لأهمية موقعها بالنسبة لمدن الساحل الاخرى لوقوعها على الساحل الشرقى لحوض البحر المتوسط جعل منها سوقا تجاريا دوليا من الطراز الاول كما أن خليجها ، جعلها مرفأ آمنا للسفن ، كما أن أهميتها الجغرافية والتجارية لدى الفرنج ، جعل منها ممرا وحلقة اتصال بين الشرق والغرب[١٩٨] .

وسرعان ما حاصرا البنادقة عكا بحرا بعد أن قاموا باصلاح سفنهم وبناء الأبراج العائمة لحصارها بحرا أو برا فى عام ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م[١٩٩] . فى الوقت الذى ازدادت فيه وطأة المرض على جودفرى دى بوايون فاشترك البطريرك دايمبرت وتانكريد فى الحصار برا نيابة عن جودفرى[٢٠٠] . وأثناء حصار المدينة جاءت الأنباء بوفاة جودفرى ودفنه بكنيسة القيامة تنفيذاً لوصيته[٢٠١] .

---

(١٩٦) Albert of D'Aix, Ibid, p. 519, Translatione Nicolai venetiani, R.H.C., Hist. occ. vol. V, p.p. 272-273.

نقلا عن رنسيمان ، ص ٤٤١ ج ١ ، كذلك راجع :

Heyd, commerce, to. 1, p. 136.

ويلاحظ أن هذا المصدر المسمى « ترجمة أعمال القديس نيقولاس البندق مؤلف بحرف براهب ليدو من أهم المصادر أو الحوليات فى تاريخ البنادقة وعلاقتهم بالشرق الإسلامى فى العصور الوسطى وقد وضعه مؤلفه على غرار كتاب مؤرخ حوليات جنوه كافارو الجنوى راجع :

Prawer, the latin kingdom, p. 41, F. 6.

(١٩٧) ويستطيع التعرف على نصوص هذه الاتفاقيات بين البنادقة والفرنج بالتفصيل من تلك الوثيقة الهامة التى أوردها وليم الصورى وهى عبارة عن نموذج حى ونسخة فريدة لمعاهدة تحوى بنود إتفاق بين البنادقة وأمراء القدس حول حصار مدينة صور الساحلية شبيهة بالشروط الموضحة بالمتن . راجع :

William of tyre, deeds, vol. II, p.p. 562-556.

وتذكر بعض الآراء أنه على الرغم من أن هذه الامتيازات والشروط التى فرضها البنادقة كانت صعبة التنفيذ لدى الفرنج ، إلا أن حاجتهم الشديدة للمعونة البندقية اضطرتهم لقبول هذه الشروط . راجع :

Prawer, The latin kingdom, p.p. 85-87; Lamb, the crusaders, p. 224.

(١٩٨) وعن عكا موقعها راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٣ مجلد ٦ ص ٢٠٧ ؛ ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٥ — ١٦ ؛ ابن جبير : رحلة ابن جبير ، نشر وليم رايت ، ط . لندن ١٩٠٧ ، ص ٣٢ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٥٢ .

(١٩٩) Lamb, The crusaders, p. 225.

(٢٠٠) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ١ ص ٤٤٢ ، وكذلك : Stevenson, Crusaders, p. 42.

(٢٠١) أجمعت المصادر الفرنجية على أن وفاة جودفرى كان نتيجة حمى أصابته وأيدتها فى ذلك المراجع الحديثة . راجع :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 415; Felix Fabri, A book of wanderings, in p.p. T.S., London 1893; vol. II, p. I, p. 312, Stevenson, The crusaders in the East, p. 42. Boase, The kingdoms,p. 29, conder, The latin kingdom, p. 72.

وقد أنتهز تانكريد النورمندى الطموح ، فرصة وفاة جودفرى وعقد عزمه على ألا يضيع فرصة استغلال الأسطول البندق فى تحقيق أطماعه الشخصية بفلسطين ، فاقترح تانكريد وأيده دايمبرت على تأجيل مهاجمة عكا ، والمبادرة بمهاجمة مدينة وميناء حيفا[٢٠٢] ، نظرا لقربها من بيت المقدس وباعتبارها أكثر الموانى ملائمة لهم ، كما أن حيفا بالنسبة له كانت أملا كبيرا باعتبارها منفذا بحريا طبيعيا لامارته الجديدة الناشئة فى الجليل على البحر المتوسط[٢٠٣] ، وكانت هذه المدينة احدى مدن الساحل الهامة التابعة للخلافة الفاطمية ووزيرها الأفضل وكان للفاطميين بها حامية صغيرة قوية تدافع عنها نظرا لأهميتها لديهم فكانت دار لصناعة وترميم السفن الفاطمية بالساحل الشامى[٢٠٤].

وعلى الرغم من أن الأسباب التى أوردتها المصادر والمراجع الصليبية[٢٠٥] ، من أن أنسحاب الصليبيين وأسطول البندقة من أمام عكا نظرا لأطماع تانكريد ، يبدو مقنعا ، الا أننا نرجح أن قوة مقاومة الحامية الفاطمية للمدينة ، وارسال الأفضل شاهنشاه الأسطول الفاطمى لتقديم الامدادات والميرة والاقوات للمدينة جعلت الفرنج ينسحبون من أمامها ، مما مكن الأفضل شاهنشاه من إستعادة عكا والسيطرة عليها فى نفس عام ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م ، وأقام عليها واليا من قبله هو بنا المعروف بزهر الدولة الجيوشى[٢٠٦] وهذا الوالى سوف يقاوم الصليبيين مقاومة عنيفة عند حصارهم لها ثانية برا وبحرا فيما بعد عام ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م[٢٠٧]

وسرعان ما تحرك الجيش الصليبى الى حيفا ، وعسكر على منحدرات جبل الكرمل ، فى حين أبحر الأسطول البندق بقيادة فيتال ميخائيلى الى خليج حيفا لحصارها بحرا . ولكن غالبية سكان حيفا من اليهود الذين كانوا يكرهون الفرنج كراهية شديدة ، بسبب ما أصاب أخوانهم فى القدس

---

* وأجمعت بعض المراجع أمير قيسارية بأنه سبب وفاة الملك نتيجة للفاكهة المسمومة التى قدمها لجودفرى أثناء مروره بإمارته راجع

Archer & Kingsford, crusades, p. 100. Michaud, history of the crusades, p. 274.

وهذه الآراء تخالف تماما الرواية التى أجمعت عليها المصادر الإسلامية وتشير لمقتل جودفرى من سهم أصابه أثناء اشتراكه فى حصار مدينة عكا راجع ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٨ ؛ ابن الأثير الكامل ، ج ١٠ ص ٢٢١ ؛ الذهبى العبر ، ج ٣ ص ٣٢٨

(٢٠٢) حيفا من كلمة الحيف أى الجور أو الظلم وهو موضع بالمدينة لغسها ، ويقال أن الرسول ( صلعم ) أجرى الخيل منه فى المسابقة وهى تقع على ساحل البحر الشامى بالقرب من يافا ، وتتميز بمرفأ طبيعى صالح لرسو السفن والمراكب البحرية وهى عذبة المياه والمقد البحرى والطبيعى لمدينة طبرية على البحر المتوسط ويذكر الادريسى أنها مرسى لطبرية راجع الادريسى نزهة المشتاق ، ط روما ١٥١٦ م ، ص ١١ ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٢٨١ ، ج ٤ ص ١١٠

(٢٠٣) Prawer, the Latin kingdom, p. 17; Funk, The foundation of latin states, in setton (ed.), vol. 1. p. 38.

(٢٠٤) Prawer, The Latin kingdom, p. 17.

(٢٠٥) Albert of D'Aix, Historia, in R.H.C., vol. IV, p. 519; Prawer, the latin kingdom, p 17; Funk, the foundation of latin states, in setton (ed.), vol. I, p. 38.

(٢٠٦) ابن الأثير الكامل ، ج ١٠ ص ٢٢١ ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٢٠٨

(٢٠٧) ابن الأثير الكامل ، ج ١٠ ص ٢٢١ وسوف نتعرض لهذا الأمر بالتفصيل فى الفصل الخامس من الدراسة

والجليل من الاضطهاد والتنكيل ، أبدوا الاستعداد للدفاع عن المدينة حتى النهاية ، وأظهروا مقاومة عنيفة[٢٠٨] ، في الوقت الذي عمل فيه مسلموا المدينة على تزويدهم بالأسلحة فقاتلوا بكل ما اشتهروا به من الصلابة ، للدرجة أن البنادقة فقدوا سفينة لهم في المعركة التي دارت في الميناء ، مما اضطرهم للتحرك بمراكب القوى نحو الخليج[٢٠٩] .

ولكن تانكريد ثار حينما علم فجأة أن جودفرى دى بويون أوصى قبل وفاته أن تكون مدينة حيفا من نصيب أمير آخر يدعي جالديمار كاربنيل «Galdimar carbnel» ، فهدد بانسحابه من أمام المدينة ، وأعلن أنه لن يعمل لحساب غيره ، خاصة وأن حيفا كانت بمثابة الثغر البحرى الطبيعي لامارته بالجليل[٢١٠] .

وأزاء هذا الموقف الحرج بذل دايمبرت البيزى كل جهوده لحمل تانكريد على مواصلة الحصار ، واسترضائه بسرعة ، ووعده بمنحه حيفا ، فضاعف تانكريد من جهوده . وبعد هجوم قوى أستخدم فيه الفرنج سبعة مجانيق وبرج متحرك ضخم ركزوا به هجومهم على البرج الرئيسي للمدينة في خط دفاعها ، وبعد نضال عنيف سقطت المدينة عنوة بعد حصار يقرب من شهر وذلك في شوال ٤٩٣ هـ / أغسطس ١١٠٠ م[٢١١] .

ولكن الجند الفرنج المتعطشين للدماء لم يكد يدخلون المدينة حتى قاموا بنهبها ، وأرتكبوا بها مذبحة مروعة وقتلوا سكانها من المسلمين واليهود دون شفقة أو اعتبار لسن أو جنس وشاركهم البحارة البنادقة في ذلك ولم يتمكن سوى عدد قليل من الفرار إلى عكا وقيسارية[٢١٢] .

وبعد حصول البنادقة على نصيبهم من الغنائم والأسلاب ، عادوا إلى بلادهم على جناح السرعة ، تجنبا لرياح الشتاء وما تحمله من أخطار أثناء الأبحار[٢١٣] ، في حين آلت حيفا إلى

---

(٢٠٨) سميل ونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٤٤٦ ، كذلك :

Albert of D'Aix, vol. IV, p. 519; Prawer, the latin kingdom, p. 17; Funk, the foundation of latin setates, in setton (ed.) vol. I, p.p. 386.

(٢٠٩) Albert of D'Aix, R.H.C., hist. occ., vol. IV, p. 516.

(٢١٠) Prawer, Latin, p. 17; funk, Foundation in setton (ed.,) vol. I, p. 386.

(٢١١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٢٢٢ ؛ العظيمى : تاريخ العظيمى ، نشر كلود كاهن في الـ «J.A.» باريس ١٩٣٨ ، ص ٣٧٤ . ويذكر الذهبي أنها فتحت بالأمان . راجع الذهبي : العبر ، ج ٣ ص ٣٣٨ ، دول الإسلام ، ط . حيدر آباد ١٣٥٨ هـ ، ج ٢ ص ١٧ . ويجمع ابن ظافر وابن خلكان على أنها سقطت في شوال عام ٤٩٣ هـ . راجع ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ، مخطوط دار رقم ٨٩٠ تاريخ لوحة ٧٤ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ط . بيروت ١٩٦٨ ، ج ١ ص ١٧٩ ؛ أيضا مؤرخ شامى مجهول : البستان الجامع ، نشر كلود كاهن في الـ «B.I.F» القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١١٥ .

(٢١٢) Albert of D'Aix, R.H.C., hist. occ. vol. IV, p.p. 522-623.

ويلاحظ أن سياسة الفرنج أثناء فتوحاتهم الأولى لمدن الساحل قامت على النهب والسلب المنظم والتنكيل بأهلها إلا أنه حدث تغيير في تلك السياسة فكانوا يفضلون تسلم تلك المدن بسكانها التجار والصناع وما بها من كنوز أفضل من تسلمها مليئة برؤوس القتلى والجثث المحترقة . راجع :

Prawer, The Latin kingdom, p. 19.

(٢١٣) Stevenson, The crusaders in the East, p. 42.

تانكريد بعد أن طرد منها جالديمار كاربنيل ، وبذلك اكتملت إمارة الجليل بحصولها على منفذها الطبيعي على البحر المتوسط[٢١٤] .

كان على بلدوين دى بويون أمير الرها ، أن يخلف أخاه جودفرى على عرش مملكة بيت المقدس الذى خلا بوفاته ، ولهذا فلم يكد يستقر فى إمارته بالرها حتى تلقى فى شوال ٤٩٣ هـ / أواخر أغسطس وأوائل سبتمبر ١١٠٠ م رسالة بعث بها أنصاره من فرسان اللورين يخبرونه بوفاة أخيه وأن يسارع بالحضور لكى يتسلم زمام الأمور بالمدينة المقدسة . ولم يشأ بلدوين أن يضيع تلك الفرصة المتاحة فترك إمارة الرها إلى ابن عمه بلدوين ليبورج «Baldwin le Bourge» لإدارة شئونها ، كما ترك له قوة كافية من الجند للدفاع عنها ضد الأخطار الخارجية[٢١٥] .

وسرعان ماغادر بلدوين الرها فى ٢٤ ذو القعدة ٤٩٣ هـ / ٢ أكتوبر ١١٠٠ م ، على رأس قوة صغيرة من الفرسان[٢١٦] ، متخذا طريق الساحل إلى القدس ، واستطاع أن يشق طريقه بصعوبة بالغة قرب بيروت ، بعد نجاته من كمين خطير عند مصب نهر الكلب فى مكان ضيق بين الجبال ، والبحر ، نصبه له شمس الملوك دقاق صاحب دمشق بصحبته جناح الدولة صاحب حمص بالاتفاق مع أحد الأساطيل الفاطمية التى ستخرج من ميناء بيروت وتقف تجاه الساحل على أهبة الاستعداد لإعتراض بلدوين فى حالة إرتداده[٢١٧] . ولكن بلدوين تمكن من تشتيت الدمشقيين وهزيمتهم ومن معهم ، وغنم قدرا لا بأس به من الغنائم من الأسلحة والخيول حتى تمكن من الوصول سالما إلى القدس فى ٤ محرم ٤٩٤ هـ / ١٠ نوفمبر ١١٠٠ م[٢١٨] ، وهناك تم

---

(٢١٤) إن تانكريد لم يمكث طويلا بهذا المصر فقد اضطرته الظروف إلى ترك أملاكه بشرق الأردن ونقل نشاطه إلى مسرح آخر فى أنطاكية حيث قام بالوصاية عليها أثناء أسر أميرها بوهيمند بيد الأمير كمشتكين صاحب سيواس . راجع :

Duggan, The story, p.p. 82-83; Funk, The foundation of latin states, in setton (ed.), vol. I. p.p. 308-381; Grousset, p. 200.

(٢١٥) Fulcher of chartres, Expedition; p. 135; in R.H.C., hist. occ. vol. III, p. 373.

(٢١٦) يذكر ابن القلانسي أن بلدوين كان بصحبته خمسمائة فارس وراجل فقط . ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٨ راجع آراء بعض المراجع الحديثة حول ذلك مثل :

Boase, the kingdom, p. 32; Lamb, The crusaders, p. 179; Archer & kingsfor, the crusades, p. 132; Duggan, the story, p. 83.

(٢١٧) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٤٥٧ . يعتمد على مصدر لم يذكر إسمه .

(٢١٨) لمزيد من التفاصيل عن تلك الموقعة وسير بلدوين من الرها إلى القدس ، راجع :

Fulcher of chartres, Expedition, p.p. 136-142.

ورواية فوشيه رواية شاهد عيان لهذه الأحداث . واعترف فوشيه هنا بقوة موقعة نهر الكلب وخطورتها فيذكر فى معرض حديثه عنها « وددت لو أعود إلى وطنى فى شارتر أو أورليان وبعض الآخرون بهذا الشعور » .

Fulcher of chartres, p. 140; Albert of D'Aix, R.H.C., hist. occ., vol. IV, p.p. 527-531; William of tyre, deeds, vol. I, p. 420.

ويفهم من روايات المصادر الإسلامية عن موقعة نهر الكلب أن دقاقا هو الذى انهزم وقتل الفرنج وقتل بعض أصحابه . راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٩٦ حوادث سنة ٤٩٤ هـ أيضا :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 420.

تتويجه كأول ملك على بيت المقدس[٢١٩] . وتسلم بذلك تركة مثقلة بعد وفاة أخيه ، نظرا لما تعانيه المملكة الناشئة من أخطار وأزمات شديدة نتيجة لقلة الإمدادات والمؤن ونقص الأموال والرجال ، بالإضافة للأخطار الخارجية المتمثلة فى الخلافة الفاطمية بالجنوب .

ويمكن القول أن الانتصارات السريعة التى حققها الصليبيون أيام جودفرى وانتصار بلدوين الأول على دقاق صاحب دمشق عند نهر الكلب ، والذى جعل للصليبيين نوعا من المهابة من جانب القوى الإسلامية المجاورة ، قد ولد شعورا بالغرور لدى بلدوين الأول ، وبما هو معروف عنده من تهور واندفاع ، كما هى صفات وعادات القادة الصليبيين الآخرين ، فقد جعل هذا النصر السريع بلدوين يقوم عقب تتويجه ملكا بمغامرة غير مأمونة العواقب .

فلم يكد يستقر أسبوعا بالقدس حتى قام بما يمكن تسميته بنزهة حربية أو عملية عرض لقوته أو مظاهرة عسكرية أمام مدينة عسقلان ، القاعدة الفاطمية المتقدمة فى فلسطين ، والمناطق الواقعة جنوب القدس وتشمل الخليل وبيت لحم ، والقيام برحلة استكشافية وارتياد المناطق المحيطة بالقدس وجنوبها وبالتحديد منطقة جنوب وغرب البحر الميت ، ففى ٩ محرم ٤٩٤ هـ / ١٥ نوفمبر ١١٠٠ م ، خرج بلدوين على رأس حملة صغيرة قوامها مائة وخمسون فارسا وخمسمائة من المشاة[٢٢٠] ، متجها نحو المناطق الواقعة جنوب القدس ، وكان الغرض من ذلك نشر حالة من الفزع فى المناطق المذكورة ومحاولة حصار أو إسقاط مدينة عسقلان ، القاعدة الفاطمية الهامة بفلسطين ، والتى كانت حاميتها قد دأبت على شن الغارات والهجمات على الحجاج الذاهبين إلى بيت المقدس وإهلاك الكثير منهم[٢٢١] ، معتمدا فى ذلك على حالة الذهول التى أصابت الوزير الفاطمى الأفضل بعد هزيمة عسقلان الكبرى .

كما هدف بلدوين أيضا من تلك الحملة الصغيرة ، تأديب بعض القبائل العربية التى دأبت على تهديد طريق الحج إلى بيت المقدس ، وإخضاعهم للسيطرة الفرنجية وإجبارهم على دفع اتاوة

---

(٢١٩) Fulcher of chartres, Expedition, p. 139; 148; Felix fabri, wanderings, in p.p.t.s., vol. II, pt. I, p. 313.

وعن الموقف بالقدس بعد وفود بلدوين راجع :

Fulcher of chartres, The expediation, p.p. 143; FF; Anna comnena, the Alexiad, p. 288; Jean Richard, le Royame Latin de Jerusalem, Paris 1953; p. 63.

ويذكر الفريد دوجان أن بلدوين قام ، بعد تتويجه مباشرة ، بمنح إمارة الجليل إلى فارس يسمى هيو أوف سانت أومر .

Duggan, The Story, p. 83.

(٢٢٠) Fulcher of chartres, The expedition, p. 143.

شارك فوشيه شارتر فى هذه الحملة الصغيرة ولذا فروايته من الأهمية بمكان باعتباره شاهد عيان معاصر لها . ويلاحظ أن فوشيه لم يحدد فى روايته عدد جنود تلك الحملة وإنما استقينا هذا العدد من كتاب ألبرت داكس . راجع :

Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ. vol. IV, p. 533.

(٢٢١) Watson, W.D., The story of Jerusalem, London 1912, p. 186.

له[٢٢٢] ، والقيام برحلة استكشافية لمناطق جنوب وغرب البحر الميت ، وذلك لتهديد التجارة بين مصر والشام منذ أن أصبح هذا الطريق ( جنوب البحر الميت ) هو الطريق الذى يسلكه التجار والقوافل التجارية المتجهة من القاهرة إلى دمشق عبر شبه جزيرة سيناء حتى ميناء العقبة ومن هناك تسلك هذا الطريق متحاشية المناطق التى يسيطر عليها الفرنج والمعرضة لهجماتهم وهى المنطقة الموازية للساحل الشرقى للبحر المتوسط ، وذلك بفرض ضرائب على القوافل التجارية .

وكيفما كان الأمر فقد ظهر بلدوين فجأة أمام مدينة عسقلان وخيم أمامها أياما قليلة ، وقام بمناوشة الحامية الفاطمية القوية بالمدينة . وعلى الرغم من أن المؤرخ فوشيه شارتر[٢٢٣] المرافق لبلدوين فى حملته ووليم الصورى[٢٢٤] ، يجمعان على وقوع قتال بين جند بلدوين الأول والحامية الفاطمية أمام المدينة نفسها وهزيمة جند الحامية الفاطمية ومقتل البعض منهم وإجبارهم على الارتداد ثانية لعسقلان إلا أن بلدوين سرعان ما رفع حصاره عن المدينة بعد أيام قلائل من نزوله عليها فى ١٨ محرم ٤٩٤ هـ / ٢٤ نوفمبر ١١٠٠ م دون أن ينجز شيئا[٢٢٥] .

والواقع أن انسحاب بلدوين من أمام عسقلان على النحو المذكور يجعلنا نؤكد فشل غارته على عسقلان بعد أن أدرك أنها كانت من المناعة والحصانة من أن تسقط أمام قواته الهزيلة ، مما حدى به القيام بتعويض فشله بشن عدة غارات لتأديب العربان الذين دأبوا على تهديد طريق الحج إلى بيت المقدس فقام بتخريب ونهب محاصيل الأراضى الواقعة شرق مدينة عسقلان وفى منطقة النقب ، وإشعال الحرائق فى كل مكان يصادفه ثم تقدم فى جرأة وعبر الصحراء حيث أنزل الرعب والفزع بسكان تلك المناطق[٢٢٦] .

وطبقا لرواية مؤرخ حملة بلدوين والمرافق له فقد انتهز بلدوين الفرصة ليقوم برحلة استكشاف للمناطق الواقعة جنوب وغرب البحر الميت[٢٢٧] ، فعبر بقواته التلال اليهودية فى مدينة حبرون ( الخليل ) والتى يقال أنه دفن بها إبراهيم الخليل ( أبو الأنبياء ) وأبناؤه إسحاق ويعقوب

---

(٢٢٢) Fulcher of chartres, The expedition, p. 143.

ويذكر الأستاذ فرنسيس ريان فى تعليقه على نص فوشيه شارتر أن بلدوين لم يهدف من حملته تلك إسقاط مدينة عسقلان ، بل اختبار دفاعات المدينة وقوة تحصينها وهو الرأى المقبول لدينا ـ راجع :

Rayan, F., (ed.,) A history of the expedition to Jerusalem by fulcher of chartres, knoxville, p. 143, F. 2.

(٢٢٣) Fulcher of chartres, The expedition, p.p. 145-146.

(٢٢٤) Fulcher of chartres, The expedition, p. 143; William of Tyre, deeds, vol. I, p. 427.

(٢٢٥) William of tyre, deeds, vol. I, p. 427.

(٢٢٦) لمزيد من التفاصيل راجع :

Fulcher of chartres, The Expedition, p.p. 143-144; William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 426-427.

(٢٢٧) راجع وصف هذه الرحلة بالتفصيل فى :

Fulcher of chartres. The expedition,p.p. 145-147; William of tyre, deeds, vol. p. 427.

وزوجاتهم ، ومنها إتجه نحو ساحل جنوب البحر الميت[٢٢٨] ثم أتجه إلى منطقة تسمى زغر ( سيجور ) «Sugor» ومضى فى سيره مجتازا صحراء الشراه ( ايدوم ) إلى جبل هارون الذى يقع فوقه المعبد القديم أى معبد هارون بالقرب من البتراء ملقيا الفزع فى قلوب السكان العرب القاطنين بهذه المناطق[٢٢٩] .

ورغم أن المصادر الفرنجية لم تذكر الغرض الحقيقى الذى يكمن وراء قيام بلدوين برحلته الاستكشافية تلك جنوب وغرب البحر الميت إلا أننا نرجح أنه أراد إخضاع عرب تلك المناطق لسيطرة الفرنج وتأمين الحج إلى القدس وتهديد القوافل التجارية بين القاهرة ودمشق التى تعبر تلك المناطق .

وكيفما كان الأمر فقد عاد بلدوين إلى بيت المقدس محملا بالغنائم والأسلاب فى ١٥ صفر ٤٩٤ هـ / ٢١ ديسمبر ١١٠٠ م ، بعد أن استغرقت حملته الصغيرة ما يقرب من شهر بأكمله[٢٣٠] . وقد اعترف المؤرخ فوشيه شارتر دون أن يدرى بفشل حملة بلدوين عندما ذكر أن بلدوين عاد إلى القدس ، دون إنجاز أى شىء[٢٣١] مما يؤيد الرأى الذى ذكرناه آنفا بأن هدف تلك الحملة الصغيرة ليس تأمين طريق الحج إلى بيت المقدس أو فرض ضرائب على القبائل العربية جنوب القدس أو إخافة بدو المناطق القريبة من البحر الميت إنما هى أسباب تأتى فى المرتبة الثانية . بينما كان السبب الرئيسى هو اختبار دفاعات وتحصينات مدينة عسقلان ، القاعدة الفاطمية الهامة تمهيدا لشن حملة كبيرة عليها فيما بعد . ذلك أن بلدوين أدرك بثاقب بصره أن بقاء عسقلان جنوب القدس يعتبر شوكة فى حلق مملكة بيت المقدس اللاتينية الناشئة باعتبارها قاعدة ومنطلقا للحملات الفاطمية والأسطول الفاطمى فيما بعد على مملكة بيت المقدس اللاتينية وسواحلها[٢٣٢] .

ورغم الانتصارات السريعة التى حققها الفرنج أيام جودفرى دى بويون وانتصارهم على دقاق صاحب دمشق فى موقعة نهر الكلب بجانب الغارات التى شنها بيلدوين وأثارته الذعر فى المناطق

---

(٢٢٨) ان وصف فوشيه عن وصف البحر الميت كانت وصفا مشوقا للغاية لأسباب منها أنه شاهد عيان ، بالإضافة لدقته الشديدة فى وصف تلك المناطق رغم أنه استخدم كتاب المؤرخ اليهودى يوسيفوس فى وصف الأماكن المذكورة كما أن هذه الرواية أوضحت لنا نشاط بلدوين السريع بعد وتوجه لبيت المقدس . راجع :

Fulcher of chartres, The expedition, p. 146; Albert of D'Aix, Historia, in R.H.C., p.p. 533-536.

(٢٢٩) Fulcher of chartres, the expedition, p. 147.

(٢٣٠) Stevenson, The crusaders in the East, p. 44.

(٢٣١) Flucher of chartres, the expedition, p. 147; William of tyre, vol. I, p. 427;

وأعترفت المراجع الفرنجية الحديثة أيضا بفشل تلك الحملة على عسقلان بما هو معروف عن بلدوين من تهور وانقطاع وعدم تقدير لقوة خصمه الذى يواجهه .

(٢٣٢) راجع ما كتب بالتفصيل عن ذلك فى الفصل الأخير من الدراسة .

الواقعة شرق مدينة بيت المقدس ( عبر نهر الأردن ) وجنوبها ( عند البحر الميت وشرق عسقلان ) فقد حققت للفرنج نوعا من المهابة فى نظر القوى الإسلامية المجاورة فى وقت وقف فيه الفاطميين وعلى رأسهم الوزير الأفضل دون أن يحركوا ساكنا أمام نشاط بلدوين الأول وتحركاته السريعة فى المناطق المحيطة من أملاكه والقريبة من حدود مصر الشرقية إلا أن بلدوين — بعد تتويجه ملكا على القدس — وضع أمامه هدفا رئيسيا وسياسة جديدة تتمثل فى استكمال خطة أخيه السابقة والخاصة بغزو مدن وموانىء الساحلين الفلسطيني واللبناني المواجهة لمملكته وهي من الأهمية الجغرافية والاستراتيجية بمكان لدورها فى تأمين طريق الحج من ناحية وتنشيط حركة التجارة والإتصال بالغرب الأوروبى من ناحية أخرى(٢٣٣) .

فطالما كانت تلك المدن والموانىء فى أيدى امرائها المسلمين الخاضعين للخلافة الفاطمية بالقاهرة ويعتمدون على تأييدها وعونها فى مواجهة أية أخطار خارجية ، وطالما كان بالإمكان إستخدام هذه المدن والموانىء الفاطمية كقواعد للعمليات العسكرية الهجومية برا وبحرا للجيش والأساطيل الفاطمية فإن ذلك يمثل تهديدا للاتصال مع أوروبا وعلى التجارة الخارجية للإمارات الصليبية الداخلية . ولهذا كان ضم هذه المدن الساحلية وإخضاعها للسيطرة الفرنجية أمرا ضروريا لدى بلدوين الأول(٢٣٤) . ولما كانت هذه المدن كما ذكرنا آنفا ، تابعة للخلافة الفاطمية فإن بلدوين بدأ حكمه فى بيت المقدس بالاحتكاك المباشر مع الجيوش والأساطيل الفاطمية ووزيرها الأفضل بن بدر الجمالى .

وكان بلدوين يعلم أن أخاه جودفرى حاول قبله إتباع هذه السياسة إلا أنه أخفق بسبب التنافس بينه وبين الكونت ريموند الصنجيلى وافتقاره إلى الأساطيل البحرية بجانب المقاومة العنيدة التى أظهرتها حاميات المدن الساحلية(٢٣٥) وجهود الأفضل بن بدر الجمالى لإنقاذ تلك المدن بإرسال النجدات السريعة عن طريق الأسطول الفاطمى .

وقد أدرك بلدوين أن نجاح تلك السياسة يتطلب العون البحرى من أساطيل مدن إيطاليا ، وبخاصة جنوه وبيزا والبندقية وهى القوى التى كانت تتطلع فى نفس الوقت لاستئصال شأفة الأسطول الفاطمى والقضاء على سيادته شرق حوض البحر المتوسط لتحويله إلى بحيرة إيطالية ومنافسة الدولة البيزنطية فى مياه هذا البحر(٢٣٦) .

---

(٢٣٣) Gibb, H., The caliphate and the Arab states, in setton (ed.,) vol. I, p. 96.

(٢٣٤) Fulcher of chartres, The expedition, p.p. 152-153.

(٢٣٥) Fulcher of chartres, Ibid, p. 153; William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 409-410, p. 434; cf also: Zoé oldenburg, op. cit., p. 170.

(٢٣٦) Caffaro genuensis, De liberation civitatum orientis, R.H.C., Hist. occ., vol. V, p.p. 58-59 chap. XV.

ويذكر مؤرخ حوليات جنوه كافارو المرافق للأسطول الجنوى أن عدد سفن هذا الأسطول كانت تصل إلى ثمانية وعشرون سفينة شراعية كبيرة منها أربعة أو ستة سفن شحن للبضائع والسلع الأخرى . راجع : =

ولحسن حظ بلدوين فقد وصل أسطول جنوى ضخم رسا فى ميناء يافا الصليبى فى الربيع ١٤ جمادى الثانية ٤٩٤ هـ / منتصف إبريل ١١٠١ م بقيادة أحد أفراد أسرة امبرياتشو الشهيرة وهو هيوامبرياتشو «Hugh Embriaco» وكان بصحبة الكاردينال موريس أسقف بورتو «Mourice of le Porteau» ، مندوبا عن باسكال بابا روما . وقد انتهز بلدوين فرصة مجيء الأسطول الجنوى وفكر فى عقد تحالف مع قادته باعتباره أكبر وأقوى أساطيل مدن إيطاليا وأكبر منافس للبيازنة فذهب ليافا لمقابلتهم والتفاوض معهم ومن هناك أصطحبهم معه إلى بيت المقدس فى ١٥ جمادى الثانية ٤٩٤ هـ / ١٨ أبريل ١١٠١ م حيث احتفلوا جميعا بإحياء عيد القيامة(٢٣٧) .

وفى بيت المقدس جرت المفاوضات بين الجانبين حول الثمن الذى يرتضيه الجنوية مقابل تقديم العون البحرى لبلدوين فى تحقيق أغراضه ، وتم الإتفاق على أن يقدم الجنوية مساعدتهم البحرية مدة فصل من السنة مقابل عدة امتيازات تمنح لهم فى كل مدينة مفتوحة ومنها الحصول على ثلث غنائم المدينة من المنقولات بما فيها العبيد والأموال ، أما الثلثين الآخرين فيؤولان إلى بلدوين فضلاً على أن يكون لهم شارع من شوارع السوق فى كل مدينة تسقط بأيديهم لممارسة نشاطهم التجارى فيه(٢٣٨) .

ويذكر المؤرخ كافارو الجنوى أن من بين شروط الأتفاق أيضا أن يكافىء كل المشتركين من رجال الأسطول الجنوى البالغ عددهم ثمانية آلاف رجل والمشاركين فى الحملة طبقا لمناصبهم ورتبهم فى الأسطول وأن يتلقى كل بحار جنوى ثمانية وأربعين سوليدى أوف بواتو «Solidi of Poitou» ورطلين من البقول بالإضافة لعدم خضوعهم لقوانين المدينة التى يساعدون فى إسقاطها بل يتم محاكمتهم طبقا للقوانين الجنوية(٢٣٩) .

---

= Caffaro, De Liberatione, R.H.C., hist. occ. vol. V, p. 58.

ويذكر كافارو أن هذه السفن تركت جنوة فى أغسطس عام ١١٠٠ م وقضت الشتاء فى ميناء اللاذقية وغادرته فى مارس ١١٠١ م ووصلت يافا فى أواسط إبريل عام ١١٠١ م . راجع :

Caffaro, De Liberatione, R.H.C., hist. occ. vol. p. 58. Fluchet of chartres, the expedition, p. 151; William of tyre, deeds, vol. I, p. 434.

(٢٣٧) Caffaro, De Liberatione, R.H.C., hist. occ. vol. V, p. 60; Fulcher of charter, the expedition, p. 151; Roger of wendover, Flowers, vol. I. p. 455.

(٢٣٨) Caffaro, De Liberatione, R.H.C., hist. occ. vol. V. p. 62; Fulcher of Chartres, the expedition, p. 152; William of tyre, deeds, vol. I, p. 434.

ويذكر المؤرخ كوندر أن هذه المعاهدة كتبت بحروف من ذهب وحفظت فى كنيسة القبر المقدس حيث جددت فيما بعد ثلاث مرات أخرى على يد الملوك الذين خلفوا بلدوين . راجع :

Conder, the latin kingdom, p. 83.

ويلاحظ أن المؤرخ الإسلامى الوحيد الذى أشار لهذا الإتفاق بين الجنوية والصليبيين هو المؤرخ المجهول : تاريخ سلاطين المماليك نشر زترشتين ، ط . ليدن ١٩١٩ ، ص ٢٢٨ .

(٢٣٩) Caffaro, De liberatione, R.H.C., hist. occ. vol. p. 83.

ويذكر المؤرخ كنغر معتمدا على مصدر صليبى أن الجنوية منحوا ضمن امتيازاتهم ميدانا فى بيت المقدس مخصص لكنيسة =

وأختار بلدوين أن يبدأ بمهاجمة أرسوف الميناء الفاطمي والذى لم يستطع الفرنج أيام جودفرى إسقاطه من قبل لافتقارهم إلى العون البحرى وكان هذا الميناء ذا أهمية كبيرة لدى الفرنج إذ يقع فى نطاق من الأراضى الخصبة بالإضافة لأراضى غابية ورعوية صالحة للرعى كانت تحيط بها(٢٤٠)

وسرعان ما تحرك الحلفاء لمنازلة أرسوف التى حوصرت برا وبحرا فى ٢٢ جمادى الآخرة ٤٩٤ هـ / ٢٥ أبريل ١١٠١ م(٢٤١) ، واستمر حصارها ثلاثة أيام كاملة . ورغم أن الحامية الفاطمية المدافعة عن المدينة أبدت مقاومة عنيفة لدرجة أنها أحرقت أحد أبراج الفرنج وأسرت العديد من الجند الفرنج(٢٤٢) ، إلا أن عنف الهجوم الفرنجى وعدم إرسال الأفضل نجدة عاجلة للمدينة ، وعدم وجود عون بحرى فاطمى(٢٤٣) أدى إلى تداعى مقاومة المدينة وحاميتها فعرضت الاستسلام بشرط أن يبذل الأمان لسكان المدينة للخروج بأسرهم وأمتعتهم إلى عسقلان . فقبل بلدوين شروطهم وتولت قواته حراستهم حتى عسقلان وتسلم المدينة بالأمان فى ٢٥ جمادى الآخرة ٤٩٤ هـ / ٢٩ أبريل ١١٠١ م(٢٤٤) .

وبعد أن ترك بلدوين حامية فرنجية بأرسوف وأفرد للجنويين نصيبهم بالمدينة(٢٤٥) ، اتجه برا بمواكبه الأسطول الجنوى فى البحر قاصدا قيسارية(٢٤٦) ، وبدأ فى حصارها فى أول رجب

---

= سانت لورنس الجنوية وشارعا فى يافا ، ثلث قيسارية وعكا عند إسقاطها . راجع :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 434.

(٢٤٠) William of tyre, deeds, vol. I, p. 434.

(٢٤١) أنظر مناقشة الأستاذ ستيفنسون لآراء المؤرخين حول تاريخ حصار مدينة أرسوف الفاطمية . راجع :

Stevenson, The crusaders in the East, p. 44, F. 2.

(٢٤٢) Fulcher of chartres, the expedition, p. 153.

(٢٤٣) إن المصادر التى لدينا لم توضح الظروف أو المبررات إزاء سلبية الوزير الأفضل فى نجدة أرسوف .

(٢٤٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٢١ . ويذكر ياقوت الحموى أنها فتحت أيام كندفرى ( جودفرى ) . وربما التبس على ياقوت الحموى الأمر بين حصارها الأول أيام جودفرى ثم سقوطها أيام بلدوين . راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ١ مجلد ٢ ، ص ٢٠٧ .

وتفاصيل حصار المدينة استقيناها من المصادر الفرنجية التى اعترفت بقوة دفاع المدينة عن نفسها . راجع :

Fulcher of chartres, the expedition, p. 152; William of tyre, vol. I, p. 435; Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV. p.p. 451-463.

(٢٤٥) Fulcher of chartres, the expedition, p. 153.

(٢٤٦) قيسارية : من أعمال فلسطين الساحلية بينها وبين طبرية مسيرة ثلاثة أيام وبينها وبين عكا حوالى واحد وعشرين ميلا . ويذكر ياقوت أنها من أعيان أمهات المدن ، واسعة الرقعة ، طيبة الهواء ، كثيرة الجند والأهل . فتحها معاوية ابن أبى سفيان فى خلافة عمر بن الخطاب ، فكانت آخر مدينة فتحها العرب على الساحل الفلسطينى . ويقال أنها سميت قيسارية لأنها أحدثت قسرا . راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ط . ليبزج ١٨٦٦ م ، ج ٤ ص ٢١٤ . وامتدح الرحالة والجغرافيون العرب قيسارية وأشادوا بحسن موقعها ووفرة خصبها ومناعة سورها وقلعتها الحصينة وعيونها المائية الجارية ومسجدها الجامع القريب من شاطىء البحر . راجع ناصر خسرو : سفرنامة ص ٦٨ ؛ الادريسى : نزهة المشتاق ، ط . رومية ١٥٩٢ م ، ص ١١٤ القرمانى : أخبار الدول ، ط . بغداد ١٢٨٢ هـ ، ص ٤٧٢ ؛ المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٧٤ . وتذكر المصادر الفرنجية أنها كانت تسمى برج ستراتون eStraton towers ، وأن الذى بناها هيرود أجريبا وزينها بالمواقع الجميلة وسماها قيسارية تخليدا لذكرى الامبراطور أغسطس وكانت عاصمة فلسطين الثانية فى عصر الامبراطورية الرومانية . راجع :

William of tyre, deeds, p. 435.

٤٩١ هـ / ٢ مايو ١١٠١ م وكانت قيسارية تابعة للدولة الفاطمية .

على أن حامية المدينة الفاطمية رفضت التسليم بسهولة للفرنج معتمدة على ما بالمدينة من أسوار قوية حصينة كان البيزنطيين قد أقاموها فى الماضى(٢٤٧) . وسرعان ما نصب الفرنج المجانيق التى جلبوها معهم لتدمير أسوار المدينة واحداث ثغرات ينفذون منها للداخل . كما صنعوا برج خشبى ضخم من مجاديف وصوارى سفن الجنوية(٢٤٨) وذلك لاحتلال الأسوار تحت حماية الضربات المكثفة لأحجار المجانيق .

وقام قتال عنيف بين المحصورين والحاصرين وأعترفت المصادر الفرنجية بقوة مقاومة دفاع الحامية الفاطمية(٢٤٩) ولهذا استمر حصار وهجمات الفرنج للمدينة ما يقرب من اسبوعين لأسقاطها بلا جدوى ، رغم نجاح مجانيق الفرنج فى هدم الدفاعات العلوية لأسوار المدينة وأحداث ثغرات كبيرة بها(٢٥٠) ولكن سكان المدينة الذين كانوا يعتمدون على تأييد الوزير الفاطمى الأفضل بن بدر الجمالى فى ارسال نجدة سريعة لانقاذهم سرعان ما دب اليأس فيهم ، خاصة وأن النجدة الفاطمية المتوقعة لم تصل ولم ترد فى المصادر الاسلامية ذكر عن سبب تقاعس الوزير الأفضل ازاء هذا الأمر وقد فترت مقاومة سكان قيسارية ولم يصمدوا طويلا أمام هجمات الصليبيين الذين استغلوا ضعف مقاومة سكان المدينة ، فقام الفرنج والجنوية فى يوم الجمعة وهو اليوم الخامس عشر للحصار بشن هجومهم الأخير عليها ، وكان هجوما عنيفا .

وكما حدث فى حصار القدس ، حدث فى قيسارية ، فتمكن المهاجمون من أحتلال أسوار المدينة العليا بواسطة سلالم التسلق وأستولوا على أبراج وتحصينات المدينة وفتحوا بواباتها أمام رفاقهم ، فدخلها بلدوين مع قواته وقاموا باجتياح المدينة والقضاء على المقاومة فيها ، وقتل كل من وجدوه بسيوفهم وبذلك سقطت قيسارية بصعوبة بالغة بعد حصار خمسة عشر يوما فى ١٦ رجب ٤٩٤ هـ / ١٧ مايو ١١٠١ م(٢٥١) .

---

(٢٤٧) أعترف المؤرخ فوشيه شارتر بقوة أسوار المدينة وأنه لم يكن من السهل إسقاطها . راجع :
**Fulcher of chartres, the expedition, p. 153.**

(٢٤٨) ويلاحظ هنا ما فعله الجنوية فى حصار القدس عندما صنعوا أبراج الحصار وسلالم التسلق من مجاديف وصوارى سفنهم .

(٢٤٩) **Fulcher of chartres, the expedition, p.p. 153-254; William of tyre, deeds, vol. I, p. 436.**

(٢٥٠) **Fulcher of chartres, Expedition, p. 153.**

(٢٥١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٩ . وأشار لدور الجنوية فى إسقاط المدينة ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٢١ . راجع تفاصيل الحصار من المصادر الصليبية مثل :
**Fulcher of chartres, the expedition, p.p. 153-155; Albert of D'Aix, R.H.C., hist. occ., vol. IV, p.p. 543-544; William of tyre, deeds, vol. I, p. 436.**
وقد أشار أيضا لدور الجنوية وأتفاقهم مع الفرنج لاسقاط المدينة مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٢٨ . ويلاحظ أن رواية فوشيه شارتر عن حصار وسقوط مدن وموانى الساحل الشامى الفاطمية على طول الساحل إبتداء من قيسارية وأرسوف كانت غير مترابطة ومتناثرة فى تسعة فصول من كتابه إلا أنها تمثل أهم سلسلة الأحداث التى عثر عليها فى القسم الثانى من هذا الكتاب .

ويبدو أن المقاومة العنيفة التى أبداها سكان مدينة قيسارية الفاطمية أمام الفرنج أعادت لأذهانهم ذكرى مقاومة سكان وحامية مدينة بيت المقدس منذ حوالى سنتين مما جعلهم يفجرون جام غضبهم على سكان المدينة ، فما كادوا يقتحمونها حتى جرى الأذن للجند المنتصرة ومعهم الجنوية ، بنهب وسلب المدينة كيفما شاءوا وصحب النهب والسلب من الأهوال ما أرتاع له قادة الفرنج أنفسهم ، أذ أحدث الصليبيون ويعاونهم الجنوية مذبحة مروعة داخل المدينة فقتلوا الكثير من الأبرياء وتعقبوهم ، فى الطرقات والشوارع ، واقتحموا عليهم منازلهم[٢٥١] ، وقتلوا العزل من الأطفال والنساء والشيوخ ، وبلغ من قسوة الفرنج ووحشيتهم أنه عندما أحتمى أهل قيسارية بالمسجد الجامع وأقسموا الرحمة من الغزاة أقتحموا عليهم المسجد وأحدثوا بهم مذبحة عنيفة ، دون تفريق بين جنس أو عنصر ، حتى تحول الجامع إلى بحيرة كبيرة من دماء قتلى المسلمين أثارت اشمئزاز المؤرخين الصليبيين أنفسهم[٢٥٣] ، فيذكر وليم الصورى أنه بلغ من كثرة القتلى أن « أقدام المهاجمين كانت تخوض فى دماء القتلى كما أن المنظر الرهيب لحشد الجثث قد أثار فزع الغزاة أنفسهم[٢٥٤] .

والغريب أن المؤرخ فوشيه شارتر لا يخفى تعصبه بل يتفاخر بما فعله الصليبيون فى قيسارية فيذكر أن المسلمين « قد لقوا مصيرهم الذى يستحقونه[٢٥٥] . ولم يكتف الفرنج بذلك ، بل قاموا بوضع أجساد الضحايا فى كومة وبقروا بطونها وأحرقوها لاسترداد الأموال والحلى التى ابتلعوها عند تعقب الفرنج لهم[٢٥٦] ، ولم ينج من تلك المذبحة الا عدداً قليل من الفتيات والأطفال ، وقاضى قضاة المدينة ، وقائد الحامية فأبقى بلدوين على حياتهما وكما يذكر فوشيه شارتر بصراحة كاملة ليحصل سيده على فدية كبيرة منهما[٢٥٧] .

وقد حاول بعض المؤرخين الحديثين أن يبرر ما ارتكبه الفرنج من مذابح بقيسارية بقولهم أن ما فعله الفرنج لم يكن نتيجة للتعصب الدينى أو التعطش للنهب والسلب وانما كانت تلك القسوة والشدة عن عمد وقد هدف منها بلدوين ورفاقه أن يظهروا أنهم يحفظون عهد من يسالمهم ولا يرحمون من يقاومهم ، بجانب هدفهم فى القاء الرعب والذعر فى قلوب حاميات وسكان المدن الساحلية الأخرى مثل عكا وعسقلان التى فرا اليها بعض مسلمى قيسارية الناجين من المذبحة[٢٥٨] .

---

(٢٥٢) William of tyre, deeds, vol. I, p. 43116.

(٢٥٣) Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 434; William of tyre, deeds, vol. I, p. 436.

(٢٥٤) William of tyre, deeds, p. 437; Roger of wendover, Flowers, vol. I, p. 455.

(٢٥٥) Fulcher of chartres, the expedition, p. 154.

(٢٥٦) Fulcher of chartres, Ibid, p. 155; William of tyre, deeds, vol. I, p. 437.

(٢٥٧) Fulcher of chartres, Ibid, p. 154; Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 454.

(٢٥٨) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص ١٢١ .

Zoé oldenburg, crusades, p. 170; Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 278.

واتهم المؤرخ الفرنسى ميشو صراحة الجنويين بأنهم كانوا السبب الرئيسى وراء مذبحة قيسارية يدفعهم فى ذلك حب التعطش للنهب والسلب . راجع :

Michaud, Crusades, vol. I. p. 284.

وهذه الآراء تدل على نظرة ضيقة وتعصب من جانب مؤرخي الغرب فلا مبرر فى رأينا لما ارتكبه الصليبيون فى قيسارية من مذبحة مخيفة اذ أن مذبحة المدينة كانت بمثابة وصمة عار أخرى تضاف لسجل الصليبيين فى تاريخهم ، كما أنها دلت على الروح الحقيقية للحركة الصليبية ، والتي لطخت انتصارات الغزاة بما أرتكبوه من أعمال وحشية مخيفة .

وكيفما كان الأمر ، فبعد أن أنتهت نوبة القتل المحمومة واطمأن الفرنج لسقوط المدينة ، أعقب ذلك توزيع الغنائم والأسلاب طبقا للاتفاقية مع الجنوية[١٥٩] .

---

(١٥٩) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٢٨ ، كذلك :

Fulcher of chartres, the expedition, p. 154; William of tyre, deeds, p. 437.

وقد أشاد المؤرخ الجنوى كافارو الكاسكلاوى بثراء هذا الميناء العربى فيذكر أنه بعد توزيع الغنائم والأموال على قادة الأسطول الجنوى وكبار رجال الأسطول تبقت أموال وغنائم كثيرة لتوزيعها على بحارة الأسطول البالغ عددهم ثمانية آلاف رجل . راجع :

Caffaro, R.H.C., Hist. occ., vol. V, p. 65.

ويذكر وليم أنه كان ضمن غنائم الجنوية بالمدينة آنية على شكل كأس مصنوع من الزمرد الأخضر الصلب يقال أنه الكأس المقدسة «Holy grail» التي شرب منها المسيح فى العشاء الأخير وقد أخذها الجنوية ووضعوها فى كنيسة القديس سانت لورنس فى جنوه ، راجع :

William of tyre, deeds, vol. I, p. 437.

أنظر مناقشة المؤرخين الحديثين حول تلك الآنية :

Michaud, The History of the crusades, p. 278; Conder, the latin kingdom, p. 83; Heyd, commerce de levant, to. I, p. 137.

# الفصـــل الرابــع

## حملات الأفضل على الشام وجهوده لإجلاء الفرنج عنها

### ( ٤٩٤ ــ ٤٩٨ هـ / ١١٠٢ ــ ١١٠٥ م )

﴿ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ ( التوبة : ٨٢ )

# الفصـل الرابـع

لم يكد بلدوين الأول ملك بيت المقدس الصليبى ينتهى من تقسيم الغنائم والأسلاب طبقا لإتفاقه مع الجنوية فى قيسارية ، ومن إقامة حامية قوية بها ، حتى جاءته الأنباء بأن جيشا فاطميا ضخما قد وصل إلى فلسطين[1] . ذلك أن الوزير الأفضل شاهنشاه عزم على أن يثأر مما أصابه فى معركة عسقلان التى وقعت منذ عامين مضت ، فأعد حملة برية ضخمة بقيادة مملوكه سعد الدولة القواسى ، الذى كان واليا على بيروت من قبل[2] .

وفى أول شعبان ( عام ٤٩٤ هـ / أول يونيو ١١٠١ م )[3] خرج الجيش الفاطمى الضخم والذى بالغت المصادر الفرنجية فى تقدير عدده الصحيح[4] متجها نحو فلسطين ، يواكبه الأسطول الفاطمى فى البحر لتقديم العون للحملة البرية ، التى سرعان ما وصلت عسقلان فى أول رمضان عام ٤٩٤ هـ / أول يوليو ١١٠١ م ، وكانت عسقلان أقوى القواعد الفاطمية المتقدمة فى فلسطين ، وقاعدة متقدمة للأساطيل الفاطمية ، والتى صارت منذ كارثة عسقلان الكبرى بمثابة معبرا ومركزا لإنطلاق الحملات الفاطمية ضد الفرنج بالشام ، وهناك أقامت الحملة الفاطمية منتظرة وصول إمدادات جديدة من القاهرة ومجيىء الأسطول فى البحر[5] .

وسرعان ما وصلت الأنباء إلى بلدوين الأول بأن الجيش الفاطمى بقيادة سعد الدولة القواسى قد وصل إلى عسقلان وأن الجيش الإسلامى لم يقصد مجرد القيام بغارة محلية ثم الارتداد إلى قاعدته العسكرية بعسقلان ، بل كان هدفه هو الوصول إلى بيت المقدس ذاتها وتأمين الدفاع عن المدن الساحلية الفاطمية ولهذا هرع الملك بلدوين إلى تحصين المناطق والأقاليم المحيطة بالقدس وتقوية وتحصينات أسوار مدينة الرملة ، كما أقام معسكرا فى يافا لمراقبة تحركات الجيش الفاطمى

(١) Fulcher of chartres, the expedition, p. 155; Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 550.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٤٩ .

(٣) اختلفت المصادر الإسلامية فيما بينها فى تحديد تاريخ تلك الحملة الفاطمية فيضعها ابن الأثير ضمن حوادث ٤٩٦ هـ . راجع ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٤٩ . ويذكرها أبو المحاسن ضمن حوادث ٤٩٣ هـ . راجع النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٢ . واعتمدنا هنا على آراء المصادر المتقدمة مثل العظيمى : تاريخ العظيمى ص ٣٧٤ ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٤ ؛ مؤرخ مجهول : البستان الجامع ، ص ١١٥ .

(٤) Fulcher of chartres, the expedition, p. 156; Albert of D'Aix R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 549.
ولم تحدد المصادر الإسلامية معظمها العدد الحقيقى للجيش الفاطمى ، فيذكر ابن القلانسى وابن ميسر أن الأفضل أخرج عسكرا كثيفا للقاء الإفرنج مع الأمير سعد الدولة القواسى . راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٠ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤٠ .

(٥) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٢٢ ، كذلك :
Stevenson, the crusaders in the East, p. 45.

ويكون على إتصال بسفن البحرية الإيطالية لتقديم العون البحرى له . وقد ظل بلدوين قابعا فى يافا طوال الصيف ، لم يغادرها سوى لفترة قصيرة فى يوليو ، زار خلالها القدس لأغراض إدارية ثم عاد بعدها إلى يافا معسكرا هناك حتى نهاية أغسطس ، إنتظارا لوصول الجند والمدد من إنطاكية والرها والجليل والإمارات الأخرى[٦] .

ويبدو أن التاريخ يكرر نفسه ، إذ أن الخطأ الذى أرتكبه الأفضل بن بدر الجمالى فى عسقلان من قبل وقع فيه قائده سعد الدولة القواس ، فبدلا من أن يبادر الجيش الفرنجى بالهجوم ويأخذ زمام المبادرة ، أضاع الكثير من الوقت فى عسقلان ، إنتظارا لوصول الأسطول الفاطمى ، والإمدادات من القاهرة ، وذلك فى الفترة من شهر رمضان إلى مطلع ذى الحجة ( حوالى ثلاثة أشهر ) عام ٤٩٤ هـ / أول يوليو إلى مطلع سبتمبر ١١٠١ م[٧] ، مضيعا بذلك فرصة ثمينة لمباغته بلدوين ، وأتاح الفرصة الكافية لغريمه فى الإستعداد وجمع القوات الفرنجية ووضع الخطط لمواجهة الحملة الفاطمية[٨] .

وفى ذى الحجة ٤٩٤ هـ / سبتمبر ١١٠١ م ، تحرك سعد الدولة القواس بقواته فى بطء بعد أن وصلته الإمدادات فبلغ أطراف الرملة[٩] ليقوم بتهديد يافا والقدس معا . وعندما علم بلدوين بوصول إمدادات جديدة للقوات الفاطمية واستعدادهم للسير إلى القدس ، وتحرك جيش سعد الدولة ، عقد مع قادة الفرنج مجلسا حربيا ، تقرر فيه أن يبدأ الفرنج بمهاجمة الفاطميين فورا عند بزوغ الفجر بدلا من إنتظار الهجوم الفاطمى[١٠] .

ولم ينتظر بلدوين قدوم بقية الجند أو المدد من أتباعه وأنصاره ، بل فضل مهاجمة الجيش الفاطمى بما لديه من قوات ضئيلة ، ولهذا لم يخف المؤرخ فوشيه شارتر الصليبى[١١] ، شاهد عيان هذه الموقعة ، خوفه من خطورة تلك المعركة المترتبة على مصير الفرنج رغم محاولته إظهار قوة وشجاعة سيده بلدوين لمواجهة الفواطم .

---

(٦) Fulcher of chartres, the expedition, p. 156.
ويذكر أن فترة مراقبة الجيش الفاطمى استمرت سبعين يوما ( من ١٧ يونيو إلى ٢٥ أغسطس ١١٠١ م ) . أيضا :
Albert of D'Aix, R.H.C. Hist. occ., vol. IV, p. 550.

(٧) أختلفت آراء المؤرخين العرب على خروج الجيش الفاطمى من مصر عقب سقوط أرسوف وقيسارية بقليل ، فيذكر ابن القلانسى أنه وصل إلى عسقلان فى أول رمضان ٤٩٤ هـ / يوليو ١١٠١ م ، وأقام هناك إلى ذى الحجة من نفس العام ، ثم تحرك لمقابلة الجيش الفرنجى . راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٠ . ويتفق ابن ميسر مع ابن القلانسى فى توقيت وصول الجيش الفاطمى إلى عسقلان ، ولكنه ذكر أن خروجه من مصر كان فى شعبان ٤٩٤ هـ / يونيو ١١٠١ م . راجع ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤٠ .

(٨) Zoé oldenburg, op. cit, p. 170; Stevenson, the crusaders, p.p. 44-45.

(٩) أنظر خريطة توضح موقعة الرملة الأولى التى حدثت بين الفريقين خريطة رقم (٢) .

(١٠) Fulcher of chartres, the expedition, p. 157.

(١١) Fulcher of chartres, Ibid, p. 157.

والمرجح أن بلدوين أدرك خطورة وحرج موقفه وخطر المسئولية الملقاة على عاتقه إذا كانت قوة جيشه محدودة لا تتجاوز مائتين وستين فارسا وتسعمائة من المشاة وهى قوة صغيرة ، إذ قورنت بالجيش الفاطمى الكبير المكون من الجند العرب والسودان[١٢] ، ولهذا أخذ بلدوين يشجع جنوده ويذكرهم بأنهم إذا استشهدوا فإنما سيلحقون بالقديسيين والشهداء ، وإذا انتصروا فسيكونون قد أدوا خدمة عظيمة لمجد يسوع المسيح وكنيسته[١٣] .

ولم يكتف بلدوين بذلك فقام بتقسيم جيشه الصغير ، كما يذكر فوشيه شارتر طبقا لقواعد الفن العسكرى وذلك إلى ستة أقسام كل قسم يتكون من الجند الفرسان والمشاة[١٤] على نمط ما فعله أخيه جودفرى من قبل فى عسقلان أمام الأفضل . وقام بلدوين بنفسه بقيادة القسمين الآخرين من الجيش وهدف من هذا التنظيم مواجهة الجيش الفاطمى القوى وشن موجات متتالية من الهجمات المضادة[١٥] .

أما بالنسبة للجيش الفاطمى فيفهم من رواية المصادر الإسلامية أنه كان ينقسم إلى ميمنة وميسرة وقلب ، وكان يقوده سعد الدولة القواسى[١٦] . وهدف الجيش الفاطمى من هذا التنظيم القيام بعملية تطويق والتفاف حول الجيش الصليبى أثناء المعركة المرتقبة[١٧] .

وكيفما كان الأمر ، فقد تقدم الجيش الصليبى ، حاملا معه الصليب المقدس ، وعلى رأسه بلدوين ورجال الدين[١٨] ، ومع مطلع فجر ذو الحجة ٤٩٤ هـ / سبتمبر ١١٠١ م إلتقى الجيشان الفاطمى والصليبى قرب يبنه ( ابلين ) « Ibelin » ، الواقعة فى السهل الجنوبى الغربى

---

(١٢) Fulcher of chartres, the expedition, Albert of Aix, R.H.C., Hist. occ. vol. IV, p. 550.

ويلاحظ أن وجهتى نظر فوشيه والبرت دآكس حول قوة الجيش الصليبى كانت معتدلة وأغفلت المصادر الإسلامية نفسها حول عدد الجيش الفرنجى فيقدره ابن القلانسى بألف فارس وعشرة آلاف راجل . راجع : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٠ . راجع آراء المؤرخين الحديثين مثل :

Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 279; Stevenson, the crusaders in the East, p.p. 44-45; F. 4; Zoé oldenburg, op. cit., p. 170; Oman, Art of war, vol. I, p. 295.

(١٣) أنظر نص الخطبة فى فوشيه .

Fulcher of chartres, the expedition, p. 157.

(١٤) Fulcher of chartres, the expedition, p.p. 157-158,

ولمن لا تؤيد رواية البرت دآكس عن تنظيم قوات الجيش الفاطمى باعتباره لم يكن موجودا أو شاهد عيان للموقعة مثل فوشيه . وتذكر رواية البرت أن بلدوين قسم قواته إلى خمسة أقسام تولى قيادة القسم الأول فارس يدعى برتولد ، والثانى بقيادة جالدينار كاربتين سيد يافا ، وتولى قيادة القسم الثالث جيو أوف سانت أومر ، خليفة تانكريد فى إمارة الجليل ، فى حين قاد بلدوين القسمين الرابع والخامس . راجع :

Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 552.

(١٥) Zoé oldemburg, The Crusades, p. 170.

(١٦) ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ص ٤٠ ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٠ .

(١٧) Oman, Art of war, vol. I, p. 292.

(١٨) Fulcher of chartres, the expedition, p. 157.

من الرملة . وقامت طليعة الجيش الفرنجي بشن هجوما عنيفا على القوات الفاطمية ، وصفه فوشيه شارتر ، كشاهد عيان وقتذاك : « بالصياد الذى يطلق سهامه على حشد من الطيور »[١٩] ، ولكن هذا الهجوم الفرنجي فى بداية المعركة على هذا الحشد من الجند الفاطميين كان يتميز بالتهور والإندفاع الطائش المحاط بأخطار محتملة الحدوث[٢٠] . إذ تمكن الجيش الفاطمى من صد تلك الهجمة بقوة وقام على أثرها بتطويق الجيش الفرنجي من اليمين واليسار ، ثم شن موجات متتالية من الهجوم تمكن فيها من تشتيت وسحق الخط الأمامي للجيش الصليبي ، وكان يتكون من كتيبتين من الفرسان وجنود الوالون بقيادة برتولد ، جالديمار كاربنيل سيد يافا ، والذين لقوا مصرعهما فى المعركة . كما أن هجوم قوات الجليل بقيادة هيوفا لكنبرج أوف سانت أومير ، لم يكن لها أثر فى الحشود الفاطمية التى استطاعت سحق هذا الهجوم وتشتيت شملها أيضا ، باعتراف المصادر الصليبية نفسها[٢١] ، والتى ذكرت أنه بلغ من عنف الهجوم الفاطمى أن هيوفا لكنبرج سيد أومير وقائد كتائب الجليل ترك رجاله لمصيرهم ، وفر بقليل من الجند إلى يافا بعد أن منى بخسائر جسيمة وطاردته ميسرة الجيش الفاطمى[٢٢] . وبذلك تحقق النصر للفاطميين فى بداية موقعة الرملة الأولى .

على أن الملك بلدوين الأول بعد أن اعترف على الملأ بذنوبه أمام الصليب المقدس ، وخطب فى رجاله أمتطى فرسه وقام بشن هجوم يائس بما بقى معه من فرسان ومشاة على أقوى جزء بالجيش الفاطمى وقام قتال مرير بين ألفريقين قتل فيه الكثير من الجانبين ، وقد عبر فوشيه أوف شارتر تعبيرا دقيقا عن سير المعركة ، فيذكر أنه خلال الهجوم الأخير للصليبيين فى المعركة : « كنت تستطيع رؤية الخيول بلا راكبها من الفرسان فى كل من الجانبين ، وأن الأرض غطيت بكثافة بالتروس والدروع والخناجر وجعاب السهام مع الجند العبيد ( السودان ) والعرب ، أما قتلى أو جرحى بجروح مميتة ، مختلطين مع الفرنج القتلى »[٢٣] ، بل أن فوشيه الذى كان يبتهج فى رواياته عن مذابح المسلمين ، أصيب بالفزع والخوف بسبب القتال الدامي بين الفريقين[٢٤] .

---

(١٩) Fulcher of chartres, Expedition, p. 158, note 10.

(١٠) Oman, Art of war, vol. I, p. 293.

(٢١) Fulcher ochartres, the expedition, p. 158.

ويذكر فوشيه شارتر أن الفواطم استطاعوا صد الهجوم الصليبي فى قوة وتمكنوا من سحق سريتى الخيالة الفرنج التى تكون طليعة الجيش الصليبي . ويذكر ألبرت داكس أن أربعة سرايا من الجيش الفرنجي قد سحقت فى موجات الهجوم الأولى على الجيش الصليبي . راجع :

Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 553.

ويعارض الأستاذ شارل أومان ما ذهب إليه البرت داكس ويرى أن ما أورده البرت داكس من رواية عن موقعة الرملة الأولى ينطوى على مبالغة عنيفة . راجع :

Oman, Art of war, vol. I, p. 293, F. 3.

(٢٢) Albert of Aix, R.H.C., Hist. occ. vol. IV. p. 553.

(٢٣) Fulcher of chartres, the expedition, p. 158, p. 12.

(٢٤) Fulcher of chartres, Expedition, p. 149.

وقامت معركة حامية الوطيس بحيث لم يعد أحد يعرف أيا من كفة الفريقين أرجح على الأخرى باعتراف فوشيه شارتر نفسه[٢٥] . ولكن بلدوين سرعان ما شن هجوما عنيفا على قلب الجيش الفاطمي الذى أخذته المفاجأة ، وأشاعت تلك الهجمة الذعر بين صفوفهم . ولا شك أن إحساس الفاطميين بالمفاجأة يرجع إلى استخفاف الجيش الفاطمي بقوة الفرنج الصغيرة بعد أن شاهدوها تنهار أمام هجماتهم الأولى مما كان له أثره في إصابتهم بالذهول والمفاجأة لمشاهدتهم هذه القوة تثبت وتهاجم بعنف ، مما أربكهم ، وسرعان ما تصدع الجيش الفاطمي الكبير ، فتقهقر في فوضى واضطراب وانتشر الذعر داخل ميمنة وميسرة الجيش اللذين ولوا الأدبار وثبت سعد الدولة القواسي مقدم العسكر في قلب الجيش الذى سرعان ما انهار هو أيضا وتحرك عن موقعة بسبب هجمات الفرنج العنيفة ، وولى الأدبار وقتل الكثير من الجند الفاطميين ، في حين فر الباقي إلى عسقلان ، بعد أن سقط القائد الفاطمي سعد الدولة صريعا في ميدان المعركة ، وترديه من على فرسه كما تنبأ له بذلك من قبل أحد المنجمين[٢٦] .

والغريب أن ابن القلانسي وابن ميسر يذكران أنه بعد هزيمة الجيش الفاطمي ومقتل سعد الدولة « عاد المسلمون على الفرنج وتذامروا عليهم وبذلوا النفوس في الكرة عليهم ، فهزموهم إلى يافا ، وقتلوا وأسروا الكثيرين »[٢٧] . وقد يعطى هذا النص إحساسا بأن النصر النهائي في موقعة الرملة الأولى كان لصالح الجيش الفاطمي ، ولكننا نرجح أن المصادر الإسلامية كانت تقصد بذلك فرقة الفرسان العرب التي كانت تشكل ميسرة الجيش الفاطمي ، والتي قدر فوشيه عددها

---

(٢٥) Fulcher of chartres, Expedition, p. 160.

ويعترف فوشيه شارتر أن موقف الجيش الفرنجي كان حرجا للغاية فيذكر أنه بينما أحرز الجيش الصليبي إنتصارات على مقدمة الجيش الفاطمي كانت مؤخرتهم في حالة سيئة . راجع :

Fulcher of chartres, the expedition, p. 159.

(٢٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٤٩ ؛ ابن القلانسي : ذيل ، ص ١٤٠ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤٠ . ويذكر ابن الأثير أن المنجمين كانوا يقولون لسعد الدولة أنك تموت مترديا فكان يحذر من ركوب الخيل ، حتى أنه ولى بيروت وأرضها مفروشة بالبلاط فقلعت خوفا من أن يزلق به فرسه أو يعثر فلم ينفعه الحذر عند نزول القدر فلما كانت هذه الوقعة انهزم فتردى به فرسه فسقط ميتا . راجع ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٨ ؛ العيني : عقد الجمان ، مخطوط دار الكتب ج ١ قسم ٣ لوحة ٥٤٠ . وروايات المصادر الإسلامية السابقة كانت قاطعة في هزيمة الجيش الفاطمي أمام الفرنج . ويذكر فوشيه أن عدد قتلى الجيش الفاطمي في المعركة كان يقرب من خمسة آلاف رجل ، وأن سعد الدولة قتل على يد بلدوين نفسه في حين أن الفرنج قتل منهم ثمانية فرسان وكثير من المشاة . ونحن لا نميل لرأى فوشيه إذ أن خسارة كل من الجانبين وخلافهم كانت متساوية على وجه التقريب خاصة وأن فوشيه اعترف أن فرقتين من خيالة الفرنج وكثير من المشاة قتلوا في بداية المعركة . راجع :

Fulcher of chartres, the expedition, p.p. 155-156.

ويذكر شارل أومان أنه لو لم يشن بلدوين هذا الهجوم الثاني على قلب الجيش الفاطمي ، ولو أن انتصاره تأخر قليلا ، فإن مشاة الجيش الصليبي كانوا سيمزقون اربا ويتم القضاء عليهم تماما على يد الجيش الفاطمي وفرسانه ورماة سهامه . راجع :

Oman, Art of war, vol. I, p. 293; Archer & Kingsford, Crusades, p. 136.

وتذكر السيدة زوى اولدنبرج أن ما يقرب من نصف الجيش الفرنجي قد سقط صريعا في ميدان المعركة :

Zoé oldenburg, Crusades, p. 17; also Oman, Art of war, vol. I, p. 293.

(٢٧) ابن القلانسي : ذيل ، ص ١٤٠ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤٠ ؛ العيني : عقد الجمان لوحة ٥٦٦ .

بخمسمائة فارس[٢٨] ، والتي تمكنت في البداية من إختراق صفوف الجيش الصليبي وسحق مقدمته ، كما ذكرنا آنفا ، وتعقبت قوات الجليل التي كان يقودها الفارس هيوفا لكنبريج أوف سانت أومير « Hugh of St. Omer » الذي فر من الموقعة متجها إلى يافا ، فطارده جزء من ميسرة الجيش الفاطمي حتى وصلوا إلى أسوار يافا[٢٩] وهم يحملون رؤوس وخوذات الفرسان الفرنج ليظهروا لحامية يافا أن المعركة خسرها الفرنج . ويذكر فوشيه أن هذه الفرقة هدفت من ذلك إنزال الرعب بحامية المدينة الفرنجية لإجبارها على الإستسلام ولكنهم أخفقوا[٣٠] .

وسرعان ما عادت هذه الفرقة ثانية لأرض المعركة لتفاجيء بهزيمة بقية الجيش الفاطمي ، ففروا إلى عسقلان وطاردهم بلدوين بعد أن منع رجاله من التوقف لنهب جثث القتلى أو استعادة معسكر العدو ، في الوقت الذي أنسحب فيه أيضا الأسطول الفاطمي دون أن يقدم عونا يذكر للجيش الفاطمي البرى[٣١] ، في حين عاد بلدوين لتوزيع الغنائم والأسلاب الكثيرة التي تركها الجيش الفاطمي من سلاح ومؤن وعدد وآلات ، « فملك الفرنج جميع ما للمسلمين »[٣٢] ، وبذلك منى الجيش الفاطمي بهزيمة قاسية أمام الفرنج في موقعة الرملة في ذي الحجة ٤٩٤ هـ / سبتمبر ١١٠١ م بأجماع المصادر الإسلامية والصليبية ، وعلى هذه الصورة أخفقت أول محاولة كبرى للأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي في فلسطين بعد أن تكبد جيشه خسائر جسيمة في الرجال والسلاح وغدا لزاما عليه الإستعداد لإرسال حملة أخرى لتعويض ما أصابه من إخفاق .

وتذكر بعض الآراء الحديثة[٣٣] أن هزيمة الجيش الفاطمي ومصرع قائده سعد الدولة في موقعة

---

(٢٨) Fulcher of chartres, Expedition, p. 160.

(٢٩) يلاحظ أن رواية ابن الأثير عن الموقعة كانت مضطربة ولكنه انتهى إلى أن الفاطميين هزموا في النهاية . راجع ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٢٦ .

(٣٠) Fulcher of chartres, the expedition, p.p. 160-161.

ويذكر فوشيه أن أثنين من حملة الأحمال الزائفة هربوا إلى يافا حيث ضللوا الناس هناك وأخبروهم بهزيمة الفرنج وأن الفارس هيو أوف سانت أومير هو الذي حمل خبر هزيمة الفرنج . وعندما سمعت الملكة زوجة بلدوين بالكارثة أعتقدت أن زوجها قتل ولهذا أرسلت تطلب العون من تانكريد في أنطاكية . راجع :

Fulcher of chartres, the expedition, p. 161. Stevenson, the crusaders in the East, p. 45.

(٣١)

(٣٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٢٠ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٨ ، وكذلك :

Fulcher of chartres, the expedition, p. 160; Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 553.

وتعتبر رواية فوشيه شارتر التي اعتمدنا عليها في تفاصيل تلك الموقعة رواية شاهد عيان حي لتلك الأحداث . أما رواية أبو المحاسن فكانت غريبة وبعيدا عن الواقع التاريخي وسير أحداث الموقعة . فيذكر أن المسلمين ثبتوا بعد مقتل سعد الدولة وحملوا على الفرنج فهزموهم إلى قيسارية . ويقال أنهم قتلوا من الفرنج ثلاثة آلف ولم يقتل من المسلمين سوى مقدم عسكرهم المذكور وفرسهم . راجع أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥٢ ؛ أيضا العظيمي : تاريخ العظيمي ، ص ٣٧٤ ؛ المؤرخ المجهول : البستان الجامع ص ١١٥ ، وروايتهما مختصرة للغاية .

(٣٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص ١٢٢ — ١٢٣ وكذلك :

Oman, The art of war, vol. I, p. 292.

الرملة الأولى ترجع إلى تماسك الجيش الصليبي ووحدة صفوفه وأحكام خطته وجودة تسليحه وحسن تدريبه رغم قلة عدده في الوقت الذى افتقدت فيه القوات المصرية هذه الصفات أو المميزات جميعا وعلى الأخص التسليح والتدريب الجيد ، وأن القوات الفاطمية رغم ضخامة عددها لم تكن من القوة والبراعة مثلما كانت عليه في عسقلان تحت قيادة الوزير الأفضل .

ورغم ما يبدو من صحة هذه الآراء إلا أننا نرى أن أسباب هزيمة الفاطميين في الرملة تماثل في ظروفها نفس ظروف هزيمة موقعة عسقلان الكبرى فعندما تجمعت الحملة الفاطمية بقيادة أميرها القواس في عسقلان وبدلا من أن تقوم بأخذ زمام المبادرة وشن هجوم مفاجيء على قوات بلدوين في المعسكر الصليبي بيافا ، ارتكبت خطأ عسكريا كبيرا فقد سبق مجيئها دعاية ضخمة وتناقلت أخبارها المنطقة كلها . كما أضاعت الحملة الكثير من الوقت في عسقلان وقضت ما يقرب من ثلاث أشهر بلا عمل إنتظار لمجيء الإمدادات والأسطول الفاطمي من قواعده بدمياط والإسكندرية[٣٤] ، مما أتاح الفرصة الكافية لبلدوين الأول أن يجمع ما أستطاع جمعه من قوات وتحصين المناطق المعرضة للهجوم الفاطمي القادم ، ووضع خطته بإحكام ثم فاجيء الجيش الفاطمي بالهجوم . ورغم نجاح الجيش الإسلامي في صد موجات الهجوم الفرنجي الأول بل وسحقها إلا أن عنصر المفاجأة الصليبي كان كاملا بحيث أدى لإنهيار مقاومة الجيش الفاطمي وتشتيت شمله وفراره مذعورا أمام الفرنج إلى عسقلان . كما أن الأسطول الفاطمي يتحمل جزءا من الهزيمة إذ أنه لم يتدخل لمساعدة الجيش المهزوم بل أنه عندما رأى هزيمة الجيش ومصرع قائده أفرد أشرعته وفر عائدا إلى قواعده في مصر[٣٥] .

أما الرأى القائل بأن الجيش الفاطمي كان يفتقد إلى البراعة العسكرية والتدريب أو التسليح الكاملين فهو قول مردود عليه إذ نسى هؤلاء المؤرخون أن جيش الأفضل بقيادة سعد الدولة القواس كان يضم العناصر الشابة الفتية الجديدة التى أدخلها الأفضل على الجيش الفاطمي ، من فرسان الترابى والحجرية والأفضلية الذين دربوا تدريبا جيدا على القتال والفروسية ، وأشار لذلك المؤرخون المسلمون مثل القلقشندى[٣٦] والمقريزى[٣٧] وابن الفرات[٣٨] وأشادوا بفرقة الحجرية وقوة إعدادها وتدريبها . ويكفى أن ابن خلكان شبه فرسانهم بفرسان الداوية والإسبتارية الفرنج[٣٩] هذا بجانب فرق الفرسان الأخرى من العرب وحملة الأقواس المترجلين من الجند السودان[٤٠]

---

(٣٤) Stevenson, the crusaders in the East, p. 42.

(٣٥) Oman, Art of war, vol. I, p. 292; Stevenson, the crusaders in the East, p. 45.

(٣٦) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٤٨١ .

(٣٧) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٤ .

(٣٨) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٢ مجلد ٢ لوحة ٥٠ ( ب ) .

(٣٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٤٨

(٤٠) Fulcher of chartres, Expedition, p. 158.

والدليل على هذا الإعداد الجيد والتدريب القوى للجيش الفاطمى أنه نجح فى بداية المعركة من سحق الهجوم الفرنجى الأول والقضاء على نصف كتائب الجيش الصليبى باعتراف فوشيه شارتر نفسه[٤١] .

ويمكن القول أن إنتصار بلدوين الأول على الجيش الفاطمى بالرملة فى العام الأول من حكمه للمملكة اللاتينية أنقذ فى ذلك الوقت المملكة الفرنجية الناشئة من الخطر الفاطمى ، الذى هددها من ناحية الجنوب وآمن بشكل مؤقت الحدود الجنوبية للمملكة الناشئة . كما أن هذه المعركة أظهرت قوة وخطر الحملة الصليبية وأنها ليست مجرد غارة محلية ، كما أعتقد المسلمون أو أن الفرنج سيرحلون من الشرق الإسلامى إن آجلا أو عاجلا[٤٢] . كما أن إنتصار الرملة زاد من اقتراب الخطر الفرنجى وتهديده الكبير لبقية أملاك الفواطم الممثلة فى مدن الساحل الفاطمى الممتدة من بيروت إلى عسقلان[٤٣] .

ويمكن القول أن الأفضل بن بدر الجمالى لم يستطع فى حملته الأولى تغيير شيء من الأوضاع فى جنوب الشام لصالحه أو أن ينجح فى إستعادة أملاك الفاطميين المفقودة هناك . ورغم أنه منى بفشل كبير فلم يحدث أى تغيير فى القاهرة بالنسبة لمكانته أو نفوذه ، فاستمر يقبض على أعنة الأمور بيد من حديد ، وعندما توفى الخليفة المستعلى بالله فى ١٧ صفر ٤٩٥ هـ / ١٢ ديسمبر ١١٠١ م وضع مكانه فى الخلافة إبنه الآمر بأحكام الله وهو طفل لم يتجاوز الخامسة من عمره وظل تدبير الأمور كلها بيده كما كان الأمر فى خلافة المستعلى الذى لم يكن له سيره تذكر فإن مدبر أموره كان الأفضل[٤٤] الذى كانت له السيطرة التامة[٤٥] .

لقد زال الخطر الفاطمى مؤقتا بعد هزيمة قوات الأفضل وتكبيدها خسائر جسيمة فى موقعة الرملة الأولى ولم يكن بوسعه القيام بهجوم سريع ومفاجىء وقتذاك ، فقد تطلب الأمر من الخلافة الفاطمية ووزيرها الأفضل استرداد أنفاسها لفترة ، وتكوين جيش فاطمى جديد للإنتقام من الهزيمة السابقة والإستعداد للقيام بهجوم فاطمى ثان . ولعل مااشتهرت به الخلافة الفاطمية من موارد بشرية واقتصادية هيأ للأفضل أن يجهز فى هذه المرة جيشا آخر لمواصلة صراعه مع الفرنج ، وقد تطلب هذا الأمر ما يقرب من ثمانية أشهر بعد موقعة الرملة الأولى[٤٦] .

---

(٤١) Fulcher of chartres, Expedition, p. 159.

(٤٢) Duggan, A., The story of the crusades p. 87; Zoé oldenburg, The Crusades, p. 170.

(٤٣) يذكر ستيفن رنسيمان أنه بانتصار الفرنج فى الرملة تراجع الخطر الفاطمى مؤقتا ولم يكن بوسع الفاطميين أن يعاودوا القيام بهجوم سريع فى ذلك الوقت نظرا لما منى به الجيش من خسائر جسيمة . رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص ١٢٤.

(٤٤) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤٠ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥١ .

(٤٥) المكى : مرآة الجنان ، ط . حيدر آباد الدكن ١٣٨٥ هـ ، ج ٣ ص ١٥٨ ؛ العمرى : مسالك الأبصار ، مخطوط دار ، تصوير شمسى ، لوحة ١٠٣ ؛ الحنفى : الأحكام السلطانية مخطوط دار رقم ٦ مجاميع ( فقه حنفى ) ورقة ١٧٩ .

(٤٦) Fulcher of chartres, the expedition, p. 163 note 8.

وأعد الأفضل شاهنشاه جيشا فاطميا ضخما بلغ عدته ما يقرب من عشرين ألفا من الجند معظمهم من العرب والسودان[٤٧] ، واختار لقيادة الجيش أحد أبنائه ويدعى شرف المعالى . وخرجت هذه الحملة إلى عسقلان قاعدة الجيوش الفاطمية الأمامية ضد الصليبيين فى فلسطين وذلك فى رجب عام ٤٩٥ هـ / منتصف مايو ١١٠٢ م[٤٨] .

وقد أكدت بعض المصادر الإسلامية مثل الكامل فى التاريخ وذيل تاريخ دمشق أن هدف هذه الحملة كان « إنجاد ولاة الساحل فى الثغور الباقية فى أيديهم »[٤٩] ، ليمنعوا الفرنج عما بقى فى أيديهم من « البلاد الشامية »[٥٠] . ونحن نرجح أن هذه الحملة استهدفت أهدافا وأعمالا أكبر من معاضدة ولاة الثغور فى الإنتقام لهزائم الأفضل السابقة والرغبة الحقيقية فى إستعادة مدينة بيت المقدس[٥١] .

وقد أتبعت هذه الحملة فى مسيرها نفس طريق حملة سعد الدولة القواسى السابقة ، وتحركت فى سرعة ناحية الرملة والزحف منها إلى يافا وبيت المقدس ، كما حدث فى الحملة الأولى[٥٢] . والجدير بالذكر أن تحرك وزحف الجيش الفاطمى فى هذه المرة جاء سريعا وفى توقيت ملائم ، فلم يضيع الوقت فى عسقلان كعادته فى حملاته السابقة التى منيت بالفشل . ذلك أن الفاطميين دأبوا فى كل حملة وجهوها ضد الصليبيين للتجمع فى عسقلان تسبقهم دعاية ضخمة تتناقل أخبارها المنطقة كلها ، بجانب إضاعتهم وقتا ثمينا فى عسقلان بلغ أحيانا شهورا طويلة إنتظارا لوصول إمدادات جديدة أو مجيىء الأسطول فى البحر وبهذا كانوا يتركون للفرنج الفرصة الكافية لتوحيد صفوفهم ووضع خططهم وهزيمتهم .

---

(٤٧) William of tyre, deeds, vol. I, p. 443.

أيضا العينى : عقد الجمان ، مخطوط دار ، ج ١ قسم ٢ لوحة ٥٩١ أحداث عام ٤٩٦ هـ . ويذكر لوشيه شارتر أن عدد الجيش الفاطمى كان عشرين ألفا من الفرسان وعشرة آلاف من المشاة السودانيين . راجع :

Fulcher of chartres, the expedition, p. 163.

ولم تحدد بقية المصادر الإسلامية العدد الحقيقى للجيش الفاطمى . راجع مثلا ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٥٠ . أنظر مناقشة الآراء حول العدد الحقيقى للجيش الفاطمى فى :

Rohricht, R., Geschichte des konigreichs Jerusalem, Innsburck 1898, p. 36, FF.

(٤٨) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، نشر ريتشارد جيمس جويت ، ط . شيكاغو ١٩٠٨ ، ج ٢ ص ٢ ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤١ . ويلاحظ أن ابن الجوزى يذكر أن الجيش الفاطمى كان تحت قيادة رجل يسمى « نصير الدولة » . وربما التبس الأمر على السبط فخلط بين أحد قادة الجيش الفاطمى وبين القائد العام للجيش وهو شرف المعالى ابن الأفضل . راجع ابن الجوزى : نفس المصدر ، ص ٣ ، أيضا :

Fulcher of chartres, the expedition, p. 163.

(٤٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٣٧ .

(٥٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤١ .

(٥١) يذكر المؤرخ الصليبى فوشيه شارتر أن هدف الأفضل من هذه الحملة تدمير الفرنج تدميرا كاملا . راجع :

Fulcher of chartres, the expedition, p. 163.

(٥٢) Zoé oldenburg, The Crusades, p. 171.

ولكن في هذه المرة تشير الدلائل والأحداث عدم إنتظار الجيش الفاطمي في عسقلان ، بل أسرع الجيش بالزحف نحو الرملة حيث لحقته الإمدادات قرب يازور[٥٣] ولم تمض بين وصول الجيش الفاطمي بقيادة شرف المعالي بن الأفضل إلى عسقلان وبين إشتباكه مع الفرنج في آخر رجب ٤٩٥ هـ / ١٧ مايو ١١٠٢ م إلا أياما معدودة هي صدر شهر رجب[٥٤] ، وهي فترة قصيرة نسبيا إستغرقها زحف الجيش الفاطمي . ولا شك أن هذه السرعة التي تميز بها الزحف الفاطمي كان له أثره فيما أنجزته هذه الحملة من نجاح في بداية أمرها كما سيتضح .

أما على الجانب الصليبي فيبدو أن بلدوين أدرك بلا جدال أن حملات الفاطميين تعدت أهدافها المحدودة إلى تهديد للأملاك الفرنجية وكيان الفرنج بالشام وذلك بتهديد كل من بيت المقدس ويافا ولهذا أخذ بلدوين أهبته وأتم إستعداداته الحربية فحشد قوات كافية تبلغ بضعة آلاف في يافا في حين تأهبت حامية الجليل لإرسال ما يطلبه بلدوين من قوات للمعركة المقبلة[٥٥] .

وعلى الرغم من ذلك إلا أن بلدوين دى بويون أرتكب هذه المرة خطأ فادحا كلفه ما معه من جيش وكاد سيعجل بنهاية سريعة لمملكة اللاتين في الشام إذ أن بلدوين الذى اغتر بانتصاره السابق ، واستخفافه واستهانته بأمر الفاطميين مما جعله يخرج في رجب ٤٩٥ هـ / مايو ١١٠٢ م ، قاصدا الرملة في قوة صغيرة من الفرسان لم تتعد في الغالب مائتي فارس سارت في غير نظام أو حذر دون أن ينتظر إستدعاء القوات الإحتياطية معتمدا في ذلك ، بل واثقا بأن الجيش الفاطمي ليس إلا فئة قليلة من المغيرين وأن عددهم يتراوح ما بين سبعمائة أو ألف رجل أتوا من أجل النهب والسلب[٥٦] .

كما ظن بلدوين إستحالة وصول القوات الفاطمية بهذه الجهة وبهذه السرعة في الغالب قياسا ببطئهم وترددهم وإنتظارهم الدائب بعسقلان فلم يتوقع وصولهم بمثل هذه السرعة ولهذا عزم على القضاء عليهم بنفسه دون اللجوء لإستدعاء الإمدادات والرجال من المناطق التابعة لمملكته .

وقد طلب بلدوين البولونى من أمراء وبقايا حملة ١١٠١ م المشئومة أمثال جيو فرى كونت فندوم « Geoffrey of Vendom » وستيفن كونت برجنديا « Stephen of Burgundy » وهيوكونت لوزينان « Hugh of Lusignan » أخو كونت ريموند الصنجيلي وستيفن كونت

---

(٥٣) يازور : هي قرية صغيرة تقع قرب مدينة الرملة قريبة من الساحل وينسب إليها الوزير اليازورى ، أحد وزراء الخليفة المستنصر بالله . راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٤ ص ١٠٠٢ .

(٥٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤١ .

(٥٥) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٢٥ .

(٥٦) Fulcher of chartres, the expedition, p. 167; Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 533.
وتذكر بعض الآراء الحديثة أن كشافة بلدوين قد ضللته وأن بلدوين نفسه أهمل الحصول على معلومات صحيحة عن الجيش الفاطمي هذه المرة . راجع مثلا :

Zoé oldenburg, The Crusades, p. 171.

بلوا وشارتر « Blois & Chartres » وجماعة من الفرسان البلجيكية ، أن ينضموا إليه لمحاربة الجيش الفاطمي ، فوافقوا على ذلك بعد أن حصلوا على خيول قوية من زملائهم[٥٧] .

وأدى ذلك لإزدياد عدد قوات بلدوين لما يزيد عن سبعمائة راجل وفارس ، كما تذكر المصادر الاسلامية[٥٨] ، وليس كما أدعت المصادر الصليبية التي ذكرت أن عدد قوات بلدوين كانت مائتي فارس وقليل من المشاة[٥٩] ، ويبدو أن هذه المصادر أغفلت أن تضيف لقوات بلدوين الأصلية ما أنضم إليه من أمراء وجنود حملة ١١٠١ م المشئومة وستثبت مجريات الأحداث وسير المعركة صحة هذا الرأى .

والواقع أن الغرور والجرأة المتسمة بالتهور والطيش والإندفاع ، باعتراف المؤرخين الصليبيين أنفسهم ، ومنهم مؤرخ حملة بلدوين نفسه[٦٠] ، هي التي دفعت بلدوين للخروج على رأس هذه القوة الصغيرة من الفرسان والرجالة بدلا من إنتظار قدوم بقية قواته لمواجهة المعركة المرتقبة بجيش كامل ، ولم يستمع لنصيحة أحد ، بل وعندما تجاسر ستيفن كونت بلوا وشارتر وأشار بأن الهجوم بهذه القوات الضئيلة طائش وحذر بلدوين من مغبة ذلك ويجب التفكير والتروى إلا أن تحذيره لم يلق آذانا صاغية فقد تذكروا تخاذله في أنطاكية وأخبره بلدوين بأنه لا يملك الحق في إبداء الرأى أو مجرد الإحتجاج فلم يسعه سوى الإنضمام إلى رفاقه دون أن يبث شكواه ثانية[٦١] .

وخرج بلدوين في غير حذر من بيت المقدس في ٢٧ رجب ٤٩٥ هـ / ١٧ مايو ١١٠٢ م ، وعندما وصل إلى السهل الممتد بين يازور والرملة ، وجد نفسه وجها لوجه فجأة أمام جيش فاطمي ضخم وعندئذ تحقق بلدوين من خطئه وأدرك قيمة نصيحة ستيفن أوف بلوا وشارتر ومع

---

(٥٧) Fulcher of chartres, the expedition, p. 167.

(٥٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٧ حوادث ٤٩٥ هـ . راجع مناقشة ذلك في :

Stevenson, the crusaders, in the East, p. 45; F.J; Duggan, the story, p. 88.

(٥٩) Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 553; Fulcher of chartres, the expedition, p. 167; William of tyre, deeds, vol. I, p. 443.

(٦٠) Fulcher of chartres, the expedition, p. 167; William of tyre, deeds, vol. I, p. 443.

وأيدت بعض المراجع الحديثة آراء المصادر الغربية . راجع مثلا :

Rohrich, Geschicht, p. 37, Oman, Art of war, vol. I, p. 294.

(٦١) Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 533; Guibert of Nogent, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 244; Cate (J.L.), The crusade of 1101; in setton (ed.,) vol. I, p. 365.

ويذكر المؤرخ الألماني ريولد روهرخت أن ستيفن أوف بلوا ، هاربين أوف بورجيس «Harpin von bourges» هما اللذان حذرا بلدوين . راجع :

Rohricht, Geschicht, p. 37

ذلك لم يكن بوسعه الإنسحاب أو التراجع[٦٢] إذ كشفهم الجيش الفاطمى ، ولاحظ أن الجيش الصليبى كان بغير نظام ولهذا تحركت فرقة من الخيالة الفاطمية الخفيفة لقطع طريق الإرتداد على الصليبيين[٦٣] .

وقد أعتقد الفاطميون أن هذه الفئة القليلة من الفرسان الفرنج ليست إلا مقدمة لجيش صليبى كبير آت فى أعقاب الملك بلدوين[٦٤] ورأوا أن يباغتوهم بالهجوم فورا قبل أن يلحق بهم بقية الجيش فأطبقوا على الجيش الفرنجى من كل جوانبه فى هجوم عنيف ومباغت أدى لأنهيار صفوف جيش بلدوين ، ولم يستطع الثبات مع فرسانه أمام جموع الجيش الفاطمى[٦٥] فأنهزم الفرنج وقتل منهم مقتلة عظيمة[٦٦] ، وراح ضحية أول هجوم فاطمى من تبقى على قيد الحياة من قادة وجند حملة ١١٠١ م المشئومة مثل ستيفن كونت بلوا وستيفن كونت برجنديا اللذان تركا صرعى فى ميدان المعركة ، بعد أن خذلهما حظهما العاثر على الإشتراك فى تلك الموقعة[٦٧] .

وتذكر المصادر الفرنجية أن بلدوين نجح فى الفرار من موت محقق من المعركة بعد أن أحاط به الجيش الفاطمى[٦٨] وأكدت ذلك المصادر الإسلامية التى تذكر أن بلدوين قد أنهزم فى ثلاثة نفر وأختفى فى أجمة قصب ، عندما طاردته القوات المنتصرة فأحرقت تلك الأجمة ولحقت النار ببعض جسده ففر إلى الرملة بصعوبة بالغة[٦٩] ومن استطاع الفرار من الهزيمة فقد فر بعضهم إلى

---

(٦٢) William of tyre, deeds, vol. I, p. 443.
ويذكر أومان أن نسبة الجيش الفاطمى إلى جيش بلدوين كان بنسبة مائة إلى واحد . راجع :
Oman, Art of war, p. 295; Lamb, the crusaders, p. 245.

(٦٣) William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 443-444.
وأشار وليم الصورى لهذه الفرقة بأنهم كانوا رجالا مشاة ذو مكر وخبرة كبيرة فى حمل السلاح وركوب الخيل وهم الذين لاحظوا تقدم الجيش الفرنجى بشكل فوضوى . ونرجح أن وليم يقصد بهذه الفرقة ، أحدى الفرق الفاطمية الجديدة التى كونها الأفضل فى الجيش الفاطمى ، والأرجح أنهم فرقة الحجرية . راجع :
William of tyre, Ibid.

(٦٤) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٢٦ .

(٦٥) Fulcher of chartres, the expedition, p. 167; William of tyre, deeds, vol. I, p. 444.

(٦٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٥٠ أحداث ٤٩٦ هـ .

(٦٧) Fulcher of chartres, the expedition, p. 169; note 4; Albert of D'Aix, R.H.C., hist. occ. vol. IV, p.p. 591-594.
وتذكر هذه المصادر أنه كان ضمن قتلى الفرنج الفارس جيراو أفسينر الحاجب السابق للملك جودفرى . ويذكر شارل أومان أن ما يزيد عن مائة وخمسين فارسا من بقايا حملة ١١٠١ م سقطوا صرعى فى المعركة . راجع :
Oman, Art of war, vol. I, p. 295.

(٦٨) Fulcher of chartres, the expedition, p. 119; Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. F. occ. p. 592.

(٦٩) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٩ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٧ . ويذكر ابن الأثير فى موضع آخر أن بلدوين لما رأى شدة الأمر « خاف القتل والأسر فألقى نفسه فى الحشيشة وأختفى فيه » . راجع الكامل ، ج ١٠ ص ٢٥٠ ؛ أيضا العينى : عقد الجمان ، مخطوط دار ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٥٩١ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٨ . وتذكر المصادر الصليبية أن بلدوين فر مع خمسة من رجاله وليس ثلاثة بعد مقتل جيراو أفسينر حاجب جودفرى السابق . راجع :
=

يافا ، أما الآخرون فقد اتخذوا طريقهم إلى الرملة ولحقوا بملكهم هناك وتحصنوا فى أبراج قلعة الرملة فحاصرهم الجيش المصرى بقيادة شرف المعالى[٧٠] .

ورغم النجاح الذى أحرزه الجيش الفاطمى على الفرنج فى الجولة الأولى من المعركة إلا أن هذا الجيش لم يتبع نصره بإسقاط مدينة الرملة مباشرة رغم محاصرته لها فى نفس اليوم ( رجب ٤٩٥ هـ / ١٧ مايو ١١٠٢ م ) علما بأن وسائل الدفاع عن الرملة كانت بالغة السوء وضعيفة التحصين باستثناء البرج الذى كان بلدوين قد شيده فى السنة الماضية بقلعة المدينة[٧١] ، والذى لجأ إليه مع رفاقه الفارين من المعركة وكان فى إستطاعة الجيش الفاطمى إقتحامها بغير عناء وأسر الفرنج بداخلها إلا أنه لم ينقذ المدينة من الهجوم المباشر سوى حلول الظلام الذى جعل الفواطم يؤجلون هجومهم لليوم التالى[٧٢] .

وقد أيقن بلدوين بمصيره المحتوم فى هذه المدينة الصغيرة الضعيفة التحصين[٧٣] ، ولهذا قضى ليلته فى الرملة وهو يفكر فى طريقة للفرار من المدينة إلى يافا قبل أن يقع أسيرا فى أيدى الفاطميين ، وتذكر المصادر الفرنجية أن بلدوين يدين بفراره من الرملة إلى شيخ من الأعراب كان بلدوين قد أسدى لديه معروفا فى العام السابق عندما أكرم زوجته الشابة وأطلق سراحها من الأسر ، فحفظ له الشيخ هذا الجميل وساعده على الفرار .

ولكن الروايات الإسلامية لا تشير لهذه الرواية على الإطلاق وتجمع على أن بلدوين خرج متنكرا من المدينة تحت جنح الظلام فى طريقه إلى يافا ، وأستطاع أن يفلت من مطارديه الفاطميين الذين تعقبوه عند سماعهم بهروبه . ويقال أن القوات الفاطمية ظلت تجوب القرى لمطاردة الفارين ومنهم بلدوين وظل الملك يطوف يومين فى سفوح التلال الواقعة شمالى الرملة ، ثم أجتاز سهل الشعرا ( شارون ) حيث وصل إلى أرسوف فى ٢٨ رجب ٤٩٥ هـ / ليلة ١٩ مايو

---

= Fulcher of chartres, the expedition,p. 169 note 8. Stevenson, the crusaders in the East,p. 46 F. 12.

(٧٠) Fulcher of chartres, the expedition, p. 169; William of tyre, deeds, vol. I. p. 445.

(٧١) أشاد المؤرخ لوشيه شارتر بقوة هذا البرج فى مقاومة حصار الجيش الفاطمى بعد هزيمة الصليبيين ، راجع :
Fulcher of chartres, the expedition, p. 163 note 2;

(٧٢) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ ، وكذلك :
Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 297; Cate, The crusade of 1101, in setton (ed.,) vol. I, p. 395.

(٧٣) يذكر المؤرخ الصليبى وليم الصورى أن بلدوين شعر بنوع من إنعدام الثقة فى قوة دفاعات هذا المكان ، راجع :
William of tyre, deeds, vol. I, p. 445; Roger of woodover, flowers, vol. I, p. 457; Anna comnena, The Alexiad, p. 285.

وأيدت غالبية المراجع الحديثة رواية إنقاذ الأمير العربى لبلدوين ، راجع :
Michaud, History of the crusades, p.p. 279-280; Besant & Palmer, Jerusalem, p. 245; Conder, the latin kingdom, p. 84; Duggan, Crusades, p. 88.

١١٠٢ م[٧٤] .

ويؤكد كل من المؤرخ ابن الأثير[٧٥] ، وابن خلدون[٧٦] ، أن الجيش الفاطمي المنتصر وعلى رأسه شرف المعالي بن الأفضل ظل يحاصر الرملة وقلعتها ما يقرب من خمسة عشر يوما ، وعلى الرغم من أن بعض الآراء الحديثة لا تأخذ بروايات المؤرخين السابقة الخاصة بحصار الفرنج داخل الرملة طوال هذه المدة باعتبار أن رواية ابن الأثير بصفة خاصة تتميز بالإضطراب لإستنادها إلى روايتين مختلفتين ، ولأنه ذكر هذه الحادثة تحت تاريخين مختلفين ( عامى ٤٩٥ هـ ، ٤٩٦ هـ )[٧٧] ، إلا أن هذه الروايات الإسلامية أيدت من جانب مصدر صليبى ، يشير إلى قيام الجيش الفاطمي بوضع خيامه فى مواجهة الرملة وبالذات أمام البرج الحصين بقلعة المدينة التى احتمى بها بقية جند بلدوين الفارين من الموقعة وأن الجند الفاطميين حاولوا إقتحام وإسقاط البرج مرات عديدة ، إلا أنهم وجدوا صعوبة فى ذلك نظرا للمقاومة اليائسة التى أبداها الفرنج ، مما أضطرهم للقيام بتدمير المزارع والمحاصيل المحيطة بالمدينة وإحراقها ، وذلك لنشر الرعب والذعر فى قلوب سكان هذه المناطق[٧٨] . كما قاموا بهدم كنيسة القديس جورج القريبة من المدينة ، مما أضطر أسقف المدينة لأن يرسل إلى بلدوين فى طلب نجده لإنقاذ المدينة المحاصرة[٧٩] .

وكيفما كان الأمر فقد أجمعت الروايات الإسلامية والصليبية والبيزنطية على قيام الجيش الفاطمي فى ٢٩ رجب ٤٩٥ هـ / ١٩ مايو ١١٠٢ م ، بشن هجوم على أسوار وقلعة المدينة فكدسوا أكواما من الأخشاب حول البرج الذى لجأ إليه فرسان الفرنجة ، وأشعلوا بها النيران ليلقى الفرسان الفرنج هلاكهم حرقا أو لإجبارهم على الخروج من البرج ، مما أضطر الفرنج للخروج من البرج فى شكل هجوم يائس شنوه على الجيش الفاطمي ، ولكن الفاطميين نجحوا فى قتل غالبية الفرنج داخل القلعة[٨٠] ، ومن لم يلق مصرعه وقع أسيرا[٨١] .

---

(٧٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٥٠ ؛ العينى : عقد الجمان ، مخطوط دار ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٥٦١ .

(٧٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٥٠ .

(٧٦) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٨ ، وكذلك :
William of tyre, deeds, vol. I, p. 446.

(٧٧) أيضا المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٣٢ .
ويشك المؤرخ ستيفنسون فى صحة هاتين الروايتين الإسلاميتين حول فترة حصار جيش شرف المعالى للفرنج بالرملة . راجع :
Stevenson, crusaders, p. 46 F I.

(٧٨) Fulcher of chartres, the expedition, p. 163 note 2, p. 164 note 4

(٧٩) Rohricht. R., Geschichte, p. 36.
ويذكر رهرشت أن عدد المدافعين عن قلعة الرملة كانوا خمسة عشر فارسا فقط .

(٨٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤١ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤١ ؛ العينى : عقد الجمان ، مخطوط دار ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٥٦١ ، وكذلك
= Fulcher of chartres, the expedition, p.p. 163, 170, 173; Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ. vol.

وأكد المؤرخ ابن الأثير أن المسلمين قتلوا داخل الرملة أربعمائة رجل وأرسل ثلاثمائة أسير إلى مصر ، وذلك فى أواخر رجب ٤٩٥ هـ / مايو ١١٠٢ م[٨٢] . وبذلك نجح الفاطميون فى إسقاط الرملة ، وكان إسقاطها أول إنجاز كبير حققوه على الفرنج منذ هزيمة عسقلان الكبرى فى عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م .

وقد أوردت المؤرخة البيزنطية المعاصرة آنا كومنينا رواية تكاد تنفرد بها عن بقية المصادر الإسلامية أو الصليبية سواء المعاصرة أو القريبة من الفترة موضوع الدراسة عن دور أبيها الإمبراطور اليكسيس كومنين ، وفضله الكبير فى إطلاق سراح أسرى الفرنج فى موقعة الرملة الثانية وتدخله شخصيا لدى خليفة القاهرة ووزيره الأفضل شاهنشاه ، وفتح باب المفاوضات معهم لإطلاق سراحهم ودفع فدية لهم ، وأن الإمبراطور عندما علم بهزيمة الفرنج بالرملة حزن كثيرا على الأمراء الذين قتلوا أو أسروا ، وبادر فى الحال بإرسال رجل يدعى بارداليس « Bardales » ومعه مبالغ كبيرة من المال كفدية للأسرى ، وخطابات موجهة للوزير الأفضل توحى بإطلاق سراح الأمراء الأسرى ، وأن الأفضل بادر بدوره بإطلاق سراحهم إستجابة لطلب اليكسيس[٨٣] .

وقد كررت آنا كومنينا نفس هذه الرواية فى موضع آخر من كتابها مع بعض الإختلافات فتذكر أن هؤلاء الأسرى البالغ عددهم ثلاثمائة أسير قد عوملوا من جانب خليفة القاهرة معاملة

---

= IV, p. 591; William of tyre, deeds, vol. I, p. 446; Roger of wendover, flowers, vol. I, p. 457.
ويلاحظ أن رواية آنا كومنينا عن الموقعة شبيهة إلى حد كبير بما ورد فى المصادر الإسلامية الفرنجية رغم اضطرابها وخلطها بموقعة عسقلان . راجع :

Anna comnena, the Alexiad, p. 286.

(٨١) يذكر ابن ميسر أن عدد الأسرى كان يبلغ تسعمائة فارس . ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ١٤١ . وتذكر المراجع الحديثة أنه كان ضمن الأسرى الفارس كونراد الذى أظهر من البسالة والشجاعة ما جعل الفاطميين يبقون على حياته حين حُمل مع الأسرى الفرنج للقاهرة . راجع :

Rohricht, Geschichte, p. 37-38; Cate, The crusade of 1101, In setton (ed.), vol. I, p. 365.

(٨٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ص ٢٥٠ ؛ العينى : عقد الجمان ، مخطوط دار ، ج ١ قسم ٢ لوحة ٥٦١ . وتتفق آنا كومنينا مع المصادر الإسلامية فى أن عدد الأسرى الفرنج كانوا ثلاثمائة . راجع :

Anna comnena, The Alexiad, p. 300.

أيضا راجع المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٢٦ .

(٨٣) Anna comnena, The Alexiad, p. 300.

ويلاحظ أن آنا كومنينا لم تذكر فى روايتها السالفة فترة بقاء الأسرى الفرنج بالقاهرة ، ولكن الأستاذ جيمس كات يذكر أنهم مكثوا ثلاث سنوات حتى تدخل اليكسيس لإطلاق سراحهم . راجع :

Cate, The crusade of 1101, In setton (ed.), vol. I. p. 365, F. 35.

وأيدت بعض المراجع الحديثة وجود هذه المراسلات . راجع مثلا :

Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 261.

ويذكر ستيفن رنسيمان أن اليكسيس كومنين كان مستعدا للاعتراف بمملكة اللاتين فى بيت المقدس ولهذا أظهر مواساته العلنية لما بذله من افتداء الأسرى الفرنج لديهم ولمن وقعوا فى قبضة الفواطم فى موقعة الرملة الثانية . راجع رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ٢٢٦ .

قاسية ، وظلوا فى سجنهم عدة شهور ، وعندما علم أبوها بتفاصيل ذلك عمل على تخليصهم من الأسر ، فأرسل رجلا يدعى نيكيتاس بانوكوميتيس « Nicetas Ponucomites » ، ومعه الأموال ورسالة تطلب من الوزير الأفضل إطلاق سراح الأسرى ، وأن سلطان القاهرة ( يقصد الأفضل ) أطلق سراحهم فى الحال ، ورد الأموال التى أرسلها الإمبراطور إليه ، وهذا يدل على وجود علاقات ودية وثيقة بين القاهرة والقسطنطينية على عهد اليكسيس كومنين[٨٤]

ويظهر من هذه الروايات مدى الاختلاف والاضطراب ، وربما يرجع ذلك إلى استناد آنا فى معلوماتها على مصدرين مختلفين ، ولعدم تحققها من صحة هذه المراسلات أو محاولتها تبرئة أبيها وإظهاره بمظهر طيب أمام العالم المسيحى الغربى والقادة الفرنج بعد أن أتهموه بالخيانة . ولاشك أن هذا الأضطراب الواضح فى روايات آنا كومنينا من تدخل أبيها لدى الوزير الأفضل شاهنشاه لاطلاق سراح أسرى الفرنج ، يجعلنا نشك فى هذا الأمر ، خاصة وأن العلاقات السياسية بين مصر وبيزنطة كانت سيئة بسبب النزاع بينهما من أجل السيادة على حوض البحر المتوسط وأن لم تتوقف العلاقات التجارية بينهما[٨٥] . كما أن مصادر الفترة اسلامية أو صليبية لم تشر لوجود أية علاقات أو حدوث اتصالات بين الأفضل واليكسيس فى تلك المرحلة ، ولو كانت هناك علاقات أو مراسلات من نوع ما ، لكانت المصادر الفرنجية أول من يهرع لتسجيلها لأظهار اليكسيس بمظهر الخائن أمام العالم المسيحى . كما أن الامبراطورية البيزنطية سوف تشارك فى حصار مدينة طرابلس الفاطمية عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م ، أثناء الحصار الفرنجى لها لاسقاطها[٨٦] ، وهو ما سنوضحه فى حينه .

وبانتصار الفاطميين فى الدور الأول من موقعة الرملة الثانية ، وإسقاطهم مدينة الرملة ذاتها ، أصبح الطريق مفتوحا أمامهم إلى بيت المقدس ، كما أتيحت لهم فرصة ذهبية طالما تمنوها ، والتى من أجلها خرجوا مرتين سابقين ، ولم يتطلب الأمر سوى أن يتقدم الجيش الفاطمى ويضرب ضربة واحدة تسقط بعدها مدينة بيت المقدس ، مستغلا فى ذلك فرصة الاضطراب والذعر اللذان انتشرا فى مملكة اللاتين الناشئة أثر هزيمتهم القاسية بالرملة[٨٧] .

ولكننا نفاجأ بأن الجيش الفاطمى بقيادة شرف المعالى ابن الافضل بعد أسقاط الرملة ، يقرر التوجه نحو مدينة يافا ، فأصدر أوامره للأسطول الفاطمى ، الذى كان يذرع البحر أنتظارا لما

---

(٨٤) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٢٨ . ويذكر أرشر وكنجز فورد أن عدد السفن الفاطمية التى توجهت لحصار يافا كانت ثلاثين سفينة . راجع :

Archer & Kingsford, the crusades, p. 137.

(٨٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٥٠ حوادث ٤٩٦ هـ . ويذكر العينى أن المسلمين بعد موقعة الرملة قصدوا تخليص بيت المقدس من الفرنج . راجع العينى : عقد الجمان ، مخطوط دار ، ج ١ قسم ٢ لوحة ٥٦١ .

(٨٦) عبر المؤرخ الصليبى وليم الصورى عن هذا الموقف فى مملكة بيت المقدس بعد هزيمة الملك وفراره فى دقة كاملة .

William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 446-447.

(٨٧) Anna comnena, The Alexiad, p. 300.

تسفر عنه المعارك بين القوات البرية للجانبين بالتوجه إلى يافا ، وذلك لاحكام الحصارين البرى والبحرى حولها وذلك فى ٢٩ رجب ـ ٣٠ رجب ٤٩٥ هـ / ٢٠ مايو ١١٠٢ م[٨٨] .

ولكن لماذا فضل الفاطميون القيام بحصار يافا ، ولم يتجهوا مباشرة لمهاجمة بيت المقدس منتهزين فى ذلك هزيمة بلدوين الثانى ، وما حدث من إضطراب وذعر كاملين لدى الفرنج فى القدس ؟

إن المؤرخ ابن الأثير يؤكد حدوث نوع من الخلاف والتردد بين قواد الجيش الفاطمى بعد سقوط الرملة ، بين المسير إلى يافا أو بيت المقدس « فقال قوم نقصد بيت المقدس ونملكه ، وقال قوم نقصد يافا ونملكها »[٨٩] . وعلى الرغم من وجاهة الرأى الخاص بالتوجه نحو القدس فى غياب ملكها بلدوين ، وبعد سحق خيرة فرسانه وفرسان صليبية ١١٠١ م فى الرملة وإمكانية إحراز نصر سهل على بيت المقدس ، مستغلين فى ذلك حالة الذعر والإضطراب التى انتشرت بين صفوف فرنج المملكة ، لدرجة أنه كان بوسع سرية صغيرة من الجند الفاطميين الإستيلاء على بيت المقدس ، دون أن يتعرض حصار يافا لضعف ظاهر ، خاصة وأن حامية بيت المقدس قد تأثرت بغياب الملك وهزيمته ، بل أن غالبية رجال المملكة وعلى رأسهم زوجة بلدوين بدأوا يستعدون للرحيل عن فلسطين نهائيا[٩٠] .

ورغم ذلك يبدو أن الرأى الثانى الخاص بالمسير إلى يافا هو الذى تغلب فى النهاية وهو رأى له وجاهته ومبرراته فى رأينا ، ويقيننا فى ذلك أن قادة الجيش الفاطمى أدركوا بثاقب بصرهم أن القوات الفرنجية المتمركزة فى يافا وبقية المراكز الصليبية تستطيع القيام بتعقبهم ، إذا قاموا بحصار القدس مباشرة فى وقت كان فيه بلدوين طليقا يستطيع الحصول على النجدات والرجال من بقية المراكز الفرنجية الأخرى مما يجعل الفاطميين بين شقى الرحى ، خاصة وأن يافا كانت هى القاعدة الرئيسية التى اعتمد عليها بلدوين تماما فى الصمود أمامهم فعندما يحاصرون يافا فإنهم بذلك يضعون أيديهم على موضع الخطر فى وقت كانت بيت المقدس تقبع دون تعرضها لهجومهم ، كما أنه ليس من المعقول أن تقوم حامية المدينة المقدسة بتركها ومهاجمة القوات الفاطمية عند يافا بالاضافة لادراك الفواطم أن يافا كانت مركز ثقل بالنسبة لبلدوين ، فهى ميناء بيت المقدس الطبيعى على البحر المتوسط ، وأهم موانىء الفرنج بجنوب فلسطين ، وبمثابة الشريان الحيوى لمملكة اللاتين فى أتصالها بالغرب الاوربى ، فكانت من الناحية العملية ، الميناء الوحيد الذى ترسو فيه السفن التجارية الوافدة من أوربا ، حاملة الحجاج والمقاتلين وتمد بيت المقدس بما تحتاجه من مؤون ، وكان بقاء بيت المقدس مرهونا بمدى ما تستقبله من نجدات غربية وحجاج

---

(٨٨) الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ، نشر د . محمد حميد الله ، الكويت ١٩٦١ ، ص ٧٤ ـ ٨١ .

(٨٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٨٤ ؛ العينى : عقد الجمان ، مخطوط دار ، ج ١ قسم ٢ ، لوحة ٥٨٤ .

(٩٠) وصف المؤرخ فوشيه شارتر موقعة الرملة الثانية بأنها كانت كارثة مفجعة على اللاتين بالقدس .

Fulcher of chartres, The Expedition, p. 167; Also: William of tyre,deeds, vol. I, p. 446.

وجنود تدفع اليها بدماء جديدة لمواجهة الخطر الاسلامي المتربص بها ، كما كانت يافا فى قوتها وأهميتها تضاهى حينذاك ميناءى فلسطين وعكا الفاطميتين[٩١] ، ولهذا ستظل أحد المراكز الهامة بالنسبة للفرنج فى صراعهم مع الفاطميين بفلسطين حتى حلت محلها عكا بعد سقوطها فى أيدى الفرنج فيما بعد عام ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م[٩٢] .

وبذلك نقر بصحة الرأى القائل باتجاه الجيش الفاطمى إلى يافا بدلا من بيت المقدس وكانت خطة الفواطم محكمة فى ذلك فكان الهدف من قيام الاسطول الفاطمى بحصارها بحرا هو محاولة عزل المدينة تماما من البحر ، أو الحصول على أية أمدادات أو معونات تأتيها من أساطيل أوربا ويتمكنون بالتالى من طرد الفرنج منها وأسقاطها ، مما يعرض بيت المقدس للخطر وتصبح تحت رحمة الجيش الفاطمى المنتصر[٩٣] .

وكان الفرنج فى موقف لا يحسدون عليه ففى أرسوف أرجفوا بالخطر وانتشار الشائعات التى ترددت عن هلاك بلدوين وقواته ، وزحف القوات الفاطمية المنتصرة ، وكانت تلك الشائعات مصدرها الفرنج أنفسهم ، إذ أن بعض فرسان الفرنج وعلى رأسهم ليثار أوف كمبانى فيكونت يافا « Lithard of combani viscount jaffa » وبلدوين سكوير وجوثمان كونت بروكسل ، قد فروا من الموقعة وهرعوا إلى القدس حيث أفضوا بتفاصيل الكارثة غير أنهم نصحوا بالمقاومة لإعتقادهم أن بلدوين لازال على قيد الحياة[٩٤] .

وما وقع من هزيمة الفرنج والذعر الذى أنتشر نتيجة شائعات موت الملك بلدوين بلغ حدا أن الملكة أردا الأرمينية زوجة بلدوين « Arda the Armenian » ، ومن معها من رجال البلاط ورجال الدين بدأوا يدبرون أمرهم للرحيل من المملكة عن طريق البحر[٩٥] ، فى الوقت الذى قام

---

(٩١) Grousset, Histoire des croisades, Tol. I, p. 183; Archer & Kingsford, the crusades, p. 100; Heyd, Commerce du levant, To. I, p.p. 136-137.

(٩٢) Grousset, Histoire, to. I, p.p. 239-242; Heyd, commerce, to. I, p. 139; Smail, Crusading warfare, cambridge 1959, p. 23.

وقد أشرنا فيما سبق أن يافا لقيت إهتماما بالغا من الفرنج منذ إستقرارهم بفلسطين فقام ملكهم جودفرى دى بويون بتحصينها وتقويتها .

(٩٣) Archer & Kingsford, the crusades, p.p. 136-137.

(٩٤) Fulcher of chartres, the expedition, p. 170; Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p. 543.

ويذكر المؤرخ الصليبى وليم صورى أن أسقف ليديا الذى فر من كنيسته أمام الفاطميين إلى يافا أكد الأنباء القائلة بمقتل غالبية الفرسان الذين تحصنوا داخل قلعة الرملة ، ومنهم الملك بلدوين نفسه باعتباره شاهد عيان لما حدث . راجع :

William of tyre, deeds, p. 447.

(٩٥) William of tyre, deeds, vol. 447.

ويفيد وليم الصورى أن بعض الحجاج الوافدين على القدس ، عند سماعهم بأنباء هزيمة الفرنج فى المرحلة الأولى من موقعة الرملة الثانية وضعف المملكة وأحاطتها بالأخطار ، عادوا ثانية على تلك السفن التى أتت بهم . وكان وليم الصورى هنا بارعا فى تصوير حالة المملكة بعد هزيمة الرملة : راجع :

William of tyre, deeds, vol. 447.

فيه الجيش الفاطمى بحصاره لمدينة يافا وظهور الأسطول الفاطمى عند الأفق الجنوبى محاصرة المدينة بحرا[٩٦] .

وكان الملك بلدوين قد أتخذ طريقه بعد هروبه بمعجزة من الرملة إلى الساحل محاولا اللحاق ببقايا جيشه فى يافا فى وقت كانت القوات الفاطمية تجوب القرى القريبة لمطاردة الفارين ، ومنهم بلدوين نفسه الذى علم بخبر حصار الفاطميين ليافا ، فأتجه نحو أرسوف الواقعة شمال يافا فى رجب ٤٩٦ هـ / مايو ١١٠٣ م ، وكانت فرحة الصليبيين بالغة عندما رأوا ملكهم حيا يرزق وعاودتهم القوة بعد يأسهم من الحياة[٩٧] .

ولم يضع بلدوين وقته فبادر بتجميع القوات والتعزيزات من المناطق المحيطة لمواجهة القواطم وشن هجوم مضاد ، كما عمل على الدخول إلى يافا للدفاع عنها ضد الحصار الفاطمى البرى والبحرى ، ونجح بلدوين فى دخولها بحرا على ظهر سفينة مغامر إنجليزى يدعى جودريك «Gordic the English man» ، والتى تمكنت من أختراق الحصار البحرى الذى ضربه الأسطول الفاطمى على يافا[٩٨] .

وفى يافا بدأت الإمدادات والجند الفرنج تصل إلى بلدوين ، فوصله ثمانين فارسا من الجليل بقيادة هيو أوف فالكنبرج أوف سنت أومير طبرية ، بجانب وصول نجدات أخرى من بيت المقدس ، والخليل والمدن التابعة له ، وأستدعى كل ما يصلح للقتال والإمدادات[٩٩] . وتذكر بعض الآراء أن بلدوين لم يكتف بذلك ، بل أنه أرسل رسائل عاجلة إلى أمراء الشمال مثل تانكريد الوصى على أنطاكية ، وبلدوين أوف لبورج أمير الرها ، يخطرهما بما لحقه من خسائر جسيمة ويطلب منهما نجدات سريعة[١٠٠] .

وقد لعبت الصدفة دورا هاما فى تحويل التيار لصالح الفرنج ، فجاءت الملك بلدوين مساعدات لم تكن فى حسبانه ، قبل أن ينهض الأميران تانكريد وبلدوين لمساعدته ، وتشير المصادر الإسلامية إلى وصول أسطول ضخم يحمل عددا كبيرا من الجند والحجاج الفرنج إلى ميناء يافا

---

(٩٦) William of tyre, deeds, p. 446.

(٩٧) William of tyre, deeds, p. 447.

(٩٨) William of tyre, deeds, p. 447.

وتذكر المراجع الحديثة أن الأسطول الفاطمى المكون من ثلاثين سفينة ضخمة حاول اعتراض طريق بلدوين إلا أن الرياح الشمالية كانت من القوة بحيث أعاقت السفن الفاطمية عن اللحاق بالسفينة الانجليزية .

(٩٩) William of tyre, deeds; vol. I, p. 469.

وينسب للفارس هيوفا لكنبرج هذا بناء حصن تنتن قرب صور ، الذى سيصبح له شأن كبير فى تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية بالأراضى المقدسة . راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥١ . كذلك :

William of tyre, deeds, p.p. 447-448; Anna comnena, the Alexiad, p. 286.

(١٠٠) Stevenson, the crusaders in the East, p. 46; Richard, La Royamne Latin, p.p. 93-94.

أيضا رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص ٦٣ .

أواخر عام ٤٩٥ هـ ـــ ٤٩٦ هـ[١٠١] . وبلغت عدة هذا الأسطول مائتي سفينة ، معظمها من السفن الإنجليزية التي حملت الكثير من الجند والحجاج من إنجلترا وفرنسا وألمانيا بقيادة هاردنج الإنجليزى « Harding English man » ومعه أوتو هاديموت الوستفاليين « Otto, Hademot the West Phalians » وأستطاعت هذه السفن أن تشق طريقها للميناء مخترقة حصار الأسطول الفاطمى ، حيث أمدوا الفرنج بالعون اللازم من جنود وإمدادات . ونستطيع القول أن هذه النجدة البحرية الضخمة قلبت الميزان لصالح الفرنج فى ٥ شعبان ٤٩٦ هـ / أواخر مايو ١١٠٣ م[١٠٢] .

لقد تعلم بلدوين ، ملك بيت المقدس ، درسا قاسيا من هزيمته السابقة ولهذا قام بتنظيم ما معه من الفرسان والمشاه وخرج فى ٦ شعبان ٤٩٥ هـ / ٢٧ مايو ١١٠٢ م من يافا على رأس تلك القوات لقتال الجيش الفاطمى[١٠٣] . وعلى الرغم من أن تفاصيل ما حدث بين الفرنج والجيش الفاطمى أوردته المصادر الإسلامية والصليبية يتميز بالغموض إلا أنه يفهم مما قالته تلك المصادر أن الفاطميين فشلوا فى إيقاع الملك وجنوده فى كمين نصبوه لهم ثم تطويق الجيش الصليبى . وعلى ذلك شنت خيالة الفرنج الثقيلة وعلى رأسها بلدوين هجمة عنيفة منظمة أوقعت الرعب والفوضى فى صفوف الجيش الفاطمى ، مما حمل الجند الفاطميين على الفرار مذعورين ولم تمض إلا ساعات قليلة حتى فر بقية الجيش الإسلامى على غير هدى إلى عسقلان بعد أن ترك وراءه عديدا من القتلى بالإضافة لمعسكرهم الذى وقع فى أيدى الفرنج بكل ما فيه من غنائم[١٠٤] .

---

(١٠١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٢٧٦ ، ابن ميسر : أخبار مصر ص ١٤٦ ، ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٥٠

(١٠٢) Archer & Kingsford, the crusades, p. 137; Oman, Art of war, vol. I, p. 295 conder, the latin kingdom, London 1897, p. 83.

ولا شك أن مجيء هذه السفن الانجليزية يشير للدور الهام والفعال الذى قدمه الانجليز فى مساندة بلدوين فى إحراز نصره النهائى على الفاطميين فى الدور الثانى من موقعة الرملة الثانية ، وهذا يشير ويؤكد الدور الهام الذى أداه الانجليز فى الحرب الصليبية الأولى راجع

Oman, Art of war, vol. I, p. 295.

ولكن المؤرخ الانجليزى جورج تريفليان يذكر فى كتابه : « مختصر لتاريخ إنجلترا » أن اشتراك الفرسان الانجليز أو السفن الانجليزية فى الحروب الصليبية كان يعتبر حالات فردية وأن الحركة الصليبية فى انجلترا لم تكن مشروعا وطنيا تشجعه الملكية الانجليزية عكس الحال فى فرنسا ، خاصة وأن أوربان الثانى كان قد هدد وليم الثانى ملك انجلترا النورمندى بالحرمان لخروجه على تعاليم الكنيسة ، راجع :

Trevelyan, G., A short history of England, Aylesbury 1960, p. 141.

(١٠٣) William of tyre, deeds, vol. I, p. 448.

ويذكر أومان أن عدد الجند الصليبى كان سبعة آلاف من المشاه المسلحين بالأقواس القاذفة للسهام والأحجار وألف من الفرسان راجع

Oman, Art of war, vol. I, p. 295.

(١٠٤) Fulcher of chartres, the expedition, p.p. 172-173; William of tyre, deeds, vol. I, p. 448.

ويذكر المؤرخ وليم الصورى أن الجيش الفاطمى وقت الهجوم الفرنجى كان منهمكا فى صناعة خشبات مجدولة وسلالم لتسلق الأسوار وآلات المجانيق وذلك لمحاجأة المدينة المحاصرة ، ومحاولة القضاء على كل من بداخلها وأسر الملك بلدوين ولكنهم فشلوا راجع

وبهزيمة الفاطميين فى الدور الأخير من موقعة الرملة الثانية تخلص بلدوين ورفاقه الفرنج بذلك من خطر جثم على صدورهم ، وأوشك أن يضع حد أو نهاية تامة للكيان الصليبى فى الشام كله .

ولكن تحول الفاطميين من النصر إلى الهزيمة أمام الفرنج ، كان له تأثير قاس على الوزير الأفضل شاهنشاه ، خاصة وأن إبنه شرف الدولة كان ضعيفا فلم يحظ بطاعة جنده وقادته ، وهذا يفسر لنا الخلاف الذى حدث بين قادته حول خطط سير الجيش بعد إنتظاره فى المرحلة الأولى من موقعة الرملة الثانية ، مما أدى إلى شل حركته وبالتالى هزيمته ، وهذه الأمور حدت بالأفضل لأن يسارع فى أول رمضان ٤٩٦ هـ / صيف يوليو ١١٠٣ م بأن أردف الحملة الفاطمية الفاشلة بحملتين أخريتين ، أحداهما برية بقيادة المملوك تاج العجم — أكبر مماليك أبيه — وكان قوامها أربعة آلاف فارس ، والأخرى بحرية بقيادة القاضى ابن قادوس ، ويذكر ابن الأثير ، أن الأسطول الفاطمى إتجه شمالا فنزل على يافا ، فى حين نزل تاج العجم بقواته فى عسقلان(١٠٥) .

وبينما نزل الأسطول الفاطمى على يافا ، نفاجىء برفض القوات البرية بقيادة تاج العجم ، أن تتجاوز حدود عسقلان فى تقدمها لحصار يافا برا ، ويبدو أن خلافا كبيرا حدث بين القائدين ، أو أن تمردا بين صفوف الجيش البرى من جانب تاج العجم ، رفض على أثره السير لمعاونة ابن قادوس النازل على يافا ، متعللا بأنه لم يتلق أمرا من الأفضل بذلك ، مما أثار حفيظة ابن قادوس ، الذى نزل على يافا ما يقرب من عشرين يوما « فأرسل إلى قاضى عسقلان وشهودها وأعيانها ، وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يوما ، واستدعى تاج العجم فلم يأته ولا أرسل رجلا »(١٠٦) . فبلغ الوزير الأفضل أمر هذا التمرد من جانب تاج العجم ، فأمر بالقبض عليه وأتهمه بالتقصير والإهمال وولى مكانه رجل يسمى جمال الملك الذى عقد له قيادة الجيوش

---

= Michaud, History of the crusades, p. 281; Oman, vol. I, p. 295. Rohricht, Geschichte, p. 39.
ويذكر بعض المراجع الحديثة أن عدد قتلى الجيش الفاطمى كان يتراوح ما بين ثلاثة وأربعة آلاف مسلم ومنهم أمير عسقلان .
راجع :

Michaud, History of the crusades, vol. I, p. 281, Oman, art of war, vol. I, p. 295, Rohricht, Geschichte, p. 39.

ويلاحظ أن رواية الذهبى عن هزيمة الفاطميين أمام يافا اختلفت اختلافا تاما عن مجريات الأحداث . راجع الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، تحقيق فؤاد سيد ، الكويت ١٩٦١ ، ج ٣ ص ٣٤٣ .

(١٠٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٥٠ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٤ ؛ العينى : عقد الجمان ، مخطوط دار ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٥٦٢ . ويلاحظ أن ابن القلانسى يذكر أن هذه الحملات البرية والبحرية قد خرجت تحت قيادة شرف المعالى ولد الأفضل دون الإشارة لكل من ابن قادوس أو تاج العجم ، ونحن نرجح أن شرف المعالى بعد هزيمة جيشه أمام يافا ، وفراره إلى عسقلان عائدا إلى مصر ، حيث عقد له قيادة هاتين الحملتين ، ولكن الأفضل استدعاه ثانية بعد أن عقد القيادة الجيش لتاج العجم ، ابن قادوس للأسطول . راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٢ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤٦ ؛ ابن الجوزى . مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٤

(١٠٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٥٠ ؛ العينى : عقد الجمان ، مخطوط دار ، ج ١ قسم ٣ ، لوحة ٥٦٢ .

الفاطمية بعسقلان[١٠٧] .

وبذلك أدى تمرد أحد قادة الجيش الفاطمى إلى ضياع خير فرصة أتيحت للوزير الأفضل شاهنشاه لإستعادة جنوب الشام للمرة الثالثة ، وقدر لمملكة اللاتين أن تنجو هذه المرة أيضا من نوبة الحماس التى أصابت الفاطميين ووزيرهم والتى تمثلت فى الحملتين السابقتين . وقدر للفرنج أن يحتفظوا بما تحت أيديهم من أملاك وأقاليم وموانىء ساحلية بالشام كانوا يسيطرون عليها وقتذاك .

وفى تلك الأثناء وصلت النجدة التى كان قد طلبها بلدوين من أمراء الشمال ، وبلغ قوامها خمسمائة فارس ، وألفا من المشاة على رأسها أميرى انطاكية والرها ، وليم دوق أكيتانيا ، فرحلا جنوبا ولقيا بلدوين على يافا فى ذو الحجة ٤٩٦ هـ / أواخر سبتمبر ١١٠٣ م[١٠٨] . وعلى الرغم من أن بلدوين لم يكن بحاجة ماسة إلى مساعدتهما ، بعد أنسحاب القوات الفاطمية المهزومة أمام يافا إلى عسقلان الا أن حضورهما شجع بلدوين على تعقب الجيش الفاطمى المنسحب ومهاجمته فى عسقلان .

ولم يكد بلدوين وحلفاؤه يحاصرون عسقلان حتى أدركوا عدم جدوى هذا الحصار فآثروا الانصراف عنها والعودة إلى يافا نظرا لحصانة المدينة من جهة[١٠٩] ، وأفتقارهم إلى مساندة الاسطول البحرى من جهة ثانية . ولهذا قاموا أثناء انسحابهم بتخريب ونهب الضواحى المحيطة بالمدينة وأستولوا على قطعان ماشيتها وعادوا إلى يافا[١١٠] .

وتذكر المصادر الاسلامية أنه أمام تلك الأزمات والانتكاسات المتتالية للجيوش الفاطمية مع

---

(١٠٧) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٥٠ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٨ ؛ العينى : عقد الجمان ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٥٦٢ .

ويلاحظ أن رواية ابن القلانسي عن هاتين الحملتين كانت مضطربة ، فيذكر ان الأسطول الفاطمى الذى أقلع من مصر أول رمضان ٤٩٦ هـ بقيادة شرف المعالى ولد الأفضل وصل إلى يافا فى أواخر شهر شوال وأنه أقام فى مياهها أياما يسر له خلالها امدادها بالميرة والغلال ، فصلحت أحوال المدينة بذلك بعد أن ارتفعت بها الأسعار وقلت بها الأقوات وهذا النص يعطى احساسا أو انطباعا أن يافا كانت خاضعة للنفوذ الفاطمى أو أن الفواطم استعادوها بعد الجولة الأولى من موقعة الرملة الثانية . راجع ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ . ولا شك أن هذا سهوا من ابن القلانسي إذ أن يافا كانت أولى مدن الساحل الفاطمى التى أسقطها الفرنج عند دخولهم الأراضى المقدسة بمساعدة الأسطول الجنوى فى ٤٩٢ هـ / منتصف يوليو ١٠٩٩ م قبل اسقاطهم للقدس نفسها حيث حصنوها وجعلوها الميناء الرئيسي لهم على البحر ولم ينجح الفواطم وأسطولهم فى استعادتها ثانية . راجع رأى أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم حول ذلك . د . عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

(١٠٨) Stevenson, The crusaders in the East, p. 46.

(١٠٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٤٠ .

(١١٠) Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. occ. vol. IV, p. 599 - Chap IX, 15; William of tyre, deeds, vol. I, p. 448.

وعن الخلاف الذى حدث بين تانكريد وبلدوين بعد فشل حصار عسقلان . راجع :

Cahen, C., La Syrie du Nord, p. 234.

الفرنج قام الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى بفتح باب المفاوضات مع حكام دمشق السنيين ، وتقدم اليهم طالبا التعاون والتأييد ضد العدو المشترك فأرسل إلى شمس الملوك دقاق صاحب دمشق يطلب منه المساعدة ضد الفرنج الا أن محاولاته باءت بالاخفاق ولم يجد آذانا صاغية اذ أن دقاقا أعتذر عن ذلك ولم يحضر(١١١) .

ويجب أن نتوقف قليلا أمام موقعة الرملة الثانية ( ٤٩٥ — ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ — ١١٠٣ ) بجولتيها الأولى والثانية فى محاولة لالقاء الضوء على أهمية هذه الموقعة فى تاريخ الصراع الفاطمى الصليبى فى فلسطين اذ ما قيست بالمواقع الأخرى التى خاضها الفاطميون ضد الفرنج فى محاولاتهم لأستعادة فلسطين بأكملها بما فى ذلك بيت المقدس ومدن الساحل الفاطمى والظروف التى أحاطت بانتصار الفاطميين فى البداية ثم هزيمتهم فى النهاية .

ويرى الباحث أن موقعة الرملة الثانية ٤٩٥ — ٤٩٦ / ١١٠٢ — ١١٠٣م تعتبر من المواقع الهامة والحاسمة التى خاضها الأفضل بن أمير الجيوش المتكررة لزحزحة الفرنج عن جنوب الشام كما أنها موقعة فاصلة فى تاريخ الصراع الفاطمى الصليبى فى تلك المرحلة وتضارع فى أهميتها موقعة عسقلان الكبرى أن لم تفوقها من حيث الأهمية والنتائج فقد كان عدد قوات الفاطميين فى موقعة الرملة الثانية تماثل جيوش الأفضل فى عسقلان وفى حين أن جيش الأفضل فى عسقلان قد أنهارت صفوفه أمام الهجمات الاولى التى شنها الفرنج بقيادة جودفرى ورفاقه بحيث لم تثبت فى المعركة طويلا لأسباب سبق ذكرها عند تعرضها لأسباب هزيمة الفاطميين فى عسقلان ٥٠ فى حين أن الجيش الفاطمى فى موقعة الرملة الثانية بقيادة شرف المعالى بن الأفضل تميز بحسن تنظيمه العسكرى ووجود فرق جديدة من العسكر كان الأفضل قد أحدثها ومنها فرق الترابى والحجرية والأفضلية التى لعبت دورا كبيرا فى تحويل المعركة لصالحها فى جولتها الأولى .

ويلاحظ أن حملة عام ٤٩٥ — ٤٩٦ هـ هذه وقعت فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الجيش الفاطمى فى عسقلان أو جيش سعد الدولة القواسى فى موقعة الرملة الأولى . ذلك أن الفاطميين فى حملاتهم السابقة كانوا يتجمعون فى عسقلان تسبقهم دعاية ضخمة تتناقل أخبارهم المنطقة

---

(١١١) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤١ . ويذكر ابن القلانسى أن الأفضل كان قد كتب فى استدعاء المعونة على الجهاد ونصرة العباد والبلاد بانفاذ العسكر الدمشقى فأجيب إلى ذلك وعاقت عن مسيرة أسباب حدثت وصوارف صدفت . وهى رواية غامضة إلى حد ما . راجع : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٢ .
ولكن رواية العينى عارضت رأى ابن ميسر وابن القلانسى الذى يذكر أن « الأفضل كتب الى شمس الملوك دقاق ممجده سيرا عسكره إلى شرف المعالى نجدة له وإعانة » . راجع العينى : عقد الجمان ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٥٦٢ .
ويذكر المؤرخ شارل أومان فى « فن الحرب والقتال فى العصور الوسطى » أن الحروب الطويلة التى خاضها الفاطميون مع الأتراك السلاجقة بالشام والعداء السياسى والمذهبى بينهما أحبط أملهم فى تلقى العون والتأييد منهم . راجع :
Oman, Art of war, vol. 1, p. 289.

كلها ، كما كانوا يضيعون وقتا ثمينا فى عسقلان يصل أحيانا إلى شهور طويلة لأنتظار المدد ومجيء الأسطول فى البحر ، مما أعطى الفرنج الفرصة لتدبير أمورهم وتنظيم قواتهم وأخذ زمام المبادأة ومفاجأة القوات الفاطمية بهجوم غير متوقع . ولكن هذه المرة لم ينتظر الفاطميون طويلا بل أسرعوا بمواصلة سيرهم إلى الرملة مباشرة ولحقتهم الامدادات عند يازور ، وهناك استغلوا صغر قوة الفرنج وقلة حذرهم واستخفافهم بقوة الجيش الفاطمى وأنزلوا هزيمة ساحقة بالجيش الفرنجى وقائده ودمروا الجيش الصليبى تماما على وجه التقريب فى بداية الجولة الأولى للمعركة ، وهى الهزيمة التى وصفها فوشيه شارتر شاهد عيان الوقعة بأنها كارثة مخيفة[112] ، شملت الباقين على قيد الحياة من صليبية ١١٠١ م ، وفر بعدها بلدوين إلى الرملة ثم إلى يافا تاركا وراءه زهرة فرسان الجيش الصليبى صرعى فى ميدان المعركة وذلك فى رجب ٤٩٥ هـ / يونيو ١١٠٢ م .

وبذلك لقى الفرنج أول هزيمة لهم فى فلسطين منذ وصولهم الشرق الاسلامى ، وأنفتح الطريق أمام الجيش الفاطمى المنتصر إلى بيت المقدس لاسقاطها مستغلا فى ذلك حالة الذعر التى أنتشرت فى صفوف اللاتين بعد فرار بلدوين والأشاعات المرجفة بموته ، والتى كانت كفيلة بزعزعة أركان مملكة اللاتين بفلسطين ، فكان بوسع سرية من العسكر الفاطمى أن تستولى على القدس نفسها عقب الموقعة مباشرة دون أن يتعرض حصار الفاطميين ليافا إلى ضعف ظاهر .

ويبدو أن شرف المعالى لم يكن يحظ بطاعة كاملة من قواده ، فقام الخلاف بينهم بعد المرحلة الأولى من المعركة حول وجهة الجيش المنتصر ، مما أدى إلى شل حركته وعدم السير مباشرة إلى يافا أو محاولة إسقاطها[113] . وبينا هم فى اختلافهم هذا وصل الفرنج خلق كثير عن طريق البحر قاصدين زيارة بيت المقدس ، فندبهم بلدوين للغزو معه[114] ، فى الوقت الذى جمع فيه بلدوين صفوفه وقواده وقام بمفاجأة الجيش الفاطمى المحاصر للمدينة الذى أضاع وقتا طويلا فى حصارها دون القيام باقتحامها وأنزل بلدوين هزيمته بالفاطميين وبقائدهم شرف المعالى الذى فر إلى عسقلان تاركا وراءه معسكر الجيش بكل ما فيه غنيمه بأيدى الفرنج .

ونكاد نجزم أن القوات الفاطمية بقيادة شرف المعالى لو قدر لها الصمود حتى النهاية أمام الصليبيين لربما تمكنوا من القضاء على تلك الهجمة الصليبية وكسر شوكتها فى محاولة واحدة ، وإستعادة النفوذ الفاطمى على جنوب الشام بأكمله . ففى أسوأ الحالات بالنسبة للفواطم فان الهزيمة كانت تعنى خسارة الجيش من جيوشهم الضخمة وهم قادرون على اعداد غيرها وبسرعة نظرا لما كانوا يتمتعون به من موارد بشرية واقتصادية ضخمة أثناء وزارة الأفضل شاهنشاه ؛ أما

---

(١١٢) Fulcher of chartres, the expedition, p. 167; William of tyre, deeds, vol. I, p. 446.

(١١٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٧١ حوادث ٤٩٨ هـ .

(١١٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٥٠ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٣٢ .

بالنسبة للفرنج فكان كل معركة يخوضونها تشتغل على وجه التقريب كل قواتهم البشرية ، تاركين وراءهم بيت المقدس خالية من أية دفاعات باستثناء بعض رجال الدين والعجائز والنساء هنالك ، ولهذا فان الهزيمة كانت تعنى لدى الفرنج فقدان أو انهيار المملكة الفرنجية بالقدس . وبذلك تخلص اللاتين من خطر جثم على صدورهم وأوشك أن يضع نهاية للكيان اللاتيني جنوب الشام .

صحيح أن تحول الجيش الفاطمي من النصر إلى الهزيمة ، التي لم تكن كاملة ، أمام الفرنج كان له رد فعل لدى الأفضل شاهنشاه ورجاله بالقاهرة مما حدى به لارسال حملتين برية وبحرية إلى يافا في ذو القعدة ٤٩٦ هـ / أغسطس ١١٠٣ م ، ولكن الخلاف التقليدي بين قائد الحملتين ، أدى إلى فشل الحملة الفاطمية ــ كما أوضحنا ــ مما ضيع على الأفضل شاهنشاه خير فرصة لاستعادة فلسطين ، وقدر لمملكة اللاتين أن تنجو هذه المرة أيضا من خطر نوبة الحماس التي أصابت الأفضل شاهنشاه بالقاهرة .

ولا ننسى أيضا أن الاسطول الفاطمي كان أحد عوامل هزيمة الجيش الفاطمي نهائيا في الجولة الثانية من الموقعة كما كان في عسقلان وموقعة الرملة الأولى . فقد وضح ضعف استغلال امكانيات هذا الأسطول وخاصة عند حصار يافا والذى لم يكن يبدو حصارا محكما اذ تمكنت السفن الصليبية التي كانت تحمل اعدادا ضخمة من الجند والحجاج والألمان من اختراق حصار الأسطول الفاطمي والوصول الى يافا سالمين ، دون أن يكلف الأسطول الفاطمي نفسه عناء التصدى لتلك السفن و محاولة اعاقتها عن توصيل الامدادات والعون إلى الفرنج وملكهم بيافا .

ولكن هذه الجموع الآتية بحرا غيرت ميزان المعركة وقلبته رأسا على عقب لصالح الفرنج في وقت كانوا وملكهم في موقف لا يحسدون عليه بعد كارثتهم قرب الرملة . ولو قدر للاسطول الفاطمي منع هذه السفن من الوصول لميناء يافا ولو تكبد بعض الخسائر لظل التفوق بواكب القوات الفاطمية عند يافا ، ولأصبح مصير الفرنج رهنا بمعركة غير مأمونة العواقب مع القوات الفاطمية وأسطولها عند يافا .

والحق يقال أن الأفضل بعد أن منى بهذه الهزائم المتتالية في هذا الدور من الصراع مع الصليبيين ، حاول أن يطرح جانبا الخلافات السياسية والمذهبية مع حكام دمشق السنيين ، ومد يده إليهم طالبا العون والتأييد ضد العدو المشترك ، والقيام بعمل موحد عله ينجح فيما يفشل فيه من قبل ، ولكنه لم يلق الا صدا وسلبية من دقاق دمشق : « فاعتذر عن ذلك ولم يحضر »[١١٥] .

---

(١١٥) ابن ميسر : اخبار مصر ، ص ٤١ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ص ٣٢ .

ولهذا يذكر المؤرخ شارل أومان : « أنه على الرغم من أن أنتصار الصليبين على الفاطميين فى الرملة الثانية لم يكن انتصارا حاسما بمعنى الكلمة ، الا أنه أنقذ فلسطين من أن تعود ثانية لحظيرة الفاطميين ، فى حين أن الهزيمة كانت ستعجل بالنهاية السريعة لمملكة اللاتين فى الشرق الاسلامى »[116] .

وكان الرغبة لا تزال كامنة لدى الأفضل بن أمير الجيوش فى مواصلة الجهاد المقدس ضد الصليبيين فى جنوب الشام ، والواقع أنه لم يتخل بعد عن أمله الكبير فى تطهير فلسطين والأراضى المقدسة منهم . وتذكر بعض الآراء أن سقوط مدينة عكا الفاطمية فى أيدى الفرنج فى عام ( ٤٩٧ هـ ١١٠٤ م )[117] ، وما أرتكبه الفرنج فيها من مذابح بشعة ، وأقتراب خطرهم وتهديدهم لأملاك الفاطميين على الساحل ، كانت من أهم الأسباب التى دفعت الأفضل للتفكير فى ارسال هذه الحملة الكبيرة لطرد الصليبين نهائيا من الأراضى المقدسة[118] .

وقد شهد صيف عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م ، ما أعتبره المؤرخون آخر محاولات الأفضل بن بدر الجمالى الكبرى ، والأكثر جدية ضد الصليبيين فى الشام لاستعادة سيطرة الفاطميين على جنوب الشام[119] ، فأعد حملة ضخمة قوامها خمسة آلاف جندى من المصريين والسودان فضلا عن العرب ، وأنفق فيهم أموالا ضخمة[120] ، ووضع عليها العديد من القادة البارزين مثل زهر الدولة بناء الجيوشى أمير عكا السابق ، وأمير قيسارية وجمال الملك أمير عسقلان فى حين وضع قيادة الجيش العامة تحت أمره أحد أبنائه ويسمى سناء الملك حسين[121] ، فى حين قام بتجهيز الاسطول فى البحر لتقديم العون للحملة البرية[122] ، وذلك لشن هجوم جديد ضد الفرنج .

على أن الافضل أتجه بعد ذلك وجهة أظهرت مدى أستفادته من الدروس السابقة ، ونعنى بها

---

(١١٦) Oman, Art of war, vol. I, p. 296, vol. I.

(١١٧) سوف نتناول هذه النقطة بالتفصيل فى الفصل الخامس بسقوط مدن الساحل الفاطمى وموقف الأفضل من ذلك

(١١٨) Stevenson, The crusaders in the East, p. 47.

(١١٩) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص ١٤٤ كذلك
Stevenson, The crusaders in the East, p. 47; Grousset, Histoire des croisades, To. I, p. 360, L'épopée des croisades, p. 68.

(١٢٠) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤١

(١٢١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٧٦ — ٦٧٩ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٨ ، وقد ذكر كل من ابن القلانسى وابن ميسر أن قائد هذه الحملة كان شرف المعالى ولد الأفضل شاهنشاه ، ولا شك أن هذا سهوا منهما ، إذ أن شرف المعالى كان قائدا للحملة الفاطمية الثانية التى هزمت فى الرملة الثانية ( ٤٩٥ — ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ — ١١٠٣ م ) . ويرجح أن الأفضل عزل شرف المعالى من قيادة أية جيوش فاطمية مرسلة للشام بعد أحداث وهزائم حملة ٤٩٥ — ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ — ١١٠٣ م . راجع ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤١ ؛ ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٨ .

(١٢٢) Fulcher of chartres, The expedition, p.p. 182-183; William of tyre, deeds, vol. I, p. 464.
أشارت هذه المصادر اللاتينية بالتفصيل لاستعدادات الأفضل البرية والبحرية لشن هجوم جديد على الفرنج

الهزائم المتتالية التي مني بها أمام اللاتين منذ عام ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م ، إلى عام ٤٩٦ هـ / ١١٠٤ م . اذ أن الأفضل بدأ يفكر جديا فى فتح باب المفاوضات مع حكام دمشق السنيين ، محاولا طرح الخلافات المذهبية والسياسية جانبا ، ومد يده اليهم طالبا العون والتأييد ضد الفرنج — العدو المشترك — للقيام بحملات عسكرية فاطمية سلجوقية مشتركة علّه ينجح فيما أخفق فيه من المرات السابقة . اذ تخبرنا المصادر الاسلامية أن الأفضل لم يتردد فى طلب المساعدة من سلاجقة دمشق السنيين ، فعرض على ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق مساعدته فى قتال الصليبيين[123] . وربما أن الأفضل أراد أن يجعل من اشتراك الدمشقيين فى صراعه مع الفرنج أن تكون بداية لتنسيق عمليات عسكرية مشتركة بينهما والتمهيد لعقد حلف فاطمي شيعي — سلجوقي سني قوى ، ويعنى آخر تكوين محورى دمشق — القاهرة فى محاولة للاطباق على اللاتين من الشمال والجنوب وحصرهم بين شقى الرحى — اذا ما جاز استخدام هذا التعبير .

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يفتح فيها الأفضل بن بدر الجمالي باب المفاوضات بطلب العون من حكام دمشق السنيين اذ تخبرنا المصادر الاسلامية أنه فعل ذلك من قبل عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م عندما منيت جيوشه بهزائم متتالية أمام الفرنج الا أنه لم يجد آذانا صاغية من جانب دقاق ابن تاج الدولة تتش صاحب دمشق حيث : « أعتذر عن ذلك ولم يحضر[124] . ولكن الظروف والأحوال تغيرت هذه المرة وتطورت لتجعل دمشق تستجيب فى سرعة لنداء القاهرة ويعرب طغتكين أتابك دمشق عن فرحة وسروره لمساندة الأفضل شاهنشاه وتوحيد جهودهما فى الجهاد المقدس ضد الفرنج[125] .

ورغم أن بعض المؤرخين يرى أن هذا الموقف وهذا التحول المفاجيء من جانب امارة دمشق السلجوقية فى استجابتها لطلب الفاطميين ، أمرا غريبا ، وأن أمارة دمشق لم تكن وقتذاك قد أحست بالخطر الصليبي ، أو أنها كانت على عداء مع الفرنج بالشام ، مع وجود خلاف مذهبي وسياسي بين فاطمي القاهرة وسلاجقة الشام ، الا أن التطورات والأحداث السياسية الداخلية لامارة دمشق وقتذاك ، ونعني بها التنازع على حكم امارة دمشق بعد وفاة دقاق بن تتش ، وصعوبة موقف طغتكين لقيامه باغتصاب الامارة من أصحابها الشرعيين ، هو الذى دفعه للانحياز للأفضل ومد يد المساعدة له ضد اللاتين ، وبالتالي تورطه فى حروب ضدهم ، فكان ذلك بمثابة أول مجاهرة بالعداء من جانب امارة دمشق ضد الفرنج ، وبداية فترة من الحروب والصراعات بينهما فى الفترة من عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م[126] .

---

(١٢٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٧٢ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤١ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٣٥ .

(١٢٤) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٧٢ .

(١٢٥) ابن ميسر . نفس المصدر ، ص ٤١ أحداث ٤٩٦ هـ .

(١٢٦) Stevenson, The Crusaders in the East, p. 48; Fink, The foundation of the Latin states, in Setton (ed.,) vol. I, p. 386.

أما التطورات الداخلية لامارة دمشق فمؤداها أنه بعد وفاة شمس الملوك دقاق صاحب دمشق ، فى رمضان ٤٩٨ هـ / يونيو ١١٠٤ م ، وتنازع أفراد أسرته الحكم مع أتابكة ظهير الدين طغتكين الذى أراد أن يستحوذ على الامارة لنفسه ، فجعل فى حكم دمشق تتش بن دقاق ، الذى لم يتجاوز عمره سنة واحدة ، ثم أحل مكانه أخ لدقاق يسمى محيى الدين أرتاش بن تاج الدولة تتش ، وكان يبلغ من العمر أثنى عاما فى ذى الحجة عام ٤٩٧ هـ / أغسطس ١١٠٤ م ، غير أن أرتاش ارتاب فى نوايا أتابكة طغتكين « فأوحش الملك محيى الدين أرتاش من ظهير الدين أتابك ومن الخاتون صفوة الملك والدة شمس الملوك وأوقعت أمه فى نفسه الخوف منهما ، وأوهمته أنهما ربما يعملان عليه فيقتلاه ، والأمر بالضد فخاف منهما وحسن الخروج من دمشق ، ففر منها هاربا إلى حوران فأجاره أيتكين الحلبى أمير بصرى حيث راسلا بلدوين ملك الفرنج واستنجدا به وحرضاه على المسير إلى دمشق حيث أستبد طغتكين بالأمور وأصبح أميرها »[١٢٧] .

ويبدو أن طغتكين راح يعمل على أكساب حكمه الشرعية باعتباره مختصبا لامارة دمشق فى الوقت الذى طلب منه الأفضل مساعدته ضد الفرنج ، وكان طغتكين بحاجة إلى حليف قوى لمواجهة الخطر المحدق به من جانب المطالبين بعرش دمشق ، ومن جانب الفرنج أيضا ، ولهذا لم يتردد فى مد الأفضل بالعون اللازم ليظهر مدى قدرته وقوته فى تصريف شؤون الامارة ، ومن جانب آخر ليكون تحذيرا للجانب المعارض فى دمشق بمدى قوة الوالى الجديد وأنه لا يألو جهدا فى جهاد الكفرة أعداء الدين ولهذا أظهر طغتكين فرحه وحماسه لمساعدة الأفضل لرغبته فى القضاء على الفتنة التى أثارها أرتاش ( بكتاش ) بن تتش المطالب بعرش دمشق والمنحاز إلى الصليبيين .

ويفهم من النصوص التى لدينا أن طغتكين كان يفكر فى الذهاب بنفسه على رأس القوة العسكرية الدمشقية المرسلة إلى عسقلان ، ولكن أعاقه عن ذلك انشغاله بالاستعداد لمهاجمة بصرى التى التجأ اليها أرتاش ( بكتاش ) بن تتش وحليفه أيتكين الحلبى الذى أغراه بمراسلة الأفرنج والانضمام اليهم[١٢٨] . بل أن المؤرخ ابن القلانسى يذهب إلى حد القول بأن طغتكين قد ركب بنفسه فعلا بعد أن أستدرك الرأى واستصوب المسير إلى العسكر المصرى للأعتضاد على الجهاد[١٢٩] .

ويتضح لنا المبالغة فى رواية ابن القلانسى فلم يكن معقولا أن يغامر طغتكين بالخروج بنفسه أو

---

(١٢٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٥ . ويذكر ابن القلانسى أن بلدوين رفض مساعدة أرتاش بن تتش فى بداية الأمر ثم وافق . أيضا العظيمى : تاريخ العظيمى ، ص ٣٧٧؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٣٥

(١٢٨) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤٦ . ويذكر ابن القلانسى أن طغتكين لم يتمكن من الإجابة إلى المراد لأسباب عاقته عن المعونة والاسعاد . وتوجه فى العسكر إلى بصرى فنزل عليها عازما على مضايقتها وفيها الملك أرتاش بن تاج الدولة وأيتكين الحلبى لأنهما كانا عند الفرنج . راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(١٢٩) ابن القلانسى : نفس المصدر ، ص ١٤٩ .

يرسل جيشا كبيرا لما في ذلك من تهديد كبير على مركزه بامارته الناشئة في وقت كان في أشد الحاجة لمثل هذا الجيش ، حيث أحاطته الأخطار من جانب المطالبين بعرش دمشق بجانب خطر الفرنج المتربصين بالقوى الاسلامية . وعلى هذا أرسل طغتكين أحد قواده ويسمى « أصبهبذ صباوو »[١٣٠] على رأس قوة من الجند الدمشقيين بلغت حوالى ألف وثلاثمائة من الرماة نجدة لولد الأفضل[١٣١] . وسواء قاد هذه النجدة الدمشقية طغتكين أو أحد قواده فانها كانت بمثابة أول محاولة عملية جادة يشترك فيها المسلمون في مصر والشام ضد الصليبيين وتسبق بذلك محاولات كل من عماد الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي . وفي ذي الحجة ٤٩٨ هـ / أغسطس ١١٠٥ م ، تحرك الجيش الفاطمي صوب عسقلان ، وهناك أنضمت اليه العساكر الدمشقية بقيادة أصبهبذ صباوو وجهارتكين بعد أن أجتازت أقليم شرق الاردن ، ثم تقدمت القوات المتحدة صوب الرملة ، في الوقت الذى واكبهم فيه الاسطول الفاطمى في البحر ، وأتخذت الجيوش الاسلامية المتحدة موقعا في سهل الرملة[١٣٢] .

على أن أنباء هذه الحملة الفاطمية الدمشقية المشتركة أصابت الفرنج بالفزع ، كما تذكر المصادر الصليبية نفسها[١٣٣] . ولهذا فقد أسرع بلدوين بترك يافا ، أثر سماعه بوفود القوات الاسلامية المتحالفة ، الى ناحية الرملة حيث يستطيع حماية كل من بيت المقدس ويافا كعادته في كل مرة . وسرعان ما أجتمع حول الملك بلدوين أتباعه وأنصاره من أمراء الصليبيين بالأراضى المقدسة ، ومعهم جيوشهم وكان معه أيضا أرتاس ( بكتاش ) بن تاج الدولة تتش الكبير المطالب بعرش دمشق ومعه مائة رجل وسائر من تبقى من قوات الفرنج بالشام ، والتى تكونت من

---

(١٣٠) يسميه الذهبي صباد . راجع الذهبي : دول الإسلام ج ٢ ص ٢٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٢٦ . وكلمة أصبهبذ كلمة فارسية معناها قائد ، وكانت لقبا عاما لملوك طبرستان وورد ذكرها في نقش خاص بالخليفة المأمون العباسي على الكعبة بمكة عام ٢٠٠ هـ : الأصبهبذ كابل شاة ، وأطلق هذا اللقب أيضا على أبي جعفر محمد بن وتلوين باولد وذلك في نقش له على برج بوكاو بتاريخ ٤١١ هـ . راجع أحمد قدامه : معالم وأعلام في بلاد العرب ، ط . دمشق ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م ، القسم الأول ، ج ١١ ( القطر السورى ) ص ٣١ .

(١٣١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٧٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٨ . ويقدر الذهبي عدد القوات الدمشقية بألفين من الجند . الذهبي : العبر في خبر من غبر ، ج ٣ ص ٢٥٠ . وأشار لوشيه شارتر لهذه النجدة الدمشقية ويذكر أن عددها كان يزيد عن ألف من رماة السهام والحراب البارعين . راجع :

Fulcher of chartres, the expedition, p. 183.

(١٣٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٤٥ . وقد أختلفت آراء المصادر الإسلامية والفرنجية حول أعداد الجيش الفاطمي بعد إنضمام القوات الدمشقية إليه . فأجمعت المصادر الإسلامية أن عدد الجيش المشترك كان يزيد عن ستة آلاف من المشاة ورماة السهام والفرسان . راجع ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٧٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٨ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ص ٢٠ . ويذكر ابن القلانسي أن عدد الجيش الفاطمي بدون النجدة الدمشقية بلغ عشرة آلاف فارس وراجل . ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٨ . ويذكر المؤرخون الصليبيون وعلى رأسهم لوشيه شارتر أن عدد الجند الفاطميين والأتراك بلغ خمسة عشر ألف مقاتل بجانب رجال الأسطول . راجع :

Fulcher of chartres, the expedition, p. 184; William of tyre, deeds, vol. I, p. 465.

أيضا راجع مناقشة هذه الآراء في :

Stevenson, the crusaders in the East, p. 47; F. 7.

(١٣٣) Fulcher of chartres, the expedition, p. 183; William of tyre, deeds vol. I, p. 464.

حاميات الجليل وحيفا كما استدعى بلدوين من بيت المقدس البطريرك ايرمار بكل من استطاع استدعاؤه من الجند وبلغ عددهم مائة وخمسين رجلا ، ومعهم الصليب المقدس وبلغ قوام الجيش الفرنجي حوالى خمسمائة فارس ، وألفين من الجند المشاة[١٣٤] .

وتحدثنا المصادر الفرنجية عن خطة الجيش المصرى الدمشقى لهزيمة الفرنج فتذكر أن الجيش الاسلامى المتحد حاول القيام بخدعة وذلك بتقسيم قواته الى قسمين : قسم صغير يتجه الى الرملة ويقوم بمشاغلة الفرنج فى قتال مفتوح ، أما القسم الاكبر فيعاون الأسطول الفاطمى ويهاجم يافا ويسقطها . وتذكر هذه المصادر أن الخطة فشلت بسبب قيام الفرنج بهجوم مفاجىء على القوات الاسلامية المتحالفة، فلم يتاح الوقت لتنفيذ خطتهم تلك[١٣٥] .

وكيفما كان الأمر ، فقد دارت المعركة بين الجانبين فى يوم الاحد ١٤ ذى الحجة ٤٩٨ هـ / ٢٧ أغسطس ١١٠٥ م ، فى سهل الرملة . وقد ارتاع بلدوين ورفاقه فى بداية المعركة لما أبداه الفاطميون وحلفاؤهم الأتراك من شجاعة وبلاء حيث مال ميزان المعركة لصالح القوات الاسلامية فى البداية ، ففى الوقت الذى شن فيه أتراك دمشق من الرماة والمشاة هجوما عنيفا كاد يحطم صفوف الصليبيين بأكملها غير أن بلدوين شن هجوما مضادا ، بعد أن جعل اللواء بين يديه ، شتت شمل المهاجمين ، فى الوقت الذى قامت فيه ميمنة الجيش الاسلامى بترك ميدان القتال فى محاولة للاستيلاء على ميناء حيفا فى وقت حمى فيه وطيس المعركة إلا أن محاولتها باءت بالفشل وعندما عادت فلول القوات فى المساء وجدت أن المعركة قد أنتهت بهزيمة القوات الاسلامية المشتركة ففر صباوو بأتراكه الى دمشق ، وأرتد الفاطميون الى عسقلان بعد أن أصيبوا بخسائر كبيرة ولقى جمال الملك أمير عسقلان مصرعه[١٣٦] ، ووقع فى أسر الصليبيين زهر الدولة بنا الجيوشى أمير عكا وكذلك أمير أرسوف السابق[١٣٧] حيث حصّل بلدوين منهما على فدية كبيرة مقابل اطلاق سراحهما من الأسر وقدرتها المصادر الفرنجية بعشرين ألف قطعة ذهبية بينما نجح سناء الملك حسين ابن الأفضل شاهنشاه[١٣٨] ، قائد الجناح الفاطمى فى الجيش المتحد ، بالفرار الى القاهرة ولم يخف المؤرخ فوشيه شارتر حسرته لفرار سناء الملك لما كان يعلقه على أسره من الحصول على فدية كبيرة[١٣٩] . ويلاحظ أن خسائر الصليبيين فى تلك الموقعة كانت

---

(١٣٤) Fulcher of chartres, Ibid, p. 184; William of tyre, deeds, vol. I, p. 465.

واختلفت آراء المصادر الفرنجية نفسها حول العدد الحقيقى للجيش الفرنجى راجع ذلك فى

Stevenson, the crusaders in the East, p. 47; J. Tolkowsky, A history of Jaffa, p. 93.

وتقدر المصادر الإسلامية عدد القوات الفرنجية فى المعركة بحوالى ألف وثلاثمائة من الفرسان وثمانية آلاف راجل راجع ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٧٢ ؛ الذهبى : دول الإسلام ج ٢ ص ٢٠ ؛ المقريزى اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٣٥

(١٣٥) Fulcher of chartres, the expedition, p. 186; William of tyre, deeds. vol. I, p. 465.

(١٣٦) فى المقريزى : جمال الملك منيع الإسلام . راجع : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٣٥

(١٣٧) المقريزى : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٥ .

(١٣٨) فى المقريزى سعد الملك حسين . المقريزى . نفس المصدر ج ٣ ص ٤٢ .

(١٣٩) Fulcher of chartres, the expedition, p. 187.

كبيرة أيضا ، فقتل الكثير من الجند الفرنج وعلى رأسهم أمير ارسوف وقائد قوات عكا وأجمعت المصادر الاسلامية على أن خسائر الجانبين كانت متقاربة أو متساوية على وجه التقريب[١٤٠] .

وقد انقسم المؤرخون المسلمون إلى فريقين فى عرضهم نتيجة موقعة الرملة الثالثة ، ففى حين يذكر الفريق الأول وعلى رأسه ابن ميسر وابن القلانسى أن المعركة أنتهت بهزيمة الجيش الفاطمى الدمشقى وفراره الى دمشق والقاهرة[١٤١] ، ومؤيدين بذلك المصادر الفرنجية ، يذكر الفريق الثانى وعلى رأسه ابن الأثير والعظيمى ، أن المعركة قد انتهت بدون ظهور فريق على الآخر[١٤٢] ، وعبر عن ذلك ابن الأثير تعبيراً دقيقاً بقوله انه : « لم تظهر احدى الطائفتين على الأخرى فقتل من المسلمين ألفا ومائتين ، ومن الفرنج مثلهم وقطعوا الحرب وعادوا الى عسقلان وعاد صباوو إلى دمشق[١٤٣] » ، ويذكر العظيمى انه « التقى عساكر مصر والفرنج وأتابك طغتكين وقتل الخلق العظيم ولم يكن كسره على أحد الفريقين[١٤٤] .

ونحن نرجح أن أنتصار الصليبين على جيش الحلف الاسلامى لم يكن سهلا فقد كانت خسائرهم كبيرة كما ذكرنا من قبل كما كانت خسائر المسلمين ثقيلة أيضا وأشارت غالبية المصادر الاسلامية إلى أن خسائر الجانبين كانت متقاربة بل أن الدلائل تثبت أن هذا الانتصار الصليبى لم يكن انتصارا حاسما بمعنى الكلمة ، كما كان فى عسقلان أو فى موقعتى الرملة الأولى والثانية بل لم يزد عن كونه هزيمة مترفقة ـــ أن صح هذا التعبير ـــ ولدينا من الشواهد ما يؤكد هذا الرأى :

أولاً : أن بلدوين الأول كان يحرص فى لقاءاته السابقة فى عسقلان والرملة الأولى والثانية ، مع القوات الفاطمية على تعقب فلولها بعد هزيمتها حتى أسوار عسقلان ذاتها ، ثم يعود مرة أخرى لتقسيم غنائم القوات المهزومة ولكن فى هذه المرة لم يستطع بلدوين أن يمضى فى

---

= وراجع تفاصيل ذلك فى :

Fulcher of chartres., p.p. 186-187; R.H.C., Hist. occ., vol. IV, p.p. 633-635; William of tyre, deeds, vol. I, p.p. 465-466.

(١٤٠) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٧٢ . ويذكر أن خسائر كل من الجانبين كانت ألفا ومائتى رجل . أيضا ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤١ ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٩ . وتذكر المصادر الصليبية أن خسائر الجيش الفاطمى كانت تقدر بحوالى أربعة آلاف رجل فى حين كانت خسائر الصليبيين ستين فقط . راجع :

Fulcher of chartres, the expedition, p. 187; William of tyre, deeds, vol. I, p. 466.

(١٤١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٩ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤١ .

(١٤٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٧٢ ؛ العظيمى : تاريخ العظيمى ، ص ٣٧٧ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ١١٨ ؛ الذهبى : دول الإسلام ج ٢ ص ٢٠ ؛ العبر فى خبر من غبر ، ج ٣ ص ٣٥٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ١٣٥٨ هـ ، ج ٢ ص ٦٤ .

(١٤٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٧٢ .

(١٤٤) العظيمى : تاريخ العظيمى ، ص 377 ، وأيدت المراجع الحديثة آراء المصادر الاسلامية حول ذلك . راجع : Stevenson, the crusaders in East, p. 47; Zoé oldenburg, op. cit., p. 173; Lane-poole, A history, Vol. VI, p. 166, Besant & Palmer, Crusades, p. 245.

مطاردة الفاطميين أو أتراك دمشق بعد استباحة معسكرهم نظرا لما منيت به قواته من خسائر ثقيلة . وتذكر المصادر الفرنجية أن بلدوين اكتفى بنهب المعسكر الاسلامى والاستيلاء على ما فيه وعودته إلى يافا لتوزيع الغنائم على فرسانه ورجاله دون القيام بتتبع فلول القوات المنهزمة(١٤٥) .

ثانياً : لو أن انتصار الفرنج فى سهل الرملة كان حاسما أو كاملا لقام بلدوين بعد الموقعة مباشرة بمهاجمة دمشق أو تهديدها على الأقل لايقاع الذعر بهذه الجبهة الجديدة التى أعلنت عداءها للفرنج وذلك لأسباب منها قيام طغتكين بمساعدة القوات الفاطمية فى معركتها ضد الفرنج وتظاهر بلدوين بمعاونته للأمير السلجوقى أرتاش بن تاج الدولة تتش الكبير الذى طلب نجدته ضد طغتكين مغتصب امارة دمشق ، وكان من المنطقى أن يحرص بلدوين فى قمة انتصاره ، الذى لو كان حاسما دون تلك الخسائر الجسيمة التى منى بها ، أن يوقع الرعب بالجبهة الدمشقية التى أعلنت عن نواياها العدائية ضد مملكة اللاتين بتحالفها مع الأفضل شاهنشاه .

ثالثاً : أن بلدوين لم يواصل مساندته أو تأييده للأمير الشاب أرتاش بن تتش بعد الموقعة مما حدا بأرتاش للانصراف عنه بعد أن خاب أمله فى بلدوين ويأس من الحصول على التأييد المرتقب من الفرنج فانسحب إلى الرحبة على نهر الفرات(١٤٦) .

وهذه الأدلة أو الشواهد تثبت رأينا بأن النصر الصليبى على قوات الحلفاء الاسلامية فى سهل الرملة لم يكن نصراً حاسماً بمعنى الكلمة .

أما الاسطول الفاطمى الذى كان يقف خارج يافا فلم يعلم نتيجة المعركة الا بعد أن ألقيت رأس أمير عسقلان جمال الملك على ظهر أحد سفنه ، فلم يجرؤ على مواصلة حصاره للمدينة ، وقفل عائدا الى مصر دون أن يحاول القيام بأى نشاط عسكرى على الساحل الشامى أو أن يقدم العون للقوات الفاطمية المتحاربة(١٤٧) . وكل ما قام به أثناء عودته ومروره ببعض مدن الساحل الفاطمى مثل صور وصيدا وطرابلس وعسقلان ، أن قام بتقوية الدفاعات عن تلك المدن وامدادها بالمؤن والميرة(١٤٨) ، ولكن الاسطول الفاطمى تعرض أثناء عودته إلى مصر لكارثة اذ هبت عاصفة قوية أغرقت الكثير من رجاله وقذفت بنحو خمسة وعشرين سفينة من سفنه على

---

(١٤٥) العظيمى : تاريخ العظيمى ، ص 377.

(١٤٦) ابن الأثير : الكامل ، ج. ١٠ ص ٢٧٢ ؛ العظيمى : نفس المصدر ، ص 377

(١٤٧) Fulcher of chartres, the expedition, p. 187.

(١٤٨) العظيمى : تاريخ العظيمى ، ص 377 حوادث ٤٩٧ هـ ، كذلك : Fulcher of chartres, the expedition, p.p. 187 - 188.

شواطىء الموانىء الصليبية ، فوقعت غنيمة سهلة فى أيدى الفرنج[١٤٩] . وبذلك أكمل انسحاب الأسطول الفاطمى وغرق بعض سفنه هزيمة جيش الحلف الاسلامى ، وليسدل ستارا على فصل من فصول المأساة فى الصراع الفاطمى الصليبى فى الشام .

وتذكر بعض الآراء الحديثة أنه بهزيمة الفاطميين وسلاجقة دمشق فى موقعة الرملة الثالثة ، انتهت آخر محاولات الأفضل شاهنشاه الضخمة التى قام بها لاستعادة فلسطين من أيدى الفرنج وفشل الأفضل وخليفته الآمر بأحكام الله فى زحزحة الصليبيين عن أماكنهم ومراكزهم فى فلسطين بشكل نهائى وضاعت بذلك خير فرصة أتيحت للأفضل لاستعادة أملاك الفاطميين هناك[١٥٠] .

ويمكن القول أنه بهزيمة الرملة الثالثة انتهت بذلك أول محاولة فاطمية سلجوقية ضخمة لطرد الفرنج من جنوب الشام . ولكن تلك الحملة الفاطمية الدمشقية المشتركة لم تكن الا فاتحة لسلسلة من الحملات المشتركة بين الجانبين فيما بعد وسوف يظهر التعاون بين القاهرة ودمشق عند تهديد الفرنج لبقية مدن الساحل الفاطمى وبعد غارة بلدوين الشهيرة على مصر عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م .

وقد أجمعت غالبية آراء المؤرخين القدامى والحديثين على اخفاق الوزير الأفضل بن بدر الجمالى فى محاولاته المتكررة والجادة لاستعادة بيت المقدس وفلسطين من أيدى الصليبيين فى هذا الدور المبكر من أدوار الجهاد الفاطمى المقدس ضد الفرنج على الرغم من امكانيات الخلافة الفاطمية وكثرة مواردها البشرية والمالية ، وأثارت هذه الحالة انتباه المؤرخين المعاصرين واللاحقين للفترة موضوع الدراسة حتى أن صاحب النجوم الزاهرة يتعجب من « عدم قدرة الخلافة الفاطمية على زحزحة الفرنج من أماكنهم رغم قدرتها فى الأموال والأسلحة والرجال[١٥١] .

وحقيقة الأمر أن هناك عدة عوامل تضافرت لتفشل جهود الأفضل بن بدر الجمالى فى هذه المرحلة أمام الصليبيين معظمها يتعلق بالفاطميين أنفسهم والآخر يتعلق بالفرنج . أما الأسباب المتعلقة بالفاطميين تتمثل فى الجيش الفاطمى نفسه من ناحية تنظيمه وتكتيكاته التى قاتل بها الفرنج ، بجانب الأسطول الفاطمى الذى لم يقم بدور يذكر فى تلك المرحلة من مراحل الصراع

---

(١٤٩) Fulcher of chartres, Ibid., p. 188; Albert of D'Aix, R.H.C., Hist. Occ Vol. IV, p. 635; William of tyre, deeds, Vol. I.p. 466.

ويذكر وليم الصورى فى روايته أن ما يقرب من ألفين من البحارة والجدفون المسلمون وقعوا أسرى فى أيدى الفرنج .

راجع : William of tyre, deeds, Vol. I.p. 466.

(١٥٠) رنسيمان : تاريخ الحروب ، ج ٢ ص ١٤٧ ، كذلك : Stevenson, the crusaders in the East, p. 47; Lane-poole, History, Vol.VI,p.165.

(١٥١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨٠ .

الفاطمي الصليبي . ويضاف لذلك مدينة عسقلان نفسها ، والتي كانت ـــ رغم دورها الهام والكبير كقاعدة بحرية متقدمة للجيوش الفاطمية وأساطيل البحرية فى فلسطين فى صراعهم مع الفرنج ـــ الا أنها أدت دوراً مغايراً خلال تلك المعارك التي حدثت في عسقلان والرملة بجانب أسباب تتعلق باختلاف قادة الجيوش والأساطيل الفاطمية وعدم وجود تنسيق وتعاون كاملين فى الهجمات البرية والبحرية بينهما .

ويتضح لنا من الحملات التي أرسلها الأفضل إلى فلسطين فى الفترة من عام ٤٩٤ هـ / ١١٠١ م ، أنه لم يكن للخلافة الفاطمية جيشا قوميا أى يتكون من أبناء الشعب المصرى فقد كان الجيش الفاطمي خليطا متنافرا من الجند المرتزقة الذين أختلفت أهواؤهم ومشاربهم وأجناسهم ، واتضح هذا التنافر فى عدم وجود أى تنسيق أو تعاون بين فرق هذا الجيش فى مواجهته للقوات الفرنجية وأثناء المعارك التي دارت فى سهل الرملة فلم يكونوا مستعدين للثبات أو التفانى فى المعركة حتى نهايتها ، بجانب وجود نقص ظاهر فى ابراز الحافز وبث الحماس بينهم .

وعلى الرغم من ضخامة الجيش الفاطمي واسلحته الا أنه كان أقل كفاءة أو مقدرة من الجند الفرنج أنفسهم نظراً لضعف تدريبهم وقلة توجيههم وتفككهم رغم ادخال الأفضل لعناصر جديدة ضمن الجيش ونعنى بها فرقة الحجرية الا أن الفاطميين حاولوا مواجهة خيالة الصليبيين الثقيلة «Cataphracti» بخيالة أقل كفاءة مسلحين فقط بالرماح[١٥٢] . واتضح عدم التنسيق بين هجمات فرق الجيش الفاطمي فى موقعة الرملة الثانية والثالثة عندما تركت ميمنة الجيش الفاطمي الجيش الرئيسي وطاردت قوات الفرنج المنهزمة ، مما أحدث نوعا من الخلخلة فى تماسك القوات الفاطمية وذلك فى موقعة الرملة الثانية ولولا فرار الفرنج عند الهجمة الأولى للجيش الفاطمي ولو تماسكوا لهزموا الفاطميين فى أول جولة .

ولا ننسى أنه على الرغم من أن الجيشين الفاطمي والدمشقى قد أظهرا بلاءاً شديداً فى بداية القتال فاق كل ما درج عليه الا أننا نفاجأ بقيام جناح الجيش الأيسر بترك الجيش الرئيسي فجأة وقام بمحاولة فاشلة لمهاجمة حيفا مما أحدث خلخلة وثغرة كبيرة فى تماسك الجيش المتحد ، وانهياره أمام هجمات الجيش الفرنجي ، وينطبق ذلك على موقعتى الرملة الثانية والثالثة .

ولو قدر للقوات الفاطمية أن تصمد فى وجه الصليبيين ولو مرة واحدة ، بدلا من الفرار عند أول هجمة يشنها الفرنج ، لأصبح من الممكن أن تقضى القوات الفاطمية على خطر الفرنج وتكسر شوكتهم ، وكان من الممكن للفاطميين أن يجازفوا بسهولة بمعظم قواتهم فى المعركة فى حالة ثباتهم ، وفى أسوأ الحالات فان الهزيمة للفاطميين كانت تعنى فقدانا لأحد الجيوش أما بالنسبة للفرنج فكانت كل معركة يخوضونها ضد الفاطميين فى المحاولات الثلاث السابقة ، تشغل على وجه التقريب كل قواتهم البشرية ، تاركين بيت المقدس خالية من أية دفاع فى أيدى بعض رجال

---

(١٥٢) Oman, Art of War, Vol. I, p. 295.

الدين والنساء ، وكانت الهزيمة للفرنج تعني فقدان المملكة تماما .

ويبدو أن عدم الرغبة في التضحية لم يقتصر على الجند بل امتد إلى مستوى القادة الفاطميين فعلى الرغم من ثبات القائد سعد الدولة القواس في موقعة الرملة الأولى في اخلاص وصدق حتى لقى مصرعه مترديا ، الا أن الأمر كان على النقيض تماما بالنسبة لقادة الرملة الثانية والثالثة ، ونقصد بذلك أبناء الأفضل شاهنشاه : شرف المعالى ، وسناء الملك حسين اللذان حرصا على حياتهما أكثر من حرصهما على الصمود أمام الفرنج ، وكان لذلك انعكاسه الخطير على جموع الجيش بأكمله ، اذ أن ثبات القائد حتى النهاية من عوامل النصر الهامة .

والواقع أن الأفضل شاهنشاه قد أحجم تماما عن الخروج بنفسه على رأس تلك الحملات الفاطمية الثلاث منذ كارثة عسقلان ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، مع ما في خروجه من شحذ همم جنوده ورفع روحهم المعنوية ، فضلا عن ارسال أبنائه بدلا منه على رأس الجيش الفاطمي ، وهذا الموقف دفع السيدة « زوى الدينبرج » لاتهام الأفضل بحرصه على سلامته وحياته قبل أن يهتم بأى شيء آخر وبأنه عند أول صدام له مع الصليبيين في عسقلان ترك كل من فلسطين والشام تلقى مصيرها تحت أقدام الصليبيين[١٥٣] .

ولا ننسى أن نلقى نظرة على الخلاف الذى دب بين قادة الجيش الفاطمي وأعاق انجاز الكثير من العمليات العسكرية التى كان سيكتب لها النجاح لو أنجزت مثلما حدث في موقعة الرملة الثانية حول السير الى يافا أو القدس ، مما أعطى الفرنج الفرصة لتجميع قواتهم ومباغتة الفاطميين أمام يافا بجانب الخلاف الذى نشب بين تاج العجم وابن قادوس في موقعة الرملة الثالثة مما أدى لفشلها قبل أن تبدأ مهمتها في حقيقة الأمر ، إلى فشل جهود المصريين وأتراك دمشق كلها ، وضيع على الوزير الأفضل خير فرصة لأستعادة فلسطين .

وهناك سببا هاما يفرض نفسه ضمن أسباب فشل الأفضل في زحزحة الفرنج عن مواقعهم بفلسطين ، وهو خاص بالتكتيك العسكرى الذى حارب به الفاطميون ، ونعنى به عنصر المفاجأة ، إلى فشل الفواطم في اتخاذ زمام المبادأة بالهجوم ضد الفرنج قبل أن يجمع أعداؤهم قواتهم وتنظيمها ، باستثناء ما حدث في موقعة الرملة الثانية . فقد اعتاد الفواطم في كل حملة وجهوها ضد الفرنج التجمع في عسقلان ، ورغم ان عنصر المفاجأة كان عنصراً أساسياً في احراز النصر العسكرى والسياسى معا ، الا أن تلك الجيوش كانت تسبق مجيئها إلى فلسطين بدعاية ضخمة تتناقل أخبارها المنطقة كلها ، وكانوا يضيعون وقتاً ثميناً في عسقلان يبلغ شهوراً طويلة انتظاراً لمجيء الامدادات أو مجيء العرب والاسطول في البحر وبذلك أتاحوا فرصة ذهبية للفرنج لتدبير أمورهم وجمع جموعهم ومبادرة الفاطميين بالهجوم . وعندما تدارك الفاطميون هذا الخطأ القاتل في موقعة الرملة الثانية سارعوا بالتحرك دون انتظار لمجيء الامدادات أو الاسطول فلم يمضى بين

---

(١٥٣) Zoé oldenburg., the crusades., p. 144.

وصولهم الى عسقلان وبين الوقعة التى حدثت آخر رجب ٤٩٥ هـ / ١٧ مايو عام ١١٠٢ م ، الا أيام هى صدر شهر رجب[١٥٤] ، وهى فترة قصيرة استغرق معظمها مسيرة الجيش الفاطمى ، وهذه السرعة التى امتاز بها الزحف الفاطمى وصغر قوة الصليبيين وقلة حذرها وعدم اعطاء بلدوين الفرصة لجمع حشود قواته كان له أثرها الكبير فيما أحرزه الفواطم فى بداية موقعة الرملة الثانية .

وهناك سببا آخر ضمن أسباب فشل الفاطميين ، وقد يبدو لأول وهلة غريبا لدى البعض باعتباره أحد عوامل النصر لا الهزيمة ، ونقصد به مدينة عسقلان وبقاؤها فى أيدى الفاطميين أثناء تلك الأحداث[١٥٥] . ذلك أن نجاح الأفضل فى الاحتفاظ بمدينة عسقلان أمام الخطر الفرنجى رغم محاولاتهم المتكررة لاسقاطها ، كان أمرا هاما يدعو إلى الارتياح ، وكان الأفضل يدرك أهمية موقع هذه المدينة من الناحية الاستراتيجية بالنسبة لأية محاولة لغزو مصر نفسها من ناحية الشرق ، ولهذا أتخذها قاعدة رئيسية للجيوش البرية والأساطيل البحرية المنطلقة إلى الشام لمجاهدة الفرنج منذ عام ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م حتى مصرعه عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م . ولم يختلف أثنان من المؤرخين القدامى والحديثين على أن عسقلان كانت أكبر معاقل الفاطميين بالشام ومصدرا رئيسيا لقلق الفرنج ، بل أنها ظلت شوكة خطيرة فى جنب الفرنج بفلسطين لما يزيد عن نصف قرن من الزمان بحيث لم يهدأ روعهم الا باسقاطها عام ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م[١٥٦] .

وعلى الرغم من أهمية المدينة من النواحى المذكورة الا أن الجانب الآخر كان يعكس الاضرار التى ترتبت على احتفاظ الفاطميين بتلك المدينة أثناء جهادهم المقدس ضد الفرنج ، وبالتحديد فى الفترة من عام ٤٩٢ هـ / ١١٠٠ م إلى عام ٤٩٧ هـ / ١١٠٥ م . ذلك أن شعور القوات الفاطمية المقاتلة فى فلسطين بوجود عسقلان كقاعدة حصينة رابضة على البحر المتوسط بأسوارها وقلاعها المنيعة خلفهم وعلى مسافة قصيرة للغاية من ساحات المعارك مع الفرنج ، لم يعط قتالهم نوعا من الفدائية أو الاستبسال أو حتى القيام بقتال يائس اذ لم يكن أمام القوات المتحاربة أكثر من القيام بارتداد سريع أمام هجمات الفرنج نحو عسقلان للاحتماء بأسوارها الشاهقة ، وفى أذيالهم الأسطول الفاطمى . وقد تأكدت القوات الفاطمية فى محاولاتها الثلاثة من سلامة ارتدادها إلى هذه المدينة ، رغم ما كانت تتعرض له جموع الفاطميين الفارة من خطر المطاردة من جانب القوات الصليبية ولكن تعقب القوات الفاطمية كان ينتهى بسرعة الوصول إلى عسقلان والاحتماء بأسوارها ، وأضطرار الفرنج للتراجع أمام حصانة المدينة ومناعتها ، ومسارعتهم لاقتسام غنائم الجيش الاسلامى المهزوم .

---

(١٥٤) راجع ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤١

(١٥٥) سوف نشير فى فصل تال الى الدور الهام الذى أدته عسقلان فى الصراع الفاطمى الصليبى فى الفترة موضوع الدراسة

(١٥٦) راجع ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢١ ؛ أبو شامة الروضتين فى أخبار الدولتين ، ط . دار الجيل ، بيروت بدون تاريخ ، ج ١ ص ٨٩ — ٩٠

ونحن نرى أن شعور الجندى بعدم وجود معقل أو مكان يهرع اليه للاحتماء به عند أول صدام مع العدو أو شعوره بقسوة الظروف التى يتواجد فيها وأنه لا مفر من القتال اليائس حتى يستطيع حماية نفسه أو الدفاع عن أهدافه ومبادئه ، وهذا الشعور لاشك سيكون له أثر كبير فى احراز النصر الحاسم ضد العدو ونحن لا نريد الذهاب بعيدا ، فالتاريخ أمامنا مليء بالشواهد والأمثلة التى تؤكد رأينا هذا سواء فى العصور القديمة(١٥٧) أو فى العصور الوسطى الاسلامية أو العصور الحديثة ، وناهيك عما قام به طارق بن زياد فاتح الأندلس الشهير «Conquis tadar di Espana» أو أسد بن الفرات فاتح جزيرة صقلية أو هرنان كورتيس «Hernnan Cortes» فاتح المكسيك عام ١٥١٩ م(١٥٨) ، وغير ذلك من الأمثلة التى تؤكد هذا الاتجاه ، بل تأكد هذا الاتجاه فى بداية وفود الحملة الصليبية الأولى الى شمال الشام عما حدث فى انطاكية وحصار كربوغا لها وخروج الصليبيين منها لمحاربة قوات الحلف السلجوقى حربا يائسة مما مكنهم من الحصول على نصر حاسم بعد أن بذلوا نوعا من الاستبسال والمجازفة وليس معنى ذلك التقليل من أهمية موقع تلك المدينة فى الجهاد الفاطمى المقدس ضد الفرنج بالشام ، بل على العكس فان هذه المدينة ستقوم بدور بارز فى الصراع الفاطمى الصليبى فى فلسطين سواء فى حياة الأفضل أو بعد مقتله منذ عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م حتى سقوطها عام ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م .

وهناك سبب آخر أدى إلى فشل الجهود الفاطمية أمام الفرنج فى فلسطين وهو الأسطول الفاطمى الكبير الذى كان له صيت وقوة فى أول عهد دولتهم وكانت له السيادة البحرية التامة على النصف الغربى لحوض البحر المتوسط ، وذلك منذ قيام دولتهم بالمغرب عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م ، حتى انتقالهم الى مصر عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م ، والذى مكنهم من فرض السيادة البحرية على شرق وغرب حوض البحر المتوسط منذ عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله حتى النصف الثانى من عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ولعب دوراً هاماً مع الجيوش الفاطمية فى صراعها مع قرامطة الشام وأخماد الكثير من الثورات فى مصر والشام بجانب أنتصاراته على البيزنطيين ودوره الكبير فى حماية مدن الساحل الشامى وبخاصة طرابلس وصيدا(١٥٩) . وأستمر الأسطول على قوته حتى أواسط عهد المستنصر بالله فأنكمش نفوذه وبدأ دوره يقتصر على حماية مدن الساحل الفاطمى التى أستردها الفاطميون من السلاجقة أيام بدر الجمالى وفى وزارة أبنه الأفضل شاهنشاه .

وكان من الممكن تحويل هذا الأسطول إلى أحد أسلحة النصر وأداة فعالة تغير من سير المعارك

---

(١٥٧) من الأمثلة القديمة راجع دكتور عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ م ص ٧٩ ؛ جورجى زيدان : العرب قبل الأسلام ، ط. دار الهلال ص ١٤٨ .

(١٥٨) انظر بالتفصيل د. مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ط. اسكندرية ١٩٧٤ ، ص ٦٢ — ٦٦ والحواشى ، كذلك : Gibbon, E., The Decline and the fall of the Roman Empire, New-York & London, Vol. II, p. 582, F.S.

(١٥٩) لمزيد من التفاصيل راجع الدكتور عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ، ص ٦٣ — ١٠٢ .

لصالح الجيوش الفاطمية ولكن المحاولات المتكررة للأفضل جنوب الشام أظهرت ضعف الاستفادة من امكانيات الاسطول الفاطمي الضخم فى تلك المرحلة ، رغم أنه كان يتحرك فى الغالب مع كل جيش برى نحو فلسطين لمساندته فى البحر . ولو استغل هذا الأسطول بشكل طيب لحقق نتائج ضخمة وهدد الوجود الصليبي بفلسطين والساحل الشامي بأكمله ويوضح الفرق بين الفاطميين والصليبيين الذين استفادوا فى هذه المرحلة بذكاء من جهود الأساطيل الايطالية والانجليزية فى مساعدة الجيوش الفرنجية بالأراضى المقدسة ، واسقاط العديد من المدن الساحلية الهامة ومنها مدينة عكا عام ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م[١٦٠] .

ولقد اتضح عدم استغلال الأسطول الفاطمي وعدم وجود تعاون بينه وبين الجيش البرى فى الحملات الفاطمية الثلاث وعلى وجه الخصوص فى الحملة الفاطمية الثانية عندما وقف الأسطول قبالة يافا ولم يحاول حتى القيام باقتحام المدينة مستغلا فى ذلك تفوق الجيش البرى وارتباك بلدوين ، ملك بيت المقدس ، بل أن السفن الانجليزية التى حملت أعدادا وافرة من الجند والحجاج الأوربيين ، تمكنت من اختراق حصار الأسطول الفاطمي والوصول إلى ميناء يافا نفسه ، وغيرت سير المعركة لصالح الفرنج ، دون أن يحرك الأسطول الفاطمي ساكنا أو يحاول اعاقة الأساطيل الانجليزية ولو قدر للاسطول اعاقة هذه السفن الفرنجية من الدخول الى ميناء يافا بأية وسيلة ولو تكبد بعض الخسائر لبقى التفوق للقوات الفاطمية وأضحى مصير الفرنج ومملكتهم رهنا بمعركة غير متكافئة مع القوات الفاطمية هناك . ولا ننسى الاشارة للنزاع بين قائد الجيش البرى تاج العجم وابن قادوس قائد الأسطول البحرى أثناء موقعة الرملة الثانية مما يؤكد عدم وجود تنسيق فى العمليات العسكرية بين الجيش والأسطول ، وليس معنى ذلك التقليل من دور الأسطول الفاطمي الذى أداه فى صراع الأفضل شاهنشاه مع الفرنج بالشام بل على العكس سيظهر دور الأسطول الفاطمي فى المرحلة الثانية من مراحل الصراع الصليبي فى الشام والتى التزم فيها الأفضل جانب الدفاع عن بقية مدن الساحل الشامي الفاطمية ضد هجمات وحصارات الفرنج وأساطيل ايطاليا والنرويج وحتى مصرع الأفضل عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م ، وهو ما سوف نوضحه فى الفصل التالى .

هذه هى بعض جوانب أسباب فشل محاولات الوزير الأفضل المتكررة لزحزحة الفرنج عن جنوب الشام وأغلبها يدين الفاطميين وتعين لنا قصوراً لديهم وخاصة من جانب الوزير الأفضل ، وليس معنى ذلك أننا نلقى المسئولية بأكملها على عاتق الخلافة الفاطمية ووزيرها بل أن القوى الاسلامية ، وعلى رأسها الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية والامارات التابعة لها بالشام ، تشارك بنصيب كبير فى ذلك ، فلم تحرك ساكنا لمواجهة الفرنج ، ولم تستجب لنداءات

---

(١٦٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣ ــ ١٤٤ ؛ ابن ميسر : اخبار مصر ، ص ٤١ ؛ ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٥ ، وكذلك : Fulcher of chartres, the expedition, p. 176.

الوزير الأفضل المتكررة لكي يتعاونوا فى ايقاف المد الفرنجى[161] ، بل وقفت موقفا سلبياً ، ازاء الأزمات التى حلت بالفاطميين وحتى امارة دمشق أقوى امارات الشام لم تحرك ساكنا ، رغم اقتراب الخطر الصليبى منها ممثلا فى امارة الجليل الناشئة التى كانت بمثابة امارة حاجزة بين دمشق وغيرها من القوى الاسلامية فى الجنوب ولولا الظروف الداخلية لامارة دمشق بعد وفاة دقاق ، واغتصاب طغتكين لعرش الامارة من أصحابها الشرعيين لما استجاب لنداء الأفضل للقيام بتلك الحملة المشتركة التى هُزمت فى موقعة الرملة الثالثة ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م .

أما بالنسبة للعوامل الخاصة بالجانب الصليبى التى أفشلت جهود الأفضل فى تلك المرحلة فترجع إلى يقظة الفرنج لحماية أنفسهم وسط ذلك المحيط الاسلامى المحيط بهم ، بجانب النجدات التى وصلت اليهم من الامارات اللاتينية بالرها وانطاكية والاساطيل الايطالية والانجليزية بما جلبته من ميره وأمدادات ومقاتلين من الغرب ، وأتضح ذلك فى موقعة الرملة الثانية ( ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م ـــ ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م ) ولا نغالى عندما نذكر أن انتصارات وأنجازات الفرنج فى مرحلة الهجوم الفاطمى على أملاكهم بالشام ( من عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م الى عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م ) قامت على أكتاف الأساطيل الأوروبية ، مما مكنهم من تخطى العقبات الناجمة عن النشاط الفاطمى الدائب ضد مملكتهم . والحق أن الجانب الصليبى لم ينقصه روح الفداء والمجازفة ، ولا وحدة القيادة وتقديره الكبير لمسئوليته رغم الخلاف بين قادته وهى أمور عانى منها الجانب الفاطمى ، كما أن ظروف الفرنج وصعوبة موقفهم فى بلاد احتلوها وسط محيط اسلامى مترامى الأطراف ومعاداتهم لكافة القوى الموجودة بذلك المحيط حتمت عليهم اليقظة الدائبة والاستبسال وسط ذلك الحشد الاسلامى المتربص بهم .

وكان على الأفضل أن يدرك العوامل التى كفلت للعدو النصر عليه ، ومكنته من حماية مكاسبه بالأراضى المقدسة ، وحرص الفرنج على بقاء اتصالهم مفتوحا بالبحر وموانيه ليكونوا على صلة دائمة بأخوانهم بالغرب الأوروبى ولو منع الأفضل الفرنج بأى وسيلة من الوسائل السيطرة على الموانىء الساحلية التى سقطت بأيديهم مثل يافا وحيفا وأرسوف وقيسارية ثم عكا وحصارهم الجهات الداخلية جنوب الشام ، وهو ما كان يجب أن يكون عصب السياسة الفاطمية فى القاهرة وكان يجب أن يكون فى مقدمة أهدافه استعادة هذه المدن بعد ضياعها فعلا من يديه . وهناك رأى مؤداه أن الأفضل بن أمير الجيوش كان يهدف من وراء تلك الحملات على فلسطين الدفاع عن بقية أملاك الفواطم هناك وأن الهجوم الفاطمى المضاد كان هدفه المقام الأول الدفاع عن مدن الساحل الشامية أكثر من اهتمامه باسترداد بيت المقدس ، بجانب حماية طريق القوافل التجارية التى كانت تربط بين القاهرة ودمشق ، وفوق كل ذلك منع الفرنج دون الحيلولة من الاقتراب من البحر الأحمر والحصول على منفذ عليه مما يهدد تجارة الفاطميين المربحة بالبحر الأحمر تهديداً

______

(١٦١) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٤ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤١ .

مباشراً(١٦٢) .

وهذه الآراء مردود عليها ، فالحق يقال أن الأفضل لم يأل جهده في القيام بحملات جديدة على جنوب الشام رغم هزيمته القاسية في عسقلان في محاولة لاسترداد هيبة الخلافة الفاطمية ، ونكاد نجزم أن خروج تلك الحملات الثلاث كان يتخطى هدفه ضياع بعض مدن ومواقع الساحل الشامي إلى رغبة قوية في هزيمة الفرنج والثأر منهم وتطهير الأراضي المقدسة من أذيالهم ومحاولة احراز ولو بعض المكاسب أمامهم مما يثلج صدر الأفضل ودليلنا في ذلك أن الأفضل لم يتردد في طلب العون والتأييد من أعدائه السلاجقة حكام دمشق سواء من دقاق أو طغتكين في حملاته الثلاثة(١٦٣) .

وتذكر آراء أخرى أنه بهزيمة الفاطميين في موقعة الرملة الثالثة عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م ، أنتهت بذلك آخر محاولة ضخمة وجدية قام بها الأفضل بن بدر الجمالي لأستعادة فلسطين(١٦٤) ، وأن فشل الحملات الفاطمية الثلاث ، بجانب اخفاق محاولات التحالف بين الأفضل الشيعي وطغتكين السني للقيام بعمليات عسكرية مشتركة ضد الفرنج وبالذات عام ١١٠٥ م قد أقنع الأفضل أنه لم يجن شيئا من سياسته الهجومية ضد الفرنج بفلسطين وأنه منذ ذلك فصاعدا العزم جانب الدفاع ازء الفرنج بالشام وذلك بتأمين مدن الساحل الفاطمي الباقية ضد الخطر الفرنجي ، وبالذات مدينة عسقلان وحمايتها لاتخاذها قاعدة لشن غاراته البرية والبحرية ضد قواعد الصليبيين بفلسطين(١٦٥) .

برغم صحة معظم هذه الآراء الا أن هؤلاء المؤرخين قد نسوا أنه طالما كان الوزير الأفضل ابن بدر الجمالي على قيد الحياة كان على الفرنج انتظار المزيد من الهجمات الفاطمية على فلسطين ، فالفاطميون وعلى رأسهم الوزير الأفضل كانوا لا يزالون مصدر خطر على الصليبيين خاصة وأن الأفضل كان يدرك عبء المسئولية الملقاة على عاتقه رغم مشاغله ومشاكله الداخلية مع أعدائه وحماية نفسه من المؤامرات والدسائس التي تحاك ضده منذ «الوحشة» بينه وبين الخليفة الآمر والصراع بينهما على السلطة(١٦٦) لادراكه أن الفواطم هم القوة الوحيدة في الشرق الاسلامي التي كانت قادرة على مواجهة الفرنج وتحد من خطرهم الزاحف على الشام في وقت كانت القوى

---

(١٦٢) Gibb, H., H., The caliphate and the Arab states, in setton (ed.,), Vol. I, p.p. 97-98.

(١٦٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٢ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤١ .

(١٦٤) رنسيمان : تاريخ الحروب ، ج ٢ ص ١٤٧ ، كذلك : Stevenson, the crusaders in the East, p. 47]

(١٦٥) Gibb, The caliphate, in setton (ed.,) Vol. I, p. 98.

ويذكر المؤرخ اليهودي يوشع براور في كتابه « تاريخ مملكة بيت المقدس اللاتينية » أن الحملات الفاطمية الثلاث وما تلاها من حملات محدودة بعد ذلك قام بها الأفضل شاهنشاه وبالتحديد تلك التي أتجهت نحو الرملة والقرى المحيطة بها لم تترتب عليها نتائج تذكر ولم تفعل اكثر من تخريب ونهب الجزء الأكبر من تلك المناطق . راجع Prawer, the latin kingdom, p. 16.

(١٦٦) ابن ميسر : اخبار مصر ، ص ٥٧ ؛ ياغرمة : قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ، مخطوط دار ، ج ٢ ورقة ٦٠ ؛ أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٢١٨ ، ٢٢٢

الأخرى وعلى رأسها الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي لا تزال في سباتها العميق .

صحيح أن الأفضل وجه جل اهتمامه في المرحلة التالية لهزائم الرملة الثلاثة للاهتمام باستنقاذ مدن الساحل الشامي الباقية التي كان قد استردها هو وأبوه من قبل من أيدي السلاجقة والتزامه موقف الدفاع الا أن خطر الأفضل على كيان الفرنج لم ينته بل أن الأفضل رأى اتباع اسلوب جديد في حرب الفرنج وذلك بشن هجمات سريعة وخاطفة هدفها ازعاج حياة النزلاء والحجاج المسيحيين في السهل الساحلي ومنطقة النقب وانزال الذعر بالمناطق المحيطة بالقدس بجانب قيامه بغارات انتقامية ردا على ما قام به الملك بلدوين الأول من غارات وتهديدات لمدن الساحل الفاطمي وكان مركز هذه الهجمات الخاطفة السريعة دائما مدينة عسقلان وتمثلت في هجمات قام بها عام ٤٩٩ هـ / ١١٠٦ م على قافلة من الحجاج الفرنج بين يافا وأرسوف ، والحملة التي أرسلها عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م ، وأغارت على الخليل وكادت تسقطها ، وحملة عام ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م وهي التي وصلت إلى أسوار بيت المقدس ذاتها[١٦٧] ، وغيرها بالاتفاق مع طغتكين أتابك دمشق ما يدل أن الخطر الفاطمي كان لا يزال قائما رغم فشل الحملات الفاطمية الثلاث الكبرى ورغم هزيمة عسقلان الكبرى .

بقيت كلمة أخيرة قبل أن نطوي الحديث عن ذلك الدور المبكر من أدوار الجهاد الفاطمي المقدس ضد الفرنج بالشام في وزارة الأفضل بن أمير الجيوش وهي الخاصة بأثر فشل الحملات الفاطمية في فلسطين وسقوط مدن الساحل الفاطمي وما حدث فيها من مذابح بالنسبة لأوضاع الأقباط في مصر ، وبمعنى آخر رد الفعل الذي أحدثته حركة الجهاد الديني الفاطمي في تلك المرحلة وأثرها على العلاقة بين الأقباط وكنيستهم بالخلافة الفاطمية في مصر .

وهذه النقطة هامة للغاية خاصة وأن الأبحاث والمراجع الحديثة قد أغفلتها وضربت عنها صفحا . فمما يسترعي النظر أنه بينما لقي الآلاف الكثيرة من المسلمين نساءاً ورجالاً وأطفالاً حتفهم على أيدي القوات الصليبية في بلاد الشام منذ مذبحة يوليو بالقدس وفي المدن والموانئ الساحلية التي سقطت أثناء الفترة الممتدة من سقوط القدس وهزيمة عسقلان حتى فشل الحملات الفاطمية الثلاث عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م نجد أن علاقة الود والأخاء كانت قائمة بين المسلمين والأقباط داخل مصر بشهادة كتاب القبط انفسهم .

فالمؤرخ المسيحي أبو صالح الأرمني يذكر في معرض حديثه عن دير نهيا ( قرب الجيزة ) عن قيام الخليفة الآمر بأحكام الله بزيارة هذا الدير وطوافه بكنيسة الدير وأنه « دفع للرهبان ألف درهم بعد ضيافتهم له وخرج من الدير يتصيد[١٦٨] » . كما كان الآمر يتردد على هذا الدير في مواكبه وعساكره وفي كل مرة يخرج للصيد في هذه الجهة يلقاه الرهبان بالترحاب وأضافه فيحمل

---

(١٦٧) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص ١٤٧ ــ ١٤٨ . وسوف نتعرض لهذه الحملات بالتفصيل في الفصل التالي .
(١٦٨) أبو صالح الأرمني : تاريخ الشيخ أبو صالح ، ص ٧٧ ــ ٧٨ .

لهم في كل ركبة يطرق فيها الدير ألف درهم فحصل لهم من ذلك خمسة وعشرين ألف درهم ورقا صحاحا[١٦٩] » .

وقد رأى الرهبان في أعمال الآمر بأحكام الله حيالهم تسامحا ظاهرا أتضح في « مثل هذه الانعام فصار لهم ادلال عليه فسألوه أن يطلق للدير طينا يزرعونه في كل سنة فأجاب سؤالهم وأنعم على الدير بأراضي ناحية طهرمس من الجيزة تمليكا ثابتا منه بخط يده قطعة أرض ما يقارب ثلاثين فدانا وأستمر هذا الاقطاع قائما الى أن استولت عليه الخلافة الفاطمية نفسها عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٧ م ، وأنتزعوها من ملك الدير ولم يبق لهم سوى المصيدة ينتفعون بما يصيدونه منها[١٧٠] .

وهناك أمثلة أخرى دلت على استمرار الأخاء والحب بين المسلمين والأقباط في مصر[١٧١] ، وأنه لم يحدث رد فعل قوى لدى الخليفة الآمر أو وزيره الأفضل شاهنشاه لما قام به الفرنج بالشام من مذابح مروعة أو بعد فشل محاولات الفاطميين لاستعادة جنوب الشام وخسارتها في الأرواح والأموال والعتاد مما يؤكد تحلى الفاطميين ووزيرهم بشيء كبير من التسامح الديني ولم يحاولوا الانتقام من الأقباط بعد مذبحة القدس أو هزيمة عسقلان أو الحملات الفاطمية الكبرى على فلسطين . وبذلك حفظت الخلافة الفاطمية ووزيرها الأفضل شاهنشاه للجهاد الديني المقدس معناه الحقيقي وهو أنه جهاد ضد عدو غاصب وليس جهادا ضد الأقباط أو عقائدهم وأفكارهم . ولعل أوضح دليل على رأينا ذلك ، ما فعله الفرنج المسيحيون عند سقوط القدس اذ أصدروا غداة اسقاطهم للمدينة ، قرارا بمنع كل مسيحى الخلافة الفاطمية من المعاقبة من الحج إلى القدس[١٧٢] . في حين ظلت الخلافة الفاطمية نظيفة الأيدى ولم تتبع اجراءات تدل على التعصب وضيق الأفق كما فعل الفرنج مع أخواتهم مسيحى الشرق .

---

(١٦٩) أبو صالح الأرمني : المصدر السابق ، ص ٧٧ .

(١٧٠) أبو صالح الأرمني : المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(١٧١) راجع تلك الأمثلة في ابن صاعد القلزمي : سير البيعة المقدسة ، ج ٣ مجلد ٢ ص ٢٤٩ وما بعدها

(١٧٢) ابن صاعد القلزمي : سير البيعة المقدسة ، ج ٣ مجلد ٢ ، ص ٢٤٨ . ويرى الدكتور عزيز سوريال عطية أن الحروب الصليبية كانت واحدة من المصائب الكبرى التي سقطت على رأس الجماعات المسيحية الشرقية فكان الأقباط هم الضحية الأولى لها ، ذلك أن عداوة اللاتين لمسيحي الشرق وضحت في حرمان المسيحيين الشرقيين من القيام بالحج السنوى إلى بيت المقدس . راجع : Atiya, A.S, A history of the Eastern Christianity, London 1968, p.p. 92-93.

# الفصــل الخامــس

## الصدام العسكرى بين الأفضل والصليبيين فى بلاد الشام

## ( الغـزو الصليبي لمدن الساحل الشامى الفاطمية )

## ( ٤٩٧ ــ ٥١٤ هـ / ١١٠٤ ــ ١١٢٠ م )

﴿ لا يزال بُنيانهم الذين بنوا ريبة فى قُلُوبهم إلا أن تقطعَ قُلُوبهُم والله عليم حكيم ﴾ [ التوبة : ١١٠ ]

# الفصل الخامس

بعد فشل الحملات الفاطمية الكبرى التى أرسلها الأفضل شاهنشاه الى فلسطين فى الفترة الممتدة من عام ٤٩٤ هـ / ١١٠١ م ، والتى كان الأفضل يرمى من ورائها الوصول الى بيت المقدس ثم استعادة جنوب الشام وفلسطين لسيادة الفاطميين ، كان من الطبيعى أن يفكر بلدوين ملك بيت المقدس فى الرد على تلك الهجمات الفاطمية ، والتخلى عن موقف الدفاع عن مملكته الناشئة ، ويتخذ موقف الهجوم . وكان من المتوقع ، بعد الحملات الفاطمية السابقة ، أن يشن الفرنج هجومهم المضاد فى سرعة ردا على تلك الحملات ، الا ان الظروف وامكانيات الصليبيين السياسية والبشرية والاقتصادية لم تمكنهم من مجرد التفكير بمهاجمة الفاطميين فى عقر دارهم حينذاك ، ولهذا فكر بلدوين الأول فى القيام بتوسيع أملاك الصليبيين بالشام أولا ، خاصة وأن مملكة بيت المقدس اللاتينية الناشئة كانت بحاجة ملحة لأن تربط نفسها بالبحر برباط قوى فى تلك المرحلة .

فقد أدرك بلدوين الأول بثاقب بصره أن بقاء مملكته الناشئة مرتبط ارتباطا تاماً بضم جميع شواطىء أو سواحل الشام المواجهة لمملكته ، والتى كانت خاضعة للخلافة الفاطمية ، لاقامة صلة مباشرة بالبحر وبالمدن والموانىء الساحلية ، وكذلك بأساطيل أوربا الغربية التى تحمل المؤون والنجدات اللازمة لانقاذ المملكة الناشئة وبقائها[1] . والواقع أن هناك أسبابا استيراتيجية وتجارية وبشرية عديدة كانت تكمن وراء اهتمام بلدوين باخضاع مدن الساحل الشامى فى تلك المرحلة من مراحل الصراع الفاطمى الصليبى بالشام .

فالملاحظ فى تاريخ المملكة بيت المقدس اللاتينية الناشئة ، أنها ظلت منذ قيامها تشعر بضرورة ربط نفسها بالبحر ، وتأمين اتصالها بشواطىء حوض البحر المتوسط الشرقى ، كما أن بقاءها كان يعتمد اعتمادا تاما على سيادتها على موانىء البحر المتوسط والتى كانت بالنسبة لها الشريان الرئيسى الذى كان يربطها بالعالم الغربى وتزود عن طريقه بحاجتها من الامدادات والمؤن البشرية . بجانب ادراك الصليبيين أن داخلية البلاد لن يتم اخضاعه بدون اخضاع مدن الساحل الشامى[2] .

وكان بلدوين يدرك أن مملكة اللاتين الناشئة كانت لا تزال فى وضع محفوف بالمخاطر من كل الجهات ، وخاصة من الشرق حيث تقطن الامارات الاسلامية السلجوقية وعلى رأسها امارة دمشق السلجوقية السنية والتى وقفت موقفا معاديا من الصليبيين منذ اشتراكها فى الحملة الفاطمية الثالثة على القدس عام ٤٩٨ ـــ ٤٩٩ هـ / ١١٠٥م ، والتى لم تكن تسمح للاتين بتوسيع

---

(١) Prawer, The Latin Kingdom, p. 16;

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب ( مطول ) ، ج ٣ ص ٧٥٧ ، كذلك : Prawer, The Latin Kingdom, p. 16.

حدودهم شرقا وبالتحديد عبر نهر الأردن ، بل وقفت لها بالمرصاد . أما الخطر الذى هدد مملكة الفرنج الناشئة من الجنوب فكان يتمثل فى الخلافة الفاطمية ووزيرها الأفضل بن بدر الجمالى ، والتى كانت لا تزال مصدر الخطر الكبير على الصليبيين فى الشام . وفى الغرب كانت توجد بقية مدن الساحل الشامى الفاطمية الممتدة كشريط ساحلى من شمال حيفا جنوبا الى ارباض اللاذقية شمالا وكان من الممكن أن يستغلها الفاطميون كمصدر تهديد للمملكة الصليبية فى بيت المقدس بقطع الشريان الذى يربطها بالغرب الأوربى[٣] .

وعندما تولى بلدوين عرش اللاتين تعرض للخطر الجزء الاكبر من فلسطين الذى سيطر عليه الفرنج ، فى حين أن الجزء الوحيد الذى تميز بالهدوء والاستقرار هو الجزء الجبلى ، الذى يعتبر العمود الفقرى للمملكة الصليبية الناشئة ، الذى يمتد من بيت لحم إلى سهل زرعين نحو الشمال . وكان المسيحيون يكونون غالبية سكان هذا الاقليم ، فى حين هجر المسلمون هذه المنطقة عند ظهور الفرنج كما أدخلوا مدينة نابلس المعروفة باسم دمشق الصغيرة ، والتى أستولى عليها تانكريد النورمندى[٤] .

وفى أقصى شمال تلك المنطقة كانت تقع امارة الجليل التى أسسها المغامر النورمندى تانكريد ( طنكرى ) وجعلها ضمن أملاك مملكة بيت المقدس الصليبية الناشئة وشملت تلك الامارة الجديدة سهل مرج بنى عامر ، والتلال الممتدة من الناصرة إلى بحيرة الحولة ، وتضم داخلها طبرية كعاصمة لها مع صفد . ولكن أطراف تلك الامارة كانت معرضة أكثر من غيرها للأخطار ، فكان من السهل الوصول اليها من جهة الغرب من البحر المتوسط عن طريق عكا وحيفا ، ولهذا لم يهدأ بال تانكريد حتى ضم اليه حيفا كمنفذ بحرى لامارة الجليل على ساحل البحر المتوسط ومن جهة الشرق باتخاذ الطرق المؤدية الى شمال وجنوب بحر الجليل ، وفى الشمال كانت تقع امارة دمشق المتربصة بالفرنج منذ قيام ذلك المغامر النورمندى الجرىء بشن سلسلة من الغارات المتتالية عبر نهر الأردن ، وتوغل فى السهل الخصب الموجود قرب التلال الواقعة جنوب مرتفعات لبنان وحملته غاراته الى حقول انتاج القمح الواقعة جنوب امارة دمشق ، ولهذا تحرك أمراء دمشق السلاجقة منذ عهد أتابكها ظهير الدين لمواجهة هذا الخطر الجديد القادم من الجنوب[٥] ، ولهذا فان العلاقات بين امارة دمشق وأمارة الجليل الناشئة ، غلب عليها الطابع الحربى ، والذى تخللته فترات من الهدنة بين الجانبين[٦] . وبذلك كانت الحافة الوسطى والجليل هى نواة مملكة اللاتين بفلسطين .

---

(٣) Oman, The Art of War, Vol. 1, p. 254.

(٤) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ الأ ص ١٦ ـ ١٧ ، كذلك : Prawer, The Latin Kingdom, p. 17.
ويذكر المؤرخ جروسيه أن مملكة اللاتين كانت لا تتعدى كونها عدة قلاع متناثرة حول السهل الساحلى لفلسطين . راجع : Grousset, R., The sum of history , oxford 1951, p. 176.

(٥) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٧ وما بعدها . كذلك : Prawer, The Latin Kingdom, p.p. 17-18.

(٦) لمزيد من التفاصيل عن امارة الجليل وعلاقاتها بالقوى المجاورة راجع : Gordon (Piries): The reigning princes of E.H.R., 1927, Vol. XXVII, p.p. 446-461; Prawer, The Latin Kingdom, p.p. 17-19; Rey,

أما جنوب مملكة بيت المقدس اللاتينية فقد سيطرت حامية فرنجية مرابطة فى الخليل على صحراء النقب فى الجنوب ، فى حين أن قلعة الخليل أو ( قلعة النبى إبراهيم ) لم تكن أكثر من جزيرة صغيرة وسط محيط اسلامى مترام الأطراف[٧] ، فى حين لم تتمكن الفرنج من السيطرة على الدروب الممتدة من بلاد العرب الى الطرف الجنوبى للبحر الميت وطريق القوافل الذى استخدمه البيزنطيين ، والذى بدأ يستخدمه الفاطميون وقتذاك وأستطاع البدو والقبائل العربية هناك أن يتقلوا من هذه الدروب الى النقب واتصلوا بالحاميات الفاطمية المرابطة فى غزة وعسقلان على الساحل الشرقى للبحر المتوسط مما هدد تلك الأجزاء الجنوبية من المملكة أيضا[٨] .

ومع أن مدينة بيت المقدس كان يصلها بساحل البحر طريق يجتاز الرملة واللد إلى يافا ، الا أن الأمن لم يتوافر به الا للقوافل والحاميات العسكرية . وقد أدرك الفرنج أهمية هذا الطريق بين يافا والرملة ولهذا قاموا بوضع حاميات صغيرة داخل هذين المركزين الاستراتيجيين ، وأمنوا بذلك خطوط الاتصال بين القدس والساحل[٩] . وعلى الرغم من تلك الاجراءات الفرنجية ، الا أن هذا الطريق ظل غير مأمون لما يزيد عن عقد كامل ، اذ أن الجماعات المغيرة من الفاطميين واللاجئين المسلمين الذين هبطوا من المرتفعات والبدو القادمين من الصحراء طافوا بالمناطق القريبة لهذا الطريق وتعرضوا للمسافرين فى غفلة منهم والدليل على ذلك الأخطار والهجمات التى تعرض لها الحاج سايولف «Saewulf» الألمانى ، ومن معه من الحجاج الشماليين ، عند نزوله بيافا متجها إلى بيت المقدس عام ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م[١٠] ، على الرغم من عدم وجود أى قلاع أو حاميات اسلامية على طول هذا الطريق المرتفع ، الا أن التجار والحجاج الفرنج كانوا لا يمكنهم اجتيازه الا بحراسة مسلحة . ويلاحظ أن الفاطميين وسلاجقة دمشق أدركوا أهمية هذا الطريق بين القدس ويافا ولكن فى وقت متأخر جدا ذلك خلال السنوات من عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩م إلى عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م أى التى بدأت بموقعة عسقلان الكبرى إلى موقعة الرملة الثالثة . وعلى الرغم من ذلك استمر الفرنج يتلقون الامدادات الاوربية من هذا الطريق ، ورغم أن هذه الامدادات كانت أقل من المتوقع ، الا أنها كانت كافية لمنع إبادة مستعمرات الصليبيين الناشئة

---

= E.G., Les seigneurs de Montréal et de la d'outre Jourdain in R.O.L., Paris 1896, to IV.. p.p. 19-24.

انظر وصفا للجليل وما حولها كما شاهدها الحاج الألمانى سايولف فى رحلة حجه الى الأراضى المقدسة عام ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م . Pilgrimage of saewulf, trans by Brown low, in p.p. T.S., London 1897, Vol. N, p. 20. —

(٧) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ٤٤٨ — ٤٤٩ .

(٨) رنسيمان : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٤٩ .

(٩) Prawer, The Latin Kingdom, p.16 Besant & Palmer Jerusalem, p.p 215-217

(١٠) لقد عبر سايولف عن الأخطار التى تكمن فى الطريق الممتد من يافا إلى القدس بقوله : أن المسلمين كانوا يكمنون لجماعات المسيحية والجند الفرنج العابرة لذلك الطريق فيحتمون فى الكهوف والكهوف الواقعة فى ذلك الطريق منتظرين فرصة ملائمة للانقضاض على جماعات وجند الصليبيين المتجهة الى مدينة القدس راجع : Saewulf, The pilgrimage of saewulf, in p. p. T.S., Vol. IV. p. 8.

بالشرق الاسلامي[١١] .

ورغم نجاح الصليبيين إلى اخضاع بعض المدن الساحلية وانتزاعها من قبضة الفاطميين ، الا أنهم لم يقنعوا بالموانىء الساحلية المحدودة التي استولوا عليها مثل يافا وأرسوف وقيسارية وحيفا فطمعوا في الاستيلاء على بقية الموانىء الشامية والتي امتدت على طول الساحل من شمال حيفا ولمسافة مائتي ميل إلى اللاذقية وتشمل عكا وصور وصيدا وطرابلس وبيروت بجانب عسقلان وكلها كانت بحوذة الفاطميين[١٢] . حقيقة أن سيطرة الفاطميين على هذه الموانى كانت سيطرة أسمية في أغلبها ، ولكن كان من الممكن استغلالها في تهديد مملكة اللاتين الناشئة ، بقطع الصلة التي تربطها بالغرب الأوربي ، ذلك أن بلدوين الأول لم ينسى ما حدث في شتاء عام ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م ، عندما جنحت بعض السفن الصليبية وكانت تحمل حجاجا وجنودا عائدين إلى أوربا على شاطىء الشام ، فقامت الحاميات الفاطمية في صيدا وعسقلان بأسر ما بها من حجاج وبيع معظمهم في أسواق النخاسة في القاهرة[١٣] .

أما بالنسبة للأسباب الاقتصادية التي كانت تكمن وراء تفكير الفرنج في اسقاط مدن الساحل الفاطمي فتخص موارد المملكة الناشئة من الزراعة والتجارة . فالمعروف أن أقليم فلسطين أقليم فقير ، وما أشتهر به من رخاء في العصر الروماني لم يستمر بعد الغزو الفارسي له ، نتيجة للحروب والصراعات بين القوى العظمى للسيطرة عليه ، وأستمر ذلك طيلة العصر الاسلامي وما نشب فيه من حروب دائمة منذ ظهور السلاجقة به . ورغم وجود بعض المناطق في ذلك الاقليم غنية بغاباتها الكثيفة وأشجار الصنوبر في الجليل وجبل الكرمل ووادى الأردن وعلى ساحل البحر المتوسط جنوب قيسارية وبانتاجه الوفير من القمح والفواكه مثلما في مرج بني عامر ووادى الأردن[١٤] ، الا أن الناظر إلى إقليم فلسطين ككل يجده في مجموعة عبارة عن أرض شبه صحراوية ذات تربة فقيرة خاصة حول بيت المقدس فلم تكن توجد موارد زراعية كافية تعتمد عليها المملكة الناشئة ، ولم تقم صناعة ما بأحدى المدن المجاورة لها بل أن ملوك بيت المقدس في ذروة مجدهم لم يبلغوا من الثروة مثلما حازه أمير طرابلس أو أمير أنطاكية[١٥] .

---

(١١) Groussel, R. Histoire des croisades, to 1, p. 293.

(١٢) Prawer, The Latin Kingdom, p.p. 16-17.

(١٣) Albert of D'Aix, historia, in R.H.C., Hist., occ., Vol. p. 600-601.

ويلاحظ أن هذه الرواية التي أوردها ألبرت داكس موضع شك بالنسبة لنا اذ لم يؤيدها أي من المصادر اللاتينية الأخرى المعاصرة أو المتأخرة أو حتى المصادر الاسلامية خاصة وأن ألبرت داكس لم يكن شاهد عيان للأحداث رغم أنه كان معاصرا لها اذ كان يستقي أخباره من أفواه العائدين من الأراضي المقدسة إلى أوروبا .

(١٤) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص ١٨ – ١٩ .

(١٥) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٩ والحواشي . ويذكر المؤرخ الانجليزي تومسون أن جودفري دي بويون كان قد أغرى القبائل العربية المقيمة عبر نهر الأردن بالمجيء الى بيت المقدس للزراعة والرعي في الريف المحيط بالمدينة بعد أن وعدهم بعديد من الامتيازات الدينية وقليل الأراضي التي سيقومون بزراعتها . راجع - Thompson, The Middle Ages, Vol. II, p. 572.

والواقع أن المصدر الأصلي لاقتصاد مملكة اللاتين الناشئة كان يتمثل في الرسوم والضرائب المفروضة على السلع والتجارة العابرة للمناطق المحاذية للساحل الشامي والواقعة تحت سيطرة الفاطميين ، كما أن التجارة القادمة من الشام إلى مصر سلكت نفس هذا الطريق في حين أن القوافل التي كانت تجلب التوابل من جنوب بلاد العرب كانت تجتاز في كل العصور صحراء النقب إلى البحر المتوسط ولكي يضمن الفرنج الإبقاء على مصدر ثروتهم الاساسي هذا كان لابد من اغلاق المنافذ المتجهة اليها هذه القوافل التجارية ولهذا كان على الفرنج فرض السيطرة على الطرق الممتدة من خليج العقبة جنوبا إلى جبال لبنان شمالا ، وكان من الضروري أيضا فرض سيادتهم على الطريق الممتد من جبل لبنان إلى نهر الفرات وبالتالي السيطرة على بقية مدن الساحل الشامي لضمان مورد أقتصادي تعتمد عليه المملكة(١٦) .

أما بالنسبة للعوامل البشرية التي حدث بالفرنج التفكير في غزو مدن الساحل الفاطمي ، فيتضح في النقص الدائم للقوى البشرية المقاتلة بالأراضي المقدسة والحاجة الدائمة للجند والحجاج الذين تجلبهم سفن المدن التجارية الايطالية عن طريق البحر . فبعد سقوط مدينة بيت المقدس ومرفعة عسقلان الكبرى وجدنا كبار المحاربين من الأمراء الفرنج مصاحبين جيوشهم يغادرون الأراضي المقدسة عائدين لبلادهم(١٧) ، فأضحى بلدوين الأول ومن بعده يعتمدون على قلة قليلة من المحاربين الأشداء الذين أقسموا قبل أن يغادروا أوربا على البقاء بالأراضي المقدسة . كما أعتمد بلدوين أيضا على جماعة من المغامرين منهم عدد غير قليل يشبهونه كونهم من الابناء الذين كانوا يرجون اقامة أمارات لهم بالأراضي المقدسة وأن يجعلوا لأنفسهم ثروة ومجدا مثل تانكريد وبوهيمند النورمندي(١٨) .

ولهذا ظلت مملكة بيت المقدس الناشئة محاطة بالأخطار ويؤكد ذلك ما عبر عنه مؤرخهم فوشيه شارتر الذي يشعر في قلق ظاهر أن بيت المقدس كانت بلا سكان على وجه التقريب ، فلم يكن هناك جند كاف للدفاع عنها ضد المسلمين ، ولهذا فانه من المعجزة حقا أن يعيش الصليبيون وسط هذه الآلاف المؤلفة من المسلمين(١٩) . حقيقة أن وجود امارات صليبية في أنطاكية والجليل كان

---

= ويذكر المؤرخ اليهودي يوشع براور أن الفرنج كانوا يتوقون لاسقاط موانيء الفاطميين بالشام ليساعدوا في الاستقرار والنمو الاقتصادي للمملكة اللاتينية ، راجع : Prawer, The Latin Kingdom, p. 87.

(١٦) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ص ١٩ .

(١٧) Fulcher of chartres, The Expedition, p. 149.

(١٨) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ص ١٩ .

(١٩) Fulcher of chartres, The Expedition, p.p. 149 - 150.

ويذكر المؤرخ وليم الصوري أن عدد صليبي بيت المقدس في أوائل عهد بلدوين لم يكن يكفي لملء أحد شوارع المدينة . William of tyre, deeds, Vol. I, p.

وأن الدليل الوحيد على وجود العجز في عدد المحاربين الصليبيين في الأراضي المقدسة ما ذكره المؤرخ فوشيه شارتر نفسه من أن بلدوين دي بوربوت عند وفوده إلى القدس ليتوج ملكا عليها اصطحب معه ما يقرب من مائتي فارس وسبعمائة من الرجالة لطمه معجز المملكة عن توفير مثل هؤلاء الجند Fulcher of chartres, the Expedition, p. 140.

يطمئن صليبي المدينة المقدسة وملكهم بلدوين الأول إلا أن طلب العون منهم كان صعبا لمكانت أنطاكية تقع على بعد مئات الأميال من القدس وسط أقاليم معادية للصليبيين كما كان أميرها بوهيمند مشغولا بصراعاته مع البيزنطيين والأتراك السلاجقة ، ثم وقوعه فى أسر الدانشمنديين أصحاب سيواس مما أوقع الفرنج فى موقف حرج[٢٠] . وحتى عندما تولى تانكريد الوصاية على أنطاكية وترك اقطاعه بالجليل فى مارس ١١٠١ م ، لم يكن متوقعا أن يساعد بلدوين لأن أنطاكية كانت تحيطها الأخطار من جانب السلاجقة الأتراك والبيزنطيين . أضف إلى ذلك العداء والكراهية المتبادلة بين تانكريد وبلدوين ، اذ كان الأول يرى فى الثانى حجر عثرة أمام طموحه وأطماعه فى الأراضى المقدسة[٢١] .

ورغم أنه كانت تصل الصليبيين مساعدات من المؤن والرجال من الغرب على متن الأساطيل الايطالية وأساطيل المغامرين الانجليز مثل هاردنج وجوردنك وغيرهما الا أن هذه المساعدات كانت تحدث بطريقة عرضية ، كما أن العون الذى قدمه هؤلاء الحجاج اللاتين كان مؤقتا ذلك أنهم كانوا يعودون لبلادهم على وجه السرعة بعد إقامة قصيرة فى الأراضى المقدسة نتيجة للأخطار التى أحاطت بمملكة القدس وقتذاك[٢٢] . وبذلك واجه الصليبيون نقصا خطيرا فى القوى البشرية اللازمة للدفاع عن المملكة من الأخطار المحيطة بها، خاصة من جانب الفاطميين ، ولهذا كان عدد أى جيش صليبي فى ميدان المعركة ضئيلا اذا ما قورن بأعداد الجيوش الاسلامية ، وأتضح ذلك فى مواقع الرملة الثلاث مع الفاطميين ، ولذلك فان أى حشد صليبي فى حالة تعرض مصير المملكة الصليبية الناشئة للخطر كان يشمل كل القوات الموجودة فى الامارات الصليبية بحيث لم تكن هناك حامية أو قوات كافية للدفاع عن الامارة الصليبية بالقدس وفى حالة هزيمة أى جيش فرنجى هزيمة كاملة كان ذلك نذيرا بانهيار مملكة الفرنج الناشئة بالشرق .

والواقع أن نقص القوى البشرية للصليبيين كان هو السبب الحقيقى وراء فشل الفرنج فى غزو المناطق الداخلية البعيدة بالشام أو السيطرة على السهل الواقع شرق بيت المقدس ، صحيح أنهم وطدوا أقدامهم بالقدس وأنطاكية وفى الجليل الا أن وضعهم بها كان غير مستقر أو ثابت الأركان بسبب التهديد المستمر لها من الشمال والجنوب ، ولهذا كانت مملكة بيت المقدس اللاتينية الناشئة مملكة بلا حدود أو حماية تذكر[٢٣] .

ويجب ألا ننسى أن سوء الأحوال الصحية بفلسطين بسبب اختلاف مناخها عن مناخ الغرب الأوربى الذى عاش فيه الفرنج وبما أرتدوه من ملابس لا تلائم مناخ هذه البلاد وأشتداد شهيتهم للطعام وجهلهم بالصحة الشخصية لهم أدى لأرتفاع معدل الوفيات بين الجند وبين الأطفال الفرنج الذين

---

(٢٠) Grousset, histoire des croisades, to I, p.p. 369-377; Funk. The Foundation of Latin states, in setton (ed.,) , Vol. I, p. 374.

(٢١) Funk, The Foundation, in Setton (ed.) Vol. I, 374.

(٢٢) Oman, Art of war, Vol. I, p. 255.

(٢٣) Oman, Art of war, Vol. I, p. 25; Besant & palmer, Jerusalem, p.p. 215-216.

الذين نشأوا في تلك الجهات من الشام مما أدى لوجود نقص كبير في القوى البشرية ، وأدى ذلك في الأجيال المقبلة لحدوث مشكلة سياسية مزمنة في مملكة اللاتين . وبذلك صار واضحا لكي يتمكن الصليبيون بالاراضي المقدسة من السيطرة عليها ، وتوسيع حدود أملاكهم لابد أن يقوم الغرب الأوربي بهجرات متواصلة وكبيرة عن طريق الأساطيل البحرية الأوربية[٢٤] ، ولن يأتي ذلك الا بالسيطرة على بقية موانيء الساحل الشامي الفاطمية ، لتصبح أماكن رسو لسفن هذه الاساطيل الآتية بالجند والرجال ، التي كانت بمثابة جرعات لازمة لبقاء المملكة الفرنجية على قيد الحياة[٢٥] .

لقد كان على بلدوين الأول أن يخرج من ذلك الحيز المعزول فيه داخل مدينة بيت المقدس ، وذلك بغزو الساحل الشامي ، مما ييسر له اتصالا سهلا ومباشرا بأوربا ، طالما كانت الأساطيل الفاطمية تستخدم موانيء ومرافيء هذا الساحل قواعد بحرية تشن منها الهجمات بالتعاون مع الجيوش البرية ضد صليبي الشام[٢٦] . وأول عمل كان لابد لبلدوين من انجازه أن يكفل الدفاع عن بيت المقدس ، وسوف يتطلب ذلك اتخاذ سياسة الهجوم ضد الفاطميين هذه المرة وذلك بالانقضاض التدريجي لمدن الساحلين اللبناني والفلسطيني[٢٧] ، وأضافتهما لأملاكه ولابد من اسقاط عسقلان أيضا لحرمان الفاطميين من أهم قاعدة لهم بالجنوب ، وهي التي أضاعها الفرنج عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، بسبب الخلاف بين قادتهم ، ولابد أيضا من دفع الحد الفاطمي بالشام إلى الجنوب ، لتوفير الأمن في الطريق من بيت المقدس إلى الساحل ، وضرورة تشييد معاقل أمامية فيما وراء نهر الاردن وإلى الجنوب من البحر الميت ، وعلى بلدوين أيضا أن يربط مملكته بالامارات المسيحية بالشمال مثل الجليل وانطاكية ، كي يتيسر بذلك فتح الطريق للحجاج ، ولأعداد متزايدة من المهاجرين ، كما تحتم على بلدوين بذل قصارى جهده لبسط سيادته على امتداد الساحل الشامي ، وتشجيع اقامة أمارات مسيحية هناك ، وضرورة توفير موانيء أفضل مما في يده من موانيء مثل حيفا ويافا[٢٨] .

على أن الصليبيين أدركوا أن غزو مدن الساحل الفاطمي كان عملية شاقة بل شبه مستحيلة لافتقارهم لقوة بحرية كافية ، ونظرا لقلة المرافيء الصالحة لرسو السفن الفرنجية وأفتقارهم إلى الأخشاب اللازمة لصناعة تلك السفن[٢٩] . كما كان من المستحيل عليهم حصار أية مدينة فاطمية من البر وينجحوا في اسقاطها طالما كانت تتلقى الامدادات والمقاتلة بحرا من الأسطول الفاطمي القادم من دمياط والاسكندرية أو من ميناء صور ، القاعدة البحرية الهامة للاسطول الفرنجي شمال الشام بجانب

---

(٢٤) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١ .

(٢٥) Boase, The Kingdoms p. 37; Michaud, History of the crusades, Vol. I, p. 286.

(٢٦) Grousset, R., The sum of history,p. 176; Michaud, p. 286.

(٢٧) Duggan, A., The story of the crusades, p. 88.

(٢٨) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٢ ، كذلك : Michaud, History of the crusades, Vol. I, p. 254.

(٢٩) ستيفن رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ص ٤٠٥ ، كذلك : Prawer, The Latin Kingdom, p. 18; Oman, Art of war, Vol. I, p. 254.

مدينة عسقلان قاعدته فى الجنوب[٣٠] . ولهذا كان لابد من وجود قوة بحرية قوية فى كل حملة برية على تلك المدن ، ولمواجهة نشاط البحرية الفاطمية الدائب فى حوض شرق البحر المتوسط والذى اتضح فى تقوية الدفاع عن المدن الساحلية الفاطمية وامداداها بالميرة والأقوات عندما كان ولاتها يستنصرون بالأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى من الحصار الصليبى لها برا وبحرا[٣١] .

وكان من المستبعد لدى الفرنج الاستعانة بالبحرية البيزنطية فقد كانت بيزنطة وأسطولها موضع شك لديهم منذ قيام الحملة الصليبية الأولى ، كما أن البحرية البيزنطية لم تكن قادرة وقتذاك على تحدى البحرية الفاطمية فى مياه البحر المتوسط بعد سلسلة الهزائم البحرية التى منيت بها أمام الاسطول الفاطمى أوائل عهد الخلافة الفاطمية فى مصر ، وبعد نجاح الفاطميين فى السيطرة على حوض البحر المتوسط الشرقى بعد أن كان بحيرة بيزنطية[٣٢] ، كما أن البحرية البيزنطية لم تكن مستعدة لمساعدة الفرنج فى غزو مدن الساحل أو تحدى الأسطول الفاطمى الا إذا تنازل لهم الصليبيون عن أملاكهم بشمال الشام وبخاصة مدينة أنطاكية وميناء اللاذقية[٣٣] .

وبذلك لم يكن امام الفرنج سوى الاستعانة بأساطيل مدن إيطاليا التجارية وفرنسى الجنوب الذين كانوا بمثابة حلفاء للفرنج . والواقع أن العون البحرى الايطالى على وجه الخصوص لم يكن من الممكن اغفاله ، فقد كانت هناك حاجة ماسة للأساطيل الايطالية للابقاء على الطرق البحرية إلى الغرب مفتوحة ولنقل الحجاج والقوات أو العتاد والامدادات إلى الشرق ولضرب الحصار حول مدن الساحل الشامى وموانىء شمال افريقية[٣٤] . ويمكن القول أنه لولا المشاركة البحرية الايطالية فى الفتح الصليبى فى تلك المرحلة الهامة من مراحل الصراع الفاطمى الصليبى ، وتأسيس مملكة اللاتين بالأراضى المقدسة ، فإن غزو مدن الساحل الفاطمية كان أما سيستغرق وقتا طويلا لا يعلم مداه ، أو ربما لم يكن لينجح على الاطلاق . والواقع أن الاساطيل البحرية لجمهوريات جنوه وبيزه والبندقية وأمالفى سوف تلعب دورا مؤثرا فى حصار واسقاط تلك المدن الساحلية الفاطمية[٣٥] مما دفع المؤرخ شارل أومان للقول بأن جمهوريات ايطاليا التجارية ، وليس ملوك بيت المقدس الصليبيين ، هم الغزاة الحقيقيون لكل المدن الساحلية الفاطمية[٣٦] .

وقد كان لدى المؤرخين لتاريخ أوربا الاقتصادى فى العصور الوسطى وعلى رأسهم المؤرخ

---

(٣٠) Prawer, The Latin Kingdom, p. 18.

(٣١) د. عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ، ص ١٠٩ .

(٣٢) د. عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٣٣) Boase, T.S.R., The Kingdoms, p. 37.

ويذكر المؤرخ ستيفن رنسيمان أن أسطول صقلية النورمندى رغم أهميته لدى الصليبيين وحاجتهم اليه وقتذاك الا أن سياسة صقلية النورمندية لم تكن موضع ثقة لديهم . راجع رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ٥٠٤ .

(٣٤) د. جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٨٩ ، رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ص ٥٠٤ .

(٣٥) Thompson, The Middle Ages, Vol. I., p. 572.

(٣٦) Oman, The Art War, Vol. I, p. 245.

الألمانى هيلمر كروجر «Hilmer Kruger» احساسا عميقا بالفرصة الذهبية التى أتاحتها الحروب الصليبية للكسب المادى والاثراء أمام تجار جمهوريات ايطاليا التجارية ، ولهذا فان هذه الجمهوريات الثلاث بالكبار ، جنوه وبيزا والبندقية ، قد هرعت نحو الشرق بمجرد حدوث أول غزو صليبي ، فأدوا دوراً مميزا وحيويا ، فمن ناحية ساعدوا الجيوش الصليبية فى غزواتهم بالشرق ومن ناحية ثانية فان نجاح الحملة الصليبية الأولى فى توطيد اقدام السيطرة الأوروبية على معظم مدن السواحل الهامة فى شرق البحر المتوسط قد ساهم بقوة فى ثراء تجار هذه الجمهوريات الايطالية[٣٧] . وهذا الرأى من كروجر يفسر لنا كيف أن العامل الاقتصادى هو الذى كان يكمن وراء المظهر الدينى للحركة الصليبية ، التى كان يمكنها أن تحقق لأوروبا المسيحية السيادة على سواحل الليفانت ، والتحكم بالتالى فى الطرق التجارية البرية والبحرية المؤدية إلى الشرق الأقصى الغنى بتوابله وسلعه مما كانت تحتاج اليه أوروبا[٣٨] .

والحقيقة أن علاقة مدن إيطاليا التجارية بالشرق الأدنى الاسلامى بصفة عامة والخلافة الفاطمية بمصر بصفة خاصة لم تكن وليدة الحروب الصليبية ، بل كانت لها جذور سابقة سبقت قيام تلك الحركة بفترة ليست بالقصيرة . ولما لم يكن من شأننا أن نروى بافاضة علاقات الفاطميين مع مدن ايطاليا التجارية فى الفترة موضوع الدراسة الا أن المقام يقتضى القاء نظرة على تلك العلاقات بصفة عامة لتفهم العوامل التى حدت بالجمهوريات الايطالية البحرية لارسال أساطيلها لمشاركة الحملة فى غزو مدن الساحل الفاطمى .

كانت مصر قبل الفتح العربى ، كما كانت قبله ، مقصدا للتجار الاوروبيين لحاجتهم لمنتجات وسلع الشرق الأقصى ، التى كانت تتدفق عليها[٣٩] ، وحتى النصف الثانى من القرن الرابع هـ ، العاشر م كانت هذه الحركة التجارية بين الشرق والغرب تعتمد على الجهود الفردية للتجار ، وخاصة التجار اليهود الأوربيين ، إذ أن التجارة العالمية كانت تتطلب فى المقام الأول معرفة اللغات المستخدمة فى أوربا وفى الشرق الأوسط ، وكان التجار اليهود الأوربيون يجمعون بين التحدث بهذه اللغات جميعها[٤٠] . ولكن الحركة التجارية بين الشرق والغرب اتجهت فى معظمها بعد قيام الخلافة العباسية

---

(٣٧) Brundage (J.), The Crusades, motives and achiemvements, Boston 1964; p. IX.

(٣٨) Prawer, The Latin Kingdom p.p. 484-485; Thompson, The Middle Ages, Vol. I, p. 472; Lopes, R.S., & Raymond, W., Medieval trade in the Mediterranean World, New-York 1955, p. 50.

(٣٩) د. أحمد السيد دراج : الوثائق العربية المخطوطة فى دور الأرشيف الأوروبية ، بحث ضمن الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، مارس ـ ابريل ١٩٦٩ ، ط. دار الكتب ١٩٧٠ ، ج ١ ص ١١٧ ، وكذلك : Lopez, R.S., The trade of Medieval Europe, The South, in C.E.H., Vol., II, p. 257 et sqq.

(٤٠) د. أحمد دراج : المرجع السابق ، ج ١ ص ١١٧ ، كذلك : Ashtor, E., Histoire des prixes et des salaires dans l'orient medieval, Paris 1969, p.p. 231-267.

وقد وصف ابن خرداذبة رحلة هؤلاء التجار عبر مصر والبحر الأحمر نحو بلاد الهند والصين ، ثم عودتهم للادهم عن طريق البحر الأحمر ومصر أو عن طريق الخليج العربى والعراق . ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ط. ليدن ١٨٨٩ ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

نحو الخليج العربي وبلاد الرافدين ، أو عبر أواسط آسيا حيث بلاد العراق ومنها الى أوربا . ولكن منذ أواسط القرن الرابع هـ / العاشر م . أخذت تجارة الشرق الأقصى تتجه ثانية نحو البحر الأحمر ، لتصبح مصر القاعدة الرئيسية لتجارة الهند والصين ، وازدادت أهمية هذا الشريان التجارى أكثر من ذى قبل ، بعد الفتح الفاطمى لمصر ، واتخاذها قاعدة لخلافتهم ، ومن ثم عادت مصر ثانية لتحتل المكانة الأولى فى النشاط التجارى بين الشرق والغرب[41] .

وقد شهدت الفترة التى عاصرت قيام الخلافة الفاطمية فى مصر بداية عصر سمى عصر اليقظة الاقتصادية فى المدن المطلة على الشاطىء الأوربى على البحر المتوسط وهذه اليقظة جعلت البحر المتوسط يستعيد مكانته الاقتصادية السابقة أيام الحكم الرومانى[42] ، والتى أدت بالتالى نحو هذه المدن وتطورها فى طريق الحكم الذاتى وزلزلة النظام الاقطاعى بالغرب وظهور مجتمع جديد وحضارة جديدة أساسها التجارة والصناعة وكان نشاط هذه المدن الجديدة بمثابة انقلاب اقتصادى كبير ، وانتهى هذا التطور بقيام القومونات[43] فى هذه المدن التى سعت لاقرار الأوضاع الاقتصاديةعن طريق استئناف التبادل التجارى مع دول قارتى آسيا وأفريقيا[44] .

وكانت مدن إيطاليا مثل ألفى وبيزا وجنوة والبندقية أسبق من غيرها من مدن البحر المتوسط فى طريق هذا التطور ، ثم تلاها مدن بروفانس فى اسبانيا[45] . وقد ترتب على هذه التطورات السياسية بالشرق الأوسط ، وفى حياة تلك المدن الأوربية ، بداية عهد جديد فى تاريخ العلاقات التجارية الدولية بين الشرق والغرب ، فلم يعد النشاط التجارى قاصرا على الجهود الفردية لتجار يهود أوربا ، أو احتكارا لهم ، بل اختفت هذه الجهود الفردية تدريجيا لتحل محلها علاقات تجارية دولية تنظمها معاهدات بين الخلفاء الفاطميين وحكام هذه القومونات[46] والجمهوريات .

---

(41) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ص ٩٤ والحواشى . وعن نشاط التجار اليهود وقتذاك راجع د. أحمد دراج المرجع السابق ، ج ١ ص ١٨٨ ؛ د. جوزيف نسيم : علاقات مصر بالممالك التجارية الايطالية فى ضوء وثائق صبح الأعشى للقلقشندى ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٥١ .

(42) عن عوامل وأسباب تلك اليقظة الاقتصادية راجع د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ص ٩٥ وما بعدها ؛ د. جوزيف نسيم : علاقات مصر ، ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(43) القومونات : هى فريق من المدن لم يكتف بالحريات العامة التى حصلت عليها بقية المدن ، بل حصلت على سلطات سياسية كبيرة بفضل تضافر العناصر المختلفة التى كانت تعيش بالمدينة . راجع لويس ممفورد : المدينة على مر العصور ، اشراف ومراجعة د. إبراهيم نصحى ، ط. القاهرة ١٩٦٤ ، ج ٢ ص ٤٧٢ ، ح (٢) ؛ د. عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٤٩ — ٥٣ ؛ د. جوزيف نسيم : علاقات مصر ، ص ٩٤ — ١٠٧ .

(44) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ص ١٠٥ — ١٠٧ والحواشى .

(45) د. عاشور : المرجع السابق ، ج ٢ ص ١٠٧ .

(46) د. أحمد دراج : الوثائق العربية ، ج ١ ص ١١٩ ، ١٢٤ . ويلاحظ أن هذه المعاهدات الدولية تضمنت العديد من الحقوق والامتيازات والاعفاءات الجمركية لكل طائفة من التجار الفرنج ، والتمثيل القنصلى فى المدن الهامة فى مصر والشام اشارة ، على مصالحهم التجارية هناك . راجع د. أحمد دراج : المرجع السابق ، ص ١٢٠ ، كذلك : Wiet, G., L'Egypte Arabe, T. VI, p.p. 385-388; Thompson, Economicand social history, p. 42 F, p. 116 FF. 69,; Pernoud, R., Les vives merchands aux XIV et XV siécle, Paris, 1498; p.p. 40-50.

وكانت هذه الجمهوريات الايطالية هي التي تسعى بأموالها وتجارها وقناصلها إلى أسواق مصر والشام حرصا على المكاسب الكبرى التي تنالها من الاتجار معها ، وحرصا على تدعيم علاقاتها التجارية مع مصر باعتبار أن الطريق التجاري المار بها أفضل بكثير من الطريق البرى الذى يخترق بلاد الجزيرة والشام[٤٧] ، بحيث يمكن القول أن هذه القوى البحرية الأوربية نازعت القوى البحرية الاسلامية فى غرب حوض البحر المتوسط نفسه[٤٨] . وقد ساعد قيام المدن بهذا الدور الهام الاحتياجات المتبادلة بين شقي العالم وقتذاك ، فان منتجات الشرق بوجه عام ومصر بوجه خاص لها أهمية كبيرة لدى الغرب الأوربي ، الذى كان بحاجة إلى التوابل والبهارات الشرقية فضلا عن السكر والعطور والبخور والعاج وخامات أخرى ، كما كان الشرق بحاجة للخامات الغربية مثل الاخشاب[٤٩] ، والمعادن كالحديد والنحاس ، والقطيفة والكتان وغيرها . وكانت هذه المدن والقوموناث تقوم بتصدير واستيراد هذه السلع بين شقى العالم ، فجنت من وراء ذلك أرباحا طائلة[٥٠] ، وساعد على أزدهار الحركة التجارية بين مصر وأوربا طيلة العصر الفاطمي سياسة التسامح الديني التى أنتهجها الفاطميون أزاء تجار الفرنج كما سمحوا لهم بحرية التنقل داخل البلاد[٥١] .

ولو ألقينا نظرة سريعة على تاريخ علاقة كل مدينة من المدن البحرية الايطالية بالخلافة الفاطمية فى كتاب مثل كتاب هايد «Heyd» ، الذى لا يزال حتى الآن المرجع الرئيسي عن تجارة الشرق فى العصور الوسطى ، نجد أن مدينة مثل أمالفي «Amalfi» الواقعة على الساحل الغربى لايطاليا وأحدى المدن التجارية الرئيسية هناك قبل قيام الحروب الصليبية كانت أولى الجمهوريات الايطالية التى وثقت علاقاتها التجارية مع مصر الفاطمية وعقدت معها أول معاهدة تجارية فى القرن ٥ هـ /١١م ، ويليها بيزا والبندقية وجنوه[٥٢] . ويذكر المؤرخ الفرنجي وليم الصورى أن تجار

---

(٤٧) د. عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ، ص ١٧٤ .

(٤٨) الاستزادة عن هذا النزاع راجع : Kruger, H., the Italian Cities and the Arabs before 1095, in setton (ed.,) Vol. I, p.p. 40-53.

(٤٩) Stern, An original document from the fatimid chancery, Rome 1956, p. 532.

(٥٠) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، ترجمة د. أحمد عزت عبد الكريم ، توفيق اسكندر ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٠ ــ ٢١ ، ٣٥ ــ ٣٦ ، ٥٩ ؛ د. جوزيف نسيم : علاقات مصر ص ١٥٣ ، كذلك : Boase, the Kingdoms, p. 38.

(٥١) د. أحمد دراج : الوثائق العربية ، ص ١٢٦ ، ويلاحظ أن معظم الوثائق العربية المتبادلة بين الفاطميين ومن بعدهم سلاطين الأيوبيين والمماليك من جهة وحكام الجمهوريات الايطالية وملوك الفرنج من جهة أخرى والتى شملت الفترة من مطلع القرن ١١ م إلى مطلع القرن ١٦ م ، انما تعالج تاريخ العلاقات التجارية بين مصر وهذه الجمهوريات بمعنى أنه لم يكن توجد بين مصر وهذه المدن الايطالية علاقات ذات صبغة سياسية فى العصور الوسطى ، اللهم فيما ندر وانما كانت التجارة هى العلاقات الرئيسية التى تربط بينهما ، راجع : Wiet, L'Egypte Arabe, VI, p. 553.

(٥٢) Heyd. G. Histoire du commerce du levant au moyen Age, Leipzig 1885, T.I, 98; Lopez, The trade, in C.E.H., Vol. II. p.p. 257-355,

للاستزادة عن مدينة أمالفي ونشاطها التجارى ، راجع : Heyd, commerce, to. I, p.p. 98-108.

د. جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ط. القاهرة ١٩٦٧ ص ٢٤٩ ــ ٢٥٠ . William of tyre, deeds, Vol. I, p. 242.

أمالفى هم أول من جلبوا للشرق الاسلامى السلع الغربية التى كانت مجهولة لديه ، وأنهم وجدوا ترحيبا من السلطات الفاطمية التى سمحت لهم بحرية المجىء إلى الموانىء الفاطمية وجلب السلع الغربية معهم[٥٣] . ولدينا وثيقة فاطمية وهى وثيقة دار المخطوطات بلندن تؤكد هذا الرأى كما أنها توضح وتثبت نشاط التجار الامالفيين فى مصر الفاطمية خلال القرن ٤ هـ / ١٠ م وأوضحت أن الجنوية والبيازنة لم يلعبوا فى حقيقة الأمر دورا نشطا فى تجارة الشرق قبيل الحركة الصليبية وأكدت بما لا يدع مجالا للشك أن التجارة الشرقية كانت ترتكز على وجه التقريب بيد الأمالفيين ثم الجنوية[٥٤] .

وساعد على أزدهار التبادل التجارى بين القاهرة وأمالفى سياسة التسامح الدينى والمعاملة الطيبة من جانب الخلفاء الفاطميين لتجار أمالفى وغيرهم[٥٥] ، والسماح لهم بالتنقل فى حرية داخل البلاد وفى الأقاليم التابعة للخلافة الفاطمية وبخاصة فى موانىء الشام . وقد أعترف المؤرخ الصليبى وليم الصورى بحسن معاملة تجار أمالفى من جانب الفاطميين لدرجة أن الخليفة الفاطمى ، ونرجح أنه المستنصر بالله ، منحهم امتيازات عديدة منها مرسوم عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ببناء دير ومستشفى لهم ببيت المقدس لعلاج واسعاف الحجاج القادمين من الغرب الأوربى للأراضى المقدسة[٥٦] .

ويلاحظ أنه رغم خضوع أمالفى سياسيا للنورمان منذ عام ١٠٧٦ م / ٤٦٧ هـ ، فقد ظل تجارهايتعاملون مع الفاطميون . ورغم أن غالبية الآراء الحديثة تذكر أن أمالفى لم تشارك بدور فعلى فى الحرب الصليبية الاولى ، وأن علاقاتها التجارية مع الفاطميين أنتهت بقيام الحركة

---

(٥٣) ويخلف الأستاذان : كرى وبابكوك اللذان نشرا كتاب وليم الصورى فى الرأى القائل أن الأمالفيين هم أول من جلبوا إلى الشرق سلع أوروبا . Krey & Babcock )ed.,) Deeds, Vol. I, p. 242 F. 16.

(٥٤) An original document from the Fatimid chancery concerning the Italian merchants, studi orintalisci in onori di giorgio Levi della Vida, Roma 1956, Vol. II, p. 235.

(٥٥) ان هناك اشارات فى المصادر الاسلامية عن اتهام بعض تجار الأمالفيين عام ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م ، باحراق بعض السفن الفاطمية بدار صناعة القاهرة ، أثناء وفودهم الى مصر حاملين بضائعهم . يحيى الانطاكى : التاريخ المجموع ص ١٠٤ — ١٥٨ ؛ المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ١٩٥ — ١٩٦ ؛ . وهذه الاشارات توضح نشاط تجار أمالفى بمصر خلال القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى . ويلاحظ أن اهتمام الأمالفيين كان موجها الى جلب المنسوجات الحريرية المصنوعة فى دبيق احدى قرى دمياط إلى أسواق روما ، كما أصبح لهم فنادق بالاسكندرية . راجع د. عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ، ص ١٧٤ ، كذلك : Prawer, the Latin Kingdom,p. 18.

(٥٦) William of type, deeds, Vol. II, p.p. 242-244.

وأشار لذلك أيضا الرحالة الفارسى : ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ٢١ ويذكرهايد أنه من المؤكد أن الخليفة الفاطمى أعطى الاذن ببناء بعض مبان للمسيحيين بالقدس إلى أمير أمالفى المدعو موروس «Maurus» ، الذى توفى عام ١٠٧١ م . راجع Heyd, commerce, To. I, p. 104.

وأشار أحد الحجاج الغربين الذين زاروا القدس عام ١١٠٢ م فى مذكراته لاستمرار وجود هذه المستشفى راجع . Saewulf, the pilgrimage of saewulf, in p.p. T.S., Vol, IV, p. 14.

الصليبية[٥٧] ، الا أن لدينا وثيقة فاطمية هامة من دار المخطوطات الفاطمية بلندن تدحض هذه الآراء وتثبت استمرار تجارة أمالفي مع مصر الفاطمية أثناء القرن ٥ هـ / ١١م — ١٢ م ، أى فى وزارة الأفضل بن بدر الجمالي ، حيث واصل الأمالفيون تصدير الأخشاب والمعادن المستخدمة لصناعة الاساطيل الفاطمية فى تلك الفترة[٥٨] ، ويؤكد الاستاذ هايد ما جاء بهذه الوثيقة فيذكر أن تجارة أمالفي مع مصر الفاطمية أثناء وزارة الأفضل شاهنشاه وأثناء الحروب الصليبية استمرت فى تلك المرحلة[٥٩] . كما أن ذكر اسم أحد تجار أمالفي فى تلك الوثيقة يعطى برهانا قاطعا على ذلك .

أما بالنسبة للبندقية ، فقد أدت دورا بارزا فى الحركة الصليبية ، وعلاقاتها مع الفاطميين لما لها من تاريخ بحرى مجيد انفردت به عن غيرها من دول غرب أوربا أو المدن الايطالية ، وأكدت وثيقة دار المخطوطات الفاطمية بلندن ، أن التجارة الشرقية على وجه التقريب ، تركزت فى أيدى البنادقة ومعهم الأمالفيين قبيل قيام الحركة الصليبية وبعدها[٦٠] ، باعتبار البندقية أكبر قوة بحرية تجارية بالبحر المتوسط ، كما أن علاقاتها مع الشرق وخاصة مع بيزنطة ترجع لعدة قرون قبل قيام الحروب الصليبية[٦١] . ورغم العلاقة القوية بين البندقية والقسطنطينية ، والتى وصلت إلى حد اعتراف الأولى بسيادة الثانية ، الا أن تعاملها مع البلاد الاسلامية ، منذ قيام الخلافة العباسية كان على نطاق واسع[٦٢] ، ويكفى أنها رفضت الخضوع لتحريم الامبراطور البيزنطى ليو الخامس «Leo V» بالتجارة مع الدول الاسلامية ، فقامت سفنها بنقل رفات القديس مرقس من الاسكندرية[٦٣] ، وقوت علاقاتها مع مصر الفاطمية ، وأمدتها بالحديد والسلاح والخشب اللازم لصناعة السفن ، كما أكدت بذلك وثيقة دار المخطوطات الفاطمية[٦٤] ، حتى أن الامبراطور يوحنا زيمسيكس ( الشميشق ) ( ٩٦٩ — ٩٧٦ م ) قد شكى إلى دوج البندقية من ذلك عام ٣٦١

---

(٥٧) Prawer, the Latin Kingdom, p. 18; Thompson, the Middle Ages, Vol. 1, p. 374.

(٥٨) An Original document; p. 532.

(٥٩) Heyd, commerce, to. I, p. 388; FF.

(٦٠) An Original document, p. 532.

(٦١) Cambridge Medival History, Vol. IV, p. 410.
ويلاحظ أن سر عظمة البندقية التجارى والبحرى يرجع إلى موقعها الجغرافى الممتاز بوقوعها على رأس البحر الادرياتيكى الذى كان يعتبر على حد قول الكاتبة ايلين بور فى كتابها « نماذج بشرية من العصور الوسطى » أعظم طريق تجرى لتجارة العصور الوسطى وموقعها المتوسط بين الشرق والغرب فضلا عن كونها أحد موانىء البحر المتوسط ، مما أكسبها مميزات أثارت حسد كثير من زميلاتها الايطاليات . راجع د. جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٥٣ والحواشى .

(٦٢) كانت البندقية تصدر للشرق الاسلامى حاصلاتها الثلاث الخشب والحديد والاسلحة ، والتى كانت مطلوبة على طول السواحل الاسلامية من فلسطين إلى المهدية ، بجانب تجارة الرقيق التى درت عليها أموالا طائلة فى أسواق النخاسة فى العالم الاسلامى من قرطبة الى بغداد . راجع أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة الاستاذ أحمد محمد عيسى ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٧٠ وما بعدها .

(٦٣) د. عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ، ص ١٧٥ .

(٦٤) An original document, p. 532.

هـ / ٩٧١ م ، بل وهدد بحرق السفن البندقية التى تتاجر مع مصر نظراً للعداء السياسى بين البيزنطيين والفاطميين ، كما أنه أصدر قراراً بحظر نقل هذه المواد الخام إلى مصر الفاطمية[٦٥] . على أن البنادقة رفضوا الانصياع لذلك وأستمرت علاقاتهم مع الفاطميين[٦٦] ، وحصلوا على أمتيازات تجارية واسعة من الخلفاء الفاطميين ، وأثرت مدينتهم من ورائها ثراءاً كبيراً[٦٧] ، وما وصلنا عن تاريخ علاقات البندقية مع الفاطميين يتمثل فى حجم الوثائق الخاصة بهذه العلاقات ، ففى عام ٤٨٨ هـ / ١٠٥٦ م عقدت البندقية معاهدة مع الفاطميين ، وهى المعاهدة الوحيدة التى وصلتنا عن تلك الفترة[٦٨] .

وقد ترددت البندقية كثيراً فى الاشتراك فى الحركة الصليبية ، خشية تعرض تجارتها المزدهرة ومكاسبها مع الشرق الاسلامى ومع الفاطميين لخطر كبير ، كما كانت ستواجه عداء البيزنطيين حلفائهم وأعداء الصليبيين ، بجانب الاخطار التى تهدد اسطولها المار فى البحر الادرياتيكى من جانب المجريين والنورمان[٦٩] ، ولهذا اتخذت موقفاً محايداً فى بداية الحركة ، ولكن حب المغامرة وثراء الشرق ، وإشتراك أساطيل منافسيها من المدن الأخرى وحصولهم على أمتيازات ضخمة بالشرق الاسلامى ، جعلها تتخلى عن موقفها الحيادى وتلقى بكل ثقلها فى الحروب الصليبية[٧٠] . وقد أدى البنادقة سياسة مزدوجة ، ففى الوقت الذى ساعدوا فيه الفرنج بأساطيلهم ، وتقاضوا أجور نقل مهماتهم إلى الشرق ، تقربوا فى نفس الوقت من السلطات الفاطمية فى مصر خشية ضياع المكاسب التى كانوا يجنوها من التعامل معهم ، وهى سياسة كانت تتفق مع مصالحهم وأطماعهم فى المنطقة فامتلاك موانىء مصر والشام حيث تنتهى الطرق البحرية الرئيسية لسلع الشرق كان حجر الزاوية فى تجارتها[٧١] . ولم يقتصر دور البنادقة على مجرد

---

(٦٥) يذكر هايد أن دوج البندقية هو الذى أصدر هذا القرار . راجع : Heyd, commerce, to. I, p. 113.

(٦٦) د. جوزيف نسيم : العلاقات بين مصر والممالك الايطالية فى ضوء وثائق صبح الأعشى ، ص ١٥٥ . ويذكر المؤرخ هارولد لامب أن ازدهار البندقية التجارى يرجع لمعرفتهم التامة بالمداخل والمسالك المجهولة فى البحر المتوسط ، ومعرفتهم لقيمة العملات المتبادلة ، بجانب كونهم حلفاء للبيزنطيين ولهذا يطلق على البنادقة تسمية تجارة البحار الضحلة . راجع :
Lamb, H., The crusaders, p. 222.

(٦٧) د. جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٥١ ، كذلك : Wiet, VI, p. 306.

(٦٨) وفيما يختص بالوثائق العربية أو الاسلامية المتبادلة بين الفاطميين ومدن ايطاليا البحرية ، لم يصلنا منها الا وثيقة واحدة ، عثر عليها الأستاذ شتيرن «Stern» ، نشرت عام ١٩٥٦ ، وهى وثيقة عامة لا تخص مدينة معينة ، وانما تخص بالتجار الايطاليين عامة ، ولدينا صورة من تلك الوثيقة أستطعت الحصول عليها بصعوبة بالغة . راجع أحمد دراج : الوثائق العربية ص ١٢٧ .

(٦٩) Prawer, the Latin Kingdom, p.p. 18-19; Cambridge Med. Hist., Vol. IV, p 410.

(٧٠) تذكر مجموعة كمبردج لتاريخ العصور الوسطى أن البندقية كانت آخر ممالك ايطاليا التى لحقت بركاب الحملة الصليبية الأولى ، وكذلك : Cambridge Med. Hist., Vol. VI. p. 410, Prawer, the Latin Kingdom, p. 20.

(٧١) د. جوزيف نسيم : علاقات مصر بالممالك الايطالية ص ١٥٦ ــ ١٥٨ ، العرب والروم واللاتين ص ٨٧ ــ ٨٨ وكذلك : Grousset, the sum of history, p. 181; Lamb, H. The Crusaders, p. 223.
ويذكر المؤرخ اليهودى يوشع براور أن أول حملة بندقية على الشرق الاسلامى واشتراكها مع الصليبيين كانت حملة حكومية بمعنى أن تمويلها المالى والاشراف عليها كان من حكومة البندقية نفسها ، فى حين أن الحملات البحرية السابقة ، التى تلت =

المساهمة فى قيام مملكة اللاتين بالأراضى المقدسة ، بل عملوا على الحفاظ عليها أطول مدة ممكنة لتمكين مصالحهم ، وتمثل ذلك فى سلسلة المعاهدات التى عقدت بينهم وبين الفرنج وأمراء مملكة بيت المقدس اللاتينية وتضمنت امتيازات إقليمية ومالية وقضائية لصالح تجارة البنادقة[٧٢] .

أما بالنسبة لدور جنوه وبيزانان فان دور كل منهما لا يقل أهمية فى علاقاتهم بالشرق الاسلامى من أجل البحث عن أسواق جديدة ومصادر للامدادات والسلع[٧٣] . وكانت جنوة قد توطدت علاقاتها بمصر الفاطمية من النصف الثانى من القرن الخامس هـ . الحادى عشر م ، منذ أن تحررت من سيطرة البيزنطيين ، وأصبحت حرة التصرف فى اتباع سياسة اقتصادية تتفق ومصالحها التجارية ، فعقدوا معاهدة تجارية مع الفاطميين عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م ، كما وفد التجار الجنوية إلى الاسكندرية لاستيراد السلع والبضائع والشرقية مثل الغلال والشب والنطرون والسكر[٧٤] ، كما كان رعاياها موضع حماية الخلافة الفاطمية ورعايتها[٧٥] .

وبعد قيام الحركة الصليبية كان الجنوية هم أول من تواجدوا فى ميدان الشرق الاسلامى لمساعدة الصليبيين يحدوهم فى ذلك الكسب المادى ، بعد أن تذوقوا طعم المكاسب التى جنوها من وراء اشتغالهم بالتجارة مع الفاطميين قبيل الحروب الصليبية اذ رأت جنوة أن موانىء مصر والشام الفاطمية يجب أن تبقى فى أيدى مسيحية وبالتحديد فى أيديهم لاحتكار تجارة الشرق بشكل كامل[٧٦] ، ولهذا نجد فى حوليات كافارو الجنوى عن دور جنوة وعلاقاتهم بالفاطميين

---

= ذلك ، فلت على أكتاف الأمراء وكبار الأثرياء فى مدن ايطاليا . لمزيد من التفاصيل عن موضوع الدور المالى للحملات الايطالية البحرية على الشرق راجع : Prawer, the Latin Kingdom, p.p. 485-488.

انظر أيضا دور البنادقة فى الحروب الصليبية وعلاقاتهم بالفاطميين فى حوليات البندقية لراهب ليدو المسماه « تاريخ وترجمة أعمال القديس نيقولا » والذى سار على نفس نمط حوليات جنوه لكافارو الجنوى . راجع : Monachus Littorensis, Translatio sancti Nicolai venetiani, R.H.C. Hist. occ., Vol. p. 253, CF also prawer, the Latin Kingdom, pp. 488-499.

(٧٢) د. جوزيف نسيم : علاقات مصر بالممالك التجارية الايطالية ص ١٥٦ والحواشى ، وكذلك : Lamb, the Crusaders, p.p. 224-225,

ان الوثيقة الهامة التى أوردها وليم الصورى بين دوج البندقية وبارونات مملكة بيت المقدس الخاصة بغزو مدينة صور خير دليل معاصر وهام على هذه الامتيازات والحقوق التى حصل عليها البنادقة داخل الأراضى المقدسة . راجع : William of tyre, deeds, Vol. II p.p. 550-556.

(٧٣) Prawer, the Latin Kingdom, p. 19.

(٧٤) د. عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ١٧٤ .

(٧٥) د. جوزيف نسيم يوسف : علاقات مصر ، ص ١٦٨ ، والحواشى كذلك : Heyd, Commerce, to I, p. 139.

(٧٦) Oman, the Art of war Vol. I, p. 254.

وعن تطور مدينة جنوة كقوة بحرية وعلاقاتها بالشرق الاسلامى وشمال غرب افريقيا عبر العصور المختلفة راجع : Kruger, H., Genoes Trade with northern Africa in the 12th centuries, Speculum, Cambridge 1933, Vol. VIII, p.p. 377-378; Bach, E., La cite de Genes aux XII é siécle, Copenhagen 1955; Byrne, E.E., commercial contracts of the Genoes in the Syrian trade of the 12th century, Journal of Economics, 1916-1917, Vol. XIII; Genoes trade with Syria in the 12th the century, A.H.R., 1919-1920, Vol. 25, p.p. 191-219.

خلال الحملة الأولى توازنا عجيبا بين الدوافع الدينية والجشع المادى[٧٧] ، كما أوضحت وثيقة دار المخطوطات الفاطمية بلندن الدور المزدوج والخطير الذى قامت به جاليات وممالك ايطاليا التجارية بين الفاطميين والصليبيين وأظهرت الجشع المادى الذى حفزهم على المشاركة فى هذه الحروب ففى نفس الوقت الذى عاونوا فيه الفرنج فى غزو مدن موانىء الساحل الشامى الفاطمى لم يمنع هذا من مواصلة التجارة مع الفاطميين ، وأن ذكر أسم التاجر الجنوى فى تلك الوثيقة[٧٨] يؤكد وجهة النظر تلك فقام أسطول جنوى من أثنى عشر سفينة تحمل ما بين ثلاثة أو أربعة آلاف مقاتل وبحار فى نقل الصليبيين ومؤنهم عبر البحر إلى انطاكية وساعدوا فى إسقاطها وإسقاط ميناء السويدية ( سان سيمون )[٧٨] ، كما شارك اسطول جنوه بقيادة وليم امبرياتشو ، سليل اسرة امبرياتشو الشهيرة ، فى اسقاط ميناء يافا الفاطمى ، وقام بدور فعال فى اسقاط مدينة القدس الفاطمية ( شعبان ٤٩٢ هـ / يوليو ١٠٩٩ م )[٨٠] ، كما شارك فى غزو العديد من مدن الساحل الشامى الفاطمية[٨١] ، كما كونوا فى بعض هذه المدن ومنها جبيل ، مستعمرات تجارية لهم[٨٢] .

أما بيزا فكانت لها علاقات وطيدة بالفاطميين قبيل قيام الحروب الصليبية ، فحصلت منهم فى القرن ٥ هـ / ١١ م على أمتيازات تجارية كبيرة وساعدها على ذلك موقعها الجغرافى على البحر المتوسط وباعتبارها همزة وصل بين الشرق والغرب[٨٣] . وساعد علي ازدهار تجارتها مع الفاطميين سياسة التسامح الديني للفاطميين ازاء تجار الفرنج بوجه عام فلم يقتصر نشاط البيازنة على ثغر الاسكندرية بل امتد إلى داخل البلاد فكان لهم فندق ثان بالقاهرة بجانب فندقهم الأول بالاسكندرية[٨٤] . وأتخذت بيزا من الحركة الصليبية موقفا يتفق مع مصالحها الخاصة شأن البنادقة والجنوية يدفعها فى ذلك الأطماع المادية وإقامة مستعمرات لها بالشرق . ولا ننسى أن أسطول من بيزا بقيادة دايمبرت ، رئيس اساقفة بيزا ، كان أول أسطول إيطالى يصل إلى الشرق يعاون بوهيمند أمير أنطاكية فى احتلال اللاذقية[٨٥] ، وأكد أدعاءات البيازنة فى بعض موانىء الساحل مثل يافا ومدينة القدس ، وشارك مع الكونت برترام فى حصار طرابلس[٨٦] .

---

(٧٧) Caffaro, De Liberatione, R.H.C., Hist. occ., Vol. V, p.p. 1-80.

(٧٨) An original document, p. 532.

(٧٩) Boase, the Kingdom, lp. 35, Prawer, the Latin Kingdom, p. 485.

(٨٠) Prawer, the Latin Kingdom, p. 485; Boase, the Kingdoms, p. 35.

(٨١) راجع : Caffaro, De Liberatione, R.H.C. Hist., occ., Vol. V, p. 65. XV - III; Oman, Art of war, Vol. I, 254.

(٨٢) Boase, the Kingdoms, p.p. 35-36.

(٨٣) د. عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الأسلامية ص ١٧٤ ــ ١٧٥ ، د. جرزيف نسيم : علاقات مصر بالمدليات الايطالية ، ص ١٦٨ .

(٨٤) د. أحمد دراج : الوثائق العربية ، ج ١ ص ١٢١ .

(٨٥) باركر : الحروب الصليبية ص ١٥٢ ح (١) ، كذلك : Heyd, commerce, p.p. 35-36.

(٨٦) Oman, Art of war, Vol. I, p. 254; Boase, the Kingdoms, p. 487.

وبذلك لم يكن اسهام مدن ايطاليا التجارية وغيرها فى الحركة الصليبية عن وازع دينى بل كان هدفا ماديا بحتا[٨٧] لتحقيق ثراء سريع على حساب البابوية والصليبيين والفاطميين جميعا[٨٨]. وأكدت ذلك وثيقة دار المحفوظات الفاطمية بلندن[٨٩].

وقد أدرك الفرنج أنه لا يمكن الاستغناء عن مساعدة أساطيل الجمهوريات الايطالية فمنحوهم امتيازات اقتصادية بلغت من ضخامتها أن جاليات وتجار هذه الجمهوريات كونوا دولة داخل الدولة اللاتينية فى بيت المقدس وتوابعها من الامارات الاخرى[٩٠]، كما أنها أضعفت موارد مملكة اللاتين التى أسهمت هذه المدن البحرية فى قيامها فيما بعد[٩١]، وظهرت هذه الامتيازات فى المعاهدات والاتفاقيات الدولية بين ملوك مملكة بيت المقدس وبين أمراء هذه المدن، والتى حفلت بها وثائق وحوليات اللاتين وأرشيفات جنوة وبيزا والبندقية[٩٢].

وقد رأى بلدوين ملك بيت المقدس أن مملكته بحاجة للاستيلاء على بقية الموانىء البحرية، ولم يقنع بالموانىء المحدودة التى تحت يده مثل أرسوف وقيسارية ويافا وحيفا ولهذا طمع فى اسقاط الموانىء الفاطمية الباقية على الساحل الشامى والتى كان من الممكن أن يستغلها الفاطميون فى طعن مملكة بيت المقدس اللاتينية وذلك بقطع الشريان الذى كان يربطها بالغرب الأوربى بعد ما حدث فى شتاء عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م عندما جنحت بعض السفن تحمل حجاجا عائدين إلى الغرب على شواطىء الشام فأسرت الحاميات الفاطمية فى صيدا وصور وعكا وعسقلان من بها من الحجاج فقتل بعضهم وبيع البعض الآخر فى أسواق الرقيق بالقاهرة[٩٣].

وقد انتهز الصليبيون فرصة مجىء عمارة جنوية ضخمة تحت قيادة الأخوين هيو أنسالدوس أمبرياتشو[٩٤] «Hugh - Ansaldus Embriaco»، وتتكون من سبعين سفينة[٩٥]، وأنحدروا

---

(٨٧) د. حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى، ط. دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٤٧، ص ٣٤ والحواشى.

(٨٨) د. جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين، ص ٨٧، كذلك : An original document p. 532.

(٨٩) ان هذه الوثيقة تعطى دليلا قاطعا على الدور المزدوج الذى قامت به جاليات ومدن ايطاليا بين الفواطم والفرنج. راجع : An original document, p. 532.

(٩٠) Prawer, the Latin Kingdom, p. 87.

(٩١) يذكر المؤرخ اليهودى يوشع براور أنه رغم ما تضمنته الامتيازات الصليبية للتجار الايطاليين من تضحيات وخسائر جسيمة للأمراء الصليبيين الا أنهم نظروا اليها كمصدر فائدة فى المستقبل، فكان من مصالحهم جذب التاجر الايطالى إلى موانىء مملكتهم وامارتهم بالشرق الاسلامى باعتباره الشخصية المألوفة والمعروفة فى الاقتصاد الأوربى. Prawer, the Latin Kingdom, p. 87.

(٩٢) انظر الاتفاقية التى أشرنا اليها بين البنادقة وبارونات مملكة بيت المقدس لاسقاط مدينة صور الفاطمية كما أوردها وليم الصورى.

(٩٣) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج ١ ص ٣١ (ح ٢)؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢ ص ١٤٢ ح ٢.

(٩٤) امبرياتشو : أسرة جنوية شهيرة لعبت دورا بارزا فى الحروب الصليبية وسيطرت على معظم تجارة موانىء الشام الساحلية فى عصر تلك الحروب. ويعتبر وليم امبرياتشو هو أول من وطد أقدام هذه الأسرة فى الشرق اللاتينى وخلفه من بعده أبناؤه انسالدوس وهيوامبرياتشو. راجع : Byrne, the Genoes Colonies in Syria, in munro's crusade, p.p. 146-154.

(٩٥) كانت هذه السفن قد وصلت إلى ميناء اللاذقية فى رجب ٤٩٧ هـ / فبراير ومارس عام ١١٠٤ م. راجع ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٥٥، وكذلك : Fulcher of chartres, the expediton, p. 175, William of tyre, deeds, Vol. I, p. 476.

نحو الجنوب إلى فلسطين حيث أتفق معهم الصليبيون على حصار واسقاط مدينة جبيل[٩٦] والتي كانت تابعة لامراء بنو عمار أصحاب طرابلس ، مقابل منحهم امتيازات وشروط معينة قبلها الجنوية ويذكر ياقوى الحموى أن الصليبيين اوعدوا الجنوية بمنحهم عشرة آلاف دينار مقابل مساعدتهم لحصار جبيل[٩٧] .

وسرعان ما شرع الصليبيون والجنوية فى حصار المدينة برا وبحرا ، وأستبسلت حاميتها فى الدفاع عنها إلا أن عدم وصول النجدات الفاطمية ونفاذ مؤن المدينة وعجز سكانها عن مقاومة الحصار الصليبى القوى ، أجبرهم على الاستسلام للصليبيين بالامان ، بشرط مؤداها أن يسمح الصليبيون لمن يرغب من سكان المدينة فى مغادرتها بالخروج منها ومعهم أموالهم ومقتنياتهم وهؤلاء الذين يريدون أن يسمح لهم بالبقاء مقابل دفع جزية للصليبيين . وقد وافق الصليبيون على شروط أهل جبيل ودخلوا المدينة بالأمان[٩٨] ، الا أن الفرنج والجنوية نكثوا بعهدهم ففرضوا الضرائب الباهظة على سكان المدينة ، وصادروا أموالهم وأملاكهم « وأخذوا أموالهم وأستنفذوها بالعقوبات وأنواع العذاب[٩٩] . وبذلك سقطت جبيل فى أيدى الفرنج فى ٤ رجب ٤٩٧ هـ / ٣٠ مارس ١١٠٤ م[١٠٠] . وقد آلت ملكية هذه المدينة إلى الجنوية اذ تنازل عنها الصليبيون للأخوة امبرياتشو الذين سيطروا عليها وحكموها لتصبح قاعدة للجنوية فى الشرق الاسلامى وذلك مقابل ضريبة سنوية كانوا يدفعونها لخزانة جنوة[١٠١] .

---

= واختلفت آراء المؤرخين حول جنسية هذا الاسطول وعدد سفنه فيذكر ابن القلانسى أنه كان أسطولا جنويا من تسعين سفينة . راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٤ . فى حين يذكر مؤرخ حوليات جنوه أنها كانت أربعين سفينة جنوية فقط : Caffora, De liberatione, R.H.C., Hist. occ., Vol. V.p., 70.
ولكن البرت داكس يرى أن الاسطول كان يضم سفنا جنوية وبيزاوية . راجع .

(٩٦) جبيل : تصغير لجبل وهى بلدة فى سواحل دمشق تقع شرق بيروت فتحها يزيد بن أبى سفيان . راجع عنها ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ط . ليبزج ١٨٦٦ م ، ج ٢ ص ٣٢ ؛ ناصر خسرو : سفرنامة ص ١٤ . ويذكر المؤرخ وليم الصورى أنها كانت ضمن اعمال مدينه صور . راجع : William of tyre, deeds, Vol.I p. 476.

(٩٧) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٣٢ ، كذلك : Caffaro, De liberatione, R.H.C., hist. occ., Vol. V, p. 70

(٩٨) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٥٥ ؛ النويرى الكندى : نهاية الأرب ، مخطوط دار بجلد ٢٦ لوحة ٧٨ . ويذكر المؤرخ الصليبى وليم الصورى أن سكان جبيل استسلموا للأخوين امبرياتشو والأسطول الجنوى وليس للفرنج . راجع : William of tyre, deeds, Vol. I, p. 477.

(٩٩) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٢٥ ؛ الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، تحقيق فؤاد سيد ، ط . الكويت ١٩٦١ ، ج ٣ ص ٣٤٥ . ويذكر ياقوت الحموى أن سكان جبيل لما صاروا فى قبضة بدوين قال لهم : « انى قد وعدت أصحاب المراكب الجنوية بعشرة آلاف دينار وأريدها منكم فكانوا يأخذون الصاغ كل ثلاثة مثاقيل بدينار والفضة كل سبعين درهم بدينار » . ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٣٢ — ٣٣ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٦ .

(١٠٠) خلطت بعض المصادر الاسلامية بين سقوط جبيل عام ٤٩٧ هـ ، وجبلة عام ٥٠٢ هـ . وهذا الالتباس من المصادر الاسلامية يرجع لتشابه اسمى جبيل وجبلة . راجع مثلا ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة مخطوط دار رقم ٨٩٠ تاريخ ، لوحة ٧٧ . ومناقشة ذلك فى : Stevenson, the crusaders in the East, p. 54, FF.

(١٠١) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 477, of also; Heyd, Commerce, to. I, p.p. 139-141; p.p. 150-158.

لقد أفاد بلدوين الأول ملك بيت المقدس اللاتينية من فترة الهدوء التي أعقبت هزيمة الفاطميين في موقعة الرملة الثانية ، وذلك بتوطيد مركزه بالساحل الشامي ، فعلى الرغم من نجاحه في الاستحواذ على العديد من مدن الساحل الواقعة بين يافا وحيفا وأخرها جبيل الا أنه لم يكتف بذلك فكان لا يرضى الا بالسيطرة الكاملة على ذلك الشريط الساحلي الفاطمي الممتد من بيروت حتى عسقلان وتكوين رؤوس جسور للفرنج على الساحل الشامي ، ليستمر في اتصاله بالغرب خاصة وأن الأخطار لا تزال تحيط بمدن الساحل التي أستولى عليها ، فقد دأب المغيرون من المسلمين على ارتياد المناطق التي تربط بين المدن الساحلية بين يافا وحيفا وبخاصة تلك المناطق الواقعة على منحدر جبل الكرمل . كما أن الطريق الممتد من يافا إلى بيت المقدس كان محفوفا بالمخاطر بسبب غارات وكمائن الجماعات العربية القابعة في ذلك الطريق وقد لاحظ ذلك الحاج الألماني سايولف «Saewulf» ، وعبر عن تلك الأخطار في مذكراته التي سجلها عن رحلة حجه إلى الأراضي المقدسة عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م[١٠٢] . ولا ننسى أن نشير لدور الأساطيل الفاطمية القابعة في موانىء صور وعكا في تهديد طريق التجار والحجاج الأوربيين الوافدين للساحل الشامي[١٠٣] .

وكان بلدوين يدرك أن المدن الساحلية التي كانت في حوزته مثل يافا وأرسوف وحيفا وغيرها ، لم تكن تتعدى كونها موانىء صغيرة ، فقدت أهميتها وعظمتها البحرية القديمة ، في حين أن موانىء أخرى مثل صور وعكا ، بمينائيهما الصناعيين اللذين شيدا في العهد الطولوني ، كانت عبارة عن أسواق ومراكز تجارية من الطراز الأول على الساحل الشامي ، اذا قورنت بالموانىء السابقة[١٠٤] . وحتى ميناء يافا الذي كان بمثابة الميناء الرئيسي للاتين ، لم يكن ملائما لرسو السفن الايطالية الضخمة ، التي كان الفرنج في أمس الحاجة اليها لمساعدتهم في البقاء بالأراضي المقدسة . ففي اليوم التالي من نزول الحاج سايولف في ميناء يافا ، شهد الميناء حطام ما يزيد على ثلاثين سفينة ضخمة ضمن الاسطول الذي كان عليه وغرق ما يربو على ألفي رجل اثر عاصفة عاتية هبت في الميناء عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م[١٠٥] . وذلك ضمن العواصف التي تهب دائما .

لكل هذه الأسباب ، رأى بلدوين أن تكون مدينة عكا ومیناؤها الهدف التالي لاطماعه ، باعتبارها خير ميناء يصلح لمملكة بيت المقدس الصليبية[١٠٦] ، وباعتباره الميناء الوحيد المأمون في

---

(١٠٢) Saewulf, Pilgrimage of saewulf, in p.p. T.S, Vol. IV, p.p. 8-9;

(١٠٣) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٤٢ .

(١٠٤) Prawer, the Latin Kingdom, p. 18,

(١٠٥) Seawulf, pilgrimage of Saewulf in p.p. T.S., Vol. IV, p.p. 7-8

والمؤرخ ابن القلانسي هو المؤرخ الاسلامي الوحيد الذي أشار الى حادثة غرق سفن الحاج سايولف . وروايته شبيهة الى حد كبير بما ورد في تاريخ الحاج سايولف ويشير أن عدد السفن التي وفدت ليافا كانت أربعين سفينة . راجع ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق : ص ١٤١ ، حوادث ٤٩٥ هـ .

(١٠٦) يرجع الفضل إلى أحمد بن طولون في تحسين وتقوية عكا وتأسيس ميناء صناعي قوى بها بمساعدة رجل يدعى أبو بكر البناء في القرن ٣ هـ / ٩ م . ويذكر ياقوت الحموي أنها كانت مركزا لصناعة سفن بلاد الاردن . راجع ياقوت : معجم البلدان ، جـ

فلسطين الصالح لرسو السفن الضخمة في معظم فصول السنة[107] ، بالاضافة لكونها واحدة من القواعد البحرية الهامة للاسطول الفاطمي في الساحل الشامي ، إذ أن وقوعها على الساحل الشرقي لحوض البحر المتوسط ، جعل منها سوقا ومركزا تجاريا وبحريا من الطراز الأول[108] ، فكانت ترد اليها السلع الأوربية للشرق الاسلامي ، كما أن خليج عكا الطبيعي منحها مرفأ آمنا للسفن البحرية[109] ، كما أنها كانت تقع في منطقة التقاء الطريق الساحلي المتجه من رأس الناقورة جنوب صور إلى جبل الكرمل ويتجه شرقا حتى مرتفعات الجليل السفلي ، بجانب اتصال عكا بطريق القوافل القديم الذى كان يمتد من بلاد الرافدين عبر دمشق ، ثم الجليل ، وراء نهر الأردن حتى مصر[110] . وعلى هذا قرر بلدوين الاستيلاء على عكا لأهداف تجارية أو أستراتيجية ودينية[111] .

وشرع بلدوين الأول عقب عيد الفصح ، في جمادى الآخرة ٤٩٦ هـ / مارس ١١٠٣ م في حصار مدينة عكا لأول مرة برا وبحرا ونصب عليها المجانيق والأبراج المتحركة ، وساعده في ذلك أسطول جنوى صغير مكون من تسعة عشر سفينة ، « وضيق عليها ، وطال حصاره لها وكاد يأخذها[112] ، ولكن المدينة أتتها النجدات الاسلامية من سائر السواحل بجانب وصول سفن الاسطول الفاطمي التي أقلعت من ميناء صور وصيدا ، وتتكون من أثنى عشر غرابا وحمالة ضخمة تحمل الأجناد وآلات قذف النيران الاغريقية لانقاذ عكا من الحصار الصليبي[113] . وقد نجحت حامية المدينة بمساعدة الاسطول الفاطمي في احراق مجانيق وأبراج الفرنج ، كما تمكن

---

= ج ٣ ص ٧٠٧ ؛ أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٤٤ ـــ ٢٤٣ ؛ ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٥ ؛ القلقشندى : صبح الاعشى ، ط. الأميرية ١٩١٣ ، ج ٣٤ ص ١٥٢ . أيضا ميخائيل عواد : المآصر في بلاد الروم والاسلام ، ص ٣٣ .
كذلك : Enclopedia of islam, London 1961; Vol. I, p. 3411 (Art Akka); Walson, the story of Jerusalem, london 1912, p. 228; Rey; Lescolonies des franques, p. 45.

(١٠٧) Fulcher of chartres, the expedition, p. 176; William of tyre, deeds, Vol. p. 45; Roger of Wendover, Flowers, Vol. I, p. 458; Felix Fabri, the book of wandering, in p.p. T.S. London 1873, Vol. II. pt. I, p. 313.

(١٠٨) Mayer, the crusades, Oxford 1972, p. 75.

(١٠٩) Fulcher of chartres, the expedition, p. 176.

(١١٠) د. جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، اسكندرية ١٩٦٧ ، ص ٩٤ ـــ ٩٩ والحواشى ، كذلك : Prawer, the Latin Kingdom, p. 18; Encyclopedia Britannica, London 1969, Vol., I, p. 102

(١١١) يذكر المؤرخ المجهول لتاريخ سلاطين المماليك « أن عكا كانت أيضا معظمه عند الملة النصرانية لأجل الناصرة ، لأن السيد المسيح وأمه مريم عليها السلام منها ، والناصرة هي ظاهر عكا وبأرضها ، ولهذا السبب لا يزال الفرنج يقصدونها ويطلبون أخذها من المسلمين » مؤرخ مجهول تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٤

(١١٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٨ حوادث عام ٤٩٥ هـ

(١١٣) د. عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ص ١٠١ ـــ ١٠٢ ج ٣ ؛ دراسة في تاريخ مدينة صيدا ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٩٤

الأسطول الفاطمي من هزيمة السفن الجنوية وأحراق بعضها في الميناء(١١٤) .

وبسبب تلك الهزائم ، بجانب قوة تحصين المدينة ومناعة أسوارها الخارجية واستبسال أهلها في الدفاع عنها باعتراف المصادر الفرنجية ذاتها ، أجبر بلدوين ورفاقه على رفع الحصار ، بعد أن أدركوا عدم جدواه لافتقارهم لقوة بحرية ضخمة ومقاومة الأسطول الفاطمي ، فقام بلدوين بتخريب محاصيل وبساتين الفواكه القريبة من المدينة ، وعاد إلى يافا بعد أن استمر حصاره لها ما يقرب من شهر وذلك في رجب عام ٤٩٦ هـ / مارس ١١٠٣ م(١١٥) .

وأدرك بلدوين الأول بعد حصار عكا الأول أنه بحاجة إلى قوة بحرية ضخمة تعاونه في أحكام الحصار عليها . وسرعان ما خدمت الظروف بلدوين والفرنج ، ففي العام التالي وصلت إلى اللاذقية عمارة جنوية ضخمة بقيادة الأخوين أنسالدوس وهيوأمبرياتشو «Hugh & Ansaldus Embriaco» وذلك أواخر رجب ٤٩٦ هـ / أوائل مارس ١١٠٤ م ، تحمل عددا من التجار والجنود والحجاج(١١٦) واستعان ريموند الصنجيلي بهذه العمارة للقيام بحصار فاشل لطرابلس ، فاتجه بعدها إلى جبيل حيث تمكن من اسقاطها على النحو الذي ذكرناه من قبل(١١٧) . ولقد وجد بلدوين الفرصة متاحة للتفاوض مع الجنوية واقناعهم بحصار واسقاط مدينة عكا ، وقبل الجنوية ذلك ، مقابل منحهم امتيازات داخل عكا ، ويفهم من نص وليم الصوري أن أتفاقية وقعت بين الجانبين تضمنت هذه الامتيازات وتنص على منحهم ثلث مدينة عكا ، وأن يكون لهم كنيسة بها مع شارع وحي تجاري خاص بهم بجانب امتيازات تجارية وقضائية أخرى(١١٨) .

لقد بدأت قوات الحلفاء الصليبية الجنوية في حصار عكا في شعبان ٤٩٧ هـ / مايو

---

(١١٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٣٧ — ٢٣٨ ؛ مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٢٦ — ٢٣١ . ورواية المؤرخ المجهول قريبة الشبه برواية ابن الأثير ولكنها لم تنص في صراحة على الحصار البحري الجنوي لمدينة عكا وكذلك : Albert of Aix, R.A.C., Hist. occ. Vol. IV, p. 599.,
ويتفق ابن الأثير وألبرت هاكس في روايتهما أن بلدوين كان سيأخذ المدينة لو لم تتلق نجدات من البحر . راجع مناقشة ذلك في : Rohricht, Geshichte, pp. 43-44, ولم تشر بعض المصادر الفرنجية صراحة لوجود هذا الأسطول أثناء حصار المدينة . راجع مثلا : Fulcher of chartres, the expedition, p. 174; Albert of Aix, p. 599 ويرجح رنسيمان أن هذه السفن لم تكن جنوية بل كانت سفن انجليزية . رنسيمان : نفس المرجع ج ٢ ص ١٤٢ .

(١١٥) Fulcher of chartres, the expedition, p.p. 174-175; William of tyre, Vol.1,p.453 ; Cf also Stevenson, the crusaders in the East,p. 46; Babcock & Krey (ed.,), History of deeds done beyond the sea by William of tyre, vol. I, p. 543, F. 52.

(١١٦) ابن الأثير الكامل ، ج ١٠ ص ٢٥٥ ، كذلك : Caffaro, De Liberatione, R.H.C., Hist. occ, Vol. V. p. 70; William of tyre, deeds, Vol. O, p.p. 476-477.

(١١٧) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 455.

(١١٨) يذكر وليم الصوري أنه رأى وثيقة هذه الاتفاقية بنفسه . ويذكر كل من ماير وبوس أن هذه الوثيقة كتبت بحروف من ذهب وحفظت بكنيسة الضريح المقدس راجع Fulcher of chartres, the expedition, p. 176 William of tyre deeds, p. Vol. I, p. 454.Boase, the Kingdoms, p. 36; Mayer, the crusades, p. 75;

١١٠٤ م ،فحاصرها الجنوية بحرا فى أسطولهم الضخم البالغ عدده نحو الخمسين سفينة[١١٩] ، وحاصرها بلدوين برا ونصب عليها المجانيق وآلات قذف الاحجار لتدمير أسوارها وكذا الأبراج المتحركة التى صنعها الجنوية اللازمة لتسلق أسوارها كما عمل الفرنج أيضا على طمس الخندق المحيط بعكا برا[١٢٠] ، وشن الفرنج هجوما عنيفا ، وتمكنت مجانيقهم من أحداث ثغرات عديدة بأسوار المدينة بل أنها دمرت بعض المنازل فى قلب المدينة نفسها[١٢١] . وقد تولى الدفاع عن عكا واليها الفاطمى زهر الدولة بنا الجيوشى[١٢٢] ، والذى أستبسل فى الدفاع عنها لمدة عشرين يوما ، على أمل وصول النجدات الفاطمية التى لم تصل فى الوقت الذى تناقص فيه عدد المدافعين عن المدينة كما نفدت المؤن والامدادات مما جعل زهر الدولة عاجزا أمام الحصار الصليبى المحكم للمدينة أوصد موجات الهجوم الفرنجى المتتالية مما جعله يفكر فى تسليم البلدة للفرنج . وتذكر بعض المصادر الاسلامية أن زهر الدولة طلب الأمان من الفرنج وتسليم البلد لهم الا أنهم رفضوا أعطاؤه الأمان وخاصة بعد أن علموا بأن أهل مصر لم ينجدوه[١٢٣] ، ولهذا « ملك الفرنج البلد بالسيف قهرا »[١٢٤] وهذه الروايات تخالف ما أجمعت عليه المصادر الصليبية ، التى تذكر أن الفرنج وافقوا على تسلم المدينة بعد أن أمنوا أهلها على أموالهم وأرواحهم وأملاكهم[١٢٥] .

ومع هذا فان الصليبيين ما كادوا يدخلون المدينة حتى استباحوها وأحلوا بها مذبحة مروعة وفعلوا بأهلها الأفعال الشنعاء[١٢٦] . وقد أتهمت المصادر الفرنجية الجنوية بأنهم سبب هذه المذبحة حيث نكثوا بذلك العهد الذى قطعه بلدوين لسكان المدينة . فتذكر تلك المصادر أن البحارة الجنوية ما

---

(١١٩) Fulcher of chartres, the expedition, p. 176; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 454.
وقد اختلفت المصادر الاسلامية والفرنجية الأخرى حول عدد سفن الأسطول الفرنجى وجنسيته ، فروايات المسلمين تذكر ان عددها يزيد على تسعين مركبا . ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٤ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦ ؛ مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ص ٢٣٢ . ويذكر البرت داكس ان الأسطول الفرنجى كان خليطا من سفن جنوية وبيزاوية . Albert d'Aix, R.H.C. Hist. occ., Vol. IV, p. 71.

(١٢٠) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٣٦ .

(١٢١) يذكر المؤرخ وليم الصورى أنه بلغ من قسوة الحصار الصليبى للمدينة أنه لم يتمكن أحد من الدخول اليها أو الخروج منها ، كما عانى سكانها من أمراض عديدة التى كانت تصاحب دائما حصار أى مدينة من المدن . William of tyred, deeds, Vol. 1, p. 455.

(١٢٢) زهر الدولة بنا الجيوشى : كان من مماليك الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش ، وعرف بالجيوشى نسبة اليه . ابن الأثير الكامل ، ج ١٠ ص ٥

(١٢٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ط . مصر ١٩٣٥ ج ٥ ص ١٨٨ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٦ . ويذكر المؤرخ المجهول أن زهر الدولة قد خرج إلى الفرنج يلتمس الأمان فلما حصل عندهم هاجموا البلد وملكوه بالسيف وربما هذا لأسرهم أو احتجازهم له حتى تستتب لهم اسقاط المدينة . راجع المؤرخ المجهول : تاريخ سلاطين المماليك ص ٢٣٢ . ويذكر ابن القلانسى والذهبى أن زهر الدولة فر من المدينة بحرا بعد سقوطها . الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، ج ٣ ص ٣٤٥ ؛ أبى الفداء : المختصر ، ج ٢ .

(١٢٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٥٥ ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٣ ص ٨ .

(١٢٥) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 455; Bartolf de Nangis, Gesta Francorum, Iherusalem expugnantium, R.H.C., Hist. occ. Vol. III, p. 537.

(١٢٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٥٦ ؛ أبى الفداء : المختصر ، ج ٢ ص ٢١٧

كادوا يرون ثروات وأموال سكان المدينة ، حتى أنقضوا على سكانها وأعتدوا على أرواحهم وأملاكهم وذبحوا الكثير منهم ، مما أثار غضب بلدوين ونقمته لولا تدخل البطريرك فأصلح بينهم[١٢٧] . وبذلك نجح الفرنج في اسقاط عكا أهم قواعد الفاطميين البحرية بالساحل الشامي بعد حصارها عشرين يوما وذلك في ٢٨ شعبان ٤٩٧ هـ / ٢٦ مايو ١١٠٤ م[١٢٨] . وبمجرد سقوط عكا سارع بلدوين لتنفيذ شروط أتفاقيته مع الجنوية فحصلوا على جزء من المدينة قرب شاطىء البحر بما فيه من حقول زراعية وحوالى ستمائة بيزنط وغيرها من الامتيازات كما منحهم أيضا ثلث قيسارية وأرسوف[١٢٩] .

وتذكر الروايات الاسلامية أن زهر الدولة الجيوشي والى عكا اتجه إلى دمشق حيث استقبله أميرها طغتكين أتابك « وأحسن استقباله وأكرمه وأحسن مثواه مكرمة للأفضل »[١٣٠] . ثم عاد إلى مصر « وأعتذر للأفضل ، فقبل عذره بعد الانكار عليه والغيظ من فعلته[١٣١] ، » وارسل الأفضل يشكر طغتكين على حسن وفادته لمملوكه زهر الدولة الجيوشي[١٣٢] . وهذه الاشارات تشير لوجود نوع من العلاقات الطيبة بين الأفضل شاهنشاه وطغتكين أتابك وقتذاك ، وهي التي توجت فيما بعد ، باشتراك القوات الفاطمية والدمشقية في جيش مشترك في موقعة الرملة الثالثة عام ٤٩٨ هـ/١١٠٥ م .

وبسقوط عكا ، حرم الفرنج الاسطول الفاطمي من أهم قواعده بالشام ، وأصبحت الميناء الرئيسي لمملكة بيت المقدس ، الصالح لرسو السفن الحربية والتجارية الضخمة[١٣٣] . ولم تتوقف الحركة التجارية في عكا بعد سقوطها في يد الفرنج ، بل أنها أصبحت مركزا تجاريا واقتصاديا ضخما لمملكة اللاتين في الشام[١٣٤] ، وكانت خسارة المسلمين في عكا كبيرة وأتضح ذلك فيما أظهره المؤرخون المسلمون من أسى عميق لعجز الفاطميين عن حماية موانىء الساحل الشامي ، التي أخذت تتساقط الواحدة تلو الأخرى في أيدى الفرنج ، وأتهم أحدهم الفواطم ووزيرهم الأفضل بعجزهم عن حماية مدن الساحل ومسئوليتهم الكاملة عن سقوطها[١٣٥] .

---

(١٢٧) Fulcher of chartres, the expedition, p. 176; chap. XXV., Albert of Aix, R.H.C. Hist., occ. Vol. IV, pp. 606-608. Chap. IX.

(١٢٨) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٣٢ . ويذكر السبط وأبو المحاسن أنهم أخذوها في رمضان ٤٩٧ هـ ، ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٦ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨٨ . ورواية ميخائيل السريانى عن سقوط عكا تتميز بايجاز شديد .

(١٢٩) Caffaro, De Liberatione, R.H.C., Histo. occ., Vol. v, p. 73; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 456.

(١٣٠) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤١ .

(١٣١) ابن القلانسي : ذيل ، ص ١٤٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٥٦ .

(١٣٢) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤١ .

(١٣٣) Fulcher of chartres, the expedition, p. 176; chap. XXV; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 456.

(١٣٤) Mayer, the crusades, p. 75.

(١٣٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥٣ ، ١٧٨ .

كان لابد للفرنج ، اذ قدر لمملكتهم البقاء ، أن يقوموا بفتح المزيد من مدن الساحل الفاطمي ، لتوطيد صلتهم بالبحر وبالتالي بالغرب الأوربي . ذلك أن سلسلة الامارات الاسلامية الموجودة في بقية مدن الساحل الفاطمي مثل إمارة بني عمار في طرابلس ، وبني عقيل في صور وغيرها ، كانت بمثابة امارات حاجزة بين فرنج أنطاكية والرها عن سائر رفاقهم في بيت المقدس وتوابعها في فلسطين ، وتعتبر طرابلس(١٣٦) الخاضعة لبني عمار ، أهم هذه الامارات الاسلامية التي ترتكز على ساحل البحر المتوسط وتدين بالتبعية الاسمية للخلافة الفاطمية ووزيرها الأفضل بن بدر الجمالي . وكانت طرابلس أهم موانىء الشام ، وقاعدة هامة من قواعد الاسطول الفاطمي ، وقد ظلت تحت السيادة الفاطمية منذ الفتح الفاطمي للشام عام ٣٦١ هـ / ٩٧١ م ، ففصلوا طرابلس عن أقليم دمشق ، وكانت تابعة له وأصبحت يتولاها عامل من قبل الخليفة الفاطمي بالقاهرة وكان ولاتها يسمون القضاة ، وأشهرهم قضاة عرب عرفوا ببني عمار وهي أسرة حكمت المدينة لما يقرب من أربعين عاما حتى سقوطها في أيدي الفرنج عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م .

وكان أول قضاة هذه الاسرة أبو طالب عبد الله محمود بن عمار الملقب بأمين الدولة ، وأستبد بأمورها عن الخلافة الفاطمية منذ عام ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م ، وعندما توفي عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م ، تنازع أبناؤه وأقاربه من بعده ، حتى نجح ابن اخيه الملك أبو الحسن بن عمار الملقب بجلال الملك أن يتفوق على خصومه ويستأثر بالامارة(١٣٧) ، ووطد أقدامه بها ، وأستطاع خلال ثلاثين عاما أن يحتفظ باستقلاله الفعلي عن الفاطميين(١٣٨) ، وحذا حذوا أمراء بني منقذ

---

(١٣٦) طرابلس الشام : تقع في منتصف الساحل الشرقي لحوض البحر المتوسط وهي مقامة على ضفتي نهر ابي علي المعروف عند الأقدمين بنهر قاديشا وهي كلمة تعني النهر المقدس . وراجع ابراهيم بك الأسود : كتاب ذخائر لبنان ، الطبعة الثانية — بعبدا — لبنان ، ١٨٩٦ م ، ص ٢٦ ؛ الدكتور عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، تاريخها وآثارها ، فصله مستخرجة من مجلة كلية الآداب — جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٣ ، مجلد ١٦ ص ٤٤ ، ١٠٥ ؛ جورجي يني : تاريخ سوريا ، ط. بيروت ١٨٨١ م ، ص ٣٧٢ . وقد افتتحها معاوية بن أبي سفيان في خلافة عثمان ابن عفان وأصبحت بعد ذلك قاعدة بحرية ودار صناعة للسفن الاسلامية في العصر الأموي وأحد ثغور الشام الحصينة . وراجع البلاذري : فتوح البلدان ، القسم الأول نشره د. صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٥٠ — ١٥١ . [وتألقت طرابلس في عهد الفاطميين وبلغت ازدهارها في القرن الخامس هـ . طبقا لوصف الرحالة والجغرافيين العرب . راجع الاصطخري:مسالك الممالك ، ج ١ من المكتبة الجغرافية العربية ، ط. ليدن ص ٦١ ؛ ناصر خسرو : سفرنامة ص ١٣ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ط. أوروبا ١٩٦٤ ، ج ٣ ص ٣٠٢ . ولطرابلس أهمية علمية وعسكرية وتجارية ، فكان بها مكتبة ضخمة زاخرة بالكتب العلمية والأدبية ، كما كانت قاعدة للأسطول الفاطمي شمال الشام ، مركزا تجاريا دوليا من الطراز الأول ، فكانت السفن والبضائع ترد اليها ومنها الى بلاد الروم والفرنج والأندلس والمغرب وصقلية . وكان غالبية سكانها من الشيعة . راجع ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٢ ، ابن ملا : منتخب تاريخ ابن الشحنة المعروف بدر الحبب المنتخب من تواريخ حلب ، مخطوط مكتبة البلدية رقم ٣٧٩٩ ج ، ورقات ٥٨ — ٥٩ . ويذكر النويري أن الطرابلسيين كانوا أكثر الناس أموالا وثراء . النويري : نهاية الأرب ؛ مجلد ٢٦ لوحة ٧٩ ، كذلك : Michaud, History of the crusades, Vol. I, p. 287.
ويسميها أحد المؤرخين الحديثين جبل طارق لبنان ، راجع : Grousset, L'épopee des croisades, p. 74.

(١٣٧) المؤرخ المجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٤٦٤ . ويذكر المؤرخ المجهول أن جلال الملك كان ابن عمه وليس ابن أخيه . أيضا أبي الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ص ١٨٨ .

(١٣٨) ويذكر جاستون فييت أن بقايا نقش لجلال الملك بن عمار نقش عليه اسمه وحده يؤكد أن جلال الملك وأسرته كانوا مستقلين تماما عن النفوذ الفاطمي . راجع : Wiet, G; Banu Ammar in Encyc. of Islam, New ed., London 1960, Vol. I. p. 44; Cahen, C., La Syrie du Nord, p. 39 ff.

أصحاب شيزر ، وذلك باتباعه أساليب المكر والديبلوماسية ، وسياسة المدارة والتوازن بين القوى المحيطة بامارته واستطاع حماية نفسه وسط الأنواء والصراعات القائمة بين السلاجقة والفاطميين بالشام ، فحصل عن طريق الديبلوماسية والهدايا على تقليد بامارة طرابلس من خليفة بغداد العباسي وسلطان السلاجقة ، دون أن يهمل الطاعة الروحية لخليفة القاهرة الفاطمي[١٣٩] ، خاصة وأن غالبية رعاياهم من سكان طرابلس كانوا من الشيعة ومؤيدون للعلويين[١٤٠] .

وكان بنو عمار ، قضاة طرابلس ، يشجعون العلماء والأدباء بالعطايا الهبات ، كما أسسوا بها مدرسة اسموها دار العلم ، وكانت من عجائب الدنيا وقصدها الفضلاء من سائر الأقطار[١٤١] ، وشاعت شهرتها العلمية الآفاق ، وكانت مكتبة طرابلس فى عهدهم تضم حوالى ثلاثة مليون مجلد ، وأعتنى بها بنو عمار عناية عظيمة ، وكان « فيها مائة وثمانين ناسخا تنسخ بالجراية والجامكية منهم ثلاثون نفسا لا يفارقونها ليلا ولا نهارا وكان لهم فى جميع البلاد من يشترى لهم الكتب المنتخبة[١٤٢] . وبلغت طرابلس فى عهدهم أيضا مجدها وعظمتها وأكتمل ازدهارها الاقتصادى[١٤٣] والفنى والعلمى ، وأشتهرت فى أيامهم بصناعة الورق الذى كان يضاهى ورق سمرقند من حيث الجودة[١٤٤] .

وكانت مدينة طرابلس وتوابعها مطمعا للصليبيين وعلى رأسهم القائد ريمون دى سان جيل «Raymond de Gilles» أو صنجيل طبقا للمصادر الاسلامية[١٤٥] ، وما أشتهر به صنجيل من طموح حمله على أن يوطد عزمه فى إقامة إمارة له فى طرابلس يتحكم بها فى طريق الساحل الشامى وطريق نهر العاصى ( الأورنت ) على أن تكون حاضرته حمص[١٤٦] ، وتكون منافسة لامارة خصمه بوهيمند أمير أنطاكية[١٤٧] . وقد رأينا ما حدث لريموند الصنجيل[١٤٨] من فشل فى

---

(١٣٩) Jean Richard, Le Comté de Tripolis sous la dynastie toulousaine (1102-1187), Paris 1943, p. 12; Grousset, R., L'épopee des croisades, p. 74.

(١٤٠) ناصر خسرو : سفرنامة ص ١٢ .

(١٤١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مخطوط دار جـ ١ لوحة ٣٩ (أ) ؛ ابن الملا : مختصر تاريخ ابن الشحنة ، مخطوط البلدية ، ورقة ٣٨ .

(١٤٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١ مجلد ٦ لوحة ٣٩ (أ) .

(١٤٣) والدليل على أهمية طرابلس من الناحية الاقتصادية وباعتبارها أكثر موانىء الساحل الشامى ازدهارا ، أن الجنوية والبنادقة والبيازنة قد حصلوا على امتيازات لرعاياهم فيها فى خلال واحد ، بعد سقوطها فى أيدى الفرنج فيما بعد . راجع :
Conder, the Latin Kingdom of Jerusalem, London 1897, p. 87.

(١٤٤) ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٢ .

(١٤٥) يذكر ابن عبد الظاهر أنه سمى صنجيل نسبة لمدينة صنجيلة بأوروبا . راجع ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، ط. الرياض ١٩٦٨ ، ص ٣٠٢ .

(١٤٦) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ٩٥ ، كذلك : Stevenson, the crusaders in the East, p. 54.

(١٤٧) La monte, j., To what extant was the Byzantine Empire in the suzerain of the Latin crusading states, Byzantion, 1932, Vol. VII, p. 256, Mayer, the crusades, p. 59; Stevenson, the crusaders in the East, p. 32; Lamb, the crusaders, p. 181.

(١٤٨) يسميه ابن عبد الظاهر أيضا ميمنت أو ميمون . ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٠٢ .

بداية الحركة الصليبية لمنافسة زملاؤه له ، فكان يمنى نفسه بانطاكية أو باقتسامها مع بوهيمند وأنتهى الأمر بطرده منها . وعندما حاول تأسيس إمارة له شمال الشام حول البارة ومعرة النعمان نافسه بوهيمند ايضا ، فاضطر ريموند للتخلى عنها فى ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م(١٤٩) . وكان أن تطلع ريموند لتأسيس امارة له فى احدى مدن الساحل الشامى فهاجم انطرطوس وحصن الأكراد ( المعروف باسم قلعة الكرك «Crac des Chevaliers» وعرقة شمال طرابلس ونجح فى احتلال انطرطوس وحصن الأكراد فى ربيع الثانى ٤٩٢ هـ / فبراير ١٠٩٩ م ، وأخفق فى اسقاط عرقه التى حاصرها طويلا واضطر تحت ضغط منافسة رفاقه بالحملة لرفع الحصار عنها ، وبذلك بين « آلامه ودموعه » على حد قول مؤرخ حملته ريموند أجيل(١٥٠) . ورغم رحيل غالبية القادة الفرنج بعد سقوط القدس وأنتصار عسقلان قرر ريموند البقاء فى الشرق ، فحاول بعد موقعة عسقلان الكبرى تكوين امارة له بفلسطين وذلك بمهاجمة أحد الثغور الفاطمية هناك مثل عسقلان أو أرسوف الا أن عداء ومنافسة جودفرى له ، لم يمكنه من تحقيق عرضه هذا فى شوال ٤٩٣ هـ / أغسطس ١١٠٠م(١٥١) .

وعندما وجد ريموند نفسه وحيدا فى الميدان ، هرع لمحالفة البيزنطيين ليضمن حليفا قويا ضد نورمان انطاكية ولتحقيق مشروعاته وأطماعه المقبلة على سواحل الشام(١٥٢) . ورغم أن ريموند قد أعترف لامير أنطاكية الجديد تانكريد بالتنازل عن جميع ادعاءاته فى انطاكية واللاذقية وعدم القيام بأية فتوحات شمال عكا تعمل على تقويض أركان أمارة تانكريد(١٥٣) ، فقد أتجهت أطماع الصنجيلى لتأسيس امارة له على شاطىء شمال الشام ، وبدأ يرسم لنفسه خطا لمركز هذه الامارة وبالتحديد فى طرابلس ، وأن يجعل من نفسه سيدا لا ينازع عليها وعلى توابعها كعرقة وأنطرطوس ، وكان ابن عمار قد استعادهما أثناء غيابه مع حملة ١١٠١ م المشئومة فى آسيا الصغرى . وأدرك ريموند أنه قارب على نهاية حياته ، ويأمل باحتلال مدينة قوية يأوى فيها زوجته الشابة وأتباعه ، خاصة وأن طرابلس وتوابعها كعرقة ، كانت تذكره بمنطقة آرل «Arles» فى مقاطعته فى بروفانس(١٥٤) ، وتأكد هذا الأمر بعد أن وصلته رسل فخر الملك بن عمار أمير طرابلس ، عارضا عليه الهدايا والأموال مقابل فض حصار عرقه ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، مما أدهش ريموند ، ووطد عزمه على أسقاط تلك المدينة(١٥٥) .

---

(١٤٩) Jean Richard, Le comté de tripolis, p. 10.

(١٥٠) Raymond of Agulers, Historia fracorum, in R.H.C., Hist. occ. Vol. III, p.p. 279-280.

(١٥١) Jean Richard, Le comté de tripolis, p. 10.

(١٥٢) La Monte, Byzantion, Vol. VII, p. 256; Stevenson, the crusaders in the East, p. 52; Jean Richard, Le comté de tripolis, p.p. 10-11.

(١٥٣) Jean Richard, le comté,p 12; Archer o & Kingsford The crusades, p.155.

(١٥٤) Lamb, H. p. 181; Funk, H., in setton (ed.,) Vol. I, p. 396.

(١٥٥) مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة ص ١١٢ ، كذلك : William of tyred, deeds, Vol. II p. 328; Roger of Wendover, Flowers of history, Vol. I p. 426.

وبدأ ريموند مشروعه لتكوين الامارة ، باسقاط انطرطوس ، وكان ريموند قد أحتلها عام ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م ثم استعادها بنو عمار مستغلين غيابه مع الحملة اللمبادرية فى آسيا الصغرى[١٥٦] ، مما حدا بريموند لاستردادها ثانية ، فبدأ حصاره لها بمساعدة بقايا حملة ١١٠١ م ، وقدم لهم المساعدة البحرية الاسطول الجنوى الذى تصادف وصوله إلى الشام وقتذاك[١٥٧] . وسرعان ما سقطت المدينة عنوه فى أيديهم فى ٢٠ ربيع الثانى ٤٩٥ هـ / ١٨ فبراير ١١٠٢ م وما كادوا يدخلونها حتى أحدثوا بها مذبحة شنيعة ، قتلوا فيها غالبية سكانها ، وصادروا أموالهم ، ومن بقى منهم استرقوه كما تجمع بذلك المصادر الاسلامية والصليبية[١٥٨] .

وأنتقل حكم المدينة إلى ريموند الصنجيلى بعد موافقة جماعية من المشاركين له ، وبعد تقسيم الغنائم مع اسطول جنوه مقابل ما قدمه من عون له ، ومع أمراء حملة عام ١١٠١ م[١٥٩] . وباسقاطه انطرطوس وضع ريموند بذلك اللبنة الأولى لامارة طرابلس ، مركزا لمشروعاته المقبلة على الساحل الشامى ، ومقرا يوجه منه ضربته التالية لعاصمة الاقليم وهى طرابلس[١٦٠] .

وكان قاضى طرابلس فخر الملك بن عمار ( ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م — ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م ) ، آخر أمراء بنى عمار فى طرابلس[١٦١] يراقب بقلق شديد تطورات الامور فى المناطق التابعة لامارته ، وقد عرفنا حرص فخر الملك على الاستقلال بامارته والدفاع عنها ضد أى خطر معتمدا فى ذلك على قوة ومناعة المدينة ، وسياسته المرنة تجاه الحملة الصليبية الأولى ، فلم يعاد الفرنج عند أقترابهم منه بل تودد اليهم ، ولم يقاومهم عندما حاصروا عرقه ، التابعة له ، بل أنه ساعد بلدوين البولونى أثناء رحلته المحفوفة بالمخاطر لتسلم تاج مملكة بيت المقدس ، وذلك بتحذيره من الكمين السلجوقى عند نهر الكلب شمال بيروت ، وهذه السياسة تماثل سياسة أمراء بنى منقذ أصحاب شيزر ، أى أقامة التوازن بين القوى المتنازعة فى المنطقة مثل الفاطميين والسلاجقة وأتراك دمشق وأيضا الفرنج[١٦٢] . ولكن الموقف تغير بسقوط مدينة انطرطوس ، فأدرك فخر الملك أن اللاتين سرعان ما يصلون ويطرقون أبواب مدينته فى سهولة ، ولذا صار لزاما عليه أن يغير سياسته ازاءهم ، والدفاع عن مدينته والاستعانة بالقوى الاسلامية المجاورة . وعلى الرغم من حاجة

---

(١٥٦) Jean Richard, Le Comté de Tripolis, p.p. 12-13.

(١٥٧) Caffaro, De Liberatione, R.H.C. Hist., occ. Vol. V, p. 69.

(١٥٨) العظيمى : تاريخ العظيمى ، ص 375 ، العينى : عقد الجمان ، مخطوط دار الكتب ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٥٤٩ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ص ٢٣٧ .

Fulcher of chartres, the expedition, p. 166; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 433.

(١٥٩) Caffaro, De Liberatione, R.H.C., Hist. occ. Vol. V, p. 69; Fulcher of chartres, the expedition, p. 166; William of tyre, Vol. I, p. 433.

(١٦٠) Archer & Kingsfrod, p. 136; Grousset, L'épopee de croisades, p. 74.

(١٦١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، ص ٣٠٢ .

(١٦٢) Cahen, C., La Syrie du Nord, p. 39; FF., Jean Richard, Le Comté tripolis, p. 10; Grousset, R. Histoire des croisades, to. 1, p. 337 .

ريموند الصنجيلي الشديدة للعون البحري لحصار طرابلس ، الا أنه لم ينتظر مجيء أي أسطول[١٦٣] ، فسار في جمع قليل من رجاله لا يتجاوز ثلاثمائة رجل لحصار المدينة في رجب ٤٩٥ هـ / أبريل ١١٠٢ م[١٦٤] . ويذكر المؤرخ الصليبي راؤل دي كان أنه من الجرأة والتهور أن يقدم ريموند على محاصرة طرابلس وحده وبهذه القوة الصغيرة[١٦٥] .

وأمام هذا الخطر استنجد فخر الملك بدقاق صاحب دمشق السلجوقي وبأمير حمص جناح الدولة بن ملاعب[١٦٦] ، فبادر دقاق بانفاذ ألفين من فرسانه وأرسل جناح الدولة نفس هذا العدد تقريبا . وأجتمعت تلك القوات مع جيش ابن عمار في السهل الواقع خارج المدينة نفسها ، ورغم أن المصادر الفرنجية المعاصرة لم ترو بالتفصيل ما حدث في تلك المعركة البالغة الأهمية[١٦٧] . الا أن المصادر الاسلامية — رغم مبالغاتها — تذكر أن ريموند الصنجيلي وضع خطة بارعة أمكنته من أنزال هزيمة قاسية بقوات الحلف الاسلامي وقتل منهم سبعة آلاف في حين لاذ الباقون بالفرار داخل أسوار طرابلس في ٢٢ جمادى الآخرة ٤٩٥ هـ / ٢٣ مارس ١١٠٢ م .

ولم يشأ ريموند أن يضيع نصره هباء فشرع مباشرة في حصار المدينة ونزل عليها في ١٩ رجب ٤٩٥ هـ / أول أبريل ١١٠٢ م[١٦٨] ، وأقبل لمساعدته المسيحيون من الجهات المجاورة من الجبل والسواد ، ونرجح أنهم من المسيحيين المارديين ( المردة )[١٦٩] من سكان هذه المنطقة والذين

---

(١٦٣) يشير جروسيه هنا لدور الجنوية لحصار المدينة ، ولكنه لم يشر للمصدر الذي استقى منه هذا . كما أن المصادر المعاصرة اسلامية أم فرنجية لم تشر لوجود مثل هذا الاسطول راجع : Grousset, R., L'épopee des croisades, p. 75.

(١٦٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٣٧ ؛ النويري الكندي : نهاية الأرب ، مجلد ٢٦ لوحة ٧٧ ؛ الذهبي : دول الاسلام ، ط. حيدر اباد الدكن ١٣٦٥ هـ ، ج ٢ ص ١٩ . ولم يحدد أبي الفداء عدد الجند الفرنج المحاصرين للمدينة . راجع أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ص ٢١٦ . ولم يشر ابن عبد الظاهر أيضا لعدد الجند الفرنج المحاصرين للمدينة . ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٠٢ .

(١٦٥) Raoul de Caen, Gesta Tancredi, R.H.C., Hist., Vol. III, 707.
نقلا عن : Jean Richard, Le Comté, p. 12 F. 1.

(١٦٦) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٣٧ ؛ ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٠ ؛ ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢ ؛ النويري : نهاية الأرب ، مجلد ٢٦ لوحة ٧٧ .

(١٦٧) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٣٧ ؛ ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٠ ؛ ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢ . وقد انفرد ابن القلانسي والسبط بذكرهم لتاريخ تلك المعركة ، وأجمعا على أنها وقعت خارج انطرطوس وليس في سهل طرابلس . ولكن ابن القلانسي لم يشر لعدد قتلى المسلمين في الموقعة وان يشير لقتل خلق كثير منهم . راجع العيني : عقد الجمان ، مخطوط دار ، ج ١ قسم ٢ لوحة ٥٤٩ ؛ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ١٩ . وروايته هنا مضطربة . كذلك مناقشة الاستاذ ستيفنسون لآراء المؤرخين العرب والفرنج عن تلك الموقعة . راجع : Stevenson, the crusaders in the East, p. 53; F.3.

(١٦٨) انفرد المؤرخ المجهول لتاريخ سلاطين المماليك بذكر بداية حصار ريموند لطرابلس . المؤرخ المجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٦ .

(١٦٩) عن هؤلاء المردة راجع د. عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ١٢٩ ؛ يوسف الشدياق أخبار الأعيان عن جبل لبنان ، ط. بيروت ١٩٥٤ ، ج ١ ص ٢٥٠ . ونرجح أن المردة تسمية عربية أطلقت على سكان منطقة الجبل والسواد القريبة من =

لعبوا دورا مؤثرا فى حصار المدينة . وقام قتال عنيف بين الجانبين ، الا أنه المدينة امتنعت على ريموند لتوافد النجدات اليها من حمص ودمشق ، وبسبب قلة جنده ، بجانب ما عرف عن طرابلس من حصانة ومناعة باستحكاماتها القوية ، مما مكن ابن عمار من الحصول على الكثير من الامدادات بحرا ، ولهذا قنع ريمون بالانسحاب من أمامها ، بعد أن وقع هدنة مع أميرها حصل بمقتضاها على أتاوة كبيرة من المال والخيل ، وانسحب إلى انطرطوس فى رجب ٤٩٥ هـ / أبريل ١١٠٢ م[١٧٠] ، مرجأ فتح طرابلس لفرصة أخرى يتوافر له فيها العدة والمعونة البحرية الكاملة . وعلى هذا النحو فشل حصار ريموند الأول لطرابلس .

لم يتخل عن ريموند عن أطماعه فى طرابلس ، واتبع أسلوبا جديدا لاسقاط المدينة وذلك بالاستيلاء على توابعها مثل حصن الطوبان ، شمال شرق حصن الأكراد وحصن الأكراد وجبيل ، تمهيدا لعزل طرابلس ثم مهاجمتها بعد ذلك ، وذلك فى الفترة من عام ٤٩٦ هـ / أواخر عام ١١٠٣ م حيث لم يكف خلالها عن شن الغارات عليها[١٧١] ، ولكن طرابلس التى تتلقى الامدادات من الاسطول الفاطمى ، وما تتمتع به من حصانة وقوة قلعتها لم تتأثر بتلك الغارات ولا حتى بأى حصار برى طويل الامد ، بجانب عناد وتصلب ابن عمار فى الدفاع عنها ، والذى كان يرد على غارات ريموند الصنجيلى بارسال سفنه للاغارة على موانى الفرنج والبلاد الخاضعة لهم وتخريب المزارع والحقول باقليم السواد والجبل الفرنجيين لقطع الامدادات عن الفرنج[١٧٢] .

لقد انتهز الصنجيلى فرصة مجىء اسطول جنوى مؤلف من أربعين سفينة بقيادة الأخوين هيو وأنسالدوس امبرياتشو إلى اللاذقية فى مطلع شتاء عام ٤٩٧ هـ / ١١٠٣ م[١٧٣] ، حيث استعان به لحصار طرابلس فى مطلع عام ٤٩٧ هـ / أواخر ١١٠٣ م ، غير أن الهجوم الصليبى باء بالفشل نتيجة لاستبسال بنو عمار وأهل طرابلس فى الدفاع عنها ، ولذا تحرك الحليفان الصليبى

---

= طرابلس لأنهم كانوا لا يركنون الى الخضوع ولا يرغبون فى تأييد سيادة الاجنبى فيهم ، ولذلك لم يدعنوا للعرب الفاتحين ، وظلوا على حريتهم فى مجاهلهم المنيعة متمردون على الغزاة الفاتحين ، فسموا مردة . راجع يوسف الشدياق : المرجع السابق ، ج ١ ص ٢٥٠ . وقد سبق التعريف بهم .

(١٧٠) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٣٧ ؛ النويرى : نهاية الارب ، مجلد ٢٦ لوحة ٧٧ ؛ العينى : عقد الجمان ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٤٩ ه . ويذكر ابن الأثير أنه قتل من الفرنج فى الحصار ثلاثمائة رجل . ويذكر السبط أن ابن عمار كان قد كاتب دمشق وحمص ثانية فأرسلوا اليه نجدة أخرى دافعت عن المدينة . ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢ . ويذكر ابن الأثير وأبو الفدا أن ريموند بعد انسحابه اتجه لفتح انطرطوس . والواقع أن فتح انطرطوس حدث قبل المعركة بين قوات الحلف الاسلامى وريموند . ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٣٧ ؛ أبى الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢١٦ . ويذكر المؤرخ المجهول أن حصار الصنجيلى لطرابلس قد استمر من ١٩ رجب ٤٩٥ هـ حتى أواخر سنة ٤٩٦ هـ ومطلع سنة ٤٩٧ هـ . راجع مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٦ . Raoul de Caen, Gesta tancredi, Vol. III, p. 707; Adapted by Richard, p.12..

(١٧١) لمزيد من التفاصيل عن ذلك راجع ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٥٠ ؛ النويرى : نهاية الارب مجلد ٢٦ لوحة ٧٧ — ٧٨ .

(١٧٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٥١ حوادث ٤٩٦ .

(١٧٣) Caffaro, De Liberatione, R.H.C. hist. occ., Vol. V, p. 71

والجنوى صوب الجنوب وأستولوا على جبيل فى رجب ٤٩٥ هـ / مارس ١١٠٤ م[١٧٤]، وكافأه الصنجيلى الجنوية بمنحهم ثلث جبيل[١٧٥]، وقد مهد هذا التصبح جبيل فيما بعد مستعمرة جنوية لها أهميتها تحت حكم أسرة امبرياتشو[١٧٦]. وباسقاط جبيل فى الجنوب، ومن قبل انطرطوس فى الشمال وضع ريموند بذلك الاطار الخارجى لامارته المزعومة فى طرابلس، ولم يبق سوى اسقاط عاصمة الامارة وهى مدينة طرابلس نفسها.

لقد أدرك ريموند أن مدينة طرابلس صعبة المنال، خاصة وأن وقوعها فى شبه جزيرة داخلة فى البحر جعل المدينة محصنة تحصينا طبيعيا فى وقت كان ريموند يفتقر العون البحرى لاحكام حصارها، ولهذا لجأ لاسلوب جديد لحصار المدينة فى عام ٤٩٧ هـ / أواخر ١١٠٣ م، فشرع فى تشييد قلعة ضخمة على التل المشرف على نهر قاديشا ( أبى على ) على بعد ميلين أو ثلاثة من المدينة، وأطلق عليها اسم جبل الحجاج[١٧٧] «Mons Pelegrinus»، أو كما أسمتها المصادر الاسلامية قلعة صنجيل[١٧٨]، نسبة لمؤسسها، وقد أعانه فى بنائها الامبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنين ( ١٠٨٥ ــ ١١١٨ م )، الذى كلف حاكم قبرص البيزنطى بارسال مواد البناء والبنائين المهرة اللازمين لبناء القلعة[١٧٩]، وهذا يشير للدور البيزنطى الغير مباشر أو الخفى فى حصار وأسقاط طرابلس فيما بعد. ويذكر ابن الأثير أن ريموند: « أقام على طرابلس يحصرها، بحيث لم يقدر على أن يملكها بنى بالقرب منها حصنا، وبنى تحته ربضا، وأقام مراصدا لها ومنتظرا وجود فرصة أخرى فيها[١٨٠]».

---

(١٧٤) ابن الجوزى: مرآة الزمان، ج ٨ ص ٦؛ ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٢. وتذكر المصادر الاسلامية أن عدد الاسطول الجنوى كان نيفا وتسعين مركبا. راجع ابن الأثير: الكامل، ج ١٠ ص ٢٥٥. وتذكر المصادر الأخرى أن عدد الاسطول الجنوى كان حوالى سبعين سفينة. راجع: Fulcher of chartres, the expedition p. 1774; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 454; Caffaro, De Liberatione, R.H.C. hist. occ. Vol. V, p. 71.

ويذكر كافارو أن عدد السفن كانت أربعين سفينة فقط.

(١٧٥) Fulcher of chartres, the expedition, p. 174; William of tyre, deeds, Vol. I. p.p. 466.

(١٧٦) Heyd, H., commerce du levant, to. I, p.p. 139-141

(١٧٧) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 454; Anna commena, the Alexiad, p. 287, of also wise, T. The wars of the crusades, p. 200.

وقد أصبح جبل الحجاج هذا مركزا لما حوله من لاتينى كبير. راجع: Fulcher of chartres, the expedition, p. 194; stevenson, Crusaders, p. 45.

(١٧٨) ابن الجوزى: مرآة الزمان، ج ٨ ص ٧؛ ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٦؛ الذهبى دول الاسلام، ج ٢ ص ١٩؛ أبى الفداء: المختصر، ج ٢ ص ١٢٠ ــ ١٢١؛ مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص ٢٤٦.

(١٧٩) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠ ص ٢٨٤، كذلك: Anna Commena, the Alexiad, p. 288.

أشاد وليم الصورى بموقع قلعة صنجيل وأشاد بقوة تحصينها وموقعها الممتاز ومهارة بنائها. راجع: William of tyre, deeds, Vol. I. p. 454.

(١٨٠) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠ ص ٢٨٤، حوادث ٤٩٩ هـ

وقد هدف ريموند من بناء قلعته هذه عزل طرابلس وقطع الامدادات عنها برا[١٨١] ، ولتكون مركزا لعملياته العسكرية ضد مدينة طرابلس[١٨٢] . ورغم أن طرابلس أضحت منذ ذلك فى حالة حصار مستمر من الفرنج ، وأصبح موقف ابن عمار حرجا وذلك بسبب تحكم ريموند فى الطرق المؤدية إلى المدينة ، بحيث لم يعد أمامهم سوى البحر للاتصال بالعالم الخارجى ، فى وقت تكاثف فيه المسيحيون المحليون وهم الموارنة أو المردة من أهل الجبل والسواد مع الفرنج لحصار المدينة مما سبب متاعب شديدة لاهلها[١٨٣] . الا أن قلعة صنجيل لم تحدث التأثير المطلوب لافتقار ريموند للعون البحرى ، كما لا يزال بنو عمار بفضل ثروتهم يملكون اسطولا تجاريا وبحريا ضخما ويجلبون المؤن من الموانىء الفاطمية الواقعة جنوب المدينة .

ولكن ابن عمار ازداد خوفه من استمرار وجود هذه القلعة ، خاصة وأن ريموند اتخذها مركزا لتدمير الأراضى والحقول الزراعية التابعة للمدينة والمحيطة بها[١٨٤] . وهذا الأمر دفع ابن عمار إلى شن هجوم مباغت على قلعة صنجيل آواخر صيف ذى الحجة ٤٩٧ هـ / أغسطس ـــ سبتمبر ١١٠٤ م ، منتهزا فى ذلك فرصة غياب ريموند الصنجيلى عنها : « فقتل من فيه ، وأشعل النار فى أرباضه ، ونهب وأخذ من المال والسلاح والمتاع شيئا كثيرا ، وعاد إلى طرابلس غانما سالما[١٨٥] . ويبدو أن محاولة ابن عمار لم تحقق أغراضها كاملة لذا قام ريموند الصنجيلى بتجديد ما أنهدم من قلعة جبل الحجاج وضايق طرابلس من جديد ، وأستمرت غاراته على الحقول والأراضى الزراعية للمدينة للمرة الثانية[١٨٦] . وأضطر ابن عمار لذلك لعقد هدنة عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م مع ريموند الصنجيلى تقضى بأن يكون لصنجيل « ظاهر طرابلس ، والا يقطع الميرة والمسافرين عنها »[١٨٧] ، وأن يكون داخل البلد لابن عمار[١٨٨] على أن يحمل له أيضا مبلغا من المال[١٨٩] . وقد شبه المؤرخ المجهول لتاريخ سلاطين المماليك هذا الوضع ، بعد عقد الهدنة بين الطرابلسيين والفرنج ، بأن ريموند « أقام على طرابلس محاربا فى صورة مسالم ،

---

(١٨١) أنظر الرأى الذى ساقته آنا كومنينا البيزنطية عن غرض ريموند من بناء هذه القلعة . ويلاحظ أن آناكومنينا أرجعت هذه الأحداث فى فترة مبكرة للغاية من حدوثها ، فتذكرها قبل وفاة جودفرى دى بويون وهذا ينافى الحقائق التاريخية ، ولا غرو فى ذلك ، فالتحديد الزمنى عندها غير دقيق . Anna Commena, the Alexaid. p. 286.

(١٨٢) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٠٢ .

(١٨٣) النويرى : نهاية الأرب ، مجلد ٢٦ لوحة ٧٧ ، كذلك : William of tyre, deeds, p. 454.

(١٨٤) Jean Richard, Le Comté, p. 14.

(١٨٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٦ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٧ ؛ مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٧ . ويذكر المؤرخ المجهول أن ابن عمار نجح فى هدم الربض الموجود اسفل القلعة وبعض الكنائس المجاورة له . راجع المجهول : المصدر السابق ص ٢٤٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨٨ .

(١٨٦) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٧ .

(١٨٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٧ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٧ .

(١٨٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٧٩ .

(١٨٩) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٦ . ويذكر وليم الصورى أن الطرابلسيين وافقوا على دفع اتاوة سنوية للصليبيين . كذلك : William of tyre, deeds, Vol. I, p. 454.

وشحن حصنه بالرجال والعدد »[١٩٠] .

ولقد أتهم المؤرخ أبو المحاسن الفاطميين ووزيرهم الأفضل شاهنشاه بعدم المبالاة والتراخي لانقاذ طرابلس من الحصار الفرنجي ، مما مكن الفرنج من مواصلة حصارها دون خوف وعبر عن ذلك بقوله « ولم ينهض أحد من المصريين لقتال المذكورين ( الفرنج ) فعلمت الفرنج ضعف من بمصر »[١٩١] . ومن الصعب تقبل هذا الرأى ، خاصة وأن رواية العظيمى المؤرخ المعاصر للفترة أورد رواية تدحض ما ذكره أبو المحاسن اذ يشير لقيام الأفضل شاهنشاه عند وصول أنباء الحصار الفرنجي لطرابلس بارسال أسطول فاطمى زود المدينة بالامدادات والمؤن اللازمة » وقوى طرابلس وعسقلان وعاد الاسطول إلى مصر[١٩٢] .

ومهما يكن من أمر ، فقد واصل فخر الملك بن عمار استغاثاته بالقوى المجاورة « وتواصلت مكاتباته ورسله من طرابلس بالاستصراخ والاستنجاد على الفرنج النازلين عليها لكشف غمته وتفريج كربته »[١٩٣] ، وقد قام ابن عمار بمحاولة أخيرة يائسة فى جمادى الثانية أواخر عام ٤٩٨ هـ / فبراير ١١٠٥ م لتدمير قلعة صنجيل « فخرج فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس فأحرق ربضه ، ووقف صنجيل على بعض سقوفه المحترقة ومعه جماعة من القمامصة والفرسان ، فانخسف بهم ، فمرض صنجيل من ذلك عشرة أيام ومات وحمل إلى القدس ودفن فيه[١٩٤] ، فى ٤ جمادى آواخر ٤٩٨ هـ / ٢٨ فبراير ١١٠٥م[١٩٥] . وبوفاة ريموند الصنجيلى متأثرا بجراحة فى قلعة صنجيل لم تتحقق امنيته فى الإستيلاء على طرابلس لإقامة أمارة تناها لنفسه على غرار انطاكية أو بيت المقدس ، ورغم ذلك فيعتبر المؤسس الحقيقى لامارة طرابلس اذ وضع أطارها الخارجى وسهل مهمة خلفاؤه من بعده فى أسقاط عاصمة الامارة نفسها .

---

(١٩٠) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٦ .

(١٩١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٧٩ .

(١٩٢) العظيمى : تاريخ العظيمى ، ص 377

(١٩٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٦ . وعن موقف القوى الأسلامية من نداءات ابن عمار راجع العظيمى : تاريخ العظيمى ، ص 377 ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٦ ، ١٤٨ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، تحقيق د. سامى الدهان ، دمشق ١٩٥٤ ، ج ٢ ص ١٥٠ ؛ مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٦٧ ، ٢٧٨ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٣٦ ؛ العينى : عقد الجمان ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٤٨٦ .

(١٩٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٨٤ ؛ الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، ج ٣ ص ٣٥٣ ، كذلك : Duggan, A., the story of the crusades, p. 89.

(١٩٥) أجمعت غالبية المصادر المعاصرة والقريبة من الفترة على حدوث هذا الهجوم ووفاة صنجيل هذا العام . ويذكر ابن القلانسى ان ذلك تم فى ٤ جمادى الأول ٤٩٨ هـ / أواخر فبراير ١١٠٥ م . وأيدت ذلك المصادر اللاتينية ولكنها لا تشير لمصرع ريموند نتيجة لسقوط أجزاء مشتعلة من قلعة صنجيل عليه ، كما ذكرت المصادر الاسلامية الأخرى . راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٧ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٧ ؛ العظيمى : تاريخ العظيمى ؛ ص377 ؛ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٩٠ . ويذكر المؤرخ المجهول أن ابن عمار نجح فى هذا الهجوم فى معرفة من بالقلعة من اسرى سكان المدينة وقتل بعض رجالها وأنه ظل يوما بأكمله يقاتل من بها وأنه لم يشر إلى صراحة لهلاك صنجيل فى هذا الهجوم . المؤرخ المجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٨ ، كذلك : William of tyre, deeds, Vol. II, p. 426.
وتذهب آنا كومنين للقول بأن ريموند توفى نتيجة اصابته بمرض قضى عليه : Anna Commena, the Alexiad, p. 290.

وقد خلفت وفاة الصنجيلي مشكلة وراثة الحكم في تولوز والشام وذلك لوجود ابن اصغر له من زوجته الاسبانية الفيرا «Alfera» ابنة ملك قشتالة ، ويدعى الفونسو جوردان ، ولم يكن مضى على ولادته في قلعة صنجيل الا شهور قليلة[196] . وكان ريموند قد ترك حكومة تولوز لابنه الاكبر برترام[197] ( برتراند ) غير أن مركز برترام في الحكم كان مزعزعا ، فيبدو أنه لم يكن ابنا شرعيا لريموند ولم يبق حيا من أبناء الصنجيلي سوى الفونس جوردان هذا ، الذي كان غير مرغوب في تولوز ، كما أنه لم يكن منطقيا أن يتولى طفل إدارة حصار عاصمة تلك الامارة المرتقبة في طرابلس[198] . ولهذا تقرر أن يحكم برترام أملاك ريموند في تولوز ، في حين اختار أقصال ريموند وجنده ابن أخيه وليم جوردان ( المعروف في المصادر العربية بوليم السرداني ) ليواصل سياسة أبيه في حصار طرابلس[199] .

لقد أشتد وليم جوردان في حصار المدينة ، وحافظ على علاقته مع بيزنطة ، وبناء على انصياع وليم للامبراطور اليكسيس كومنين أنتظم ارسال المؤن له وللفرنج من قبرص وأكدت آن كومنين ، المؤرخة البيزنطية ذلك ، فأشارت في موضع آخر من كتابها إلى تعاطف والدها اليكسيس مع القائد الصليبي وليم جوردان ، عندما كان يحاصر طرابلس فكتب الامبراطور إلى حاكم قبرص البيزنطي يوماثيوس فيلوكاليس «Eumathius Philocales» يطلب منه ارسال أحد رجاله ويدعى نيكيتاس شالنتز «Nicetas Chalentez» ، ومعه مبلغ كبير من المال لمساعدة وليم لحصار طرابلس وامداده بالسفن الحربية اللازمة[200] . وقد أكد تلك الرواية البيزنطية التي أشارت لاسهام بيزنطة في حصار طرابلس ، المؤرخ ابن الاثير الذي ذكر أن الامبراطور البيزنطي « أمر أصحابه باللاذقية ( يقصد قبرص ) ليحملوا الميرة إلى هؤلاء الفرنج النازلين على طرابلس فحملوها في البحر » ( أي من قبرص ) فما كان من اسطول طرابلس الا أن اشتبك مع تلك السفن البيزنطية الوافدة لنجدة وليم السرداني وذلك في معركة عنيفة انتهت بهزيمة البيزنطيين وتمكن الاسطول الطرابلسي ، من أسر أحدى السفن البيزنطية ، وأقتادها إلى ميناء طرابلس وذلك عام ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م[201] . ويتضح لنا مما سبق مساعدة البيزنطيين للفرنج في الاستيلاء على طرابلس طبقا لروايات المصادر البيزنطية

---

(196) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 454, F. 54.

(197) يسميه ابن عبد الظاهر : تيران قمص طلولا . راجع ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٠٣ .

(198) ولسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ٩١ ، كذلك : Archer & Kingsford, the crusades, p. 157.

(199) تذكر آنا كومنين أن ريموند أوصى قبل وفاته لوليم جوردان بكل المدن التي فتحها ، كما عينة قائدا عاما على قواته : Anna Commena, the Alexiad, p. 290; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 462.

(200) Anna Commena, the Alexiad, p.p, 290, 360.

(201) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٨٤ . ورواية العيني شبيهة برواية ابن الأثير ، وقد نقلها العيني عن المؤرخ بحرس النويري . العيني : عقد الجمان ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٤٨٠ . ويلاحظ أن الاسطول الذي اشتبك مع السفن البيزنطية كان يخص امارة طرابلس لحرص الفاطميين على ان يكون لكل مدينة من مدن الساحل الشامي الهامة مثل صور ، طرابلس ، صيدا وعسقلان اسطولها الخاص الذي يزودها بالمؤن والدفاع عنها ضد الأخطار المقبلة . راجع د. عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

والاسلامية ، فى حين صمتت المصادر الفرنجية عن ذلك ، وهذا يجعلنا نشك فيما رواه البعض عن وجود نوع من العلاقات أو تبادل المراسلات بين اليكسيس والوزير الأفضل شاهنشاه أثناء الحملة الصليبية الأولى على شمال الشام ، كما ذكرنا فى موضع آخر من هذه الدراسة .

لقد أشتد حصار الصليبيين ، وضيقوا على المدينة ومنعوا أمداداتها من البر ، ومن المدن الفاطمية الواقعة جنوبها ، فى وقت ذهبت نداءات فخر الملك بن عمار للقوى الاسلامية وعلى رأسها الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه أدراج الرياح[٢٠٢] ، ولم يكن ابن عمار يستطيع طلب العون من طغتكين أتابك دمشق أو حمص بسبب العداء بين الطرفين ، كما أن الفاطميين وعلى رأسهم الأفضل شاهنشاه كانوا يتوقون لاستعادة طرابلس لسلطانهم ، ولم يكن فخر الملك راغبا فى السيادة الفاطمية ، وحتى محاولات سكمان بن ارتق صاحب ماردين ودياربكر ، وفخر الملك رضوان صاحب حلب لمساعدة طرابلس قد أخفقت[٢٠٣] ، وبذلك أنقطع آخر أمل تعلق به بنو عمار للحصول على عون خارجى لانقاذ طرابلس .

فى الوقت الذى تدفقت فيه المؤن والامدادات على المعسكر الصليبى المقام أمام المدينة ، وضاق الأمر بأهلها ، بعد أن خرب الفرنج الزروع والبساتين الواقعة على نهر قاديشا[٢٠٤] ( أبى على ) ، وأشتدت المحنة بهم « فعدمت الأقوات به ، وخاف أهله على نفوسهم وأولادهم وحرمهم فجلا الفقراء ، وافتقر الأغنياء ، وظهر من ابن عمار صبر عظيم وشجاعة ورأى سديد »[٢٠٥] . وأضطر الطرابلسيون لبيع ما لديهم من الحلى والأوانى الثمينة ، لشراء الأقوات ، فى حين فر العديد من سكانها ، وآثروا اللجوء للمعسكر الصليبى[٢٠٦] .

وقد حاول ابن عمار تخفيف هذه الضائقة فحجر على أموال الاغنياء ، ووزعها على الفقراء ، كما وزع المؤن أيضا على العساكر والضعفاء بعد أن دفع أثمانها ، بما فرضه من ضرائب استثنائية ، وعبر عن ذلك ابن الأثير بقوله : « وأجرى ابن عمار الجرايات على الجند والضعفاء ، فلما قلت الأقوات والأموال عنده شرع يقسط على الناس ما يخرجه فى باب الجهاد[٢٠٧] . وبفضل هذه الإجراءات ،

---

(٢٠٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥٦ .

(٢٠٣) للاستزادة راجع ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ١٤٨ ؛ العظيمى : تاريخ العظيمى ، ص 377 ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٦٨ .

(٢٠٤) Jean Richard, Le Comté du Tripolis, p. 16.

(٢٠٥) جورجى يني : تاريخ سوريا ، ص ٢٨٢ . ويذكر جورجى يني أن حاصلات طرابلس كانت وفيرة حتى أن السهول والتلال والأكم المجاورة كانت مصدرا لكثير من الغلال والزيتون والحرير ، فضلا عن قصب السكر وأنواع الفاكهة والأشجار . راجع جورجى يني : تاريخ سوريا ، ص ٢٨٣ .

(٢٠٦) ابن الأثير المصدر السابق ، ج ١٠ ص ٢٨٥ . ويذكر ابن الأثير أنه من ضمن أسباب انقطاع المؤن عن طرابلس ، هروب بعض أعيان المدينة لمعسكر الفرنج ، حيث دلوهم على الدروب التى كانت تسلكها السلع والمؤن المهربة الى المدينة فجعل الفرنج جمعا على تلك الجانب يحفظه من دخول أى شيء الى البلد . ابن الأثير : نفس المصدر ، ج ١٠ ص ٢٨٥

(٢٠٧) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٨٥ . ويذكر استاذنا الدكتور عبد العزيز سالم أن ابن عمار باتباعه هذه الاجراءات حقق بذلك النظام الاشتراكى الاسلامى فصودرت أموال الأغنياء ووزعت على الفقراء ، وكان هناك فرق بين الرجعيين الذين =

وما بذله ابن عمار من مقاومة عنيدة وافتقار الفرنج لأسطول بحرى ، بجانب نجاح الأسطول الطرابلسى فى أن يظفر عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م بمركب فى البحر تحمل مؤنا وأقواتا من جزيرة قبرص البيزنطية ، وإمارة انطاكية ، وجزائر البنادقة تمكن الطرابلسيون من مقاومة الحصار الصليبى لمدة ثلاث سنوات أخرى « فاشتدت قلوبهم وقووا على حفظ البلد بعد أن كانوا قد استسلموا »[٢٠٨] .

لقد اشتد حصار الفرنج لطرابلس منذ عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م ، فى الوقت الذى تتابعت فيه المكاتبات بين فخر الملك بن عمار والسلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه السلجوق فوصف له ابن عمار « عظم ما ارتكبه الفرنج من الفساد فى البلاد ، وتملك المعاقل والحصون فى الشام وسواحله ، والفتك فى المسلمين ومضايقة طرابلس والاستعانة اليه والصراخ والحض على تدارك الناس بالمعونة[٢٠٩] . ولكن ابن عمار كان اشبه بمن يصرخ تحت الماء لانشغال السلطان السلجوق بصراعاته مع أفراد أسرته حول العرش السلجوق[٢١٠] .

ولكن ابن عمار ، عندما بلغه استقرار الامور للسلطان وقضاءه على كل مخالف ، عزم على الخروج بنفسه لطلب النجدة من الخليفة العباسى المستظهر ( ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م — ٥١٢ هـ / ١١١٨ م ) ، والسلطان السلجوق محمد بن ملكشاه ( ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م — ٥١١ هـ / ١١١٧ م )[٢١١] . ولاشك أن ابن عمار لم يفكر فى الذهاب إلى بغداد الا بعد أن طرح جانبا فكرة الاستعانة بالفاطميين لاطماعهم فى امارة طرابلس[٢١٢] .

وعلى الرغم من إدراك ابن عمار أن ترك طرابلس وقتذاك مغامرة غير مأمونة العواقب ، بسبب الخطر الصليبى المتزايد ، أو من جانب الفاطميين ووزيرهم الأفضل شاهنشاه الذين كانوا يتوقون لاعادة المدينة لحظيرتهم ثانية ، الا أنه قبل أن يغادر المدينة ، اتخذ عدة اجراءات لتأمينها والدفاع عنها فى غيابه خاصة وأن اقامته قد تطول فى دار الخلافة العباسية ويتأزم الموقف فى طرابلس ولهذا لم يجد فخر الملك من يثق به من أهله أو ذويه سوى ابن عمه أبى المناقب بن عمار[٢١٣] ، وقيل ذا المناقب

---

= عارضوا هذه الاجراءات فتآمروا مع الأعداء ودلوهم على عورات المسلمين . راجع د. عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، فصله مستخرجة من مجلة كلية آداب الاسكندرية ، ١٩٦٢ ، ص ٥٥ ح (٤) .

(٢٠٨) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٨٥ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ ح ١ لوحة ٣ .

(٢٠٩) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ١٥٦ .

(٢١٠) العظيمى : تاريخ العظيمى ، ص 378 ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣١٥ .

(٢١١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ص ٣١٥ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٠٢ ؛ مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٧ .

(٢١٢) الدكتور عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، اسكندرية ١٩٦٧ ، ص ٩٩ — ١٠٠ ؛ دكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٦٣ .

(٢١٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٠ ؛ العظيمى : تاريخ العظيمى ، ص 379 ؛ ابن ميسر : اخبار مصر ، ص ٤٣ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٠٢ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد لوحة ٣ .

ابن عمار[٢١٤] ، فاستنابه فى حكم المدينة مع جملة من وجوه أصحابه وغلمانه يرأسهم سعد الدولة فتيان ابن الأعز[٢١٥] وقيل ابن الأعسر[٢١٦] ، وأمره أن يقيم بها ورتب معه الأجناد برا وبحرا[٢١٧] ، وزيادة فى الاحتياط أطلق للجند رواتب ستة أشهر مقدما وجعل كل موضع إلى من يقوم بحفظه ، بحيث ان ابن عمه لا يحتاج إلى فعل شيء من ذلك[٢١٨] ، واستحلفهم وتوثق منهم[٢١٩] .

وفى شعبان ٥٠١ هـ / مارس ١١٠٨ م خرج فخر الملك بن عمار قاصدا بغداد فى نحو من خمسمائة فارس وراجل من حرسه ، حاملا معه الهدايا والتحف الجليلة لتقديمها للعاهلين العباسى والسلجوقى[٢٢٠] . وعندما بلغ دمشق تلقاه أميرها طغتكين بكل مظاهر الاحترام ، وغمره أمراء دمشق بالهدايا[٢٢١] . وعلى الرغم من أن المصادر التى لدينا لم توضح السبب فى توقف ابن عمار فى دمشق واجتماعه بأميرها[٢٢٢] الا أننا نرجح أنه اراد أن يخطر طغتكين أتابك بنواياه واستشارته فيما انتواه ، فنصحه أتابك بالمسير إلى بغداد وطلب العون من الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى[٢٢٣] .

وبينا كان ابن عمار فى دمشق ، وصلته أنباء مزعجة من طرابلس مؤداها أن ابن عمه أباالمناقب استغل فرصة غيابه ، وقام بقتل سعد الدولة بن الأعز أو الأعسر[٢٢٤] ، وأعلن خروجه على الأمير فخر الملك ، ونادى بشعار الأفضل بن بدر الجمالى ، فما كان من ابن عمار الا أن كتب إلى أنصاره فى طرابلس يأمرهم بالقبض عليه وحمله إلى حصن الخوابى ( أحد حصون الاسماعيلية

---

(٢١٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣١٥ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٣٨ ، العينى : عقد الجمان ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٦٢٩ .

(٢١٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١ مجلد لوحة ٣ .

(٢١٦) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٠٢ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة فى ذكر امراء الشام والجزيرة ، تحقيق د. سامى الدهان ، المعهد العلمى الفرنسى ، دمشق ١٩٥٣ ج ٢ ، ص ١٠٩ .

(٢١٧) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣١٥ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ٦ لوحة ٣ .

(٢١٨) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٠ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣١٥ .
مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ص ٢٤٧ ، ابن الفرات : نفس المصدر ، مجلد ٦ لوحة ٣ .

(٢١٩) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٠ .

(٢٢٠) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ١٦٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣١٥ ؛ مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٧ . والغريب أن ستيفن رنسيمان يذكر أن ابن عمار قد حصل من وليم جوردان على اذن له باجتياز الأراضى التى فى حوزة الفرنج وهو ذاهب الى بغداد . ستيفن رنسيمان . الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٠٥ .

(٢٢١) للاستزادة راجع ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣١٥ ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٠ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، مجلد ١ لوحة ٤ .

(٢٢٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣١٥ ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ١٦٠ .

(٢٢٣) ان المؤرخ جان ريتشارد يذكر أن فخر الملك عندما سمع لبعض امراء دمشق بزيارة طرابلس قبل ذهابه لبغداد ، ثم خروجه الى دمشق متجها الى بغداد كان بمثابة اعتراف منه بخضوعه لسيطرة طغتكين أتابك دمشق . راجع : Richard, Le Comté p. 16.

(٢٢٤) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٠٣

التابعة لطرابلس ) ففعلوا ما أمرهم به به[٢٢٥] . ورغم خطورة هذا الموقف بالنسبة لمصير امارة طرابلس الا أن ابن عمار لم يتردد فى متابعة السير لبغداد . وتذكر الروايات الاسلامية أن طغتكين كان ينوى مرافقة ابن عمار إلى بغداد على أنه نكص على عقبه لخوفه من سعايات ووشايات بعض أعدائه ببلاط السلطان ، والأغلب أنه خاف أن غادر دمشق أن ينقلب عليه سكان دمشق ويحذو حذو طرابلس مع ابن عمار ، ولهذا أكتفى بارسال ابنه تاج الملوك بورى بدلا عنه ، ليكون سفيره إلى السلطان[٢٢٦] .

وفى رمضان عام ٥٠١ هـ / أبريل ١١٠٨م أستأنف ابن عمار رحلته إلى بغداد ، وقد أوردت الروايات الاسلامية الكثير من التفاصيل عن استقبال السلطان السلجوقى والخليفة العباسى لابن عمار استقبالا فخما[٢٢٧] ، وما يهمنا من هذه الروايات أنها أوضحت لنا مدى تفكك مسلمى المشرق وانحلال الخلافة العباسية ، والسلطنة السلجوقية فلم يجد ابن عمار سوى الكلمات والوعود المعسولة والسؤال ، « عن حالة وما يعانيه فى مجاهدة الكفار ويقاسيه من ركوب الخطوب فى قتالهم »[٢٢٨] . وظهر ذلك فى المناقشات التى دارت حول الموضوع الذى أتى من أجله فوعده السلطان بأن جيشا سلجوقيا ضخما سوف ينهض لانقاذ مدينته ، غير أن هذا الجيش لابد له أن ينجز أولا بعض الأعمال فى الجهات القريبة من بغداد ، وحينئذ أدرك فخر الملك أنه ليس فى نية العاهل السلجوقى مساعدته أو التدخل فى أمر طرابلس ، وطال مقامه فى بغداد حتى ضجر ، ولم يجده ذلك نفعا بعد أن مكث فى دار الخلافة حوالى أربعة شهور ، فشرع فى العودة « ولم يحصل من السلطان أو الخليفة على غرض » فرحل فى منتصف المحرم ٥٠٢ هـ / أغسطس ١١٠٨ م ، عائدا إلى طرابلس[٢٢٩] .

غير أن ابن عمار لم يكد يصل إلى دمشق حتى وصلته الأنباء أن امارة طرابلس ضاعت على أثر الانقلاب الذى قام به أهل طرابلس وأعيانها ضد بنى عمار واعلان ولاؤهم للخلافة الفاطمية ،

---

(٢٢٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣١٥ ؛ ابن الفرات تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٥ ؛ العظيمي : تاريخ العظيمى ، ص 379 ويذكر المؤرخ المجهول رواية مختلفة تماما فيشير لارسال ابن عمار كتيبة من جنده من دمشق لطرابلس للبعث على أبى المناقب ووضعوه فى حصن الخوابى . مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٨ .

(٢٢٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦١ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٤ (أ) . ويذكر أن سبب رفض طغتكين مرافقة ابن عمار هو ما وصله من أنباء عن مسيرة السلطان السلجوقى لانتزاع امارة دمشق منه . ابن ميسر : اخبار مصر ، ص ٤٣ .

(٢٢٧) للاستزادة راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦١ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٣١٥ — ٣١٧ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، مجلد ١ لوحة ٥ .

(٢٢٨) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ص ٣١٦ .

(٢٢٩) أجمعت غالبية المصادر العربية على وجه التقريب على فشل مهمة ابن عمار فى بغداد . راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦١ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣١٧ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٦ ؛ أبى الفداء : المختصر ، ج ٢ ص ٢٢٣ ، وكذلك : Stevenson, the crusaders in the East, p. 55.

فلم يجد بدا من المسير إلى جبله ( أحد توابع طرابلس ) وهى قلعة صغيرة على الساحل بين اللاذقية والمرقب فأمده طغتكين بفرقة من عسكر دمشق لتساعده فى دخولها ، فدخلها وأطاعة أهلها[٢٣٠] .

وفى رأينا أن خروج ابن عمار لاستنفار العاهلين السلجوقى والعباسى كان خطأ كبيرا من جانب اذ ترك امارته فى وقت كانت فى أشد الحاجة اليه فى مواجهة الخطر الفرنجى المتزايد ، وضد محاولات الفاطمية لاستعادتها . وكان عليه أن يدرك أن زعيمى العالم الاسلامى غير مستعدين أو حتى مؤهلين لاقحام أنفسهما فى الصراع الصليبى الاسلامى الدائر فى الشام فى صراعاتهما بينهما وبين أمراء العراق وعلى رأسهم جاولى سقاوة صاحب الموصل ، وحتى عندما ذهب لبغداد لم يجد الا الوعود المعسولة والكلمات البراقة الجوفاء ، «ولم يحصل منهما على غرض »[٢٣٢] . وكان عليه بدلا من ذلك أن يمد يده للخلافة الفاطمية ووزيرها القوى الأفضل شاهنشاه لمواجهة الخطر الفرنجى ، فما من دولة اسلامية تستطيع مساعدته سوى الدولة الفاطمية بالقاهرة ، والتى لا تزال لها بعض السيطرة على البحر ، والقادرة بأسطولها على نجدة المدينة وانقاذها وهو ما أدركه سكان طرابلس وأعيانها ، فى حين لم يدرك ابن عمار هذا الأمر الا بعد فوات الأوان .

ولقد اختلفت روايات المصادر الاسلامية فى تفاصيل الانتفاضة التى قام بها الطرابلسيون وانتهت بعودة المدينة إلى حظيرة الفاطميين ، وأنقسم المؤرخون حول ذلك إلى فريقين : فريق يمثله كل من ابن القلانسى ، ابن الأثير ، ابن ميسر ، المؤرخ المجهول ، ويرى أن ابا المناقب أظهر الخلاف لفخر الملك ونادى بشعار المصريين وأن أهل طرابلس هم الذين راسلو الأفضل شاهنشاه فى مصر يلتمسون منه أنفاذ وال من قبله ، ويزود المدينة بالميرة والغلال ، وما تحتاج اليه فى حصارها ، فسير اليهم شرف الدولة بدر بن أبى الطيب الدمشقى واليا عليهم ومعه الغلة والميرة ، وفور وصوله المدينة قبض على جماعة من أهل وأصحاب بنى عمار ، وسيرهم إلى مصر مع ما أستولى عليه من تحف بنى عمار وذخائرهم عن طريق البحر[٢٣١] . أما الفريق الثانى فيمثله كل من ابن الفرات وابن شداد وابن عبد الظاهر[٢٣٣] فأورد رواية مختلفة عن الرواية السابقة فيذكر « أما ما كان من طرابلس بعد خروج فخر الملك منها ، فانه لما ولى بها أبو المناقب وجعل التدبير إلى سعد الدولة سنان بن الأعصر ، فأتفق أنه أصاب أبا المناقب عارض وهوج ، وقيل أن الهوج

---

(٢٣٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٤٧ ؛ مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٧ . ويذكر أبو الفداء أن طغتكين أقطع ابن عمار الزبدانى وليس جبلة . راجع أبى الفداء : المختصر ، ج ٢ ص ٢٢٣ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٢٤ .

(٢٣١) أبى الفداء : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٢٣٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٤٧ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤٣ ؛ مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٧ ــ ٢٤٨ ، أيضا راجع المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٣٨ .

(٢٣٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ٦ لوحة ٤ (أ) ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٠٣ ؛ ابن شداد الأعلاق الخطيرة ، ج ٢ قسم ٢ ص ١١٠ .

بذر أصلا بينا كان هو يوما فى دار الامارة والناس عنده اذا اعتراه هوجه فخلط وقال ما لا ينبغى فنهاه سعد الدولة بتلطف فجرد السيف وضرب سعد الدولة فقتله وانهزم من كان معه فى المجلس من أهل طرابلس ، فعمد إلى سعد الدولة فقطعه وقام وطلع على السور وجعل يصفق بأبطيه ويرقص فقام عليه أهل البلد فقبضوه ونادوا بشعار الأفضل بن أمير الجيوش(٢٣٤) .

ولما بلغه ذلك جهز اليهم جيشا فى البحر وقدم عليهم تاج العجم ، فلما وصل طرابلس أخذ جميع الأموال ما تحفظ به البلد ، وبلغ الأفضل أنه ( تاج العجم ) يقصد العصيان بطرابلس فقبض عليه على ما كان فعله وولى بدر الدولة وفى بعض النسخ شرف الدولة بن أبى الطيب الدمشقى(٢٣٥) ، فوصل طرابلس ، وكان أهلها قد عانوا من طول الحصار ، ثم رأوا» من خلفه مما رغبهم ونفرهم منه فعزموا على طرده ثم رأوا بقاءه لأنهم لا ملجأ لهم من جهة المصريين » . ثم وصلت مراكب من مصر بالغلال والرجال فقرر المذكور مع مقدمى الاسطول القبض على أعيان البلد ، وأصحاب فخر الملك بن عمار وحريمه فأخذهم وسيرهم فى البحر إلى مصر المحروسة ، وبعث ما كان فى طرابلس من السلاح والذخائر ما لم يكن عند أحد من الملوك مثله ، وبعث ألف دينار عينا ، فلما وصلوا إلى مصر ، أعتقل الأفضل أهل بنى عمار(٢٣٦) .

ويلاحظ وجود بعض الاختلافات بين روايات الفريقين وهى :

أولا : أن رواية ابن عبد الظاهر وابن الفرات تصور محاولة ابى المناقب الخروج على فخر الملك وأن يدعو لنفسه ، الا أن أعيان المدينة قبضوا عليه ، ولم يورد النص ما يشير إلى أن أبا المناقب هو الذى نادى بشعار الأفضل ، مما يخالف النصوص التى أوردها ابن القلانسى وابن الاثير وابن ميسر .

ثانيا : أن أهل طرابلس هم الذين نادوا بشعار الأفضل شاهنشاه وكاتبوه بذلك وهو ما أتفقت عليه غالبية النصوص .

ثالثا : أن الأفضل شاهنشاه سير لهم تاج العجم ــ أكبر مماليكه ــ يعلمه أن الأخير ينوى اعلان العصيان بطرابلس والانتزاء بها ، فأرسل له شرف الدولة بن أبى الطيب ، وهى نقطة غير واردة فى الرواية الأولى .

رابعا : أن سكان طرابلس سخطوا على شرف الدولة بن أبى الطيب ورأوا ما نفرهم منه ، وعزموا على طرده ولكنهم أحجموا عن ذلك من بطش الأفضل ، كما لم يكن لهم رجاء

---

(٢٣٤) هنا انتهى نص ابن الفرات فى مخطوط دار الكتب المصرية ، مجلد ١ لوحة ٤ (أ) .

(٢٣٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٦ ، وفى اتعاظ الحنفا مشير الدولة بن أبى الطيب . راجع المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٣٨ أحداث ٥٠١ هـ . ويذكره فى موضع آخر باسم شرف الدولة بن أبى الطيب . راجع المقريزى : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٢ .

(٢٣٦) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٨ ص ٧٨ نقلا عن الدكتور عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ١١١ .

أمام الحصار الصليبي سوى نجدات الفاطميين[٢٣٧] .

ونحن نستنتج من الروايات السابقة أن ابا المناقب وأعيان طرابلس كانوا واقعيين فأدركوا أنه ما من دولة أو قوة اسلامية تستطيع مساندتهم فى ذلك الموقف الحرج سوى الخلافة الفاطمية ووزيرها الأفضل شاهنشاه والذين كانوا بمقدورهم تزويدهم بالمؤن والغلال وحماية المدينة ضد الحصار البحرى ، خاصة وأنه لا تزال للاسطول الفاطمى بعض السيطرة على البحر ، ونرجح أن الأفضل قد لعب دورا فى محاولة اعادة سيطرة الفاطميين على تلك المدينة الهامة وذلك بتجنيد بعض أنصاره أو الموالين له من أعيان المدينة وسكانها فعصوا على ابن عمار ، ونادوا بشعار الأفضل ، الا أن أبا المناقب طمع فى الاستئثار بالأمر لنفسه دون الفاطميين فما كان من أنصار الفاطميين من سكان المدينة وأعيانها ، وكان أغلبهم من الشيعة[٢٣٨] ، الا أن قبضوا على أبى المناقب وراسلوا الأفضل يطلبون منه أرسال وال من قبله يتولى إدارة المدينة ، وأجاب الأفضل دعوتهم بأن أرسل أبا الطيب الدمشقى ومعه مراكب كثيرة مشحونة بالغلال والميرة وأمره بتسلم البلد وحسن السياسة فيها[٢٣٩] ولم يلق أبو الطيب أية متاعب للسيطرة على الامارة ، اذا انضم اليه سكانها ، فقبض على أهل بنو عمار وحملهم إلى مصر بحرا .

وهذا يجعلنا نميل للأخذ برواية ابن عبد الظاهر وابن الفرات فتتضمن بعض التفاصيل المعقولة إلى حد ما ، فى حين أن روايات ابن القلانسى وابن الاثير وغيرهما ناقصة ، لم توضح تفاصيل الثورة بشكل تام . والغالب أن فخر الملك بن عمار علم بتفاصيل ذلك الأمر فى دمشق ، وهو متجه إلى بغداد فأيقن بضياع ملكه ولكنه ازداد اصرار على مواصلة سيره لطلب النجدة لاستعادة امارته ودفع الفرنج عنها فى آن واحد ، ولكنه أخفق فى ذلك ولم يظفر بشىء من المعونة المنشودة[٢٤٠] ، وعاد ليجد امارته قد ضاعت وعادت إلى حظيرة الفاطميين[٢٤١] ، فقنع بامارة جبلة وظل عليها حتى أستولى عليها الفرنج بعد غزوتهم لطرابلس كما سنوضح فى حينه .

كثر الطامعون فى حطام امارة بنى عمار ، ففى حين عادت طرابلس إلى حظيرة الفاطميين

---

(٢٣٧) ان رواية المؤرخ العظيمى تختلف اختلافا تاما عما أورده ابن الفرات أو ابن القلانسى وغيرهما ، فيذكر أن الوالى شرف الدولة أتى بالقوى والغلال والعدة فأخذوا ذلك منه وقبضوا عليه . راجع العظيمى : تاريخ العظيمى ، ص 379 . ويذكر المقريزى أن الطرابلسيين هم الذين نادوا بشعار الدولة الفاطمية وخضوعهم للسيادة الفاطمية اثر خروج فخر الملك بن عمار منها مباشرة فى طريقه إلى بغداد . ويشير إلى أن سناء الملك حسين بن الأفضل قد حاول بعد موقعة الرملة الثانية الاستيلاء على طرابلس بالسلم تارة وبالقوة تارة اخرى الا أن محاولاته باءت بالاخفاق . راجع المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٤٢ .

(٢٣٨) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٢٤ .

(٢٣٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣١٧ ، ابو الفداء : المختصر ، ج ٢ ص ٢٢٣ . ونحن نتفق بذلك مع رأى استاذنا الدكتور عبد العزيز سالم . راجع رأى د. عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ١٦٢ .

(٢٤٠) يذكر المقريزى أن الأفضل أرسل اسطولا ضخما خرج من موانىء دمياط وعسقلان وصور من أجل نجدة طرابلس والدفاع عنها فى وجه الفرنج . راجع المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٤٢ .

(٢٤١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٢٧.

طمع كل من سلاجقة دمشق والفرنج فى المناطق التابعة للامارة ، ومنها عرقة الواقعة شمال طرابلس ، وكانت من الحصون المنيعة[٢٤٢] ، وتتمتع بموقع حربى ممتاز فهي بمثابة الباب الشمالى لطرابلس ويؤدى سقوطها إلى قطع الطريق على الصليبيين فيما بين انطرطوس وطرابلس[٢٤٣] ، وكانت عرقة تحت حكم أحد غلمان ابن عمار الذى انتهز فرصة حصار الفرنج لطرابلس « فعصى على مولاه » ، ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بها لقطع الفرنج المؤن الذاهبة لطرابلس ونوابعها ومنها عرقة ، فأرسل يطلب حماية طغتكين أتابك دمشق ، وكتب اليه يلتمس منه العون على الفرنج وانقاذ من يتسلمها[٢٤٤] ، فوجد طغتكين قائدا أسمه أسرائيل فى ثلاثمائة رجل فتسلم منه الحصن سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م[٢٤٥] . وقد عزم طغتكين بنفسه على زيارة عرقة لمشاهدة تحصيناتها وتفقد أسوارها وتقويتها بالعساكر والأقوات وآلات الحرب استعدادا لمواجهة الحصار الصليبى لها فسار بعد شهرين فى أربعة آلاف فارس ، وأستغل فرصة انشغال الفرنج بحصار طرابلس لمهاجمة وفتح ما شيده الفرنج من حصون وقلاع قريبة من الحدود وأفتتح ضمن ذلك حصن الأكمة[٢٤٦] .

ولكن أنباء حملة طغتكين واسقاطه قلاع وحصون الفرنج القريبة من عرقه أنزلت الذعر فى قلوب الفرنج النازلين على طرابلس فظنوا أن حملة طغتكين هدفها تقوية عرقة ثم مهاجمة قواتهم الرابضة أمام طرابلس مما دفع وليم جوردان ( السردانى ) ، النازل على حصن طرابلس بالخروج على رأس احدى فرق الجيش الصليبى وأنقض بغتة على قوات طغتكين قرب حصن الأكمة فى شعبان ٥٠٢ هـ / مارس ١١٠٩ م ، فلاذ الدمشقيون بالفرار مذعورين إلى حمص ، وتبعهم وليم السردانى ، إلا أنه لم يخاطر بالمضى إلى حمص أو مهاجمتها ، وعاد متجها صوب شيزر وقد حاول الأخوان مرشد وسلطان بن منقذ أمراء شيزر ، الايقاع بوليم السردانى وأسره مستغلين صغر عدد جنده ، غير أن وليم أفشل محاولتهما[٢٤٧] . وقد عاد وليم بعد ذلك فحاصر عرقه وأستولى عليها بالأمان بعد حصار لم يستمر سوى ثلاثة أسابيع فى رمضان ٥٠٢ هـ / ابريل ١١٠٨ م[٢٤٨] .

وعاد وليم جوردان إلى طرابلس ، وكان يأمل تتويج فتح عرقه بفتح طرابلس ، ولكن قبل أن يحقق هذه الأمنية تعرض لمنافس خطير أطاح بكل آماله فى حصار المدينة أو غزوها ، وتأسيس امارة لنفسه بالشرق وهو برترام ( برتراند ) الأبن الأكبر لريموند الصنجيلى ، الذى أضطر للتخلى

---

(٢٤٢) Stevenson, the crusaders in the East, p. 56.

(٢٤٣) ابن الفرات : المصدر السابق ، مجلد ١ لوحة ٢٧ .

(٢٤٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٢ ؛ ابن الفرات : نفس المصدر ، مجلد ١ لوحة ٢٧ ، العينى : عقد الجمان ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٦٣٥ .

(٢٤٥) العينى : عقد الجمان ج ١ قسم ٣ لوحة ٦٣٥ .

(٢٤٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٢ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٢٨ .

(٢٤٧) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، نشر د. فيليب حتى ، برنستون بالولايات المتحدة ١٩٣٠ ، ص ٧٨ .

(٢٤٨) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٢ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٢٨ . انظر مناقشة ستيفنسون للآراء التى دارت حول كيفية سقوط عرقه وتاريخ سقوطها : Stevenson, the crusaders, p. 56, FF.

عن إمارة تولوز لأخيه الأصغر الفونس جوردان ، نظير أن يرث هو أملاك ابيه بالشام[٢٤٩] . وقد فكر برترام قبل رحيله فى الاستعانة بأحد الأساطيل الايطالية ليعجل بغزو طرابلس أو أنشاء إمارة له هناك . والمرجح أنه توقع مشاكل مع وليم جوردان ولهذا خرج من بلاده على رأس جيش عدته أربعة آلاف فارس يحملهم أسطول من أربعين سفينة بروفنسية أمدته بها موانىء بروفانس وصاحبه ابنه الصغير بونز «Pons» ، وعرج فى طريقه على مدينة جنوة وتفاوض معها فى إمكانية مساعدته لحصار طرابلس وتحقيق أطماعه هناك[٢٥٠] . والغريب أن وليم جوردان كان يفكر فى أن يرسل هو الآخر سفيرا إلى جنوه لنفس الغرض ، غير أن سفارته أدركت أن برترام كسب الجولة وصار حليفا لجمهورية جنوه التى تعهدت بتقديم المساعدة له لتسلم أملاك والده بالشرق ، وتتويج ذلك باسقاط طرابلس ، على أن يمنح الجنوية نظير ذلك امتيازات تجارية واسعة النطاق بطرابلس[٢٥١] .

وفى شعبان ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م وصل برترام فى جملة سفين مركبا فى البحر مشحونة بالافرنج والجنويين[٢٥٢] ، وتعمد برترام أن يرسوا باسطوله البروفنسى ـ الجنوى المشترك فى ميناء السويدية بدلا من انطرطوس لمطالبة تانكريد أمير أنطاكية بحق أبيه فى أنطاكية واللاذقية ، ووافق تانكريد بشرط أن يساعده فى حملته ضد البيزنطيين فى المصيصة ، فرفض برترام نظرا لولائه وتحالفه مع بيزنطة[٢٥٣] . وغضب تانكريد وطلب منه الرحيل على الفور[٢٥٤] . وأبحر برترام إلى انطرطوس ، مركز أملاك امرة ريموند بالشام ، وهناك طالب مواطنه وليم جوردان بتركه أبيه باعتباره صاحب الحق الوحيد فيها ، وسرعان ما أحتدم الخلاف بين الأثنين وتأزم الموقف خاصة بعد أن أستنجد كل منهما بأمير أنطاكية ( تانكريد ) ، وبلدوين ملك بيت المقدس لتأييده فى النزاع القائم بينهما[٢٥٥] .

---

(٢٤٩) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٠٧ ، كذلك : Archer & Kingsford the crusades, p. 157.

(٢٥٠) Grousset, R. Histoire des croisades, To. I, p. 352; Funk, H., in setton (ed.), Vol. I p. 396.

(٢٥١) Heyd, commerce du levant, Tol. I, p. 140.

(٢٥٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٣ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٧ ؛ مؤرخ مجهول : سلاطين المماليك ، ص ٢٤٨ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٣٨ ، كذلك : Caffaro, R.H.C. Hist. occ. p. 72.

ولم يشر ابن الأثير للعدد الحقيقى لسفن الجنوية المرافقة لبرترام . راجع ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٢ . واختلفت المصادر الصليبية الأخرى فى تقدير عدد سفن الجنوية التى صاحبت برترام الى الشرق فألبرت اكس يذكر أن عدد سفن الجنوية كانت ثمانين سفينة . راجع : Albert of Aix, R.H.C. Hist. occ. Vol. IV, p.664.

ويذكر فوشيه شارتر أن عدد السفن الجنوية كانت سبعين سفينة . Fulcher of chartres, Expedition, p. 194.

(٢٥٣) Anna Commena, the Alexiad, p. 364.

(٢٥٤) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٠٨ ــ ١٠٩ ، كذلك : Funk, H., in setton (ed.) Vol. I. p.397.

(٢٥٥) لمزيد من التفاصيل عن ذلك راجع : Fulcher of charter, the expedition, p.p. 194-195; William of tyre, deeds, Vol. I, p.p. 472-475.

وكيفما كان الأمر ، ففي قلعة جبل الحجاج ( قلعة صنجيل ) ألتقى جميع زعماء الفرنج بالشام وشمال العراق وبفضل جهود وبراعة بلدوين تم تسوية الخلافات شكلا بين جميع الزعماء الصليبين وتقسيم تركة ريموند بين المتنازعين(٢٥٦) ، وأتفق الجميع على التعاون لفتح طرابلس(٢٥٧) . وإذ انعقد الصلح بين القادة الفرنج ، تضامنوا جميعا بحشودهم على إسقاط طرابلس في حين حاصرها الاسطول الجنوى البروفنسي برا ، ليقضي على أية محاولات من جانب السفن الفاطمية لامداد المدينة بالميرة والعتاد وذلك في مطلع شهر شعبان ٥٠٢ هـ / ١١مارس ١١٠٩(٢٥٨) . وكان بلدوين قد أنتهز فرصة وجود الاسطول الجنوى فأتفق معه على حصار طرابلس بجانب مساعدته في اسقاط بيروت وصيدا وصور وعسقلان قبل أنقضاء عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م ، مقابل الامتيازات المعتادة من الفرنج(٢٥٩) .

وأشتد الفرنج في حصار المدينة مستعجلين اسقاطها مستخدمين الابراج المتحركة وآلات الحصار اللازمة لمهاجمة أسوارها ودكها تمهيدا لاقتحامها(٢٦٠) . ويبدو أن الحصار البحرى الصليبي كان من الاحكام بحيث أعاق وصول الامدادات للمدينة من مصر والموانئ الفاطمية الواقعة جنوبها مما دفع واليها ابن أبي الطيب الدمشقي والطرابلسيون للاستنجاد بالقاهرة وطلب العون من الوزير الأفضل شاهنشاه فأرسلوا يلتمسون منه تزويدهم بالمؤن والميرة والسلاح والرجال(٢٦١) ، كما طلب سكان طرابلس أيضا مساعدة القوى المجاورة « وأطلقت الحمام

---

= وذكرت المصادر الاسلامية روايات شبيهة الى حد كبير لروايات المصادر الفرنجية حول هذا الخلاف ولكنها تشير الى حدوث قتال بين الطرفين المتنازعين . راجع مثلا ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٣ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ١ لوحة ٣٨ ؛ كذلك : Cahen, La Syrie du Nord, p. 245.

(٢٥٦) للاستزادة راجع: Fulcher of chartres, the expedition, p. 194; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 4771; Archer & Kingsford, the crusades, p. 157; Funk H. in setton (ed.) Vol. I, p. 397; Cakhen, C., La Syrie du Nord, p.p. 245-246.

(٢٥٧) أشار المؤرخ فوشيه شارتر في عبارة سريعة الى قيام بلدوين بمحاولة انهاء النزاع بين القادة الفرنج ولكنه اغفل الاشارة لتفاصيل المفاوضات التى دارت بين بلدوين أو الأمراء المجتمعين في قلعة صنجيل لحسم الخلاف بينهم . راجع : Fulcher of chartes, the expediton p. 195.

وأشارت المصادر الاسلامية أيضا إلى نجاح بلدوين في تسوية الخلافات بين الأمراء الفرنج المتنازعين . راجع ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٣ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ١ لوحة ٣٨ . أورد ابن عبد الظاهر رواية مختلفة .راجع ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٠٢ .

(٢٥٨) يلاحظ أن المصادر الاسلامية والفرنجية لم تشر إلى حضور وليم جوردان حصار طرابلس وذلك لتوالية حدوث مقتله بعد مصالحته مع برترام بن صنجيل ومصرعه بعد ذلك بقليل . راجع ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٣٨ ، كذلك : Fulcher of chartres, the expedtion, p. 195.

أيضا راجع ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٣ ، ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٧ ، Caffaro, De Liberatione, R.H.C., Hist. occ. Vol. V, p. 72.

ويحدد المؤرخ المجهول بداية حصار طرابلس بأواخر شعبان . مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٨ .

(٢٥٩) Fulcher of chartres, the expedition, p. 195; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 477.

(٢٦٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٣ ؛ ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٧.

(٢٦١) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٨ .

بالكتب من طرابلس إلى جميع بلاد الاسلام التي يرجى منها النجدة بشرح صورة ما هم فيه من القتال والشدة »[٢٦٢] .

وتؤكد المصادر الاسلامية أن الأفضل عندما بلغته نداءات أهل طرابلس ونائبه بها ، شرع على الفور في تجهيز اسطول فاطمى مجهز بالميرة والغلال والقوات[٢٦٣] ، وأرسله في البحر لنجدة الم... ولم يكن خرج للمصريين فيما تقدم مثله كثرة رجال ومراكب وعدد وغلال لحماية طرابلس وتقويتها بالغلة الكثيرة والرجال لمدة سنة ، مع تقوية ما في المملكة المصرية من ثغور الساحل وأهله[٢٦٤] وهذا يؤكد أن الاسطول المصرى لم تكن مهمته قاصرة على نجدة طرابلس فحسب .

وبينما سار الاسطول الفاطمى إلى طرابلس ، شن الفرنج هجمات قاسية على أسوارها ، واستمات أهل طرابلس في الدفاع عنها حتى وفود النجدة الفاطمية[٢٦٥] . وقد ابتكر أهل الصناعات من الطرابلسيين طريقة تهدف لأحراق الابراج الصليبية ، وتعطيل الكباش الفرنجية المخصصة لنقب الاسوار وهى طريقة أثبتت جدواها عندما استعملها أهل صور وقت الحصار الفرنجى لمدينتهم وقد وصف لنا ابن القلانسى وابن الفرات هذه الطريقة العربية المبتكرة وصفا كاملا[٢٦٦] ، وتمكن بها سكان المدينة من أحراق بعض الابراج الفرنجية ، مما دفع الأخيرين لصنع أبراج متحركة جديدة بمساعدة الجنوية ألبسوها بالزرد واللبد وجلود الابل والخيل والبقر منعا لاشتعالها[٢٦٧] .

لقد مضى وقت طويل منذ الاستغاثة بالقاهرة دون وصول الامدادات والاقوات ، حتى نفذت المؤن وعدمت الأقوات ، وضاع أملهم في الصمود ، ففترت مقاومتهم للفرنج ، وساءت أحوالهم وأسقط في أيديهم وذلت نفوسهم وزادهم ضعفا تأخر الأسطول المصرى عنهم بالنجدة والميرة[٢٦٨] .

---

(٢٦٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٣٨ .

(٢٦٣) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٣٨ .

(٢٦٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٤ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٩ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٣٩ . ويذكر المقريزى أن الأفضل لما سمع أن أهل الثغر نادوا بشعاره سرالهم ( شرف الدولة بن أبى الطيب ) ومقدم الأسطول وأمره بأخذ المراكب التى على دمياط وعسقلان وصور معه الى الثغر المذكور نصرة للمسلمين ] راجع المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٤١ .

(٢٦٥) اعترفت المصادر اللاتينية بقسوة الحصار الصليبى لطرابلس واستبسال اهلها فى الدفاع عنها . راجع : Fulcher of chartres, the expedition, p. 195; William of tyre, deeds, Vol. I, p.p. 577-8.

(٢٦٦) للاستزادة عن ذلك راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٩ — ١٨٠ ؛ الملحق الموجود بنهاية الرسالة لابن الفرات .

(٢٦٧) الذهبى : دول الاسلام ، ج ٢ ط ٢ ، ص ٢٢ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٣٨ . ويذكر أن عدد الابراج كان عشرة أبراج .

(٢٦٨) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٣ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٤ ، كذلك : Fulcher of chartres, the expedition p. 195; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 478.

واختلفت آراء المصادر الاسلامية في تحليلها لعوامل تأخر الاسطول المصرى عن انجاد الطرابلسيين ، فيذكر ابن الأثير في تعليله لذلك بأن المسئولين في القاهرة فرغوا منه ومن البحث عليه واختلفوا فيه أكثر من سنة وسار فردته الريح ، فتعذر عليهم الوصول إلى طرابلس[٢٦٩] » ومعنى هذا أن الإجراءات الخاصة بجمع قطع الاسطول الفاطمى من الموانىء المصرية قد استغرقت وقتا طويلا وأنه حدث نوع من الخلاف العميق بين القادة الفاطميين ، ودام هذا الخلاف ما يقرب من سنة ، مما أدى لتأجيل اقلاع الاسطول الفاطمى من موانىء الدلتا .

وتذكر روايات أخرى أن الاسطول المصرى واصل مسيرة إلى طرابلس لإنجادها إلا أن رياحا مضادة لسير الأسطول أعاقته عن الوصول اليها في الوقت المناسب ، رغم المحاولات العديدة التى بذلها « وكان كلما سار الاسطول الفاطمى نحوهم ( إلى أهل طرابلس ) ردته الريح إلى مصر »[٢٧٠] . ويذكر ابن خلدون أن الاسطول المصرى تأخر في وصوله إلى المدينة « لركود البحر »[٢٧١] . وهذه الروايات الأخيرة تعارض بعض المصادر الاسلامية الأخرى وتشير لوصول الأسطول إلى طرابلس أثناء الحصار الصليبى لها ، ولكنه ارتد عن البلد بعد قتال شديد مع الأسطولين الجنوى ــ البروفنسى ، فكان كلما قارب طرابلس « رده الفرنج ( أساطيل الفرنج ) نحو مصر »[٢٧٢] ، وأنصار هذا الرأى ابن الفرات وأبو المحاسن . ونحن نستبعد هذه الرواية ، أو حدوث أى معركة مع الأسطولين الجنوى ــ البروفنسى خاصة وأن مؤرخ حوليات جنوه المعاصر كافارو الجنوى لم يشر إلى حدوث أى صدام يجرى بين الجانبين أثناء حصار المدينة[٢٧٣] .

وقد شدد الفرنج هجماتهم على المدينة في الوقت الذى بدأت حاميتها والمدافعون عنها يتخلون عن المقاومة بعد أن قطع عنها أسطولا جنوه وبروفانس الامدادات ، في حين بدأت أسوار المدينة تنهار أمام ضربات كباش ومجانيق الفرنج[٢٧٤] ، وأمام هذا أضطر شرف الدولة بن أبى الطيب والى المدينة لأن يرسل إلى الملك بلدوين عارضا استسلام المدينة بشروط مؤداها السماح لكل من يريد من سكانها بمغادرتها وحمل متاعه وأمواله وعدم الاعتداء على حياة أو ممتلكات من يبقى بها مقابل تأدية ضريبة سنوية للبلدوين ، وقبل بلدوين تلك الشروط[٢٧٥] ، وطبقا لذلك دخل بلدوين المدينة يوم الأثنين ١١

---

(٢٦٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٤ .

(٢٧٠) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٣٤ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٧ ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٣ .

(٢٧١) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٩ ؛ أبى الفداء : المختصر ، ج ٢ ص ٢٢٤ ؛ ستيفن رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١١٣ .

(٢٧٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٧٣ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مخطوط دار ، مجلد ١ لوحة ٣٨ .

(٢٧٣) Caffaro, R.H.C., occ., Vol. V, p. 72.

(٢٧٤) ابن الفرات : تاريخ الدولة والملوك ، مجلد ١ لوحة ٣٧ .

(٢٧٥) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٨ ؛ كذلك : Fulcher of chartres, the expedition, p. 195, William of tyre, deeds, Vol. O, p. 478.

ذى الحجة ٥٠٢ هـ / ١٢ يوليو ١١٠٩ م[٢٧٦] . واحترم بلدوين تعهداته ، فلم يتعرض للنهب أو التخريب ما كان بيده من المدينة وسمح للقائد الفاطمى بمغادرتها ومعه فريق من رجاله وأمّن الصليبيون طريقهم إلى دمشق[٢٧٧] .

ورغم أن المصادر المعاصرة تذكر أن بلدوين فضل أخذ طرابلس بالأمان ، وأخذ فى ذلك تعهدات وتأكيدات من القادة المرافقين له وبخاصة الجنوية الا يمسوا أهل المدينة بسوء[٢٧٨] ، الا أن الجنوية ما كادوا يشقون طريقهم داخل المدينة ، بعد أن تبين خلوها من وسائل الدفاع ، لم يتحملوها رؤية ثروات وأموال سكان البلدة وهم خارجون بها ، فأحدثوا بها مذبحة مروعة وأخذوا ينهبون ويحرقون الدور ، ويقتلون كل ما صادفهم هناك[٢٧٩] . ونهبوا ما فيها ، وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها ، « وحصل فى أيديهم من أمتعتها وذخائرها ودفاتر دار علمها وما كان فى خزائن أربابها ما لا يحصى عدده ولا يحصر فيذكر »[٢٨٠] وعاقب الفرنج أهلها بأنواع العقوبات وأخذ دفائنهم وذخائرهم من مكامنهم[٢٨١] ، ولم يلتفتوا إلى عهد ولا أمان[٢٨٢] .

وهناك رواية اسلامية تشير لاشعال الجنوية الحرائق فى عدة مواضع بالمدينة ، كما أن بعض سكانها وجماعة من أجنادها قد أبدوا بعض المقاومة[٢٨٣] عند دخول الجنوية المدينة ونهبهم لها ، « وفر جماعة من سكانها والاجناد إلى دار الإمارة فقوتلوا أياما ، ثم طلبوا الأمان ، فأعطوا وأخرجوا من البلد »[٢٨٤] . كما أشعل الجنوية الحرائق فى مكتبة بنى عمار فى طرابلس بما تحويه من مصاحف وكتب علوم الدين والتفاسير والأحاديث وغيرها ، وكانت من أعظم مكتبات الشرق الاسلامى ولم يكن فى جميع البلاد مثلها كثرة وحسنا وجودة »[٢٨٥] ، وهذا يؤكد حقد الفرنج والجنوية الدفين

---

(٢٧٦) فى ابن عبد الظاهر ٣ ذى الحجة ٥٠٢ هـ . ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٠٣ .

(٢٧٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ١٦٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٤ ؛ النويرى الكندى : نهاية الارب ، مجلد ٢٦ لوحة ٧٩ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٩ ؛ مؤلف مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٨ . ويشير أبى الفداء لاستعانة بعض سكان طرابلس من الفرنج قبل فتحها . ابى الفداء المختصر ، ج ٢ ص ٢٢٤ . راجع مناقشة د. عبد العزيز سالم التى دارت حول تاريخ سقوط المدينة . د. عبد العزيز سالم : طرابلس والشام ، ص ١٢٦ . د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٧٢ ، كذلك : Stevenson, the crusaders in the East p. 57 F; Boase, the Kingdoms, p. 35; Cahen, La Syrie du Nord, p. 244.

(٢٧٨) Fulcher of chartres, the expidition, p. 195; William of tyre, deeds, p. 478.

(٢٧٩) السلامى : مختصر التواريخ ، لوحة ٥٤ ، كذلك : Fulcher of charters, p. 195.

(٢٨٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٣ .

(٢٨١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٣٣٤ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، مخطوط دار ، رقم ٥٥١ ب ، ج ١٢ قسم ٣ لوحة ٢٦٣ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨٠ ، كذلك : Besant & Palmer, Jerusalem, p. 158.

(٢٨٢) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٨ . ويذكر ابن الفرات ، نقلا عن ابن أبى طيء أن عدد مسلمى طرابلس كانوا عشرة آلاف نفس . ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٣٩ .

(٢٨٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ١ لوحة ٣٨ .

(٢٨٤) ابن الفرات : المصدر السابق ، مجلد ١ لوحة ٣٩ .

(٢٨٥) للاستزادة عن حرق مكتبة طرابلس وكيفية ذلك ، راجع ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٣٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٤ . وقد أعترفت المصادر اللاتينية بحرق الفرنج والجنوية للمصاحف والكتب الموجودة بمكتبة =

وتعصبهم الأعمى إزاء المسلمين وبذلك سقطت طرابلس بعد حصار يقرب من سبع سنوات وأربعة أشهر وأثنين وعشرين يوما ( ١٩ رجب ٤٩٥ هـ / إلى ١١ ذى الحجة ٥٠٢ هـ / ١٢ يوليو ١١٠٩ م )[٢٨٦] . اما الأسطول الفاطمى الذى أرسله الأفضل للنجدة ، فتذكر المصادر الاسلامية أنه وصل المدينة عقب سقوطها بثمانية أيام وقد فات الامر فيها للقضاء للنازل بأهلها[٢٨٧] .

وبسقوط طرابلس أكتملت امارة طرابلس الفرنجية ، وعين برتراند أميرا عليها ، واتخذ لقب كونت ، وأصبحت ضمن الامارات المتحدة داخل نطاق مملكة بيت المقدس اللاتينية بعد أن أصبح تابعا مخلصا لبلدوين[٢٨٨] ، متجاهلا ما ارتبط به من التزامات نحو بيزنطة[٢٨٩] .

وسرعان ما طالب الجنوية بالثمن ، مقابل مساعدتهم لفتح طرابلس ، ولم ينسى هيوا مبرياتشو وجنوده الحصول على نصيبهم من الغنائم وطبقا للشروط المعقودة بينهم وبين برترام حصلوا على ثلثى جبيل الباقين ، وكان ريموند الصنجيلى قد منحهم من قبل ثلث جبيل مقابل مساعدتهم له فى غزوها ، وبذلك تصبح جبيل ملكا خالصا للجنوية ، وعين لحكم هذه المدينة أحد أمراء الاسطول الجنوى وهو هيوا مبرياتشو[٢٩٠] كما حصل الجنوية أيضا على ثلثى مدينة طرابلس شملت حيا كاملا فى المدينة وأراضى داخلها وخارجها وقلعة أشتهرت بقلعة « كند اسطبل » الواقعة على بعد عشرة أميال جنوب المدينة وتم تسجيل كل ما حصل عليه الجنوية فى السجلات الرسمية[٢٩١] ، وأشارت

---

= المدينة ، راجع : Albert of Aix, R.H.C., Hist. occ., Vol. p. 668, also Michaud, history of the crusades. Vol. I, p. 288; Besant & Palmer, Jerusalem p.p. 252-253; Grousset, Histoire, To. to. I, p. 358.

ويلاحظ أن شهود العيان مثل فوشيه شارتر وغيره لم يشيروا إلى حادث حريق مكتبة طرابلس ، ربما ليستروا بذلك زلة قومهم .

Fulcher of chartres, the expedition, p. 195.

(٢٨٦) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢١٨ .

(٢٨٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٤ ، ولطالع ما يشبه هذا النص فى ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٢٤ ؛ ابن الفرات : نفس المصدر ، مجلد الرحمة ٣٩ نقلا عن ابن أبى طيىء ؛ النويرى : نهاية الأرب ، مجلد ٢٦ لوحة ٧٩ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، مخطوط ، ج ١٢ قسم ١٣ ، لوحة ٢٨٦ . ولا يشير قسبط لوصول الاسطول إلى صور . أيضا الذهبى : تاريخ الاسلام ، مخطوط ، ج ٢٥ ورقة ١٦ (ظ) ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٩ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٤٢ — ٤٣ .

(٢٨٨) Fulcher of chartres, the expedition, p. 195.

(٢٨٩) William of tyre, deeds, p.p. 479-80.

(٢٩٠) Bouse, the Kingdoms, p. 36.

مصطفى الكنانى : العلاقات بين جنوه والفاطميين بالشرق الأدنى ، ص ١٩٥ .

(٢٩١) Caffaro, R.H.C., Hist. occ., Vol. V, p. 73, Chap. XXVII.

أيضا ستيفن رنسيمان : نفس المرجع ، ج ٢ ص ١١٤ ؛ مصطفى الكنانى : المرجع السابق ، ص ١٥٧ ، كذلك : Conder, the Latin Kingdom of Jerusalem, p. 87, F.I.

المصادر الاسلامية لنفس هذه الامتيازات التى حصل عليها الجنوية بطرابلس[٢٩٢] ، ويضيف المؤرخ المجهول لتاريخ سلاطين المماليك أنه من ضمن إمتيازات الجنوية توزيع الأسرى من سكان المدينة ، فكان نصيب كل مركب جنوى سبعين اسيرا[٢٩٣] ، وهو ما لم يذكره كافارو الجنوى نفسه[٢٩٤] .

أشارت أصابع الإتهام إلى الفاطميين ووزيرهم الأفضل شاهنشاه باعتبارهم المسئولين عن ضياع طرابلس نظرا لاستهتارهم بالموقف هناك ، وموقفهم السلبى أزاء نداءات سكان المدينة[٢٩٥] ، ولو أن دعاة الأفضل وأنصاره هناك لم يتدخلوا لاسقاط فخر الملك ابن عمار لكان من الممكن أن تطول مقاومة المدينة ، ولكن تدخل الوزير الأفضل عجل بالنهاية وذلك لبعد طرابلس عن أيدى الجيوش الفاطمية وقبول الفاطميين لمهمة يعرفون مسبقا عجزهم عن أدائها هو خطأ جسيم ونقطة سوداء فى تاريخهم[٢٩٦] . بجانب الخلاف الذى حدث بين والى المدينة شرف الدولة وسكانها[٢٩٧] ، ففى حين أصر الطرابلسيون على مواصلة القتال ، عاد واليها للاستسلام والهزيمة مما حد به الاتصال سرا بالفرنج وأمّن على نفسه وجنده ومنه علم الفرنج بالخلاف القائم بالمدينة فكان موقف الوالى شرف الدولة مخزيا اذ كان فى إمكانه بث روح المقاومة فى نفوس أهلها واستمرارها[٢٩٨] .

يضاف لذلك المساعدات الفعالة التى قدمها الجنوية وأساطيلهم بقيادة الأخوين امبرياتشو اللذان لعبا دورا كبيرا فى مساندة اللاتين لبناء أبراج الحصار المتحركة[٢٩٩] ، أو بأسطولهم الذى منع الامدادات أو أى عون بحرى يصل طرابلس وأحكام حصارها بحرا[٣٠٠] . وبجانب الجنوية قدم المردة الموارنة بالجبال المحيطة بطرابلس ( مثل جبل سير ، أهدن ، صقع ، بشرى ، جبيل ) العون للفرنج أثناء حصار المدينة ، فأمدوهم بالميرة وساهموا فى قتال مسلمى المدينة[٣٠١] نظر

---

(٢٩٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٣ ؛ مؤرخ مجهول : سلاطين المماليك ، ص ٢٤٨ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٣٨ نقلا عن ابن ابى طيىء

(٢٩٣) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٨ .

(٢٩٤) راجع : Caffaro, R.H.C., Hist. occ. Vol. V, p. 73 Chap. XXVIII.

ويلاحظ أن رواية المؤرخ العمرى عن أسباب فتح الفرنج لطرابلس قد اختلفت تماما عن بقية المصادر الاسلامية راجع العمرى : مسالك الأبصار ، مخطوط دار ، ج ٢٧ مجلد ١ لوحة ٢

(٢٩٥) د. عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ١٢٤ — ١٢٥ ؛ د. عاشور الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٧٦

(٢٩٦) د. عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ١٢٢ .

(٢٩٧) لقد أشار المؤرخ العمرى الى حدوث خلاف بداخل طرابلس ولكن ليس بين سكانها وواليها ولكن بين الطرابلسيين أنفسهم وأنقسامهم الى طائفتين لزعامة المدينة فوقعة الحرب بين الطائفتين ، وخلت الأسوار ، فانتهز الفرنج الفرصة وطلعوا بالسلالم ، وملكوها بالسيف العمرى : مسالك الابصار ، مخطوط دار ، ج ٢٧ مجلد ١ لوحة ٢ .

(٢٩٨) د. عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ١١٩ — ١٢٠ معتمدا على مصادر كابن القلانسى ، يوسف بن كريون اليهودى ، ابو الفداء وغيره .

(٢٩٩) الذهبى : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٢ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٤٣ .

(٣٠٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ١٠ ص ٣٣٣ — ٣٣٤ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، مخطوط دار ، ج ١٢ قسم ١٣ لوحة ٢٦٢ ؛ مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٨

(٣٠١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٧ ، كذلك Grousset, L'épopee croisades, p. 75.

لبراعتهم فى الرمى بالقوس والنشاب ، ولذا سيلعبون دورا أيضا فى إسقاط مدينة بيروت عام ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م(٣٠٢) .

ورغم اعتراف المصادر والمراجع باستبسال فخر الملك بن عمار بالدفاع عن طرابلس منذ عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م حتى خروجه إلى بغداد عام ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م(٣٠٣) ، الا أن ابن عمار يتحمل جزء من مسئولية ضياع طرابلس ، ويشاركه السلاجقة والعباسيون والقوى الاسلامية الاخرى سواء فى دمشق أو حمص وغيرها ، اذ أن خروج ابن عمار فى ذلك الوقت الحرج من الحصار الصليبى إلى طرابلس مستنجدا بالعاهلين العباسى والسلجوقى كان خطأ فادحا دفع ثمنه غاليا ، فرغم علمه بعودة طرابلس إلى حظيرة الفاطميين أثر خروجه منها ، ورغم الهدايا والأموال الضخمة التى قدمها للعاهلين العباسى والسلجوقى لتثلج صدورهم ، وتعهده للسلطان بدفع نفقات الجند السائرين لنجدة طرابلس ، إلا أن وعود السلطان السلجوقى كانت غير مجدية ، فلم يجد ابن عمار الا « السؤال عن حالة وما يعانيه فى مجاهدة الكفار ويقاسيه من ركوب الخطر فى قتالهم » ، فلم يظفر بشىء من التأييد المنشود(٣٠٤) ، وكان عليه أن يدرك أن السلطان السلجوقى والخليفة العباسى أضعف من أن يقدما له العون بحجة انشغال جيش الخلافة بإخماد ثورة جاولى سقاوة بالموصل(٣٠٥) . كما أن أمراء دمشق وحمص وغيرهم يتحملون المسئولية فرغم أن طرابلس وتوابعها كانت بمثابة المنفذ البحرى والميناء الهام لامارتى دمشق وحمص(٣٠٦) إلا أنهم لم يكونوا شديدى التحمس لحماية المدينة وإنقاذها ، ولذلك كانت صرخات ونداءات فخر الملك اليهم دون جدوى .

وقد ألقى المؤرخ أبو المحاسن اللوم على الفاطميين ووزيرهم الأفضل بن أمير الجيوش وأعتبرهم مسئولين تماما عن ضياع طرابلس وندد بعدم أكتراثهم بالفرنج(٣٠٧) وأرجع ذلك إلى عدة عوامل هى :

أولا : استهانة الفاطميين بالموقف فى طرابلس وتقاعسهم عن السير اليهم هذه المدة الطويلة ويشير

---

(٣٠٢) د. عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ١٢٩ ، والحواشى . وهذا يؤكد الدور المشبوه الذى قامت به هذه الجماعات فى بلاد الشام ضد المسلمين .

(٣٠٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٨٥ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ص ٢٢١ ، كذلك : Jean, Richard, Le Comté de tripolis, p. 14.

(٣٠٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٤٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ص ٢٢٣ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٥ ، كذلك : Jean Richard, Le Comté de Tripolis, p. 16.

(٣٠٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣١٧٦ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٣٢ .

(٣٠٦) Jean Richard, Le Comté de Tripolis, p.p. 14-15; Funk, The foundation of the latin states in setton (ed.,) Vol. 1, p. 400.

(٣٠٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٧٩ — ١٨٠

فى الوصول لطرابلس قبل سقوطها فى أيدى الفرنج ، فهو قول مردود عليه ذلك أن مؤيدى هذا الرأى[٣١٤] يؤكدونه بنص المؤرخ ابن الأثير ويشير بوضوح ، بل ويتهم الفاطميين ، بالاستهتار والتلكؤ فى إرسال المؤن وجهل الفاطميين بحالة المدينة السيئة ويذكر « وكان سبب تأخره ( الاسطول ) أنهم فرغوا منه ومن البحث عليه واختلفوا فيه أكثر منه سنة وسار فردته الريح ، فتعذر عليهم الوصول إلى طرابلس ليقضى الله أمرا كان مفعولا[٣١٥] . وهذا يشير إلى أن الإجراءات الخاصة بإرسال الاسطول الذى أعده الأفضل أستغرقت وقتا طويلا وأن نزاعا شب بين قادة الأفضل حول قيادة الأسطول ودام هذا الخلاف ما يقرب من سنة وأن رياحا مضادة للأسطول عرقلت مسيرة لطرابلس وردته الريح فوصل بعد سقوط المدينة فى أيدى اللاتين[٣١٦] .

وهذا النص الذى أنفرد به الأثير دون بقية المصادر الأخرى ، لم تؤيده هذه المصادر ، أو لم يرد فيها ، إذ أن الأفضل منذ إسترجاعه لطرابلس والمدد يأتيها من مصر فى البحر[٣١٧] ، ولم ينقطع عنها ، وعندما وصلت نداءات الطرابلسيين إلى الأفضل مع شدة الحصار الجنوى عليها « فشرع الأفضل لانجادها » ولم يكن قد خرج للمصريين فيما تقدم مثله كثرة رجال ومراكب وعدد وغلال لحماية طرابلس ، وتقويتها بالغلة الكثيرة والرجال والمال لمدة سنة[٣١٩] . وتذكر المصادر الإسلامية[٣٢٠] وعلى رأسها ابن الأثير نفسه[٣٢١] ، فى صراحة ووضوح أن الأسطول الفاطمى قد خرج نحو طرابلس « فردته الريح فتعذر عليهم الوصول الى طرابلس » ، وهذا يفسر تأخره عن نجدة المدينة . وبالرغم من صعوبة ابحار السفن فى هذا الوقت من عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م ، فقد وصل الأسطول الفاطمى إلى طرابلس أثناء الحصارالصليبى لها ، ولكن استمرار هبوب الرياح الشمالية فى هذه المنطقة منع الأسطول من الوصول إليها[٣٢٢] ، ويؤكد ذلك ابن خلدون الذى يذكر أن الأسطول المصرى قد تأخر فى وصوله إلى طرابلس « بسبب ركود البحر » .

---

(٣١٤) د. السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ١٢٤ .

(٣١٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٤ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٤٤ .

(٣١٦) يؤيد هذا الرأى ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١١٣ .

(٣١٧) المكى : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ط . حيدر آباد الدكن ، ١٣٣٨ م ، ج ٣ ص ١٧٣ .

(٣١٨) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٨ . أكد ذلك المقريزى أيضا فى اتعاظ الحنفا، ج ٣ ص ٤٢

(٣١٩) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٤ ؛ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ص ٢٢٤ ، أتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٤٤ .

(٣٢٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٣ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، مخطوط ، ج ١٢ ، قسم ١٣ لوحة ٢٦٢

(٣٢١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٤ .

(٣٢٢) ستيفن رنسيمان : نفس المرجع ، ج ٢ ص ١١٣ . ويبدو أن ملاحة السفن فى تلك المناطق الساحلية لحوض شرق البحر المتوسط وفى المناطق المجهة لسواحل مثل طرابلس كانت تتميز بخطورتها نظرا لوجود رياح عنيفة تهب عليها بشكل دائم وتدينا أمثلة لذلك ، فيذكر ناصر خسرو فى رحلته أنه بعد تركه بيت المقدس متجهاً إلى مصر عن طريق البحر ثم الى مكة ، الرياح فى تلك المناطق كانت من العنف لدرجة أنه تعذر عليه السفر بحرا فأخذ الطريق البرى . راجع ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ٣٧ . ويظهر ذلك أيضا أثناء رحلة حج سايولف الانكلى ومحاولته الرسو بسفنه فى يافا الا أن العواصف العاتية فى تلك المناطق دمرت ما يقرب من ثلاثين سفينة من سفنه وألفى رجل ، راج : Pligrimage of seawulf, in p.p. T.S. Vol. IV, p. 8.

ومن السخرية أن مؤرخنا مثل ابن عبد الظاهر أورد رواية تتضمن سخرية وإتهاما صريحا للفاطميين والأفضل لموقفهم المتخاذل إزاء طرابلس ويقول : « إنه حكى أن السبب فى أخذ طرابلس أنه لما ضايقها الفرنج « كتب من بها إلى الديار المصرية يستنجدون خليفتها ويسألون الميرة وأقاموا ينتظرون ورود الجواب بالمدد والميرة فبينا هم فى ذلك إذا بمركب قد أقبل فما شكوا فيه نجدة فطلع منه رسول وقال : قد بلغ الخليفة أن بطرابلس جارية حسنة الصورة وأنها تصلح للخدمة وقد أمر بإرسالها اليه وأرسلوا اليه من حطب المشمش ما يصنع منه عيدان للملاهى ، منذ ذلك الحين « يأسوا من نصرة وضعفت قواهم وخارت نفوسهم وذلوا وملكها الفرنج فى التاريخ المذكور[٣٢٣] . وهذه الرواية وضح بها عامل الإختلاف ولا تعبر عن الحقيقة كما أنه ليس هناك ما يؤيدها من جانب المصادر الإسلامية المعاصرة أو القريبة من الفترة .

أما بالنسبة للاتهام الخاص بضعف القوة العسكرية التى أرسلها الأفضل من الأسطول الفاطمى[٣٢٤] فليس له ما يبرره ولا يستند إلى أدلة أو أسانيد منطقية. فالمصادر الإسلامية المتقدمة أشارت فى صراحة ووضوح لضخامة الأسطول الفاطمى وما به من ميرة وجند مرسلة ليس فقط لطرابلس ولكن لبقية مدن الساحل الأخرى كصيدا وبيروت لمدة سنة ، وعبر عن ذلك ابن القلانسى وغيره[٣٢٥] .

أما الشق الثالث من إتهام ابو المحاسن الخاص بعدم خروج الأفضل بنفسه لقيادة العسكر المصرية لجهاد الفرنج ، كما كان يفعل والده بدر الجمالى أمير الجيوش[٣٢٦] ، فان الأفضل لم يكن ليستطيع الخروج على رأس الجيوش أو الأساطيل ، كما كان يفعل من قبل فى حياة أبيه أو بعد تولية الوزارة عام ٤٨٧ هـ / ١١٩٤ م وحتى موقعة عسقلان الكبرى فى ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م نظرا للأحوال الداخلية والظروف المحيطة به وهددت مركزه فى الوزارة ، وفساد ما بينه وبين الخليفة الآمر بأحكام الله الذى كان كارها لوصايتها واستبداده بالأمر دونه ، مما جعل الآمر يدبر المؤامرات والدسائس ضده للتخلص منه[٣٢٧] « وكان الخلاف بينهما مستمرا وظهر بمصر لكثير من أهلها وتحدثوا فيه ، فعزم الآمر على أغتياله اذ دخل عليه فى قصره للسلام عليه أو فى أيام

---

(٣٢٣) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٠٣ . أورد ابن الفرات رواية مشابهة لرواية ابن عبد الظاهر . راجعها فى د. عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ١٢٧ . وأخذنا تلك الرواية نقلا عن استاذنا الدكتور عبد العزيز سالم لأن النسخة المخطوطة التى اعتمدنا عليها لابن الفرات لم ترد فيها هذه الرواية وبها نصوص مفقودة . كذلك : Michaud, History of the crusades, Vol.I, p. 287; Besant & palmer Jerusalem p.p. 253.

(٣٢٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٧٩ .

(٣٢٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٥ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ١٢ قسم ١٢ (ب) ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ص ٦٩ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٣٩ آ

(٣٢٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

(٣٢٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٤٥٠ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٥٠ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ١ لوحة ٥٣ ؛ النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، القسم الخاص بمصر فى كتاب المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق د. حسين نصار ، ط. دار الكتب ١٩٧٠ ، ص ٨٥ .

الأعياد[٣٢٨] . كما كان الأفضل مشغولا بحماية نفسه من المؤامرات التي حاكتها ضده طائفة الإسماعيلية ، انصار نزار ابن المستنصر ، وذلك منذ توليه المستعلى ، واقصاء نزار عن الخلافة عام ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م ولهذا كان على غاية من التحرز والتحفظ لاسيما من الطائفة الباطنية والأحتياط منهم بأنواع السلاح ، وأفرد لذلك الضمان والخدم والعبيد والعدد المختلفة والسيوف الماضية[٣٢٩] . كما كان الأسماعيلية المستعلية داخل مصر يكرهونه لأسباب منها « تطبيقه على أمامهم وتركه ما يجب عندهم سلوكه معهم » . ومنها أيضا ترك معارضة أهل السنة فى إعتقادهم والنهى عن معارضتهم وأذنه للناس فى إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها[٣٣٠] . ورغم إنشغال الأفضل بدفع مؤامرات الخليفة الآمر ورجال بلاطه أو محاولات اغتياله من جانب الأسماعيلية النزارية أو المستعلية إلا أن ذلك لم يمنعه من تجهيز الجيوش والأساطيل لجهاد الفرنج وإرسال أكبر قواده عليها ، والعون والميرة والأقوات لمدن الساحل عندما كان ولاتها يستنصرون به من الحصار الصليبي برا وبحرا ، وأتضح ذلك بالنسبة لطرابلس وغيرها .

وقد أحدث سقوط طرابلس دويا هائلا بالشام « فحزن الناس على أهلها وبكوا لمصابها وجلسوا فى الجوامع والمساجد للتعزية ، وفزع أهل الشام قاطبة وأيقنوا بالهلاك وجلى منهم عالم كثير إلى العراق والجزيرة[٣٣١] ، كما أنتشر الذعر والإضطراب فى عدد من المدن الساحلية القريبة من طرابلس والتى كانت مستعصية على الفرنج[٣٣٢] ، مثل جبله ورفنية وغيرها من الحصون التابعة لها . وأنتهز تانكريد النورمندى فرصة ذلك الذعر ، فنزل على ثغر جبله ، وفيه فخر الملك ابن عمار وحاصرها حصارا شديدا حتى دخلها فى الجمعة ٢٢ ذى الحجة ٥٠٢ هـ / ٢٢ يوليو ١١٠٩ م بعد أن قدم لصاحبها الأمان[٣٣٣] . كما نشط برترام من جانبه فزحف إلى بلده رفنيه وحاصرها فخرج طغتكين أتابك دمشق للدفاع عنها ، وفاوضهم حولها ، فأشترطوا لذلك أن يكون لهم ثلث أقليم البقاع وأن يسلم اليهم حصن المنيطرة وحصن عكا ، وأن يقدم أهل مصياف بجانب حصن الأكراد والطوفان ما لا معيناً للفرنج سنويا[٣٣٤] .

---

(٣٢٨) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٠٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٤٦٧ ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، الرباط ص ٢٥ .

(٣٢٩) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر : ٥٧ ، ٦٥ .

(٣٣٠) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٤١٦ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٦٥ ؛ السخاوى : الذيل على رفع الأصر أو بغية العلماء والرواة ، تحقيق جودة هلال ، محمد محمود صبح ، مراجعة على البجاوى ، ط. الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ ، ص ١٥٤ .

(٣٣١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٣٩ .

(٣٣٢) د. عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ١٣٠ .

(٣٣٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٤ ؛ العظيمى : تاريخ العظيمى ص 380 ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨٠ ؛ مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٠ ؛ ابن الفرات المصدر السابق ، مجلد ١ لوحة ٣٩ — ٤٠ .

(٣٣٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٥ ؛ ابن العبرى : مختصر تاريخ الدول ، ط. بيروت ١٨٩٠ ، ص ٣٧٣ ؛ السلامى : مختصر التواريخ ، مخطوط دار ، لوحة ٥٤ (ج) ؛ المقريزى : قطع تاريخية ، مخطوط مكتبة البلدية رقم ٢١٢٥ د. ورقات ٤٧ — ٤٨ .

بسقوط طرابلس فى أيدى الفرنج أصبحت مركزا لإمارة صليبية تولاها بيت تولوز ، شملت المدينة نفسها بجانب عرقة وجبيل وانطرطوس وأتحدت ضمن نطاق مملكة بيت المقدس[٣٣٥] ، ولكن الفرنج كانوا يدركون أنه لا تزال هناك ثغرة خطيرة فى وسط ذلك النطاق اللاتينى أو مملكة بيت المقدس الممتدة بين عكا فى الجزء الشمالى ومدينة جبيل فى الحد الجنوبى حيث يتخللها ما يسمى بجيوب فاطمية هددتها وهددت أملاك الفرنج فى تلك المنطقة وتمثلت هذه الجيوب فى بيروت وصيدا وصور وأيضا عسقلان . والواقع أن الفرنج كانت لا تزال تراودهم فكرة الإستيلاء على بقية هذه المدن الساحلية الفاطمية وذلك فى محاولة للقضاء على ما تبقى من النفوذ الفاطمى نهائيا بالشام . على أن بلدوين قد أدرك أنه من الحماقة أن يفكر فى غزو مدينتى صور أو عسقلان بالذات لمناعتهما وحماية الأسطول الفاطمى لها والذى كان يزودهما بالمؤن والنجدات باستمرار[٣٣٦] . ولهذا فضل بلدوين أن يبدأ بحصار مدينتى بيروت وصيدا ، منتهزا فى ذلك فرصة وجود اساطيل جنوة وبيزا الوافدة بالحجاج إلى بيت المقدس[٣٣٧] .

وقد رأى بلدوين الأول أن يبدأ بمهاجمة ثغر بيروت[٣٣٨] الفاطمى ، بعد أن فشلت محاولاته الأولى لإسقاط مدينة صيدا الفاطمية لقوة دفاع البحرية الفاطمية عنها[٣٣٩] . وكانت مدينة بيروت ضمن المدن التى مر بها الفرنج أثناء مسيرهم إلى بيت المقدس عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م حيث عرض واليها عضد الدولة على الفرنج الهدايا والأموال الكثيرة[٣٤٠] ، مقابل تعهد صليبى بعدم الأعتداء على البساتين ومزارع الكروم والغلال المملوكة للعرب وسكان المدينة[٣٤١] .

وكانت أول محاولة قام بها الفرنج لحصار بيروت فى عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م إلا أنها باءت بالفشل وعبرت عن ذلك الروايات الإسلامية بقولها : « وحصرها ( بلدوين ) وضايقها وأطال المقام عليها فلم ير فيها مطمعا فرحل عنها[٣٤٢] . ويبدو أن فشل محاولة الفرنج الأولى تلك ترجع إلى أفتقارهم لأسطول بحرى وقوة مقاومة سكانها وحاميتها . على أن بلدوين قد أنتهز فرصة قضاء بعض

---

(٣٣٥) William of tyre, deeds, Vol. I. p. 481.
ماركو : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٥٦ ــ ٥٧ ، كذلك : Mayer, the crusades, p. 74; Stevenson, the crusaders in the East, p. 58.

(٣٣٦) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٤٨ .

(٣٣٧) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 484.

(٣٣٨) عن بيروت وموقعها الجغرافى راجع ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٤ ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ١ ص ٧٨٥ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١١٠ ــ ١١١ ؛ القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول ، ط. حجر بغداد ١٢٨٢ هـ ، ص ٤٢٢ ، كذلك : William of tyre, deeds, Vol. I, p. 494, FF.

(٣٣٩) Fulcher of chartres, the expedition, p. 196, William of tyre, deeds, Vol. I, p. 485. Cf. also stevenson, the crusaders in the East, p. 59.

(٣٤٠) جورجى ينى : تاريخ سوريا ، ط. بيروت ١٨٨١ ، ص ٤٣٧ .

(٣٤١) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 331.

(٣٤٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٧ ؛ العينى : عقد الجمان ، مخطوط دار ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٥١٩ .

السفن الجنوية والبيزية الشتاء بالشام فى رجب ٥٠٣ هـ / فبراير ١١١٠ م ، فقرر حصار بيروت هذه المرة ، كما تطوع برترام بمساعدته ردا للجميل الذى قدمه بلدوين له فى حصار واسقاط طرابلس فى ذى الحجة ٥٠٢ هـ / يوليو ١١٠٩ م وقد رافق برترام عدد من السفن البروفنسية[٣٤٣] ، وأنضم اليه أيضا جوسلين كورتناى صاحب تل باشر[٣٤٤] ، وأحكموا عليها الحصار برا وبحرا ، وشرع الفرنج فى « عمل البرج ونصبه على سور بيروت تمهيدا لاقتحامها »[٣٤٥] ، إلا أن الحامية الفاطمية قاومت فى شدة وأستبسل أهل بيروت فى الدفاع عنها ، ونجحوا فى تحطيم البرج الذى أقامه الصليبيون على أسوار المدينة[٣٤٦] .

على أن الأفضل الذى لقى درسا قاسيا منذ سقوط طرابلس ولخوفه على ما بقى له من النفوذ بالمدن الساحلية الشامية ، بادر على الفور ، اثر وصول الاخبار بحصار بيروت ، بارسال قسم من الأساطيل الفاطمية لانجادها والدفاع عنها ، فجهز تسعة عشر مركبا حربية مزودة بالميرة والسلاح والرجال[٣٤٧] ، ويبدو أنه جمعها من موانىء صيدا وصور ، ووصلت تلك السفن سالمة إلى بيروت ، وأقتحمت الحصار الفرنجى البحرى للأساطيل البروفنسية والبيزية المشتركة فى جرأة وأستطاعت أن تنزل هزيمة قاسية بالأساطيل الفرنجية وتستولى على بعضها[٣٤٨] ، وأفرغت الأساطيل الفاطمية ما تحمله من الأقوات والسلاح فقويت نفوس أهل بيروت وأشتدت عزائمهم فى المقاومة وأشارت المصادر الفرنجية لدور الاسطول الفاطمى فى نجدة المدينة المحاصرة[٣٤٩] ، بل أن المؤرخ الصليبى وليم الصورى اعترف بشجاعة السفن الفاطمية بمن عليها من جند مقاتلة فى نجدتها للمدينة والدفاع عنها[٣٥٠] .

وأمام هذا الموقف الحرج أضطر بلدوين للاستنجاد بالجنوية الذين كان أسطولهم راسياً فى ميناء السويدية ، « فقدم من سفنهم حوالى أربعون سفينة مشحونة بالمقاتلة »[٣٥١] ، ولم يكتف بلدوين

---

(٣٤٣) Fulcher of chartres, the expedition, p. 196; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 485; Cf. also Stevenson, the crusaders in East p. 59 .

(٣٤٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٧ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، مخطوط دار ، ج ١٢ قسم ١٣ لوحة ٢٦٤ ؛ العينى : عقد الجمان ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٦٤٦ .

(٣٤٥) ابن القلانسى : نفس المصدر ، ص ١٦٧

(٣٤٦) ابن القلانسى : نفس المصدر ، ص ١٦٨ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٤٥ .

(٣٤٧) ابن القلانسى : نفس المصدر ، ص ١٦٨ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٤٥ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، لوحة ٢٦٤ (ب) .

(٣٤٨) ابن القلانسى : نفس المصدر ، ص ١٦٨ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ١٢ قسم ١٣ لوحة ٢٦٤ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ١ لوحة ٤٧ ( أ ـــ ب ) ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٤٥ .

(٣٤٩) Fulcher of chartres, the expedition, p. 196; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 485.

(٣٥٠) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 485.

وانا نرجح أن هذه المراكب الفاطمية جزء من ذلك الأسطول الفاطمى الضخم الذى كان قد خرج أصلا لنجدة طرابلس ووصل بعد فوات الأوان ، فتفرق أحماله ومراكبه على الجهات المجاورة لها مثل صيدا وصور وبيروت ، وكان نصيب بيروت هذه المراكب . راجع النويرى : نهاية الأرب ، مجلد ٢٦ لوحة ٧٩ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨٠ .

(٣٥١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٨ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ١٢ قسم ١٣ لوحة ٢٦٤ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٤٧ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٤٥ .

بذلك بل استنجد أيضا بأمراء المردة المقيمين بالمناطق المجاورة لمساعدته فى حصارها[٣٥٢] . وسرعان ما ضيق الجنوية حصارهم البحرى للمدينة لدرجة أنهم منعوا الأسطول الفاطمى من التحرك بحرية داخل الميناء أو القيام باختراق حصارهم البحرى[٣٥٣] ، وبفضل أشجار الصنوبر بالغابات المجاورة للمدينة ، تمكن الجنوية من صنع عدة أبراج خشبية متحركة ، وآلات المجانيق اللازمة لدك الأسوار وآلات الحصار الأخرى ، التى أمطرت سكان المدينة بوابل من قذائف الأحجار المدمرة[٣٥٤] ، وقام الفرنج بشن هجوم عنيف فى يوم الجمعة ٢١ شوال ٥٠٣ هـ / ١٣ مايو ١١١٠ م ، بمساعدة الأبراج الخشبية المتحركة[٣٥٥] ، إلا أن أهل المدينة تفانوا فى الدفاع عنها وعلى رأسهم الوالى شجاع الدولة[٣٥٦] . كما قاتل الأسطول الفاطمى الأساطيل الجنوية والبروفنسية البيزية المتحالفة فى بسالة منقطعة النظير ، وأستشهد فى تلك المعركة البحرية مقدم الأسطول الفاطمى وعدد كبير من البحارة وشهد ابن القلانسى بضراوة المقاومة الاسلامية « ولم ير الفرنج فيما تقدم وتأخر أشد من حرب هذا اليوم[٣٥٧] .

ولكن ضخامة الحشود الفرنجية وشدة الحصار على أهل البلد وعنف الهجوم الفرنجى ، جعل اليأس يدب فى نفوس سكان بيروت ، فاضطر واليها إلى التسليم للفرنج بعد أن حصل منهم على الأمان[٣٥٨] ، فى حين تذكر بعض الروايات أن والى المدينة سارع بالفرار ليلا فى أحدى السفن إلى قبرص بعد أن يأس من وصول النجدات الفاطمية[٣٥٩] . وما كاد الجنوية والبيازية يشقون طريقهم داخل المدينة حتى أحدثوا بها مذبحة مروعة « فدخلوها قهرا بالسيف فقتلوا ونهبوا وسبوا وفعلوا بها كما فعلوا بأهل طرابلس وصادروا الأموال والذخائر[٣٦٠] . وتشير المصادر الاسلامية أن والى المدينة الفاطمى شجاع الدولة لم يفر إلى قبرص ، كما أدعت بذلك بعض المصادر المسيحية[٣٦١] ،

---

(٣٥٢) د. عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ١٣٩ ؛ جورجى بنى : تاريخ سوريا ، ص ١٣٨

(٣٥٣) William of tyre, deeds, Vol. I. p. 485.

(٣٥٤) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 485; Cf. also stevenson, the crusaders in the East p. 59.

(٣٥٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٨ . ويذكر أن عددهم كان برجين فقط ويؤيده ابن الفرات : المصدر السابق ، مجلد ١ لوحة ٤٧ (ب) .

(٣٥٦) د. عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ١٣١ .

(٣٥٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٨ ؛ المقريزى اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٥٥ .

(٣٥٨) Fulcher of chartres, the expedition, p. 196.

(٣٥٩) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٤٦ . كذلك : Albert of Aix, R.H.C., occ. Vol. IV, p. 670

(٣٦٠) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، لوحة ٦٤ (ب) . ويشير ألبرت داكس أن عدد من قتل من سكان المدينة كان عشرين الفا بعد استسلامهم بشروط . ولكن رواية ألبرت هنا بعيدة عن الصواب فقط خلط بين المذبحة فى بيروت ومذبحة طرابلس .
Albert of Aix, R.H.C. Hist., occ. Vol. IV, p. 671. Chap. XI, XVII.
كما أن ابن القلانسى وفوشيه شارتر لم يشيرا الى الاستسلام للفرنج بشروط . راجع مناقشة ستيفنسون لذلك فى : Stevenson, the crusadersIn the East, p. 59 FF. عن المذبحة راجع أيضا صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ترجمة الأب لويس شيخو ، ط. بيروت ١٩٢٧ ، ص ١٨

(٣٦١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٤٦ ، Albert of Aix, op. cit, Vol. IV, p. 670. FF.

وأنساقت وراءها الأبحاث الحديثة[٣٦٢] ، بل أنه أستشهد ضمن شهداء مدينة بيروت في الملحمة[٣٦٣] . وقد أعترفت المصادر الفرنجية التي لدينا بمذبحة الجنوية واللاتين في بيروت وأن بلدوين نجح في إيقاف المذبحة بصعوبة بالغة[٣٦٤] .

وعندما وصلت الأنباء بحرج موقف بيروت والأسطول الفاطمي المدافع ، خاصة بعد تدخل الأسطول الجنوى ، إلى الوزير الأفضل شاهنشاه بادر بارسال نجده برية لتقوية الدفاع عن المدينة ، ويبدو أن هذه النجدة أرسلت من عسقلان ، فتذكر الروايات الإسلامية أنه حدث أن « وصلت قوة فاطمية لنجدة بيروت من ثلثمائة فارس ، إلا أن اللاتين هزموها إلى الجبال فهلك منهم جماعة[٣٦٥] . وبذلك فشلت تلك النجدة البرية في انقاذ المدينة التي سقطت في أيدى الفرنج بعد حصار ثلاثة أشهر وذلك في يوم الجمعة ٢١ شوال ٥٠٣ هـ/ ١٣ مايو ١١١٠ م[٣٦٦] .

وبذلك أجتمعت عوامل على ضياع مدينة بيروت الفاطمية وإخفاق جهود الأفضل المتواصلة لأنقاذها وأولها تلك المساعدات الكبيرة التي قدمتها سفن الأسطول الجنوى والبروفنسى والبيزى والتي أحكمت حصار المدينة وحالت دون وصول النجدات الفاطمية لها ومنها الأسطول الذى أرسله الأفضل للدفاع عنها . ورغم جهود الأسطول الفاطمي وصموده في تلك المعركة البحرية مع الأساطيل الفرنجية المشتركة واستشهاد قائد الأسطول ، إلا أن المدينة تحدد مصيرها أمام ضخامة الحشود الفرنجية في البر والبحر ، فانهزم الفاطميون ودخل الفرنج المدينة قهرا .

ونضيف لتلك العوامل ما قام به الردة الموارنة وأمراؤهم من تقديم العون للفرنج في مهاجمة وحصار بيروت ، كما فعلوا من قبل بطرابلس[٣٦٧] . حقيقة أن الأفضل قد ألحق نجدته البحرية الكبيرة بنجدة برية من ثلثمائة وراجل ، إلا أن هذه القوة الصغيرة لم تحدث أثرا أمام جموع الفرنج ، فلقت الهزيمة وفر أغلبها إلى الجبال[٣٦٨] ، كما يجب أن نشيد بقوة دفاع أهل بيروت أمام الحصار الصليبي القوى وقوة مقاومة والى المدينة شجاع الدولة[٣٦٩] ، وهى المقاومة التي أثارت أعجاب المصادر الإسلامية والفرنجية وأشادت بها في رواياتها[٣٧٠] .

---

(٣٦٢) مصطفى الكناني : العلاقات بين جنوة والفاطميين ، ص ١٦٠ .

(٣٦٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٨ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد لوحة ٤٧ (ب) .
Fulcher of chartres, the expedition, p. 169;

(٣٦٤) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 486, p. Cf. also Besant & Palmer, Jerusalem p. 253.

(٣٦٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٨ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٤٥ .

(٣٦٦) ابن القلانسي : نفس المصدر ، ص ١٦٨ ؛ مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤١ ؛ Fulcher of chartres, the expedition, p. 196; William of tyre, Vol. I, p. 486. Cf. also Besant & Palmer, p. 253.

(٣٦٧) د. عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ١٣١ ؛ جورجى ينى : سوريا ، ص ٤٣٨ .

(٣٦٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٨ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٤٥ .

(٣٦٩) جورجى ينى : تاريخ سوريا ، ص ٤٣٨ .

(٣٧٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٨ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٤٧ (أ) ؛ كذلك . William of tyre, deeds, Vol. I, p. 485

لم يتخل الصليبيون على الإطلاق عن فكرة غزو بقية مدن الساحل الفاطمى والعمل على توسيع حدود مملكتهم ، والقضاء تماما على بقايا النفوذ الفاطمى الذى لا يزال يهددهم عن طريق بقايا موانىء الساحل المتمركزة فى شرق البحر المتوسط ونقصد بها صور وصيدا وعسقلان . وقد أدرك بلدوين أنه من الحماقة مهاجمة عسقلان وصور دون إسقاط صيدا خاصة وأن صور وعسقلان كانتا من الحصون المنيعة التى تتجدد بها الحاميات العسكر الفاطمية ، بجانب كونهما قواعد بحرية للاسطول الفاطمى ويقتضى إخضاعهما اهتماما قويا بالإعداد العسكرى(٣٧١) ، ولقد قام الفرنج بعدة محاولات لحصار مدينة صيدا(٣٧٢) ، إلا إنها أخفقت بسبب قوة دفاع الحامية الفاطمية عنها ، وأستبسال الأسطول الفاطمى الذى دافع بقوة عن المدينة . وكانت محاولة الفرنج الأولى فى ربيع عام ٥٠٠ هـ / أكتوبر ١١٠٦ م عندما أستغل بلدوين الأول ، ملك بيت المقدس الصليبى ، فرصة وصول أسطول إنجليزى ضخم يحمل عددا كبيرا من الحجاج الإنجليز والفلمنكيين والدانمركيين للأراضى المقدسة ، فطلب مساعدتهم فى حصار صيدا إلا أن والى المدينة ، أثر علمه بأمر الحملة الصليبية الوشيكة ضد المدينة بادر بارسال مبلغ ضخم من المال إلى الملك بلدوين ثمنا لمسالمته وبسبب حاجة بلدوين الماسة للمال لم يسعه إلا أن يقبل مقابل أن يكف يده عن صيدا مدة عامين(٣٧٣) ، وبذلك فشلت المحاولة الأولى لحصار صيدا قبل أن تبدأ فعلا لدهاء ومرونة والى المدينة .

ولم يتخل بلدوين عن فكرة غزو مدينة صيدا الفاطمية ، وأنتهز كل فرصة لاسقاطها ، فقام بمحاولة ثانية فى عام ٥٠١ هـ / وأستغل فرصة وصول أسطول إيطالى ضخم معظمه من السفن الجنوية للاستيلاء على صيدا ، وشرع فعلا فى حصارها برا وبحرا والتضييق عليها فى محرم ٥٠١ هـ / أغسطس ١١٠٨ م . وقام الجنوية ، كعادتهم ، بمساعدته فى بناء الأبراج الخشبية المتحركة لتثبيتها على أسوار المدينة تمهيدا لإسقاطها(٣٧٤) .

---

= وبعد سقوط بيروت قررت سفن الجنوية مغادرة الأراضى المقدسة والعودة لجنوة حاملة معها الغنائم والاسلاب ، وما حصلت عليه من بيروت مقابل مساعدتهم للاتين . راجع : Besant & Palmer, Jerusalem, p. 253; Michaud, History of the crusades Vol. I, p. 288.

(٣٧١) سطبن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٤٨ .

(٣٧٢) للاستزادة عن مدينة صيدا وموقعها الجغرافى راجع ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٤ ـ ١٥ ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ط. أوروبا ج ٣ ص ٤٤١ . ويذكر القرمانى أن صيدا اسماً لموضعين : أولهما بلدة على الساحل الشامى ، والثانى قرية بحوران من أعمال دمشق . القرمانى : أخبار الدول ، ص ٤٥٩ . تسميها المصادر الصليبية ساجيتا Sagettan . راجع : Fulcher of chartres, the expedition p. 199; William of tyre, deeds, Vol. I, p.p. 455; 487.
انظر أيضا د. عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة صيدا ، المقدمة ؛ جورجى بنى : تاريخ سوريا ، ص ٤٧٩ ، ٤٨٩ .

(٣٧٣) Albert of Aix, R.H.C., Vol. IV, p.p. 632-633.
كذلك رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٤٨ . ويلاحظ أن هذه المحاولة الصليبية لمهاجمة صيدا لم تشر اليها المصادر الاسلامية ولهذا اعتمدنا على رواية البرت فاكس .

(٣٧٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٢ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ١ ، المقريزى : اتعاظ ، ج ٣ ص ٤٣ .

ويبدو أن العمليات الفرنجية الأولى لحصار المدينة أصابت بعض النجاح فاضطر والي المدينة لأن يرسل استغاثات إلى طغتكين أتابك دمشق لامداده بقوة تساعده على دفع الفرنج ، وأستنجد أيضا بالملك رضوان صاحب حلب[٣٧٥] . وأستجاب طغتكين لهذا النداء والي صيدا الفاطمي فأرسل له نجده كبيرة قدرها المؤرخون بحوالى خمسة عشر ألف مقاتل[٣٧٦] . كما أرسل والي المدينة أيضا يستنجد بالأفضل بن بدر الجمالي طالبا قوة بحرية للدفاع عن المدينة وعبر عن ذلك ابن الفرات بقوله : « لما ضاق الأمر على أهلها كتبوا كتابا إلى الديار المصرية والبلاد الشامية بإرسال النجدة وأعجال المساعدة »[٣٧٧] . ولم يتردد الأفضل فسارع بإعداد أسطول كبير ، وأنفق عليه أموالا ضخمة وكان يتكون من خمسين شينيا[٣٧٨] أرسله للدفاع عن المدينة وإنجادها « وأسرع بإرسال ذلك الأسطول الضخم وكان به جماعة من بحرية الشام الذين فروا من مدن الساحل التي سقطت بيد الفرنج ، فأمر صاحب الديار المصرية بتسيير الأسطول اليهم ، فأرسلوه وجهزت حوائجه وصار في أقرب وقت .

ووأستطاعت هذه النجدة البحرية الفاطمية أن تقلب ميزان الأمور لصالح الفاطميين في صيدا ففي المعركة البحرية الكبرى التي نشبت بين الأسطول الفاطمي وأساطيل إيطاليا المتحالفة وعلى رأسها أسطول جنوه خارج ميناء صيدا أستطاعت السفن الفاطمية أن تنزل هزيمة قاسية بمراكب الفرنج وعسكر الصليبيين ، وتحدث المؤرخ ابن الفرات عن البطولات التي أظهرها رجال الأسطول الفاطمي بالمعركة البحرية فيذكر : « أن واحدا من بحرية الأسطول الفاطمي ويدعى ثابت بن أحمد الشامي ، وكان من شجعان البحر أستطاع أن يدمر وحده عشرين مركبا من مراكب الفرنج وأحتوى على ما كان عليها وأرسل ما بها إلى مصر ، وعادت الفرنج إلى الساحل خاسرة[٣٧٩] . وبلغ من قسوة هزيمة الفرنج في تلك الموقعة أن أضطر بلدوين للانسحاب بقواته البالية أسطوله عائدا إلى بيت المقدس .

---

(٣٧٥) ابن الفرات : المصدر السابق ، مجلد ١ لوحة ٣٧ ، رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ص ١٤٩ .

(٣٧٦) د. عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٠٩ يعتمد على مصدر . ويذكر رنسيمان أن أهل بيروت وعدوا طغتكين أتابك دمشق بدفع ثلاثين ألف دينار له في حالة نجدته لهم . راجع رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٤٩ .

(٣٧٧) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٣٦ .

(٣٧٨) شينيا : أوشينيه أو شونه وجمعها شواني . وكانت من أهم قطع الأسطول الفاطمي وكانت تعرف أيضا بالأغربه أو الغربان ( جمع غراب ) لأنها كانت تطلى بالقار ، وكانت لها قلوع بيضاء فهي تشبه لذلك الغربان . راجع ابن مماتي : قوانين الدواوين ، تحقيق د. عزيز سوريال عطية . القاهرة ١٩٤٣ . ص ٣٤٠ ، كذلك د. عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ص ١٣٢ ، د. عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، ط. القاهرة ١٩٥٣ ، ج ١ ، ص ٢٢٤ . والشيني مركب طويل يجدف بمائة وأربعون مجداف ويحمل المقاتلين والجنادين وكان مزودا بأبراج وقلاع تستخدم في الدفاع والهجوم . محمد ياسين الحموي : تاريخ الأسطول العربي ، دمشق ١٩٤٥ ، ص ٣٢ ، درويش النخيلي : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، ط. اسكندرية ، ص ١٢١

(٣٧٩) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٣٦ (أ) ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٤٣ .

ويبدو أن هذا الأنتصار البحرى الفاطمى على مراكب الجنوية والبنادقة كان كبيرا بحيث احتفلت به الخلافة الفاطمية « احتفالا مشهودا وذلك باستعراض أساليب المعركة البحرية فى شوارع القاهرة . وكان وصول النهاب إلى مصر يوما مشهودا واحتفل صاحب الديار المصرية بالأسطول[٣٨٠] . فى الوقت الذى ظل فيه الأسطول الفاطمى يقوم بواجبه للدفاع عن صيدا ، ويصف ابن الفرات فى روايته استبسال الأسطول الفاطمى فى الدفاع عن المدينة ، ويفيد أن مراكب الجنوية حاولت أن تعيد الكرة على الأسطول الفاطمى للثأر من هزيمتها السابقة ، إلا أن الأسطول الفاطمى هزمها للمرة الثانية فاضطرت للانسحاب . وظلت السفن الفاطمية قابعة فى ميناء صيدا حتى أتصل بها وصول العسكر الدمشقى ليعاون فى حماية صيدا والذب عنها ، فتحرك الأسطول المصرى عائدا إلى قواعده بمصر[٣٨١] . ويلاحظ أنه فى الوقت الذى استجاب فيه طغتكين لنداء الصيدونيين ، وقف فخر الملوك رضوان صاحب حلب من أستغاثتهم موقفا سلبيا وتقاعس عن الإستجابة لندائهم ولم يرسل نجدة للدفاع عنها[٣٨٢] .

وتذكر المراجع الحديثة أنه على أثر إنسحاب بلدوين بقواته أنسحب الأسطول الفاطمى ، ورفض أهل المدينة السماح لقوات طغتكين دخولها لارتيابهم فى نواياه . كما أمتنع والى المدينة أيضا عن دفع الأموال التى وعدوا بها طغتكين فهدد الأخير باستدعاء الفرنج لمعاودة حصار المدينة[٣٨٣] . ومن الصعب تقبل مثل هذه الرواية خاصة وأن المصادر الإسلامية أو الفرنجية المعاصرة لم تشر لمثل هذا الأمر .

وبذلك فشلت محاولة الفرنج الثانية لغزو صيدا بفضل مناعة قلعة المدينة[٣٨٤] ، وقوة دفاع سكانها ، بجانب صمود الأسطول الفاطمى أمام أساطيل الفرنجة المتحالفة وإنزاله بها هزيمة ساحقة اضطروا على أثرها للانسحاب بعد أن منيت بخسائر كبيرة وأحترقت وغرقت منها سفن كثيرة[٣٨٥] . ولا ننسى الإشادة بدور النجدة الدمشقية التى أنفذها طغتكين[٣٨٦] ، ويلاحظ أنه

---

(٣٨٠) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٣٧ (ب) .

(٣٨١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٢ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٦ ؛ ابن الفرات : نفس المصدر ، مجلد ١ لوحة ١ ، Albert of Aix, R.H.C., hist. occ., Vol. IV, p.p. 654-655.
وأكد ذلك المقريزى ايضا المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٤٣

(٣٨٢) ابن الفرات : المصدر السابق ، مجلد ١ لوحة ٣٧ . ويذكر ابن الفرات أنه لما بلغ طغتكين أتابك دمشق انتصار الأسطول الفاطمى على أساطيل جنوه والبندقية ، شجع ورحل من دمشق إلى صيدا لنجدتها . ويبدو أن خروج طغتكين لنجدة المدينة هى التى أجبرت بلدوين على الانسحاب من أمام المدينة خوفه من قيام طغتكين بمهاجمته من الخلف ابن الفرات : نفس المصدر واللوحة .

(٣٨٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٤٩ ؛ د. عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٠٩ — ٣١٠ والحواشى ، وهناك اشارة للذهبى تشيد بالدور الذى قامت به النجدة الدمشقية لنجدة صيدا حول الذهبى : دول الاسلام ، ٢ ص ٢٢ .

(٣٨٤) ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٤ .

(٣٨٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٣٧ .

(٣٨٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧١ .

للمرة الثانية تتحد الجهود الفاطمية الدمشقية ضد الفرنج فسارع طغتكين لنجدة مسلمى الساحل ، وسيظهر دور الدماشقة بشكل أكثر وضوحا وتحالفهم مع الفواطم فيما بعد أثناء حصار الفرنج أو فى العمليات العسكرية المشتركة التى أعقبت غارة بلدوين على مصر عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م وتوليه بلدوين الثانى عرش مملكة بيت المقدس اللاتينية .

وبعد نجاح بلدوين فى إسقاط مدينة بيروت حاول أن يعقب ذلك بانتزاع صيدا ، رغم رحيل الأسطول الجنوى من الأراضى المقدسة ، فقام بمحاولته الثالثة عام ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م ، إلا أن إفتقار بلدوين للعون البحرى ومجيء الأنباء عن إقلاع اسطول مصرى نحو صور ، قاعدته الرئيسية فى شمال الشام ليقيم هناك للدفاع عن صيدا[٣٨٧] ، واستبسال حامية المدينة ، أضطر الفرنج لفك حصارهم ، بعد أن تلقى بلدوين حوالى ستة آلاف دينار تحمل إليه مقاطعة ، مقابل إنسحابه فرحل عنها لبيت المقدس للحج . وبذلك فشلت محاولة الصليبيين الثالثة لحصار صيدا نتيجة للعوامل السابقة .

شاءت الظروف أن تخدم الصليبيين ، ففى صيف عام ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م وصل إلى ميناء عكا الصليبى اسطول من الحجاج النرويجيين يقدر عددهم بحوالى عشرة آلاف حاج تحت قيادة سيجورد جمر وسلافا يرملك النرويج الشاب ( ١١٠٣ ــ ١١٣٠ م )[٣٨٨] «Sigurd jeroslafrer of Norway» ، بجميهم أسطول تقدره المصادر الإسلامية بحوالى ستين سفينة مشحونة بالرجال والذخائر بقصد الحج والغزو فى بلاد المسلمين[٣٨٩] . وكان هذا الأسطول قد خرج من ميناء برجن بالنرويج بقيادة سيجورد هذا مجتازاً بحر الشمال ( القنال الإنجليزى ) فى عام

---

(٣٨٧) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ١٦٨ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٤٦ ، العينى : عقد الجمان ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٦٤٦ . وهناك من يرى أن بلدوين اضطر لفك حصار صيدا ، بعد أن وصله استغاثة قريبة بلدوين ليبرج أمير الرها لمعاونته ضد الجيش السلجوقى المتحد بقيادة شرف الدين مودود اتابك الموصل ونجم الدين ايلغازى بن ارتق ، والذى قام بحصار الرها لاسقاطها فهرع بلدوين لنجدته . راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٩ ــ ١٧٠ . كذلك : Albert of Aix, R.H.C, Hist. occ. Vol. IV, p. 671, Mathieu of Edessa, R.H.C., Hist. occ. Doc. Arm. Vol. I, p.p. 91-92.

ويذكر متى الرهاوى أن هذه الاستغاثة وصلت بلدوين اثناء حصاره لبيروت وليس لصيدا .

Besant & Palmer, Jerusalem, p. 253; Cox, S.J. The crusades, 8 th ed., London 1889, p. 82; Michaud, History of the crusades, Vol. I, p. 258, Funk, H. op. cit., in setton (ed.,) Vol. I, p. 286.

ويلاحظ أن سيجورد النرويجى كان أول ملك أوروبى متوج يقدم لزيارة مملكة بيت المقدس اللاتينية .

(٣٨٨) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٦ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٦ ، العينى : عقد الجمان ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٦٥٠ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد لوحة ٤٦ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، مجلد ٢٦ لوحة ٧٩ . ويذكر فوشيه شارتر أن عدد السفن النرويجية كانت خمسا وخمسين سفينة . راجع : Fulcher of chartres, the expidition, p. 199, William of tyre, p. 486.

(٣٨٩) باركر : الحروب الصليبية ، ص ٥٢ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٥٠ ، كذلك : Ryan, F.R. (ed.,): A history of the expedition, p. 196 FF. Babcock & Krey (ed.,) A history of deeds, Vol. I, p. 486 F 55. Funk, op. cit. Vol. I, p. 386; Conder, the Latin Kingdom, p. 90.

٥٠١ هـ / ١١٠٧ م ، وظل حوالى ثلاثة سنوات متجولاً على الطريقة النورمندية فزار فى طريقه انجلترا وقشتاله ، والبرتغال وجزر البليار ، ويرجح أنه ساهم فى حرب مسلمى الأندلس ومر بجزيرة كالبريا ( صقلية )[٢٩٠] . حتى وصل فلسطين . ويذكر المؤرخ ألبرت أوف أكس أن هذه السفن النرويجية أثناء ذهابها إلى يافا ومرورها بمدن الساحل الشامى ، رست فى ميناء عسقلان الفاطمى معتقدة أنه فى أيدى الفرنج ولكنهم فوجئوا بوجود تحت سيادة الفاطميين فأبحروا فى سرعة نحو يافا[٢٩١] ومنها اتجهوا إلى عكا ، فرحب بلدوين وصحبهم بنفسه إلى القدس . وكعادة بلدوين رأى أن يستغل تلك القوة الجديدة لتحقيق مكاسب جديدة لمملكة اللاتين ، ورحب سيجورد النرويجى وقواده ببذل المساعدة للفرنج ، وحصار أية مدينة من مدن الساحل وعلى رأسها صيدا التى فشل بلدوين مرارا فى إسقاطها بدون أية شروط أو حصولهم على أية أمتيازات فى تلك المدن بإستثناء المؤن والإمدادات لاسطولهم .

لقد بدأ الحلفاء الفرنج والنرويج فى حصار صيدا برا وبحرا فى ٣ ربيع الآخر ٥٠٤ هـ / أكتوبر ١١١١ م ، ونصب الفرنج برجا متحركا زحفوا به على المدينة وألبسوه « حطب الكروم وجلود البقر الطرية لتمنع من الحجارة والنفط وكانوا أذا أحكموه على هذه الصورة نقلوه على بكر ترتكب تحته فى عدة أيام مستغرقة ، فاذا كان يوم الحرب قرب من السور وزحفوا به وفيه الماء والخل لطفى النار وآلة الحرب[٢٩٢] . ولكن حامية المدينة قاومت فى قوة معتمدة على قوة ومناعة قلعة المدينة ووجود الأسطول الفاطمى فى قاعدته بصور ، بل أن السفن النرويجية كادت أن تلقى هزيمة ساحقة على يد ذلك الأسطول الفاطمى القوى الذى قدم من صور وتنذاك[٢٩٣] الدفاع عن المدينة إلا أنه لم ينقذ الموقف إلا مجيء أسطول بندق كبير تحت قيادة دوج البندقية أورديلافوفاليرى «Ordelafo Valerii Doge of Venice» ، الذى شارك فى حصار صيدا ومهاجمتها بحرا[٢٩٤] ، والواقع أن وفود هذه النجدة البحرية قد أنزلت الرعب بمقدم الأسطول الفاطمى الذى رأى فى مهاجمة هذا الأسطول

---

(٢٩٠) Albert of Aix, R.H.C., Hist. occ. Vol. p. 675.

(٢٩١) Fulcher of chartres, the expedition, p.p. 199-200; William of tyre, deeds, p. 486.

وأشارت المصادر الاسلامية لموافقة فرنج النرويج على مطالب بلدوين لحصار صيدا . راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧١ ؛ ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٣٦ ؛ العينى : عقد الجمان ج ١ قسم ٣ لوحة ٦٥٠ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، مجلد ٢٦ لوحة ٧٩ . وتذكر بعض المراجع الفرنجية ان النرويجيين لم يطلبوا من اللاتين سوى منحهم قطعة من خشب الصليب المقدس ، ووقعت معاهدة بهذا المعنى بين الجانبين . راجع مكسيموس مونروند : تاريخ الحروب المقدسة ، ط. أورشليم ١٨٦٥ ، ج ١ ص ٢٤ ، كذلك : Conder, the Latin Kingdom, p. 90; Besant & Palmer, Jerusalem,p. 253; Michaud, History the crusades, Vol. I. p. 289; Stevenson, the crusaders in the East, p. 59.

(٢٩٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٣٦ ؛ العينى : عقد الجمان ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٦٥٠ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٤٦ — ٤٧ .

(٢٩٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٥٠ .

(٢٩٤) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ص ١٥٦ ، كذلك : Heyd, Commerce, to. I, p. 142. Stevenson, the crusaders in the East, p. 59.

البندق النرويجي الضخم مغامرة غير مأمونة العواقب قد تنتهي بكارثة تنزل بأسطوله الصغير وهذا فضل الأنسحاب والبقاء في صور ، كما أن محاولة الأسطول الفاطمي اختراق الحصار الصليبي لتوصيل المؤن والإمدادات ، للمدينة كان بمثابة انتحار ينتهي بفناء الأسطول « فلم يتمكن من إنجاد صيدا »[395] والحقيقة أن عدم وصول النجدات والمساعدات اللازمة من الأسطول الفاطمي المقيم بصور ، في الوقت الذي ضيق فيه الفرنج من حصارهم للمدينة أدت إلى يأس أهل المدينة ، وخافوا أن يصيبهم مثلما أصاب أهل بيروت من قبل ، وأدرك قاضي المدينة وشيوخها أنه لا أمل لهم في النجاة إلا بالتسليم ، فخرج القاضي وجماعة من شيوخها وطلبوا من بلدوين الأمان فأجابهم لذلك وأمن العسكرية على النفوس والأموال وإطلاق سراح من أراد الخروج منها لدمشق . واستحلفوه على ذلك ووثقوا منه ، وخرج الوالي والزمام وجميع الأجناد والعسكرية وخلق كثير من أهل البلد ، متوجهين نحو دمشق ، حاملين معهم الأمتعة والأموال ، في حين بقي بالمدينة السكان الفقراء خاصة من الفلاحين الذين أضحوا من رعايا الفرنج ، ولكن بلدوين فرض عليهم غرامة مالية تصل إلى عشرين ألف دينار ، وصادر من علم أن له أموالا وأملاكا منهم ، فأفقرهم وأستغرق أموالهم[396] ، وبذلك سقطت مدينة صيدا في أيدي الفرنج بعد حصار أستمر ما يقرب من سبعة وأربعين يوما ( من ٣ ربيع الآخر إلى ١٩ جمادى الأولى عام ٥٠٤ هـ / من ١٩ أكتوبر إلى ٤ ديسمبر ١١١٠ م[397] ) .

ويلاحظ أن الفرنج عندما تسلموا صيدا بالإمان لم يرتكبوا فيها مذابح أو نهب وسلب لها ، كما كانت عادتهم في المدن الساحلية الأخرى مثل بيروت أو عكا وغيرها ، ويرجع السر في ذلك لعدم وجود الأسطول الجنوي وبحارته في الحصار الأخير لصيدا ، وكان هذا الأسطول قد غادر شواطىء فلسطين بعد إشتراكه في غزو بيروت عام ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م ، وذلك بما أشتهر عن الجنوية من حب النهب والسلب لثروات المدن التي شاركوا في فتحها . وهذا الرأي ينفي ما

---

(٣٩٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٦ ؛ النويري نهاية الأرب ، مجلد ٢٦ لوحة ٧٩ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٤٦ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٤٥٠ ، كذلك : Fulcher of chartres, the expedition, p. 200.

(٣٩٦) ابن القلانسي . ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٧ ؛ النويري : نهاية الأرب ، مجلد ٢٦ لوحة ٧٩ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ص ٢٣ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٤٧ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٤٥٠ .

(٣٩٧) Fulcher of chartres, the expedition, p. 200, Albert of Aix, R.H.C. occ., Vol. IV, pp. 675-676; William of tyre, deeds, Vol. I, p.p. 487-488.

ويلاحظ أن المصادر الفرنجية أشارت لنفس شروط تسليم صيدا كما أوردتها المصادر الإسلامية باستثناء الغرامة التي فرضها بلدوين.

وتؤرخ بعض المصادر الإسلامية والفرنجية سقوط المدينة يوما محدداً ٢٠ جمادى الأخرى ـ ٥ ديسمبر ويتفق ذلك مع توثيقه راجع ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٧ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٤٦ . كذلك Fulcher of chartres, the expedition, p.p. 200.

انظر مناقشة ستيفنسون لذلك Stevenson, the crusaders in the East, p. 60 F. 2.

ذهبت اليه أحد الأبحاث الحديثة التي حاولت أن تؤكد إشتراك الجنوية في الحصار الأخير لصيدا معتمدة في ذلك على رغبة الجنوية في الأستئثار بالأمتيازات المعتادة بالمدينة ، والرغبة في الأنتقام من هزيمة الأسطول الفاطمي لهم في المحاولات السابقة لإسقاط المدينة[٣٩٨] ، وأعتمد هذا البحث أيضا على ما ذكره المؤرخ نيكولاس يورجا «Nicholas Iorga» من أن سفن الجنوية شاركت فعلا في الحصار الأخير لصيدا وأحتلال مدن الساحل الأخرى ومنها صيدا[٣٩٩] .

والواقع أن محاولة الباحث لإثبات إشتراك الجنوية في حصار صيدا الأخير ليس لها ما يبررها أو تستند على أدلة أو أسانيد منطقية ، خاصة وأن مؤلفي الحوليات الصليبية التي لدينا المعاصرة منها مثل فوشيه شارتر أو كافارو الجنوى والمتأخرة مثل وليم الصوري،لم تشر إشارة صريحة أو واضحة لاشتراك ، اسطول جنوى في حصار صيدا الأخير[٤٠٠] . والحقيقة أن البرج الذى صنعته الفرنج لحصار المدينة ، وأشارت اليه المصادر الإسلامية مع آلات حصار أخرى[٤٠١] ، تشبه إلى حد كبير الأبراج التي أشتهر الجنوية في الحصار الأخير ، إلا أن ذلك — في رأيي — غير كاف لتأكيد إشتراك الجنوية مع عدم ذكر المصادر أو الحوليات الفرنجية ذلك ومنها حولية كافارو نفسه . ويقيننا في ذلك أن الفرنج ، بعد تسلمهم صيدا بالأمان ، لم تورد المصادر الإسلامية أو الصليبية إشارات عن مذبحة أو عمليات نهب وسلب لأموال وثروات سكان المدينة وهى العمليات التي عرف بها الجنوية في المدن الفاطمية المشهورة بثرائها وأزدهارها الأقتصادى كطرابلس وبيروت وغيرها[٤٠٢] . ويجب أن نضع في أعتبارنا في تحليل هذا الموقف الهزيمة القاسية التي منى بها الأسطول الجنوى على يد الأسطول الفاطمي عام ٥٠١ هـ ، وأثناء الحصار الثاني لصيدا ، وأنتهت بتحطيم معظم سفن الأسطول الجنوى[٤٠٣] مما أضطره للعودة إلى جنوه لمحاولة تجهيز اسطول جديد يقوم بمساعدة اللاتين فيما بعد وتطلب هذا وقتا طويلا سقطت خلاله مدينة صيدا .

وكيفما كان الأمر ، فبعد سقوط صيدا ، غادر الأسطول النرويجي الشام عائدا إلى بلاده محملا بالهدايا والغنائم من المدينة المفتوحة[٤٠٤] ، كما جرت مكافأة البنادقة بمنحهم امتيازات كبيرة

---

(٣٩٨) مصطفى الكنانى : العلاقات بين جنوه والفاطميين ، ص ٢٠٠

(٣٩٩) مصطفى الكنانى : المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

(٤٠٠) Fulcher of chartres, the expedition, p.p. 199-200; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 486; Caffaro, R.H.C. hist. occ. Vol. V, p. 73.

وأشارت هذه المصادر السابقة لاشتراك الأساطيل النرويجية فقط .

ابن القلانسى : ذيل ، ص ١٧١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٦ .

(٤٠١) ولربما أيضا أن بلدوين الذي وجد موافقة النرويجيين على مساعدته بدون مقابل ، كانوا بالنسبة لديه أفضل من الجنوية الذين كانوا يجرون فقط وراء مصالحهم المادية وجشعهم لنهب ثروات وأموال المدن المفتوحة مما أدى إلى غضب الجنوية ورحيلهم قبل الحصار الأخير لصيدا .

(٤٠٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٣٧ .

(٤٠٣) William of tyre, deeds, Vol. 1. p. 486; also Michaüd, History of the cursades, Vol. 1. p. 289; Ryan, F.R. (ed.,) op. cit. p. 199 F. 2

(٤٠٤) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٥١ ؛ كذلك : Heyd, commerce, to. I, p. 142.

بحكا تتمثل فى كنيسة وأملاك وأراضى بها[٤٠٥] ، وقد منح بلدوين أيضا حكم إمارة صيدا إلى أوستاش جارنييه «Eusyace Garnier» أمير قيسارية لتكون امارة وراثية فى اسرته[٤٠٦] ، وقد عمل جارنييه ، من ناحيته على توطيد مركزه فيها بزواجه التقى من أيما «Emma» أبنه أخت البطريرك أرنولف بطريرك المدينة المقدسة[٤٠٧] .

وعلى هذا النحو ضاعت صيدا من قبضة الفاطميين وأخفقت محاولة الأفضل بن بدر الجمالى للحيلولة دون سقوط المدينة ، وذلك أمام ضخامة حشود الفرنج برا وبحرا . وعلى الرغم من أننا لا نجد تفسيرا معقولا لموقف الأفضل من سقوط مدن الساحل الفاطمى واحدة تلو الأخرى وآخرها صيدا إلا أننا لا ننكر جهوده فى إنقاذ تلك المدن أثناء الحصار الصليبى لها ، فرأينا موقفه الإيجابى أثناء الحصارات الأولى لصيدا فسارع بإنقاذ الأسطول الفاطمى لانجادها ونجح فى الدفاع عنها وإنزال الهزيمة تلو الأخرى بالسفن الإيطالية وأجبرها على الإرتداد عن الساحل الشامى ، وأفشل خطط الفرنج فى إسقاط صيدا أثناء حصارها الأول ، على أن مصير المدينة تقرر أمره فى النهاية أمام ضخامة الحشود الصليبية والأساطيل الإيطالية والنرويجية ، فاستسلم سكانها ودخلها الفرنج بالأمان .

إن سقوط معاقل الفاطميين وقلاعهم على الساحل الشامى وآخرها مدينة صيدا سبب حالة من الذعر فى المناطق المجاورة لتلك المدن أو التى كانت تتعامل معها من الناحية التجارية لدرجة أنهم هرعوا لمخاطبة ود الفرنج بعد أن بدأت هيبة وقوة للفاطميين تنحسر تدريجيا أمام الضربات المتتالية للفرنج الذين استغلوا هذه الحالة وفرضوا عليهم ما أرادوا من شروط يتمثل فى ضرائب سنوية يدفعونها للفرنج وعبرت عن ذلك غالبية المصادر الإسلامية التى لدينا[٤٠٨] ، فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على أن يدفع لهم ما يقرب من ثلاثين ألف دينار وغيره من الخيول والثياب[٤٠٩] ، ولاشك أن هذا موقفا مخزيا من جانب صاحب حلب يذكرنا بموقفه السابق أثناء الحصار الصليبى لصيدا كما صالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار وكذلك صاحب حماه[٤١٠] . وهذه النصوص تظهر مدى التفكك الذى استشرى بين القوى الإسلامية بالشام ، فلم تحرك أيا من القوى الموجودة هناك ساكنا لانقاذ مدن الساحل أو حتى تتكاتف مع الفاطميين

---

(٤٠٥) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 488, Cf also Boase, the Kingdoms, p. 49.

(٤٠٦) William of tyre, Vol. Ip. 488; Cf also Boase, the Kingdoms, p. 49.

(٤٠٧) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٥١ ، كذلك La Monté, J.L., the Lords of caesarea in the period of the cursades. speculm, 1947, Vol. XXII, p. 142 FF.

(٤٠٨) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٧٨ ؛ أبو الفدا : المختصر ، ج ٢ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ ، السلامى : مختصر التواريخ ، مخطوط دار ، لوحة ٥٤ ؛ السيوطى : اتحاف الأخصا فى فضائل المسجد الأقصى ، مخطوط البلدية رقم ٢٢١٧ ج ١٠ ص ٣٧٨ .

(٤٠٩) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٣٧ .

(٤١٠) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٨ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ١٥٢ ؛ العينى : عقد الجمان ، ج ٦ قسم ٣ لوحة ٦٥١ .

ووزيرهم الأفضل للحيلولة دون وقوع تلك المدن فى قبضة الفرنج .

ويمكن القول أنه بإستيلاء الفرنج على غالبية معاقل الفاطميين وقواعدهم البحرية بالساحل الشامى أطمعوا بذلك على سلامة الحد الغربى لمملكتهم وبداية إنحسار النفوذ الفاطمى الذى كان يتهددهم فى تلك المناطق باستثناء مدينتى عسقلان وصور وهى المدن التى استعصت تماما على بلدوين لاعتمادها على الخلافة الفاطمية وتلقى العون والمدد الدائم منها . وكان سيطرة الفرنج على الساحل الشامى يعنى أن توازن القوى فى هذا الجزء من الشام أصبح يميل إلى جانب الفرنج وتراجع ما تبقى من النفوذ الفاطمى تدريجيا سواء بصور أو عسقلان ، الحد الجنوبى والشمالى لمملكة بيت المقدس اللاتينية ، ولهذا وجه بلدوين اهتمامه لاسقاط مدينتى صور وعسقلان الفاطمية كى يكمل حدود مملكته ويطرد الفاطميون نهائيا من الشام ويوفر الأمن والاستقرار التام لمملكة اللاتين من تهديد الفاطميين الدائم وفضل بلدوين أن يبدأ بمدينة صور وكانت ذات أهمية قصوى من الناحيتين الإستراتيجية والأقتصادية لمملكة بيت المقدس كما كانت لها أهمية اقتصادية لمسلمى المناطق الداخلية وامارة دمشق والتى كانت جل نشاطها التجارى يرتبط مع مدن الساحل الشامى وبخاصة صور[٤١١] ، التى كانت بمثابة المنفذ البحرى الطبيعى لامارة دمشق على الساحل الشامى[٤١٢] ولهذا سنجد بلدوين ، عندما بدأ عملياته لحصار صور ، لم تكن دمشق لتتحمل أن تقف موقف المتفرج أو تتقاعس عن الدفاع عنها ، ولهذا سوف تقدم مساعدتها الفعالة ، كما سنوضح ، للولاه الفاطميين سواء فى تلك المدينة أو غيرها .

أما بالنسبة للفاطميين فكانت صور قاعدة بحرية هامة لأسطولهم . ويشير المؤرخ ابن العديم الحلبى كيف أن السفن المصرية كانت تخرج من تنيس أو الإسكندرية إلى طرابلس الشام وصور للدفاع عنها والتمركز بها[٤١٣] ، حيث تقبع هناك لتهديد الأساطيل الإيطالية أو الفرنجية الأخرى القادمة للساحل الشامى لتقديم العون من عتاد ومؤن وجند لمملكة اللاتين[٤١٤] ، ولهذا كانت صور مركز متاعب كثيرة لصليبى الشام وقذى فى أعينهم فمنها خرجت الأساطيل لمهاجمة ممتلكات الفرنج على الساحل.وكان الفاطميون من جانبهم يدركون أهمية صور فحرصوا على تقوية حاميتها وميناها باستمرار وأرسال المؤن والإمدادات اليها على الدوام ، وأرسال الأسطول الفاطمى بشكل متواصل للدفاع عنها ضد الأخطار الوشيكة ، كان هذا الأسطول ينطلق منها

---

(٤١١) صور تعنى فى اللغة العربية القرن وفى القرميل « وصخ فى الصور » الكهف ٩٩ ، وهى مشهورة على الساحل الشامى ومن أقدمها . وعن صور وموقعها وأهميتها . راجع خسرو : سفرنامة ص ١٥ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٤٣٢ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٥٣ ؛ القرمانى : أخبار الدول ، ص ٤٥٩ ـــ ٤٦٠ ، كذلك : William of tyre, deeds, Vol. I, p. 491, Cf. also strange, G., Palestine under the Moslems, Beirut 1965, p.p. 342-345.

(٤١٢) Jean Richard, le Comté de Tripolis, p. 17.

(٤١٣) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، ج ٢ ص ٢٢٢

(٤١٤) The crusades, p. 75. Stevenson, the crusaders in the East, p.p. 65-66.

لتقديم العون والمدد للمدن الساحلية الأخرى(٤١٥) . وقد أعترفت المصادر الصليبية نفسها بأهمية صور كقاعدة بحرية فاطمية ومركز متاعب للفرنج ، فيذكر فوشيه كيف كانت أساطيل أمير بابلونيا ( خليفة مصر الفاطمي ) تكمن في هذا الميناء ومنه يشنون الغارات وأعمال القرصنة ضد الحجاج المسيحيين الوافدين لبيت المقدس والساحل(٤١٦) .

وكانت مدينة صور حصينة للغاية وتتميز بقلعتها وأسوارها القوية فقد بنيت على شبه جزيرة ممتدة في الماء وداخله في البحر مثل الكف على الساعد(٤١٧) ، مما هيأ لها ميناء أمن للسفن الواصلة اليها ، وقد أمتدح موقع المدينة وقوة قلاعها وأشادت بتحصيناتها المصادر الإسلامية(٤١٨) والبيزنطية(٤١٩) ، وكذلك المصادر الفرنجية وعلى رأسها كتاب المؤرخ وليم الصورى الذى يعتبر وصفه لصور وموقعها وأهميتها البحرية والتجارية ذا أهمية كبيرة بإعتباره رئيس أساقفة للمدينة ( بعد سقوطها فيما بعد بأيدى الفرنج عام ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م ) من عام ١١٧٥ م إلى عام ١١٨٥ م ، ، مما دفعه للإهتمام بدراسة تاريخ وجغرافية وموقع المدينة وأحوال سكانها وأهميتها سواء قبل الغزو الصليبى لها أو بعده في كتابه المعروف بتاريخ الأعمال فيما وراء البحار(٤٢٠) . وقد أزدادت أهمية صور لدى الفواطم بعد ضياع غالبية مدن الساحل الشامى الأخرى فأصبحت ملاذا لغالبية سكان وأثرياء مدن الساحل الذين فروا بثرواتهم وأموالهم من تلك المدن إلى صور بحثا عن الأمن وراء تحصيناتها القوية ، مما أدى لأزدياد ثرائها وأزدهارها من الناحية الأقتصادية(٤٢١) .

ولقد أدرك بلدوين أنه بإسقاط صور يحقق هدفين في آن واحد ، فهو يحرم الخلافة الفاطمية من أكبر قواعدها البحرية في الشمال ويجنب المملكة بذلك هجمات وغارات الأسطول الفاطمى على أملاك الفرنج المجاورة . بجانب توقف نشاط الأسطول الفاطمى في شرق البحر المتوسط وفى نفس الوقت يحرم الإمارات الإسلامية الداخلية وعلى رأسها إمارة دمشق ، التى بدأت وقتذاك في مجاهدة الفرنج وتهديد مملكتهم ، من أهم منفذ بحرى وتجارى لهم على الساحل الشامى ، ولهذا سنجد أن هذه المدينة ستكون محط صراع بين قوى ثلاث متناحرة : الصليبيون وحلفائهم البحريون من الجنوية والبنادقة لأهميتها الإستراتيجية والأقتصادية لديهم ، والفاطميون ووزيرهم

---

(٤١٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٤ ، ١٧١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٧ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، مجلد ١ لوحة ٣٩ ، ص ٤٦ .

(٤١٦) Fulcher of chartres, the expedition, p. 200, F. 5.

(٤١٧) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٤٣٣ ، Encyclopedia Britannica, Vol. I, p. 653.

(٤١٨) راجع مثلا وصف ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ٩٥ .

(٤١٩) تذكر آن كومنين البيزنطية أن تحصينات صور الخارجية التى كانت تحيط بها كدائرة أو السوار في المعصم جعلها تصمد طويلا أمام المصدر الصليبى فلراجع : Anna Comnena, the Alexiad, p. 365.

(٤٢٠) William of tyre, deeds. Vol. II, p.p. 89.
ويذكر وليم أن صور بتحصيناتها القوية كانت تضارع أى مدينة من مدن الساحل الشامى الأخرى .

(٤٢١) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 9.

الأفضل باعتبارهم أصحاب المدينة ، وإمارة دمشق السنية وأتابكها طغتكين الذى لم يكن ليتقاعس عن نجدتها ، ولهذا سوف تتحرك إمارة دمشق بشكل إيجابى وللمرة الثالثة وتتكاتف مع الوزير الأفضل شاهنشاه للدفاع عن صور ضد الحصار الفرنجى لها ، وكانت إمارة دمشق تحركها فى ذلك مصالحها الأقتصادية[٤٢٢] .

أن أول من أدرك أهمية صور وخطرها على الفرنج هو الأمير هيوفالكنبرج سيد سانت أومير ، الذى خلف تانكريد كأمير على طبرية ، فشن غارات عديدة عليها عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م لم تحقق النتائج المرجوة منها سوى نشر الرعب والذعر فى المناطق المحيطة بالمدينة[٤٢٣] . ولهذا أرتأى هذا الأمير أن يقوم ببناء حصن فوق قمة أحد الجبال الشاهقة القريبة من صور ، ويقع على بعد عشرة أميال وسماه حصن تبنين ( تورون )[٤٢٤] «Toron» ، وهدف منه تأمين مسير قواته المتجهة فى الطريق بين طبريه وصور والسيطرة على الطرق المؤدية إلى صور من جهة الشرق ، وإتخاذ الحصن قاعدة لشن الهجمات والغارات على مدينة صور ، وقطع الإمدادات عنها وتخريب الضياع أو الحقول المحيطة بالمدينة[٤٢٥] وذلك على نمط قلعة جبل الحجاج ( قلعة صنجيل التى بناها ريمون دى سان جيل أمام طرابلس) ، وقد ظهرت خطورة هذا الحصن على مدينة صور وسكانها وأضر كثيرا بالمدينة ، مما دفع والى صور الأمير عز الملك الأعز بمهاجمته « فهاجم ربضه وقتل من فيه ونهب وغنم »[٤٢٦] وذلك فى عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م .

ولكن مصرع هيو أوف سانت أومير ، أمير طبرية بعد وقت قصير من بناء حصن تبنين[٤٢٧] ، حال دون استمرار التهديد الفرنجى لصور ، مما حدا ببلدوين ملك بيت المقدس أن يسارع لاعادة بناء الحصن ومواصلة الهجمات على المدينة ، ولم يكتف بذلك ، فتذكر المصادر الإسلامية أنه بنى حصنا جديدا جنوبى صور يتميز بالقوة والمنعة وذلك على تل مشرف على صور يسمى تل المعشوقة عام ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م[٤٢٨] . وربما أن المصادر الإسلامية لدينا تقصد بتلك القلعة الجديدة ما تسميها قلعة الاسكندرونة[٤٢٩] أو سكاند ليوم «Scandalium» والتى

---

(٤٢٢) Mayer, p. 75.

(٤٢٣) William of tyre, deeds, Vol. I. p. 496.

(٤٢٤) ان هذا الحصن سوف سيلعب دوراً كبيراً فى تاريخ مملكة بيت المقدس بالشام فى الفترة التى تلت وفاة الملك بلدوين الأول .
راجع : Conder, The Latin Kingdom, p. 90.

(٤٢٥) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 469.

(٤٢٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ١٠١ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٢ ؛ العينى : عقد الجمان ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٦١٢ ؛ العظيمى : تاريخ العظيمى ، ص378

(٤٢٧) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 469.

(٤٢٨) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤٢ ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥٩ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٩٦ ؛ العينى : عقد الجمان ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٦٢٠ .

(٤٢٩) ابن ميسر : المصدر السابق ، ص ٤٢ ؛ ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ١٥٩

أشارت المصادر الفرنجية لبنائها أيضا[٤٣٠] . ومن الصعب تقبل الروايات الإسلامية حول بناء قلعة أو حصن الإسكندرية على تل المشوقة بظاهر صور عام ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م ، اذ أن المصادر الصليبية لدينا وعلى رأسها كتاب المؤرخ المعاصر فوشيه شارتر تشير لبناء بلدوين هذه القلعة فى تاريخ متأخر عن ذلك فى عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م بعد عودته من أحدى رحلاته الإستكشافية جنوب بيت المقدس[٤٣١] .

لقد واصل بلدوين حصار صور ، إلا أن قوة ومناعة أسوار وتحصينات المدينة ، وأستبسال أهلها فى الدفاع عنها ، وأفتقار بلدوين للعون البحرى أضطره إلى ترك حصارها بعد حصار يقرب من شهر وذلك فى عام ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م وقنع بتلقى اتاوة واليها عز الملك أنوشتكين الأفضل تصل إلى سبعة آلاف دينار[٤٣٢] .

ولكن الوزير الأفضل شاهنشاه عندما أدرك حرج موقف صور أمام الفرنج فى وقت واحد مع طرابلس ، أرسل اسطول ضخما « لم يكن قد خرج للمصريين مثله فيما تقدم كثرة رجال ومراكب وعدد وغلال ، وذلك لانجاد طرابلس وتقديم العون لبقية مدن الساحل ومنها صور وذلك عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م ، ووصل الأسطول إلى صور فى اليوم الثامن من فتح طرابلس ، وأقام بالساحل مدة ، وفرقت الغلال فى جهاتها وتمسك به أهل صور وصيدا وبيروت »[٤٣٣] . وأمام حصانة المدينة وإمدادات الأسطول الفاطمى لها بالميرة والعتاد ، وقوة دفاع حاميتها ، رأى بلدوين تأجيل مهاجمته للمدينة حتى يفرغ من اسقاط بقية مدن الساحل مثل صيدا وبيروت ، ولهذا أقلع بلدوين ، بعد فشل حصاره الأول لصور عن فكرة استمرار حصارها فى عام ٥٠٩ هـ / ١١٠٨ م .

وبعد إستيلاء الفرنج على صيدا ومنحها بلدوين لأوستاش جارنييه أمير قيسارية[٤٣٤] ، زحفوا بجيوشهم الضخمة لمنازلة صور برا وبحرا وذلك فى شتاء ٢٥ جمادى الآخرة عام ٥٠٥ هـ / ٢٩ فبراير ١١١١ م[٤٣٥] ، ورغم أن المؤرخ وليم الصورى هو المؤرخ الصليبي الوحيد الذى أشار

---

(٤٣٠) Fulcher of chartres, the expedition, p. 220; William of tyre, deeds, Vol. I, p.p. 514-515.

(٤٣١) Fulcher of chartres, the expedition, p. 220; William of tyre, deeds p. 515.

(٤٣٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥٩ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٦ ابن ميسر : اخبار مصر ، ص ٤٣ . ويذكر ان والى المدينة كان يدعى سعد الدولة كمشتكين الأفضل ، وكان أحد مماليك الأفضل بن بدر الجمالى .

(٤٣٣) ابن القلانسى : نفس المصدر ، ص ١٥٩ ؛ ابن الأثير : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٣٨ ، ابن الفرات : الدول تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٤٩ .

(٤٣٤) William of Tyre, deeds, Vol. I, p. 488.

(٤٣٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٨ ، ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢٧ ابن الأثير : الكامل ، ج ١ ص ٢٤٢ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨٠ كذلك : Fulcher of chartres, the expedition, p. 203; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 491.

لوجود اسطول صليبي في حصار صور هذه المرة[٤٣٦] ، إلا أنه لم يحدد لنا جنسية هذا الأسطول ولكن المؤرخة البيزنطية المعاصرة آنا كومنينا التي تؤيد رأى وليم في وجود اسطول بحرى تشير لوجود اثنى عشر سفينة بيزنطية تحت قيادة السفير البيزنطي بوتوميتس «Potometes» أثناء الحصار الفرنجى لصور . ثم تشير في موضع آخر من كتابها أن البيزنطيين طالبوا بلدوين بعدة امتيازات مقابل تقديمهم العون البحرى لحصار المدينة يتمثل في تقديم المساعدة الفرنجية البيزنطية لاستعادة ما استولى عليه أمراء أنطاكية النورمنديين من أملاك بيزنطية شمال الشام[٤٣٧] ، ولكن تردد بلدوين في الإلتزام بمثل ذلك ، جعل البيزنطيين يقتصر تأييدهم على امداد الجيش الصليبي بالمؤن والإمدادات فحسب دون محاولات شن هجمات من البحر على أسوار المدينة الفاطمية .

وقد أشارت المصادر الاسلامية أيضا إلى وجود هذا الاسطول البحرى وان لم تحدد جنسيته أيضا ، وتضيف أن الجزء الأكبر منه كان يحمل مؤنا وميره للفرنج أثناء حصار المدينة ، كما كان يحمل الأخشاب وآلات الحرب والمواد اللازمة لصناعة الأبراج وسلالم-تسلق الأسوار[٤٣٨] . والمرجح أن الجزء الأكبر من تلك المراكب ، على الأقل كانت جنوية ورغم أننا لا نملك دليلا قويا يؤيد ذلك ، الا أننا نرجح اشتراك الجنوية في حصار صور ، اذ أن الأبراج وآلات الحصار المستخدمة كانت تشبه الى حد كبير الأبراج والآلات التى اشتهر الجنوية بصنعها لاسقاط مدن الساحل الفاطمية ، أما الجزء الباقى فكان سفنا بيزنطية طبقا للالكسياد[٤٣٩] وأخرى بندقية .

وكان بلدوين يعلم أن صور تختلف عن غيرها من مدن الساحل الفاطمية الأخرى ، فكانت تحميها أسوار منيعة ، وكانت تحصيناتها الخارجية تحيط بها مثل السوار حول المعصم ، لايمكن اقتحامها بسهولة ولهذا كان على الصليبيين تدمير تلك التحصينات الخارجية للوصول لأسوار المدينة واقتحامها عن طريق الأبراج المتحركة وسلالم التسلق[٤٤٠] ولكن محاولات الفرنج لذلك باءت بالفشل لقوة دفاع حامية المدينة عنها[٤٤١] ، ولهذا شرعوا في صنع المزيد من الأبراج وسلالم التسلق وآلات دك الأسوار باستخدام أخشاب وعوارض السفن المشاركة بالحصار ، كما شرعوا

---

(٤٣٦) William of Tyre, deeds, Vol. I, pp. 491-492.

(٤٣٧) Anna Comnena, the Alexiad, p. 365.

ويؤيد ذلك ستيفن رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٥٢ . ويذكر المؤرخ ستيفنسون أن الأسطول البيزنطي فشل في تقديم العون للجيش الصليبي البرى بسبب فشلهم في حصارها بحرا . راجع Stevenson, the crusaders in the East, p. 61

(٤٣٨) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٨٠ ، أبو المحاسن : المصدر السابق ، ص ١٨٠

(٤٣٩) Anna Comnena, the Alexiad, p. 365.

(٤٤٠) Anna Comnena, Alexiad, p. 365.

(٤٤١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٨ . وهذا يناقض ما ذهب اليه المؤرخ الصليبي وليم الصورى أن سلسلة الهجمات الفرنجية الأولى على صور أضعفت قدرة سكان صور وأنزلت بهم اليأس راجع : William of tyre, deeds, Vol. I, p. 491 Chap. XVII.

أيضاً في قطع الشجر والنخيل وبنوايت الاقامة عليها[٤٤٢] ، لتشديد حصار المدينة .

وعندما رأى سكان صور وعسكر الحامية[٤٤٣] وواليها عز الملك أنوشتكين الأفضلي ( نسبة للأفضل ابن أمير الجيوش ) ، ذلك النشاط الذي دب في المعسكر الصليبي المقام أمام المدينة أدركوا حرج موقفهم ، فبادروا بالاستنجاد بالوزير الأفضل شاهنشاه بالقاهرة ، الا أن السلطات الفاطمية ووزيرها الأفضل لم يبادروا بارسال العون اللازم لانقاذ المدينة[٤٤٤] . وعلى الرغم من أن المصادر التي لدينا لم تخبرنا عن السبب الحقيقي لعدم نجدة الأفضل لأهل صور الا أن ابن القلانسي يورد لنا نصا يبرر للقارىء عدم استجابة الفاطميين لاستغاثة أهل صور أنه « في هذه السنة ( ٥٠٥ هـ ) حدث بمصر الوباء المفرط بحيث هلك به خلق كثير يقال أنه بلغ ستين ألف نفس[٤٤٥] . ونرجح أن هذا الوباء الذي انتشر في الديار المصرية ، وما ترتب عليه من مشاكل واجهت الأفضل وأدت لانشغاله في مواجهته وانقاذ البلاد منه عن الاستجابة لنجدة أهل صور .

وعلى هذا بادر عز الملك والي المدينة وأهل البلد بمراسلة طغتكين أتابك دمشق يستصرخونه ويستنجدونه ويعرضون تسليم المدينة اليه ، والتعجيل بانفاذ عدة وافرة من الأتراك تصل اليهم في سرعة لمعونتهم وتقويتهم[٤٤٦] . واستجاب طغتكين لنداء أهل صور ، فأرسل عدة وافرة من الأتراك بالعدد الكاملة تزيد على مائتي رجل من الفرسان والرجالة ورماة السهام المهرة ، جمعهم من جبل عاملة وأمرهم بالمقام في صور « نجدة لهم فوصلوا اليهم وحصلوا عندهم ، فقوى بهم أهل صور وامتنعوا بهم[٤٤٧] . وقرر طغتكين أن يخرج بنفسه على رأس جيش لنجدة أهل صور فخرج من دمشق ونزل بانياس[٤٤٨] ، وبث سراياه ورجاله الحرامية[٤٤٩] في أعمال الفرنج وأطلق لهم السلب والنهب والدمار والحرق طلبا لازعاجهم وترحيلهم[٤٥٠] . كما أتبع طغتكين أسلوبا جديداً ضد الفرنج وذلك بشن سلسلة من الهجمات المضادة على بعض قلاعهم وحصونهم القريبة

---

(٤٤٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٨ ـــ ١٨٠ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨٢ .

(٤٤٣) يذكر ابن خلدون أن حامية المدينة كانت تتكون من الجند الأرمن . راجع ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٩ .

(٤٤٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨٠ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨٢ .

(٤٤٥) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٨١ .

(٤٤٦) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ؛ ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢٣ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨٢ .

(٤٤٧) ابن القلانسي : نفس المصدر ، ص ١٧٨ ؛ ابن الجوزي : نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٤٣ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٥٧ . ويذكر ابن الفرات أن هؤلاء الأتراك كانوا بقيادة غلام لطغتكين يسمى خليل . ابن الفرات : المصدر السابق ، مجلد ١ لوحة ٥٧ .

(٤٤٨) في ابن الفرات حولة بانياس . ابن الفرات : المصدر السابق ، مجد ١ لوحة ٥٧ (أ).

(٤٤٩) ربما يقصد ابن القلانسي بهؤلاء ما يشبه فرق القوات الخاصة في العصر الحديث أو المليشيات الشعبية . راجع د. أحمد مختار العبادي : من مظاهر الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية ، مقال بمجلة عالم الفكر ، ط. الكويت ، عدد العدد الأول سنة ١٩٨٠ .

(٤٥٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٨

من صور الواقعة في مؤخرة الجيش الفرنجي ، وقطع المؤن والامدادات عنه ، فسار الى اقليم السواد ونزل على قلعة الحبيس[٤٥١] وهو حصن عظيم للفرنج فشد عليه القتال وملكه بالسيف قهراً وقتل كل من كان فيه[٤٥٢] ، كما شن هجمات متتالية على مؤخرة الجيش الفرنجي وهدف من ذلك تخفيف الضغط الصليبي على المدينة ، وتمكين النجدات من دخولها ، واعطاء الفرصة لسكان المدينة لمهاجمة الفرنج واحراق أبراجهم أمام أسوار صور[٤٥٣] .

على أن الفرنج أدركوا الأهداف الحقيقة التي تكمن وراء عمليات أمير دمشق العسكرية ، ولهذا لم « يحفلوا بما يفعل ويجرى على أعمالهم من الغارات والفتك بمن فيها »[٤٥٤] ، واتخذوا احتياطاتهم لحماية أبراجهم وآلات حصارهم « وخندقوا عليها من جميع الجهات ، ورتبوا على الخندق والرجال بالسلاح لحفظه وحفظ الأبراج[٤٥٥] . وأمام هذا قام طغتكين بقطع الجسر الذي كان يعبر عليه بين صيدا وصور ، ليقطع المادة عنهم[٤٥٦] . عند ما علم أن الامدادات بدأت تصل للفرنج بحرا عن طريق ميناء صيدا الصليبي ، نهض في فريق من العسكر ناحية صيدا وأغار على ظاهرها ، فقتل جماعة من البحرية وأحرق وأغرق تقدير عشرين مركب على الشط وأصدر الى أهل صور الكتب يدعوهم فيها إلى المثابرة على الفرنج والجد في قتالهم[٤٥٧] .

ورغم جهود طغتكين الضخمة لحماية صور ، الا أن الفرنج تمكنوا بفضل سفن الجنوية والبيزنطيين من جلب الأخشاب والمواد اللازمة لصناعة أبراج الحصار فصنعوا برجين كبيرين وبعض الكباش في فترة تقرب من خمسة وسبعون يوما من ٢٥ جمادى الآخرة الى ١٠ شعبان ٥٠٥ هـ / من ٢٩ نوفمبر ١١١١ م الى ١٣ فبراير ١١١٢ م وشحنوهما بالمقاتلة وقربوهما من السور[٤٥٨] ، وتحت وابل من قذائف المجانيق ورماه السهام لتغطى تقدم الأبراج نحو أسوار

---

(٤٥١) الحبيس : قلعة بالسواد من أعمال دمشق ويقال بها حبيس جلدك . راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ١ ص ٥٥٠ .

(٤٥٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٨ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٤ ، كذلك : Stevenson, the crusaders in the East, p. 62.

(٤٥٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٨ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢٣ .

(٤٥٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٨ . ويذكر السبط أنهم لم يبالوا بذلك لأنهم كانوا في أرض رملية والمسلمين في أرض وعرة . ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ص ٢٣ .

(٤٥٥) ابن القلانسي : نفس المصدر ، ص ١٧٨ ؛ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٤ .

(٤٥٦) ابن القلانسي : نفس المصدر ، ص ١٧٩ .

(٤٥٧) ابن القلانسي : نفس المصدر ، ص ١٧٩ — ١٨٠ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٤٤ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨١ .

(٤٥٨) ابن القلانسي : نفس المصدر ، ص ١٨٠ ، وهو المؤرخ الوحيد الذى ذكر الفترة التي استغرقها الفرنج لبناء الأبراج . أيضا ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢٣ ، كذلك : Fulcher of chartres, the expedition, p. 202; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 491 Chap. XVII.

وذكرت المصادر الأخرى أن عدد الأبراج الفرنجية كانت ثلاثة في كل منها ألف مقاتل . ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٤٢ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ١ لوحة ٥٦ (أ) ؛ العيني عقد الجمان ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٦٥٩ . ويذكر الذهبي أن الفرنج بنوا برجا واحدا لمقاتلة المدينة وشحنوه بالمقاتلة وجروه على عجل . الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٤ . ولكننا هنا اعتمدنا على رواية ابن القلانسي ولوشيه شارتر باعتبارهما معاصرين وباعتبار فوشيه شاهد عيان للأحداث .

المدينة(٤٥٩) ، وقام قتال عنيف بين الطرفين لما يزيد عن عشرين يوما حتى أول رمضان(٤٦٠) . وتذكر الرواية البيزنطية أن الصليبيون تمكنوا خلال هذا الهجوم من الاستيلاء على سورين للمدينة ولم يتبق أمامهم سوى السور الثالث وتسقط المدينة فى أيديهم(٤٦١) . وهذه الرواية يحيطها الشك ولا تؤيدها المصادر الاسلامية أو الفرنجية المعاصرة والمتأخرة خاصة وأن آنا كومنينا صاحبة هذه الرواية لم تكن شاهدة عيان رغم معاصرتها للأحداث وربما استقت ذلك من ألسنة البحارة البيزنطيين الذين ساهموا فى مساعدة الفرنج أمام صور .

ولكن أهل صور أسقط فى أيديهم وواجهوا موقفا حرجا فى كيفية مواجهة هذه الأبراج وأيقنوا أخذ البلد(٤٦٢) . بل أن الرواية البيزنطية تذكر أن والى المدينة الفاطمى لجأ للحيلة لكسب الوقت لمقاومة هذه الأبراج ولهذا أرسل سفارة من أهل المدينة الى بلدوين طالبا منه الاستسلام بشروط معينة وهدف من ذلك كسب المزيد من الوقت للدفاع عن المدينة وايجاد الوسائل اللازمة لاحراق أبراج الفرنج(٤٦٣) .

فى الوقت الذى اجتمع فيه والى صور أنوشتكين الأفضلى بأهل البلد وأستشارهم فى حيلة يدفعون بها خطر الأبراج الفرنجية(٤٦٤) ، فقام شيخ من أهل طرابلس ، وكان أحد مقدمى البحرية له فهم ومعرفة بأحوال الحرب وذلك فى مطلع شهر رمضان ٥٠٥ هـ /ص فبراير ١١١٢ م ، وضمن على نفسه احراقها ، وأستخدم فى ذلك طريقة عربية مبتكرة فى فن الحرب والقتال فى العصور الوسطى ، وصفتها لنا المصادر الاسلامية بأسهاب(٤٦٥) ونجحت فى احراق أبراج الفرنج والكثير من آلات حصارهم وأعترفت بذلك المصادر البيزنطية(٤٦٦) والصليبية(٤٦٧) .

---

(٤٥٩) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 491 Chap. XVII.

(٤٦٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٩ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢٤ .

(٤٦١) Anna Comnena, the Alexiad, p. 365.

(٤٦٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ١ لوحة ٥٦ (أ) .

(٤٦٣) Anna Comnena, the Alexiad, p. 365.

(٤٦٤) ابن الأثير الكامل ، ج ١٠ ص ٣٤٢ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، مجلد ١ لوحة ٥٦ (أ). وتذكر المصادر اللاتينية أن حامية المدينة كانت بصنع برجين أعلى من أبراج الفرنج لمواجهة حصارهم على المدينة . راجع : Fulcher of chartres, the expedition, p. 203 Chap. XXVI; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 491 Chap. XVII.

(٤٦٥) انظر وصفا كاملا لتلك الطريقة فى ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٩ — ١٨٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٤٢ — ٣٤٣ ؛ النويرى نهاية الارب ، مجلد ٢٦ لوحة ٨٠ ؛ العظيمى تاريخ العظيمى ، ص 381 ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨١ .

(٤٦٦) وتذكر آنا كومنين البيزنطية أن حامية المدينة أسرت الكثير من الفرنج كما قتلت الكثير من الجند من المعسكر الصليبى بعد احراق الأبراج . راجع : Anna Comnena, the Alexiad; p.p. 33-366; Fulcher of chartres, the expedition, p. 203; William of tyre, deeds, p. 492.

(٤٦٧) Fulcher of chartres, the expedition, p. 203; William of tyre, deeds, p. 492. وقد أورد المقريزى رواية تختلف عن رواية المصادر الاسلامية السابقة فى كيفية احراق الصوريين هذه الأبراج . راجع المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٤٨ . ويذكر ستيفنسون أن الصوريين تحمسوا بعد نجاحهم فى احراق الأبراج الصليبية فشنوا هجوم مفاجىء على الفرنج دمروا فيه الكثير من آلات الحصار . Stevenson, the crusaders, in the East, p.60

وبالرغم من اليأس الذى دب فى المعسكر الفرنجى الا أنهم واصلوا الحصار . وعندما علم أهل صور بعزم الفرنج لبناء أبراج أخرى لجأوا إلى حيلة أخرى لمواجهة ذلك « فحفروا سراديب تحت الأرض سالكة من البلد إلى البر ليسقط فيها الفرنج اذا زحفوا اليها أو عملوا أبراجاً وسيروها اليهم فاذا سارت فوق تل الأنفاق أضرموا فى تعاليقها النار فتخسف بالأبراج . الا أن الفرنج قد علموا عن طريق بعض مسلمى المدينة الفارين منهم بما فعله أخوانهم[٤٦٨] ، فحذروا منها وساروا بعد ذلك فجسوا بين أيديهم بالمجاس الحديد ، فان كانت أرضا صلبة اجتازوها وان كانت رخوة صلبوها »[٤٦٩] ، ثم عملوا على طمى الخندق الموجود أمام المدينة للزحف عليها مرة أخرى[٤٧٠] .

واستبسل أهل المدينة فى القتال عنها قتال من يأس من الحياة[٤٧١] وأشادت المصادر الاسلامية بشجاعة النجدات السلجوقية التى أنفذها طغتكين ، وبخاصة رماة السهم[٤٧٢] واعترفت بذلك المصادر الفرنجية فيذكر مؤرخهم وليم الصورى « أن أهل صور أظهروا أنفسهم كمحاربين ذو عناد وشجاعة وخبراء بكل أنواع المكائد وكانوا يقابلون كل حيلة بمثلها ويقاتلون فى صلابة بالرغم من الخسائر التى نزلت بهم »[٤٧٣]. ويبدو أن أحد النجدات الدمشقية قد نجحت فى الدخول للمدينة فأمتنع من فيها بهم مما أوقع الذعر فى قلوب الفرنج الذين اعتقدوا أن هذه النجدات ليست الا مقدمة لجيش كبير آت فى أعقابهم فأشتد القتال خوفا من تواصل النجدات[٤٧٤] ، وأمام هذا أضطر الأمير أتوشتكين الأفضلى والى المدينة لطلب مساعدة طغتكين ثانية فأرسل اليه طالبا منه الاكثار من الرجال والمؤن على أن يؤدى له عنهم مبلغا كبيراً من المال ، كما عرض أيضا تسليم المدينة إليه[٤٧٥] ولكن محاولات طغتكين ارسال نجدات للمدينة باءت بالاخفاق[٤٧٦] ، فى الوقت الذى لجأ فيه الدمشقيون والفرنج للحيل والمكائد لاحباط خطط كل منهما الآخر لحصار المدينة[٤٧٧] .

ولكن الفرنج أدركوا فى النهاية أن حصارهم لصور كان بلا جدوى ولم يحقق النتائج المرجوة لقوة مقاومة حامية المدينة ، فى الوقت الذى أحترقت فيه أبراجهم بأكملها وآلات حصارهم ، وفت فى

---

(٤٦٨) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٥٦ (ب) . راجع الملحق بنهاية هذه الدراسة .

(٤٦٩) ابن الفرات : المصدر السابق ، مجلد ١ لوحة ٥٧ (أ) .

(٤٧٠) ابن الفرات : المصدر السابق ، مجلد ١ لوحة ٥٧ (أ).

(٤٧١) ابن الفرات : المصدر ، مجلد ١ لوحة ٥٧ (ب) . ويذكر أن أحد غلمان الأتراك ويسمى خليل قتل من الفرنج ألفا وخمسمائة رجل وأصاب جماعة منهم بنشابة .

(٤٧٢) ابن الفرات : المصدر السابق ، مجلد ١ لوحة ٥٧ (أ) .

(٤٧٣) William of tyre, deeds, Vol. p. 492.

(٤٧٤) ابن الأثير الكامل ، ج ١٠ ص ٣٤٣ . راجع رأى ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٥٧ (أ) .

(٤٧٥) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٣٤٤ . ويذكر رنسيمان أن والى المدينة طلب من أتابك ارسال كتيبة من خمسمائة رجل من رماة السهام على أن يؤدى له عنها عشرين ألف دينار . ويشير رنسيمان إلى قيام والى صور قبل الاقدام على اتخاذ هذه الخطوة بالكتابة للبلاط الفاطمى بالقاهرة كى يبرر تصرفه . رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص ٢٥٢ ـ ١٥٣

(٤٧٦) للاستزادة : راجع ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٤٣ .

(٤٧٧) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ص ٣٤٣ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٥٧ (أ) ؛ رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ص ١٥٣

عضدهم ودب اليأس فى قلوبهم باعتراف المصادر البيزنطية والفرنجية(٤٧٨) ، فى الوقت الذى حل فيه موسم جنى المحاصيل فى مزارع وحقول الفرنجة ، فخاف الفرنج تدمير طغتكين لغلات حقولهم(٤٧٩) فاضطروا لفك حصار المدينة ، وشرعوا فى الرحيل عنها وأحرقوا البيوت التى كانوا قد عمروها لسكناهم ، كما أحرقوا الكثير من المراكب التى كانت لهم على الساحل لأنهم كانوا قد أخذوا صواريها وآلاتها للأبراج ، وكان عددهم تقدير مائتى مركب كبارا وصغارا منها تقدير ثلاثين مركبا حربيا وحملوا فى بعضها ما خف من أثقالهم ورحلوا(٤٨٠) وبذلك انسحب الفرنج من أمام المدينة فى ١٠ شوال ٥٠٥ هـ / ١٠ أبريل ١١١٢ م ، بعد حصارها ما يقرب من أربعة أشهر ونصف(٤٨١) .

وتذكر المصادر الاسلامية أن أهل صور قد أوفوا لطغتكين بما وعدوه مقابل مساعدته لهم(٤٨٢) ، الا أنهم رفضوا تسليم البلد اليه ، ولم توضح المصادر سر هذا الموقف من جانب أهل صور أو رد فعل طغتكين ازاء ذلك . ولكن سبط ابن الجوزى يشير لارتياح طغتكين لرفض المدينة تسليمها اليه لعجزه عن الدفاع عنها وعن امارة دمشق فى آن واحد أمام الخطر الصليبى(٤٨٣) ، وعلى هذا النحو فشلت أول محاولة صليبية ضخمة لحصار صور الفاطمية(٤٨٤) .

وتجمعت عدة عوامل أدت إلى فشل محاولات الفرنج الدائبة لاسقاط صور : أولها قوة دفاع وصمود حامية المدينة وواليها أنوشتكين الأفضلى ، فدب اليأس بالفرنج مما أضطر بلدوين أمام ذلك « للتخلى عن تلك المحاولة وأزاحها من خاطره »(٤٨٥) ، بعد حصاره للمدينة ما يقرب من أربعة

---

(٤٧٨) Fulcher of chartres, the expedition, p. 203; William of tyre, deeds, Vol. I. p. 491; Anna Compena, the Alexiad, p. 366.

(٤٧٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٤٤ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٢ ص ٦٩ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٦٥٧ ــ ٦٥٨ . ويذكر الذهبى أن الفرنج خافت من قيام طغتكين بحرق غلاتهم فأخذوا من صور مالا يتلوه ورحلوا . الذهبى : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٤ .

(٤٨٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨٠ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢٤ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨٢

(٤٨١) لقد أجمعت المصادر الاسلامية والفرنجية على هذه الفترة التى استغرقها الحصار الصليبى لصور . ابن القلانسى : نفس المصدر ، ص ١٨٠ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، لوحة ٥٧ (أ) ، كذلك : Fulcher of chartres, the expedition, p. 203; Stevenson, the crusaders in the East, p. 61 FF.

(٤٨٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٤٤ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٥٧ .

(٤٨٣) ابن الجوزى : مرآة الزمان : ج ٨ ص ٢٤ .

(٤٨٤) Anna Comnena, the Alexiad, p. 366.

وتشير المصادر الاسلامية لقيام أهل المدينة بعد رحيل الفرنج والمستقرون بترميم ما خرب منها واعادة الخنادق إلى حالها بعد طمس الفرنج لها ، وتحصين البلد لمواجهة أى هجوم صليبى آخر . راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٤٤ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٥٨ (أ) .

(٤٨٥) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 492; Fulcher of chartres, The expedition, p. 203; Anna Comnena, the Alexiad, p. 366.

انظر ابن القلانسى . ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨٢ . ويذكر أن عساكر الفرنج بلغت ألفى قتيل ، وأن قتلى سكان صور بلغوا أربعمائة نفس

أشهر ( ٢٥ جمادى الآخرة ــ ١٠ شوال ٥٠٥ هـ / ٢٩ نوفمبر ١١ أبريل ١١١١ م ) وهذا الدفاع القوى عزز بتأييد ومساندة طغتكين أتابك دمشق وكان لذلك أثره القوى فى استمرار صمود المدينة . كما أن غاراته وعملياته العسكرية المتواصلة فى مؤخرة الجيش الصليبى أنزلت بصفوف الفرنج الذعر والاضطراب وقطع الامدادات عنهم برا وبحرا ، فأجبرهم هذا على الانسحاب منها فى شوال ٥٠٥ هـ / أبريل ١١١٢ م ، مما يجعلنا نؤكد بأن الفضل الأكبر فى عدم سقوط المدينة بأيدى الفرنج يرجع الى طغتكين[٤٨٦] فى وقت وقفت فيه بعض القوى الاسلامية مثل فخر الملوك رضوان صاحب حلب من استغاثة أنوشتكين الأفضلى ، وطلب طغتكين منه للمشاركة فى انقاذ المدينة ، موقفا سلبيا وتقاعس عن نجدتها[٤٨٧] .

ويضاف ضمن عوامل فشل الفرنج أمام صور افتقارهم لوجود أسطول صليبى قوى يحكم حصار المدينة بحرا مثلما كان الحال فى بيروت أو صيدا . وعلى الرغم من وجود بعض السفن البيزنطية والجنوية[٤٨٨] أمام صور ، الا أنها كانت على درجة من الضعف لم تمكنها من القيام بعمل حاسم لاسقاط المدينة .

على أن مخاوف الصوريين من عودة الفرنج لحصارهم سرعان ما تجددت بعد أن وصلتهم الأنباء عن استعدادات بلدوين الأول ملك الفرنج وعساكره وعزمه فى التوجه الى صور[٤٨٩] عام ٥٠٦ هـ / ١١١٣ م . وأمام هذا الخطر المقبل وعجز الخلافة الفاطمية ووزيرها الأفضل شاهنشاه عن تقديم العون للمدينة كما حدث فى العام السابق ، أجمع أهل صور بالاتفاق مع الوالى انوشتكين الأفضلى على الاستنجاد بطغتكين أتابك دمشق طالبين حمايته بوصفه أكبر قوة اسلامية قريبة منهم ، ونظرا لمواقفه المشرفة فى الدفاع عنها فى العام الماضى ، وطلبوا منه أن يرسل اليهم أمير يتولاهم ويحميهم[٤٩٠] والا سلموا البلد للفرنج[٤٩١] .

ولم يتردد طغتكين أتابك من جهته فى قبول طلبهم فأمر الأمير سيف الدولة مسعود والى بانياس وكان شهما شجاعا عارفا بالحرب ومكائدها[٤٩٢] وابنه تاج الملوك بورى نائبه فى دمشق ، أن يتسلما صور نيابة عنه نظرا لانشغاله باقرار الأمور مع فخر الملوك رضوان صاحب

---

(٤٨٦) Stevanson, the crusaders in the East, in setton ((ed.,) Vol. I p. 387.

(٤٨٧) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٥٨ . وهو المؤرخ الوحيد الذى أشار لهذه الروايات عن موقف صاحب حلب . ويضيف أن تقاعس فخر الملوك سوف يؤدى فيما بعد الى وقوع العداوة بينه وبين طغتكين . ابن الفرات : المصدر السابق ، مجلد ١ لوحة ٦٨

(٤٨٨) يذكر ابن القلانسى أن عددها كان ثلاثين سفينة حربية.ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٠ .

(٤٨٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٤٣٧ .

(٤٩٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨٢ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢٤ ؛ النويرى نهاية الأرب ، مجلد ٢٦ لوحة ٨٠ .

(٤٩١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٤٣٧ .

(٤٩٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ص ٤٣٧ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، مجلد ٢٦ لوحة ٨٠ .

حلب ، وأرسل معهم فرقة من الأتراك لتدعيم وتقوية الدفاع عن صور ، وأنفذ أهلها الأقوات والمؤن من دمشق مما طيب نفوس أهل البلد[٤٩٣] . ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد تم الاتفاق أيضا على أن يرسل أهل صور ما لديهم من ثروات وأموال يخشون عليها إلى دمشق للحفاظ عليها لمواجهة اجتياح الفرنج لمدينتهم[٤٩٤] . ولكن بلدوين الذى أظهر سخطه من الاتفاق بين صور ودمشق علم بموعد خروج تلك القافلة من الساحل حاملة أموال وثروات الصوريين لدمشق ، فأطبقت قواته عليها وغنم منها ثروة ضخمة[٤٩٥] .

ولو حاولنا أن ندرك المغزى الذى يكمن وراء تسلم طغتكين أتابك دمشق ادارة مدينة صور وموقف الخلافة الفاطمية ووزيرها من ذلك لأدركنا من النصوص التى لدينا أن طغتكين لم يبدل الادارة الفاطمية فى صور بادارة تركية أو أنه انتزع ملكية المدينة من أيدى الخليفة الفاطمى أو وزيره الأفضل كما يبدو لأول وهلة بل أن صور ظلت باقية على تبعيتها للخلافة الفاطمية فظلت الخطبة والسكة على ما كانتا عليه لصاحب مصر ، كما انه لم يتغير للفاطميين أى رسم من رسومهم ، بل على العكس ، كما تذكر النصوص ، فكتب طغتكين إلى الأفضل شاهنشاه بالقاهرة يبرر له تصرفه برغبته الخالصة فى الابقاء على صور تابعة للفاطميين والعمل على تقويتها بالمؤن والرجال ، وأبلغه أن بلدوين « جمع وحشد للنزول على صور وأن أهلها استنجدوا بى عليه فبادرت بانهاض من أثق بشهامته لحمايتها والمراماه دونها اليه وحصلوا فيها » ، وذكر طغتكين ضمن كتابه مع رسوله الى القاهرة أنه على أتم استعداد لاجلاء قواته عنها والخراج لوابه منها حتى يصل اليها من مصر من يتولى أمرها ويزود عنها ويحميها وأوصى الأفضل « وأنا أرجو أن لا يهمل أمرها وانفاذ الاسطول بالغلة إليها والتقوية لها[٤٩٦] .

ونحن نرجح أن عز الملك والى صور لم يقدم على استنجاده بأتابك دمشق الا بعد اعلام البلاط الفاطمى بما أقدم عليه ورضاء الفاطميين عن ذلك بل وثقتهم أن طغتكين لن ينتزى بصور خاصة

---

(٤٩٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨٢ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢٤ . ويلاحظ أن كل من ابن الأثير والمقريزى لم يشيروا الى مسير تاج الملوك بورى مع سيف الدولة مسعود والى باتياس الى صور بل أشارا لسير سيف الدولة فقط ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٤٢٧ ؛ المقريزى : تاريخ العظيمى ، ص 381 وقد ذكر ابن أبى الدم الحموى هذه الحوادث بشكل مختصر تحت عام ٥٠٩ هـ . الحموى : التاريخ المظفرى ، مخطوط مكتبة البلدية ورقة ١٨٦ .

(٤٩٤) العظيمى : تاريخ العظيمى ، ص 381 ، وكذلك : Albert of Aix, R.H.C., Vol. IV, p. 690.

(٤٩٥) Albert of Aix, R.H.C., Vol. IV, p. 490 Chap. XII.

ويذكر المؤرخ رنسيمان أن والى صور قد رشى أحد الفرسان الفرنج ويسمى راينفرد كى يرشد القافلة ويكفل لها السلام والأمن عبر أراضى الفرنج ، الا أن راينفرد وشى بأمرها لبلدوين . رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٥٢ .

(٤٩٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٢ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢٤ ؛ ابن الأثير الكامل ، ج ١٠ ص ٤٢٧ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، مجلد ٢٦ لوحة ٨٠ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ١ لوحة ٦٣ ، كذلك : Archer & Kingsford, the crusades, p. 166.

وأن غالبية سكان المدينة من الشيعة(٤٩٧) الموالين للخلافة الفاطمية ، وأن طغتكين سيدافع عن المدينة أمام الخطر الفرنجي المقبل . ويذكر السير هاملتون جب «Gibb» أن ما قام به طغتكين من ارسال نوابه وجنوده إلى صور كان بمثابة انتزاع لمدينة صور من أيدى الفاطميين عام ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م وأن الأفضل شاهنشاه أذعن لهذا الأمر بسبب عجزه عن القيام بنجدة المدينة أو الدفاع عنها(٤٩٨) . وهذا الرأى غير مقبول لدينا فلو كان طغتكين لديه رغبة ملحة فى انتزاع صور لما كلف نفسه عناء ارسال بعض الكتب الى الافضل يشرح له حاله وأسباب قيامه بنجدة المدينة وارسال نواد وجند من قبله للدفاع عنها خاصة بعد تأخر الاسطول الفاطمى عن جلب المؤن للمدينة ، وعلى العكس أظهر طغتكين نواياه الطيبة عندما أعلن عن استعداده لترك المدينة وترحيل قادته منها عند ارسال الاسطول الفاطمى وقد أثنى الأفضل نفسه ، فيما بعد ، على ما قام به طغتكين من جهة لانجاد المدينة ولهذا سارع بارسال اسطول كلفه بامداد صور بالمؤن وحمل الهدايا الى أمير دمشق تعبيرا عن رضائه عن موقف طغتكين كما أوضحت لنا المصادر الاسلامية(٤٩٩) . ويقيننا فى ذلك أن المصادر الاسلامية لم تشر الى خروج عز الملك والى صور عنها بعد وصول نواب طغتكين اليها(٥٠٠) ، مما يجعلنا نرجح أنه قام بالمدينة نوع من الادارة الثنائية أو حكم فاطمى دمشقى مشترك بها «Condominium» ، فقام نواب طغتكين بما معهم من قوات وميرة بادارة الأجزاء القريبة من امارة دمشق والمعرضة للخطر الصليبى ، فى حين قام عز الملك الافضلى بما معه بادارة الجزء الآخر من المدينة والقريب من ساحل البحر بما فيه الميناء ، وتعاون كل من الفريقين فى حالة الحصار الفرنجى للمدينة . وقد أشار المؤرخ الصليبى وليم الصورى نفسه لهذه الحقيقة فى كتابه(٥٠١) .

وخلال الفترة التى أقامها رسول طغتكين بالقاهرة حتى ذى الحجة ٥٠٦ هـ / مايو ١١١٣ م ، تمكن من تصوير الوضع على حقيقته للأفضل فى صور موضحا له ما يتهددها من أخطار من جانب الصليبيين وما قام به طغتكين أتابك للدفاع عنها ، وذكر له عرض طغتكين للدفاع عنها حتى يتمكن الأفضل من ارسال الاسطول الفاطمى إليها(٥٠٢) . ويبدو أن الأفضل الذى حرص فى هذه الفترة الحرجة من الصراع الفاطمى الصليبى على الابقاء على العلاقات الودية مع امارة دمشق والذى كانت الحاجة ماسة لصداقتها لمناهضة الفرنج وبسبب قربها من مدينة صور ، جعلته يعيد

(٤٩٧) ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٥ .

(٤٩٨) Gibb, Sir H. the caliphate and the Arab states, in setton (ed.) The crusades, Vol. I, p. 98.

(٤٩٩) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨٨ ـــ ١٨٩ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٤٣٧ .

(٥٠٠) ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٨ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢٦ .

(٥٠١) William of tyre, deeds, Vol. II. II, p. 9.

(٥٠٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨٨ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢٤ .

الرسول الدمشقي بكتاب رد فيه على طغتكين ردا حسنا ، معبرا عن شكره مما فعله « واستصواب رأيه فيما اعتمد واحماد قصده وشرع على الفور فى تجهيز الاسطول الى صور وشحنه » بالغلة والميرة ومال النفقة فى الأجناد والعسكرية وما يباع على الرعية من الغلات[٥٠٣] .

وفى صفر فى مطلع عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م أقلع الاسطول الفاطمى من مصر بالغلات المختزنة والرجال إلى صور تحت قيادة والى طرابلس السابق الأمير شرف الدولة بدر بن أبى الطيب الدمشقى حاملا معه خلعا للأمير طغتكين ووجهاء قومه وكتب من الأفضل ردا عما كان أرسله من الاعتذارات فى أخذ صور[٥٠٤] ، فوصل الأسطول هناك آخر صفر ٥٠٧ هـ / اغسطس ١١١٣ م ، فأنزل شحناته بها ورخصت الأسعار بالمدينة واستقام أمرها وحسنت حالها وزال طمع الفرنج عنها .

وعلى هذا النحو أفسد تصرفات طغتكين الحكيمة وتدخله فى الوقت المناسب لنجدة المدينة ووصول الاسطول المصرى إلى صور خطط الصليبيين ، وأبعد خطرهم عنها ، فى حين أقام الأسطول المصرى بميناء صور فترة من الوقت وربما ليطمئن على قوة الدفاع عن المدينة عند مهاجمة الفرنج لها ، ما يقرب من عشرين يوما ، حتى استقامت له الريح فأقلع عنها فى العشر الأخير من ربيع الأول ٥٠٧ هـ / أغسطس ١١١٣ م[٥٠٥] .

وأمام هذا الوفاق الذى قام بين دمشق والقاهرة للدفاع عن صور وتدفق المساعدات اليها من الجانبين الدمشقي والفاطمي أضطر بلدوين ملك بيت المقدس أن يراسل الأمير مسعود والى صور يلتمس منه المهادنة لحسم أسباب النزاع بين الجانبين وعقدت الهدنة بينهما واستقامت « الأحوال فى صور وأمنت الوافدين عليها والتجار والمسافرين من جميع الأقطار »[٥٠٦] . وليس معنى عقد هذه الهدنة بين بلدوين وصور أن بلدوين قد تخلى عن أطماعه فى المدينة بل أن فكرة الاستيلاء عليها ظلت فى ذهنه فبعد عودته من أحدى غاراته القريبة من ساحل البحر الأحمر توجه لمنازلة صور عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م غير أنه اكتفى هذه المرة بفرض حصار شديد عليها من جهة البر[٥٠٧] ، ولكن افتقاره إلى اسطول قوى يحكم عليها الحصار البحرى لم يمكنه من تحقيق أغراضه وعندئذ شيد قلعة منيعة جنوبى مدينة صور تسمى الاسكندرونة «Alexandarium» أو سكاندليون

---

(٥٠٣) ابن القلانسى : نفس المصدر ، ص ١٨٨ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٤٧ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، مجلد ٢٦ لوحة ٨٠ .

(٥٠٤) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، مجلد ١ لوحة ٧٠ (ب) أحداث عام ٥٠٧ هـ .

(٥٠٥) ابن القلانسى : نفس المصدر ، ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٥٠٦) ابن القلانسى : نفس المصدر ، ص ١٨٩ ، ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢٦ . ويذكر ابن الفرات أن بلدوين لم يراسل سيف الدولة مسعود وانما راسل الأمير بورى بن طغتكين لعقد الهدنة . ابن الفرات : المصدر السابق ، مجلد ١ لوحة ٦٩ (ب) .

(٥٠٧) ان المؤرخ العظيمى أورد نصا بعد قيام الفرنج بحصار صور برا وبحرا ولكن فى عام ٥٠٨ هـ ، واستنقاذهم لها ، فقام « المصريون بفتح صور بعد الحصار الشديد لها برا وبحرا » العظيمى : تاريخ العظيمى 382 .

«Scandalion»[٥٠٨] وذلك لتضييق الحصار على المدينة ولتكون شوكة فى جنب سكانها وقاعدة لشن الغارات والهجمات المتتالية على المدينة[٥٠٩] .

ويمكن القول أنه بفضل ذلك التعاون الفاطمي السلجوقى فى تلك المرحلة استمرت صور تقاوم الفرنج طويلا وظل هذا الوفاق سائدا وممثلا فى تلك الادارة الثنائية بصور لمدة عشر سنوات سواء فى حياة الأفضل أو بعد مصرعه بفترة قصيرة . ويرجع استمرار هذا التعاون إلى اهتمام الأفضل فى الإبقاء على العلاقات الودية مع طغتكين أتابك دمشق والذى كانت الحاجة ماسة الى صداقته فى مناهضة الفرنج فى حين أن الأفضل من ناحيته لم يبخل على المدينة بمساعداته وأساطيله باعتبارها آخر ثغور الشام الشمالية التابعة للفاطميين ولهذا يرجع اليه الفضل الكبير فى الاحتفاظ بتلك المدينة من السقوط بأيدى الفرنج . ولو أن العمر طال بالأفضل لكان فى امكان صور أن تصمد طويلا ، على أنه حدث فيما بعد فى ليلة عيد الفطر شوال ٥١٥ هـ / ديسمبر ١١٢١ م أن لقى الأفضل مصرعه فى أحد شوارع القاهرة بتدبير من خليفته الآمر بالله عندما أراد الأخير التخلص منه بعد أن استعاد سيطرته الكاملة على صور ، بمساعدة وزيره المأمون أبو عبد الله البطائحى ، اللذان أظهرا قلة ادراكهم بالسياسة الخارجية بالمقارنة بالأفضل ، بدليل أن الخلافة الفاطمية فقدت صور بسبب سوء تصرف الخليفة الآمر ووزيره البطائحى ، فاستولى عليها الفرنج فى عام ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م[٥١٠] ، وبعدها تقلص نفوذ الفاطميين بالشام نهائيا ولم يعد لهم أملاك بها باستثناء عسقلان قاعدتهم الهامة فى جنوب الشام .

---

(٥٠٨) Fulcher of chartres, the expedition, p. 220 Chap.IXIL

(٥٠٩) Fulcher of chartres, the expedition, p. 220; William of tyre, deeds, p.p. 514-4.
ويذكر فوشيه شارتر أن كلمة سكاندليون التي سميت بها قلعة بلدوين جنوبى صور تعنى عرين الأسد . ولكن وليم الصورى يعارض تفسيرها بهذا المعنى فيرى أنها اشتقت من اسم الاسكندر الأكبر نفسه الذى كان قد شيد قلعة فى نفس هذا الموضع ثم اندرست فما كان من بلدوين الا أن بناها ثانية وسماها نسبة للاسكندر . ويذكر رنسيمان أن قلعة سكاندليون بنيت فى موضع جعلها تشرف على الطرق المؤدية اليها من الشرق فى حين أن طريق المدينة يغلقه سكاندليون . راجع رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٥١٠) للاستزادة عن سقوط صور راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٠٧ ؛ ابن الجوزى . مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٧٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٤٣٧ ؛ مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٣ ؛ النويرى . نهاية الأرب ، مجلد ٢٦ لوحات ٨٠ — ٨١ ، كذلك - Fulcher of chartres, the expedition, p.p. 255-256 Chap. XVII - XVIII, pp. 264-265 chap. XXIV; William of tyre, deeds, Vol. II, ppd. 11-18, Chap. VII-X,XIII.

# الفصل السادس

## دور مدينة عسقلان فى الصراع الفاطمى الصليبى فى الشام ، وأطماع الصليبيين فى مصر

﴿ واستفتحوا وخاب كُلّ جبار عنيد ، ومن ورائه جهنم ويُسقى من ماء صديد ﴾ [ إبراهيم : ١٥ — ١٦ ]

# الفصل السادس

كان الفرنج يسيطرون على كل موانيء الساحل الفاطمي من أرباض اللاذقية حتى يافا ، باستثناء ميناء صور في الشمال ومدينة عسقلان في الجنوب وهذا يعني أن توازن القوى في هذه المنطقة من بلاد الشام كان يميل إلى صالح الفرنج ، وكان يشير إلى بداية إنحسار النفوذ الفاطمي تدريجيا من فلسطين ، وأقتراب الخطر الفرنجي كثيرا من حدود الخلافة الفاطمية نفسها .

ويمكن القول بأن إحتفاظ الفاطميين ووزيرهم الأفضل بن بدر الجمالي بمدينة عسقلان ، على وجه الخصوص ، والمعروفة بعروس الشام[١] «Spona Syrie» ، من السقوط بأيدي الفرنج ، ورغم محاولاتهم الدائبة لإسقاطها ، أمر يدعو إلى الأرتياح خاصة وأن سقوط مدن الساحل الشامي الفاطمي الواحدة تلو الأخرى أمام حصارات الفرنج المتتالية ، أجبر الأفضل على أن يتخذ موقفا أكثر جدية أزاء حماية بقية أملاكهم بفلسطين وتعنى بذلك عسقلان وصور ، والواقع أن عسقلان على الأقل ، كان يجب الأحتفاظ بها ، وذلك لأسباب استراتيجية وتجارية خاصة بالفاطميين أنفسهم[٢] .

وذلك أن روايات المؤرخين والجغرافيين العرب والصليبيين توضح مدى قوة ومناعة مدينة عسقلان فأشارت إلى أنها كانت أمنع الحصون وذلك بإمتدادها في البحر في هيئة نصف دائرة كبيرة ، وإلى قوة أستحكاماتها الحربية من أسوار مرتفعة قوية ، وتحصينات خارجية تستطيع تحمل ضربات المنجنيقات وآلات حصار المغيرين بجانب اشرافها على طريق القوافل التجارية بين دمشق والقاهرة[٣] .

---

(١) راجع ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٦٧٤ . ويقال أن الرسول ( ﷺ ) هو الذي أطلق عليها هذه التسمية .
كذلك : Encyclopedia of Islam, London, 1961, Vol. I, p. 710.
ويذكر المؤرخان هارتمان وبرنارد لويس في مقال لهما عن عسقلان بدائرة المعارف الاسلامية أن كلمة عسقلان تسمية أخذت من أحد أنواع البصل الأندلسي ويسمى Aldium Ascalonium راجع ذلك في : Encyclopedia of Islam, Vol. I, p. 711 (A: Ari Askalam).

(٢) Gibb, H. The caliphate and the Arab states, in setton, (ed.,) Vol. I, p. 98.

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٧٤ ؛ المؤرخ المجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٢٣ كذلك : William of tyre., deeds, Vol. II, p.219.
ان وصف المؤرخ وليم الصوري لموقع عسقلان وتحصيناتها واستحكاماتها الحربية كان وصفا دقيقا لشاهد عيان للمدينة ، ويذكر وليم أن موقع المدينة ، رغم أهميته وميزاته العديدة الا أنه لم يكن يسمح بوجود ميناء أو مرفأ آمن للسفن البحرية ، وقد أشاد المؤرخ فوشيه شارتر أيضا بقوة ومناعة مدينة عسقلان وذكر أنها كانت عقبة كؤد أمام الفرنج فيما بعد،راجع :
Fulcher of chartres, the expedition, p. 155, chap.m, X.
وعن عسقلان وأهميتها ، راجع وجهة النظر اليهودية للمؤرخ اليهودي يوشع براور
Prawer, J, Ascalon and the Ascolonite strip in the crusader politics (Heb.,) in Eretz Israel 1956, Vol. IV, p.p. 231-248.

ولذلك لعبت عسقلان دورا بارزا وهاما لا يمكن إغفاله فى الصراع الفاطمى الصليبى فى الشام ، فى الفترة التى تلت سقوط مدينة بيت المقدس فى أيدى الغزاة الفرنج فى شعبان ٤٩٢ هـ / يوليو ١٠٩٩ م ، وما تلى ذلك من هزيمة الفاطميين فى موقعة عسقلان الكبرى عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، وبناء عليه أدرك الفاطميون أهمية عسقلان كقاعدة برية وبحرية لجيوشهم وأساطيلهم المتجهة إلى الشام منذ الفتح الفاطمى للشام عام ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م ، فحرصوا على الأحتفاظ بها وخاصة بعد فقدان أملاكهم بالشام على أيدى السلاجقة منذ النصف الثانى من خلافة المستنصر بالله ، وبالتحديد فى الفترة السابقة لوفود بدر الجمالى وأبنه الأفضل إلى مصر[٤] .

ولا يتسع المجال هنا لتتبع الدور الهام الذى لعبته عسقلان فى سياسة الفاطميين الخارجية فى الفترة السابقة لمجىء الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق الإسلامى ، وبالتحديد فى الفترة من عام ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م إلى عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٩ م ، ولكننا سنسلط الضوء على الدور الذى قامت به بعد مجىء الحملة الصليبية الأولى إلى الأراضى المقدسة وبداية صراعها مع فاطمى مصر للإستحواذ على بلاد الشام وذلك فى خلافة المستعلى بالله ( ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ـــ ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م ) والآمر بأحكام الله ( ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م ـــ ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م ) ، ووزارة الأفضل بن بدر الجمالى وبالتحديد منذ عام ( ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م إلى عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م ) وهى السنة التى شهدت مصرع الأفضل فى أحد شوارع القاهرة .

بسقوط مدينة بيت المقدس الفاطمية فى أيدى الفرنج عام ( ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ) ، تحقق لهم الغرض الرئيسى الذى أتوا إلى الشرق الإسلامى من أجله ، وأعقبوا ذلك بأحرازهم انتصارا كبيرا على الجيش الفاطمى الذى قاده الأفضل شاهنشاه فى محاولته الجادة لأستعادة المدينة المقدسة ، فى سهول عسقلان فى شوال ٤٩٢ هـ / أغسطس ١٠٩٩ م ، وأزاحوا بذلك أسرع وأكبر خطر إسلامى هدد الثمار الأولى لأنتصاراتهم فى الشرق الإسلامى ، وبالتحديد فى جنوب الشام ، وكان كفيلا بالقضاء على الحملة الأولى والفكرة الصليبية فى مهدها . وبإنسحاب الجيش الفاطمى أمام الفرنج محتميا بأسوار عسقلان القوية ، فرض الفرنج حصارا قويا حول المدينة محاولين تتويج أنتصارهم بإسقاطها ، كما ذكر بالتفصيل فى أحد الفصول السابقة ، حيث عرضت المدينة الإستسلام للفرنج وللأمير ريمون دى سان جيل ( الصنجيل ) «Raymond st. Gilles» ، على وجه الخصوص ، دون جودفرى أوف بويون قائد الجيش الصليبى ، بحيث بدا وكأن عسقلان نفسها على وشك الأنتقال إلى السيادة

---

(٤) ان الأستاذين هارتمان ، برنارد لويس فى مقالهما السابق عن عسقلان يذكرا أن احتفاظ الفواطم بعسقلان فى بعض الأحيان لم يكن يتعدى مجرد السيطرة الاسمية على حكامها المحليين الذين كانوا يستقلون عن الخلافة الفاطمية عند أول فرصة تسنح لهم ، وبوجه خاص عند ضعف الخلافة فى الداخل ، وضعف سيطرتها على أملاكها فى الخارج مثلما حدث فى خلافة المستنصر بالله .
راجع : Hartman & Lewis, Askalan, ikn Encyclopedia of Islam, Vol. I, p. 710.

الفرنجية[٥] . ومع ذلك ثبتت المدينة من السقوط بسبب الخلافات التى ثارت بين القادة الصليبيين وبخاصة بين جودفرى ، ريموند الصنجيلى مما أدى لأنسحاب القوات الصليبية من أمامها فى نهاية الأمر وضياع فرصة ثمينة للإستيلاء عليها ، وقدر بذلك للخلافة الفاطمية أن تحول دون سقوط عسقلان فى قبضة الفرنج لما يقرب من نصف قرن[٦] .

ويرى البعض أن حصانة ومناعة مدينة عسقلان وقوة أستحكاماتها ، وليس النزاع بين القادة الفرنج هو السبب المباشر والرئيسى فى فشل الفرنج فى إسقاطها مباشرة بعد إنتصارهم فى عسقلان[٧] ، وهو الرأى الأقرب إلى الصواب لدينا . ويذكر المؤرخ بوس «Boase» أن فشل الصليبيين فى إسقاط عسقلان عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، كان واحدا من الأخطاء الكبرى التى أرتكبتها الحملة الأولى إذ أن الخلاف بين جودفرى ، وريموند أمام المدينة كلف خلفاءهم ثمنا فادحا بذلوه فى خلال خمسين عاما من الصراع المرير والغارات المتواصلة لجعل عسقلان تجثو على ركبتيها وتستسلم لهم[٨] ، فموقع عسقلان اقصى جنوب مملكة بيت المقدس اللاتينية ، كان يمثل خطرا كبيرا على تلك المملكة وتوابعها الجنوبية ، كما أن بقاء هذه المدينة فى أيدى الفاطميين يجعل مملكة بيت المقدس وتوابعها مثل بيت لحم وحبرون ( الخليل ) والرملة وموانيها مثل أرسوف ويافا ، مهددة دائمة بخطر اجتياح القوات والأساطيل البحرية الفاطمية القادمة من مصر ، وتتخذ من عسقلان قاعدة عسكرية وبحرية متقدمة فى جنوب الشام لشن الهجمات والغارات على الإقليم الفرنجى بالشام ، بجانب دور عسقلان فى تشكيل تهديد مباشر على الحجاج القادمين من الغرب الأوربى ويرسون فى يافا ومن هناك يتجهون إلى القدس ، ولهذا فان عسقلان بحاميتها القوية سوف تسبب حالة من الرعب والفزع بين صفوف الحجاج المسيحيين الوافدين على الأراضى المقدسة ما يقرب من خمسين عاما[٩] ، ولا ننسى أيضا أن عسقلان كانت لها أهمية تجارية باعتبارها محطة للقوافل التجارية الآتية من البحر أو التى كانت تأتى مصر متخذة الطريق الشمالى الموازى للساحل عبر شبه جزيرة سيناء وغزة ورفح متجهة إلى الشام .

ولاشك أن الفرنج قد أدركوا هم أيضا أهمية موقع مدينة عسقلان من الناحية العسكرية والتجارية ولكن من الصعب أن نحدد بداية هذا الاهتمام الصليبى ، ولكننا نرجح أن هذا الإهتمام

---

(٥) راجع بالتفصيل فى الفصل الثالث من الكتاب .

(٦) Boase, the Kingdoms and strongholds of the crusaders in Holy land, p. 27, Prawer, the Latin Kingdom, p. 21; Stevenson, the crusaders in the East, p. 36; Besant & plamer, Jerusalem, p.p. 219-220.

(٧) Watson, C. M., the story of Jerusalem, London 1912, p. 178.

ويلاحظ أن المؤرخ واطسون هو المؤرخ الغربى الحديث الذى انفرد بهذا الرأى .

(٨) Boase, the Kingdoms and strongholds of the crusders in Holy land p. 27; cf also prawer, the Latin Kingdom, p. 21.

(٩) Watson, C.M., the story of the Jerusalem, London p. 204.

الصليبي بدأ منذ تولى بلدوين أوف بوبون عرش مملكة بيت المقدس اللاتينية كأول ملك عليها عام ( ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م ) ، والذى وضع نصب عينيه تأمين الحدود الجنوبية لمملكته الجديدة ، وذلك بالإستيلاء على المناطق والقرى الصغيرة المحيطة بها ، ونشر الرعب والفزع فى المدن المجاورة مثل عسقلان وغيرها ، وهذا يفسر لنا قيامه بتلك الرحلة الأستطلاعية على رأس حملة خفيفة تتكون من مائة وخمسين فارس وخمسمائة من الرجالة[11] ، متجها نحو قاعدة الحدود المصرية فى عسقلان ، والمنطقة الواقعة غرب وجنوب البحر الميت القريبة من وادى عربه ، وأستمرت تلك الرحلة الأستطلاعية من ١٩ محرم ٤٩٤ هـ / ١٥ نوفمبر ١١٠١ م إلى ١٠ صفر ٤٩٤ هـ / ٢١ ديسمبر ١١٠١ م ، ورغم حدوث مناوشات بينه وبين رجال حامية المدينة الفاطمية[12] ، إلا أن بلدوين لم يكن يهدف لحصار المدينة أو القيام بغزوها بتلك القوة الضعيلة ، مع ما هو معروف عن المدينة من مناعتها ، وقوة أستحكاماتها الحربية ، ولكن بلدوين هدف فى الحقيقة لأختبار دفاعات عسقلان ومدى التهديد الخطير الذى يمكن أن تسببه للحدود الجنوبية لمملكة اللاتين فى بيت المقدس[13] .

وقد أزداد إهتمام الفرنج بالمدينة أثناء مواقع الرملة الثلاثة والتى نبهتهم للدور الخطير الذى يمكن أن تقوم به عسقلان كقاعدة عسكرية رئيسية ومتقدمة للفاطميين فى فلسطين سواء لجيوشهم أو أساطيلهم ، ورغم ذلك فقد شغل الفرنج وقتذاك عن القيام بأى محاولة عسكرية كبرى ضد عسقلان لانتزاعها من أيدى الفاطميين وحرمانهم من تلك القاعدة الهامة ، وذلك بسبب إنشغالهم بغزو المدن والثغور الساحلية الأخرى[14] ، ولأفتقارهم لقوة عسكرية ضخمة وإمدادات كافية تمكنهم من حصارها أو أقتحامها بحرا ، وهذا يفسر لنا كيف كانت مطاردة القوات الصليبية للقوات الفاطمية ــ بعد هزائمها فى مواقع الرملة الثلاث ــ تنتهى بسرعة الوصول إلى عسقلان ، فلا يلبث الصليبيون أن يتراجعوا أمام حصانة المدينة وقوة حاميتها ، ويسارعوا لاقتسام الغنائم والأسلاب التى خلفتها القوات الفاطمية المنهزمة من ناحية أخرى .

وكل ما فعله الصليبيون فى تلك المرحلة التى تلت تتويج بلدوين الأول عام ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م ، حتى خيانة شمس الخلافة وإلى عسقلان لسيده الأفضل شاهنشاه عام ٥٠٤

---

(١٠) Prawer, the Latin Kingdom, p. 21.

(١١) Albert of Aix, R.H.C., Hist. occ. Vol. IV, p. 280 chap. VII.

لم يذكر فوشيه شارتر ، شاهد عيان ومرافق بلدوين فى رحلته لوادى عربه ، عدد الجند المرافقين له ، Fulcher, of chartres, the expedition, p. 143 chap IV.

(١٢) Fulcher of chartres, Expedition 143-145.

وهذه الرواية التى أوردها فوشيه شارتر الذى رافق الملك بلدوين فى رحلته تلك نحو البحر الميت وعسقلان ، توضح لنا نشاط بلدوين السريع ضد الفاطميين اثر تتويجه على مملكة اللاتين .

(١٣) Fulcher of chartres, Expedition, p. 145.

(١٤) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٥ . مثل أرسوف وقيسارية وصيدا وغيرها .

هـ / ١١١١ م ، هو شن المزيد من الغارات والهجمات الخاطفة على أرباض وحقول المدينة فى محاولة لتخريب الحقول والضياع والمحاصيل الزراعية هناك ، ولحرمان سكانها من مصادر إمداداتهم إلا أن تلك السياسة كانت غير مجدية بسبب إتصال عسقلان الدائم بالخلافة الفاطمية التى حرصت على تزويد المدينة باستمرار بالمؤن والسلاح[١٥] ، وبذلك وقفت عسقلان أمام الفرنج عقبة كؤود وأمام تحقيق أطماعهم ، وعبر عن ذلك المؤرخ المجهول « لتاريخ سلاطين المماليك » بقوله : « وأمتنعت عليهم ( الفرنج ) عسقلان لتوعر مياهها ، وأتصالها بالديار المصرية ، وإنشغال الفرنج عنها باستفتاح ما يقرب منهم وجعلوا يتعاهدونها بالغارات[١٦] .

أما بالنسبة للفاطميين وعلى رأسهم وزيرهم الأفضل شاهنشاه ، فقد أدركوا أهمية مدينة عسقلان تقديرا صحيحا ، باعتبارها مدينة محصنة تحصينا قويا عبر صحراء شبه جزيرة سيناء ، مع إمكانية إستخدامها كقاعدة هامة للجيش والأسطول الفاطميين لتهديد مملكة اللاتين فى الشام ، وباعتبارها أيضا مركزا عسكريا هاما فى الصراع الفاطمى الصليبى هناك ، سواء فى وزارة الأفضل أو من تلاه من الوزراء[١٧] ، ويذكر المقريزى أن ولاية عسقلان كانت أكبر وأعظم من ولاية دمشق لدى الفاطميين ، إذ أن والى عسقلان كان يعتبر أميرا على بقية أملاك الفواطم المتبقية شمال الشام وجنوبه[١٨] . ولهذا فقد بذل الأفضل جهودا ضخمة للحفاظ عليها من السقوط فى أيدى الفرنج وأزدادت أهميتها لديه بعد فشل الحملات الفاطمية الكبرى ، وبعد سقوط غالبية مدن الساحل الشامى الفاطمية أمام الضربات المتتالية للجيوش الفرنجية المدعمة بالأساطيل الإيطالية وما ترتب على ذلك من رحيل معظم سكان تلك المدن الساحلية والمدن الداخلية إلى المدن الأخرى ومنها عسقلان التى أزداد عدد اللاجئين اليها فرارا من الفرنج[١٩] ، وما تلى ذلك من تقلص للنفوذ الفاطمى وبداية إنحساره تدريجيا من شمال الشام وجنوبه .

وقد ذكرنا من قبل أنه من النتائج الهامة لأخفاق الأفضل فى إستعادة ممتلكات الفاطميين المفقودة فى الشام إقتناعه بأن سياسة الهجوم ضد الفرنج لم تحقق أغراضها ، ولهذا أكتفى منذ ذلك بالحفاظ على عسقلان وتأمينها برا وبحرا والعمل على تحصينها لاتخاذها قاعدة لشن الغارات والهجمات الخاطفة على قواعد الفرنج جنوب الشام ، ولذلك حرص على توفير المؤن والإمدادات ، والعتاد للمدينة بشكل دائم[٢٠] ، ولم يكتف بذلك بل أنه قام بادراج كل سكان

---

(١٥) مؤرخ مجهول : نفس المصدر ، ص ٢٤٥ ؛ أبى الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ط. القاهرة ، ١٣٢٥ هـ ، ج ٣ ص ٢٧ .

(١٦) مؤرخ مجهول : نفس المصدر ، ص ٢٤٥ .

(١٧) Duggan, A., The story of the crusades, p. 34; Boase, the Kingdoms and strongholds of the crusaders in Holy land, p. 28; Grousset. L'épopée, p. 49; Encyc. of Islam, Vol. I, p. 710.

(١٨) المقريزى : الخطط ، ط . بولاق ١٢٧٠ هـ ، ج ٢ ص ٤٣ .

(١٩) William of tyre, deeds, Vol. II, p. 220.

(٢٠) أبى الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢٧ ، كذلك : Prawer, the Latin Kingdom, p. 21.

المدينة وحتى أطفالهم فى قوائم رواتب الجيش الفاطمى لتأمين أهلها المستقرين هناك[٢١] . وعندما تسببت غارات الفرنج المتكررة على مزارع وحقول المدينة فى حرمان أهلها من الحصول على المؤن الكافية فى فترات منتظمة ، ولمواجهة أى هجوم أو حصار فرنجى طويل المدى[٢٢] .

إن أدراك الأفضل بن بدر الجمالى لأهمية موقع عسقلان بالنسبة للخلافة الفاطمية نفسها ، باعتبارها آخر المعاقل الفاطمية ناحية الشرق والشمال الشرقى ، وأهميتها بالنسبة لأية محاولة لغزو الخلافة نفسها فى عقر دارها ، جعله يحرص على جعل عسقلان ترسانة عسكرية قوية ، وذلك بتزويدها بالأسلحة وشحنها بالجند فى فترات منتظمة باعتبارها حصنا دفاعيا عن مصر نفسها ، ولهذا فقد حرص هو ومن تلاه من الوزراء على تجديد حامية المدينة ثلاث أو أربع مرات سنويا ، وتزويدها بدماء جديدة تتمكن من الدفاع عنها ضد الأخطار الصليبية الوشيكة[٢٣] ، وذلك بإرسال فرق تسمى بالتجريدة[٢٤] ، بجانب النفقات على العسكر والأسطول المرسل اليها[٢٥] .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل حرص الوزراء الفاطميون والخلفاء الذين جاءوا بعد الأفضل ، على تعيين ولاه يكونوا مصدر ثقة على تلك المدينة ، بل أنهم جعلوا والى صور وإمارته تابعا لوالى عسقلان[٢٦] ، وهدفوا من ذلك تهديد الفرنج من الشمال والجنوب ، وذلك بدمج إمارتى صور وعسقلان فى إمارة واحدة باعتبار عسقلان مركز متقدم للجيش الفاطمى والأسطول البحرى الخارج من مصر ، وباعتبار صور قاعدة بحرية قوية فى الشمال لشن الهجمات وتهديد مدن الساحل الشامى التى دخلت تحت السيادة الفرنجية . وقد عبر المؤرخ

---

(٢١) William of tyre, deeds, Vol. II, p.220. cf. also prawer, op. cit, p. 21.
لقد اضطررنا هنا للاعتماد على روايات وليم الصورى عن اجراءات الفاطميين لتأمين عسقلان ضد الهجمات الفرنجية ، اذ أنه هو المؤرخ الوحيد الذى انفرد برواياته عن تلك الاجراءات الفاطمية لحماية عسقلان دون المصادر الاسلامية نفسها

(٢٢) William of tyre, deeds. Vol. II, p. 220 chap XXII.

(٢٣) William of tyre, deeds. Vol. II, p. 221 chap XXII book XVIi notes 28, 39.

(٢٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٤٤ . ويبدو أن هذه السياسة تغيرت أيام الخليفة الحافظ لدين الله ، فيذكر أبو المحاسن نقلا عن صاحب كتاب « المقلتين فى أخبار الدولتين » أن الفاطميين أصبحوا يجددون حامية المدينة مرتين سنويا وذلك كل ستة أشهر لما يتحقق منه من عودات الفرنج فى القلة والكثرة ، فكانت القلة من الفرسان من ثلاثمائة إلى أربعمائة والكثرة من أربعمائة الى ستمائة فى التجريدة الواحدة . ويتقدم على كل مائة فارس أمير ، ويسلم للأمير عريضة وهى اسم لحمل أوراق العرض من الديوان لينفقه مع والى عسقلان على عرضهم ، وكانت النفقة للأمراء مائة دينار ، وللأجناد ثلاثين دينار . أنظر أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٢٤ .
ولاشك أن ما أورده ابو المحاسن ووليم الصورى من نصوص سابقة تدل على جدية الفاطميين ، وعلى جهودهم الضخمة لتحصين المدينة والحفاظ عليها من الخطر الفرنجى . ويذكر المؤرخ اليهودى يوشع براور أن القاهرة كانت ترسل يوميا كميات ضخمة من المؤن والطعام إلى عسقلان . راجع : Prawer, the Latin Kingdom, p. 21.

(٢٥) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٤٨٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٧٤ .

(٢٦) اتضح ذلك بما ذكره ابن القلانسى من قيام شمس الخلافة والى عسقلان بعصيان الأفضل وفرض على الصوريين غرامة ضخمة تحمل اليه كل فترة معينة . راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٢ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ط . شيكاغو ١٩٠٧ ، نشر جيمس جيويت ، ج ٨ ص ٢٦ ، كذلك : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٥٣ .

المجهول عن حالة عسقلان بعد تلك الإجراءات والإحتياطات التي أتخذها الفاطميون لمجابهة الفرنج بقوله : « ولما ملك الفرنج الثغور الساحلية أمتنعت عليهم عسقلان لتوعر مياهها وقوة نفس ما بها واتصالها بالديار المصرية[٢٧] .

ولما كانت عسقلان بمثابة آخر ورقة رابحة فى يد الأفضل بن بدر الجمالى فى صراعه مع صليبى الشام بعد موقعة عسقلان الكبرى ، ومواقع الرملة الثلاث ، فان من ينظر إلى الإحتياطات والإجراءات التى أتخذها الأفضل للزود عن المدينة والأحتفاظ بها ، يدرك أن غرض الأفضل من ذلك هو جعل عسقلان حصنا دفاعيا قويا يدافع عن الحدود الشرقية لمصر من ناحية الشمال الشرقى ، وطالما كانت المدينة صامدة أمام هجمات وغارات الفرنج المتكررة فانها أيضا تستطيع استنزاف وموارد الفرنج المادية والبشرية ، وبالتالى يشعر الفاطميين فى مصر بالأمان والطمأنينة[٢٨] .

ولقد رأينا كيف استغل الوزير الأفضل عسقلان كقاعدة عسكرية لقواته وأساطيله فى فلسطين ، ومركزا لهجماته المضادة ضد الصليبيين بعد سقوط القدس ، وملجأ آمنا تلوذ به القوات الفاطمية فى حالة هزائمها العديدة أمام الفرنج . كما أن الأفضل أستغل موقع عسقلان قرب الطريق الهام الذى يربط بين يافا وبيت المقدس ويسير فيه الحجاج المسيحيون والإمدادات الآتية من الغرب الأوربى ، وذلك بشن غارات عديدة على هذا الطريق ، وأعاقة وصول الحجاج والإمدادات لمملكة بيت المقدس اللاتينية ، ونشر حالة من الرعب والذعر بين فرنج المناطق الواقعة جنوب وغرب بيت المقدس[٢٩] . وأننا نلمس صدى ذلك الذعر الذى سببته حامية عسقلان الفاطمية بين صفوف الفرنج بالمدينة المقدسة وتوابعها الجنوبية فى روايات مؤرخيهم اللاتين مثل فوشيه شارتر ووليم الصورى التى عبرت بصدق وفى صراحة كيف كانت عسقلان بمثابة شوكة فى حلق اللاتين[٣٠] .

ويمكن القول أن عسقلان ، التى كانت على وجه التقريب ، هى الأثر الوحيد الباق لسيطرة الفاطميين السابقة على الشام ، بجانب مدينة صور ، فى عهد الأفضل بن أمير الجيوش ، فقد ظهر دورها المؤثر والقوى كقاعدة عسكرية أمامية للفاطميين فى فلسطين ، بعد إخفاق محاولات

---

(٢٧) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٣٣ ، ٢٤٥ .

(٢٨) لقد اعترف المؤرخ الصليبى وليم الصورى بقوة ومناعة عسقلان بعد الاجراءات الفاطمية للدفاع عنها بقوله : « ان عسقلان قاومت كل محاولاتنا ( الفرنج ) لاسقاطها ، وأظهرت نفسها كمنافس خطير لنا ، فكانت مدينة ذات دفاع جيد ، واستحكامات وأبراج وحصون قوية ، بجانب تزويدها بكميات لا حصر لها من الأسلحة والمؤن ، كما كان سكانها مدربين تدريبا جيدا ولديهم مهارة فائقة فى استخدام الأسلحة » ، راجع : William of tyre, deeds, Vol. III, p. 220 chap. XXIII.

(٢٩) Watson, the story of Jerusalem, pp. 186-204.

(٣٠) Fulcher of chartres, the expedition p. 190 chap. XXXVI. p. 208 chap. XLIV, William of tyre, deeds, Vol. II, p. 220 chap. XXIII.

الأفضل الثلاث المذكورة لاستعادة أملاك الفاطميين الضائعة داخل الشام وعلى السواحل الشرقية للبحر المتوسط ولعنى بذلك الفترة التى تلت عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م حتى مصرع الأفضل عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م ، أى أثناء حصارات الفرنج وأسقاطهم لبقية الجيوب الفاطمية على الساحل الشرقى للبحر المتوسط المحصورة بين صور وعسقلان .

وعرفنا فى مناسبة سابقة أن حملة الفاطميين الأخيرة عام ( ٤٩٨ ـــ ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م ) والتى أنتهت بهزيمتها فى موقعة الرملة الثانية ، كانت آخر محاولة ضخمة قام بها فاطميو القاهرة لاستعادة جنوب الشام وطرد الفرنج منه نهائيا ، وليس معنى ذلك أن الفرنج قد أبعدوا الخطر الفاطمى نهائيا فالفاطميون كانوا لا يزالون مصدر خطر كبير على الفرنج يهددونهم بين الحين والآخر ، متخذين من عسقلان مركزا لهذا التهديد .

ورغم إخفاق آخر محاولة للأفضل عام ( ٤٩٨ ـــ ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م ) وإدراكه أنه لم يستطيع أن يجن شيئا من سياسة الهجوم ضد الفرنج لم يبق أمامه سوى الدفاع عن بقية أملاك الفاطميين هناك متمثلة فى مدينتى صور وعسقلان وبعض موانى الساحل الأخرى ، إلا أن الأفضل لم يتوان فى إتباع أسلوب جديد فى صراعه مع الفرنج ، معتمدا فى ذلك على شن هجمات خاطفة وتوجيه ضربات سريعة ومتلاحقة ضد مملكة بيت المقدس وتوابعها الجنوبية ، وذلك عن طريق حملات صغيرة العدد خفيفة الحركة ، وجعل عسقلان مركزا لهذه الحملات وهدف الأفضل من ذلك إشعار الفرنج بمدى قوته وأنه لم يقف مكتوف الأيدى أمام خطرهم بجانب بث الفزع فى قلوب صليبى إمارة بيت المقدس اللاتينية والقرى والمدن الصغيرة التابعة لها .

وحدث فى ٧ صفر ٥٠٠ هـ / الأسبوع الثانى من أكتوبر عام ١١٠٦ م أن أنتهزت القواعد الفاطمية المتمركزة فى عسقلان فرصة انصراف بلدوين الأول ، ملك بيت المقدس الصليبى ومعه غالبية القوات الصليبية فى بيت المقدس إلى جهة الجليل وطبرية لاقرار بعض الأوضاع هناك[٣١] ، فخرج حشد كبير من الفرسان المصريين[٣٢] ، مدعمين بقوات من صور وصيدا وبيروت للاغارة على طريق يافا ـــ بيت المقدس . وسرعان ما وصلت هذه القوة فى ٩ صفر ٥٠٠ هـ / ٩ أكتوبر ١١٠٦ م إلى سهل نهر العوجة الواقع بين ارسوف ويافا حيث شنوا هجوما مفاجئا على معسكر للحجاج الصليبيين كانوا مجتمعين هناك وقتلوا ما يقرب من خمسمائة حاج[٣٣] . وقد توغلت القوات الفاطمية حتى الرملة وتمكنوا من إنزال هزيمة قاسية بقوة

---

(٣١) تذكر المصادر الصليبية أن سبب ذهاب بلدوين إلى الجليل هو خوفه من قيام طغتكين أتابك دمشق بغزو منطقتى الجليل وطبرية .
راجع : William of tyred, deeds, Vol. I, p. 495 chap. XX; cf. Also Stevenson, the crusaders in the East p. 49.

(٣٢) William of tyre, deeds; cvit., Vol. I, p. 495
ولم يحدد وليم الصورى عدد الفرسان المصريين الذين شنوا تلك الهجمة . ولكن رنسيمان حددهم ببضعة آلاف . راجع رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٤٧ .

(٣٣) Grousset, Histoire des croisades, To. I, p. 247.

استطلاعية أرسلها حاكم يافا الصليبي وقضوا عليها وطاردوا قائدها روجر روزوى «Roger Of Rosway» ، حتى أبواب مدينة يافا[٣٤] . وبذلك أنفتح الطريق أمام القوات الفاطمية نحو مدينة القدس ، فاتجهوا اليها فى سرعة ، وهاجموا فى طريقهم قلعة صغيرة تسمى قلعة أرنولف «Castle Of Arnulf» التى استسلمت لهم ، وكانت هذه القلعة تحمى الطريق المؤدى من يافا إلى بيت المقدس ، ولم يكن بلدوين الأول قد أنتهى من تشييدها[٣٥] .

وسرعان ما وصلت القوات الفاطمية أمام مدينة بيت المقدس ، ولكن بدلا من أن تضرب حصارا محكما أو منظما حول أسوار المدينة المقدسة فقد أنصرفت إلى تخريب الحقول المحيطة بالمدينة وإشعال النيران فيها ووجهت نشاطها أيضا فيما بين يافا وبيت المقدس ، حتى اذا ما أحسوا أن الملك بلدوين وقواته فى طريقه اليهم انسحبوا عائدين إلى مدنهم الساحلية وتحصنوا فيها[٣٦] .

ويمكن القول أن هذه الغارات الفاطمية لم تنجز شيئا ضد الفرنج باستثناء ما أثارته من فزع فى المناطق المحيطة بالقدس ولو قدر لها القيام بحصار منظم للمدينة المقدسة ، منتهزة غياب الملك بلدوين بغالبية جيشه عن مملكته ولو وجدت تدعيما كافيا وامدادات ومؤن وآلات حصار من عسقلان لحققت بعض النتائج الطيبة[٣٧] . وتذكر المراجع الفرنجية أن بلدوين الأول قد أراد الثأر من تلك الغارة الفاطمية على معسكر الحجاج وذلك بمهاجمة مدينة عسقلان نفسها ، ولكنه عدل عن ذلك مؤقتا لعدم وجود قوة بحرية كافية تساعده من البحر[٣٨] .

ورغم ذلك فان وليم الصورى قد بالغ فى تصوير أثر تلك الغارة الخاطفة على مملكة بيت المقدس الفرنجية ، فأعتبرها أحد الكوارث الرهيبة التى حلت بصليبى المملكة[٣٩] ، ويذكر المؤرخ ستيفن رنسيمان أن هذه الغارة الفاطمية الصغيرة كانت توشك أن تحقق من النجاح ما فشلت فيه جيوش فاطمية تفوقها ضخامة وقوة وكثافة[٤٠] . ولعل من أهم النتائج التى ترتبت على تلك الغارة الفاطمية المفاجئة أنها جعلت اللاتين يدركون مدى النشاط المفاجيء الذى دب فى حامية عسقلان ، وخطورة الهجمات القادمة منها ، كما جعلتهم متيقظين تماما لأى خطرات من تلك المدينة .

---

(٣٤) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٤٧ ، كذلك : Stevenson, the crusaders in the East, p. 49.
ويذكر رنسيمان معتمدا على البرت اكس ، أنه لم يقول الدفاع عن الرملة سوى ثمانية فرسان .

(٣٥) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٤٧ .

(٣٦) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 495 chap. XX.

(٣٧) Besant & Palmer, Jerusalem, p. 255.

(٣٨) Funk, the foundation of Latin states , in setton (ed.,) Vol. I, p. 386.

(٣٩) William of tyre, deeds, Vol. I,p. 495.
ويلاحظ أن المؤرخ الصليبى وليم لا يشير لتلك القوات الخارجية من عسقلان باسم المصريين أو العدو كما هى عادته فى كتابته بل يشير اليهم باسم العسقلانيين ، راجع : William of tyre, deeds, Vol. I, p. 468.

(٤٠) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٤٧ ، كذلك : Besant & Palmer, Jerusalem, p. 256.

لقد أدرك الفاطميون أهمية الطريق الذي كان يربط بين مدينة بيت المقدس بميناء يافا الصليبي إذ كان بمثابة معبر هام تمر فيه قوافل الحجاج الآتية من الغرب الأوربي للحج إلى بيت المقدس ، بجانب وصول النجدات والمؤن الصليبية عبر هذا الطريق ، باعتباره أقرب وأقصر طريق يربط بيت المقدس بالساحل وبالتحديد بميناء يافا . ولهذا فقد قام سكان عسقلان بنصب المكائن لقوافل الحجاج التي تسلك هذا الطريق وأثارت حالة من الذعر به ، والواقع أن رحلة حج سايولف الألماني[٤١] «Saewulf» ودانيل الروسي[٤٢] «Abbot Daniel» ، كانت خير دليل على نشاط مدينة عسقلان الكبير في الفترة التي تلت موقعة عسقلان الكبرى مباشرة وبالتحديد منذ عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م حيث اعترفا في صراحة كاملة ، في مذكراتهما عن رحلتيهما إلى الأراضي المقدسة ، بما شعر به الحجاج اللاتين من ذعر وخوف بسبب كائن وغارات حامية عسقلان وسكان تلك المناطق[٤٣] .

وسرعان ما عاودت حامية عسقلان الفاطمية نشاطها[٤٤] ، فحدث في ربيع الثاني ٥٠١ هـ / نوفمبر ١١٠٧ م أن خرجت قوة فاطمية من عسقلان ، قدرتها المصادر الصليبية بحوالي خمسمائة من الفرسان والف راجل[٤٥] لمهاجمة أحدى قوافل الحجاج المتجهة من يافا إلى بيت المقدس ، حيث نصبوا كمينا في أحد المواضع على الطريق ، ورغم نجاح القوات الفاطمية في إيقاع الفزع في ذلك الكمين وهزيمتهم وقتل عدد كبير منهم إلا أن النجدة التي ارسلت من القدس ويافا نجحت في تحويل ميزان المعركة لصالحهم وهزيمة القوات الفاطمية التي ولت هاربة إلى عسقلان[٤٦] . ويذكر المؤرخ البرت أوف أكس أن غارة الفاطميين عام ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م كان هدفها الأساسي الإستيلاء على مدينة حبرون ( الخليل ) ، إلا أن بلدوين قد نجح في ردها على أعقابها[٤٧] .

وقد أيدت بعض المراجع الحديثة هذا الرأي من جانب المؤرخ ألبرت أوف أكس[٤٨] . ولما كانت روايته هنا رواية ناقل فرأينا أن نعتمد على رواية فوشيه شارتر باعتباره مؤرخ معاصر وشاهد عيان لهذه الأحداث .

---

(٤١) Saewulf, the pilgrimage of saewulf to Jerusalem (1102-1103), trans. by ;browalow, M.A., London 1892, in p.p. T.S., Vol. IV, p.p. 8-9;

(٤٢) Daniel, Abbot, the pilgrimage of Abbot Daniel, in p.p. T.S., Vol. IV, p. 20.

(٤٣) ويذكر سايولف في رحلته أنه كان من الغباء أن يتوقف أي شخص في ذلك الطريق كي يقوم بدفن جثث الحجاج المسيحيين الملقاة على جانبي الطريق ، اذ أن ذلك يعني أنه يحفر قبره بيده بسبب كائن وغارات المسلمين ( ويعني بذلك العسقلانيين ) راجع : Pilgrimage of saewulf, p. 9.

(٤٤) Fulcher of chartres, the expedition, p. 191., William of tyre, deeds, p. Vol. I, p. 468.

(٤٥) Fulcher of chartres, op. cit. p. 191 chap. XXXVI; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 468 chap. IV.
ويذكر المؤرخ ستيفنسون أن هذه القوات الفاطمية كانت مدعمة بقوات دمشقية أرسلها طغتكين أتابك دمشق ، راجع Stevenson, the crusaders in the East, p. 50.

(٤٦) Fulcher of chartres, the expedition, p. 191; William of tyre, op. cit., Vol. I, p. 468.

(٤٧) Albert of Aix, Historia Hierosolymitana, R.H.C., Hist. occ. Vol. IV, p.p. 649-647, chap. X.

(٤٨) راجع مثلا : رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٤٨ ؛ د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ط. القاهرة ١٩٦٣ ، ج ١ ص ٣٠٦ .

ورغم فشل هذه الغارة الفاطمية السابقة ، إلا أن الفاطميين ظلوا عازمين على أن يقضوا مضاجع الفرنج بفضل وجود عسقلان مستغلين فى ذلك إنشغال بلدوين الأول فى حروبه مع الأتراك السلاجقة أى مع طغتكين ومودود وبرسق بن برسق فى أقليم الجليل ومنطقة بحيرة طبرية وعبر نهر الأردن[٤٩] لمواصلة لتهديد بيت المقدس ، وسرعان ما قامت حامية عسقلان بشن هجوم آخر على مملكة بيت المقدس اللاتينية عام ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م مستغلين فى ذلك غياب بلدوين وجيشه فى شمال المملكة . وأخذ الجيش الفاطمى الصغير يدمر وينهب ويقتفى أثر الصليبيين ، وأستطاعت القوات الفاطمية أن تشق طريقها نحو أسوار بيت المقدس ذاتها ، وقاموا بإشعال النيران فى الحقول والضياع المحيطة بها[٥٠] . ولأن الحملة الفاطمية كانت قليلة العدد ، فلم تستطع إقتحام الأسوار الخارجية للمدينة المقدسة ، لأفتقارهم لآلات الحصار الكافية فى وقت وردت فيه الأنباء عن وفود القوات الفرنجية من المدن المجاورة لنجدة مدينة بيت المقدس ، فلم تطق القوات الفاطمية صبرا وأنسحبت من أمام أسوار المدينة دون تحقيق أى غرض راجعة إلى عسقلان فى نفس الليلة التى بلغت فيها بيت المقدس[٥١] .

والواقع أن هذه الغارات الفاطمية ، رغم عدم تحقيقها نتائج ضخمة تذكر ، إلا أنها قد أكدت أن الخطر الفاطمى ما زال قائما يهدد مملكة بيت المقدس الصليبية ، ولهذا وجدنا الأفضل شاهنشاه فى نفس العام ( ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م ) ، وبعد وقت قصير من غارة حامية عسقلان السابقة ، يرسل أسطولا فى صفر عام ٥٠٣ هـ / أغسطس ١١١٠ م ، مدعما بقوة من خمسمائة فارس من حامية عسقلان فى محاولة منه لمفاجئة مدينة بيت المقدس ، منتهزين فرصة غياب بلدوين الأول فى الجليل[٥٢] . ولكن هذه المحاولة أيضا ، باءت بالفشل إذ هزم الجيش البرى ، وأضطر الأسطول للإنسحاب عائدا نحو قاعدته فى عسقلان[٥٣]

ولو حاولنا أن نتوقف قليلا لنتأمل مغزى وأهمية هذه الغارات على بيت المقدس والمدن الساحلية مثل يافا ، والتى أتخذت من عسقلان قاعدة لأنطلاقها ، نجد أنها تدل على مدى النشاط الكبير الذى قامت به مدينة عسقلان وحاميتها من أغارات على الطرق الهامة التى تربط بين امارة بيت المقدس وموانىء يافا وارسوف قد بدأت تأتى ثمارها . فعلى الرغم من أنها تقل عن الحملات الفاطمية

---

(٤٩) لمزيد من التفاصيل عن حروب بلدوين مع سلاجقة الشام والعراق وغيرهم ، راجع ابن القلانسى:ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٩ ، ١٦١ ، والمقريزى ، تاريخ المطيعى ، ص 378-379 ، كذلك . Fulcher of chartres, op. cit. p.p. 205-211; William of tyre, deeds,, Vol. I, p.p. 4950-49.

(٥٠) Fulcher of chartres, op. cit. p. 208; cf. also conder, the Latin Kingdom, p. 88. Stevenson, the crusaders in the East, p. 63; Chaen, La Syrie du Nord, p. 272.

(٥١) Fulcher of chartres, the expedition, p. 208; chap XIIX; Albert of Aix, Historia, in R.H.C. Hist. occ. Vol. IV., 676; Df, also conder, the Latin Kingdom, p. 88.

(٥٢) Fulcher of chartres, op. cit., p. 208 chap XIIX; Albert of Aix., Historia, in R.H.C.R. Hist. occ., Vol. IV, p. 677, chap XI notes 27-29., Stevenson, the crusadersin the East, p. 64.

(٥٣) Albert of Aix., R.H.C., Hist. occ., Vol. IV, p. 677 chap XII.

الكبرى فى القدو والأهمية ، إلا أنها أزعجت حياة النزلاء والحجاج الفرنج فى مناطق السهل الساحلى والنقب وسكان مدينة بيت المقدس .

وقد برع المؤرخ الصليبى المعاصر فوشيه شارتر فى تصوير حالة الصليبيين بعد هذه الغارات الفاطمية السريعة بقوله : « أنه بلغ من حالة الرعب والفزع بين سكان وحجاج المملكة أنه لم يجرؤ أى منا على أرسال آية رسائل إلى الملك بلدوين أو أرسال مبعوثين يطلبون منه النجدة العاجلة ضد الغارات أو كائن العدو ( المسلمين )»[٥٤] . ويمكن أن نشبه هذه الغارات الفاطمية أيضا ، وما جرى مثلها فى السنوات العشر التالية أنها مجرد غارات أنتقامية شنها الفاطميون ردا على ما قام به الفرنج وملكهم بلدوين الأول من غارات على الأراضى المقدسة الإسلامية وبالتحديد ضواحى وحقول عسقلان وتوابعها مثل غزه ورفح .

ومن الصعب أن نلمس بالتحديد رد الفعل الفرنجى ازاء تلك الهجمات أو الغارات الإنتقامية الفاطمية فيبدو أن الفرنج لم يظهروا أى رد فعل قوى أزاء تلك الضربات الفاطمية السريعة ضد مملكة بيت المقدس ، ولم يقوموا بأية إجراءات لتأديب حامية عسقلان الفاطمية ، ولاشك أن ذلك يرجع لعوامل منها ، إنشغال بلدوين الأول بحروبه فى الشمال ضد الأتراك السلاجقة سواء سلاجقة الشام أو سلاجقة العراق بجانب اهتمامه فى تلك المرحلة بانتزاع بقية مدن الساحل الفاطمية وكانت أخرها مدينة صيدا عام ٥٠٣ هـ / ١١١١ م ، وحتى الهجمات الفرنجية المتقطعة التى شنها الفرنج ضد عسقلان لم تكن غير عملية ، فكل ما أحدثته أنها دمرت قراها وحقولها الزراعية ولم يجبر ذلك المدينة على الإستسلام أو يجبر القوات الفاطمية بالمدينة أن تكف عن الإغارة على أملاك الفرنج .

لكل هذه العوامل أو الأعتبارت ، عمل الفرنج على إتخاذ اسلوب أو أستراتيجية جديدة إزاء مدينة عسقلان الفاطمية تكون مؤثرة وفعالة ويكون الهدف الأول منها أما الحد من خطر الغارات الفاطمية المنطلقة من تلك المدينة ضد مملكة بيت المقدس ، أو حرمان الفاطميين ووزيرهم الأفضل من أهم قاعدة لهم فى جنوب الشام بعد أن أدركوا عدم جدوى غاراتهم السريعة والخاطفة على عسقلان ، والتى لم تمكنهم من إحراز شىء من النجاح ضد المدينة ، خاصة وأن عسقلان اعتمدت دائما على الخلافة الفاطمية[٥٥] ، والتى كانت تزود المدينة بكل ما تحتاجه من أموال وعتاد وقوات عسكرية مدربة تدريبا قويا[٥٦] .

---

(٥٤) Fulcher of chartres, the expedition, p. 208.
هذه العبارة توحى بأن فوشيه لم يكن مع بلدوين فى منطقة الجليل رغم انه كان حريصا على أن يصاحبه فى كل تحركاته . ويلاحظ أن فوشيه شارتر قد خصص غالبية هذا الفصل ليتحدث عن الخوف العظيم فتدى ثمن سكان مملكة اللاتين ومدن الساحل القريبة مثل يافا وأرسوف من غارات وكائن حامية مدينة عسقلان . راجع : Fulcher of chartres, Expedition,p. 208

(٥٥) المؤرخ المجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٣٣ ، ٢٤٥ ؛ أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ص ٢٧

(٥٦) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 220 chap. XXII.

ففي صيف عام ٥٠٤ هـ / ١١١١ م ، بدأ بلدوين يكرس جهده للاستيلاء على عسقلان ، وأتيحت تلك الفرصة الذهبية عندما عاد من صيدا بعد استيلائه عليها عام ٥٠٣ هـ / ١١١١ م ، فاتجه إلى عسقلان على رأس قواته وقام بالإغارة على أرباض المدينة وحقولها وضرب حصارا حولها ، وقطع المؤن والإمدادات التي كانت تصل اليها من مصر فما كان من واليها تاج العجم شمس الخلافة[٥٧] أن أضطر لعقد الصلح مع بلدوين الأول على مبلغ من المال حمل اليه مقابل رحيله عن المدينة فوافق بلدوين وترك حصار المدينة بعد أيام قلائل من نزوله عليها[٥٨] .

ولكن شمس الخلافة والى عسقلان كان رجلا طموحا طمع في الأستقلال بمدينة عسقلان عن الخلافة الفاطمية ، إذ أن شمس الخلافة ، كما تؤيد بذلك بعض المصادر كان يطمع في الأنفراد بالمدينة منذ تولية أمرها[٥٩] ، بالإضافة إلى أن شمس الخلافة كان رجلا اشتهر بعقليته التجارية اذ كان « أرغب في التجارة من المحاربة »[٦٠] ، وكان يعلم أن أمارته مهددة باستمرار من خطر الغزو الفرنجي لعسقلان فمال إلى الموادعة والمسالمة وإيمان السابلة[٦١] . ويبدو أن شمس الخلافة بدأ يراسل الفرنج سرا وفتح باب المفاوضات معهم طالبا التأييد والعون ، أرسل إلى بلدوين « مالا وعروضا » طالبا منه عقد الهدنة بين الفريقين بجانب عقد إتفاقية دفاع مشترك بين الطرفين[٦٢] ، مع استعداده لدفع الجزية للصليبيين ، وذلك من الغرامة التي فرضها على أهل صور ، والتي كانت خاضعة لولايته وبلغت سبعة آلاف دينار[٦٣] ، وقد عمل بلدوين على أنتهاز تلك الفرصة الذهبية التي اتيحت له للسيطرة على عسقلان مستخدما في ذلك الحيلة والدهاء ، فأرسل موافقته على مطالب شمس الخلافة ، بل وأعلن استعداده للدفاع عنه ، ومساعدته اذا تعرض لأى خطر من جانب الفاطميين وإمداده بالمؤن والعتاد وعبر عن ذلك المؤرخ المجهول بقوله : « أن بلدوين طمع في أخذ عسقلان بالإستدراج ولم يقطع عنها الميرة[٦٤] .

---

(٥٧) كذا اسمه كاملا في المؤرخ المجهول : تاريخ سلاطين المماليك ص ٢٣٣ . في بقية المصادر الاسلامية الأخرى شمس الخلافة . ويذكره المقريزي : شمس الخلافة أسد . انظر المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٥٠ . ولم نجد ترجمة لحياته في كتب التراجم أو السير .

(٥٨) انظر ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٧ ؛ المقريزي : قطع تاريخية ، مخطوط مكتبة البلدية رقم ٣٦٢٥ د ، ورقة ٤٨ (أ) . ويذكر ابن الفرات أن شمس الخلافة قد أعلن عصيانه بعد سنة من توليته امارة عسقلان ، قبل الحصار الصليبي لها وأنه منع دخول القوات الفاطمية التي كان الفاطميين يرسلونها في فترة منتظمة لتقوية حامية المدينة . راجع ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مخطوط دار ، رقم ٦٩٨ ، تاريخ ، ج ١ مجلد ١ تصوير شمس ، لوحة ٥٠ ، (أ) أحداث عام ٥٠٤ هـ .

(٥٩) المقريزي : قطع تاريخية ، ورقة ٤٨ (أ) ؛ ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٢ .

(٦٠) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٧٢ ؛ ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢١ ج

(٦١) ابن القلانسي : نفس المصدر ، ص ١٧٢ .

(٦٢) ابن الأثير : الكامل ، ط . ليدن ١٨٧٤ ، ج ١٠ ص ٣٣٧ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١ مجلد ١ ورقات ٤٩ ــ ٥٠ ؛ ابن خلدون : العبر ، ط . بولاق ١٢٨٤ هـ ، ج ٤ ص ٦٩ .

(٦٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٢ ؛ ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢١ .

(٦٤) المؤرخ المجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٣٣ .

ورغم حرص شمس الخلافة على أن يحيط مراسلاته مع بلدوين بالسرية التامة[٦٥] ، إلا أن أنباء تلك المراسلات قد تسربت إلى علم الأفضل شاهنشاه عن طريق بعض عيونه وجواسيسه بالمدينة ونزلت عليه تلك الأنباء نزول الصاعقة وأسقط فى يده وخاف ضياع عسقلان ودخولها فى حماية الفرنج باعتبارها مدخل الشام الجنوبى بالإضافة لكونها مدخل مصر من ناحية الشمال الشرقى ، ومعنى إستيلاء الفرنج عليها انفتاح الطريق أمامهم إلى معقل الخلافة الفاطمية فى القاهرة . ولكن الأفضل لم يكن لمرض بخروج عسقلان باعتبارها الأثر الوحيد الباقى لسيطرته على جنوب الشام ، والورقة الرابحة فى صراعه مع الفرنج وأرتأى أن يعالج هذا الأمر بسرية تامة وبقوة بل أنه كتم هذا الأمر حتى عن الخليفة نفسه ، وعن خواصه والمقربين اليه[٦٦] . وسرعان ما أعد الأفضل شاهنشاه حملة ضخمة تصل إلى عشرة آلاف رجل[٦٧] ، وذلك تحت ستار محاربة الصليبيين ولكنه أعطى فى نفس الوقت تعليمات سرية لقائد الحملة[٦٨] تقضى بعزل شمس الخلافة وأن يحل محله كآمر على عسقلان[٦٩] ، كما قام الأفضل بمصادرة أموال وأملاك شمس الخلافة فى مصر[٧٠] .

على أن شمس الخلافة أرتاب فى نوايا الحملة الفاطمية فرفض أن يأذن لهم بدخول المدينة ، كما رفض أن يخرج لمقابلة الحملة وقائدها ، فعادت أدراجها إلى القاهرة ، فى الوقت الذى أعلن فيه شمس الخلافة خروجه على طاعة الفاطميين ووزيرهم الأفضل بالقاهرة ، ولم يكتف بذلك بل أنه طرد من المدينة الجند الذى أرتاب فى موالاتهم للفاطميين وعمل على تقوية مركزه داخل المدينة وذلك باتخاذه جندا مرتزقه من الأرمن[٧١] وذلك بسبب خوفه من سكان المدينة الموالين لفاطمى القاهرة ، كما رأسل بلدوين الأول طالبا منه العون والمساعدة بالمال والرجال والغلال وتعهد له بتسليم مدينة عسقلان مقابل أ ن يعوضه عنها بمدينة أخرى فى حوزة الفرنج[٧٢] . وبذلك أتيحت لبلدوين الفرصة لان ينال بخيانه الوالى الفاطمى بعسقلان ما لم يستطع الحصول عليه بالقوة فأرسل قوة فرنجية

---

(٦٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٧ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١ مجلد ١ لوحة ٤٩ (ب) .

(٦٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٢ ؛ ابن الجوزى - مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢١ . ويشير كل من ابن الأثير وابن الفرات لعلم الخليفة الآمر باحكام الله الفاطمى بخيانة شمس الخلافة واتفاقه مع الفرنج . راجع ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٧ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ١ لوحة ٤٩ .

(٦٧) ابن الفرات : نفس المصدر ، ج مجلد ١ لوحة ٥٠ (أ) ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٥٠ ـــ ٥١ .

(٦٨) ان المصادر التى لدينا لم تشر إلى اسم قائد الحملة الفاطمية المتجهة الى عسقلان .

(٦٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٧ ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٢ ، كذلك : Albert of Aix, Historia, in R.H.C. Hist. occ., Vol. I, p. 680. chap. XV note 30.

(٧٠) راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٢ .

(٧١) راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٢ ؛ مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ص ٢٢٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٧ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢١ ، أيضا ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٩ ؛ المقريزى : قطع تاريخية ، ورقة ١٨ ؛ الذهبى : دول الاسلام ، ط . حيدر أباد الدكن ١٣٦٥ هـ ، ج ٢ ص ٢٣

(٧٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٢ ؛ المقريزى : قطع تاريخية ، ورقة ١٤٨ ؛ ابن الجوزى: مرآة الزمان، ج ٨ ص ٢١

تصل عددها إلى حوالى ثلاثمائة جندى لحماية شمس الخلافة والتمهيد لوضع سيطرته على المدينة[٧٣] ، بحيث بدا وكأن عسقلان على وشك الدخول تحت حماية الفرنج . والواقع ان الأفضل بدهائه السياسى لكى يمنع استسلام عسقلان للفرنج عمل على اتباع المكر والدهاء ومعالجة هذا الموقف بطريقة ديبلوماسية ، فعمل على إستمالة شمس الخلافة فأرسل اليه وطيب قلبه وسكنه وأقره على عمله ، وأعاد اليه إقطاعه بمصر[٧٤] كما « أزال الإعتراض لشيء من ماله فى ديار مصر من خيل وتجارة وأثاث »[٧٥] .

على أن عصيان شمس الخلافة قد أثار أهل عسقلان أنفسهم ووجوه المدينة الذين خشوا انتقال عسقلان إلى حوزة الفرنج[٧٦] ، فى الوقت الذى عمل فيه الوزير الأفضل من ناحيته على أثارة سكان المدينة والموالين له بها ضد شمس الخلافة كما عمل على أجتذاب وإستمالة وجوه وأعيان البلد وبعض القوى الموجودة بها مثل قبيلة بنو كنانة العربية كما عمل أيضا على التخلص منه بأن دس له من يغتاله[٧٧] . ونجح الأفضل فى مسعاه فسرعان ما أتحد أهل عسقلان وبنو كنانة العرب ، وبفضل المساعدة التى تلقوها من الأفضل ، ثاروا على شمس الخلافة فى المحرم عام ٥٠٤ هـ / يوليو ١١١١ م ، وقتلوه ونهبوا داره وأكثر دور وجوه أصحابه وجرت مذبحة فى المدينة فى عدد كبير من الأرمن والفرنج ممن كانوا بها ، ونادوا بشعار الأفضل ثانية ثم أرسلوا الأفضل يعلموه بالحال فسارع بارسال حامية قوية أعادت الأمور إلى نصابها ، وجعل عليها واليا عوض شمس الخلافة[٧٨] أواخر سنة ٥٠٤ هـ / ١١١١ م ، وكان هذا الوالى يعرف بمؤيد الدولة خطلخ المعروف برزيق[٧٩] . وقد شاء سوء طالع شمس الخلافة وأعوانه أن يغيب بلدوين حليفه ، أثناء وقوع ثورة سكان عسقلان ضده ، فى الشمال لمساعدة تانكريد أمير أنطاكية فى حروبه ضد سلاجقة العراق . وعندما سمع بأنباء أنتفاضة أهل عسقلان ، هرع لأنقاذ رجاله ومساعدة حليفه شمس الخلافة غير أنه وصل بعد فوات الأوان فلم

---

(٧٣) راجع : Funk, H., The fondation of Latin, in setton (ed.,) Vol. I, p. 387.
ويذكر المؤرخ الغربى ستيفن رنسيمان أن شمس الخلافة قد ذهب إلى بلدوين ووضع نفسه ومدينته تحت حمايته ، فأرسل معه الملك الفرنجى فرقة من جنوده تؤيده فى خيانته للفاطميين . راجع رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٥٤ .

(٧٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ص ٣٣٧ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢١ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مخطوط فاو ، ج ١ لوحة ٤٩ ، ٥٠ ؛ أيضا ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٦٩ ؛ المقريزى : قطع تاريخية ، ورقة ٤٨ (أ) . راجع الملحق الخاص بهذا الأمر فى نهاية هذه الدراسة . ملحق رقم (٤) .

(٧٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٢ .

(٧٦) المؤرخ المجهول : تاريخ سلاطين المماليك ص ٢٣٣ . الا المقريزى قد أرخ هذه الأحداث تحت عام ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م ، ويلاحظ ان روايته عن عصيان شمس الخلافة وإلى عسقلان كانت مخالفة بشكل يكاد يكون كاملا عما أوردته المصادر المعاصرة أو القريبة للفترة . راجع المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٥٠ — ٥١ .

(٧٧) المقريزى : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٥٠ .

(٧٨) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٨ ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٢ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص [illegible] ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٩ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١ مجلد ١ لوحة ٥٠ أ ؛ المقريزى : قطع تاريخية ، ورقة ٤٨ (أ) ؛ المؤرخ المجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٣٣ .

(٧٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٥٦ . ولم نجد ترجمة لسيرته فى كتب التراجم .

يسعه سوى العودة[٨٠] وبذلك قدر لعسقلان أن تبقى أربعون سنة أخرى شوكة فى جنب الصليبيين[٨١] ، ومصدراً كبيراً للازعاج والقلق لديهم[٨٢] .

وبذلك نجت عسقلان بصعوبة بالغة من خطر ضياعها من أيدى الفاطميين وعادت ثانية إلى حظيرتهم . ويمكن القول أن خيانة شمس الخلافة ومحاولته الأستقلال بعسقلان عن الخلافة الفاطمية أحدثت هزة فى أوساط المسئولين الفاطميين بالقاهرة ، وعلى رأسهم الوزير الأفضل شاهنشاه والذى بذل جهدا كبيرا لإعادة المدينة ثانية إلى سيادته مستخدما فى ذلك الترهيب فى البداية ثم الترغيب فى النهاية . وساعد الأفضل على إخماد عصيان شمس الخلافة عدة عوامل منها سخط أهل عسقلان والقوى الموجودة داخل المدينة مثل قبيلة كنانة العربية ، فحرص على إستمالتهم إلى جانبه وأثارتهم ضد شمس الخلافة[٨٣] ، بجانب وجود الكثير من الموالين والمخلصين له بمدينة عسقلان . ولا ننسى أيضا استغلال الوزير الأفضل لفرصة غياب بلدوين عن القدس عندما أستدعاه تانكريد لمساعدته ضد سلاجقة العراق ، مما أدى لحرمان شمس الخلافة وأنصاره من حليف ومعين قوى ونجح الأفضل فى إثارة سكان المدينة ضده ، فقام الأفضل بما يمكن تسميته « بانقلاب سياسى» «Coupd.etat» وقضوا على شمس الخلافة وعادوا إلى حظيرة الفاطميين . ولو أن تلك المؤامرة بين الفرنج وشمس الخلافة قد كللت بالنجاح ، فان إستيلاء الفرنج على عسقلان كان سيعتبر من الإنجازات الضخمة التى حققوها ويذاع صيتها فى العالم الإسلامى ، ولتخلص الفرنج بذلك من جار مزعج سبب لهم ضيقا ورعبا كبيرا .

يبدو وكأن الأفضل بن بدر الجمالى قد عزم أن ينتقم مما قام به غريمه التقليدى بلدوين الأول ، وذلك بشن المزيد من الهجمات الإنتقامية على مدينة بيت المقدس وتوابعها الجنوبية عن طريق حامية مدينة عسقلان والتى بدأت تستأنف نشاطها ثانية . ففى عام ٥٠٦ هـ / ١١١٣ م ، أنتهز الفاطميون فرصة انشغال بلدوين بحروبه مع الأتراك بزعامة مودود أتابك الموصل فى الجليل[٨٤] ، فقامت فرقة فاطمية من عسقلان بشن غارة مفاجئة على بيت المقدس[٨٥] ، فى الوقت الذى خرجت فيه فرقة أخرى أتجهت لحصار مدينة يافا ، ولكن هذا الحصار ، الذى لم يكن مدعما بحصار قوى للمدينة من البحر ، أنتهى بالفشل وانسحاب الفاطميين بعد أيام قلائل عائدين إلى قاعدتهم فى

---

(٨٠) Albert of Aix, R.H.C., Hist., occ., Vol. p.p. 680-681 chap. XI; cf, also Fink, Foundation, Vol. I, p. 387.

(٨١) سليمان رلسمان : نفس المرجع ج ٢ ص ١٥٤ . Albert of Aix, R.H.C., Hist. occ., Vol. IV, p. 681.

(٨٢) Archer & Kingsford, the crusades, p. 138.

(٨٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٥٠ .

(٨٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨٤ — ١٨٥ ، كذلك : Fulcher of chartres, the expedition, p.p. 205-207, Chap. XIIX.

(٨٥) Stevenson, the crusaders in the East, p. 65, F. 1.

يعتمد على مصدر لم يذكره . ويلاحظ أن المصادر الاسلامية والفرنجية لم تشر إلى مثل هذه الغارة الفاطمية التى انطلقت من عسقلان .

عسقلان[٨٦] .

ويبدو أن هذه الغارات كانت بمثابة تمهيد أو مقدمة لحملة كبيرة كان الأفضل يعد لها للانتقام من إشتراك الفرنج فى مؤامرة خروج عسقلان على طاعته . ويلاحظ أن المصادر الصليبية قد أنفردت دون غيرها من المصادر الإسلامية بذكر هذه الحملة التى بدأ الأفضل يعد لها ضد يافا[٨٧] . ولكن هذه المصادر الفرنجية لم تحدد لنا فى حقيقة الأمر الظروف التى أحاطت بتجهيز الأفضل لهذه الحملة الضخمة البرية والبحرية منذ فشل أخر حملة كبرى له فى فلسطين عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م .

ويمكن القول أن غرض الفاطميين من أرسال هذه الحملة إلى يافا فى هذه المرة دون بيت المقدس هو محاولة لحرمان الصليبيين من أحد المراكز الهامة لتجمعات الحجاج والجند والإمدادات الآتية من الغرب الأوربى إلى امارة بيت المقدس على البحر المتوسط وأقرب موانىء الساحل إليها ، ومحاولة قطع طريق القوافل الفرنجية المتجهة من يافا إلى بيت المقدس .

وكيفما كان الأمر ، ففى ٢٢ ربيع الأول عام ٥٠٩ هـ / أغسطس ١١١٥ م ، أنتهز الفاطميون فرصة غياب بلدوين الأول ، ملك بيت المقدس الصليبى ، فى الشمال لمواجهة حملة برسق بن برسق أحد أمراء سلاجقة فارس على شمال الشام[٨٨] ، فأرسلوا جيشا بريا خرج من عسقلان ، مدعما بأسطول بحرى ضخم يصل عدده إلى سبعين عمارة فاطمية[٨٩] ، قام بمهاجمة يافا برا وبحرا ، وضرب حصارا محكما حول المدينة[٩٠] ، وسرعان ما شنت القوات الفاطمية وقوات الأسطول الراجلة موجات متتالية من الهجوم العنيف على المدينة محاولين أقتحامها . ورغم نجاح الفاطميين فى إحراق بوابات المدينة وأبوابها ، ورغم محاولاتهم العديدة لتسلق أسوارها ، وأستخدام آلات المجانيق لاحداث ثغرات فى التحصينات الخارجية لأسوارها ، إلا أن حامية يافا الصليبية صمدت أمام تلك الهجمات الفاطمية المحمومة وأستطاعت ردها ، وأستمر ذلك عدة أيام[٩١] ، إلا أن القوات الفاطمية المحاصرة للمدينة ، عندما وصلتها الأنباء بوصول نجدة من القدس لانقاذ يافا خافت أن تقع بين شقى الرحى ، فسارعت بالإنسحاب إلى عسقلان ، فى

---

(٨٦) Prutz, Kulturgeschichte derkreuzzuge, Berlin 1883; p. 95; Tolkowsky, History of Jaffa, p. 94.

(٨٧) Fulcher of chartres, the expedition, p. 211, William of tyre, deeds, Vol. 1, p. 502.

(٨٨) راجع ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ج ١٠ ص ٢٤٥ ، حوادث ٥٠٩ هـ ، كذلك : Fulcher of chartres, the expedition, p.p. 210-211, chap. IIX.

(٨٩) يلاحظ أهتمام المؤرخ فوشيه شارتر بالاشارة الى أنواع السفن الفاطمية المشاركة فى حصار يافا ، فيذكر أن بعضها كان سفن ناقلة الجداف ، وأخرى مشحونة بالمؤن ، وثالثة مزودة بآلات الحصار البحرى اللازمة . وهذا يعبر دقة فى الوصف من جانب فوشيه .

(٩٠) Fulcher of chartres, expedition, p. 212.

(٩١) William of tyre, deeds, Vol. I, p. 502 chap. XXIV,
Fulcher of chartres, op. cit., p. 212 chap. III,

سرعان أبحر الأسطول الفاطمى عائدا إلى قاعدته فى ميناء صور[٩٢] ، دون أن يحققوا غرضهم وذلك فى الجولة الأولى لحصار يافا فى أواخر ربيع أول ٥٠٩ هـ / ٢٢ أغسطس ١١١٥ م .

ويبدو أن الإنسحاب الفاطمى من أمام مدينة يافا الصليبية ، كان مجرد خدعة حربية ، فلم تمض عشرة أيام على ذلك الهجوم الفاطمى الأول عليها ، حتى قامت قوات فاطمية ضخمة من عسقلان بطرق أبواب المدينة ثانية ، بغية استغلال عنصر المفاجأة فى اقتحام المدينة وإسقاطها ، مستخدمين فى ذلك آلات الحصار وسلالم التسلق ، إلا أن يقظة حامية يافا الفرنجية ، ووصول الأنباء بعودة الملك بلدوين وقواته من شمال الشام ، وعدم وجود اسطول فاطمى يحاصر المدينة بحرا أدى إلى فشل الهجوم الفاطمى الثانى ، وإنسحاب القوات المصرية إلى عسقلان بعد قتال دام ست ساعات دون نتيجة تذكر وذلك فى ٩ ربيع الثانى ٥٠٩ هـ / سبتمبر ١١١٥ م[٩٣] .

ويمكن القول بأن ما قام به الفاطميون من غارات على مدينة بيت المقدس وبعض مدن الساحل مثل يافا ، وكان آخرها حملة عام ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م ، رغم أنها كانت تقل عن الحملات الفاطمية الكبرى والتى بدأت بحملة الأفضل والتى هزمت فى موقعة عسقلان الكبرى عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، وأنتهاء بحملته عام ٤٩٨ ــ ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م الفاطمية الدمشقية المشتركة ، من حيث القادر والأهمية ، إلا أنها أزعجت حياة النزلاء أو الحجاج فى منطقة السهل الساحلى الواقع غرب امارة بيت المقدس الصليبية ومنطقة النقب ورغم أن هذه الغارات ، فى رأينا ، لم تتعد كونها مجرد هجمات إنتقامية ردا على ما قام به بلدوين الأول من هجمات وحصارات لمدن الساحل الشامى الفاطمية وتملكها إلا أنها أظهرت أهمية مدينة عسقلان فى الصراع الفاطمى الصليبى ، كقاعدة مصرية عسكرية هامة فى فلسطين وجنوب شرق مملكة بيت المقدس اللاتينية ، والتى كانت كفيلة بزلزلة أركان تلك المملكة وتوابعها وتحدت الفرنج طويلا .

ويمكن القول أيضا أن الأفضل شاهنشاه قد نجح إلى حد بعيد فى استغلال موقع مدينة عسقلان فى جنوب شرق مملكة اللاتين بالشام ، ولهذا أدرك الفرنج مدى خطورة بقاء هذه المدينة فى أيدى الفاطميين . ورغم أن الفرنج حاولوا الرد على غارات أو هجمات حامية عسقلان الخاطفة بشن المزيد من الهجمات على بقية أملاك الفاطميين بالشام ومهاجمة ونهب القوافل التجارية التى كانت تتجه من دمشق إلى القاهرة وكانت تمر بأراضى الفرنج ، فى محاولة منهم للانتقام من الفاطميين ، بجانب تحريض أساطيل جنوة وبيزه والبندقية على القيام بعمليات قرصنة

---

(٩٢) Fulcher of chartres, Ibid, William of tyre, deeds, Vol. I, p. 502.

ولم تتعرض الأصول العربية لأية من تلك الأحداث على الاطلاق .

ويلاحظ أن رواية المؤرخ وليم الصورى كانت شبيهة الى حد كبير برواية فوشيه شارتر ، مما يشير لاعتماد الأول على الثانى باعتباره معاصر وشاهد عيان لتلك الأحداث، وكذلك : Tolkowsky, the gateway, p. 94; Stevenson, the crusaders in the East, p. 65.

(٩٣) Fulcher of chartres, the expedition, p.p. 212-213; William of tyre, deeds, Vol. I, p. 503; Chap. XXV. Tolkowsky, the gateway, p. 94.

بحرية فى البحر المتوسط وذلك بمهاجمة القوافل التجارية الفاطمية الخارجة من الموانىء المصرية بالإسكندرية ودمياط متجهة إلى الشام[٩٤] ، كما حدث فى عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م عندما هاجم بلدوين قافلة ضخمة كانت متجهة من دمشق إلى القاهرة وقام بنهبها وأسر معظم رجالها[٩٥] ، وكما حدث فى عام ٥٠٤ هـ / ١١١١ م عندما هاجمت أساطيل الجنوية قافلة تجارية فاطمية كانت فى طريقها للشام واستولوا على كل ما فيها[٩٦] .

ولا ننسى هنا أن نشير إلى قيام بلدوين بمهاجمة أحد القوافل التجارية الدمشقية الضخمة وكانت متجهة إلى مصر عام ٥٠٦ هـ / ١١١٣ م ، ونهب وسلب كل ما فيها من سلع وأموال ، فى حين أجهز العرب على كل من صادفوه حيا من رجالهم[٩٧] ، وقد بلغ من ضخامة هذه القافلة التى استولى عليها بلدوين والعرب « أنه لم يبق بلد من البلاد إلا وقد أصيب بعض تجارة فى هذه القافلة »[٩٨] .

كما طور الفرنج وجددوا من سيادتهم واستراتجيتهم إزاء مدينة عسقلان ، فقد أدركوا أن هجماتهم وغاراتهم المتواصلة على المدينة قد دمرت قراها وحقولها الزراعية المحيطة بها دون أن تجبر المدينة على الإستسلام أو تجعل الحامية الفاطمية المدافعة عنها تجثو على ركبتها أمامهم فلقد عمل الصليبيون على حماية امارة بيت المقدس من حدودها الجنوبية الشرقية وتأمينها وذلك باقامة سلسلة من القلاع والتحصينات القوية تحيط بمدينة عسقلان ، وتغلق نطاقها حول المدينة ، وكان الهدف من إقامة حلقة هذه القلاع إغلاق الطرق الواصلة من عسقلان إلى الشمال والشرق اى المتجهة نحو السهل الساحلى المجاور لمدينتى يافا والرملة ، وإمارة بيت المقدس اللاتينية[٩٩] ، وذلك أمام غارات القوات الفاطمية الخارجة من عسقلان وتسلك هذا الطريق ، بجانب هدفهم فى عزل عسقلان عن جيرانها من المدن الأخرى مثل غزة ورفح والعريش وقطع الصلة بينهما وبين مصر ، وذلك بقطع الإمدادات والميرة والعتاد المرسل اليها على فترات منتظمة من القاهرة لتظل صامدة أمام أية هجمات أو حصارات فرنجية[١٠٠] . كما هدف الصليبيون أيضا إلى حرمان الخلافة الفاطمية من مصدر قوتها والأثر الوحيد الباقى لسيادتها على جنوب الشام والتى كانت مركز متاعب وقلق لصليبيى الإمارة اللاتينية بجانب هدف الفرنج فى تهديد القوافل التجارية المتجهة من

---

(٩٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧١ — ١٧٢ ؛ ابن الأثير . الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٩ .

(٩٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٦ .

(٩٦) ابن القلانسى . ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧١ — ١٧٢ ؛ ابن الأثير . الكامل ، ج ١٠ ص ٣٣٩ .
كذلك : Heyd, Histoire de commerce du Levant, to. I, p. 150.

(٩٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨٢ ؛ ابن الأثير . الكامل ، ج ١٠ ص ٣٤٩ ؛ رنسيمان:تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٥٨ .

(٩٨) ابن القلانسى : نفس المصدر ، ص ١٨٢ .

(٩٩) Prawer, J., the Latin Kingdom, p. 22.

(١٠٠) المؤرخ المجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٤٥ .

دمشق إلى القاهرة والجزيرة العربية وذلك بقطع الطريق البرى الواصل بين مصر والشام والعراق والحجاز ، عبر شبه جزيرة سيناء[١٠١] .

إن بلدوين كان يريد أيضا من سياسة بناء هذه التحصينات الدفاعية ، التمهيد لعزل مدينة عسقلان ثم إسقاطها فيما بعد ، وبعدها يتمكن من الوثوب إلى صور ، الأثر الوحيد الباق لسيطرة الفاطميين على شمال الشام ، والتي كانت أيضا مركز قلاقل كثيرة للصليبيين ، فكانت تخرج منها السفن الفاطمية لشن الهجمات على مدن الساحل الفرنجية القريبة ، كما كانت مركزا بحريا قويا وهاما تلجأ اليه الأساطيل الفاطمية لتهديد الأساطيل الإيطالية ، ولقطع الإمدادات والمؤن الآتية من الغرب الأوربى للمملكة اللاتينية عبر البحر المتوسط[١٠٢] .

لقد بدأ بلدوين فى تنفيذ سياسته تلك بأن قام فى عام ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م بتشييد قلعة أو حصن الشوبك[١٠٣] «Mont Royal (Montreal)» ، لتكون مركزا صليبيا متقدما يمكن الصليبيين من الأنطلاق منه لمهاجمة عسقلان وقطع الإمدادات الآتية اليها من القاهرة ، وليضمن السيطرة التامة على وادى عربه بأكمله بجانب شن غارات وفرض اتاوات على القوافل التجارية العابرة لهذا الطريق من وإلى مصر ودمشق وإلى مكة والمدينة[١٠٤] كما بنى أيضا قلعة تسمى قلعة أيلة عام ٥١٠ هـ / ١١١٦ م عند رأس خليج العقبة ، كما شيد أيضا قلعة أخرى فى جزيرة فرعون الواقعة قبالة أيلة عند خليج العقبة ، وذلك ليزيد من تحكمه فى طريق القوافل التجارية بين مصر والشام[١٠٥] . والواقع أن بناء هذه الحصون لمنع الخطر القادم على إمارة بيت المقدس من عسقلان سوف يكون أحد الدوافع الهامة التى جعلت بلدوين فيما بعد يفكر فى القيام بغزو مصر أثناء وزارة الأفضل شاهنشاه كما تذكر بذلك غالبية مصادرنا الإسلامية والصليبية ، وهو ما سيكون موضوع حديثنا فى نقطة تالية .

... كما أن تشييد هذه القلاع الفرنجية قد أتى ثماره بالنسبة للفرنج اذ هددت فعلا القوافل التجارية الخارجة من مصر إلى الشام ، وشكل خطرا كبيرا على التجارة الفاطمية الخارجية ، وأنذر الإقتصاد الفاطمى بالخطر ، كما بدأت تشكل تهديدا كبيرا على مدينة عسقلان ، خاصة وأنه لوحظ أن الغارات الفاطمية قد توقفت مباشرة بعد بناء مثل هذه القلاع فلم تشر المصادر

---

(١٠١) Grousset, L'Empire du Levant, p. 213; Prawer, Latin Kingdom, p. 22.

ويلاحظ أن هذه السياسة قد أتضحت بشكل أقوى فى عهد خلفاء بلدوين الأول . راجع فى ذلك : Prawer, Latin Kingdom, pp. 22-23.

(١٠٢) Fulcher of chartres, the expedition, p. 200 chap. XIIV, Felix Fabri, the book of wundering, in p.p. T.S., Vol. IV, p.p. 313-314.

(١٠٣) Fulcher of chartres, op. cit., p. 215; Prawer, the Latin Kingdom, p. 44.

(١٠٤) Stevenson, the crusaders in the East, p. 65; Funk, H., the foundation of the Latin States, in setton (ed.,) Vol. I, p. 400.

(١٠٥) Oman, Art of war, Vol. I, p. 257; Funk, H. the foundation of the latin states, in setton (ed.,) Vol. I, p.p. 604.

الإسلامية أو الفرنجية إلى قيام حامية عسقلان بأى نشاط وقتذاك ، كما بلغ من خطورة هذه القلاع أيضا على التجارة الخارجية للخلافة الفاطمية أن اضطر الوزير الأفضل شاهنشاه لمهادنة بلدوين وعقد صلح مع الفرنج عام ٥٠٩ هـ / ١١١٦ م ، بخاصة بعد أن استولى بلدوين على قافلة مصرية ضخمة قرب عسقلان[١٠٦] . وتذكر المصادر الإسلامية أن الأفضل قد هادن بلدوين « لعجزه عنه »[١٠٧]. ويلاحظ أن هذه كانت أول إشارة توردها المصادر الإسلامية عن وجود إتصالات فاطمية صليبية وتوقيع هدنة بين الجانبين منذ وفود الحملات الصليبية إلى الشام مما يؤكد نجاح السياسة الفرنجية إزاء مدينة عسقلان والفاطميين بالقاهرة .

لم تكن فكرة الفرنج لغزو مصر وليدة فكر الملك بلدوين الأول عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م ، بل أن هذه الفكرة ترجع بذورها الأولى منذ وفود الصليبيين بالشام ، وقبل استيلائهم على بيت المقدس ذاتها . وسنحاول هنا أن نلقى نظرة سريعة على بداية ظهور هذه الفكرة وتطورها حتى قيام بلدوين الأول بإخراجها إلى حيز التنفيذ عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م ، والتعرف على الظروف أو العوامل التى كانت تكمن وراء محاولته تلك وأهم ما ترتب عليها من نتائج إلى جانب رد الفعل الفاطمى لها .

لقد أوضحنا فى مواضع كثيرة مما سبق أن الخلافة الفاطمية ووزيرها القوى الأفضل بن بدر الجمالى لم تقف مكتوفة الأيدى أمام الغزو الصليبى للشام ، بل قامت بدور ضخم وبارز فى مقاومته والحد منه . ويكفى أنها كانت أول قوة واجهته ، واصطدمت به عند دخوله إلى فلسطين دون الأتراك السلاجقة الذين وقفوا منه موقفا سلبيا ، فزحفت الجيوش الفاطمية على الشام وأنتزعت مدينة بيت المقدس من أيدى الأراتقة فى رمضان عام ٤٩١ هـ / أغسطس ١٠٩٨ م ، ولم تلبث أن إجتاحت فلسطين كلها بحيث صار الحد الفاصل بينهما وبين الصليبيين خطا ممتدا من الساحل شمال بيروت ، على طول مجرى نهر العاصى حتى عسقلان[١٠٨] . ولكن القوات الصليبية تمكنت من هزيمة الفاطميين وأستولت فى النهاية على بيت المقدس كما ذكرنا من قبل ، فى شعبان عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م[١٠٩] .

وكان الفرنج ، كما يذكر مؤرخهم وليم الصورى ، يعرفون مدى قوة الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، وبأنها مصدر الخطر الوحيد والقوى القادرة على الحيلولة دون وصولهم إلى جنوب الشام ، وكانوا يعرفون أن مصر قوة لا يستهان بها ، وهو ما سبق أن أخبرهم به الأمبراطور البيزنطى اليكسس كومنين ( ٤٧٤ — ٥١٢ هـ / ١٠٨٥ — ١١١٨ م ) بل ونصحهم بالوصول إلى نوع من الإتفاق مع الفاطميين فى مصر ، لتحقيق مشروعاتهم فى العالم الإسلامى ،

(١٠٦) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٣٤ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٠٩ .
(١٠٧) أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٠٩ .
(١٠٨) د. محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ؛ ط. القاهرة ١٩٦١ ، ص ٣ — ٤ .
(١٠٩) راجع صلاح الدين نوار : سياسة الخلافة الفاطمية فى بلاد الشام ، رسالة ماجستير لم تنشر ، اسكندرية ١٩٨٤ ، ص ٣٨٦ — ٤٠٨ والحواشى .

وتجنب خطرهم وذلك باعتبارهم أشد الناس عداوة للأتراك[١١٠] ، في حين عرفوا بالتسامح مع رعاياهم المسيحيين،وأستعدادهم للتفاهم مع أية قوة مسيحية[١١١] .

ولهذا فقد وجدنا الصليبيين ، في أحدى مراحل الحملة الأولى ، يفكرون في غزو مصر ، وقبل الزحف على مدينة بيت المقدس نفسها ، باعتبارها العدو الأول الذي يجب مواجهته ، وليصبحوا بالملك سادة على فلسطين وجنوبي الشام ، والدليل على ذلك أنهم أثناء تواجدهم في الرملة في رجب ٤٩٢ هـ / أوائل يونيه ١٠٩٩ م ، عقدوا مجلسا للحرب أقترح فيه بعض بارونات وقادة الفرنج توجيه ضربة مباشرة إلى مصر وغزو الخلافة الفاطمية بعقر دارها ، قبل أسقاط بيت المقدس على أساس أن مفاتيح المدينة المقدسة توجد بالقاهرة ، وأنه إذا أراد الفرنج أن ينعموا بالأستقرار في الأراضي المقدسة فعليهم الإستيلاء أولا على دلتا النيل على حد قول المؤرخ الصليبي البروفنسي ريموند أجيل[١١٢] .

ورغم أن هذه الفكرة لم تجد قبولا لدى بعض القادة الفرنج ، ألا أنها تعطينا فكرة واضحة عن مدى أطماع الصليبيين ، وعمق الأستراتيجية التوسعية العسكرية تجاه منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ورغم ذلك فلم توضع هذه الفكرة موضع التنفيذ ، بل قوبلت بالرفض من بقية المجتمعين بمجلس الرملة ، خاصة وأن ظروف الفرنج وقتذاك لم تكن تسمح بالقيام بتلك المغامرة ، كما أن أقدام الصليبيين لم تكن قد توطدت بعد في فلسطين ، بجانب أن مصر كانت قوة لا يستهان بها[١١٣] ، بالإضافة إلى جهل الفرنج لطبيعة وجغرافية المناطق أو الأقاليم التي سيسلكونها إلى القاهرة . ولكن هذه الفكرة ظلت مسيطرة على عقول قادة الحركة الصليبية ، حتى بعد تأسيس إماراتهم الصليبية بالشرق الإسلامي وسيحاول بعضهم تنفيذها كلما لاحت له الفرصة .

وبعد تأسيس الإمارات الفرنجية بالشام وأختيار جودفري اوف بوايون ( ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ــ ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م ) أول حاكم على مملكة بيت المقدس اللاتينية[١١٤] ، وخلال فتره

---

(١١٠) William of tyre, History of the deeds, New York 1943, Vol. I. p. 326.

(١١١) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة د. السيد الباز العريني ، ط. بيروت ، ج ١ ص ٣٢٥ ، كذلك · Runciman (S.,) The first crusade; in setton (ed.,) Vol. I, p. 316.

(١١٢) Raymond of Agullers, Historia francorum qui ceperunt hierosolymitana, in the collection of bongars; Gesta dei per Francos, Hannover 1612, Vol. I,p. 172.

ان المؤرخ ريموند أجيل هو المؤرخ الصليبي الوحيد الذي انفرد بذكر هذه الرواية التي تتضمن هذه الفكرة الغريبة التي طرحها القادة للفرنج ، ولو لم يكن ريموند حاضرا هذا المجلس العسكري ، فإننا لم نكن لنصدق ما أورده . وقد أيد روايته من المؤرخين المحدثين

Zoé oldenburg, the crusades, New York 1965, p. 131, Lamb (H.), The crusades, Iron men and Saints, London 1931. p. 200.

(١١٣) Zoé oldenburg, op. cit. p. 131. Lamb, op. cit., p. 48, Michaud, History of crusades, Vol. I,p.p. 200-201.

(١١٤) اتخذ جودفري لقب حامي الضريح المقدس Advoatus sancti sepulchri

راجع : Fulcher of chartres, the expedition, p. 125, Cf also Duggan, A., the story, p. 79.

حكمه ، رأينا جهود الفاطميين ووزيرهم الأفضل لزحزحة الصليبيين عن مواقعهم بالشام ، فقامت الجنود والسفن الفاطمية بالهجوم على القوات الصليبية عند عسقلان وأرسوف وحيفا أواخر عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، وإن كانت هذه المحاولات لم تأت بنتيجة تذكر ، بل أن الجيش الفاطمي الضخم الذى قاده الأفضل نفسه لاستعادة بيت المقدس والقضاء على الفرنج(١١٥) ، والذى كان كفيلا بالقضاء على المشروع الصليبي وهو لا يزال وليدا ، قد لقى هزيمة قاسية فى سهول عسقلان فى شوال ٤٩٢ هـ / أغسطس ١٠٩٩ م ، حيث تأكد بعدها جودفرى من فاعلية القوة المصرية الفاطمية فى مقاومتها للوجود الصليبي ، مما دفعه إلى فكرة الإستيلاء على مصر ، عندما أعلن عن استعداده للتنازل عن مركزه فى الدولة الصليبية ببيت المقدس من أجل تنفيذ فكرة غزو مصر(١١٦) ، ولكن مدة حكمه القصيرة لم تمهله لتحقيق ذلك .

ولكن فكرة جودفرى توضح لنا فاعلية الدور الفاطمى فى جهاد الفرنج ، ومدى الأطماع الصليبية للاستيلاء على مصر لتأمين الإمارات أو الفتوحات الصليبية الناشئة .

وعندما ورث بلدوين دى بويون «Baldwin de Boulogne» كونت الرها أخاه كأول ملك على القدس ( ١١٠٠ — ١١١٨ م )(١١٧) أدرك أن الخلافة الفاطمية فى مصر هى مصدر الخطر الداهم على المملكة الصليبية الجديدة ، وأن أفضل وسائل الدفاع عن المملكة هو شن هجمات خاطفة وجريئة على المراكز الفاطمية الباقية بالشام وبخاصة مدينة عسقلان ، وقد نجحت هذه الهجمات إلى حد ما بسبب سوء خطط القادة الفاطميين فى الشام ، وعدم تنسيق العمليات العسكرية فى البر والبحر(١١٨) كما رأينا من قبل فى موقعة الرملة الثانية .

ولقد ظلت هذه الفكرة ماثلة فى ذهن بلدوين أوف بوايون ، إلى درجة أنه بعد موقعة الرملة الأولى ، هدد عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م بغزو مصر ، وذلك ليستطيع مساعدة النورمانديين فى حروبهم ضد مسلمى جنوب إيطاليا ، صقلية ، منذ أن علم بقيام الفاطميين بمصر بمساعدتهم بالمؤن والإمدادات ، بجانب رغبته فى توسيع رقعة مملكته وذلك بالإستيلاء على السواحل الشرقية والغربية والجنوبية للبحر المتوسط والخاضعة للفاطميين(١١٩) .

و سرعان ما تجمعت عدة عوامل هامة أدت إلى اختيار فكرة غزو مصر فى ذهن بلدوين

---

(١١٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧٦ ، كذلك : Michaud, History of crusades, Vol. III, p. 362 appendix IX.

(١١٦) د. محمد زيادة حملة لويس التاسع على مصر ، ص ٤ ؛ ارنست باركر : الحروب الصليبية ترجمة د. العرينى ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٥٨ ، وهذه الرواية لم نجدها فى أى مصدر من المصادر الفرنجية الموجودة لدينا . كما أن كل من د. زيادة ، باركر لم يشيرا للمصدر اللذان استقيا منه هذه الرواية .

(١١٧) Fulcher of chartres, the expedition, p.153 William of tyre, History of the deeds, Vol. I. p. o427.

(١١٨) د. محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ، ص ٥ .

(١١٩) Grousset, R., L'épopée des croisades, p. 103.

ومحاولة إخراجها إلى حيز التنفيذ فى عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م ، ومنها تلك المحاولة الوحدوية ، والتقارب بين دمشق والقاهرة ممثلا فى حملة ٤٩٨ ـــ ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م المشتركة . وقد تفهم بلدوين خطورة تلك الجهود على إمارة بيت المقدس الصليبية اذ أن قيام حلف قوى بين الفاطميين والسلاجقة يعنى قيام القوتين بالإطباق على إمارة بيت المقدس من الشمال والجنوب وتوقعها بين شقى الرحى ، مما جعله يفكر فى محاولة غزو مصر ذاتها ليحول دون قيام هذه الوحدة . ويبدو أن الجنوية قد لعبوا دورا هاما فى محاولة الصليبيين لغزو مصر ، اذ أن ما أورده مؤرخ حوليات جنوه كافارو الكاسكفلونى كشاهد عيان لتلك الفترة ، يؤكد إتفاق الجنوية مع بلدوين على إحتلال مصر نظير حصولهم على ثلث القاهرة أو ثلث الإسكندرية ودخلها وبعض الأملاك فى المناطق أو القرى الريفية المجاورة[١٢٠] . ويذكر كافارو أن بلدوين « من جهته وافق على منح امتيازات للجنوية فى مدينتى القدس ويافا ، ومنحهم مدينة أرسوف أيضا ، وثلث بابليون ( مصر ) «Babilonia» وذلك عام ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م . ويلاحظ أن هذا التاريخ يتفق مع زمن حملة الأفضل ـــ طغتكين المشتركة فى عام ٤٩٨ ـــ ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م ضد اللاتين مما يدعو للاعتقاد أن بلدوين أفزعته جهود الأفضل لأقامة اتحاد مع إمارة دمشق فسارع بعقد هذه الإتفاقية مع الجنوية كرد على محاولة التحالف المصرى الدمشقى ، سجلت هذه الإتفاقية فى سجل لدى تانكريد النورمندى ، كما أشارت بذلك أوراق كافارو الجنوى[١٢١] .

وهناك رأى مؤداه أن تفكير الفرنج فى تلك المرحلة فى مهاجمة الخلافة الفاطمية فى عقر دارها إنما هو محاولة للانتقام من المصريين لما شنوه من هجمات على مملكة الصليبيين متخذين عسقلان قاعدة لتلك الغارات ، وكان بلدوين يأمل من وراء توجيه ضربة قوية للفاطميين فى القاهرة ، إجبار مدينة عسقلان على تسليم قيادها له وتخليص مملكة بيت المقدس اللاتينية بذلك من الرعب الذى سببته تلك المدينة بحاميتها القوية[١٢٢] .

وهناك من يرى أن العامل الهام والمباشر الذى دفع بلدوين للتفكير فى مهاجمة حدود مصر الشرقية وقتذاك ، هو العمل على حماية وتأمين مملكة بيت المقدس الفرنجية من الجنوب الشرقى ، وذلك بالسيطرة على الأقاليم الواقع بين البحر الميت وخليج العقبة المعروف باسم وادى عربه ، محاولا بذلك توسيع حدود مملكته ، بدفع حدودها الجنوبية نحو البحر الأحمر[١٢٣] .

ذلك أن بلدوين ، بعد نجاحه فى التخلص من الخطر الفاطمى الكبير الممثل فى حملاتهم

---

(١٢٠) Caffaro, de liberatione civitatum orientis, R.H.C., Hist. occ., Vol. V, p. 59 chap. XI, Prawer, the Lating Kingdom, p. 457; also encyclopedia of Islam, London 1960, Vol. I, Art Babylon.

(١٢١) Caffaro, Liberatione, R.H.C., Hist. occ. Vol. V, p. 59.

(١٢٢) باركر : الحروب الصليبية ، ص ٥٥ ، كذلك - Archer & Kingsford, the crusades p. 140.

(١٢٣) Grousset L'épopée des croisades, p. 99, Stevenson, the crusaders in the East, p. 66; Oman, Ch, Art of war, Vol. I, p. 257.

الثلاث الكبرى على جنوب الشام ، ونجاحه فى اسقاط مدن وموانىء الساحل الشامى الفاطمية باستثناء صور وعسقلان وتوسيع حدود مملكته واقترابها تدريجيا من الأطراف المصرية ، أنصرف فترة من الزمن عما يجرى فى شمال الشام من أمور ( نعنى بذلك حروبه مع سلاجقة فارس منذ عام ٥٠٢ هـ / ١١١١ م ) وبعد أن فشل فى إسقاط مدينة صور ، لم تكن هذه الفكرة تراوده وقتذاك أو حاول تنفيذها ، وأن كان قد أعلن صراحة فى أحد المرات فى طرابلس بعد سقوطها عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م أنه ينوى أن يجعل من نفسه سيدا لا ينازع على الشرق الفرنجى ، معززا دعواه بما حدث فى أمور فى الرها وأنطاكية[١٢٤] .

وبعد أن فرغ بلدوين من حروبه مع سلاجقة فارس فى الشمال ، وتأمين ممتلكاته بالشام ، أضحى بوسعه أن يوجه اهتمامه من جديد لتوسيع حدود مملكته ، خاصة وأنه كان يدرك أن فلسطين كانت معرضة باستمرار لخطر الغزو الفاطمى من جهة الجنوب الشرقى ، عن طريق صحراء النقب ، ولهذا بدأ يتخذ سياسة جديدة ، أختلفت تماما عن سياسته السابقة التى كانت قاصرة على تأمين بيت المقدس ، وأسقاط موانىء الساحل الشامى . حقيقة أنه تسلم مملكة بيت المقدس اللاتينية محدودة الرقعة ، فلم تمض سنوات من حكمه حتى حولها إلى مملكة قوية شملت كل فلسطين تقريبا منذ عام ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م ، وسيطرت على الساحل الممتد من بيروت حتى العريش عند الحدود المصرية ، ما عدا مينائى عسقلان وصور[١٢٥] ، وكان للمملكة قواعد عسكرية تحميها من ناحية الشرق والشمال منها قلعة بانياس القوية ، ناحية نهر الأردن ، وكانت بمثابة برج مراقبة قوى يطل على إمارة دمشق من جهة الشمال الشرقى[١٢٦] . وما عدا ذلك كانت الحدود الجنوبية الشرقية تتمثل فى طريق جبلى يمتد من الطرف الجنوبى للبحر الميت حتى ميناء أيلة ( العقبة الآن ) على خليج العقبة وهو الطريق المشرف على صحراء النقب الحالية[١٢٧] .

وكان بلدوين يعلم أن إمارة الرها الفرنجية وقفت حاجزا بين الممتلكات الإسلامية فى شمال الشام والعراق ، وهما حلب والموصل ، ولذلك بدأ يفكر فى مشاريع توسعية تتسم بالجرأة وبالغة التهور فى نفس الوقت ، اذا كان يريد حماية بيت المقدس من جهة الجنوب الشرقى ودفع حدودها إلى البحر الأحمر ، وذلك بالسيطرة على الصحراء الممتدة بين جنوبى البحر الميت وخليج العقبة المعروفة بوادى عربه ، وهذا المشروع له أهمية دفاعية فى المقام الأول ، إذ أنه يتمكن بذلك من عزل مصر ، مصدر القوة فى الشرق الأدنى الإسلامى الذى يهدد مملكته ، عن بقية العالم الإسلامى[١٢٨] ، وقطع الطريق البرى الذى يصل بينها وبين الشام والحجاز عبر شبه جزيرة

---

(١٢٤) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٥٨ .

(١٢٥) د. محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ، ص ٥ ؛ باركر : الحروب الصليبية ص ٥٤ .

(١٢٦) Oman, Ch., Art of war, p.p. 257-258.

ولمزيد من التفاصيل عن التحصينات التى أقيمت لحماية حدود مملكة اللاتين ، راجع : Oman, Ch., Art of war, p.p. 257-258.

(١٢٧) د. محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ، ص ٥ .

(١٢٨) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٥٨ .

سيناء[١٢٩] ، وكان يدفعه لذلك أيضا حافز اقتصادى أو تجارى يهدف إلى تهديد طريق القوافل التجارية بين مصر وآسيا وبالتحديد الطريق الممتد من مصر والبحر الأحمر إلى دمشق[١٣٠] . ولفرض المكوس أو الأتاوات على القوافل الإسلامية التى تعبر بين دمشق والقاهرة أو بين دمشق والمدن المقدسة مثل مكة والمدينة[١٣١] وليسهل عليه فيما بعد مهاجمة مصر أو غزوها فى الوقت المناسب .

وبدأ بلدوين التمهيد لمشروعه الجديد ، بتأكيد سيطرته على المنطقة الممتدة من جنوب البحر الميت إلى ميناء أيله على خليج العقبة وذلك ببناء قلعة أو حصن الشوبك ( جبل الملك )[١٣٢] «Montreal-le krak de Montrèal» وكانت هذه القلعة تقض فى بقعة تقع فى منطقة غابات بين المنخفض والجزيرة العربية[١٣٣] ، وتتميز بموقع استيراتيجى وجغراف هام فكانت قلعة الشوبك[١٣٤] تحرس المدخل المؤدى إلى البحر الأحمر الذى يمر من العقبة إلى سيناء ومصر فى الغرب والجزيرة العربية فى الجنوب[١٣٥] وقد أنزل بها بلدوين حامية عسكرية قوية وشحنها بالعتاد لتتمكن من تأدية مهامها[١٣٦] لحماية المملكة اللاتينية من الجنوب الشرق ، ولفرض الضرائب أو المكوس على التجارة العابرة بين دمشق والقاهرة وبلاد الحجاز[١٣٧] .

---

(١٢٩) Grousset, R. L'Empire du Levant, p. 213.

(١٣٠) Oman, CH., Art of war, Vol. I, p. 257, Grousset, R. L'épopée des croisades p. 98.

(١٣١) Funk, H., the foundation of the Latin states, Vol. 1, p. 406.

(١٣٢) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٢٢٧ . ويذكر المقريزى أن حصن الشوبك هذا قد بناه الملك بلدوين على أنقاض حصن قديم كان موجودا هناك . راجع المقريزى ، الخطط ج ١ ص ٢٢٧ ، كذلك : Fulcher of chartres, the expedition,p. 215 chap. IV, Jacques de vitry, the history of Jerusalem, trans. from the original Latin by Stewart, A., London 1896; pp. 6-7, Cf. also Stevenson, the crusaders in the East, p. 65.

(١٣٣) ويلاحظ أن بلدوين لم يقم باختيار هذا الموقع بمحض الصدفة ، بل انه كان دارسا لطبيعة هذه المنطقة منذ أول رحلة استكشافية قام بها بعد توليه عرش القدس عام ١١٠٠ م الى منطقة وادى عربه وكان غرضه منها اختبار دفاعات وتحصينات مدينة عسقلان ، واستطلاع المنطقة التى كانت تسلكها القوافل التجارية المتجهه من القاهرة إلى دمشق . راجع : Funk, H., the Foundetion,. in setton (ed.,) Vol. 1, p. 406, Prawer, the Latin Kingdom, p. 44. وكان فوشيه شارتر يرافقه فى تلك الحملة الاستطلاعية .

(١٣٤) بموجب النص القديم أطلق اسم كراك دى مونتريال على شقيقتها فى الشمال الشرق ( الكرك ) «Crac de Moabites» . والكرك من كرخا بالأرامية أى بلده ومنها كلمة الكرخ وهو اسم الجانب الغربى من مدينة بغداد . راجع فيليب حتى : تاريخ العرب ( مطول ) ، ط. بيروت ١٩٥١ ج ٢ ص ٧٥٩ .

(١٣٥) راجع ما كتبه ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٦٢ . كذلك : Funk, H. the Foundation, in setton (ed.,) Vol. I p. 406, Prawer, J. the Latin Kingdom, p.44.

وقد بنيت هذه القلعة بالتحديد فوق قمة تل مرتفع على بعد تسعين ميلا جنوب القدس وخمس وسبعين ميلا شمال العقبة على خليج البحر الأحمر المسمى بهذا الاسم . راجع : رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ص ١٥٩ ـــ ١٦٠ ، كذلك : Funk the foundation of Latin p. 406 Besant & Palmer, Jerusalem, London, 1888. p. 257; Ryan (ed.,) A history of the expedition to Jerusalem, Knoxville 1969, p. 215 F. 2

(١٣٦) Fulcher of charters, the expedition, p. 215.

(١٣٧) أيضا باركر . نفس المرجع السابق ص ٥٥ . واشتهرت قلعة الشوبك تلك أيام السلطان الأيوبى صلاح الدين . وكانت عقبة شوكة فى ظهر المسلمين حتى استولى عليها عام ١١٨٨ م ويلاحظ أن قلعة الشوبك وزميلتها الكرك كونا مراكز عسكريه أمامية خطرة على المسلمين ، فكان موقع الشوبك من المنعة لدرجة أن الفرنج حرصوا على الاحتفاظ به قوة رغم الهجمات =

لم يكتف بلدوين بذلك بل رغب في إكتشاف المزيد من الأراضي المجاورة لمملكته والحدود المصرية وهي منطقة صحراء سيناء فأنتهز فرصة تلك الهدنة التي عقدها مع الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي في نفس العام أثر التهديدات الفرنجية من قلعة الشوبك للقوافل التجارية التي كانت تخرج من مصر(١٣٨) ، فتوجه في عام ٥٠٩ هـ / ١١١٦ م ، ومعه بعض المرشدين وحاشية تكفي لهذا الغرض(١٣٩) وعبر الصحراء حتى وصل إلى مدينة أيلة فوجدها خالية من السكان الذين فروا في قواربهم إلى البحر خوفا من بلدوين وقواته(١٤٠) ، وأحتل بلدوين المدينة وأنشأ بها قلعة حصينة أخرى على أنقاض قلعة قديمة يرجع تاريخها إلى العهد النبطي(١٤١) ، كما شيد قلعة أخرى في جزيرة فرعون الواقعة قبالة أيلة في خارج العقبة وأستعمل في بنائها أحجارا فرعونية عليها نقوش هيروغليفية ترجع إلى عصر الدولة الوسطى(١٤٢) ، وأقام بهاتين القلعتين حاميتين عسكريتين وبفضلهما أضحى الفرنج يتحكمون في الطريق البري للقوافل التجارية التي تصل بين دمشق وبلاد العرب ومصر عبر شبه جزيرة سيناء(١٤٣) .

وبذلك تمكن الصليبيون من الأقتراب من حدود شبه جزيرة سيناء التي حركت في قلوبهم ذكريات ومشاعر دينية عزيزة عليهم ، وأصبح من السهل عليهم الأغارة على تلك القوافل التجارية كيفما شاءوا أو سمحت لهم الفرصة(١٤٤) ، بينما أصبح من المتعذر على أي جيش إسلامي أن يصل لمصر من ناحية الشرق خوفا من تعرضه لهجمات مفاجئة من جانب الحاميات القوية القابعة في تلك القواعد والمراكز الصليبية(١٤٥) .

---

= الاسلامية والمحاولات العديدة لاسقاطها فكانت شوكة في أعين المسلمين منذ عام ١١١٦ م الى عام ١١٨٧ م راجع .
Oman, Art of war, Vol. I, p. 257; Funk, Foundaion, Vol. I, p. 406.

(١٣٨) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان : ط. شيكاغو ١٩٠٧ ج ٨ ص ٣٤ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٠٩ ، كذلك : Fulcher of chartres, the expedition, p. 215, William of tyre, hsitory of deeds, Vol.1 ,p. 513.

(١٣٩) تقدرهم مرشيه حوالي مائتي رجل راجع Fulcher of chartres, the expedition,p. 215.
وطبقا لألبرت لوف أكس فان بلدوين كان برافقه مائتي فارس ، وأربعمائة من الرجالة نحو اقليم جبل حوريب ، حيث بقى هناك في ثمانية عشر يوما ، ثم تقدم بعد ذلك ومعه ستين فارسا الى البحر الأحمر راجع : Albert of Aix, R.H.C., Hist. occ. Vol. IV, p. 70. chap. XI.
ويذكر المؤرخان بيسانت بالمر أن عدد الجند الفرنج المرافقين لبلدوين كان حوالي ألف ومائتي فارس وأربعمائة من الرجالة . راجع : Besant & Palmer, Jerusalem, p. 257.

(١٤٠) Fulcher of chartres, op. cit, 216 chap. IVI, William of tyre, op. cit., Vol. I, p. 513.

(١٤١) جورجي زيدان : تاريخ العرب قبل الاسلام ، ط. القاهرة ١٩٠٨ ، ج ٢ ص ٣٢ ؛ د. أحمد رمضان : شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى ، ط. القاهرة ١٩٧٧ م ، ص ٦٦ ، ١٦٦٧ ، ١٦٧ .

(١٤٢) د. أحمد رمضان : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(١٤٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٦٥ ، كذلك : Funk, the foundation of Latin States, in setton (ed.,) Vol. I, p. 406.

(١٤٤) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٢٨ .

(١٤٥) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٦٠ ، كذلك : Oman, Ch., Art of War, Vol. I, p. 257.

ومن أيلة اتجه بلدوين نحو جبل موسى فى سيناء ووصل إلى قرب دير سانت كاترين[١٤٦] الواقع أسفل طور[١٤٧] سيناء . وأرسل بلدوين فصيلة صغيرة من جنده عددها أربعون فارساً ، على ما قيل[١٤٨] ، لمفاوضة رهبان الدير اليونانيين لامداده بالمعلومات اللازمة عن الأحوال فى القاهرة وتزويدهم بالمؤن الضرورية التى تمكنهم من الزحف على أطراف الدلتا[١٤٩] . غير أن الرهبان رفضوا استضافتهم أو أمدادهم بأية مساعدة خشية وصول الخبر إلى السلطات الفاطمية أو الوزير الأفضل ، والذين أحسنوا مثواهم ومعاملتهم منذ سنين مما يعرضون أنفسهم لخطر إنتقامهم . ويقال أنه أثناء عودة الفرسان الصليبيين أعترضهم بعض عربان تلك المناطق وأبادوهم عن بكرة أبيهم ولذلك يعرف هذا المكان الذى قتلوا فيه باسم درب الأربعين نسبة إلى عددهم ولا يزال معروفا عند أهل شبه جزيرة سيناء ورهبانها حتى وقتنا هذا[١٥٠] .

وبذلك فشلت محاولة بلدوين للحصول على معونة الرهبان اليونانيين لدير سانت كاترين . والواقع أن امتناع رهبان الدير من تزويد الفرنج بالمعلومات التى تساعدهم فى مشروعه القادم لغزو مصر سوف يكون عاملاً من عوامل فشل بلدوين فيما بعد للنيل من مصر وخلافتها وهو ما سنوضحه فى حينه ولهذا رأينا بلدوين يعتمد على مصدر آخر لاستقاء معلوماته عن أحوال الخلافة الفاطمية وقتذاك فى التقارير التى كانت تصله من التجار الإيطاليين وبخاصة الجنوية توضح سوء أحوال مصر السياسية والأقتصادية . وهنا سيتضح خطورة دور الجنوية الذين كانوا بمثابة طابور خامس معاد للفاطميين وجواسيس للفرنج فى القاهرة بعدوهم فى ذلك المصالح التجارية والمادية البحتة وأشار لذلك مؤرخهم كافارو الجنوى فى حولياته[١٥١] .

وكيفما كان الأمر فبعد أن شفى بلدوين من المرض الذى ألم به أثناء عودته من أيلة إلى بيت

---

(١٤٦) يقع هذا الدير أعلى جبل الطور فى سيناء وسمى باسم القديسة كاترين ، وهى البتول المعظمة وشهيدة الاسكندرية العذراء التى أعدمها الرومان عام ٣٠٧ م . ويقال أن الملائكة نقلوا جسدها إلى هذا المكان وأن الامبراطور جستنيان البيزنطى قد بنى هذا الدير للروم الأرثوذكس عام ٥٤٥ م لحمايتهم من غارات بدو صحراء سيناء . وقد نقش تاريخ الانشاء واسم المنشىء على لوحة رخامية موجودة فوق الدير إلى الآن . راجع : الشابشتى : الديارات تحقيق ونشر كوركيس عواد ، ط. بغداد ١٩٥١ ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩ ، كذلك : د. أحمد رمضان : المرجع السابق ص ٢٥ — ٦٦ .
أيضا اللواء أحمد شفيق باشا : مذكرات عن رحلة إلى دير طور سيناء ، ط. اميرية ، القاهرة ١٩٢٧ ، ص ١١ — ١٥ ، د. سعاد ماهر : محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية . مجلة كلية آداب القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢٢٩ ، كذلك : Atiya, A.S., the monastery of St. Catherine in Mount Sinaii, New York 1950. p.p. 30-36, Prawer, J., the Latin Kingdom, p. 210.

(١٤٧) ان كلمة الطور الذى سمى به جبل سيناء الذى فوقه الدير كلمة سريانية تعنى الجبل وهو الذى كلم الله تعالى عليه موسى وأمرت عليه فيه التوراة ولذلك سمى طور سيناء أى جبل سيناء . راجع الشافعى : مطالع النور فى فضل الطور وقمع المتعدى الكفور ، مخطوط دار ، رقم ١٣٠ م تاريخ ورقة ١ — ٢

(١٤٨) د. زيادة . حملة لويس التاسع ، ص ٥ ، د. سعيد عاشور : الحروب الصليبية ج ٢ ص ٣٢٨

(١٤٩) د. زيادة . المرجع السابق ، ص ٥ ، د. عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٢٨

(١٥٠) د. زيادة . المرجع السابق ص ٢٦ ، كذلك Prawer, the Latin Kingdom, p. 65; The foundation of latin states, in setton (ed.,) Vol. I, p. 406

(١٥١) د. زيادة : المرجع السابق ص ٦

المقدس عبر شبه جزيرة سيناء قرر إعادة الكرة مرة أخرى على الديار المصرية لكشف الطريق الشمالي إلى مصر من ناحية العريش ورفح(١٥٢) ، وأعد لذلك ما يمكن أن نسميه بحملة خفيفة(١٥٣) ، تتكون من مائتين وستين من الفرسان وتسعمائة من المشاة(١٥٤) . ويذكر المؤرخان وليم الصوري وفيلكس فابري «Felix fabri» أن بلدوين تقدم بقوة ضخمة للانتقام من المصريين مما سببوه من أضرار كبرى لمملكته(١٥٥) . وتذكر غالبية المصادر العربية أن بلدوين كان « قاصدا ملك مصر والتغلب عليها وقوى طمعة في الديار المصرية(١٥٦) ، وأنه أراد أن يهاجم الفاطميين في عقر دارهم ليشعرهم بقوته بعد أن أحس هو بضعفهم(١٥٧) .

ولكن مجريات الأحداث التالية توضح لنا أن القوة المرافقة لبلدوين البولوني لم تكن كبيرة بالدرجة التي تصورها المؤرخون الصليبيون أو العرب(١٥٨) ، مما يثبت أنه لم يكن ينوى القيام بعمل حربي كبير ، ويعارض ذلك ما أوردته المصادر الإسلامية من أن غرض بلدوين من محاولته تلك النيل من مصر . ولهذا يرى البعض أن السبب الغير مباشر لتلك الحملة الصغيرة هو مناوشة مصر حتى تقوم الحاميات الفاطمية في صور وعسقلان بعمل عسكري ضد صليبي الشام ، ويكون ذلك ذريعة يتخذها اللاتين للاستيلاء على هذه المعاقل المصرية القوية في غير عناء(١٥٩) .

---

(١٥٢) د. محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ، ص ٦ ، كذلك : Grousset, R. L'épopée des croisades, p. 99.

(١٥٣) Jacques de vitry, History of Jerusalem, p. 9.

ويلاحظ ان المؤرخ المعاصر فوشيه شارتر لم يورد عدد الجند المرافق لبلدوين في حملته تلك ولذلك اختلفت آراء المؤرخين المحدثين حول ذلك ، فهناك من يرى أن عدد الجند كان يقرب من ستمائة من الفرسان والرجالة . ارجع د. محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ، ص ٦ د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٢٩ ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ١٦١ .

كذلك : Besant & Palmer, Jerusalem, p, 258.

ويرى ستيفنسون أن عدد الجند الفرنج كان ثلاثمائة جندى فقط . راجع : Stevenson, the crusaders in the East, p. 66, FF.

(١٥٤) ويلاحظ أن المؤرخ القبطي المعاصر ابن صاعد القلزمي يذكر أن بلدوين كان في « عسكر عظيم » ، دون الاشارة بالتحديد إلى عدد الجند الفرنج . راجع ابن صاعد : سير البيعة المقدسة ، مخطوط دار رقم ٦٢٤ ، ج لوحة ١١٤ ظ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ١ مجلد لوحة ١١١ ( م) . وقد أورد ابن الفرات العديد من أقوال المؤرخين حول ذلك وقام بمناقشتها وتحليلها .

(١٥٥) William of tyre, History of deeds, p. 516 chap XXXII, Felix Fabri, the book of wandering, trans. by stewart, A., in p.p. T.S., Vol. II pt. I. London 18932, 314.

(١٥٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ١ ص ٢٨١٢ ، ابن العبر : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧٧ . وذكرا نفس النص ونقلت عنهما العديد من المصادر الأخرى . الذهبي : تاريخ الاسلام ، مخطوط دار رقم ٤٢ تاريخ ، مجلد ٢٥ ، ورقة ٤٢ (أ) ، (١١٦) (ظ) ، دول الاسلام ، ط. حيدر آباد الدكن ١٣٦٥ هـ ، ج ٢ ص ٢٧ ، المقدسي الحنبلي : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مخطوط مكتبة جامعة الإسكندرية رقم ٢١٩ ، ورقم ٢٧٨ ، نزهة المشتاق فيمن ولي مصر من الخلفاء والسلاطين ، مخطوط مكتبة البلدية رقم ١٤١٦ ورقة ٣٨ ، الشافعي الشبراوي : شرح قصيدة لامية في التاريخ ، مخطوط دار رقم ١٧٧٩ تاريخ ورقة ١٨٤ ، (ج) .

(١٥٧) Grousset, R. Histoire des croisades. To. I, p. 283.

(١٥٨) مثلا : ابن صاعد : سير البيعة المقدسة ، مخطوط دار ، ج ٣ لوحة ١١٤ (ظ) .

(١٥٩) Archer & Kingsford, the crusades, p. 140.

وكيفما كان الأمر ، ففى الأسبوع الثانى من ذى القعدة ٥١١ هـ / مارس ١١١٨ م ، وبعد مفاوضات مع شيوخ القبائل النازلة بالصحراء[١٦٠] ، زحف بلدوين بفرقته الصغيرة وتوغل بها على الساحل الشمالى للبحر المتوسط معتمدا على سرعته وخفة حركته ، واستطاع خلال اثنى عشر يوما عبور الصحراء الممتدة من غزة إلى العريش دون أن يلقى مقاومة تذكر من جانب البدو الذين خشوا بأس اللاتين فأعطوا لهم ما أرادوا من الماء والزاد[١٦١] . وكان بلدوين قد هاجم فى تقدمه مدينة رفح بغتة فى الظلام واستولى عليها ، و أعقب غارته تلك بالتقدم على طول الأراضى الساحلية ، مارا ببحيرة ساربونيس[١٦٢] والتى عرفت فيما بعد باسم بحيرة أو سبخة البردويل ، وهناك أمضى بلدوين — أى فى منطقة بحيرة البردويل — فترة غير قصيرة يلتقط فيها أنفاسه من شدة حرارة فصل الربيع ، وهبوب الرياح الموسمية عليها ، وسرعة الغرود فى تلك المنطقة التى وصل اليها فى أواخر ذى القعدة ٥١١ هـ / مارس ١١١٨ م[١٦٣] . ثم اتجه بلدوين إلى الفرما[١٦٤] ( بيلوزيوم ) — شرق بورفؤاد الحالية — وهى أولى المراكز الأمامية لحدود مصر من جهة الشرق[١٦٥] فوصلها فى ٢٥ ذى الحجة ٥١١ هـ / ٢١ مارس ١١١٨ م . وقد فوجىء الصليبيون تماما عندما وجدوا المدينة خاوية على عروشها ، اذ انزعجت حاميتها عندما علمت بزحفهم اليها فلاذت بالفرار[١٦٦] ، تاركين وراءهم متاعهم وزادهم فقام بلدوين بالهجوم على المدينة ، واستولى على جميع ما فيها من مؤن وغنائم ، أفادت الصليبيين كثيرا بعد أن شح ما لديهم من زاد ومؤن[١٦٧] . على أن بلدوين لم يكتف بما ناله من الغنائم ، بل أنه قام بنهب المدينة وأحرق مساجدها وجامعها وأبوابها[١٦٨] وذبح من وجده بها[١٦٩] ، كما سمح لجنوده بتدمير البقية الباقية

---

(١٦٠) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٢ ص ١٦١ .

(١٦١) Albert of Aix, R.H.C., Histoir. occ. Vol. IV, p. 703.

(١٦٢) نعوم شقير : تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها ، ط. مصر ١٩١٦ ، ص ٣٥٢

(١٦٣) د. احمد رمضان . شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى ، ص ٦٧

(١٦٤) الفرما : يذكر أبى صالح الأرمنى أن الفرما بناها فرعون موسى فى السنة الثامنة والعشرين من مولد موسى ( عليه السلام ) وسميت بفرموتيوس . ويذكر أنه كان منها طريق يوصل إلى جزيرة قبرص ثم غلب عليه البحر وقيل أن الفرعون عندما بنى الفرما كان فى الأصل بحيرة ماء فغرق فيها ألف مركب ، ورمى البحر منهم ألف رجل ولهذا سميت ألف رما ( الفرما ) . راجع أبو صالح الأرمنى : تاريخ أبو صالح المعروف بأخبار نواحى مصر وأقطاعها ، نشر ايفتس ، ط. أكسفورد ١٨٩٤ ، ص ٧١ — ٧٣ .

(١٦٥) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٢٩ .

(١٦٦) د. مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع ، ص ٦

(١٦٧) William of tyre, History of deeds, Vol. I, p. 515.

ويشير النويرى أن الصليبيين حاصروا الفرما أياما قبل دخولها ، مما يشير لوجود نوع من المقاومة من جانب الحامية الفاطمية . راجع النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط دار ، مجلة ٢٦ لوحة ٨٢

(١٦٨) ابن ساعد : سير البيعة المقدسة ، مخطوط دار ، ج ٣ لوحة ١١٣ (ظ) ؛ أبو صالح الأرمنى:تاريخ أبو صالح ، ص ٧٣ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، مجلد ٢٦ لوحة ٨٢ ؛ أبى الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ص ٢٣٥ ؛ البكرى الصديقى : عيون الأخبار ونزهة الأبصار ، مخطوط دار ، رقم ٧٢ تاريخ ، ورقة ٥٢ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١ مجلد ١ لوحة ١١١ (أ ، ب) .

(١٦٩) ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ، مخطوط دار ، رقم ٨٩٠ تاريخ ، تصوير شمسى لوحة ٧٨ ؛ ابن الفرات - نفس المصدر ، =

منها[١٧٠] . ثم أتجه بلدوين غربا نحو فرع دمياط ، فوصل إلى مدينة تنيس على بحيرة المنزلة حيث هاجمها وأحرقها وأحرق قلعتها[١٧١] ويشير المؤرخون المسلمون والصليبيون إلى وصول بلدوين إلى مصب نهر النيل نفسه[١٧٢] ( أي إلى مدينة دمياط ) وسبح فيه[١٧٣] ، على أن بلدوين لم يمكنه التقدم في حملته الإستطلاعية أكثر من ذلك لصغر قواته وعددها[١٧٤] ولذلك قضى يومى ٢٧ — ٢٨ ذى الحجة / ٢٣ — ٢٤ مارس في الراحة[١٧٥] .

والواقع أن غالبية المصادر الإسلامية كانت أم صليبية لدينا ، لم تشر من قريب أو بعيد إلى رد الفعل الفاطمى من غارات بلدوين وأعماله التخريبية التى كان يقوم بها على الحدود الشرقية لمصر ، وكأن الخلافة الفاطمية ووزيرها الأفضل شاهنشاه قد وقفت موقفا سلبيا من ذلك ، وكأنها كانت تغط في سبات عميق إزاء تلك الأحداث . ولكن المؤرخ القبطى ابن صاعد القلزمى والمؤرخ الإسلامى المعاصر ابن المأمون البطائحى قد أوردا نصين هامين أوضحا به موقف الفاطميين ووزيرهم الأفضل إزاء تلك الأحداث ، ومحاولة بلدوين لغزو مصر ، وأوضحا الغموض الذى حاولت المصادر الإسلامية الأخرى وبخاصة المصادر السنية أن تضفية على موقف الفاطميين فى مصر . وتتميز رواية المؤرخ القبطى ابن صاعد بالإختصار الشديد ، ولكنها توضح أنه إزاء العدوان الصليبى على الحدود الشرقية المصرية لم تقف الخلافة الفاطمية مكتوفة الأيدى ويذكر « أن السيد الأجل الأفضل لما بلغه وصولهم ( الفرنج ) إلى الفرما ، جرد إليهم عسكرا عظيما[١٧٦] ، وذلك لطردهم من الحدود الشرقية لمصر ، وهذا يثبت جدية وإهتمام الأفضل شاهنشاه إزاء ذلك الأمر .

أما رواية المؤرخ ابن المأمون ، التى ذكرها المقريزى فى خططه[١٧٧] ، فكانت أكثر تفصيلا وأيضاحاً ، فيذكر قيام الأفضل شاهنشاه بارسال العساكر المصرية من المركزية والمقطعين[١٧٨]

---

= جلد ١ لوحة ١١١ (ب) ؛ البكرى الصديقى : عيون الاخبار ، ورقة ١٥٢ (ج) ، كذلك : Butcher, the story of the church of Egypt, London, 1991, Vol. p. 74.

(١٧٠) Felix Fabri, the book of wandering, in p.p. T.S. Vol. II, pt. I, p. 414.

(١٧١) الذهبى : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٦ ؛ تاريخ الاسلام ، مخطوط دار ، مجلد ٢٥ ورقة ٤٢ أ .

(١٧٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٨١ ؛ ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٧٧ ؛ الذهبى : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٧ ؛ تاريخ الاسلام ، مجلد ٢٥ ورقة ٤٢ (ا) . كذلك : William of tyre, History of deeds, Vol. I, p. 515.

(١٧٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٨١ ؛ ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٣٧٧ .

(١٧٤) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١ مجلد ١ لوحة ١١١ (أ) . ويذكر ذلك ضمن أحداث ٨ ذى الحجة ٥١١ هـ .

(١٧٥) Rohricht, R. Geschichte desknoigreichs Iherusalem, p. 119.

(١٧٦) ابن صاعد : سير البيعة المقدسة ، مخطوط دار ، ج ٣ لوحة ١١١٣ — ١١٤ ظ .

(١٧٧) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٢١٢ .

(١٧٨) وهى ضمن فرق الجيش الفاطمى كما تطلق على المعسكرات التى كانت ترتكز بها تلك الفرق .

والراجل من العطوفية[١٧٩] الى والى الشرقية ويطلب منه أن يتقدم بنفسه والعربان ، على رأس هذه القوات لصد الصليبيين[١٨٠] . ولما علم بلدوين بقدوم القوات المصرية واستعدادات القاهرة لمواجهة غاراته ، وتحقق أن « الاقامة لا تمكنه » أمر عسكره بالنهب والتخريب واحراق المساجد وعزم على الرحيل[١٨١] .

ويذكر كل من المؤرخين وليم الصورى وفيلكس فابرى أن بلدوين لو كان يملك قوات كبيرة لما فكر فى الرحيل بل ربما تصدى للقوات المصرية ، كما أن المدة التى قضاها بلدوين منذ وصوله مدينة الفرما فى ٢٥ ذى الحجة ٥١١ هـ / ٢١ مارس ١١١٨ م ، ثم اغارته عليها فى اليوم التالى أثر خلوده للراحة يومى ٢٣ ، ٢٤ مارس لم تكن كافية لأن يبعث إلى الامارات الصليبية الأخرى لحشد جيش كبير وقتذاك[١٨٢] .

وكان بلدوين أثناء تلك الفترة قد تناول وجبة الفطار من السمك الذى اصطاده من بحيرة المنزلة شعر بعدها بألم شديد وكان الألم مرجعه إلى جرح قديم[١٨٣] ، وذلك عندما أمر جنوده بالعودة ولكنه عجز عن امتطاء صهوة جواده لشدة مرضه فأحضر رفاقه محفة ، ووضعوه فيها بعد معاناة وأتجهوا حاملين ملكهم المريض الى العريش فى طريقهم الى بيت المقدس . ولكن بلدوين مات بين الفرما والعريش[١٨٤] فى مكان يسمى جورا[١٨٥] فى ٦ ذو الحجة ٥١١ هـ / ٢ أبريل

---

(١٧٩) العطوفية : لعل هذه التسمية نسبة الى الاستاذ ( الخادم ) عطوف أحد خدام القصر من اتباع أم ست الملك بنت العزيز بالله أخت الحاكم بأمر الله . والى هذه الجماعة تنسب حارة العطوف من باب النصر ، وكانت من أجل مساكن القاهرة ، وفيها من قاعور للعظيمة والمساجد والحمامات شيء كثير . وقد خربت كلها فيما بعد . راجع المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ١٣ ـــ ١٤ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٥٠ .

(١٨٠) ابن المأمون : التاريخ المأمونى ، كما ورد فى المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٢٦٢ . وهذه العبارة تدل على تكاتف الشعب والجيش لمقاومة المعتدين الصليبي على مصر ، وهى من الأهمية بمكان . راجع المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٥٢

(١٨١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٦٢ ؛ اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٥٢ .

(١٨٢) William of tyre, History of deeds, Vol. I, p. 514, Felix Fabri, the book of wandering, in p.p. T.S., Vol. II, p.t.l, p. 315.

(١٨٣) كان الملك قد أصيب بهذا الجرح فى احدى حروبه عام ١١٠٣ م انظر : Fulcher of chartres, the expedition,p. 222, William of tyre, deeds, Vol. 1, p. 515, cf also Archer & Kingsford, Crusades, p. 140 .

(١٨٤) وهذه الروايات الفرنجية تتعارض وما ذهبت اليه غالبية المصادر الاسلامية التى تذكر أن سبب وفاة بلدوين انه « سبح فى النيل فانتقض به جرح كان به » راجع ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٨ ؛ ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٧٧ ؛ الذهبى : تاريخ الاسلام ، مجلد ٢٥ ورقم ٤٢ ، (أ) ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٦٩ .

ويذكر الادريسى أن بلدوين مات غريقا بفرسه فى البحيرة ( المعروفة الآن ببحيرة المنزلة ) القريبة من مدينة تنيس . راجع الادريسى : نزهة المشتاق فى ذكر الآفاق ، ط. رومية ١٠١٠ هـ / ١٥٩٢ ص ١١٣ .

واضطربت بعض المصادر الاسلامية حول تحديد تاريخ وفاة بلدوين بحيث ذكرته مرتان ضمن أحداث عام ٥٠٨ هـ ، ٥١١ هـ . راجع مثلا ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٩٢ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٠٨ .

(١٨٥) الأزدى : أخبار الدول المنقطعة ، مخطوط ولر ، لوحة ٧٨ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، مجلد ٢٢ ، لوحة ٧٢ ؛ البكرى : عيون الأخبار ، ورقة ١٥٢ (ج) . ولم تحدد المصادر هذا الموضع من الحدود الشرقية لمصر .

١١١٨ م ، وذلك بين يدى روجر «Roger» أسقف الرملة[١٨٦] ، وكتم رفاقه خبر موته . وكان بلدوين قد أوصى قواده بألا يدفنوه فى أرض غريبة ، وأن تدفن جثته بجانب أخيه جودفرى بالقدس[١٨٧] فقام رفاقه بشق بطنه وصبروه[١٨٨] ، ودفنوا أحشاؤه بالعريش على تله فى الطريق وضعوا عليها حجرا كبيرا ، وعرفت باسم سبخة البردويل[١٨٩] نسبة إلى بلدوين الأول ، وكان الناس كلما مروا بهذا المكان رجموه لوجود أحشاء بلدوين به[١٩٠] .

ويشير نص العظيمى أنه أثناء عودة الفرنج بجثة بلدوين الى القدس تعرضوا لهجوم عنيف من جانب حامية عسقلان الفاطمية ، الا أن هذا الهجوم العسقلانى قد فشل ، وتمكن الفرنج من صده وهزيمة القوات الفاطمية[١٩١] ، وواصلوا طريقهم إلى بيت المقدس التى وصلوها بعد خمسة أيام فى ٥١١ هـ / ٧ أبريل ١١١٨ م ، ودفنوا ملكهم فى كنيسة الضريح المقدس بموضع الجلجثة بجوار قبر أخيه جودفرى أوف بويون[١٩٢] .

---

(١٨٦) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ١٧٢ ، كذلك : Michaud, History of the crusades, Vol. I, p. 294. Besant & palmer, Jerusalem, p. 259.

(١٨٧) مكسيموس مونروند : تاريخ الحروب المقدسة ترجمة مكسيموس مظلوم ، ط. أورشليم ١٨٦٥م ، ص ٢٢٨ ، كذلك : Fulcher, the expedition, p. 222.

(١٨٨) ابن صاعد القلزمى : سير البيعة المقدسة ، ج ٣ لوحة ١١٣ (ظ) ؛ الأزدى : أخبار الدول المنقطعة لوحة ٧٨ ؛ ابن وصيف شاه : جواهر البحور فى أخبار الديار المصرية ، مخطوط البلدية ، لوحة ٤٩ ، كذلك : Fulcher of chartres, the expedition, p. 222.

(١٨٩) أبو اليمن العليمى : الأنس الجليل ، مخطوط مكتبة الجامعة ، ورقة ٢٧٨ ؛ ابن آياس : بدائع الزهور ، ط. مصر ١٣١١ هـ ، ج ١ ص ٦٣ ، ابن وصيف شاه : جواهر البحور ، مخطوط البلدية ، لوحة ٤٩ .

(١٩٠) ابن آياس : المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٤ ، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، ط. بيروت ج ٤ ص ٣٠ . وقد عرفت تلك المنطقة التى دفنت بها أحشاء بلدوين أيضا برملة بوردوين أو سبخة بردوين ، والبحيرة الملاصقة للساحل ببحيرة بغدوين أو بوردين . ولكن حرف الاسم فصار يقال له حجر البردويل أو رملة البردويل وبحيرة البردويل . ومازال بحيرة البردويل ورجم البردويل وسبخة البردويل شاهد عيان لتلك الأحداث التى دارت رحاها هناك . ويقع رجم البردويل على تل صغير يبعد نحو عشرة أميال شرقى العريش ( فى طريق العريش الرسطانية ) ونحو ساعة شمال عربة البردويل . راجع الادريسى : نزهة المشتاق ( مختصر ) ، ط . رومية ١٥٩٢ ، ص ١١٣ ، د. أحمد رمضان : شبه جزيرة سيناء ، ص ١٠٢ ، نعوم شقير : تاريخ سيناء ص ١٨٢ .

ويذكر اللواء أحمد شفيق باشا فى مذكراته عن رحلته الى دير سانت كاترين عام ١٩٢٦ أنه رأى فى العريش رجما صغيرا فى حافة الوادى ، يقال أنه كان محتما على كل حاج يمر هناك أن يتناول حجرا من الطريق ويلقيه على الرجم . راجع اللواء أحمد شفيق باشا : مذكرات عن زيارة الى دير طور سيناء ، ط. القاهرة ١٩٢٧ ص ٢٦ . ولا تزال بحيرة البردويل موجودة حتى اليوم ، وهى تمتد فى المنطقة الواقعة شمال سكة حديد القنطرة والعريش بين محطة بئر مزار والعبد . راجع أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٧١ .

(١٩١) العظيمى : تاريخ العظيمى ، ص 385 .

(١٩٢) Fulcher of chartre, the expedition, p. 222. William of tyre, History of deeds, Vol. I, p. 516. Felix Fabri, the book of wandering, trans. By stewart. A., inp.p. T.S., Vol. II, p. 314.

والواضح من رواية فوشيه شارتر أنه لم يصاحب بلدوين فى رحلته المشئومة تلك الى حدود مصر الشرقية ولكنه كان حاضرا فى جنازة الملك فى أحد النخيل ١٧ أبريل عام ١١١٨ م . راجع : Fulcher of chartres, the expedition, p. 222.

وانظر ما كتبه المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٥٦ .

وعلى هذا النحو فشلت محاولات بلدوين الأول للنيل من الفاطميين فى مصر ، وذلك بفضل امتناع رهبان دير سانت كاترين عن اعطاء المعلومات التى تمكنه من ذلك ، وبفضل تكاتف الجيش والشعب المصرى فى التصدى لهذه القوة واجبارها على الرحيل من الحدود الشرقية المصرية والتحرك الايجابى السريع للمسئولين بالقاهرة وعلى رأسهم وزيرهم الأفضل بن بدر الجمالى .

ولنتمهل قليلا فى محاولة لالقاء الضوء على محاولة بلدوين الفاشلة للاغارة على حدود الخلافة الفاطمية بمصر والنيل منها وللأسباب والأهداف التى تكمن وراء تلك المحاولة الصليبية الجريئة لمهاجمة مصر والفاطميين ، فهل كانت تهدف لاحتلال مصر وتوجيه ضربة قوية وخاطفة لقلب الفاطميين فى القاهرة ، خاصة بعد أن أحس بضعفهم ؟ أم أن هذه المحاولة كان هدفها استعراض قوة اللاتين واشعار الفاطميين بامكانية الهجوم على مصر ؟ أم أنها كانت مظاهرة عسكرية أو مجرد غارة للنهب والسلب لحدود مصر الشرقية ردا على غارات حامية عسقلان الفاطمية على امارة بيت المقدس اللاتينية ، أو أنها كانت محاولة لاضعاف عزيمة الوزير الأفضل ، غريم بلدوين ، فى القاهرة عن القيام بشن هجوم جديد أو مواصلة الغارات الفاطمية من الجنوب الشرق لامارة بيت المقدس الفرنجية .

ان نصوص غالبية المصادر العربية التى لدينا توضح وتوحى لنا أن ما قام به بلدوين دى بويون كان محاولة حقيقية لغزو مصر من ناحية الشرق واسقاط الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، فيذكر ابن الأثير وغيره فى صراحة أن بلدوين « سار إلى ديار مصر قاصدا ملكها والتغلب عليها وقوى طمعه فى الديار المصرية[١٩٣] ، وذلك بأن « عول على الهجوم على مصر بغتة[١٩٤] » . ولكن مجريات أحداث حملة بلدوين التى أوضحناها ، تدحض آراء المصادر العربية وتوضح أن ما قام به بلدوين لم يكن غزوا حقيقيا بمعنى الكلمة كما أدعت بذلك تلك المصادر ، ويقيننا فى ذلك أننا لو نظرنا الى حجم القوات التى رافقت بلدوين لوجدنا أنها صغيرة للغاية ( مائتين وستون فارسا وتسعمائة من الرجالة ) ويتضح من عددها كما يتضح من أنواع أسلحتها الخفيفة أن بلدوين لم يقصد بمحاولته تلك غزو الخلافة الفاطمية بمقر دارها خاصة وأنه لم يكن يملك وقتذاك القوات والأموال الكافية التى تمكنه من القيام بحملة ضخمة لغزو مصر .

ويجب أن نأخذ فى اعتبارنا أن مصر كانت لا تزال قوة لا يستهان بها من ناحية جيشها وأسطولها البحرى ، وغزوها لا يتم بهذه السهولة التى حاولت المصادر الاسلامية أن توحى بها . ويجب أن نعلم أن من يحاول غزو مصر الفاطمية أو القيام بمشروع لغزو خلافة أو دولة لا تقتصر

(١٩٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٨١ ؛ ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٧٧ ويذكر أبو صالح الأرمنى أن بلدوين « عول على الوصول الى مصر ليملكها » أبو صالح الأرمنى : المصدر السابق ، ص ٧٢ انظر ما ذكرته المصادر الأخرى الذهبى : تاريخ الاسلام ، مجلد ٢٥ ، ورقة ٤٢ (أ) ، ١١٦ (ظ) ؛ دول الاسلام ، ج ٢ ص ط ٢ ص ٢٧ ؛ ابن اياس بدائع الزهور ، ج ١ ص ٦٣ وأيد هذا الرأى من المحدثين Lane-Poole, history, Vol. VI, p. 165.

(١٩٤) ابن صاعد : سير البيعة المقدسة ، ج ٣ لوحة ١١٣ (ظ)

مهمته على مجرد السلب والنهب والتخريب ، ثم الانسحاب بعد ذلك ، بل عليه أن يوطد أقدامه ويقوم بتحصين أو الدفاع عما أستولى عليه ولكن ما قام به بلدوين لا يشير إلى أنه مشروع غزو لخلافة قوية .

ثم أن تلك المحاولة الفرنجية لغزو الفاطميين فى مصر لا يتأتى مع وجود مدينة عسقلان ، قاعدة الفاطميين العسكرية القوية ، خلف القوات الصليبية المهاجمة بجانب صور تلك القاعدة البحرية الهامة شمال الشام والا يقع الصليبيون بين شقى الرحى كما أن الفرنج كان عليهم الاستعانة وقتذاك بالأساطيل الايطالية لحصار سواحل مصر الشمالية لمنع أية امدادات تصلها من البحر .

وأنا أرى أن ما قام به بلدوين كان مجرد غارة ، وليس غزوة ، للسلب والنهب والتخريب على حدود مصر الشرقية ، أو أنها غارة انتقامية ردا على الهجمات أو الغارات الفاطمية التى شنتها حامية عسقلان على امارة بيت المقدس وتوابعها الجنوبية ويؤكد وجهة نظرنا تلك ما ذكره كل من العظيمى والنويرى الكندى ، أن ما قام به بلدوين كان مجرد « غارة »[١٩٥] على أطراف حدود مصر الشرقية[١٩٦] ، وذلك مع ما هو مشهور عن بلدوين من تهوره واندفاعه فى قيادته ومشروعاته العسكرية وجرأته المتسمة بالحماقة والتى أتضحت لنا فى عدة مناسبات فى صراعه مع الفاطميين فى الشام وأعترف بذلك فوشيه شارتر نفسه[١٩٧] ، وهو مؤرخ حملة بلدوين وكاهنه الخاص ، ويرجح أيضا أن ما قام به بلدوين كان مجرد حملة استطلاع لاستكشاف الأراضى المصرية من ناحية الشرق وأكدت بذلك المصادر الصليبية نفسها مثل فوشيه ووليم الصورى[١٩٨] .

وربما قصد بلدوين بمشروع اغارته تلك جس نبض الفاطميين ومدى امكانياتهم ، تمهيدا لجمع شمل الصليبيين بالشام ثم الانقضاض على مصر وذلك بشن حملة صليبية كبيرة فى المستقبل القريب ، وتقويض أركان الخلافة الفاطمية مستعينا فى ذلك بأساطيل مدن ايطاليا معتمدا على التقارير التى كانت تصله من مصر نفسها تظهر سوء أحوالها السياسية والاقتصادية ، وانشغال الوزير الأفضل بما يحاك حوله من دسائس ومؤامرات ، وهنا يتضح لنا خطورة الدور الذى لعبه الجنوية وغيرهم من التجار الايطاليين باعتبارهم معادين للفاطميين وجواسيس للفرنج بالقاهرة على أمل احتلال اللاتين لمصر وحصول الجنوية بالتالى على كثير من الامتيازات ومركز الصدارة فى سواحل مصر الشمالية بخاصة فى الاسكندرية ويؤيد هذا رغبة الفرنج فى تأمين وجودهم بالشرق منذ أن وضعوا أقدامهم بالشام فى الذهاب لمهاجمة مصر واحتلالها قبل احتلال بيت المقدس على

---

(١٩٥) العظيمى : تاريخ العظيمى ، ص 381 وأكد ذلك النويرى . نهاية الأرب ، مجلد ٦ لوحة ٨٢ .

(١٩٦) يؤيد هذا الرأى عدد من المؤرخين الحديثين مثل Boase, T.S.R., the Kingdoms, p. 60, Stevenson, the crusaders in the East, p. 167.

(١٩٧) Fulcher of chartres, the expedition,p. 167.

(١٩٨) Fulcher of chartres, op. cit., p. 222, William of tyre, the history of deeds, Vol. I, p. 515.

أساس أن مفاتيح بيت المقدس كما أشرنا موجودة بالقاهرة[١٩٩] ، ويؤيد اشتراك الجنوية لمحاولة غزو مصر أو الاغارة عليها فيما بعد ما أكده كاتب حولياتهم كافارو الكاسكفلوف من حدوث اتفاق جنوى لاتيني لاحتلال مصر فيما بعد مقابل حصولهم على ثلث البلاد أو القاهرة والمرجح ثلث الاسكندرية أو داخلها وما حولها من أملاك وقرى ريفية وذلك عام ١١٠٥ م[٢٠٠] . ويمكن القول أن ما قام به بلدوين منذ مجيئه الى الشرق ومغامرته فى تأسيس امارة الرها عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م ، قد دلل على أن الحركة الصليبية تنطوى على أغراض توسعية وأكد هذه الأطماع التوسعية مرة أخرى باغارته على حدود مصر الشرقية رغبة منه فى تحقيق فكرة اخيه جودفرى دوق بويون للاستيلاء على مصر .

والحق يقال أن الأفضل بن بدر الجمالى ، قد اتخذ الاستعدادات الكافية لمواجهة غارة بلدوين القوية على أطراف البلاد فأنفق الأموال ، وأرسل عسكراً فاطميا ضخما باعتراف المصادر المعاصرة[٢٠١] وبادر بارسال تلك القوات لمطاردة فلول الصليبيين وتعقبها من مصر حتى وصولها الى فلسطين ولم يكتف بذلك بل أمر قواته بشن غارات قوية على بلاد العدو كرد فاطمى وفورى على ما قام به بلدوين من نهب وتخريب لحدود مصر الشرقية[٢٠٢] .

ومهما يكن من أمر ، فان غارة بلدوين على مصر ، وضعت الأساس الذى اعتمد عليه الفرنج فيما بعد ليمزقوا أوصال العالم الاسلامى فى الشرق الأدنى كما أنها وضعت الأساس الحقيقى لغزو مصر ولوضحت لمن تلاه من خلفائه أن مصر هى معقل القوى الاسلامية فى الشرق وأن غزوها والقضاء عليها ضرورة قصوى لتأمين أملاك الصليبيين بالشام، وهو ما سيحاول ملوكهم تنفيذه فيما بعد ، سواء فى عهد الفاطميين أو من تلاهم من الأيوبيين والمماليك .

لم يترك بلدوين الأول ملك بيت المقدس الصليبى عند وفاته ولدا يرثه كما أنه لم يوصى فى حياته بتعيين شخص معين يرثه فى المملكة بعده ليتفادى ما حدث فى أنطاكية بعد وفاة تانكريد النورمندى ولذا أجتمع بارونات وأمراء المملكة اللاتينية ومعهم البطريق أرنولف مالكورن «Arnulf Malcorn» فى اليوم التالى لوفاة بلدوين لبحث مشكلة وراثة العرش حيث تم اختيار

---

(١٩٩) Raymond of Agillers, Gesta Dei per Francos by Bongars, Hannover, 1612, Vol. I, p. 173.
Cafforo, De liberatione, R.H.C., Hist. occ., Vol. V, p. 59 - Chap. IX.

(٢٠٠) ويعلق ذلك وزمن حملة الأفضل وتحكين المشتركة عام ٤٩٨ — ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م ، ضد الفرنج والتى هزمت فى موقعة الرملة الثالثة مما يرجح فزع بلدوين من تلك المحاولة لتوحيد الجهود الفاطمية السلجوقية المشتركة فسارع بعقد هذا الاتفاق مع الجنوية .

(٢٠١) ابن ميسر : ... ، ج ١١٣ (ظ) ؛ ابن المأمون : تاريخ ابن المأمون كما ورد فى المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٢١٢

(٢٠٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٥٢ ؛ الخطط ، ج ١ ص ٢١٢ . ويلاحظ ان المقريزى هو المؤرخ الوحيد الذى ذكر أحداث غارة بلدوين على حدود مصر الشرقية ومصرعه فيما بعد تحت تاريخين مختلفين (٥٠٩ هـ ، ٥١١ ) . راجع المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٥٢ ، ٥٦

بلدوين أوف البورج «Baldwin of Bourg» ، أمير الرها ملكا على مملكة بيت المقدس اللاتينية وتوج بكنيسة القيامة فى ١٨ ذو الحجة ٥١٢ هـ / ١٤ أبريل ١١١٨م[٢٠٣] .

وبينما كانت تلك الأمور تدور فى مملكة بيت المقدس الصليبية كان الوزير القوى الأفضل بن بدر الجمالى يفكر فى الكيفية التى يرد بها على ما قام به الملك الراحل بلدوين الأول من تخريب والغارة على أطراف الديار المصرية اذ كان يدرك أن عليه أن يشعر الفرنج بمدى قوته ، وأن الفاطميين لن يقفوا مكتوفى الأيدى أمام محاولاتهم القادمة للاغارة على حدود مصر الشرقية أو حتى مجرد التفكير فى غزو مصر ، وذلك بأن يكون رد الفعل الفاطمى قويا ومؤثرا اذ أن سكوته كان سيعتبر دليلا على ضعفه وضعف الفاطميين مما يعطى الفرنج الفرصة ليطمعوا فى مصر واحتلالها أكثر من ذى قبل .

وقد فكر الوزير الأفضل بالاستعانة بحليف قوى للقيام بمشروع غزو كبير ضد مملكة بيت المقدس اللاتينية ولهذا فكر فى استمالة واجتذاب البوريين فى دمشق وأميرهم ظهير الدين طغتكين ابن بورى الى جانبه ومحاولة تكوين حلف فاطمى سلجوقى قوى لمواجهة الخطر الفرنجى المشترك خاصة وأن العلاقات بين طغتكين أتابك دمشق كانت طيبة بل وطيدة رغم الأختلاف المذهبى والسياسى بين الفاطميين الشيعة والدماشقة السنيين .

ولا ينسى الأفضل ما قام به طغتكين من تقديم العون للفاطميين عندما أرسل تلك القوة الدمشقية الضخمة التى شاركت الفاطميين فى موقعة الرملة الثالثة[٢٠٤] . ولا ننسى أيضا جهود طغتكين الصادقة والرائعة لمساعدة مدن وموانىء الساحل الشامى الفاطمى من الحصارات الصليبية وبخاصة موقفه القوى من الحصار الصليبى لمدينة الفاطمية ، ودوره الكبير فى احباط هذا الحصار[٢٠٥] .

لكل هذه الاعتبارات بدأ الافضل مراسلاته مع طغتكين أتابك دمشق بهذا الصدد واقترح الأفضل القيام بمشروع حملة فاطمية سلجوقية مشتركة على غرار الحملة السابقة عام ٤٩٨ — ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م ، لمواجهة التحدى الفرنجى والأطماع الصليبية التوسعية فى الشام ومصر ومحاولة الاطباق على مملكة بيت المقدس من ناحية الشمال والجنوب وايقاعها بين شقى الرحى[٢٠٦] فى وقت واحد على أن يتخذوا من عسقلان مركزا رئيسيا لتجمع قوات الجانبين والعمليات العسكرية المشتركة[٢٠٧] ، وقد استجاب طغتكين لمراسلات الافضل وندائاته ، ولاشك أن الخطر المشترك وازدياد قوة الفرنج وتهديدهم لاملاك طغتكين التابعة له جنوب امارة

---

(٢٠٣) Fulcher of chartres, the expedition, p. 225.

(٢٠٤) راجع الفصل الرابع من هذه الدراسة .

(٢٠٥) راجع الفصل الخامس الخاص بالصراع الفاطمى الصليبى حول مدن الساحل .

(٢٠٦) Nicholson, R., the growth of the latin states (1118-1144) in setton (ed.,) Vol. I, p.p. 411-412.

(٢٠٧) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٨١ ؛ الذهبى : تاريخ الاسلام ، مخطوط دار ، مجلد ٢٠ ورقة ١٤٢ (ظ) .

دمشق وحاجة طغتكين أيضا لحليف قوى يقف بجانبه فى صراعه مع الفرنج شمال مملكة بيت المقدس جعله يستجيب فى الحال للدعوة الفاطمية[٢٠٨] .

ولم يكد بلدوين الثانى يستقر فى دست الحكم حتى تواترت اليه الأنباء التى تنبىء عن قيام التحالف بين القاهرة ودمشق وحرص الوزير الأفضل على انزال العقاب بالصليبيين لتجاسرهم على الاغارة على حدود مصر الشرقية مما جعل بلدوين يصاب بالذعر . ولما كان عقد مثل هذا التحالف الفاطمى السلجوقى أخطر ما يهدد مملكة بيت المقدس الصليبية منذ قيامها ، فقد حرص بلدوين الثانى على استرضاء طغتكين أتابك دمشق ، فأرسل سفارة فرنجية عقب توليه عرش المملكة ، يطلب منه تجديد الهدنة بين الجانبين .ولكن طغتكين الذى أطمأن تماما للتأييد الفاطمى فى مصر لم يسعه الا أن يطلب ثمنا باهظا من الفرنج ، وذلك بأن طالبهم تسليمه كل ما يقع من اراضى وراء نهر الاردن وهو ما رفضه بلدوين الثانى الذى « أظهر القوة »[٢٠٩] ، وكان رد طغتكين على ذلك أن شن عدة هجمات على أملاك الصليبيين فى الجليل وطبرية « فنهبها وما حولها ثم سار الى عسقلان » وذلك للاجتماع بالقوات الفاطمية هناك تمهيدا لشن الحملة المرتقبة على الفرنج بالشام[٢١٠] ، ولاشك أن ما ذكرته تلك المصادر انما هو دليل قوى يدحض ما ذهب اليه ستانلى لين بول «S. Lane-poole» الذى يذكر أن الفاطميين فى مصر لم يحاولوا الانتقام من غارة بلدوين على مصر وأنهم وقفوا منها مكتوفى الأيدى ولم يحاولوا القيام بخطوة ايجابية للرد عليها[٢١١] . ويذكر المؤرخ الصليبى وليم الصورى ان تحركات طغتكين وقواته الضخمة كانت تتم فى سرية تامة ولهذا اتخذ فى طريقه عبر الاردن الى عسقلان طرقا غير مأهولة ووعرة كى لا يصل خبر مسيرة الى الفرنج ويحاولون اعاقته[٢١٢] .

وفى ذلك الوقت كانت الاستعدادات فى القاهرة قائمة على قدم وساق للاعداد للحملة الفاطمية البرية والبحرية وسرعان ما أرسل الأفضل شاهنشاه جيشا بلغ عدده سبعة آلاف فارس احتشدوا فى عسقلان[٢١٣] فى حين خرج الاسطول الفاطمى الضخم من قاعدته فى عسقلان الى

---

(٢٠٨) Nocholson, the Growth, Vol. I, p. 412.

(٢٠٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٨٦ ؛ الذهبى : تاريخ الاسلام ، مجلد ٢٥ ورقة ٤٢ (أ) ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٥٤ ؛ ابن الفرات . تاريخ الدول والملوك ، ج ٢ مجلد ٢ لوحة ٧ .

(٢١٠) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٢٦٢ ، نقلا عن ابن المأمون ، كذلك : William of tyre, the history of deeds, Vol. I, p. 523 chap. VI.

(٢١١) Lane-Poole, history, Vol. VI, p. 165.

(٢١٢) William of tyre, history of deeds, Vol. I, p. 5233, chap. VI.

(٢١٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٨١ ؛ الذهبى : تاريخ الاسلام ، مجلد ٢٥ ورقة ٤٢ (ظ) ؛ دول الاسلام ، ج ٢ ص ٣٧ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٢ مجلد ٢ لوحة ٧ . ويذكر فوشيه شارتر أن القوات المصرية بلغ عددها خمسة عشر ألف من الخيالة وعشرون ألفا من الرجالة وهذه مبالغة واضحة ، راجع : Fulcher of chartres the expedition p. 225, chap. II.

صور فى الشمال[٢١٤] وذلك ضمن خطة الفاطميين للاطباق على المملكة الفرنجية من الشمال والجنوب . وفى صيف عام ٥١٢ هـ / يوليو ١١١٨ م ، تقابلت القوات الفاطمية مع القوات الدمشقية بقيادة طغتكين وقواده وأشهرهم شمس الخواص ، فى مدينة عسقلان ، وقدم والى المدينة وقائد الجيش الفاطمى الهدايا والخلع التى أنعم بها خليفة مصر الفاطمى الآمر بأحكام الله على طغتكين[٢١٥] ، كما أخبر طغتكين من المقدم على الجيش الفاطمى أن لديه تعليمات من القاهرة أن يتولى طغتكين قيادة القوات المشتركة « وبالوقوف عند رأى طغتكين والتصرف على ما يحكم به[٢١٦] . وبذلك وللمرة الثالثة تحالف الفاطميون الشيعة مع سلاجقة دمشق السنيين ضد الصليبيين للقضاء على مملكة بيت المقدس الصليبية وطرد الفرنج من فلسطين[٢١٧] مما أنذر بتهديد مملكة اللاتين تهديدا خطيرا وأصبحت فى موقف لا تحسد عليه[٢١٨] .

ولم يكن أمام الملك بلدوين الثانى ازاء هذا الموقف الحرج سوى الاستنجاد برفاقه ومنهم روجر أوف سالرنو أمير انطاكية «Roger of Salerno» ، بونز «Ponz» كونت طرابلس ، جوسلين دى كورتناى «Jocelin de Cortenay» أمير تل باشر ، طالبا منهم استدعاء ما لديهم من قوات لتكون مددا وعونا لجنود بيت المقدس[٢١٩] . وسرعان ما زحفت تلك القوات الفرنجية المتحدة للقاء القوات الفاطمية الدمشقية وتقابلت قوات حلفاء الجانبين شمال عسقلان فى ١٧ ربيع أول سنة ٥١٢ هـ / ١٨ يوليو ١١١٨ م أنتظارا للمعركة الفاصلة[٢٢٠] .

على أن الجيشين الاسلامى والصليبى ظلا يواجهان بعضهما بدون القيام بأية هجمات أو اشتباك فعلى ، وتجمد الموقف بينهما لمدة شهرين[٢٢١] ، أو ثلاثة شهور[٢٢٢] ( من ربيع الثانى الى جمادى الثانى عام ٥١٢ هـ / يونيوـسبتمبر عام ١١١٨ م دون أن يجرؤ أحدهما على التحرك من موضعه ذلك أن كل جندى مسلم أو صليبى ، على حد قول المؤرخ المعاصر فوشيه شارتر « كان

---

(٢١٤) Fulcher of chartres, Ibid, p. 226; William of tyre, deeds, Vol. I. p. 524.

(٢١٥) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٢١٢ . وأورد تفاصيل أكثر من عوه . راجع المؤرخ الشامى المجهول: البستان الجامع ، نشر كلود كاهن فى مجلة معهد الدراسات الشرقية «B.I.E» ، باريس ١٩٢٧ — ١٩٢٨ ، 340 .

(٢١٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٨١ ، كذلك : Nicholson, R., the growth of the latin states (1118-1144) in setton (ed.,) Vol. I p. 412.

(٢١٧) William of tyre, history of deeds, Vol. I, p. 523.

(٢١٨) Nicholson, the growth of the latin states in setton, Vol. I, p. 523.

(٢١٩) Nocholson, op. cit., in setton (ed.,) Vol. 1, p.p. 412-413.

(٢٢٠) Fulcher of chartres, the expedition, p. 226, William of tyre, History of deeds, p. 524.

ويلاحظ أن رواية المقريزى ، نقلا عن ابن المأمون ، تشير لقيام قوات الحلف الاسلامى بالتمهيد لحملتهم ضد بيت المقدس بشن الغارات والهجمات السريعة على توابع مملكة بيت المقدس . راجع المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٢١٢ .

(٢٢١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٨١ ؛ الذهبى : تاريخ الاسلام ، مجلد ٢٥ ورقة ٤٢ (أ) ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول ، ج ٢ لوحة ٧

(٢٢٢) Fulcher of chartres, the expedition p. 226; William of tyre, deeds, Vol. I. a. 524

يؤثر الحياة على الموت »[٢٢٣] وسرعان ما تفرق الجانبان ، وعاد كل فريق من حيث أتى[٢٢٤] .

والواقع أن المصادر الاسلامية والصليبية المعاصرة أو القريبة للفترة ، لم توضح السبب الحقيقى الذى أدى إلى انسحاب القوات الفاطمية الدمشقية المشتركة والصليبية ، دون الدخول فى معركة فاصلة . فرغم أن المؤرخ الصليبى وليم الصورى يذكر أن سبب انسحاب القوات الاسلامية المتحالفة انما يرجع الى ضخامة القوات الصليبية التى كانت تضاهى وتفوق الجيشين الفاطمى والسلجوقى المشترك كثيرا ، ولهذا آثر والى عسقلان وقائد القوات المصرية عدم الدخول فى معركة غير مأمونة العواقب ، فآثروا الانسحاب . ويضيف وليم أن الشعور الصليبى كان مشابه تماما بالنسبة للقوات الاسلامية ولهذا انسحب الجانبان[٢٢٥] دون احراز نتائج تذكر . ويفهم من نص المؤرخ ابن الأثير أن طغتكين آثر الانسحاب من أمام الفرنج ، عائدا الى دمشق لنجدة امارته وتوابعها من غارات الفرنج الذين تمكنوا فى غيابه من الاغارة على أذرعات وأستولوا على بعض المواقع شمال وشرق طبرية ، مثل حصن الحبس المعروف بحصن جلدك[٢٢٦] . وربما أن النجدة التى طلبها ايلغازى بن أرتق فى الشمال من طغتكين هى التى دفعته للعودة بقواته دون الدخول فى موقعة فاصلة[٢٢٧] .

والواقع أن هذه التبريرات التى ساقتها المصادر السابقة لانسحاب القوات الاسلامية والصليبية من أمام كل منهما الآخر ، غير كافية أو قوية لاقناع الباحث بهذا الأمر . ولكننى أرجح أن تلك الحملة العسكرية القوية من جند دمشق والقاهرة كانت مجرد تلويح بالقوة من جانب الفاطميين والسلاجقة لاظهار مدى قوتهم وأمكانية مواصلة تهديدهم لمملكة بيت المقدس اللاتينية من ناحية الجنوب أو الشمال حتى ولو بدون الدخول فى معركة فاصلة ، وأنه على الفرنج أن يحسبوا ألف حساب للفاطميين ، والدليل على ذلك مدى الرعب والفزع الذى نزل ببلدوين الثانى ملك بيت المقدس عند سماعه بأنباء التحالف الدمشقى الفاطمى والاستعدادات الفاطمية السلجوقية الكبرى لشن هجوم شامل على الفرنج وايقاع مملكتهم بين شقى رحى ، ولهذا سارع بطلب العون من القوى الصليبية الأخرى لانقاذ مملكته . وربما قصد الوزير الأفضل شاهنشاه بتلك الحملة المشتركة أن يقنع الصليبيين أو أن يدخل فى اعتبارهم أن مصر لازالت قوة لا يستهان بها رغم هزائم الجيوش المصرية المتتالية أمام الفرنج ، وأن عليهم أن يفكروا كثيرا قبل أن يجرؤا على تكرار

---

(٢٢٣) Fulcher of chartres, the expedition, p. 226.

(٢٢٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٨١ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ١٥٤ . ويذكر فوشيه شارتر أن أمراء أنطاكية تركوا مع بلدوين قوة تقدر بحوالى ثلاثمائة فارس لمؤازرة جيش المملكة خشية أن يكون انسحاب القوات الاسلامية مجرد خدعة ، أو أن يعاود مهاجمة بيت المقدس ثانية .

Fulcher of chartres, the expedition, p. 226.

(٢٢٥) William of tyre, history of deeds, Vol. I, p. 524.

(٢٢٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٨١ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ١٥٤

(٢٢٧) Stevenson, history of crusaders in the East, p. 67.

الاغارة على الحدود المصرية أو محاولة غزو القاهرة نفسها ، كما حاول ملكهم الراحل بلدوين الأول ، ويؤكد هذا الرأى أن الفرنج لم يجرؤا فى الفترة الباقية من وزارة الأفضل بن بدر الجمالى أى بعد غارة بلدوين عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م على حدود مصر الشرقية وفى فترة تالية للأفضل حتى حملة عمورى ( أملريك ) ملك بيت المقدس على مصر أثناء وزارة شاور وضرغام على تكرار محاولة بلدوين السابقة للنيل من مصر ، أو حتى الاغارة على الحدود المصرية وهذا الرأى فى حد ذاته ، كان من النتائج التى ترتبت على الحملة الاسلامية المشتركة المذكورة آنفا .

أما بالنسبة لمحاولة الوزير الأفضل بن بدر الجمالى لاجتذاب أو استمالة طغتكين أتابك دمشق فى صراعه ضد الصليبيين بالشام ، فقد توج بالنجاح الكامل ، رغم الخلاف المذهبى والسياسى بين الجانبين ولكن الخطر المشترك قد وحد بين أكبر قوتين بالشرق الاسلامى ، وقد ظهرت ثمار هذا التحالف فى عديد من المناسبات بدأت بموقعة الرملة الثالثة عام ٤٩٨ — ٤٩٩هـ / ١١٠٥م ، وجهود طغتكين الضخمة لمساعدة الفاطميين للحيلولة دون سقوط مدن وموانىء الساحل الشامى فى أيديهم وانتهاء بحملة عام ٥١٢هـ / ١١١٨م . ويلاحظ هنا أن التعاون أو التحالف بين سلاجقة دمشق وفواطم القاهرة لم ينقطع بموت الأفضل عام ٥١٥ هـ / ١١٢١م ، بل استمر بعد مقتله فى عهد الوزير ابو عبد الله المأمون البطائحى وخلافه الآمر بأحكام الله .[٢٢٨]

وقد أظهرت تلك الحملة الفاطمية السلجوقية المشتركة أيضا أن أخطر ما يهدد أو يزلزل مملكة بيت المقدس الصليبية منذ قيامها قيام مثل هذا التحالف بين القاهرة ودمشق ، ولذلك فان الأفضل شاهنشاه فى رأى أول قائد اسلامى حاول توحيد مسلمى الشام ومصر فى جبهة واحدة والقيام بعمليات عسكرية مشتركة لمواجهة الفرنج وطردهم من الشام وهو يسبق بذلك محاولات كل من عماد الدين زنكى ، نور الدين محمود ، صلاح الدين الايوبى .وقد نجح الأفضل فى تحقيق هذه السياسة إلى حد بعيد ، ولكنه لم يكن يدرك بذلك أنه وضع البذور الأولى لحركة الجهاد الاسلامى المقدس ضد الصليبيين فى الشام وهى السياسة التى سار عليها خلفاؤه من بعده ، بل أن طغتكين أتابك دمشق كان يتمنى اتباع نفس سياسة الأفضل الوحدوية تلك وذلك حين صارت مقاليد الزعامة اليه ضد الصليبيين بالشام بعد مصرع الأفضل عام ٥١٥هـ / ١١٢١م ، ولكنه لم يوفق فى جهوده تلك مثل توفيق الأفضل بسبب الاضطرابات الداخلية التى امتدت فى الخلافة الفاطمية ، بعد مقتل الأفضل مما أعاقه عن القيام بأى هجوم جديد وقوى ضد الصليبيين ، بجانب إنصراف طغتكين فى أغلب الأحيان لتقديم العون لامارة حلب ضد الصليبيين فى الشمال .

على أية حال فمن الصعب علينا أن نحدد كيف سارت الأمور فى العلاقات الفاطمية الصليبية فى الفترة التى تلت حملة عام ٥١٢هـ /١١٢١م ، ومدى النشاط الفاطمى ضد الصليبيين بالشام

---

(٢٢٨) ابن ميسر : اخبار مصر ، ص ٦١ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٤٨٢ — ٤٨٣ ، كذلك : Fulcher of chartres, the expedition, p.p. 246-265 chp., XXXII, book III.

وبالتحديد فى الفترة من بين عام ٥١٢هـ / ١١١٨م الى عام ٥١٥ هـ / ١١٢١م التى شهدت مصرع الأفضل فى أحد شوارع القاهرة . والواقع أن المصادر التى لدينا لاتكاد تسعفنا بمعلومات كافية حول هذه النقطة ولكن بعضها يشير لوقوع بعض الصدامات أو الاحتكاكات الصغيرة وتبادل الغارات على نطاق محدود بين الفاطميين والصليبيين قبيل مصرع الأفضل ،مثل تلك الغارة التى شنها جوسلين دى كورتناى أمير تل باشر فى عام ٥١٢هـ / ١١١٩م ضد مدينة عسقلان والتى انتهت بهزيمة نكراء أمام حامية المدينة فعاد بعدها مفلولاً[٢٢٩] ، بجانب ذلك أشارت المراجع الحديثة لنوع من النشاط الواسع والمؤقت الذى قام به أيضا جوسلين دى كورتناى لمهاجمة مدينة صور الفاطمية وفشله فى الاستيلاء عليها[٢٣٠] .

وعدا ذلك فقد التزمت المصادر الاسلامية والفرنجية الصمت عن وجود أى نشاط للفاطميين فى الشام خلال الفترة المذكورة آنفا ، ونرجح أن الوزير الأفضل بن بدر الجمالى أراد أن يقضى البقية الباقية من حياته فى دعة وسلام مكتفيا بما تحت يده من أملاك بالشام ممثلا فى صور القاعدة البحرية القوية للاسطول الفاطمى شمال الشام وعسقلان قاعدة الفاطميين البرية والبحرية القوية فى الجنوب والاكتفاء بتقوية وتحصين تلك المدينتين لتكونا قذى فى أعين الصليبيين وتأمين سلامة الحدود المصرية من ناحية الشرق ، خاصة لو علمنا أن الأفضل قد انصرف فى الفترة من عام ٥١٢هـ / ١١١٨م ، الى عام ٥١٥ هـ / ١١٢١م ، عن مواصلة نشاطه العسكرى فى الشام بسبب الاضطرابات الداخلية التى نتجت من سوء علاقته بالخليفة الآمر بأحكام الله والصراع بينهما للسيطرة على مقدرات الأمور فى الخلافة وانشغال الأفضل بحماية نفسه من مؤامرات ودسائس الخليفة الآمر وأعدائه لأغتياله .

---

(٢٢٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣/٦ ، حوادث عام ٥١٢ ؛ العينى : عقد الجمان ، ج ١ قسم ٣ لوحة ٤٥٦

(٢٣٠) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٤٧٠ يعتمد على مصدر لم يذكره

# ملاحـــق الدراســـة

ملحق رقم ١ : إستيلاء الجنوية والصليبيين على مدينة طرابلس الفاطمية وموقف الخلافة الفاطمية ووزيرها الأفضل من ذلك عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م ، نقلا عن سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، ج١٢ قسم ٣ لوحة ٢٦٢ .

ملحق رقم ٢ : حصار الفرنج مدينة صيدا الفاطمية ودور الأسطول الفاطمى وسلاجقة دمشق فى الدفاع عنها عام ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م ، نقلا عن ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١ مجلد ١ لوحات ٣٦ ـــ ٣٧ .

ملحق رقم ٣ : الحصار الصليبى لمدينة صيدا الفاطمية عام ٥٠٣ هـ / ١١١١ م ، وموقف الخلافة الفاطمية من ذلك ، نقلا عن ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١ مجلد ١ لوحة ٤٦ .

ملحق رقم ٤ : عصيان شمس الخلافة والى عسقلان على الخلافة الفاطمية ، وموقف الوزير الأفضل من ذلك عام ٥٠٤ هـ / ١١١٢ م نقلا عن ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١ مجلد ١ لوحة ٥٠ .

ملحق رقم ٥ : حصار الصليبيين لمدينة صور الفاطمية ودور الفاطميين وسلاجقة دمشق فى الدفاع عنها عام ٥٠٥ هـ / ١١١٢ م ، نقلا عن ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١ مجلد ١ لوحات ٥٦ ـــ ٥٨ .

ملحق رقم ٦ : غارة الملك بلدوين الأول على مصر عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م وموقف الوزير الأفضل منها ، نقلا عن ابن صاعد القلزمى : سير البيعة المقدسة ، ج ٣ لوحات ١١٣ ـــ ١١٤ .

ملحق رقم ٧ : الأتصال التجارى بين مدن إيطاليا والخلافة الفاطمية فى عهد الوزير الأفضل ، نقلا عن وثيقة فاطمية لمؤرخ فاطمى مجهول والمحفوظة بدار المحفوظات الفاطمية بلندن .

# ملحق رقم (١)

إستيلاء الجنوية والصليبيين على مدينة طرابلس الفاطمية وموقف الخلافة الفاطمية ووزيرها الأفضل من ذلك عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م : نقلا عن سبط ابن الجوزي[١] .

لوحة ٢٦٢ أ : وفي عام ( ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م ) أخذت الفرنج طرابلس . وقيل في السنة الآتية أجتمع ملوكهم ، ريمند بن صنجيل[٢] ، في ستين مركبا جنويا في البحر مشحونة بالمقاتلة ، وطنكري[٣] صاحب أنطاكية ، وبغدوين[٤] صاحب القدس وشرعوا في حصارها وضايقوها من شعبان إلى حادي عشر ذي الحجة[٥] وأسندوا أبراجهم إلى السور ، فلما رأى من بها من العسكر وأهل البلد ذلك ، سقط في إيديهم ، وأيقنوا بالهلاك مع تأخر الأسطول عنهم وكان كلما سار الأسطول نحوهم ردته الريح إلى مصر . فلما كان يوم الأثنين[٦] هاجمها الفرنج ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها

لوحة رقم ب : وأخذوا أموالها وذخائرها مالا يحصى ولا يحصر وأقتسموها بينهم ، وساروا إلى جبلة وبها فخر الملك بن عمار[٧] ، فتسلموها بأمان في ثاني عشر ذي الحجة . وخرج منها ابن عمار سالما . ووصل حينئذ الأسطول المصري ، ولم يخرج فيما تقدم من مصر مثله فوجدوا البلد قد أخذ فعادوا إلى مصر .

---

(١) سبط ابن الجوزي مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة ج ١٢ قسم ٣ ، لوحه ٢٦٢ أ ـــ ب

(٢) الصحيح هو برترام لأن ريموند الصنجيلي لقى مصرعه قبل فتح طرابلس بسنتين أي عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م

(٣) هو تانكريد النورماندي كما ورد في المصادر الصليبية

(٤) هو بلدوين الأول كما جاء في المصادر الصليبية

(٥) من عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م

(٦) يقصد به الأثنين الموافق ٦ ذو الحجة / ٢٧ يونية

(٧) أمير طرابلس

# ملحق رقم (٢)

حصار الفرنج مدينة صيدا الفاطمية ودور الأسطول الفاطمي وسلاجقة دمشق في الدفاع عنها عام ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م نقلا عن ابن الفرات[٨] .

لوحة ٣٦ : ذكر قصد الفرنج صيدا وحصارها برا وبحرا وما وقع بين أسطول الفرنج وأسطول الديار المصرية ونصره أسطول مصر ، ورجوع الفرنج عن صيدا : في هذه السنة[٩] نزل الفرنج خذل الله من مضى منهم وخذل من بقى منهم على صيدا برا وبحرا ولما ضاق أهلها بالأمر كتبوا كتابا إلى الديار المصرية والبلاد الشامية بإرسال نجدة وإعجال المساعدة ، فأمر صاحب الديار المصرية[١٠] بتسيير الأسطول اليهم فأرسلوه وجهزت حوائجه وسار في أقرب وقت ، وأنفق على الأسطول أموال عظيمة وتوجه الأسطول إلى صيدا فلم يتعد عن

لوحة ٣٧ : دمياط إلا ومراكب الفرنج في ستين قطعة قد لقيته / وهي مشحونة بالسرداني . والجنوى والبنادقة[١١] وغيرهم فقاتلهم الأسطول المصرى وكان في خمسين شينيا[١٢] ، وكان فيه جماعة من بحرية الشام الذين هربوا من الساحل الذى فتحه الفرنج[١٣] ، وكان فيهم ثابت بن أحمد الشامي[١٤] وكان أحد شجعان البحر ، فخسف عشرين مركبا من مراكب الفرنج ، وأحتوى على ما كان فيها وأوصل ما بها الى مصر وعادت الفرنج الى الساحل خاسرة . وكان وصول النهاب إلى مصر يوما مشهودا وأحتفل صاحب الديار المصرية[١٥] ، بالاسطول وأعادة إلى نصره صيدا فعادت الجنوية اليه وقابلته فأنتصر عليها ، وكسرها ويئست الفرنج من فتحها . وكان اللعين بغدوين[١٦] قد نزل على صيدا ونصب عليها البرج الخشب ولما بلغ طغتكين أتابك صاحب دمشق أنتصار المسلمين على مراكب الفرنج رحل من دمشق قاصدا صيدا وبلغ بغدوين خروجه وعاد إلى مكانه[١٧] .

---

(٨) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٣٩٧ تاريخ ، ج ١ مجلد ١ لوحات ٣٦ — ٣٦ .
(٩) يقصد سنة ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م .
(١٠) الخليفة الآمر بأحكام الله .
(١١) عناصر من أهل جزيرة سردينيا ومدينتي جنوا والبندقية .
(١٢) أنظر ما سبق من الفصل الخامس ص ٥٨٣ .
(١٣) طرابلس وبيروت .
(١٤) لم نجد له ترجمة في كتب السير والتراجم .
(١٥) الخليفة الآمر بأحكام الله .
(١٦) ملك بيت المقدس .
(١٧) بيت المقدس

# ملحق رقم (٣)

الحصار الصليبي لمدينة صيدا الفاطمية عام ٥٠٣ هـ / ١١١١ م وموقف الخلافة الفاطمية من ذلك نقلا عن ابن الفرات[١٨] .

لوحة ٤٦ أ : وقال الشيخ يحيى بن أبي طيىء حميد النجار الغساني الحلبي[١٩] في حوادث عام ( ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م ) ما صيغته :

لوحة ٤٦ ب : وفي هذه السنة نزلوا[٢٠] عليها وحاصروها وقرروا على أهلها / ستة آلاف دينار وتسليم البلد بعد مدة عينوها ورحلوا عنها ، وقيل كان سبب فتح مدينة صيدا أنه وصل في البحر إلى الشام ستون مركبا للفرنج مشحونة بالرجال والذخائر مع بعض ملوكهم لحج بيت المقدس ، وليغزو بزعمه إلى المسلمين فأجتمع بهم اللعين بغدوين أو برحوين ملك الفرنج بالقدس وتقررت القاعدة بينهم لعنة الله ، وأن يقصدوا بلاد المسلمين ، فرحلوا من القدس ونزلوا على مدينة صيدا ثالث شهر ربيع الآخر من هذه السنة ، وضايقوها برا وبحرا ، وكان الأسطول المصري مقيما على صور فلم يقدر على إنجاد صيدا ، فعمل الفرنج برجا من الخشب وأحكموه ، وجعلوا عليه / ما يمنع النار عنه .

لوحة ٤٧ أ :

والحجارة ، وزحفوا به . فلما عاين أهل البلد ذلك ، ضعفت نفوسهم وأشفقوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل بيروت ، فأرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها إلى الفرنج وطلبوا من ملكهم[٢١] الأمان فأمنهم على نفوسهم وأموالهم والعسكر الذي عندهم ، ومن رأى المقام عندهم أمنوه ، ومن أراد المسير عنهم لم يمنعوه وحلف لهم اليمين على ذلك ، فخرج الوالي[٢٢] وجماعة كثيرة من أعيان أهل البلدة في جمع كبير من جمادى الأولى من هذه السنة إلى دمشق ، وأقام بالبلدة خلق كثير تحت الأمان وكان مدة سبع وأربعين يوما ورحل اللعين بغدوين ملك الفرنج بالقدس عنها إلى القدس الشريف ثم عاد إلى صيدا بعد مدة يسيرة فقرر على المسلمين الذين أقاموا بها عشرين ألف دينار فأفقرهم والله أعلم .

---

(١٨) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات ، مخطوط دار الكتب المصرية ، ج ١ مجلد ١ لوحات ٤٦ ، ٤٧

(١٩) هو المؤرخ الذي نقل عنه ابن الفرات هذا النص وهو من المصادر المفقودة .

(٢٠) المقصود الفرنج .

(٢١) بغدوين .

(٢٢) لم يرد في المصادر الإسلامية اسم الوالي الفاطمي لمدينة صيدا في ذلك الحين

# ملحق رقم (٤)

عصيان شمس الخلافة والي عسقلان على الخلافة الفاطمية وموقف الوزير الأفضل من ذلك عام ٥٠٤ هـ / ١١١٢ م نقلا عن ابن الفرات[٢٣] .

لوحة ٥٠ أ : وقيل أن الأفضل بن أمير الجيوش كان قد ولى عسقلان لرجل من أجناد مصر يقال له شمس الخلافة أسد ، فوصل إليها في ثلاثة وخمسمائة من الهجرة . فلما كان في سنة أربع وخمسمائة من الهجرة ، جرت أمور أقتضى الحالة أنه أخرج من عسقلان جماعة من جندها وأدته الحال إلى أن عصى على المصريين ووصلت إليها نجدة من مصر فمنعها من دخول عسقلان . فرجعوا عنها فوصل إليها بغدوين صاحب القدس في عسكر كثيف من الفرنج ونزل عليها وقاتلها أياما ، فصانعه شمس الخلافة على مال حمله اليه فعاد عنها اللعين بغدوين الفرنجي . وبلغ هذا جميعه للأفضل وزير الديار المصرية فأنهض إلى عسقلان عسكر يزيد على عشرة آلاف مقاتل ، وبلغ ذلك شمس الخلافة فكاتب صاحب القدس يستنجده ، وتحقق العسكر الواصل من مصر هذا الفعل فأجفلوا وعادوا عن قصد عسقلان ، وكتبوا إلى الوزير الأفضل بجلية الأمر ، فأشفق من الحال ، وعاد يكاتب شمس الخلافة وطيب قلبه وعلمه حسن ظنه فيه وأنه قد أعاد اليه اقطاعه بمصر . وخاف شمس الخلافة من أهل البلد فاسترعى جماعة من الأرمن ، وجعلهم عنده في المدينة وجعل يميل اليهم بالإحسان والأنعام . فلما كان آواخر سنة أربع وخمسمائة هذه السنة أنكر أفعاله جماعة من أهل البلد وقبيلة كتامه وأجتمعوا ووثبوا عليه فقتلوه ونهبوا داره وأكثر دور وجوه أصحابه وقامت الفتنة بعسقلان ، وقتلوا من كان بها من الأرمن وبادر إلى عسقلان صاحب السيارة[٢٤] فملكها وأرسل رأس شمس الخلافة إلى مصر وأرسل جماعة من الذين ...[٢٥] ونهبوا عسقلان فأعتقلوا هناك . وقيل أرسل أهل عسقلان إلى مصر بجلية الحال إلى الآمر بأحكام الله صاحب الديار المصرية ووزيره الأفضل سرا بذلك وأحسنا إلى الواصلين بالبشارة وأرسلا إلى عسقلان نائبا يقيم بها ويستعمل مع أهل البلد الأحسان وحسن السيرة فتم ذلك ...[٢٦] ما كانوا يخافونه .

---

(٢٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مخطوط دار الكتب المصرية ، ج ١ مجلد ١ نقلا عن ابن ابى طيء لوحة ٥٠ .

(٢٤) ربما يقصد بذلك قائد الحملة الفاطمية التى أرسلت لاعادة عسقلان لحظيرة الفاطميين ومساعدة أنصار الخلافة بها .

(٢٥) بياض بالأصل

(٢٦) بياض بالأصل

# ملحق رقم (٥)

حصار الصليبيين لمدينة صور الفاطمية ودور الفاطميين وسلاجقة دمشق فى الدفاع عنها عام ٥٠٥ هـ / ١١١٢ م نقلا عن ابن الفرات[٢٧] .

لوحة ٥٦ : لما تفرقت العساكر الإسلامية[٢٨] ، أجتمع الفرنج على قصد مدينة صور ، وحصارها فحشد اللعين بغدوين[٢٩] صاحب القدس ، حشدا عظيما من الفرنج ونزل على صور فى ٢٥ جمادى الأولى من هذه السنة ( ٥٠٥ ) هـ ، وعمل ثلاثة إبراج خشب علو البرج ذراعا ، فى كل برج ألف رجل ، وألصقوا أحدها إلى سور البلد ، وأخلوه من الرجال ، ونصبوا المجانيق ، فأيقن أهل صور أخذ البلد ، وكان الأمر بأحكام الله صاحب مصر ونائبه بها الأمير عز الملك الأعز[٣٠] . فلما رأى ما حل بالناس أحضر أهل البلد وأستشاورهم فى عمل حيلة يدفعون بها شر الأبراج التى عملها الفرنج عنهم . فقام من المسلمين رجل شيخ من أهل طرابلس قد جاوز الثمانين سنة ، وضمن على نفسه إحراقها ، وجمع اليه جماعة ، وطلب أسلحة كثيرة من خزانة ، وهيأ أموره وأخذ معه من أهل صور ألف رجل ، بالسلاح التام ومع كل رجل قطعة خشب كبيرة وقيل حزمة حطب ، وأخرجوا ، فقاتلوا الفرنج حتى وصل الى البرج الملتصق بالمدينة وأمرهم الشيخ أن يلقوا الخشب قريبا من البرج من سائر جهاته ، وطرح النار فيها طرحا .

لوحة ٥٠ ب : فأحترقت الأخشاب وعلقت النار بالبرج . ثم أن الشيخ خاف أن ينشغل الفرنج الذين بالبرج باطفاء النار ، ويتخلصوا فرماهم بجرار كان قد أعدها مملوءة ...[٣١] ، فلما سقطت عليهم أشتغلوا بها ، ومما نالهم من سوء الرائحة والتلويث . فتمكنت النار من البرج ، ولم يتمكن الفرنج من إطفاء النار ، فهلك كل من به إلا القليل ، فهربوا وتناولهم المسلمون من رأس البرج بالكلاليب عن قدروا عليه من سلاحهم ودروعهم . ويقال أنهم أخذوا منه ثلاثمائة درع . وكان فى هذا البرج كبش[٣٢] من الحديد طوله مائة وخمسون

---

(٢٧) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مخطوط دار الكتب المصرية ، ج ١ مجلد ١ لوحة رقم ٥٦ أ ، ٥٨ أ .

(٢٨) جند الأسطول الفاطمى .

(٢٩) هو الملك بلدوين الأول ، ملك بيت المقدس الصليبى .

(٣٠) والى صور من قبل الخليفة الآمر .

(٣١) بياض بالأصل ، ونرجح النفط .

(٣٢) كبش : هى أحدى آلات الحرب

ذراعا . وأحضضناه فى أيديهم وكان وزن رأسه مائة وخمسين رطلا ، فظفر به المسلمون أيضا . ثم أخذ الشيخ سلال العنب وجعل ساقه الكتان ومعه الزيت والكبريت ، وعمل .

لوحة ٥٠ ب : ذلك على بقية ...[٣٣] ، وألقى ذلك جميعا فى رأس البرج فاحترق ما كان قد بقى منه . واستأمن إلى عز الملك والى صور فرنجيان فقال لهما : ما سبب استئمانكما ؟ فقالا : أما أحدهما فهو كان بحاجة إلى قطعتين دينار ، فأخذ ذلك من أصحابه ، وفارقهم بسببها ، وأما الأخر فكان متقدما على صديقه فأعان صاحبه على ...[٣٤] فساء ظنه بذلك ولحقته نخوة ، فقصد المسلمين ولاذ بهم ، فخاف صاحب صور أن يكونا عليه ...[٣٥] ، فاستظهر عليهما ثم أطلقهما خير من أن يسكن إليهما . فقالا له : « إن كان عندك حطب ونار دبرناك فى حرق الأبراج ( أو البرج الأخر ) فقال « ما بقى فى قوة ولا فى رجالى منعة » . قيل لما أحرق الشيخ الطرابلسى البرج الملاصق للبلد أخذ سلال العنب الكبار وجعل فيها الحطب الذى قد سقاه بالنفط والزفت والكتان والكبريت ، ورماهم بسبعين سلة ، فأحرق البرجين الأخرين . ثم أن أهل صور حفروا سراديب تحت الأرض سالك من البلد إلى البر ، ليسقط فيها الفرنج اذا زحفوا اليها وإذا عملوا أبراجا وسيروها اليهم أو سارت فوق تلك الأنفاق أضرموا فى تعاليقها النيران فتنخسف بالأبراج . فاستأمن إلى الفرنج جماعة أو قوم من المسلمين وعرفوهم بما عملوا من هذه المكيدة ، وحذروهم منها وحذروا منها وساروا .

لوحة ٥٧ أ : بعد ذلك فجسوا بين أيديهم / بالمجاس الحديد ، فان كانت أرضا صلبة أجتازوا عليها ، وأن كانت رخوة صلبوها ، فلا عافهم الله تعالى ولعنهم جميعا . وخرج بعض الفرنج فى بعض الأوقات ، وغابوا عن أعين الناس ، ثم عادوا وقد قطعوا الشجر أنابيب أنابيب ورموه إلى الخندق ليطمروه . فلما رأى أهل صور أرسلوا إلى طغتكين صاحب دمشق معاونا لهم ونزل على مكان يعرف بحولة بانياس وأرسل مائتى غلام أتراكا وأمرهم بالمقام عندهم نجد لهم فدخلوا البلد ، فقوى بهم أهل صور ، وأمتنعوا بهم . وظهرت نجابة الأتراك وتولى الحرب بصور غلام تركى من غلمان الأمير طغتكين أسمه خليل وقتل من الفرنج الفا وخمسمائة رجل وقتل جماعة منهم بنشابة فقال الفرنج للعين بغدوين ملكهم :

---

(٣٣) بياض بالأصل ومن المحتمل السلال .

(٣٤) بياض بالأصل .

(٣٥) بياض بالأصل ومن المحتمل جواسيس .

« بادر بالقتال قبل أن يتكامل عددهم ألف فارس من الأتراك فلا تقدر عليهم أبدا ويفتونا » وأشتدوا في القتال خوفا من اتصال النجدات من الأمير طغتكين ومضي نشاب الأتراك ، فقاتلوا بالخشب ، ورمى النفط ، فوقعوا بسرب[٣٦] تحت الأرض بباب من بلدة صور فيه شيء من النفط والحجارة والسلاح لم يعلموا من قبل ذلك ولم يعلموا من خزنه والأظهر أنه كان معداً من زمان بني أمية . ولما رأى اللعين بغدوين

لوحة ٥٧ أ : حلك الفرنج لعن الله من بقي منهم ، ما بلى به من المطاولة ، عزم على أن يأخذ قوما من الفرنج ويركبهم براذين الأتراك ويحطهم سلاحهم ويظهر أنه كسر الأمير طغتكين أتابك وأن هؤلاء الأسرى عسكره مخوفا بذلك قلوب أهل صور ، ويضطرون إلى الأذعان والتسليم . وأتصل هذا بالأمير طغتكين فأرسل إلى أهل صور ، وأخبرهم بجلية الحال ، وقال : « لو رأيتم كل الأتراك أتوكم في الأصفاد لا تسلموا البلد ابدا » وبينا القتال في بعض الأيام واقع اذ تحرك بعض الفرنج وزالوا عن مراكزهم .

لوحة ٥٧ ب : وألتبس أمرهم على أهل صور ، وتداخلهم من ذلك هم وفكر / ثم أعادوا بعد ساعة في ثلاثمائة فارس ومعهم قوم في زي الأتراك ملتفين وقد أظهروا للفرنج الأستعسار فناداهم أهل صور بالشنيعة وأعلموهم ظهور مكيدتهم وجعلوا يهزؤون بهم . وجعل الأمير طغتكين يغير على أعمال الفرنج من جميع جهاتها ، وقصد حصن الحبس ، وقتل من كان فيه وعاد إلى الفرنج الذين على صور ، وكان يقطع الميرة عنهم في البر ، فأحضروهم في البحر وخندقوا عليهم ولم يخرجوا إليه . فسار إلى صيدا ، وأغار على ظاهرها فقتل جماعة من الفرنج البحرية وأحرق لهم عشرين مركبا على الساحل ، وهو مع ذلك يواصل أهل صور بالكتب يأمرهم بالصبر والفرنج يلازمون قتالهم وقاتل أهل صور قتال من يئس من الحياة فدام القتال إلى أوان إدراك الغلات فخاف الفرنج أن

: الأمير طغتكين صاحب دمشق قد يستولى على / غلات بلادهم فقالوا للعين ملكهم بغدوين « أن اعلافنا قد أستحصدت ونخاف أن يأخذها الأمير طغتكين والأتراك ونادوا بالرحيل فرحلوا . ورحل اللعين بغدوين مكرها ، وأحرق ما كان بناه على ظاهر صور من البيوت والمنازل وسار عن بلده صور في ١٠ شوال من هذه السنة ( ٥٠٤ هـ ) إلى عكا .

وأقام الأمير طغتكين أتابك صاحب دمشق بعد رحيله أياما حتى خرج

---

(٣٦) ربما تكون سرداب

أصحابه من الأتراك وقد أعطاهم أهل صور الأموال وغيرها وحملوا إلى الأمير طغتكين من المال والخيل والثياب شيئا كثيرا . وعاد إلى دمشق واصلح أهل صور ما شعث من أسوارهم ، وخندقهم وكان الفرنج قد طموه ، وكان الأمير طغتكين أتابك صاحب دمشق والأمير عز الملك الأعز صاحب صور قد أرسلا إلى حلب يستنجدان صاحبها الملك رضوان فأرسل ثلاثمائة فارس لم ينفق فيهم شيئا فعادوا جميعا إلى حلب فأخذ رجل منهم وأمر بصفعه وحلق لحيته فقال : « إن الله بعثنا لنقتل بلا شيء إن كان قد أنفقت فينا ما لا تجده وإن كنت لا تعطينا شيئا فخل سبيلنا فتضاحك الناس ومسكوا السنتهم بذمة ثم أشير عليه باستدراك ما فات فبعث بكافور خادم الأمير جاولي سقاوة في مائتي فارس وأنفق فيهم وأزاح عليهم فانتهوا إلى الأمير طغتكين إلى دمشق . والله أعلم .

## ملحق رقم (٦)

غارة الملك بلدوين الأول على مصر عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م موقف الوزير الأفضل منها نقلا عن ابن صاعد القلزمي[٣٧] .

لوحة ١١٣ : وفي هذه السنة الخامسة عشر[٣٨] لبطركية الأب القديس أنبا مقارة البطرك[٣٩] ، وصل بردويل[٤٠] مقدم الفرنج في عسكر عظيم إلى الفرما ، فنهبها وأحرقها . وعول على الهجوم على مصر بغتة فمرض في ثالث يوم واشتد مرضه فأمر أصحابه أن يحملوه ويعودوا به إلى الشام ، فحملوه وعادوا فلما وصل إلى العريش مات هناك فشقوا بطنه وملحوه كما أوصاهم وعادوا به إلى القدس .
وكان السيد الأجل الأفضل لما بلغه وصولهم إلى الفرما ، قد جرد

لوحة ١١٤ ظ : اليهم / عسكرا .

عظيما فلما عادوا مع بردويل مقدمهم تبعهم العسكر إلى الشام وقد كفانا الله أمرهم نسأله جل اسمه دوام رحمته ونعمته ويلهمنا شكره لا ينسينا ذكره بجودة ومجدة .

---

(٣٧) ابن صاعد القلزمي : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة ، مخطوط دار الكتب المصرية ، تحت رقم ٤٦٣٤ ح ، ج ٣ تصوير شمسي ، لوحات ١١٣ ، ١١٤ .

(٣٨) من التقويم القبطي وتوافق عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م .

(٣٩) بطريرك الكنيسة المصرية في ذلك الحين

(٤٠) يقصد به الملك بلدوين الأول

# ملحق رقم (٧)

الأتصال التجارى بين مدن إيطاليا والخلافة الفاطمية فى عهد الوزير الأفضل نقلا عن وثيقة فاطمية لمؤرخ فاطمى مجهول بدار المخطوطات الفاطمية بلندن .

## نص الوثيقــة
## بسم الله الرحمن الرحيم

صلوات الله وبركاته ونوامى وزكواته وأفضل سلامه وتحياته على مولانا وسيدنا الأمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة دائمة باقية إلى يوم الدين ...[٤١] المملوك يقبل الأرض أمام المواقف الشريفة المعظمة النبوية ضاعف الله أنوارها وأعلى الله منارها وينهى تواصل حضور تجار الروم الواصلين بالأخشاب الذين كان المملوك أنهى وصولهم وهم : مرجة بن قسطنطين وسر ...[٤٢] نقولا بن هجلم ، وعرس بن لبن الملفطانى[٤٣] والرواح وبون سنيون الجنوى ومن معهم من أصحابهم ذاكرين أنهم إلى حين تسطير المملوك لم يتقر ....[٤٤] هذه ...[٤٥] الأخشاب التى ..[٤٦] إليها ولا وصل اليهم من ...[٤٧] .

---

(٤١) بياض بالأصل
(٤٢) بياض بالأصل .
(٤٣) نسبة لمدينة أمالفى .
(٤٤) بياض بالأصل .
(٤٥) بياض بالأصل .
(٤٦) بياض بالأصل .
(٤٧) بياض بالأصل .

# المصادر والمراجع المستخدمة فى الدراسة

# بيان بالمختصرات

- B.S.O.S. = Bulletin of the school of oriental studies.
- E.A.I.E.O. = Extra de Annales de l'Institute Études Orientales.
- B.I.E. = Bulletin de l'Institute d'Egypte.
- S = Syria.
- Sp. = Speculum.
- Or. = Orient.
- B.E.O. = Bulletin d'Études Orientales de L'Institute Français de Damas.
- B.S. = Byzantine stuties.
- J.A. = Journal Asiatique.
- R.O.L = Revue de l'Orient Latin.
- E.H.R. = English Historical Review.
- A.H.R. = American Historical Review.
- A.A.S. = Annales Archeologiques de Syrie.
- Setton (ed.) = Setton & Baldwin: A history of the crusades.
- B.I.F.A.O. = Bulletin d'institute Français Archéologiques Orientales
- D.I. = Der Islam.
- J.R.A,S. = Journal of the Royal Asiatic Society.
- P.P.T.S. = Palestine Piligrims Text Society.
- C.E.H. = Cultural English Historical.
- Byz. = Byzantion
- J.Q.R. = Jewish Quarterly Review.
- J.E. = Journal of Economics.
- H.Z.Q.R. = Hebrew Zion Quarterly Review.
- B.S.O.A.S. = Bulletin of the School of Oriental and African Studies.
- R.H.C. = Receuilles des, Historiens des Croidades.
- Hist. Occ. = Historiens Occidentaux.
- Hist. Or. = Historiens Orientaux.
- Doc. Arm. = Documents Armeniens.
- C.S.H.B. = Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae.
- C.M.H. = Cambridge Medieval History.
- I.L.F.L. = International Library of the Famous Literature.

# أولا : المصادر العربية الخطية والمصورة[1]

البغدادي : ( ت ١٠٢٠ هـ / ٦٩٠ م ) أحمد بن عبد الله : عيون أخبار الأعيان مما مضى من سالف العصر والأزمان ـــ دار الكتب المصرية ـــ رقم ٢٨١٠ تاريخ ـــ مجلدان ـــ ( تصوير شمسى ) .

البكري : ( ت ١٠٢٨ هـ / ١٦١٩ م ) محمد بن أحمد بن أبى السرور زين الدين : الروضة الزاهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ـــ دار الكتب المصرية رقم ٥٥١٧ تاريخ .

ـــ عيون الأخبار ونزهة الأبصار ، دار الكتب المصرية رقم ١٧٢ م تاريخ .

بامخرمة : عاش فى القرن ١٠ هـ / ١٤ م ) أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بن على : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر ، دار الكتب المصرية رقم ٤٤١٠ تاريخ ـــ ستة مجلدات .

ابن الجوزى : ( ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م ) أبو الفرج عبد الرحمن بن على : شذور العقود فى تاريخ العهود ، دار الكتب المصرية رقم ٩٩٤ ( تصوير شمسى ) .

الحموى : ( ت ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م ) شهاب الدين بن أبى الدم : التاريخ المظفرى ـــ مكتبة البلدية بالإسكندرية رقم ١٢٩٢ ب .

الحنفى : ( ت ٨٨٣ هـ / ١٤٧٦ م ) طوغان شيخ المحمدى المصرى : الأحكام السلطانية ـــ دار الكتب المصرية رقم ٦ مجاميع ( فقه حنفى ) .

ابن حجر العسقلانى : ( ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م ) شهاب الدين أحمد بن على : رفع الأصر عن قضاة مصر .

ابن أيبك الداودارى : ( ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م ) أبو بكر بن عبد الله بن أيبك : درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان ـــ دار الكتب المصرية رقم ٤٦٤٣ و ٤٤٠٩ تاريخ ( تصوير شمسى ) .

---

(١) أشرت فى هوامش البحث الى المخطوطة ( بورقة ) والمصور بلوحة ، والمطبوع بصفحة

ابن دقماق : ( ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م ) صارم الدين إبراهيم محمد بن أيدمر العلائي : الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ـــ دار الكتب المصرية رقم ١٥٢٢ تاريخ .

الذهبي : ( ت ٧٤٨ هـ / ١٢٤٨ م ) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز شمس الدين التركماني : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام[٢] ـــ ٢٥ مجلد ـــ دار الكتب المصرية رقم ٤٢ تاريخ .

ابن الرسول : ( ت ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م ) الملك الأفضل عباس بن مجاهد علي بن داود بن يحيى ابن عمر : نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون ـــ مكتبة جامعة الإسكندرية رقم ١١٢٩ م .

ابن المفرج الإسكندراني : ابن صاعد القلزمي ( القرنين الخامس والسادس هـ / الحادي عشر والثاني عشر م ): تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية المعروفة بسير البيعة المقدسة أو ذيل سير الآباء البطاركة ، دار الكتب المصرية رقم ٦٤٣٤ ج ، ٣ مجلدات .

سبط ابن الجوزي : ( ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م ) أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزأوغلي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ـــ دار الكتب المصرية رقم ٥٥١ تاريخ ( تصوير شمسي ) الجزء ١٢ ( القسم الثالث من عام ٤٤٠ ـــ ٥١٧ هـ ) ج ٨ رقم ٦٢٩٥ ج ، ١٢٨١ تاريخ معهد مخطوطات جامعة الدول العربية .

السلامي : ( مجهول الوفاة ) شهاب الدين أحمد : مختصر التواريخ ـــ دار الكتب المصرية ـــ رقم ٩٠٥١ ، ١٤٣٥ تاريخ . نسخة أخرى ميكروفيلم رقم ١٦٧٩ .

الشبراوي : ( غير معروف تاريخ وفاته ) محمد بن الشافعي : قصيدة لامية في التاريخ ـــ دار الكتب المصرية رقم ١٧٧٩ تاريخ .

الشافعي : ( ت في القرن ١٠ هـ / ١٥ م ) أبو عبد الله محمد بن يوسف الدمشقي : مطالع النور في فضل الطور وقمع المعتدي الكفور ، دار الكتب المصرية رقم ١٣٠ م تاريخ .

ابن ظافر : ( ت ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م ) جمال الدين أبو الحسن علي بن كمال الدين أبي منصور بن حسين الأزدي الأنصاري الخزرجي المصري :

---

(٢) راجع تحليل الذهبي وأشهر مؤلفاته مثل تاريخ الإسلام لـ بشار عواد معروف : الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٧٩ وما بعدها

أخبار الدول المنقطعة ــ دار الكتب المصرية ــ رقم ٨٩٠ تاريخ ( تصوير شمسى )

العمرى ( ت ١٠٤٤ هـ / ١٦٤٠ م ) أحمد بن سعد الدين : ذخيرة الأعلام بتواريخ الخلفاء والأعلام من أمراء مصر الحكام ــ دار الكتب المصرية رقم ١٠٤ ، مكتبة بلدية الإسكندرية رقم ١٢٤٢٨ ج ( تصوير شمسى ) .

ابن العديم ( ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م ) كمال الدين أبى القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن جرادة العقيلى الحنفى : بغية الطلب فى تاريخ حلب ، مخطوط مكتبة بلدية الإسكندرية رقم ١٢٤٣٣ ( تصوير شمسى ) ج ١

العليمى : ( ت ٩٢٧ هـ / ١٥٣٤ م ) مجير الدين أبى اليمن عبد الرحمن العليمى المقدسى الحنبلى : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مكتبة بلدية الإسكندرية رقم ١١٣٣ ب .

نزهة الناظرين فيمن ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، مخطوط ، بلدية الإسكندرية رقم ١٤١٦

العينى ( ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م ) بدر الدين أبى محمد محمود بن أحمد : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، ٢٣ جزء فى ٦٩ مجلد ، دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ ( تصوير شمسى ) ، نسخة أخرى فى ٢٨ مجلد رقم ٨٢٠٣ تاريخ .

ابن الفرات : ( ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م ) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات[٣] : تاريخ الدول والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات ، ٩ أجزاء ــ دار الكتب المصرية رقم ١٣٩٧ تاريخ ( تصوير شمسى ) .

الفيومى : ( ت ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م ) أحمد بن محمد بن على : نثر الجمان فى تاريخ الأعيان ٣ أجزاء ــ دار الكتب المصرية رقم ١٧٤٦ م تاريخ .

المقريزى : ( ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م ) تقى الدين أحمد بن على : قطع تاريخية ــ مكتبة بلدية الإسكندرية رقم ٢١٢٥ وتاريخ .

: المقفى أو التاريخ الكبير ــ ٤ مجلدات ــ دار الكتب المصرية رقم ٣٥٧٢ ، تاريخ ( تصوير شمسى ) .

---

(٣) راجع تحليل مخطوط ابن الفرات ل أحمد الشامى : دراسات فى مخطوط تاريخ الدول والملوك لابن الفرات ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

النويري الكندي : ( ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م ) شهاب الدين أحمد الكندي : نهاية الأرب في فنون الأدب ـ ٣٥ مجلد ـ دار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة ( تصوير شمسي ) . والأجزاء من ١٩ إلى ٣٣ تحت نفس الرقم .

ابن وصيف شاه : ( مجهول الوفاة ) : جواهر البحور في أخبار الديار المصرية ـ مكتبة بلدية الإسكندرية ، رقم ٤٠٢٤ ( تصوير شمسي )

## ثانياً : المصادر العربية المطبوعة

القرآن الكريم

ابن الأثير : ( ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م ) عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم ابن عبد الواحد الشيباني : الكامل في التاريخ نشر هرنويخ دونبرج ـ ١٢ جزء ، ط . ليدن ١٨٦٤ ـ ١٨٦٦ م[4] .

الأدريسي : ( ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م ) الشريف ابو عبد الله محمد : نزهة المشتاق في إختراق الآفاق ، ط . رومية ١٠١٠ هـ / ١٥٩٢ م هناك طبعة أخرى في القاهرة في مجلدين بدون تاريخ

ابن الجوزي : ( ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م ) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ١٠ أجزاء ، ط . حيدر آباد الدكن عام ١٣٠٩ هـ .

ابن خلدون : ( ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م ) أبو يزيد عبد الرحمن محمد بن خلدون المغربي : العبر وديوان المبتدأ والخبر في إيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ٧ أجزاء ، ط . بولاق ١٢٩٩ هـ / ١٨٦٧ م ، طبعة أخرى في بيروت ، ٧ أجزاء ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

ابن خلكان : ( ت ٦٨٨ هـ / ١٢٨٢ م ) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم : وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ٦، أجزاء ، ط . بيروت ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ .

ابن آياس : ( ت ٩٢٨ هـ أو ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م ) ابو البركات محمد بن

---

(٤) راجع تحليل استاذنا الدكتور سعيد عاشور عنه في مجلة تراث الإنسانية ، مجلد ٢ عدد رقم ١١ ط . القاهرة ١٩٦٤

أحمد : تاريخ مصر المعروف ببدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ط . بولاق ١٣١١ ــ ١٣١٤ هـ . أربعة أجزاء

ابن العديم : ( ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م ) كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبى جراده العقيلى الحلبى : زبدة الحلب فى تاريخ حلب نشر سامى الدهان جزءان ، ط . بيروت ١٩٥١ ، ١٩٥٤ .

ابن العبرى : ( ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م ) اغريغوريوس أبى الفرج الملطى بن آهرون : تاريخ مختصر الدول ، ط . بيروت ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ١٨٩٠ م ط . أخرى فى بيروت ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م .

ابن العماد الحنبلى : ( ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٩ م ) أبو الفرج عبد الحى على بن محمد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ط . بيروت بدون تاريخ ، ٦ أجزاء .

ابن شداد : ( ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م ) عز الدين أبو عبد الله بن على بن ابراهيم الحلبى : الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، ت . سامى الدهان ، جزءان ( دمشق ــ منشورات المعهد الفرنسى للدراسات الشرقية ) ١٩٦٨ ، الجزء الخاص بوصف شمال سوريا نشرته آن مارى أده فى ال B.E.O ج١ ق ١
1980-1981;To.XXXII-XXXIII.

ابن الشحنة : ( ت ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م ) أبو الفضل محمد : روضة المناظر فى أخبار البحر الزاخر ، مطبوع على هامش كتاب الكامل لابن الأثير ، ج ١٢ ، ط . القاهرة ( بدون تاريخ ) .

ابن الصيرفى : ( ت ٥٥٥ هـ / ١١٥٥ م ) أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على ابن منجب : الأشارة إلى من نال الوزارة ، تحقيق وتعليق عبد الله مخلص ، ط . المعهد الفرنسى بالقاهرة عام ١٩٢٤ ) .

ابن الفرات : ( ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م ) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم : تاريخ ابن الفرات المعروف بتاريخ الأمم والملوك ، ت . حسن الشماع ، ط . ٤ جامعة البصرة ، ج ٣ ١٩٦٧ ، ج ٧ تحقيق قسطنطين زريق ، نجلاء عز الدين ، ط . بيروت ١٩٤٢ م .

ابن القلانسى : ( ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م ) أبو يعلى حمزة أسد بن على بن محمد التميمى : ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق آمدروز «Amedroz» مع مقدمة بالإنجليزية ط . بيروت ١٩٠٨ .

ابن كثير : ( ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م ) عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن عمر القرشي : البداية والنهاية فى التاريخ المعروف :بتاريخ ابن كثير ١٤ جزء ، ط . مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٥١ ــ ١٣٥٨ هـ / ١٩٤٠ ــ ١٩٤٨ م .

ابن ميسر : ( ت ٦٦٧ هـ / ١٢٧٨ م ) محمد بن علي بن يوسف جلب . أخبار مصر ، نشر هنرى ماسيه «Masset;H-» « جزء ٢ ، ط القاهرة ١٩١٩ م .

ابن الوردى : ( ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م ) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن أبي الفوارس : تتمة المختصر فى أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردى جزءان ، ط . القاهرة ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م

ابن عبد الظاهر : ( ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م ك ) القاضى محيىَ الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين الأموى المصرى : الروض الزاهر فى سيره الملك الظاهر ، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر ، الرياض ١٩٧٦ م

ابن منقذ : ( ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م ) مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيزرى : كتاب الأعتبار أو حياة أسامه بن منقذ ، تحقيق ونشر فيليب حتى ، جامعة برنستون ( الولايات المتحدة الإمريكية ) ١٩٣٠ م .

ابن المأمون : ( القرن السادس هـ / ١٢ م ) الأمير جمال الدين موسى بن المأمون البطائحى : مقتطفات من تاريخ ابن المأمون المعروف بالتاريخ المأمونى فى كتاب الخطط المقريزية ، ط . بولاق ١٢٧٠ هـ ، ج ١ .

أبو صالح الأرمنى : ( عاش حوالى ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ) أبو المكارم جرجس بن مسعود : تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمنى المعروف بأخبار نواحى مصر واقطاعها ، نشر القس «Evetts» مع مقدمة بالإنجليزية ، المطبعة المدرسية بإكسفورد ١٨٩٤ م .

أبو المحاسن : ( ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م ) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ١٦ جزء ، ط . دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٩ ــ ١٩٤٣ .

أبو الفدا : ( ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م ) الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماه : المختصر فى أخبار البشر المعروف بتاريخ أبى الفداء ــ جزءان القاهرة ١٣٢٥ هـ .

الأصفهاني : ( ت ٥٩٧ هـ / ١١٢٠ م ) عماد الدين محمد بن أحمد بن حامد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، ط . مصر ١٩٠٠ م ، وهناك طبعة أخرى في بيروت عام ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

الحسيني : ( ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م ) أبو الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر بن الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية المسمى زبدة التواريخ في أخبار الملوك والأمراء السلجوقية ، أعتنى بتصحيحه محمد أقبال ، نشريات كلية فنجاب بلاهور ١٩٣٣ م

الذهبي : ( ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م ) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز شمس الدين الحافظ الدمشقي : دول الإسلام في التاريخ ، ط . حيدر آباد الدكن ١٣٦٤ ــ ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٥ جزءان ، طبعة أخرى بتحقيق محمد فهيم شلتوت ، محمد إبراهيم ،ط . القاهرة ١٩٧٤ م .

سبط ابن الجوزي : ( ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م ) أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزاؤغلي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان نشر ريتشارد جيمس جيويت «Jewet;R;J» ج ٨ ، ط . زنكوغراف ( شيكاغو ) ١٩٠٨ م ، طبعة أخرى في حيدر آباد الدكن المطبعة العثمانية ) ١٩٥١ م ، كذلك الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة بين السنوات ١٠٦٥ ــ ١٠٨٦ م ، نشرها علي سويم،مطبعة الجمعية التاريخية ، أنقره ١٩٦٨ م .

ساويرس ابن المقفع : أنبا ميخائيل ، ابن صاعد القلزمي وغيره ( القرن ٤ ــ ٦ هـ / ١٠ ــ ١٢ م ) : ذيل سير الآباء البطاركة المعروف بسير البيعة المقدسة ، نشر عزيز سوريال وآخرون ، مجلدان ، ط . القاهرة ١٩٥٨ ــ ١٩٥٩ م

الشابشتي : ( ت ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م ) أبو الحسن علي بن محمد : الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، ط . بغداد ١٩٥١ م .

العمري : ( ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م ) شهاب الدين أحمد أبو العباس فضل الله : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، نشر أحمد زكي باشا ، ج ١ ( ط . دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٤ م ) .

العظيمي[٥] : ( عاش بين عام ٤٨٣ هـ ، ١٠٩٠ م ، بعد عام ٥٥٦ هـ / ١١٩١م )

---

(٥) انظر تحليل للعظيمي وتاريخه في عباس العزاوي : العظيمي وتاريخه ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ج ١٨

محمد بن على بن نزار أبو عبد الله التنوخى : تاريخ العظيمى ، نشر كلود كاهن «Cahen,c» فى الـ Journal Asiatique ( مارس ١٩٣٨ ) باريس الجزء .to.cc xxx

العثمانى : ( عاش فى القرن الثامن الهجرى ) : تاريخ صفد ، نشر برنارد لويس باسم رواية عربية عن اقليم صفد — مجلة الدراسات الشرقية «B.S.O.A.S» ج ١٥ ، لندن ١٩٥٣ ) .

القرمانى : ( ت ١٠١٩ هـ / ١٦١١ م ) أبو العباس أحمد بن جلب الدمشقى : أخبار الدول وآثار الأول ( ط . حجر ) مدينة بغداد ١٢٨٢ هـ .

القلقشندى : ( ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م ) أبو العباس أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله الشهاب القاهرى الشافعى البدرى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ٤ أجزاء القاهرة ( المطبعة الأميرية ) ١٣٣١ — ٣٣٨ هـ / ١٩١٣ — ١٩٢ م .

الفارقى : ( ت بعد ٥٧٧ هـ / ١١٧٩ م ) أحمد بن يوسف بن على الأزرق الفارقى : تاريخ الفارقى ( الدولة المروانية ) تحقيق بدوى عبد اللطيف، القاهرة ص ١٩٥ ، ط . أخرى فى بيروت ١٩٧٤ .

المقدسى : ( ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء الحنفى المقدسى المعروف بالبشارى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، الطبعة الثانية ، ليدن ( مطبعة بريل ) ١٩٠٦ م .

المقريزى : ( ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م ) تقى الدين أبو العباس أحمد بن على : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، جزءان ، ط . بولاق ١٢٧٠ هـ ، أيضا طبعة النيل ١٣٦٥ هـ ( ٤ أجزاء ) .

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء : ج ١ نشر جمال الدين الشيال القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م ، ج ٢ — ٣ نشر محمد حلمى أحمد ، القاهرة ١٩٧١ ، ١٩٧٣ م .

مؤرخ مجهول : ( عاش بين عام ٦٩٠ — ٧٤١ هـ / ١٢٩١ — ١٣٤٠ م ) : تاريخ سلاطين المماليك ، نشر زترشتين «Zettersteem» مع مقدمة بالألمانية ، ليدن ١٩١٩ م .

مؤرخ شامى مجهول : ( عاش فى القرن ٦ هـ / ١٢ م ) : البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان،نشر كلود كاهن «Cahen» ، فى « مجلة الدراسات الشرقية » Bulletin d'études Orientales ج ٧ — ٨ ، باريس ١٩٣٨ م .

صالح بن يحيى : تاريخ بيروت والأمراء البحتريين بها ، نشر وتعليق لويس شيخو ، بيروت ١٩٢٧ .

ياقوت الحموى : ( ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م ) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومي البغدادى : معجم البلدان فى معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر فى كل مكان ، ستة مجلدات ، ط . ليبزج ١٨٦٦ ـــ ١٨٨٩ م ، هناك طبعة أخرى من خمسة أجزاء فى بيروت ١٩٥٧ م .

## ثالثاً : المصادر غير العربية

### ١ ـــ المصادر الفرنجية ومجموعـــات الحـــروب الصليبيـــة

Albert of Aix, Historia Hierosolymitana, in R.H.C., Hist. Occ., Vol. IV, Paris 1897 (p.p. 265-713).

Abbot Daniel, The pilgrimage of Abbot Daniel, in p.p. T.S. Vol. IV.

Archives de l'Orient Latins, publiée par la société de l'Orient Latin, To. II, Paris 1881-1884, (Textes des inventaires par Paul Riant).

Bongars (TJ;), (ed.,) Gesta dei per Francos, Sive Orientalium expeditionum et regni francorum Hierosolymitani Historia caba 1095 ( ad 1420 ) 2Vold, Hannover 1612.

Baldric of Doll, Historia peregrinantum Jerosolymitana, in R.H.C. Hist. occ., Vol. IV, Paris 1870.

Caffaro Di Caschifeleon, De liberatione Civitatum Orientis Liber, in R.H.C., Hist. occ., Vol. V, pt. I.

Fulcher chartres, A history of the expedition to Jerusalem (1095-1127), trans. from Latin by Ryan, F.R., Knoxville 1969.

Felix Fabri, the book of wandering (1480-1489) trans. from Latin by Stewart, A., in p.p. T.S., Vol. IX, pt. I, London 1843.

Jacques de Vitry, history of Jerusalem, trans. from Latin by Stewart, A., in p.p. T.S., Vol. XI, 2 parts, London 1896.

Raymond of Aguilers, historia Francorum qui ceperunt Iherusalem, in R.H.C., Hist. occ., Vol. III, p.p. 231-309.

Roger of Wendover, Flowers of history trans. by Gilles, J.A. 2 Vols, London 1848.

Saewulf, the Pilgrimage of Saewulf to Jerusalem (1102-1103) trans. by brown Low, M.A., in p.p. T.S., Vol. IV, London 1894.

Tudebodus, Historia Belli Sacri, in R.H.C., Hist. occ., Vol. III. To. I.

William of tyre[6] A history of the deeds done beyond the seas, trans. from Latin by babcock, E.A., & Krey, A.C., 2 Vols, New York 1943.

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٤٨ . وأعتمدنا أيضا على النص الفرنسي لكتاب المؤرخ المجهول الذى نشره لويس بريبه تحت اسم Histoire Anonyme de la première Croisade, trad. par Bréhier (L.) ed Champion, Paris, 1924.

## ٢ ــ المصادر البيزنطية والسريانية والارمينية

Anna Commena, The Alexiad, trans. from Latin by Dawes. E., London, 1928.

Bar Hebraeus, The chronography of gregory Abu'l Faraj, trans. from Syriac by Wallis Budge, E.A., Vol. I, London 1932.

Michel le Syrien, Chronique du Michel le Syrien, texte Syrique trad. par J.B. Chabot, Paris 1899-1905, 3 Tomes.

Matthieu d'Edesse, Extraits de la Chronique de Matthieu d'edesse in R.H.C., Hist. occ., Document Armeniens, Vol. I, Paris 1864, (pp. 1-150).

وهناك ترجمة انجليزية لكتاب متى الرهاوى هذا باسم : The Chronicle of Mathew of Edessa, trans. from the Latin Original Armemian with a Commentary and Indtroduction by Ara Edmond Destaurian. Rutgers university (New Brun Swick 1972).

## رابعاً : المراجع العربية

أحمد مختار العبادى ( دكتور ) ، السيد عبد العزيز سالم ( دكتور ):تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ، ط. بيروت ١٩٧٢ م .

السيد عبد العزيز سالم ( دكتور ) : ــ تاريخ مدينة صيدا فى العصر الاسلامى ، ط. بيروت ١٩٧٣ م

---

(٦) راجع تحليل لكتاب وليم الصورى للمرحوم الدكتور عمر كمال توفيق  المؤرخ وليم الصورى ، مجلة كلية الآداب ــ جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٧ ، ج ٢

— طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ، الطبعة الثانية ، اسكندرية ١٩٦٧ م .
— الصلات التاريخية بين مصر والشام فى العصر الاسلامى ، مجلة العلوم ، العدد الخامس ، السنة التاسعة ، بيروت ( مايو ١٩٦٤ م ) .
— طرابلس الشام : تاريخها وآثارها فى العصر الاسلامى ، فصله من مجلة كلية الآداب — جامعة الاسكندرية ، عدد ١٦ عام ١٩٦٢ — ١٩٦٣ م .
— الآثار الباقية فى دير سانت كاترين بطور سيناء ، مجلة العلوم ، العدد الأول ( ط . بيروت — يناير ١٩٦٥ م )

اسماعيل سرهنك ( الأميرالاى ) : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ط . القاهرة ( مطبعة بولاق ، جزءان — عام ١٣١٤ م .

أحمد رمضان أحمد ( دكتور ) : شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٧ م

أحمد شفيق باشا ( اللواء ) : مذكرات عن زيارة الى دير طور سيناء عام ١٩٢٦ م ، ط . القاهرة ١٩٢٧ .

ابراهيم بك الأسود : ذخائر لبنان ، ط . بعبدا ( المطبعة العثمانية ) لبنان ١٨٩٦ م

أحمد السيد دراج ( دكتور ) : الوثائق العربية المخطوطة فى دور الأرشيف الأوروبية ، مقال ضمن أبحاث الندوة الدولية للتاريخ بالقاهرة ، ج ٣ ( مارس — ابريل ) ١٩٦٦ م .

أحمد الشامى ( دكتور ) : دراسات فى مخطوط تاريخ الدول والملوك لابن الفرات ، القاهرة ١٩٨٣ م .

بشار عواد معروف ( دكتور ) : الذهبى ومنهجه فى كتابه تاريخ الاسلام ، الطبعة الأولى ، القاهــرة ١٩٧٥ م .

بطرس ضو( الأب المارونى ) : تاريخ الموارنة الدينى والسياسى والحضارى ( الوجه العسكرى المارونى من ٦٣٦ الى ١٣٦٧ م ) ط . بيروت ١٩٧٦ م .

جوزيف نسيم يوسف( دكتور ) : — العدوان الصليبى على بلاد الشام : هزيمة لويس التاسع فى الأراضى المقدسة ، ط . اسكندرية ١٩٧١ م .
— العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ، اسكندرية ١٩٦٧ م .
— الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية — مجلة كلية الآداب — جامعة الاسكندرية ، المجلد ١٠

( ١٩٦٢ — ١٩٦٣ ) ط . اسكندرية ١٩٦٣ ( ص ١٨٣ — ٢١١ ) .
— الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصليبي ، اسكندرية ١٩٦٧ م ( بالانجليزية ) .
— علاقات مصر بالممالك التجارية الايطالية فى ضوء وثائق صبح الاعشى فى صناعة الانشاء ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة ١٩٧٣ م .
— الاسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما فى العصور الوسطى ، دار الفكر الجامعي — اسكندرية ١٩٨٦ م .

جورجي ينى : تاريخ سوريا — جزءان ، ط . بيروت ١٨٨١ م .

حسن حبشى ( دكتور ) : — الحرب الصليبية الأولى ، الطبعة الأولى ، القاهرة — ١٩٤٧ م .
— الشرق العربي بين شقى الرحى — القاهرة — ١٩٤٩ م .

حسين محمد عطية : امارة انطاكية وعلاقاتها بالدول الاسلامية المجاورة ، رسالة ماجستير — آداب الاسكندرية ١٩٨١ م .

حيدر الشهابى ( الأمير ) : غرر الحسان فى تواريخ حوادث الزمان ، جزءان ، ط . السلام ١٩٠١ م .

درويش النخيلى ( دكتور ) : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، الطبعة الثانية ، اسكندرية ١٩٧٩ م .

سليم حسن هيشى ( دكتور ) : الاسماعيليون عبر التاريخ ، ط . بيروت ١٩٦٩ م

سعيد عبد الفتاح عاشور ( دكتور ) : — الحركة الصليبية ، جزءان ، ط . القاهرة ١٩٦٣ م .
— أوروبا العصور الوسطى ، جزءان ، القاهرة ١٩٦٦ م .
— الكامل فى التاريخ لابن الأثير ، مجلة تراث الانسانية ، المجلد الثانى ( عدد رقم ١١ ) ط . القاهرة ١٩٦٤ م .
— شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية ، المجلة التاريخية ، عدد رقم ١٦ عام ١٩٦٩ م .

سهيل زكار ( دكتور ) : نقد وتقويم لكتاب مرآة الجنان فى تاريخ الزمان ( الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة بين السنوات ( ١٠٥٦ — ١٠٨٦ م ) تحقيق على سويم ( أنقرة ١٩٧٨ م ) مقال مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٧٠ م ، مجلد ٤٥ ج ٢ ( ص ٣٩٧ — ٤٠٠ ) .

عماد الدين خليل ( دكتور ) : قوام الدولة أبو سعيد كربوقا : أول والى سلجوق على الموصل ( ٤٨٩ ـــ ٤٩٥ هـ / ١٠٩٥ ـــ ١١٠١ م ) ، مجلة آداب الرافدين ، كلية الآداب ـــ جامعة الموصل العدد الخامس ( جمادى الأولى ١٣٩٤ هـ / حزيران ١٩٧٤ ) ( ص ١٥١ ـــ ١٨٩ ) .

عفاف سيد صبره ( دكتوره ) : العلاقات بين الشرق والغرب ، القاهرة ١٩٨٣ م .
ـــ دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٨٥ م .

عمر الصالح البرغوثى : تاريخ فلسطين ، ط . القدس ، ١٩٢٣ م .

عبد المنعم ماجد ( دكتور ) : ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر ( التاريخ السياسى ) القاهرة ١٩٧٧ م . ـــ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ـــ بيروت ١٩٦٧ م .

عبد المنعم ماجد ( دكتور ) ، على البنا : الأطلس التاريخى للعالم الاسلامى فى العصور الوسطى ، دار الفكر العربى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٠ م .

عمر كمال توفيق ( دكتور ) : الامبراطور نقفورفوكاس واسترجاع الأراضى المقدسة ، اسكندرية ١٩٥٩ م .
ـــ مقدمات العدوان الصليبى : الامبراطور يوحنا تزيمكسس وسياسته الشرقية اسكندرية ١٩٦٦ م .
ـــ مملكة بيت المقدس اللاتينية ، اسكندرية ١٩٥٨ م .
ـــ المؤرخ وليم الصورى ، مجلة كلية الآداب ـــ جامعة الاسكندرية ، ج ٢ عام ١٩٦٧ .

عباس العزاوى : العظيمى ( مؤرخ حلب ) وتاريخه ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ط . دمشق ج ١٨ .

عارف العارف : تاريخ القدس ، الطبعة الأولى ، مصر ١٩٥١ م .

عبد الحميد زايد ( دكتور ) : القدس الخالدة ، القاهرة ١٩٤٧ م .

محمد مصطفى زيادة ( دكتور ) : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

محمد عبد الله عنان ( المحامى ) : خطط المقريزى بين النقل والأصالة ( ضمن دراسات عن المقريزى ) ، القاهرة ، ١٩٧١ م .

محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) : الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها ( ١٠٩٧ ـــ ١١٤٤ م ) اسكندرية ١٩٧٤ م .

محمد مختار باشا ( اللواء ) : التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنجية والقبطية ، الطبعة الأولى ، بولاق ١٣١١ هـ .
مصطفى حسن الكنانى : العلاقات بين جنوه والفاطميين بالشرق الأدنى الاسلامى ، رسالة ماجستير — آداب الاسكندرية .
يوسف الدبس : تاريخ سوريا ، جزءان ، ط . بيروت ١٩٠٧ م .
يوسف الشدياق : أخبار الأعيان عن جبل لبنان ، جزءان ، ط . بيروت ١٩٥٤ م .
نعوم شقير : تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها ، ط . مصر ١٩١٦ م .

## خامساً : المراجع الأوربية المعربة

أومان ( شارل ) : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة مصطفى طه بدر ، القاهرة ١٩٥٣ م .
باركر ( أرنست ) : الحروب الصليبية ، ترجمة وتعليق السيد الباز العرينى، القاهرة ١٩٦٠ م .
بروكلمان ( كارل ) : تاريخ الشعوب الاسلامية ، نقله الى العربية نبيه أمين فارس ، جزءان ، بيروت ، ١٩٥٨ م .
حتى ( فيليب ) : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال اليازجى ، بيروت ١٩٥٩ م ، تاريخ العرب ( مطول ) ، ٣ أجزاء ، ط . بيروت ١٩٥١ م .
زامباور (أدوارد فون ) : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، أخرجه زكى محمد حسن ، حسن أحمد محمود ، سيده الكاشف ، جزءان ، القاهرة ١٩٥١ م .
سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ، نقله الى العربية رياض رأفت ، القاهرة ١٩٣٨ م .
سميل ( ر . س ) : الحروب الصليبية ، ترجمة سامى هاشم ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨٢ م .
فيشر ( هـ . أ . ل ) : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العرينى جزءان ، الطبعة السادسة ، القاهرة ١٩٧٦ م .
لويس ( ارشيبالد ) : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ت.

محمد أحمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

مونروند (مكسيموس) : تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق المدعوه بحروب الصليب ، ترجمة الأب مكسيموس مظلوم ، جزءان أورشليم ١٨٦٥ م .

رنسيمان ( ستيفن ) : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، ٣ أجزاء ، بيروت ١٩٦٧ — ١٩٦٨ م .

هايد ( ف ) . تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، عربة محمد أحمد رمضان ، مراجعة وتقديم عز الدين فوده ، القاهرة ١٩٨٥ م .

## سادسا : المراجع الأوروبية

Ahreweiler (H.,), Byzance et la mer, Paris 1966.

Attiya (A.S.,) - History of the Eastern Christianity, London 1968.
- Crusades, commerce and culture, New York 1961.
- Themonasteryof St. Catherine in Mount Sinai, New York 1950.
- Thecrusades in the later Middle ages, London 1938.
- The crusade of Nicopolis, London 1934.

Alphandrey & Dupont, Le Chrétiente et l'idée des croisades, Paris 1954.

Barker (E.,), The crusades, London 1925.

Butcher (E.L.), The story of the church of Egypt, 2 Vols, London 1897.

Besant (W) & a Palmer (E.H.), Jerusalem: the City of Herod and Saladin, New edition, London, 1888.

Boase (T.S.R.), The Kingdoms and the strongholds of the crusaders in the Holy land, London, 1971.
- Castles and churches of the crusading Kingdom, Oxford 1467.

Brundage (J.), The crusades: motives and achievements New York 1955.

Bach (E.), La Cété des genes aux XIIe siécle, copenhagen 1955.

Byrne (E.H.), Commercial contracts of the Genoes in the Syrian trades of the 12th Century, Journal of the Economics., Vol. XIII (1916-1917).

Bury (J.B.), History of the Eastern Roman Empire, London 1912.

Conder (C.R.),
- Syrian stone lore, the monumental history of Palestine, London 1886.
- The Latin Kingdom of Jerusalem (1099-1291) London 1897.

Conder (C.R.) & Kitchener (H.H.), The survey of Western Palestine memoirs of

the topagraphy, orography, Hydrography and archeology: I-Galilee (London 1881), II Samaria (London 1882).

Cheynet (J.V.), Mantzikert: un desastre militaire, in Byz., Bruxelles 1980, To. L. (pp. 410-438).

Combe (E.) & Sauvaget (J.) & Wiet (G.)., Repertoire chronologique d'epigraphie. Arabe, pub. par l'institute français d'archeologie Orientale, le Caire 1932, 1945 et sqq to. Veme.

Cahen (C.), - La Syrie du Nord a l'epoque des croisades Paris 1940.
- La compagne de manzikert d'apres les sources Arabes in Byz., Bruxelles 1834, to. IX (pp. 610-642).
- La premiére pénération Turque in Asie mineure, in byz., Bruxelle, 1948, To. XVIII (pp. 5-67).
- The Turkish invasion in setton & Baldwin (ed. in chief) History of the crusades, phild elphia 1955, Vol. I.
- Indigénes et croisés in Syria (to. XV, Damas 1934 (pp. 351-360).
- Le Diyar Bakr au temps les premiers ourtukides in J.A., Paris 1935, To. CC XXVII (p.p. 219-276).

Canard (M.), La destruction de l'Eglise de la resurrection par le calif al Hakim et l'histoire de la descente du feu sacri, in byz., Bruxelles 1965, To. XXXV )p.p. 16-43).

Cambridge Medieval History, Combridge 1929, new ed. 1967, Vol. IVV.

Creswell (K.A.C.), The fortifications of Islam before 1250, London 1952.

Calthrope (M.), The crusades, London 1928.

Chalandon (F.),
- Essai sur la régne d'Alexis 1er comnene, Paris 1900.
- Histoire de la premiére croisade jusqua l'élection de Godefroi de bouillon, Paris 1925.

Cox (G.), The crusades, London 1884.

Cantu (C.), Histoire universalle, II eme époque (les croisades), Paris 1846.

Church (A.J.), The crusades: The story of the war for the Holy Land and sepulchre 3rd edition, London 1912.

Deschamps (p.), Une grotte fortresse des croises de dela du jourdain El Habis en terre de suette, in, J.A., To. CC XXVII (October - December) Paris 1935. pp. (285-295)
- Les châteaux des croisés en terre Sainte (to. I Le crac des chevaliers (Paris 1934), To. II: La defense du Royame de Jerusalem, Paris 1934.

Duncalf (F.), The councils of picenza and clerment, in setton (ed.), Vol. I.

Duggan (A.), The story of the crusades, London 1463.

Dury (V.), The history of the middle ages trans. by Whitney (E.H.) New York 1891.

Despique (p.), Histoire de la france et des ses institutions, Paris 1923.

Defremery (C.), Memoires sur la prise de Jerusalem, in J.A., To. Vi, Paris 1972.

Deansley (M.), The medieval church, New ed., London 1981.

Ehrenkreutz (A.S.), The Fatimids in Palestine: The unwitting promoters of the crusades, in Cohen & Baer (ed. inchief), Egypt and Palestine, Jerusalem, 1984.

Encyclopedia of Islam, London (1960).

France (J.), The crisis of the first crusade from the defeat of Kerbogha to the departure from Arqa, in Byz., Bruxelles 1970, To. XII (p.p. 276-306).

Fedden (R.), Crusader Castles, A brief study in the military architecture of the crusades., London 1950.

Guadolin (A.R), Alex is comnenus and the venetian trade privileges. A new interpretation, in Byz. Bruxelles 1980, To. L (pp. 349-440).

Gibbon (E.,).,

- The caliphate and the Arabe states, in setton (ed.) Vol. 1.

- The capture of Jerusalem, in the international of the famous literature (ed.,) by garnette, R.B. and others) Vol. IV, London.

Grousset (R.),

- Histoire des croisades et du Royome france de Jerusalem, 3 tomes, Paris 1934-1936.

- L'épopée des croisades, Paris 1934.

- The sum of history, trans. from the french by Patterson, S.A.H., 1st edition oxford 1941.

- L'Empire du Levant: histoire de la question d'Orient, Paris 1946.

Goitein (S.D.,), Contemparary letters upon the capture of Jerusalem by the crusades, in journal Jewish Jerusalem studies, Vol. III, Jerusalem 1952.

Hill (R.,), The Christian view of the muslims at the time of the crusades, in Holt (ed. in chief);

- The Eastern Mediterranean lands, England 1971.

Hotl (P.M.) (ed., in chief), The Eastern Mediterranean Lands in the period of the crusades, Warminister (England) 1977.

Hill (J.H.), Raymond of Saint Gilles in urban's plan of greek and latin friendship, in speculum, April 1951, Vol. XXVI, (pp. 265-278).

Hamadani, (A.). Byzantine-Fatimid relations before the battle of Manzikert, in Byzantine studies, wisconson (U.S.A.), 1974, pt. 1-2.

Heyd (G.)., Histoire du commerce du levant ou Moyen Ages, 2 tomes, Leipzig 1890, Reprinted in Amesterdam 1967.

Jorga, Bréve histoire des croisades et des leurs foundations et terre sainte, Paris 1924.

Jenkins (R.), The Byzantine Empire on the eve of the crusades(pamphlet. G 24) in general series of the historical Association, London 1953.

Kerre (A.), The crusades , 1st pub., wheat on of Exter 1966.

kruger (H.)., The Italian cities and the Arabs before 1095, in setton (ed.) Vol. I.

King (E.), The knights of hospital lersin the Holy Land London 1931.

Kruger (H.C.), Genoes trade with the North West of Africa in the 12th century in speculum, cambridge (July 1933), Vol. in No. 3.

Lane poole (S.), A history of Egypt in the middle ages, Vol. VI, London 1901.

Lewis (B.), L'église et l'orient au moyen ages (les croisades) Paris 1928.

La Monte (J.),

- The Lords of caesarea in the period of the crusades, in speculum, Vol. XXIV, London 1947.
- To what extent was the Byzantine Empire on the Suzeranity of the latin crusading states, Byz., To. VII, Bruxelless 1932.

Lopez (R.S.) & Raymond (W.), Medieval trade in the Mediterranean world, New York 1955.

Lopez (R.S.), The trade of the medieval Europe (The south) in C.E.H., Vol. II.

Lamb (H.), The crusaders: ironmen and saints, London 1931.

La Croix (P.), La chevalerie et les croisades: Feodalite, Blason, ordres militaires. Paris 1872.

Le Strange (G.), Palestine under the Moslems, Beirut 1965.

Michaud (J.F.), History of the crusades, trans. from french by Robson (W.B.), 3 vols. London, 1952.

Mayer (H.E.), The crusades, trans. from german by Gillengham (j.) Oxford university press 1972.

Munro (G.),

- The speech of pope urban II at clermont, in A.H.R., Vol. XII., London (October - July 1906) pp. 231-242).
- Urban and the crusaders from the original European History, Vol. I, London 1902.

Oman (Ch.), A history of the Art of war in the middle Ages 2 Vols. London 1924.

Orton (P.), Outlines of the medieval history trans. from french, cambridge 1910;

Marguerite Mathieu, Une source nigligée de la bataille de Mantzikert la Gesta wiscordi de Guillaume. D'apulie, Byz., Bruxelles, 1950, To. XX (pp. 89-103).

Mann (J.), The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid caliphs, 2 vols, Oxford 1920.

Nicholson (R.), The growth of the latin states, in setton (ed.), Vol. I.

Oldenburg (Zoé), The crusades, trans. from french by Carter, A, New York 1965.

Pierie (G.), The reigning princes of Galilee, in English Historical review, Vol. XXVI, London 1024.

Pernaud (R.),

- The crusades, trans. from french by Mc. Leod (E.), London 1921.

- Les Vives merchands aux XI vet XV siécle, Paris 1948.

Prawer (J.),

- The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1973.

- The vicissitudes of the Jewish Quarter in Jerusalem in the Arab period, in Hebrew zion quarterley Review, Vol. XII Jerusalem.

- The settlement of the Latins in Jerusalem in Speculum, Vol. XXVII, London 1951, (pp. 490-502).

- The Jews in the Latin Kingdom of Jerusalem, ibidem N.S., Vol. XI 1945, 1946 (pp. 38-82.

Petite, Les siéges célébrée au moyen ages et les temps modernes, Paris 1940.

Paetow (L.J.), The crusades and the other historical essays presented to Dana C. Munro by his former students, New York 1928.

Platt (G.), The Atlas of medieval man, London 1979.

Richard (J.),

- The Latin Kingdom of Jerusalem, trans. from french by shirley (J.), 2 rols, Oxford 1979.

- Le comté de tripolis sous la dynastie toulousaine (1102-1187), Paris 1945.

- Note sur l'archidiocés d'apamée et le conquéte de raymond de Saint Gilles en Syrie du Nord, in Revue d'art orientale et d'archeologie, to. XXV, Paris 1946-1948, )pp. 103-108).

Runciman(S.),

- The first crusade, in setton (ed.,), Vol. I.

Rey (E.G.),

- Les colonies Franques de Syrie aux XIIme et XIIIme - siécles, Paris 1883.

- Les familles d'outremere de Ducange, Paris 1864.

Rohricht (R.)., Geschichte des konigreichs Jerusalem (1100-1291), Insbruck 1898.

Ralph (B.Y.), Bohemond I, Prince of Antioch, princeton, 1924.

Stern (R.), An original document from the fatimid Chancery concerning the Italian merchants, in studi orientalistici in onori de Giorgio Levi della vida (publicazioni dell instituto per l'Orient) Roma 1956, Vol. II.

Schlumberger (G.),

- L'épopée Byzatine à la fin du XIme siécle, 2 tomes, Paris 1848.

- Une empereur byzantine aux Xéme Siécle Nicephore phocas, Paris 1890.

- Récits de Byzance et des croisades, Paris 1917.

Stevenson (W.B.), The crusaders in the East, Cambridge 1907.

Smail (R.S.), The crusades, London 1972.

Saulcy, Numismatique des croisades, Paris 1890.

Smith (G.A.,), Jerusalem: The topography economical history, London 1907.

Thompson (W.B.), The Middle ages (300-1500), 2 Vols, London, 1931.

Tolkovsky (S.), The gateway to Palestine: History of Jaffa, London 1941.

Van Berchem (Max),

- Materiaux pour un corpus inscriptionum Arabicarum (Memoires de L'Institute Français d'Archeologie Oriental) le Caire 1927.

- Materiaux pour un corpus inscriptionum Arabicarum (Syrie du Nord), Le Caire 1927, To. 44, pt. II.

Von Syber (H.), Geschichte des Ersten Kreuzzuges, Dusseldorff 1841, New ed., in Lepizig 1881.

وله ترجمة بالانجليزية تحت اسم :

History of the Literature of the crusades, London 1912,

Wienner (W.M.), Castles of the crusades, London 1960.

Woodhouse (T.), The military religious orders of the middle ages: the hospitallers, the the templars, the teutonic knights and others, London 1879.

Wise (T.), The wars of the crusades (1095-1291), London 1978.

Wolsely (Sir H.C.), Comparative of Mohammedan and Christian dates, London 1932.

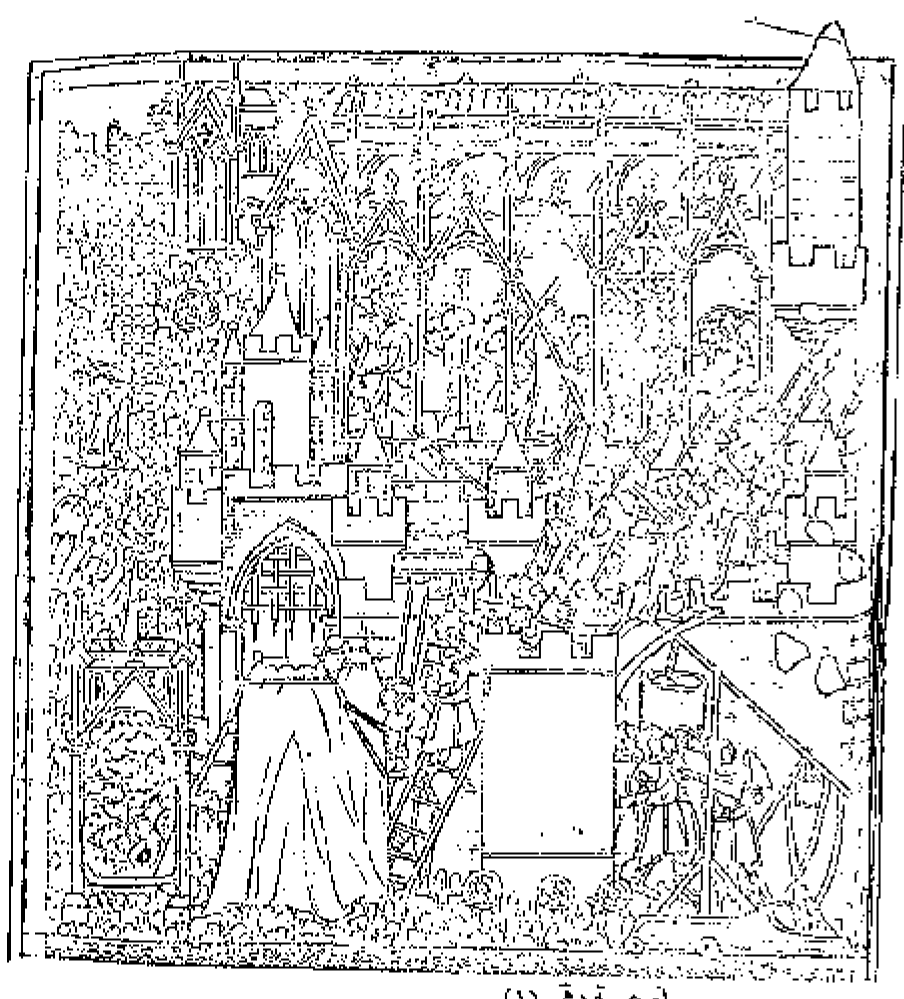
Watson (C.M.), The Story of Jerusalem, London 1912.

Youssef (J.N.), Arab awakening during the crusades in Bulletin of the Faculty of Arts of Alexandria, Alex. 1909, Vol. XXIII (pp. 1-26).




خريطة تخطيطية لمدينة بيت المقدس الفاطمية أثناء الحصار الصليبي الجنوي (٢٣ شعبان ٤٩٢هـ / ١٥ يوليو ١٠٩٩م).

X أماكن الحصار واقتحام المدينة المقدسة.



لوحة رقم (١)

حصار وسقوط بيت المقدس الفاطمية في أيدي الصليبيين والجنوية

(٢٣ شعبان ٤٩٢ هـ / ١٥ يوليو ١٠٩٩ م)

نقلا عن:

Boase, T. S. R., Kingdoms and strongholds of the crusaders, London 1971 p. 33.



لوحة رقم (٢)

اقتحام الصليبيين والجنوية مدينة بيت المقدس الفاطمية

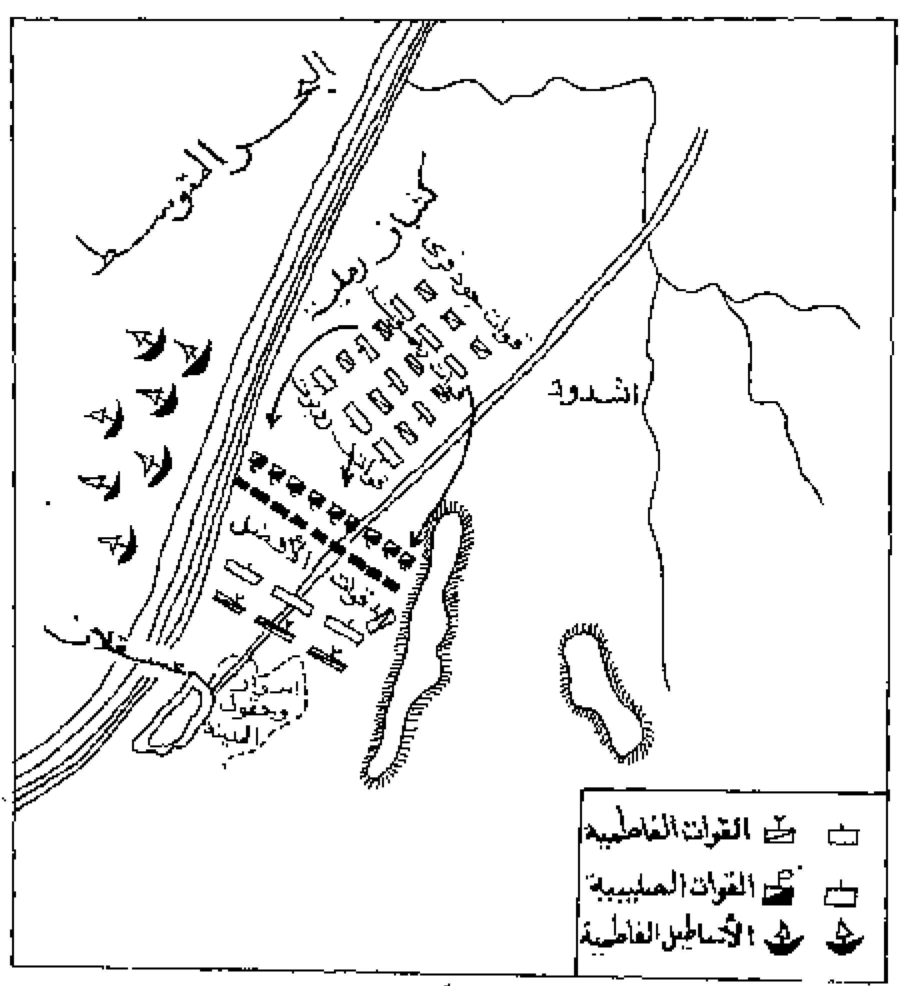
(٢٣ شعبان ٤٩٢هـ / ١٥ يوليو ١٠٩٩م)

نقلاً عن : Wise, T.,

The wars of the crusades, London 1978, p.10.

صورة للوثيقة المحفوظة بدار المخطوطات الفاطمية بلعنده

لوحة رقم (٣)

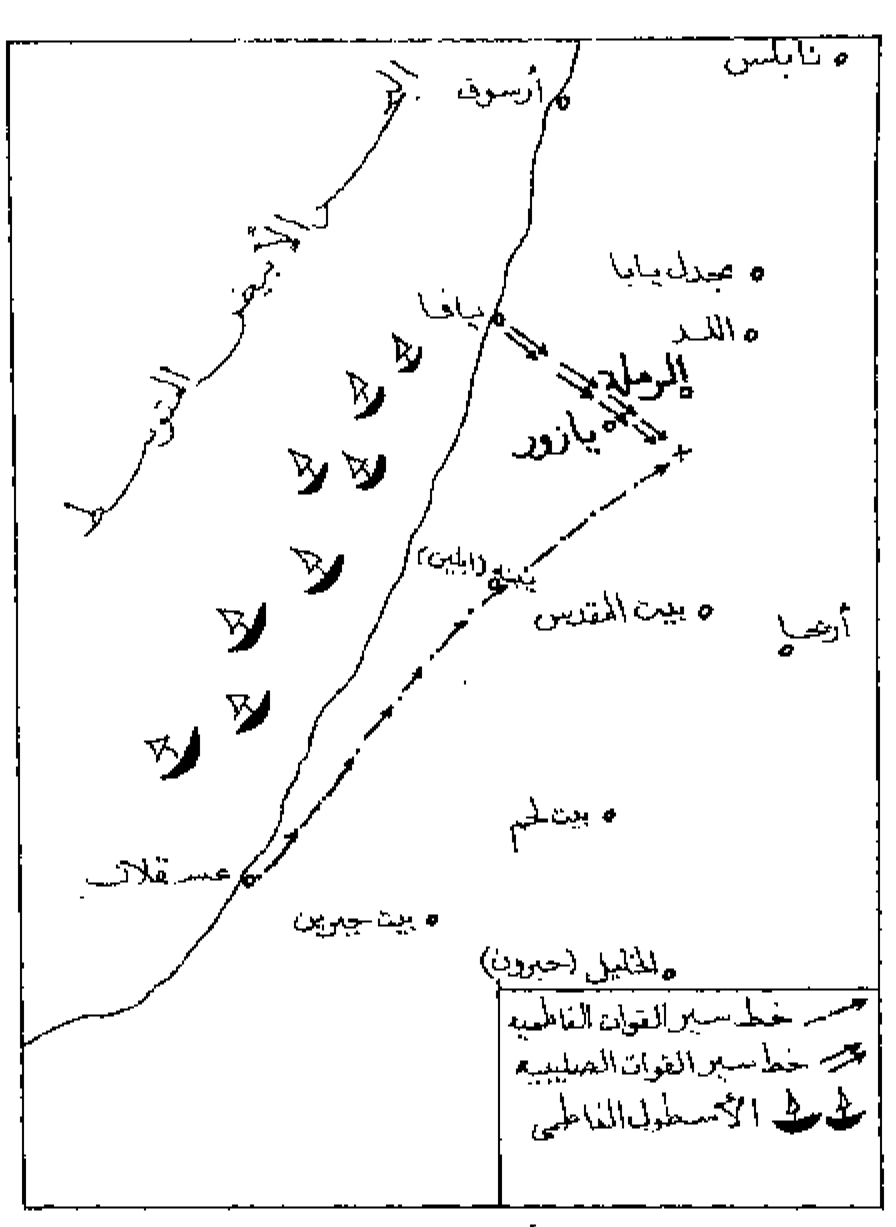



موقعة عسقلان الكبرى (٤٩٢هـ / ١٠٩٩م)
تنظيم القوات الفاطمية والصليبية المحاربة

نقلاً عن :
Oman, C. W. C.,

A history of the art of war in the middle ages, vol. I
London 1924, p. 291.

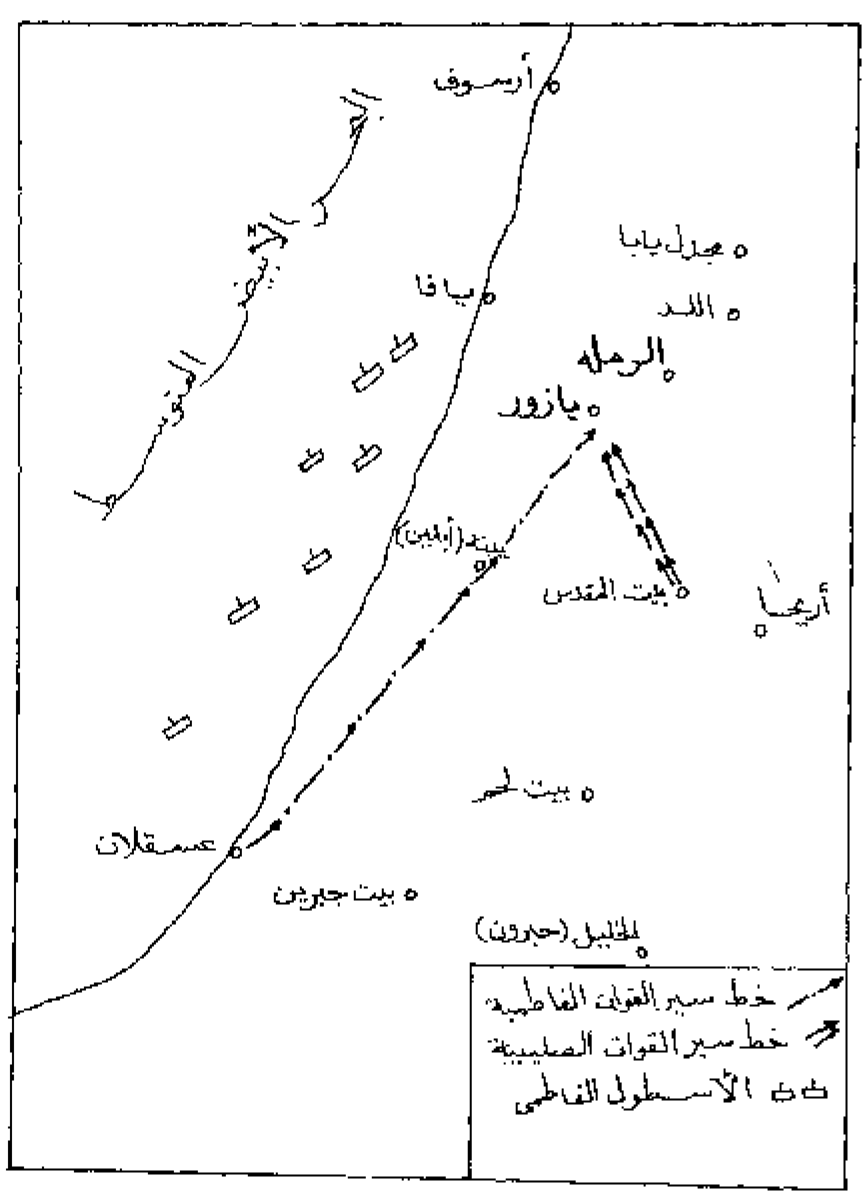
خريطة رقم (١)




موقعة الرملة الأولى طبقاً لرواية المؤرخين

(ذى الحجة ٤٩٤ هـ / سبتمبر ١١٠١م)

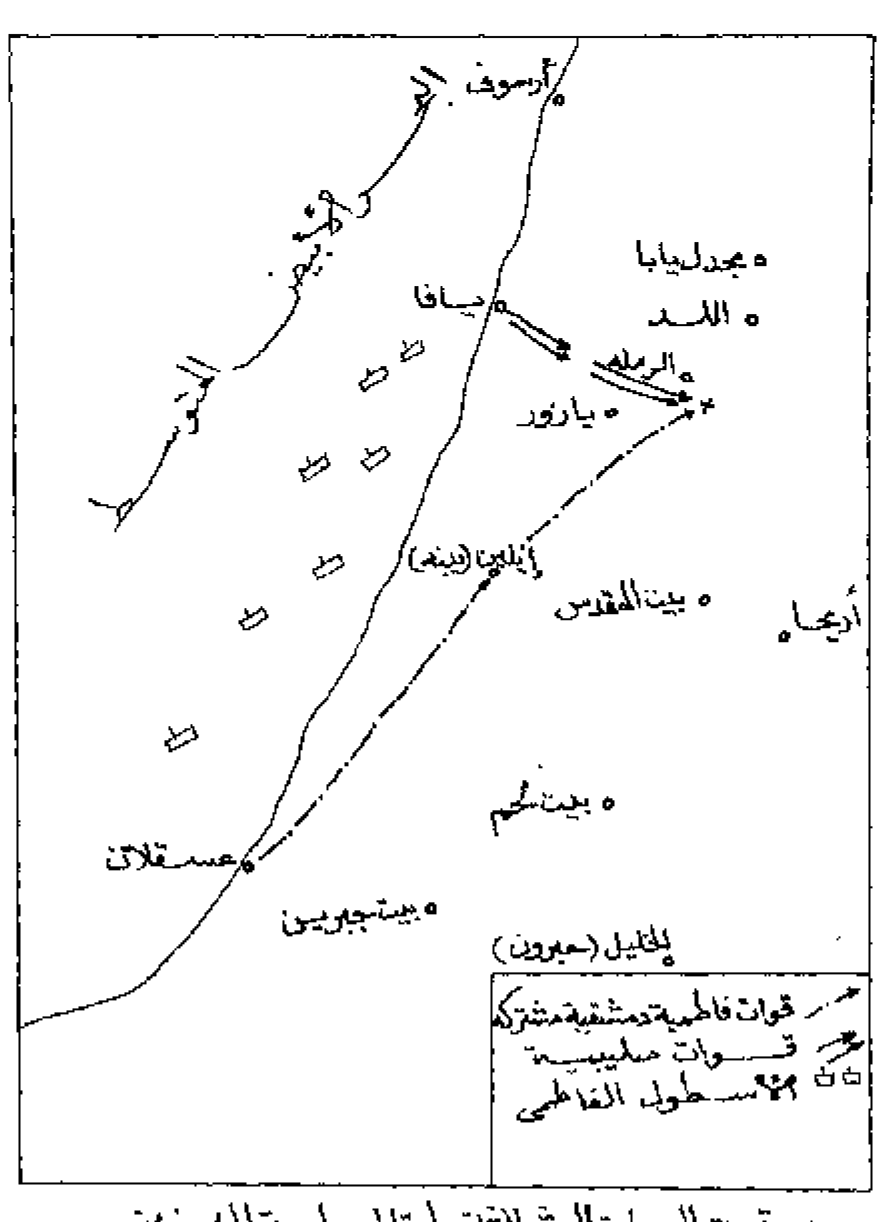
خريطة رقم (٢)




موقعة الرملة الثانية طبقاً لرواية المؤرخين

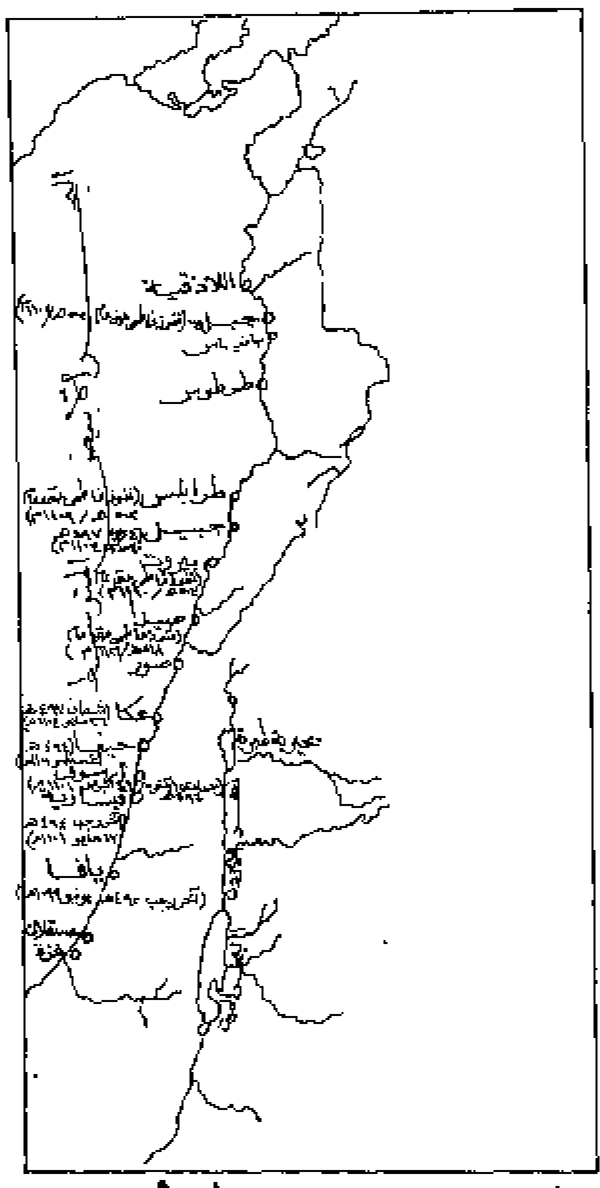
(رجب - شعبان ٤٩٥هـ/١٧ مايو ١١٠٢ - رمضان ٤٩٦هـ/يوليو ١١٠٣)

خريطة رقم (٣)

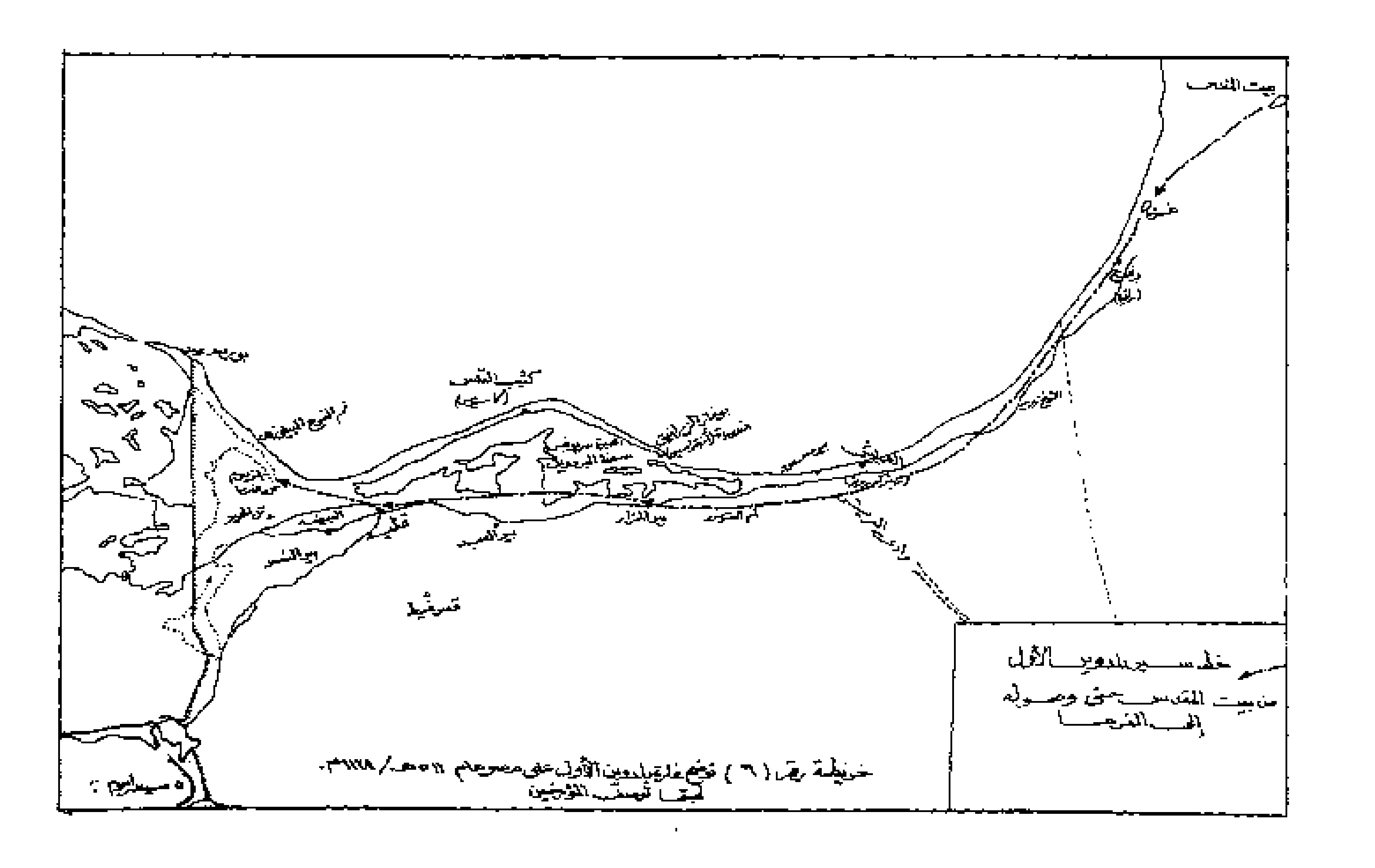



موقعة الرملة الثالثة طبقا لرواية المؤرخين
(١٤ ذى الحجة ٤٩٨هـ / ٢٧ أغسطس ١١٠٥م)

خريطة رقم (٤)



سقوط مدن الساحل الفاطمي بأيدي الصليبيين
حتى عام (٥١٥هـ / ١١٢١م)
خريطة رقم (٥)


خط سير بلدوين الأول
من بيت المقدس حتى وصوله
إلى الفرما
بيت المقدس
خريطة رقم (٦) فتح غارة بلدوين الأول على مصر عام ٥١١هـ/ ١١١٨م.

# الفهـــرس

# الفهرس

| الموضوع | صفحة |
|---|---|

المقدمة



## الفصل الأول

## الفصـــل الثانـــي



## الفصـــل الثالـــث

## الفصل الرابع

## الفصل الخامس

### الصدام العسكري بين الأفضل والصليبيين في بلاد الشام

## الفصل السادس

## ملاحـــق الدراســـة



## قائمـة المصادر والمراجـــع

## فهرست الرسوم واللوحات



## فهرست الخرائط

# The Crusading Aggression against the Islamic World

( 490 - 515 A.H. / 1097 - 1121 A.D.)

## ( New Lights on the Crusades )

By
Dr. Salah El Din M. Nawar
Lecturer of Islamic History
Faculty of Arabic and Islamic
Studies
Cairo University

1993

Dar El Daawa
(Alexandria)

**In the Name of Allah**

**The Beneficent, the Merciful «Read in the Name of Thy Lord Who Created ؛ He Created Man From a Cloit. Read and Thy Lord is the Most Generous, Who Taught with the Pen. He Taught man What He Knew Not»** (Al-'Alak: The Clot Mecca-1-5).

## An Abstract of

## The Crusading Agression against The Islamic World in the Middle Ages

This work deals the crusading aggression on Islamic world (490-515 A.H./1097-1121 A.D.). I mean by the crusading aggression the crusades that Franks by the Founks of west Europe against the Islamic East and the Northern Africa with the cross as a mask concealing the real goal, to lay hands and occupying the Holy lands in Syria and Palestine and Cotholicise them, in response to the call of the pope of Rome at the end of 5th A.H./11th A.D. The real motive of this movement is to put an end to Islamic religion in the Islamic World and establishing a great Kingdom there and expanding its frontiers at the expense of the other neighbouring countries. In this work I spared my efforts to show or clarify the brilliant role of Egypt under the Fatimid caliphate (definitely during the period of the Vizier Al Afdal Ibn Badr El Gamali (487-515 A.H./ 1094-1121 A.D.), in facing and struggling the western crusading wave as it was the centre of actions and re-actions of the Islamic World in this era.

The events and the facts proved that the cousades in the middle ages and Zionism in Palestine in the modern times are closely related and represent one of the chains of imperialism which faced the Arab world throughout the ages. In addition to this, the crusades have close relation with the modern crusades waged against the Moslems of Possna and Hersec in Balkan and in the other parts of Eastern and Western Europe. It is obvious that the modern crusading aggression has the same characterestics of the crusades in the middle ages, which has a veiled support and encouragment of the modern papacy of vatican and the western and Eastern European Churches. The massacres and the aggression against Moslems of Balkan Peninsula are prologues of the next crusades on the Islamic Near East.

AS a matter of fact, the real aim of this research work is to re-awaken and attract the attention of the Moslems in the contemporary Islamic World, (particularly in Egypt) to the risks which surround them from the modrn crusading powers: Israel, U.S.A and the other allies of western powers.

This researsh is divided into six chapters with an introduction. It included Some maps and plates for illustrations that are related closely to the subject with some appendixes from Arabic manuscripts and a document from the Fatimid chancery in London.

In conclusion, Iowe gratitude to Dr. El Sayed Abdel Aziz Salem Professor of islamic History at the Faculty of Arts of Alexandria for his guidance, help kindness.

**Salah El Din M. Nawar**

Alexandria (1493 A.H./1992 A.D.)